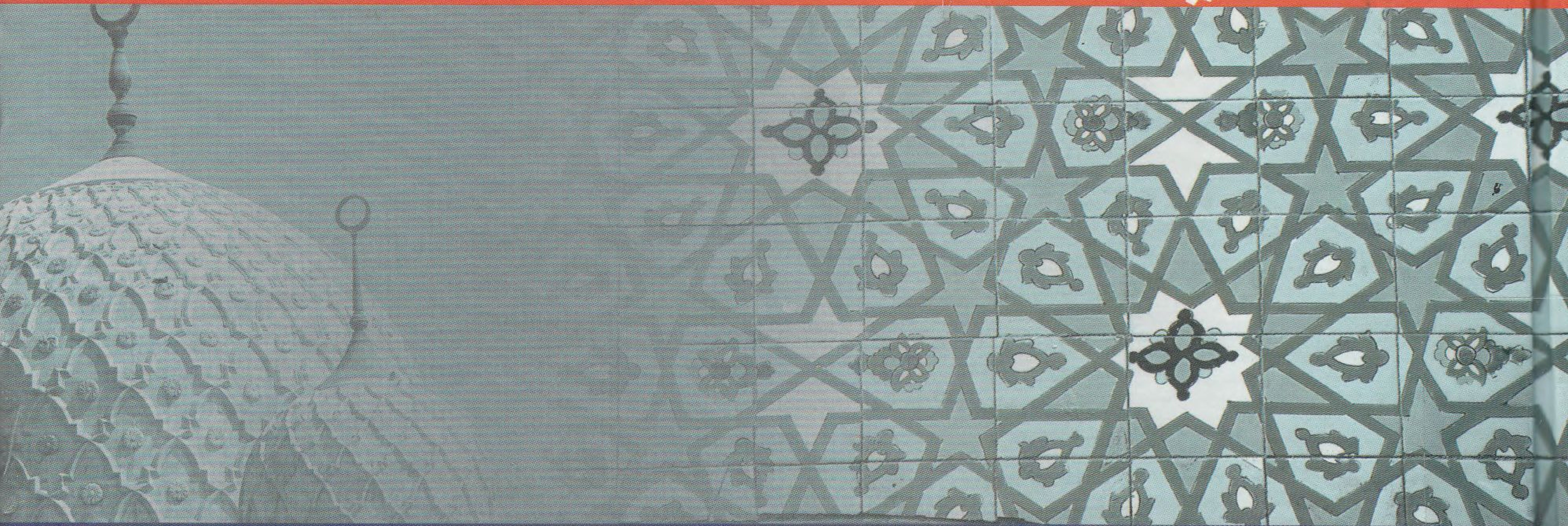
تاريخ الحروب الصليبية ٢

عصر الدولة الزنكية

ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي



الدكتور علي محمد الصلابي

مؤسسة اقرأ

تاريخ الحروب الصليبية (٢)

عصر الدولة الزنكية

ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود «الشهيد» في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبى

الدكتور

علي محمد محمد الصَّلاَّبي



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٢٩٧٨/٢٠٠٦م

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الصلابي، علي محمد.
عصر الدولة الزنكية/ علي محمد محمد الصلابي. ط١- القاهرة
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٦
(٦٤٠ص)، ٢٤ سم تدمك: ٠- ٩٨ - ٦١١٩ - ٩٧٧
١- مصر - تاريخ - العصر الأيوبي (١١٧١-١٢٥٠)
٢ - العنوان ٩٥٣٫٠٧٣٩٣

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٠١١٧٥٤٤٧
www.iqraakotob.com
E-mail:info@iqraakotob.com

الإهـــــداء

إلى كل مسلم حريص علـى إعـزاز دين الله ونصرته، أهـدي هـذا الكتـاب سائلاً المولى، عز وجل، بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا، فلله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وعهد الدولة الأموية، وعهد السلاجقة، وقد صدر منها؛ السيرة النبوية، وأبو بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي رضي الله عنهم، والدولة الأموية، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمر بن عبد العزيز رحمه الله، ودولة السلاجقة وبروز المشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، والدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ودولتا المرابطين والموحدين، والدولة الفاطمية العبيدية، والثمار الزكية للحركة السنوسية، وفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم. وقد سميت هذا الكتاب «عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود «الشهيد» في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي» وتعتبر حلقة مهمة من ضمن سلسلة الحروب الصليبية والتي نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن تكون لوجهه خالصة ولعباده نافعة ويطرح فيها القبول والبركة ويرزقنا حسن القصد وإخلاص النية لوجهه العلي الكبير، ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية المستهدفة.

وهذا الكتاب يتحدث عن الزنكيين، من حيث أصول أسرتهم وعن جدهم آق سنقر ومكانته لدى السلطان ملكشاه، وسياسته الداخلية والخارجية في حلب حين تولي إمارتها، وعن نشأة عماد الدين زنكي وبزوغ نجمه السياسي ودور بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه أميراً على الموصل، وعن أهم صفاته، كالشجاعة، والهيبة، والدهاء، والمكر والحيلة، واليقظة والحذر، والذكاء، وقدرته على اختيار الأكفاء من الرجال، ووفائه لأصحابه، وغيرته على

محارمهم، وعدله، وعبادته وهواياته، ويتحدث عن سياسته الداخلية، والنظم الإدارية والعسكرية، وعلاقته بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وتوسع عماد الدين في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة، وعلاقته بالأكراد، كبني أيوب حكام تكريت، والأكراد الحميدية والعكارية، والمهرانية والبشنوية، وعلاقته بالإمارات المحلية في ديار بكر، ومحاولاته ضم دمشق سواء بالتفاهم أو بالحصار أو بالسياسة. وتكلمت عن جهاده ضد الصليبيين، وتطرقت لحال المسلمين قبل مجيئه للإمارة، وسياسته مع الصليبيين وفتحه للحصون والقلاع وسعيه الحثيث لتوحيد الجبهة الإسلامية وقيادتها لمقاومة الاحتلال الصليبي، وذكرت مناصرة عماد الدين لبني منقذ عندما تعرضت إمارة شيزر لمحاصرة الجيش البيزنطي والصليبي، ومواقفه البطولية في مقارعة الغزاة وأساليبه التي استخدمها ضدهم سواء نفسية أو تعبوية من طلب النجدة من مختلف المناطق واستخدم سهام الحيلة والدهاء لتعميق الخلاف بين إفرنج الشام وملك الروم البيزنطي وقد حقق نجاحاً منقطع النظير في هذا الميدان، وفي نهاية المطاف اضطر الامبراطور البيزنطي فك حصاره عن شيزر بفضل الله ثم جهود عماد الدين العسكرية، وكانت من أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الحملة تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية، وقد انهمك عماد الدين بعد ذلك في إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية، كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين، وأشاد الشعراء بدفاع عماد الدين زنكي عن شيزر فقال ابن قسيم الحموى في مدحه:

بعزمك أيها الملك العظيم ... تُذِلُّ لك الصّعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الرُّوم لما ... تَبيَّنَ أنه الملك الرحيم

فجاء يطبّق الفلوات خيلاً ... كأن الجَحْفَل الليلِ البهيم

إلى أن قال:

أيلتمس الفرنجُ لديك عفواً ... وأنت بقطع دابرها زعيم

إذا خطرت سيوفك في نفوس ... فأوّل ما تفارقها الجسوم

واستطاع عماد الدين بفضل الله ثم بجهوده الميمونة أن ينتزع من الصليبيين إمارة الرها التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م بزعامة بلدوين الأول وكان تحريرها في عام ٥٣٩هـ، وقد ساعد عماد الدين زنكي عوامل عديدة في فتح الرها من أهمها؛ تنامي حركة الجهاد الإسلامي في عصره وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب أن

التجارب السابقة أثبت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أمراء الموصل خلال فترة تزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مثّل موتًا بطيئاً لها إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين العسكرية الذي فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن أطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجمهم، فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها ووجه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم. لقد حقق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه وكان لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

١- تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامي وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحافًا بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما الأمير مودود بن التونتكين، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم فإنها البداية، واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء.

٢- تأكد منطق التاريخ أن مثل تلك الكيانات الصليبية غير الشرعية لن تستمر على الأرض الإسلامية، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل، وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة الروم، وكذلك بلاد فارس.

٣- كما أدى سقوط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق والرحم الأم، فلم يكن ذلك الغرب يسمح لامتداده السياسي، والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لابد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها، وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٢هـ وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية،

وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين، وقد مدح الشعراء الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين لفتحه إمارة الرها، فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرها فقال:

بجيش جاش بالفرسان حتى ... ظننت البرَّ بحراً من سلاح
وألسنة من العذبات حُمْر ... تخاطبنا بأفواه الرِّياح
وأروع جيشه ليلٌ بهيم ... وغُرَّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن ... قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلباً ... وهيبته جناحاً للجناح

وهنّأ الشاعر ابن القيسراني القاضي كمال الدين الشهرزوري بهذا الفتح فقال:

إن الصفائح يوم صافحت الرُّها ... عطفت عليها كل أشوس ناكبِ
فتح الفتوح مبشّراً بتمامه ... كالفجر في صدر النَّهار الآيبِ
لله أية وقفية بدرية ... نُصرت صحابتها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه ... كم ناهضٍ بالحرب غير محارب
وأمدكم جيشُ الملائك نُصرة ... بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدَّبور وقدتم ريح الصبا ... جُند النبوة هل لها من غالب

إلى أن قال:

وإذا رأيت الليث يجمع نفسه ... دون الفريسة فهو عين الواثب

وكان فتح الرها بداية لما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة، وقد استطاع عماد الدين أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسة مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واعٍ أدرك الخطر الذي حاق بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة واستطاع بحنكته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه دولته من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين. ويعتبر عماد الدين زنكي أول قائد سلجوقي

قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين ٥٠٢هـ- ٥٠٧هـ وإيلغازي وبلك الأرتقيين ٥١٨-٥٢٠هـ، وقد مهد عماد الدين زنكي الطريق لقادة التحرير من بعده فلم تكن جهود ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي سوى إتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق، وبعد استشهاد عماد الدين تولى القيادة ابنه البطل الفذ والمجاهد الشهير نور الدين محمود الشهيد الملك العادل، فذكرت في هذا الكتاب سيرته وترتيبه أوضاع البيت الزنكي مع أخيه، سيف الدين غازي، واتفاقهم على توحيد الكلمة ومناصرة بعضهم البعض ضد الأعداء، وأصبح سيف الدين غازي أمير الموصل ونور الدين محمود أمير حلب، وتوسعت في ذكر مفتاح شخصية نور الدين زنكي وشعوره بالمسؤولية وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين وخوفه من محاسبة الله له وشدة إيمانه بالله واليوم الآخر، وقد كان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاّب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها؛ الجدية، والذكاء المتوقد، والشعوربالمسؤولية، والقدرة على مواجهة المشاكل والأحداث، ونزعته للبناء والإعمار، وقوة الشخصية ومحبته لله ومحبة الناس له واللياقة البدنية العالية، وتجرده وزهده الكبير، حتى قال الشاعر فيه:

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ... ومال بها عن الأموال زهدًا

وقال فيه آخر:

لازلت تقفو الصالحين مسابقًا ... لهم وتُطْلُعُ خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد ملك في الذي ... فيه تفاتُت يَغْربُ ونزار

وتحدثت عن شجاعته التي قال الشاعر فيها:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه ... كالرّمح دلّ على القساوة ليثُهُ
ووراء يقظته أناة مُجرّب ... لله سطوة بأسه وسُكُونه

وقال آخر:

متهلل والموت في نبراته ... يرجى ويرهب خوفه وعقابه

وتكلمت عن محبته للجهاد والشهادة، فقد ذكر العماد الأصفهاني فقال: حضرت عند

نور الدين بدمشق – في شهر صفر – والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها ويطريها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها وعندما دخل الموصل وغادرها بعد عشرين يوما سأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني هاهنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد، وكان رحمه الله يتعرض للشهادة وكان يسأل الله أن يحشره من بطون السّباع وحواصل الطير، وبينت لوحات رائعة من عبادته، فقد كان يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجوها ويحافظ على الجماعة وكان كثير الابتهال إلى الله عز وجل في أموره كلها، وقد اشتهر بالإنفاق الواسع والكرم العظيم وكانت له أوقاف في جميع مجالات الحياة الاجتماعية على المساجد والمدارس والمستشفيات، والأرامل والأيتام.. إلخ.. وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال أحدهم:

يا أيها الملك المنادي جوده	في سائر الآفاق هل من معسر
ولأنت أكرم من أناس نوّهوا	باسم ابن أوس واستخصوا البحتري
ذلتْ لدولتك الرقاب ولا تزل	إن تغز تغنم أو تقاتل تظفر

ومدحه أسامة بن منقذ بقوله:

في كل عام للبرية ليلة	فيها تُشُبُّ النارُ بالإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى	ناران: نار قرى ونار جهاد
أبداً يصرفها نيداه بأسه	فالعام أجمع ليلة الميلاد
مَلِك له في كل جيد منة	أبهى من الأطواق في الأجياد
أعلى الملوكِ يداً وأمنعهم حِمًى	وأمدهم كفاً ببذل تلاد
يعطي الجزيل من النوال تبّرعاً	من غير مسألة ولا ميعاد

وأشرت إلى أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين محمود، وكيف اتخذ من عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد اقتنع بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي ودورها في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية إسهام كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة، ولذلك حرص على معرفة هذه السيرة المباركة كي يقتدي بها في إدارته للدولة، ولقد

آتت معالم التجديد والإصلاح الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية وكانت أهم معالم التجديد في دولة نور الدين:

١- **الحرص على تطبيق الشريعة:** فقد جعل من مقاليد الحكم في الدولة أداة مسخرة لخدمة الشريعة وتطبيق أحكامها وقيمها ومبادئها في واقع الحياة، ودعا إلى تحكيم الشريعة بحماس منقطع النظير وقال في هذا الصدد: ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق والأذى الحاصل منها قريب أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل. وقال: نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها. فقد جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإن كثيراً من الحكام قبله كانوا قريبين من أفعال الجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه. فقد أصدر أوامره إلى كل موظفيه بالالتزام بأحكام الشرع ومنع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده وأسقط كل ما يدخل تحت شبهة الحرام وإزالة كل ما يندّ عن محجة الشريعة البيضاء وينحرف إلى بؤر الظلام، وكان ينزل العقاب السريع العادل بكل من خالف أمره وكل الناس عنده فيه سواء. وقد مدحه الشعراء فقال فيه ابن منير:

كم سيرة أحييتها عمريّة ... رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازماً ... بأقلها تستعبد الأحرار
أما نهارك فهو ليل مجاهد ... والليل من طول القيام نهار

أيها الأخوة الكرام يا أبناء الإسلام، يا من همهم النهوض الحضاري لهذه الأمة الجريحة، علينا بالسعي الدؤوب في مجتمعاتنا ودولنا حتى تأخذ الشريعة الغراء مكانتها وحقها من الاحترام والتقدير والتطبيق، فآثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، ومن تلك الآثار: التمكين في الأرض والأمن والاستقرار والنصر والفتح المبين والعز والشرف وانزواء الرذائل، وقد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها كما سنرى

ذلك في سيرة نور الدين محمود وعصره بإذن الله تعالى.

إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال الشاعر أحمد رفيق المهدوي الليبي:

فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح

وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد عليه بالأرواح

٢- ومن معالم التجديد بناء دولة العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة: فقد جعل من العقيدة الإسلامية الصحيحة العمود الفقري لدولته، وكان رحمه الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة، قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل لأن شعار الرفض كان ظاهراً [(١)]، وكان نور الدين يتحرى سنة النبي ﷺ في أموره كلها ومن أعظم إنجازات دولته إسقاط الدولة الفاطمية بمصر، وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود حتى خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعية مصر للخلافة العباسية السنية، وكان رأى نور الدين في الدولة الفاطمية العبيدية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدع[(٢)] ويقول فيها: وطالما بقيت مائتين وثمانين سنة مملوءة بحزب الشياطين.. حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض[(٣)]. وسيري القارئ الكريم بإذن الله فقه نورالدين في إزالة الدولة الفاطمية في هذا الكتاب.

واستفاد نور الدين من خريجي المدارس النظامية وتبناهم في مدارس الدولة النورية وفتح لهم الأبواب لدعم المذهب السني ومناهضة الفكر الشيعي الرافضي، وصبغ الدولة بالكتاب والسنة، ووضع مشروعاً فكرياً ثقافياً عقائدياً تربوياً تعليمياً استهدف به رعايا دولته ولم يفرق بين علماء الشافعية والأحناف والحنابلة والمالكية وأهل الحديث وشيوخ التصوف

---

(١) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠.

(٣)كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣١.

السني وغيرهم من أبناء الأمة، وتحرك بهم من خلال جبهة عريضة تنضوي تحت راية أهل السنة والجماعة في مقاومة الأخطار الشيعية الرافضية، وقد تحرك نور الدين في مشروعه الآنف الذكر من خلال مؤسسات المجتمع المدني، كالكتاتيب والمدارس والمساجد، والرباطات وأخذ بكل الأسباب المادية والمعنوية المعينة على تحقيق الهدف المنشود من صبغ الدولة النورية ورعايا الدولة من المسلمين بالكتاب والسنة. وقد أثمرت جهوده في بلاد الشام وعلى سبيل المثال في حلب، فقد تسابق أمراؤه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة الإمامية والإسماعيلية. وقد أحصى المؤرخ عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ) مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعا وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى واحد وثلاثين مقراً للصوفية. وقد آتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام ٦٠٠هـ وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون وبأفعال السنة يتظاهرون. وهذا بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع في هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة، وهذا يدل على أهمية التربية العقدية والفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

ومما ساعد نور الدين محمود على تحقيق برنامجه الإصلاحي أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له.

٣- ومن معالم التجديد في دولة نور الدين حرصه على إقامة العدل: فقد كان قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً قل نظيره حتى اقترن اسمه بالعدل، وسمي بالملك العادل ومدحه الشعراء على ذلك فقد قال العماد الأصفهاني في عدله:

يا محيي العدل الذي في ظله ... من عدله رعت الأسود مع المَها
محمودٌ المحمودُ مِن أيامه ... لبهائها ضحك الزمان وَقَهْقَها

٤- ومن معالم التجديد في دولة نور الدين اهتمامه بالعلماء فقد فتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم، فقدمهم على الأمراء وبذل لهم العطاء وشجع المتميزين منهم إلى الهجرة لدولته وقد شارك العلماء معه في الجهاد ضد الصليبيين بالكلمة والسيف والتأليف والوعظ، كما سنرى في هذا الكتاب بإذن الله.

هذا وقد طور نور الدين النظام الإداري لدولته وحرص على صبغته بالصبغة الإسلامية، واعتمد في إدارته على الشورى وابتعد عن الانفراد بالقرار بشكل كبير، وقدم المصلحة العامة علي الانفعالات، وكان مثالاً رائعًا في الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام، وحرص على توفير الأمن للرعية وضمن لهم الحريات العامة، كحرية الرأي والمحافظة على كرامة الفرد، وأفردت مبحثاً عن النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية، فبينت مصادر دخل دولة نور الدين، كنظام الإقطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفداء الأسرى والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، وأثر الأمانة الكبيرة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة على خزانة الدولة، وأثر الأمن والاستقرار على انتعاش الحركة التجارية، ومساهمة الأثرياء والمعاهدات والاتفاقات التي ألزم بها الخصوم لدفع الأموال للدولة الزنكية، وتحدثت عن دعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وأثر السياسة الزراعية والصناعية والتجارية في تقوية اقتصاد الدولة؛ واهتم نور الدين بالشرائح المنتجة كالفلاحين، وأصحاب الأموال كالتجار، فقد حرص على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرض دولته على نحو يدعم اقتصاديات الدولة ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس الشرعية لا أن تذهب إلى خارجها، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية القوى الصليبية المجاورة، وقد وجد كبار التجار في نور الدين قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل. وعندما دخل نور الدين مدينة دمشق حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة وقد استفاد التجار من هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية وكان من سياسة نور الدين الاقتصادية والمؤيدة بالشرع الإسلامي إلغاء الضرائب، وأخذ نور الدين في تنفيذ هذه السياسة منذ فترة مبكرة، وكان حيناً بعد حين يصدر الأوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب «اللاشرعية» التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين عاصروه وكانت شعبيّته تزداد باطّراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كانت يأمر بإلغائها وهدد من لا يطبق ذلك

من المسؤولين: ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلّها حلّ دمه، ومن قرأه أو قرئ عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه ممضياً لما أمر به. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجيء من وجوه الحرام.

وسعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لتغطية شتى الحاجات، ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل وانتهاء بقضايا الروح ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة والفكاك من الأسر وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات والملاجيء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة.

وقد لاحظت في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها ومنها على المستوى الشعبي ومنها على مستوى الوزارة، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك الوزارة العباسية في عهد يحيى بن هبيرة الوزير الصالح والعالم الرباني، وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني من زعماء الدعوة الشعبية والإصلاح العام في عاصمة الخلافة العباسية، فقد كانت عامّة الجماهير متعطشة إلى شخصية روحية رفيعة، تكون على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره تؤثر في المجتمع بدعوتها ومواعظها وتزكيتها، وتوقظ في النفوس الإيمان وتحيي فقه القدوم على الله وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلو الهمة وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله، وتدعو إلى التوحيد الكامل والدين الخالص. ولقد تحققت هذه الأهداف في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني واستطاع أن يؤسس مدرسة أسهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ومواجهة التحديات العقائدية والفكرية والاقتصادية، والاجتماعية وأسهمت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في

البلاد الشامية. وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد وحوّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين روحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوفر لهذا المنهج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون، فالتحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه الشيخ عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثير كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي [1].

وتعتبر تعاليم الشيخ عبد القادر ومدرسته ذات أثر ملموس أسهم في نهوض الأمة في عهد الزنكيين والأيوبيين وكان الشيخ عبد القادر على أصول منهج أهل السنة في الأصول والفروع وكانت له جهود مشكورة للتصدي للمذهب الشيعي الرافضي، وإعداد الأمة للجهاد ضد الصليبيين الغزاة، وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر واعتبره من أئمة الصوفية والمشايخ المشهورين الذين كانوا على الصراط المستقيم وإنه: من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وشهد له بأنه من الشيوخ الكبار [2]، ثم شهد له أنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية [3].

وفي الفصل الأخير من الكتاب تحدثت عن سياسة نور الدين الخارجية وعلاقته مع الخليفة المقتفي لأمر الله والوزير يحيى بن هبيرة والخليفة المستنجد بالله ثم المستضيء بالله، وتكلمت عن جهود نور الدين وأخيه سيف الدين في التصدي للحملة الصليبية الثانية وحمايته لدمشق من الغزاة وأهم نتائج تلك الحملة، وعن سياسته في ضم دمشق، وكيف تعامل مع القوى الإسلامية والأسر الحاكمة في بلاد الشام والجزيرة والأناضول، وعن سياسته تجاه القوى المسيحية، وعلاقته مع مملكة بيت المقدس، وإمارة الرها، وأنطاكية وطرابلس، وعن المعارك التي خاضها والحصون التي فتحها وعن علاقته بالامبراطورية البيزنطية واستخدامه لفقه السياسة الشرعية في زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده حتى لا يجعل دولته بين عدوين الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال. واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية،

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣٩.
(٢) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٤٦٣). (٣) المصدر نفسه (١٠/ ٤٨٨).

ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية أي بجميع القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية. والملاحظة المهمة في فقه نور الدين جهده الكبير في المفاوضات مع الاستعداد العظيم لحشد الجيوش واستنفار الأمة للتصدي، ولقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق أسفينًا بين التحالف البيزنطي والصليبيين، وهذا لم يأت بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فعلم نور الدين محمود بأن مهمته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين، فإنه وازنْ بين الإطاحة بمشروعه الكبير على يد الحملة الصليبية البيزنطية وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الأخير، علماً بأن سلاجقة الروم في تلك المرحلة كانوا كالدولة المستقلة ولم تندمج في مشروع نور الدين، بل كانت تعتدي على حلفاء الدولة الزنكية وأملاكهم، واستطاع نور الدين إيقاف الحملة بعد عقد معاهدة بين الدولة النورية والامبراطورية البيزنطية، وكان من أعظم النتائج التي ترتبت على هذه الخطوة، حفظ المشروع الإسلامي النوري من التصدع أو الضعف أو الزوال، وما كان للدبلوماسية النورية أن تنجح لولا الله ثم مساندتها بقوة عسكرية ضاربة استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي، الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م.

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي على أصول الإسلام الصحيح، من عقيدة سليمة، ومرجعية واضحة تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي الخلفاء الراشدين، له القدرة على استيعاب طاقات الأمة، وعلى رأس ذلك المشروع قيادة ربانية واعية تستطيع أن تستفيد من إمكانيات الأمة وتستوعب فقه المبادرة كي تفجر طاقاتها وتوجهها نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة، فيأتي دور القيادة لتربط بين الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها وفق رؤية نهوض شاملة تتحدى كل العوائق وتسد كل الثغرات التي تحتاجها الأمة في النهوض وتبث روح الأمل والتفاؤل بين الناس وتحضهم على التمسك بعقيدتهم وقيمهم ومبادئهم، والترفع عن حطام الدنيا وإحياء معاني التضحية وشحن الهمم، وتقوية العزائم في نفوس النخب والجمهور العريض في الأمة، وتأخذ بها رويداً رويدًا نحو الأهداف المرسومة لمشروع النهوض وعلينا أن نتذكر قول الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

هذا وقد تحدثت عن التفكير الاستراتيجي عند نور الدين، وأهمية صلاح أولى الأمر في نجاح المشروع المقاوم للتغلغل الباطني والغزو الصليبي وعن الاستراتيجية العسكرية لنور الدين، كالتركيز على النوعية والفاعلية، والتعبئة العامة للأمة وانهاك العدو واستنزاف قوّاته، وتطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية، كتحديد الهدف، والعمل التعرضي، والقدرة على الحشد والمناورة، ووحدّة القيادة وعنصر المفاجأة، ودور الاستخبارات، ومبدأ التقّرب غير المباشر، واستخدامه للحرب النفسية في رفع معنويات الأمة، وإضعاف همم العدو.

وأفردت المبحث الأخير عن فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية، فوضحت جذور الشيعة الإسماعيلية ونشأة الدولة الفاطمية وتكلمت عن جرائمها في الشمال الأفريقي، كغلو بعض دعاتهم كعبيد الله المهدي، وتسلطهم وظلمهم وتحريمهم الإفتاء على مذهب الإمام مالك، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة، ومنع التجمعات، وإتلاف مصنفات أهل السنة، ومنع علماء أهل السنة من التدريس، وتعطيل الشرائع وإسقاط الفرائض، وإزالة آثار خلفاء السنة، ودخول خيولهم المساجد، وتحدثت عن أساليب أهالي الشمال الأفريقي في مقاومة الفكر البدعي الشيعي الرافضي المنحرف عن الكتاب والسنة، كالمقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، والمقاومة عبر التأليف، ومقاومة شعرائهم، وأشرت إلى انتقال المعز لدين الله الفاطمي من الشمال الأفريقي ودخوله مصر لكي يتخلص من المقاومة والثورات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في الشمال الأفريقي لمدة خمسة عقود متتالية رافضين المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الباطني، معلنين عقائد الإسلام الصحيح، فاستفاد المعز لدين الله الفاطمي من ضعف الحكم الأخشيدي التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة ودفع إليها جيوشه المحمومة بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين، وجوهر الصقلي هذا الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة ٣٦١هـ ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي وبعد الانتقال إلى مصر، بدأت المقاومة السنية في الشمال الأفريقي تقوى مع مرور الزمن حتى استطاع المعز بن باديس العنهاجي في ٤٣٥هـ عندما تولى الحكم أن يطهر الشمال الأفريقي من الشيعة الرافضة، وبدأ في حملات تطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يطعن ويسب أصحاب رسول الله وأوعز للعامة وجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فسارع أهل السنة في الشمال الأفريقي للتخلص من الشيعة الرافضة الإسماعيلية وتصفيته من المعتقدات الفاسدة في ملحمة من ملاحم الصراع بين الحق والباطل والهدى الضلال، وأشرت إلى جهود السلاجقة في حماية العراق وبلاد الشام من التشيع الرافضي، ودور المدارس النظامية في الإحياء السني وتقليص المد الشيعي الرافضي وإعداد الكوادر اللازمة لقيادة حركة المقاومة ضد الغزاة الصليبيين، وبينت جهود نور

الدين السياسية والعسكرية والفكرية للقضاء على الدولة الفاطمية وقد تم ذلك على يدي صلاح الدين الذي تدرج في إلغاء الخلافة الفاطمية وفق رؤية استراتيجية وضعها القاضي الفاضل بالتعاون مع القيادة النورية وقد تم بيانها في هذا الكتاب.

إن من الدروس المهمة من هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة في عهد الزنكيين، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق، وهي المشروع الصليبي والذي تتزعمه الكنيسة من عهد أوربان الثاني والمشروع الشيعي الرافضي بقيادة الدولة الفاطمية بمصر والمشروع الإسلامي الصحيح وحامل لوائه نور الدين زنكي، فكانت المحاور التي سار عليها أهل السنة دولة وشعباً، تعميق الهوية العقائدية السنية والإحياء الإسلامي الصحيح في نفوس الأمة، والتصدي لشبهات المذهب الشيعي، وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين، وكانت المحاور متداخلة من حيث السير إلا أن تحرير بيت المقدس والقضاء على الصليبيين في معركة حطين لم يتم إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية سياسياً وعسكرياً وقد سبقها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السني.

إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس وانتزاع المدن والقلاع والحصون من الصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزم.

وعلى كل من يتصدى لقيادة الأمة في المواقف السياسية والتصريحات الإعلامية عليه أن يدرس كتاب ربه وسنة نبيه وهدى الخلافة الراشدة وحركة التاريخ الإسلامي وحقيقة الصراع بين هذه المشاريع المتباينة، كي يسهم في توعية الأمة، وإزالة الجهل عنها ومعرفة أعدائها.

إن ما يحدث في العراق ولبنان من صراع بين المشروع الصليبي والصهيوني والإيراني الشيعي وعدم التركيز والدعم المطلوب للمقاومة الإسلامية في العراق وفلسطين يبرهن على أن الكثير من القيادات السياسية والفكرية والشرعية والإعلامية غير مستوعبة لما حدث من صراع بين المشاريع في حركة التاريخ، ويدل على ذلك ما حدث في لبنان من صراع بين المشروع الإيراني الشيعي والمشروع الأمريكي الصهيوني حيث أهملت المقاومة الإسلامية العراقية السنية والمقاومة الإسلامية الفلسطينية إعلامياً وسياسياً ومادياً لصالح المشروع الإيراني الشيعي.

إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لابد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستلخص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرف مستقبلها، وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الصراع والحوار والجدال والدعوة مع اليهود والنصارى

والملاحدة والعلمانيين والمبتدعة.. إلخ، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد، والثقافات والمناهج وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد، وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد السيف، واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي تلد الكتائب.

إن تجربة نور الدين محمود ثرية وهي تجيب عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية، والإقليمية والعالمية وهذه التجربة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً، تماماً كما كانت تجربة عمر بن عبد العزيز من قبله على إن الإسلام قادر في أية لحظة تتوافر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول والذكاء الواعي، على إعادة دوره الحضاري والقيادي وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. هذا وقد كانت علاقتي الروحية مع نور الدين محمود منذ كنت طالباً بالمدينة المنورة، حيث إنني كنت ممن تتلمذ على أشرطة الشيخ الدكتور سفر الحوالي شفاه الله من كل سوء ومن ضمنها كان الحديث عن نور الدين محمود الشهيد في شريطين، فتعلقت بسيرة هذا القائد الفذ، وقد حث الشيخ في محاضرته طلاب العلم والعلماء على كتابة سيرته والبحث فيها ومن هنا كانت نقطة البداية وفي إحدى زياراتي للمدينة النبوية بعد تخرجي زرت أستاذنا وشيخنا الدكتور يحيى إبراهيم اليحيى وحدثني عن نور الدين محمود وطلب مني أن أبحث في سيرته فإنها تستحق الدراسة على حد قوله، وازدت قناعة بالموضوع إلا أن انشغالي بالسيرة وتاريخ صدر الإسلام ومرحلة الدراسات العليا منعني من تحقيق هذا الهدف النبيل، الذي لم يغب عن ذاكرتي، ووجداني وأصبح من ضمن أهدافي الرئيسية في الحياة ودخل في أورادي ودعواتي بأن يوفقني الله لتحقيقه وعندما أقمت باليمن السعيد الحبيب، كان من ضمن شيوخي الذين طلبوا مني الكتابة في مرحلة الحروب الصليبية الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان، الذي استفدت منه كثيراً في عهد الخلافة الراشدة ولا أنسى أبداً شيخي وأستاذي ياسين عبد العزيز اليماني الذي فتح لي بيته للحوار والنقاش وأعطاني من وقته الثمين الساعات الطوال، وفي زيارتي للشيخ الدكتور القرضاوي حثني على الكتابة في سيرة نور الدين محمود واعتبرها من الشخصيات التي لم تعط حقها في التاريخ وأما شيخي وأستاذي الدكتور سلمان العودة فقد قال لي: نادراً ما تتاح الفرصة للبحث في القضايا التاريخية مثل ما أتيحت لك فعليك بالإخلاص لله وأن تتقيه فيما تكتب، وعندما قرأ خطتي في إعادة كتابة التاريخ، شجعني على المضي فيها وقد استفدت من حواراتي ومناقشتي معه في الأمور التاريخية والفكرية، وكان يستقبلها بسعة صدر وبكل أريحية كعادة الشيخ مع طلابه

وتلاميذه. كما أن لأحداث العراق تأثيراً مباشراً على هذه الكتابات، وهذا جهد مقل أساهم به مع إخواني في معركة المصير، مع الاعتراف بالتقصير في حقهم ولهم مني الدعاء في ظهر الغيب بالسداد والتوفيق، وتحرير بلاد الرافدين من الغزاة المحتلين ومن الأخطار الداخلية والخارجية، وعلينا أن نستلهم من سيرة نور الدين محمود الشهيد الدروس والعبر في حياتنا المعاصرة، وكيف نخطط لتحرير بيت المقدس من أيدي اليهود الغاصبين.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأربعاء الساعة الثانية عشرة، وثماني دقائق من يوم ٢٠ شعبان ١٤٢٧هـ الموافق ١٣/٩/٢٠٠٦ والفضل لله من قبل ومن بعد، وأساله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثبت إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ

الإخوة الكرام يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين، والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamed2@maktoob.com

الفصل الأول

ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الاحداث

المبحث الأول

أصول الأسرة الزنكية

ينتمي عماد الدين بن آق سنقر بن عبدالله آل ترغان إلى قبائل (السبايو) التركمانية، وقد حظي والده أبو سعيد آق سنقر الملقب بقسيم الدولة، والمعروف بالحاجب [1]، باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي ليعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية[2]، وكان آق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه الأول و أترابه [3]، وقيل إنه كان لصيقه، ومن أخص أصدقائه [4]، فقد نشأ الرجلان وترعرعا معاً، ولما تسلم ملكشاه الحكم عينه حاجباً له، وحظي عنده فكان من المقرّبين وأنس إليه، ووثق به حتى أفضى إليه بأسراره، واعتمد عليه في مهماته، فكان أبرز قادته [5].

أولاً: مكانة آق سنقر عند السلطان ملكشاه:

من أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سُنقر عند السلطان، منحه لقب «قسيم الدولة»، وهذا يعني الشريك، وكانت الألقاب في تلك الآونة مصونة لا تعطى إلا لمستحقيها[6]، ويبدو أنه قاسم ملكشاه شؤون الحكم والإدارة، بالإضافة إلى ذلك، فإن آق سُنقُر كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده [7].

والراجح أن منح آق سُنقُر هذه اللقب يعود إلى ثلاثة أسباب:

١- محبة السلطان ملكشاه له ودعمه إياه.

٢- انتسابه إلى قبيلة تركية لها مكانتها وأهميتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة، وأنه كان ذا مكانة رفيعة فيها.

---

(١) وفيات الأعيان (٢١٧/١، ٢١٨)، عماد الدين زنكي، د. عماد الدين خليل.

(٢) عماد الدين زنكي، د . عماد الدين خليل ص ٣١.

(٣) التاريخ الباهر في الدول الأتابكية بالموصل ص٤.

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد طقوش.

(٥) التاريخ الباهر ص ٤.

(٦) المصدر نفسه نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٣.

(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٣.

٣- أنه أدّى خدمات جليلة لملكشاه، استحقت منحه هذا اللقب [١].

واشترك آق سنقر إلى جانب السلاجقة في معارك عديدة، فقد سيره ملكشاه عام ٤٧٧هـ مع عميد الدولة بن فخر الدولة في محاولة للاستيلاء على الموصل وطرد العقيليين منها، وقد تمكنا من إنجاز هذه المهمة [٢]، وبعد مرور سنتين اشترك مع السلطان ملكشاه في انتزاع حلب من نواب العقيليين فولاه إياها تقديراً لجهوده [٣]. وقد تسلم آق سنقر منصبه في حلب وأعمالها، كمنيع واللاذقية وكفر طاب [٤]، واستطاع أن يوسع نطاق ولايته بالاستيلاء على حمص عام ٤٨٣هـ، وحصن أفاميه عام ٤٨٤هـ. كما فرض طاعته على صاحب شيرز عام ٤٨١هـ، وفي عام ٤٨٥هـ اشترك مع ملكشاه في مهاجمة العقيليين والانتصار عليهم قرب الموصل، وظلت علاقة آق سنقر بالسلطان ملكشاه قائمة على الطاعة والتفاهم المشترك، ولم يسع يوماً إلى الخروج على أوامره، ورفض السلطان بدوره الاستجابة لشكاوى معارضي آق سنقر أو إقرار مساعيهم للتخلص منه [٥].

ثانياً: سياسة آق سنقر الداخلية في حلب:

بدأت، مع تولي آق سنقر الحكم في حلب، مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لهذه المدينة، وانتهى حكم القبائل العربية لهذه الإمارة، وأزيحت عن مسرح الأحداث في شمالي بلاد الشام، ويُعدُّ سُنْقُر أول حاكم سلجوقي لإمارة حلب بعدما كانت سنوات طويلة من التمزق والحروب بين القبائل العربية فيما بينها، ثم بينها وبين التركمان القادمين من الشرق، ودام حكمه ثماني سنوات تقريباً، كانت مرحلة هامة في تاريخ الإمارة والمنطقة بفعل أنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة [٦] لقد تسلم آق سُنقر الحكم في ظل حالة من الفوضى التامة بفعل عاملين داخلي وخارجي، يتمثل الأول بصراع الحكام، وتدبيرهم المؤامرات، واستعانتهم بالقوى الكبرى في المنطقة كالخلافة العباسية في بغداد، والدولة الفاطمية في مصر بالإضافة إلى الدولة السلجوقية الجديدة الطامعة في التوسع في المنطقة هي:

(١) إمارة حلب، محمد ضامن ص ١٣٦.
(٢) مفروج الكروب في أخبار بني أيوب (١/ ١٩ إلى ٢١، ٢٢).
(٣) الكامل في التاريخ نقلا عن عماد الدين زنكي ص ٣٢.
(٤) الباهر ص ٨، عماد الدين زنكي ص٣٢.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٣٢ ، ٣٣.
(٦) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٠٩، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٦.

١- قوة القبائل العربية البدوية وبخاصة الكلابيين العقيليين والمرداسيين لاستعادة نفوذها المسلوب.

٢- قوة التركمان المدمرة التي كانت تغير على المنطقة.

٣- قوة الدولة البيزنطية التي كانت تستغل الصراعات الداخلية لاستعادة نفوذها المفقود.

شهدت حلب نتيجة ذلك أوضاعاً من عدم الاستقرار السياسي انعكس سلباً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية فيها في خضم هذه الصراعات، تغافل الحكام عن الاهتمام بالشؤون الداخلية للسكان، كما أهملوا تطوير الحياة الاقتصادية، مما أدّى إلى تراجع واردات البلاد وعمدوا إلى استنزاف السكان بفرض ضرائب أخرى وإتاوات باهظة، كلما أعوزهم المال، حتى أثقلوا كاهلهم، فتذمروا من سوء الأوضاع، وكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق، مما أدّى إلى انعدام الأمن على الطرق، فتعطلت الحركة التجارية، وقلّت السلع في الأسواق، وتراجعت موارد الزراعة لعدم تمكّن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول، فبرزت في هذه الظروف الصعبة، منظمة الأحداث التي أخذت على عاتقها رعاية مصالح أفرادها ومقاومة التعديات الخارجية [1]. وضع آق سنقر نصب عينيه هدفاً راح يعمل على تحقيقه، تمثل في إعادة الأمور إلى نصابها ولذلك شرع في:

١- إقامة الحدود الشرعية وطارد اللصوص وقطاع الطرق وقضى عليهم وتخلص من المتطرفين في الفساد، كما قضى على الفوضى التي كانت متفشية في البلاد، وعامل أهل حلب بالحسنى حتى «توارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر» [2].

٢- لم يكتف آق سُنقُر بحصر تدابيره الإصلاحية في حلب بل كتب إلى عمال الأطراف التي خضعت لحكمه أن يحذوا حذوه، وتابع أعماله بنفسه.

٣- وأقرّ قسيم الدولة مبدأ المسؤولية الجماعية، فإذا تعرض أحد التجار للسرقة في قرية ما، أو إذا هوجمت قافلة أو نهبت، فإن أهل القرية التي جرت الحادثة فيها يكونون مسؤولين جماعياً عن دفع قيمة الضرر اللاحق بهؤلاء[3]. ونتيجة لهذا المبدأ، هبَّ سكان القرى لمساعدة الحكام في فرض الأمن، فإذا وصل تاجر إلى قرية أو مدينة، وضع أمتعته وبضاعته إلى جانبه ونام وهو مطمئن، بحراسة أهلها، وهكذا شارك السكان بتحمل المسؤولية في حفظ الأمن

(١) دخول الترك الغز إلى الشام، مصطفى شاكر ص ٣٠٧ ، ٣١٤ – ٣١٥.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص.٤٧. (٣) المصدر نفسه.

حتى أمنت الطرق، وتحدث التجار والمسافرون بحسن تدابيره وسيرته (١).

ونتيجة لاستتباب الأمن في كافة أرجاء إمارة حلب، نشط التجار، وامتلأت الأسواق بالبضائع الواردة إليها من كل الجهات، واستقر الوضع الاقتصادي، وتداعى الناس إليها للكسب فيها والعيش برغد(٢). وقد اعترف المؤرخون بحسن سياسة آق سُنقُر الداخلية، والأمنية، وأجمعوا على مدحه.

- **قال ابن القلانسي:** وأحسن فيهم السيرة، وبسط العدل في أهليها، وحمى السابلة للمترددين فيها، وأقام الهيبة، وأنصف الرعية، وتتبع المفسدين فأبادهم، وقصد أهل الشر فأبعدهم، وحصل له بذلك من الصيت، وحسن الذكر، وتضاعف الثناء والشكر... فعمرت السابلة للمترددين من الأسفار، وزاد ارتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات والأقطار (٣).

- **وقال ابن واصل:**.. ورخصت الأسعار في أيام الأمير قسيم الدولة وأقيمت الحدود الشرعية، وعمرت الطرقات وأمنت السبل، وقتل المفسدون بكل فج، وكان كلما سمع بمفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة (٤).

- **وقال ابن الأثير:**... وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين رخص عام، وعدل شامل، وأمن واسع (٥).

- **وقال عنه ابن كثير:**.. بأنه كان من أحسن الملوك سيرة، وأجودهم سريرة وكان الرعية في أمن وعدل ورخص (٦).

وأما من حيث إنجازاته العمرانية، فقد جدَّد عمارة منارة حلب بالجامع عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) واسمه منقوش عليها إلى اليوم، وفي ذلك قصة لطيفة ذكرها ابن واصل مفادها: في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أسس القاضي أبو الحسن بن الخشاب منارة حلب، وكان بحلب بيت معبد نار، قديم العمارة، وصار بعد ذلك أتون حمّام، فأخذ ابن الخشاب حجارته، وبنى بها المنارة، فأنهى بعض حُسَّاده إلى الأمير قسيم الدولة خبره، فغضب على القاضي ابن الخشاب، وقال: هدمت معبداً هو لي وملكي فقال: أيها الأمير، هذا معبد للنار،

(١) الباهر : ص ١٥.
(٢) مرآة الزمان (٨/ ٢٤٤).
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٦.
(٤) مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب (١/ ١٩).
(٥) الكامل في التاريخ (٨/ ٣٦٨).
(٦) البداية والنهاية (١٦/ ١٤٣).

وقد صار أتوناً [1]، فأخذت حجارته لأعمَّر بها معبداً للإسلام، يُذكر فيه الله وحده لا شريك له، وكتبت اسمك عليه، وجعلت الثواب لك، فإن رسمت غرمت ثمنه لك، ويكون الثواب لي، فأعجب الأمير كلامه، واستصوب رأيه وقال: بل الثواب لي، وافعل ما تريد، فشرع في عمارة المنارة في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة [2].

ثالثاً: سياسته الخارجية:

عادت سياسة آق سنقر الحازمة بنتائج هامة على المنطقة، فساد الاطمئنان، وأمنت الطرق وانتشر العمران، فانتعشت التجارة، وقد بلغ من سيطرة آق سنقر على الأمن في قرى حلب وضياعها أن أرسل من ينادي فيها أن لا يغلق أحد بابه، وأن يتركوا آلاتهم الزراعية في أماكنها ليلاً ونهاراً [3]، ومن ثم جاءت شهرته بناء على ما أنجزه في هذا المجال[4]، وبعد أن نظم قسيم الدولة إمارته الداخلية، وحقّق الأمن والاستقرار أراد أن يقوم بدور خارجي وكانت بلاد الشام، عبر تاريخها، عرضة للنزاعات من أجل السيطرة بين الشمال والجنوب. وقد مثّلت دمشق، منذ القرن السابع الميلادي، الجنوب، في حين مثّلت حلب الشمال، وكانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية ولكن غالباً ما كانت سياسية، حيث حاول حكام دمشق من جهتهم، وحكام حلب أيضاً مد سيطرتهم كلياً على بلاد الشام، وتبعاً لهذه القاعدة حدث صراع بين تُتش وآق سُنْقُر[5]، فقد وقف في وجه تُتش الطامع في بلاده، وأن يتوسع على حساب جيرانه، وبدا له قبل الإقدام على تنفيذ هذا المشروع أن ينشيء جيشاً منظماً يعتمد عليه في حروبه وشرع في ذلك، وكانت نواة هذا الجيش تمثّلت بالقوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب وتعدادها أربعة آلاف مقاتل، ثم تعدّت الستة آلاف [6]. وقد اعتمد آق سُنْقُر على نوعين من القوات العسكرية:

* **النوع الأول:** القوات الاحتياطية التي كان يزداد عددها باستمرار، وهي تنتمي إلى العنصر التركي.

* **النوع الثاني:** القوات الاحتياطية التي كان يجمعها حين يحتاج إليها، وكانت خليطاً من العرب والتركمان وغيرهم، وقد وصل عددها في المعركة التي خاضها

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١/ ٢٠). (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٠).
(٣) عماد الدين زنكي ص ٣٥.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ – ١٢٠، الباهر ص ١٥. (٥)(٦) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٥.

ضد تُتش إلى عشرين ألفاً وكان تتش قد جهد منذ أن أصبح حاكماً على دمشق في عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م في العمل على:

* بسط سلطانه على كامل بلاد الشام، وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية، أو تُحكم من قبلها.

* إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان، إلا أنه فشل في تحقيق الهدف الأول، ونجح في تحقيق الثاني إنما بعد وفاة ملكشاه الأول، على أن الأوضاع التي آلت إليها البلاد لم تُرضِ تتش، فلجأ إلى السياسة وطلب من أخيه في عام (٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) تزويده بقوات ومعدات تمكنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام وإخضاعها كلها لسلطان السلاجقة، بما فيها المدن الساحلية، والواقع أن ملكشاه الأول كان يخشى تمدداً فاطمياً باتجاه الأملاك السلجوقية في بلاد الشام والعراق، لذلك لبّى طلب أخيه، وأمر كل من قسيم الدولة صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، بأن يقدما له كل ما يحتاجه في مهمته من عساكر وتجهيزات[1]، ويبدو أن الحاكمين لم ينفذا الأوامر السلطانية. فلم يذهب آق سنقر بعيداً في مساعدة تُتش وهو يعلم مدى خطورة أطماعه، وكذلك فعل بوزان. ومن جهته، فإن تُتُش لم يقم بأي عمل عسكري جدي ضد مدن الساحل [2]، ولكن الأوضاع تبدلت في عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) حين استولى الفاطميون على عكا وصور وصيدا وجبيل، كما أنه وصل إلى المعسكر الفاطمي، في غضون ذلك، خلف بن ملاعب صاحب حمص وأفامية [3]، فاجتمع بالقائد الفاطمي واعترف له رسمياً بسلطان الفاطميين وسيادتهم عليه [4]، مما شكل تهديدًا مباشراً لسلطان السلاجقة في بلاد الشام، ونتيجة لما اتفق عليه الطرفان من ببسط السيادة الفاطمية على كامل بلاد الشام قام خلف بن ملاعب بالاعتداء على أراض تابعة لتتش مما دفعه إلى الاستنجاد مجدداً بأخيه. كما أن الحكام السلاجقة في هذه البلاد شكوا إلى السلطان اعتداءات أمير حمص، وكذلك فعل السكان بفعل أنه اتصف بالظلم، ونظراً للأوضاع الخطيرة التي باتت عليها بلاد الشام، أمر السلطان أخاه تُتُش بتأديب ابن ملاعب، وطرد الفاطميين من البلاد وضمها إلى الأملاك السلجوقية، وطلب في الوقت نفسه، من ولاته فيها بالتحرك السريع لمساعدته[5]. انزعج كلٌ من آق سُنْقُر وبوزان من قيادة تُتُش لهذه الحملة وأدركا أنه سوف

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٥١.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥١. (٣) أفاميه : مدينة حصينة .
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥١. (٥) المصدر نفسه ص ٥٢.

ينفرد بحكم ما يستولي عليه، فخرجا مكرهين غير مقتنعين بمساعدته[1]. وصلت القوات المتحالفة إلى حمص عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م وحاصرتها وضيَّقت عليها حتى استسلمت، وقبض على ابن ملاعب، وأرسل إلى السلطان ملكشاه الأول[2] وانكشفت في غضون ذلك أطماع الأطراف المتحالفة، فقد طلب كل من الأمراء حمص لنفسه وكتب إلى السلطان بذلك، فأنعم بها على أخيه [3].

١- موقف آق سنقر من تتش: في عام ٤٨٤هـ نزل تتش بجيوشه على طرابلس وكان بها قاضيها وهو صاحبها واسمه جلال الملك بن عمار ونصبوا المجانيق، فاحتج عليهم ابن عمار وأظهر لهم منشور السلطان ملكشاه باقراره على طرابلس، فلم يقبل منه تتش ذلك وتوقف آق سنقر عن قتاله، فقال له تتش: أنت تبع لي فكيف تخالفني فقال: أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان، فغضب تاج الدولة تتش ورجع إلى دمشق وآق سنقر إلى حلب [4].

وأدرك آق سنقر أن سياسته العدائية تجاه تُتُش تفرض عليه منعه من ضم أي مدينة إلى أملاكه، لذلك جهد، أثناء عودته إلى حلب، في ضم المواقع التابعة لخلف بن ملاعب ومنها أفامية التي سلّمها إلى منقذ صاحب شيزر [5]، وقد هدف من ذلك إلى أمور منها:

أ- إقامة منطقة حاجزة بين أملاكه في شمالي الشام، وأملاك تتش في الجنوب واعتقد أن إمارة بني منقذ في شيزر بإمكانها أن تقوم بهذا الدور.

ب- حرمان تُتُش من ضم إمارة بنى منقذ، وبالتالي إبعاده عن منطقة حلب.

ج- إيجاد حليف قوي يعتمد عليه في صراعه مع تُتُش.

د- إبعاد بني منقذ عن التحالف مع تُتُش [6].

والواقع أن ملكشاه وقف على هذا الصراع على النفوذ في بلاد الشام فعمد إلى وضع حد له، فاستدعى في شهر رمضان عام ٤٨٤هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٠٩١م، جميع ولاته في بلاد الشام والجزيرة بالإضافة إلى أخيه تُتُش، ليبحث معهم مشاكل وقضايا مناطقهم [7]، واستغل تُتُش وجوده عند أخيه وعرض خلافه مع آق

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٥٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٥٢.
(٣) بغية الطالب (٧/ ٣٣٥٤).
(٤) تاريخ الزنكيين ص ٥٣.
(٥) (٦) (٧) المصدر نفسه ص ٥٣.

سُنْقُر، واتهمه بعدم الإخلاص للقضية السلجوقية، وقام آق سنقر يـدافع عـن نفسـه متهماً تُتُش بالكذب واستطاع إقناع السلطان بوجهة نظره، فرفض اتهام أخيه له كمـا رفض مساعيه للتخلص منه [1].

٢- دعم آق سنقر للسلطان بركيارق: ظلـت العلاقـة الطيبـة قائمـة بـين آق سُـنقر وملكشاه، طيلة حياة هذا الأخير، ولما توفي عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م طلب تُتُش السلطنة لنفسه في ظل صراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفى، وتجهّز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه، وكاتب كـلاً مـن آق سُـنْقُر وبـوزان يطلـب مسـاعدتهما [2]، واستجابوا لـذلك واشتركوا في حرب إبراهيم بن قريش صاحب الموصل لأنه رفض الخطبة في الموصل لتتش، ورفض أن يعطيه طريقاً إلى بغداد فهزم صاحب الموصل وأخذت منه، ساروا إلى ميافـارقين فملك تُتُش سائر ديار بكر [3]، ثم سار تُتش إلى أذربيجان، وكان بركيارق بن ملكشـاه قـد قوى أمره وصارت بيده الري وهمذان فسار ليمنع عمـه [4]، ولمـا علـم تُـتُش بـذلك قـرر الإسراع في زحفه باتجاه خراسان لمحاربة ابن أخيه، وعندما وصل إلى مدينة تبريز [5]، حدثت المفاجأة إذ تخلَّى عنه آق سُنقر وبوزان وانضما إلى بركيارق عند مدينة الري [6] فقوى موقفه بهما، وكان هذا الانسحاب محطماً لخطة تُتُش ويبدو أن هناك عدة أسباب دفعت آق سُـنْقُر إلى هذا التصرف لعل أهمها:

أ- كان تُتُش منافساً خطيراً لآق سُنْقُر، وأن تأييده له حتَّمـه واقـع الظـروف السياسـية التي كان يمر بها.

ب-رأى آق سُنْقُر أن تبقى السلطنة محصورة في أبناء سيده ملكشاه الأول وفاء منه له.

ج- شعر قسيم الدولة بأن تتش يُقرب ياغي سيان صاحب أنطاكيـة، ويميـل إليـه وقـد يعتمد عليه في حكم بلاد الشام في المستقبل [7]، ومهما يكن من أمر، فقـد أدرك تُـتُش حـرج موقفه، وضعف قواته بعد الانسحابات التي حصلت في صـفوفه، فاضـطر إلى التوقـف عـن الزحف وقتال بركيارق، وآثر الانسحاب إلى الشام، فعاد أدراجه نحو ديار بكـر، وتوقـف في الرحبة، ثم حدث أن أقنع كل من آق سنقر وبوزان السلطان بركيارق بألا يترك تُتُش وشأنه

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥٣.
(٣) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٤.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٥٣.
(٥) تبريز : أشهر مدن أذربيجان وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة.
(٦) المصدر نفسه ص ٥٣.
(٧) المصدر نفسه ص ٥٥.

وحذَّراه من أطماعه، وأشار عليه بمطاردته[1]، وفعلا تحرك الجميع باتجاه الرحبة، فلما علم تُتُش بذلك تركها واجتاز الفرات قاصداً أنطاكية التي بقي فيها مدة ثم عاد إلى دمشق [2]، وفي الرحبة عقد اجتماع رباعي ضم السلطان بركيارق وآق سُنقُر وبوزان وعلي بن مسلم ابن قريش العقيلي، تمخَّض عن عقد تحالف بين الحاكمين السلجوقيين من جهة والأمير العقيلي من جهة ثانية، تحت إشراف السلطان، هدفه الوقوف في وجه تُتُش، وعاد السلطان إلى بغداد، بعد أن ترك قوة عسكرية بتصرف آق سُنْقُر، في حين عاد بوزان إلى الرها، وآق سُنقُر إلى حلب، فوصل إليها في شهر ذي القعدة عام ٤٨٦هـ شهر تشرين عام ١٠٩٣م، وهكذا قام آق سُنْقُر بدور بارز في إفشال مخططات تتش ومنعه من الحصول على السلطنة، وساعد بركيارق على الاحتفاظ بها، مدركاً في الوقت نفسه، أن صاحب دمشق سوف ينتقم للضربة التي وجهت إليه، فأخذ يستعد للتصدي له وانتزاع دمشق منه هذه المرة، فطلب المساعدة من السلطان بركيارق فأمده بكربوقا، واستنجد بمن جاوره من الحكام أمثال بوزان حاكم الرها، ويوسف بن آبق حاكم الرحبة، كما انضم إليه جماعة من بني كلاب وأحداث حلب [3].

٣- مقتل آق سنقر: كان أول ما فكر فيه تُتُش عند عودته إلى دمشق هو الانتقام من آق سُنقُر وبوزان بعد أن تخليا عنه في وقت الشدة [4]، فأخذ يستعد لقتالهما، وتحالف مع ياغي سيان صاحب أنطاكية بعد أن زوَّج ابنه رضوان من ابنته[5]، كما جند قوات إضافية من بني كلاب، والتقى الجيشان يوم السبت في التاسع من شهر جمادي الأول / شهر آيار عند تل السلطان [6]، القريب من حلب، ويبدو أن آق سُنْقُر لم يثق بمن كان معه من العرب، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة ثم إلى القلب، والراجح أن هذا التبديل في المواقع العسكرية أثر على قدراته القتالية، فدارت الدائرة عليه، ووقع أسيراً في يد تُتُش[7] فسأله تتش: لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي قال: كنت أرى قتلك، قال: فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم عليَّ فقتله صبراً، وتسلم قلعة حلب الاثنين ١١ جمادى الأولى[8]، ودفن آق سنقر بخارج حلب، ثم لما ملك عماد الدين نقل بقايا أبيه فدفنها

(١) (٢) تاريخ الزنكيين ص ٥٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٥٥، الكامل في التاريخ (٨/ ٣٦٨).
(٤) الحركة الصليبية، عاشور (١/ ١١٢)، تاريخ الزنكيين ص ٥٦.
(٥) زبدة حلب (١/ ٣٣١).
(٦) تل السلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق.
(٧) الكامل في التاريخ (٨/ ٣٦٨).
(٨) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٥.

بجانب المدرسة الرجاحية في حلب[1].

رابعاً: نشأة عماد الدين زنكي وأسرته:

١- نشأته: ولد عماد الدين زنكي سنة ٤٧٧هـ وكان أبوه من كبار قادة ملكشاه حتى لقب بقسيم الدولة، وكان الابن الوحيد لهذا القائد العظيم في الدولة السلجوقية وتولى والده آق سنقر حلب سنة ٤٧٩هـ أي بعد سنتين من مولده، فكانت حلب مهد طفولته وقضى بها أيامه الأولى[2].

٢- تربية والده له: عاش زنكي في كنف والده مدة عشر سنوات تكونت خلالها الخطوط العريضة لشخصيته وتشرب من أبيه أخلاقه وصفاته، ولا شك أن والده دربه على الفروسية منذ نعومة أظفاره، ليكون نعم الوارث لمركزه، وقد دربه على ركوب الخيل ورمي السهام، وعوده على الصبر على المشاق في الحرب وممارستها، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة حسن تربية والده له، فقد تميز بالشجاعة التي تبلغ حد الذروة فهو يهاجم مع مودود طبرية وينهزم الصليبيون، ويلحقهم المسلمون وعماد الدين في المقدمة، ولا يتلفت إلى الوراء، ليتأكد من لحاق أصحابه به، ويصل إلى باب طبرية ويحارب الأفرنج عليه ويبدي شجاعة فائقة وينسحب ويحسن الانسحاب عندما لا يرى حوله أحداً، فيعجب الناس من رجوعه سالماً، كما عجبوا من شجاعته[3]، وورث عن أبيه آق سنقر القوة التي تعرف العطف والتي لا تبقى على عدو خطر، وورث عنه التخطيط الذي يؤدي إلى حتف الخصم الذي رسمه له زنكي[4].

٣- والدته: توفي والده وعمره عشر سنوات ولكن أمه عاشت حتى رأت ابنها يرث أباه ويحكم الموصل، وقرت عينها إذ رأته في السنة التي توفيت فيها يحاصر دمشق التي قتل صاحبها تتش زوجها آق سنقر، فقد توفيت ٥٢٩هـ بالموصل، وكانت هناك أسطورة أوروبية سورية أن أتابك الموصل من أصل فرنجي ويفترض أن أمه كانت الأميرة الجميلة النمساوية التي أسرت وقضيت بقية أيامها في حريم آق سنقر، وأن أمرأة عظيمة أوروبية تستطيع أن تلد مثل هذا البطل. لكن هذه القصة غير صحيحة لأن أباه آق سنقر مات قبل سنوات من حدوث كارثة الغزو الصليبي، ولا يذكر لنا المؤرخون اسماً لوالدته ولا أصلها حتى نستطيع أن نتعرف على أسباب اكتسابه اللون الأسمر مع أن المشهور عن الأتراك اللون الأبيض

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٧.
(٣) الروضتين (١/ ٦٨)
(٤) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٨.

فلعله ورث هذه الصفات عن والدته [١].

٤- زوجات عماد الدين:

أ- تزوج زنكي أكثر من واحدة فمن زوجاته التي ذكرها المؤرخون زوجة الأمير كندغدي. وقال السلطان محمود: قد زوجتك امرأة الأمير كندغدي من أكابر أمراء السلطان محمد، والسلطان محمود، واتفق أنه مات وترك ولداً صغيراً وزوجة ومن المال والبرك (المتاع الخاص من ثياب وقماش وسلاح) مالا يقدر عليه إلا السلطان، فطلب من عماد الدين أن يتزوجها وأرسل إليها، يقول لها: إنني زوجتك بعماد الدين زنكي فامتنعت ثم أجابت، فركب زنكي من غد دخوله بها ومعه ولد كندغدي وهو في موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كندغدي وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ما ليس لأحد من العسكر مثله[٢].

ب- الزوجة الثانية: خاتون ابنة الملك رضوان، كان زواجه بها زواجاً سياسياً، فقد تزوجها ليصبح له الحق والشرعية في حكم حلب [٣]، ولكنه هجرها بعد أن رأى ثياب أبيه آق سنقر الذي قتله جدها تتش، وطلقها بتدخل القاضي أبي غانم قاضي حلب [٤]، وكان زواجه بها سنة ٥٢٢هـ على رأي حسن حبشي، وسنة ٥٢٣هـ في رأي ابن العديم [٥].

ج- الزوجة الثالثة : صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي، وتزوجها سنة ٥٢٩هـ والظاهر أن زواجه منها كان ليمكن نفوذه في تلك المنطقة، فقد كان زنكي في السنة السابقة لهذا الزواج في حرب، وكان حسام الدين تمرتاش معه في حربه ضد داود بن سقمان بن أرتق وربما أراد بالمصاهرة أن يضم خلاط إليه وتقوية جبهته في تلك المنطقة، ولا سيما أنه في سنة زواجه كان في حرب في تلك الجهة فاستولى على الصقر وشوش.

د- الزوجة الرابعة: ابنة تمرتاش.

هـ - الزوجة الخامسة: خاتون بنت جناح الدولة حسين، وكان زواجه منها سنة ٥٣١هـ وفي هذه السنة كانت فترة نشاطه في حمص، فقد حاصرها حصاراً شديداً ولا يستبعد أن يكون زواجه بها ليكتسب شرعية أخذه حمص من دمشق، لأنها الوارثة لها بعد والدها وليضم إليه أنصار والدها ويساعدوه على أخذ المدينة [٦].

---

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٥
(٢) التاريخ الباهر ص ٢٨.
(٣) نور الدين زنكي، حسن حبشي ص ٢٤.
(٤) زبدة حلب ص ٢٤٤، الحروب الصليبية ص ٥٩.
(٥) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٦٠.

و- الزوجة السادسة: تزوجها سنة ٥٣٢هـ وهي صفوة الملك ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل وإخوته بنو تاج الملوك وهي أخت الملك دقاق لأمه [١]، وقد كان زواجه منها أملاً في أن يمتلك دمشق فلما لم يحصل له ملك دمشق أعرض عنها [٢]، ونلاحظ أن موضوع زوجات زنكي قد حظي باهتمام عدد من المؤرخين، وأغلب الظن أن سبب ذلك يعود إلى العلاقة الوثيقة بين معظم عقود الزواج التي قام بها وبين مشاريعه السياسية والعسكرية، وكان زنكي يعتمد رابطة الزواج لتحقيق بعض أهدافه السياسية والعسكرية، وأنه تمكن بهذا الأسلوب من توثيق علاقاته بعدد من الحكام والأمراء، الأمر الذي ساعده إلى حد كبير في تنفيذ خططه الرامية إلى توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي [٣].

٥- أبناؤه: سيف الدين غازي وهو الأكبر، نور الدين محمود، قطب الدين مودود، نصرة الدين أميران. وجميع أولاده ظهرت عليهم النجابة مما ورثوه من والدهم وكانوا ذوي أخلاق حميدة، وشجاعة فائقة، وخاصة نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، فأخبار شجاعتهم مشهورة، ونلاحظ من أسماء أولاد زنكي اسم مودود فقد يدل على إعجاب زنكي بالأمير مودود وهناك غازي واسمه يدل عليه، أما محمود فإنه يطابق اسم أحد السلاطين السلاجقة ممن خدمه زنكي [٤]. وقد خصص زنكي لتربية أولاده عليًا ابن منصور السروجي، وكان أديباً شاعراً خطاطاً، وعندما كبر سيف الدين غازي أرسله أبوه لخدمة السلطان مسعود فتلقاه بالحفاوة والتقدير، ورتب في خدمته عشرة من الحراس [٥]. وقد بقي سيف الدين هناك حتى قبيل مقتل أبيه بوقت قصير، وأما نور الدين محمود فقد نشأ تحت رعاية والده، وتعلم القرآن الكريم والفروسية والرمي [٦]، ولما جاوز صباه لزم خدمة أبيه حتى مقتله [٧]، وهكذا كان زنكي يعد أولاده لتحمل المسؤوليات الإدارية والعسكرية في المستقبل، وما يقال عن غازي ومحمود يمكن أن يقال عن ابنيه الآخرين أميران ومودود [٨].

* * *

(١) الروضتين (١/ ٨٠).
(٢) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٦٠.
(٣) عماد الدين زنكي ص ١٧٢.
(٤) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٦٢.
(٥) الباهر ص ٩٧.
(٦) البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين ص ١٧٣.
(٧) الروضتين (١/ ١١٩).
(٨) عماد الدين زنكي ص ١٧٣.

المبحث الثاني

تطور شخصية عماد الدين القيادية

أولاً: بزوغ نجمه السياسي:

كان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي، منذ عهد طفولته، ذلك الدور الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والإدارية في الأعوام (٤٦٥هـ - ٤٨٧هـ) والمكانة التي حصل عليها نتيجة خدماته للسلاطين السلاجقة، وعمله على تدعيم كيانهم، حتى أنه ضحى بحياته - كما رأينا - في سبيل الولاء للسلطان السلجوقي بركيارق، ولم ينس هذا تضحية آق سنقر في سبيل عرشه فجازاه - بعد مقتله - بتوجيه العناية والاهتمام نحو ابنه الوحيد عماد الدين زنكي الذي كان آنذاك في العاشرة من عمره، وكان يقيم في حلب تحت رعاية مماليك أبيه، وأصحابه الذين كانوا يكنون الحب العميق لآق سنقر [1]

١- مكانة زنكي عند أمير الموصل كربوقا: لما تولى أمر الموصل قوام الدولة كربوقا سنة ٤٨٩هـ، باسم السلطان بركيارق، أولى زنكي اهتماماً خاصاً، وطلب من بعض مماليك والده المقيمين في حلب إحضار عماد الدين إليه وقال لهم: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته، فأحضروه عنده [2] ويبدو أن كربوقا أدرك مكانة آق سنقر والد عماد الدين في نفوس كثير من التركمان وعرف ما يكنّون له من الولاء والطاعة، فحرص على أن يضم إليه ابنه عماد الدين ليحصل على الولاء نفسه الذي يحمله التركمان لوالده، إضافة إلى أن كربوقا أثناء ملازمته لآق سنقر قد أدرك نجابة عماد الدين ومكانته بين مماليك والده، فأراد أن يضمه إلى جانبه للاستعانة به، وبمماليك والده في حروبه ضد خصومه، وربما ليضمن عدم منافسته له مستقبلاً، وقد حظي عماد الدين بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا، وظل عماد الدين زنكي ملازماً له بالموصل إلى أن توفي كربوقا سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م [3].

٢- مكانته عند الأمير جكرمش والي الموصل: بقيت العلاقة طيبة بين زنكي وشمس الدولة جكرمش الذي أعقب كربوقا على ولاية الموصل (٤٩٥ - ٥٠٠هـ) والذي كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه وكان على معرفة بالخدمات التي أداها والد زنكي للسلاجقة، ومن ثم توثقت العلاقة بينه وبين زنكي حيث قربه وأحبه واتخذه ولداً، وظل

---

(١) الباهر ص ١٥، عماد الدين زنكي ص ٣٦. (٢) عماد الدين زنكي ص ٣٦.

(٣) الباهر ص ١٦، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣١.

الأخير ملازماً له حتى وفاته عام ٥٠٠هـ[١].

٣- في عهد ولاية جاولي سقاو على الموصل: بعد وفاة جكرمش تولى جاولي سقاو (٥٠٠-٥٠٢هـ) على ولاية الموصل وكان زنكي قد بلغ مرحلة الشباب (وبدت عليه علائم الشهامة) وساد الصفاء علاقاته بالوالي الجديد. إلا أن عصيان الأخير للسلطان محمد عام ٥٠٢هـ وهروبه إلى الشام، دفع زنكي إلى الانفصال عنه وجماعة من كبار الأمراء في نفس الوقت الذي عين فيه السلطان والياً جديداً على الموصل هو الأمير مودود بن التونتكين (٥٠٢-٥٠٧هـ)، فانضم زنكي ورفاقه إليه. مما كان له أبلغ الأثر في نفس السلطان والوالي الجديد على السواء، الأمر الذي رشحه لأن يكون من كبار أمراء هذا الوالي، وأن يحصل على مزيد من الإقطاعات[٢].

٤- ملازمته للأمير مودود في حرب الصليبيين: لما استقر الأمير مودود بالموصل واتصل به عماد الدين عرف له مكانته بالإضافة إلى منزلة أبيه، ولما رأى منه العقل والشجاعة زاد في إقطاعه وشهد زنكي حروبه كلها وخاصة مع الصليبيين في طبرية، وقبل مجيء مودود كان زنكي قد تميز بشجاعته ومقدرته وقد شارك في الغزوات التي قام بها ضد اللاتين. ويذكر المؤرخون بكل اعتزاز أن عبقريته كرست للجهاد من السنوات الأولى من عمره[٣]، وقد أظهر في عهد مودود من البطولات في جهاده ضد الصليبيين ما أكسبه شهرة واسعة لدى المسلمين وظل ملازماً لمودود حتى مقتله عام ٥٠٧هـ على أيدي الباطنية في جامع دمشق[٤].

٥- في خدمة الأمير آق سنقر البرسقي: عاد زنكي بعد استشهاد مودود إلى الموصل ليلتحق بخدمة الوالي الجديد «جيوش بك» ثم ما لبث أن انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين، في نفس العام، فقاتل في الرها وسميساط وسروج، وأظهر من الشجاعة والمقدرة خلال ذلك ما زاد من شهرته لدى المسلمين[٥]، ودفع السلطان محمد إلى أن يطلب من واليه على الموصل تقديم زنكي والرجوع إلى مشورته تقديراً لإخلاصه وقدراته[٦].

٦- بعد وفاة السلطان السلجوقي محمد: عندما توفي السلطان محمد عام ٥١١هـ سعى

---

(١) الباهر ص ١٦، عماد الدين زنكي ص ٣٦.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٣٧.
(٣) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٦٣.
(٤) الباهر ص ١٧ -١٩، عماد الدين زنكي ص ٣٧.
(٥) الباهر ص ١٧ -١٩، عماد الدين زنكي ص ٣٧.
(٦) الباهر ص ٢٤، عماد الدين زنكي ص ٣٨.

«جيوش» إلى استغلال وجود ابنه مسعود – إذ كان أتابكاً له – ودفعه إلى التوجه إلى بغداد لكي ينصب نفسه سلطاناً على سلاجقة العراق – مستهدفاً من وراء ذلك التحكم الفعلي في شؤون الدولة السلجوقية باسم السلطان الجديد، وقد أيد زنكي هذه المحاولة، وسار الوالي ومسعود متوجهين إلى بغداد على رأس حشد من قوات الموصل إلا أن المحاولة أخفقت بعد سلسلة من الحروب والمناوشات شهدتها منطقة بغداد، واستتب الأمر للسلطان محمود الذي أعقب أباه في الحكم [1]. وبعد ثلاثة أعوام حاول جيوش بك أن يثور ثانية ضد السلطان محمود، غير أن زنكي رفض تأييده وأشار على المتمردين بطاعة السلطان وترك مخالفته وحذرهم عاقبة العصيان. لكنهم لم يلتفتوا إلى قوله، وأقدموا على تنفيذ محاولتهم التي انتهت هي الأخرى بالفشل بعد هزيمة جيوش بك ومسعود على يد السلطان محمود الذي بلغه موقف زنكي منه فقدره حق قدره، وأوصى البرسقي والي الموصل الجديد بالعناية به وتقديمه على سائر الأمراء [2].

٧- تولي عماد الدين زنكي إمارة واسط والبصرة: وعندما عين البرسقي عام ٥١٦هـ شحنة على العراق رافقه زنكي واشترك إلى جانبه في المعركة التي دارت ضد دبيس أمير الحلة وانتهت بهزيمة البرسقي [3]، الذي رأى أن يزيد من اعتماده على زنكي في صراعه ضد دبيس – فولاه واسط – ذات الموقع الهام – وكلفه مهمة الدفاع عنها ضد هجمات أمير الحلة. وقد استطاع زنكي أن يسحق في طريقه إلى واسط القوات التي حشدها دبيس للدفاع عن النعمانية، وأن يستولي على هذا الموقع [4]. وأظهر زنكي في منصبه الجديد حزماً وكفاءة، وأبان عن مقدرة إدارية فذة [5]، الأمر الذي دفع البرسقي، حاكم العراق، إلى إضافة البصرة إلى ولايته، لكي يصد هجمات الأعراب الدائمة عليها، وينشر الأمن في ربوعها [6]، فانتقل زنكي إليها لكي يحقق فيها ما أنجزه في واسط من نشر للأمن وقضاء على الفوضى. وقد تمكن في وقت قصير من أن يوقف هجمات الأعراب وغاراتهم المتتابعة عند حدها، وأن يجليهم إلى أعماق الصحراء، كما قضى على الفتن التي عمت البصرة، وأظهر مقدرة عسكرية وإدارية كالتي أظهرها في واسط من قبل، مما زاد من مكانته في نظر رجالات الدولة السلجوقية ومن رهبته في نظر الأعداء، حتى أن دبيس بن صدقة – أقوى أمراء الجنوب –

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٣٨.
(٢) الباهر ص ٢٢ – ٢٤، الروضتين (١/٧٣).
(٣) المنتظم (٩/ ٢٣٢ – ٢٣٣)، الباهر ص ٢٤.
(٤) الباهر ص ٢٥، عماد الدين زنكي ص ٣٨.
(٥) الروضتين (١/ ٧٣)، عماد الدين زنكي ص ٣٩.
(٦) البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٣٩.

تجنب الاصطدام معه، لأنه أدرك أن ليس في طاقته مجابهته والتغلب عليه، وفضل توحيد جهوده ضد الخليفة العباسي في بغداد بدلاً من مقارعة هذا الأمير القدير [1].

٨- دفاع زنكي والبرسقي عن الخليفة المسترشد: لم يترك البرسقي وزنكي الخليفة يجابه بمفرده حشود دبيس، فجمعا قواتهما والتقوا به في مطلع عام ٥١٧هـ قريباً من الحلة، واستطاعوا – بفضل الله ثم الخطة البارعة التي اتبعها زنكي – أن يلحقوا به هزيمة نكراء، وأن يقتلوا ويأسروا الكثير من جنده، واضطر هو ومن سلم من قواته إلى الفرار، بينما عاد المسترشد وحلفاؤه إلى بغداد يستقبلهم الأهالي هناك استقبالاً حافلاً، بعد خلصوهم من خطر محقق كان يحيق ببغداد ويعرضها للنهب والتخريب [2]، وكان زنكي – لدى مغادرته البصرة – قد فوض شؤونها لمقدم حاميتها الأمير «سخت كمان» فاستغل دبيس بعد ذهاب زنكي عنها وهاجمها على حين غرة وتمكن من قتل مقدم حاميتها ونهب أهاليها، لكن زنكي ما لبث أن عاد إلى البصرة ليقر الأوضاع فيها من جديد، فانسحب دبيس من المنطقة واتجه إلى الشام للعمل مع الصليبيين [3].

٩- عماد الدين في خدمة السلطان محمود: أقيل البرسقي من شحنكية العراق في عام ٥١٧هـ، وأعيد إلى الموصل لقيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين، وعين يرنقش الزكوي شحنة بعده [4]، فأرسل البرسقي إلى زنكي يستدعيه من البصرة ليتجه معه إلى الموصل غير أن الأخير فضل أن يربط مصيره بالسلطان محمود، يصحبه عدد من كبار أمرائه، وقرر السلطان محمود تزويجه بأرملة أحد أمرائه الكبار، وتم ذلك في احتفال شهده السلطان وعدد كبير من القادة والمسؤولين[5]، الأمر الذي هيّأ لزنكي فرصة الظهور في محيط كبار الأمراء وتعريف رجالات الدولة السلجوقية بمكانته [6].

١٠- تكليف السلطان محمود عماد الدين بتوطيد الأمن في البصرة: غدت البصرة، بعد مغادرة زنكي لها، مسرحاً للفوضى، وهدفاً للنهب والتخريب، وهجمات الأعراب، وبلغ السلطان ذلك فأمر زنكي بالعودة إليها، بعد أن أقطعه إياها عام ٥١٨هـ وطلب منه اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لتوطيد الأمن في المنطقة، كما كلفه مهمة الإشراف على واسط

---

(١) المنتظم (٩/ ٢٤٢ ، ٢٤٣)، عماد الدين زنكي ص ٣٩.
(٢) البداية والنهاية نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٣٩.
(٣) المنتظم (٩/ ٢٤٩).
(٤) المصدر نفسه (٩/ ٢٤٩).
(٥) الباهر ص ٢٧ – ٢٨، عماد الدين زنكي ص ٤٠.
(٦) عماد الدين زنكي ص ٤٠.

والسعي للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة إرسال جيش للاستيلاء عليها، إذ كانت هدفاً لمحاولاته التوسعية [1]، غادر زنكي أصفهان إلى البصرة وباشر مهام منصبه، فأحسن معاملة أهلها واستطاع أن يخلصهم من هجمات الأعراب، وذلك عن طريق تنظيم دوريات عسكرية دائمة للقيام بهجمات مضادة على الأعراب ونصب الكمائن لهم، كما اهتم بالوقت ذاته، بأمور واسط وأخذ يمد السلطان بأخبار العراق بحيث لم يخف على الأخير شيئاً من أموره، الأمر الذي زاد من تقديره لزنكي ومن ارتفاع منزلته عنده، ورشحه لمنصب شحنكية العراق [2].

١١- الصراع بين الخليفة المسترشد والسلطان السلجوقي: في عام ٥١٩هـ تدهورت العلاقات بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي رأى نفسه مضطراً للتوجه إلى بغداد للحد من مطامح الخليفة وفرض سيطرته المباشرة على العراق. وكان الخليفة قد أرسل بعض جيوشه بقيادة عفيف الخادم للاستيلاء على واسط إلا أن زنكي تمكن من صده والانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين عند مشارف واسط. وفي العشرين من ذي الحجة وصل السلطان إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب منه إقرار الصلح فرفض الأخير طلبه، الأمر الذي أدى إلى نشوب القتال بين الطرفين، وقد رأى السلطان أن يعتمد على زنكي في صراعه هذا فأرسل إليه يأمره بالحضور إلى بغداد على رأس قواته وأن يجلب معه ما يستطيع من زوارق حربية وسفن، فنفذ زنكي الأمر، وجمع عدداً كبيراً منها، إثر جولة قام بها في مناطق العراق الجنوبي لهذا الغرض، وبعد أن ملأها بالمقالة اتخذ طريقه إلى بغداد، وما أن بلغ الخليفة نبأ تقدم زنكي بقواته الحاشدة براً ونهراً، حتى أدرك أن ليس في طاقته الصمود طويلاً إزاء شروط السلطان، وأن بغداد مقبلة على حصار شديد في البر والنهر، فأرسل إليه يعلن موافقته على الصلح، ومن ثم دخل السلطان بغداد حيث تمت المصالحة وساد الوئام [3]. وهكذا لعب زنكي دوراً حاسماً في وضع حد للصراع بين السلطان والخليفة والذي كان من المحتمل أن يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها [4].

١٢- تولي عماد الدين شحنكية العراق: ولما أراد السلطان محمود الرحيل نظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية العراق، وبغداد، ويأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور فلم ير في أمرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ويرفع هذا الخرق من الاتساع وتقوى

(١) الباهر ص ٢٨، عماد الدين زنكي ص ٤١. (٢) الباهر ص ٢٨، عماد الدين زنكي ص ٤١.
(٣) المنتظم (٩/ ٢٥٢ – ٢٥٩)، الباهر ص ٢٨ – ٣١. (٤) عماد الدين زنكي ص ٤١ ، ٤٢.

على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي، فولاه شحنكية العراق مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع، وسار السلطان عن بغداد [1]، وقد أطمأن إلى نفوذه في العراق، بعد أن أناب عنه الرجل الذي يستطيع أن يقوم بمهام منصبه خير قيام، وأصبح عماد الدين منذ ذلك التاريخ يصرف الأمور لا في بغداد وحدها بل في سائر جهات العراق [2].

ثانياً: دور الفقهاء في تعيين عماد الدين على الموصل:

عندما توفي أمير الموصل عز الدين البرسقي عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م تولى أمرها أخ صغير له تحت وصاية مملوك تركي يدعى جاولي، أدرك الفقهاء أن ضعف الموصل لابد أن يؤثر على حلب وبلاد الشام في هذه المرحلة الحاسمة في تاريخ الصراع، إذ أن ذلك الفراغ السياسي، وعدم وجود قيادة عسكرية قوية في الموصل لابد أن يلقى انعكاساً على الصراع الصليبي الإسلامي [3]، ولذلك قامت عائلة الشهرزوري المعروفة بالعلم والصلاح بدور كبير في تنصيب عماد الدين زنكي في الموصل لكونه قائدًا عسكريًا قويًا. حقيقة أن جاولي قام بإرسال القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري، ونائب عز الدين البرسقي صلاح الدين محمد الياغيسياني إلى بغداد، التي كان بها السلطان محمود السلجوقي، وتلك الولاية في الموصل لأخي عز الدين الصغير حتى يظل يسيطر باسمه على الحكم فيها بصفة الوصاية عليه، إلا أن القاضي ورفيقه أدركا ذلك الهدف وإنهما ليس في نيتهما تحقيق هدف جاولي، لاعتقادهما بعدم كفاءته لذلك الظرف الصعب، حيث كانا على معرفة بطباعه وتصرفاته التي لا يرضيان عنها، ويبدو في الوقت نفسه كانا على علاقة متينة بعماد الدين زنكي حيث خططا معاً أن يتمكنا من إقناع ذلك السلطان لتوليته الموصل وحلب، حرصاً منهما على عدم ضياع البلاد الإسلامية وخاصة الموصل في أيدي الصليبيين [4]، وبوصول القاضي ورفيقه إلى بغداد اتصل صلاح الدين محمد بأحد أقربائه في بغداد نصر الدين جقروا حيث كان بينهما مصاهرة [5] واجتمعوا به وقرروا أن جاولي لا يصلح لحفظ البلاد لأنه كان سيئ السيرة [6]، وأخذ القاضي الشهرزوري على عاتقه حمل الأمانة وقول الحق، فاجتمع هو وصلاح الدين الياغيسياني بوزير السلطان السلجوقي [7]، وقالا له: قد علمت أنت والسلطان السلجوقي أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها واستولوا على

---

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٦٨.
(٢) الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٢.
(٣) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ٨٤.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ٨٤.
(٥) المصدر نفسه ص ٨٤.
(٦) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١٠٦.
(٧) المصدر نفسه ص ١٠٦.

أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين [1]، ويتضح من خلال حديث القاضي بهاء الدين الشهرزوري مبلغ تخوفه من سيطرة الصليبيين على أراضي الإسلام وخشيته من اتساع الرتق باستيلائهم على المزيد منها، وحاجة البلاد إلى الرجل المناسب لوقف التوسع الصليبي والتصدي له. فاستطرد قائلاً: ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة يذب عنها ويحمي حوزتها[2]. ومن عمق إحساسه بالمسؤولية أمام الله والعباد نراه يقول: وقد أنهينا الحال إليك لئلاً يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله واللوم من السلطان [3].

وهذا يعطينا درساً مهماً في دور هذا الفقيه الذي وضع مصلحة الأمة فوق كل اعتبار ولم يتأثر بترغيب ولا ترهيب من حاكم الموصل الذي أرسله للسلطان السلجوقي، كما أن في اختيار كمال الدين الشهرزوري لعماد الدين زنكي تزكية له من بين بقية الأمراء في ذلك العهد.

وقام وزير السلطان شرف الدين أنو شروان بن خالد بتوصيل مطلبهما وحال بلاد الشام إلى السلطان محمود. وبواسطة ذلك الوزير اقتنع السلطان برأيهما وحالهما. وتحقق هدفهما عندما استشارهما فيمن يفضلون لولاية الموصل، ويبدو أن القاضي الشهرزوري ورفيقه أشارا عليه بمجموعة من القادة المسلمين من بينهم عماد الدين زنكي حتى لا يشك في أمرهما وإصرارهما عليه إلا أنه أختار عماد الدين بإيعاز من وزيره أنوشروان وعينه والياً على الموصل [4]، وهنا يظهر دور العالم القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري في اختيار القائد الأفضل لقيادة القوى الإسلامية في مواجهة الغزو الصليبي، حتى كان لهذا الاختيار أثره في إرساء حجر الجهاد في المشرق الإسلامي حيث تمكن من خلاله غرس نواة الوحدة مع حلب عندما أخذها ورحب به أهلها عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م لأن موقع حلب الاستراتيجي بين بلاد الشام، ومناطق أعالي الفرات هو الذي جعلها في قلب الأحداث آنذاك حتى أن ذلك الأمير عماد الدين قد أدرك أهمية ذلك الموقع بالنسبة لبلاد الشام والموصل والجزيرة الفراتية وتمنى لو أخذها المسلمون قبل أن يدخلها الصليبيون [5].

إن هذا العدو قد طمع في البلاد وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام.. فالمسلمون أولى من الكفار بها [6].

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١٠٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٧. (٣) الكامل في التاريخ (٨/ ٦٥٩).
(٤) المصدر نفسه (٨/ ٦٥٩).
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام ص ٨٦. (٦) المصدر نفسه ص ٨٦.

١- مكانة القاضي بهاء الدين الشهرزوري عند عماد الدين: واعترافاً من عماد الدين زنكي بما بذله القاضي بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه، ورداً لجميله نحوه عينه قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، وكذلك زاده أملاكاً وإقطاعاً واحتراماً وكان يثق فيه وفي آرائه، لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان عماد الدين يستشيره في معظم الأمور المهمة في دولته حتى صرح ابن الأثير بذلك قائلاً: وكان لا يصدر إلا عن رأيه [١]. إن احترام العلماء وتقدير آرائهم، واستشارتهم من عوامل وأسباب نجاح القادة السياسيين والعسكريين.

٢- أتابكيَّة الموصل: مال السلطان السلجوقي إلى تولية عماد الدين زنكي إمارة الموصل لما علم من شهامته وتمكنه من إنجاز المهام التي أنيطت به من قبل، وأمره بالحضور، وبعد مناقشات قصيرة اقتنع السلطان بجدارة زنكي في القيام بأعباء المنصب الجديد ومن ثم أصدر منشوراً بتوليته الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام، وسلمه ولديه ألب أرسلان والخفاجي ليكون أتابكاً لهما (أي أبًا مربياً) وفقاً للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك، ومنذ ذلك الوقت سمي زنكي أتابكاً وأصبح كل من ولدي السلطان محمود تحت إشرافه المباشر. وفي الثالث من رمضان عام ٥٢١هـ وصل بغداد الأمير مجاهد الدين بهروز، قادماً من بلاد فارس، ليتولى شحنكية العراق، فغادر زنكي ورجاله عاصمه العراق نحو الموصل لتسلم مهام منصبه الجديد [٢]، وتعتبر أتابكيَّة الموصل نواة للدولة الزنكية [٣].

ثالثاً: أهم صفاته:

كان عماد الدين زنكي حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين[٤]، معتدل الطول [٥]، وخط الشيب رأسه في سني حكمه الأخيرة [٦]، وكان ذا شخصية قوية، شديد الهيبة على رعيته وجنده [٧]، جاداً في معظم الأحيان، وكان جده الصارم يمنعه من الاستسلام للراحة أو الترف ويدفعه إلى مواصلة كفاحه من أجل أهدافه، ويجعل أصوات السلاح ألذ في سمعه من غناء القينات[٨]، وإليك أهم صفاته:

---

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص ١٠٨.
(٢) المنتظم (١٠/ ٥)، عماد الدين زنكي ص ٤٥. (٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٢٧.
(٤) الباهر ص ٧٦، عماد الدين زنكي ص ١٧٣.
(٥) الروضتين (١/ ١٠٨)، عماد الدين زنكي ص ١٧٣.
(٦) الباهر ص ٧٦، عماد الدين زنكي ص ١٧٣.
(٧) زبدة حلب (٢/ ٢٩٠ – ٢٩١)، عماد الدين زنكي ص ١٧٣.
(٨) الباهر ص ٨١، عماد الدين زنكي ص ١٧٣.

١- شجاعته: فقد ورث الشجاعة عن أبيه الذي تقدم في جيش ملكشاه وقد مر معنا شيء من سيرته وقوله لتتش المتصر وهو الأسير بين يديه: لو ظفرت بك لقتلتك، ويلقى حتفه نتيجة جرأته فيقتله تتش صبرًا [(١)]. وقد تقدم عماد الدين عند أمراء الموصل بشجاعته، وظهرت شجاعته في القتال في زمن مبكر، فقد سار مع مودود في غزوته ضد الإفرنج وخرج الإفرنج لطبرية للدفاع عنها، فحمل عليهم، وانهزم الإفرنج من أمامه وطعن باب سور طبرية طعنة أثرت فيه، وكانت أصحابه قد تأخروا عنه، لما قرب من الأسوار ومع ذلك قاتل متراجعاً، فعجب الناس من شجاعته ونجاته [(٢)]، قال أبو شامه في شجاعته: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها، وبيت سُكمان، وركن الدولة داود صاحب صحن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين ثم الفرنج ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم ويغزو كُلاً منهم في عقر داره ويفتح بلادهم، ما عدا السلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع وكلٌّ يداريه ويخضع له، ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده [(٣)]. وحمل على قلعة عقر الحميدية في جبال الموصل، وأهلها أكراد وهي على جبل عال، فوصلت طعنته إلى سورها، وفي حصار الرها، جمع امراءه عنده، ومد السماط، وقال: لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غداً في باب الرها، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد، وصبي واحد لا يعرفه، لما يعرفون من إقدامه وشجاعته وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: ما أنت وهذا المقام. فقال عماد الدين: دعه، فإني أرى والله وجهًا لا يتخلف عني [(٤)]، وكان يقدر الشجعان وكان لا يضطرب أمام أي خطر [(٥)].

٢- هيبته: كان عماد الدين ذا هيبة شديدة في نفوس أصحابه، لا يجرؤون على الجلوس بين يديه، واشترك معه في الحروب أجناس مختلفة، يحتاج ضبطها الدراية والمهارة والهيئة، فاستطاع بشخصيته القوية، فرض النظام على جميع جنده، وكان ذا هيبة وسطوة، وكان إذا

---

(١) مفروج الكروب (١/ ٢٦).
(٢) أخبار الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٠.
(٣) كتاب الروضتين (١/ ١٦٠). (٤) مفرج الكروب (١/ ٩٣).
(٥) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٥٩.

مشي يسير العسكر خلفه في صفين، كأنهم الخيط خوفاً أن يدوس أحدهم الزرع ولا يجسر أحد أن يدوس عرقاً منه، ولا يمشي فرسه فيه، ولا يجسر أن يأخذ من فلاح تبنًا إلا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية، وإن تَعَدَّ أحد صلبه[1]. وهيبته كانت في نفوس قادته قال علي كوجك نائبه بالموصل: لما فتحنا الرها مع الشهيد، وقع بيدي من النهب جارية رائعة أعجبني حسنها، ومال قلبي إليها فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد برد السبي والمال المنهوب، وكان مهيباً مخيفاً فرددتها وقلبي معلق بها [2]، وخرج يوماً من باب السر، في قلعة الجزيرة خطوة، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندرية من مماليك السلطان فحين رأى الشهيد سقط على الأرض فحركه فوجده ميتاً[3]، وركب يوماً فعثرت دابته، وكاد يسقط عنها فاستدعى أميراً، وكان معه، فقال له كلاماً لم يفهمه، ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد إلى بيته وودع أهله عازماً على الهرب فقالت له زوجته: ماذنبك وما حملك على الهرب؟ فذكر لها الحال، فقالت له: إن نصير الدين له بك عناية، فاذكر له قصتك، وافعل ما يأمرك به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب وأهلك. فلم تزل به زوجته تراجعه وتقوي عزمه إلى أن عرف نصير الدين حاله، فضحك منه وقال له: خذ هذه صرة الدنانير واحملها إليه، فهي التي أراد. فقال: الله الله في دمي ونفسي. فقال: لا بأس عليك، فإنه ما أراد غير هذه الصرة. فحملها إليه فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم، فأمره أن يتصدق به، فلما فرغ من الصدقة قصد نصير الدين وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة؟ فقال: إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم، يرسل إليّ يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كان يسقط إلى الأرض، فأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة [4]. واجتمع حوله العرب والترك والتركمان والأكراد والبدو، وكان يجتهد أن تضبط أمور هذه الجموع بحكمة القائد الماهر، ويضبطهم في أحرج الأوقات، فعندما اقتحم جنده الرها، وكادوا يأتون على ما فيها، كف أيديهم وحافظ على البلد لأن تخريب مثله لا يجوز في السياسة كما قال[5]. وخاف خصومه قصد ولايته لعلمهم أنهم لا ينالون منها عرضاً [6]، وبلغ من خوف الفرنجة منه أنه رفع الحصار عن قلعة البيرة لقتل نائبه في الموصل، فسلمها أهلها إلى حسام الدين تمرتاش خوفاً من عودة الشهيد إليهم [7]، وكان يخشاه سلاطين

---

(١) تاريخ حلب ص ٢٨٣، الحروب الصليبية ص ١٥٩.
(٢) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية نقلاً عن تاريخ حلب ص ١٥٩.
(٣) مفرج الكروب (١/ ١٠٥). (٤) المصدر نفسه (١/ ١٠٥).
(٥) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٥٩. (٦) الباهر ص ٢٥.
(٧) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٠.

السلاجقة، ولا يقدرون علي قصد بلاده، فيقول ابـن الأثـير: أراد السـلطان مسـعود زنكـي لإثارته الأطراف عليه، ومنع السلطان مسعود قصده حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله[1]، والخليفة المسترشد نفسه، حاصر الموصل فلم ينل منها شيئاً مدة ثلاثة شهور [2].

٣- ذو دهاء ومكر وحيلة: كان ذا دهاء ومكـر وحيلـة، وذكـاء نافـذ في مجابهـة المشـاكل الحربية والسياسية، وقد مكنه ذلـك مـن اجتيـاز كـثير مـن الصـعوبات، وتحقيـق مزيـد مـن الانتصارات، فمن مناورته البارعة ضد التحالف البيزنطي الصليبي عام ٥٣٢هـ أنه أرسل إلى قادته يقول: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقـي، وتكـون الغلبة لأحد الطرفين. فظن الروم والصليبيون أن وراءه قوات ضخمة أتاحت لـه أن يطـرح تحديه، فتجنبوا لقاءه وهو ما كان زنكي يرجوه، ثم راح بعد ذلـك يراسـل امبراطـور الـروم ويوهمه أن الصليبيين متفقون مع المسلمين سراً وبالعكس، واسـتطاع بـذلك أن يبـذر بـذور الانشقاق في الجبهة المسيحية مما اضطر قواتها إلى الانسحاب [3]. هذا بجانب أنه فـتح الرهـا وهو أكبر نصر حققه في حياته، معتمداً على الحيلة والمكر، إذ اتجه إلى آمد موهماً الصـليبيين أنه يسعى لحصارها، وما أن رحل أمير الرها عن حاضرته مطمئناً إلى انهماك زنكي بمشـاكله في ديار بكر حتى انقض الأخير عليها وتمكن من اجتياحها [4].

٤- ذكاؤه: من ذكائه أنه لم يظهر أنه مستقل عن السـلاطين السـلاجقة، بـل أظهـر أنـه يحكـم بأمرهم، فقد كان معه ولدان من أولاد السلطان محمود بن محمد السـلجوقي وهمـا ألـب أرسـلان وفرخشاه -ويعرف بالخفاجي- وكان يظهر أن الحكم له في بلاده، وأنه نائب عنه، وكان إذا أرسـل رسولاً أو أجاب على رسالة يقول: قال الملك كذا وكـذا، وكـان ينتظـر مـوت السـلطان مسـعود، ليجمع العساكر باسم ألب أرسلان، ويخرج الأموال ويطلب السلطنة، فعاجلته المنية قبـل ذلـك[5]، وكان ابنه سيف الدين غازي عند السـلطان مسـعود يشـق بطاعتـه[6]، وكـان يـثير الأطـراف علـى السلطان مسعود حتى يحتاجه ويجمعهم عليه مرة ثانية ليشتغل بهم عنه[7].

٥- يقظته وحذره: كان عماد الـدين زنكـي شـجاعاً غـير هيـاب، إلا أنـه كـان حـذراً يحتـاط

(١) الباهر والكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٠.
(٢) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٠.
(٣) الباهر ص ٥٥ – ٥٦، عماد الدين زنكي ص.١٧٤. (٤) الباهر ص.٦٧– ٦٨.
(٥) أخبار الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبيةتص ١٦٨.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٨،
(٧) مفروج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٨.

للأمور، فقد كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها، حتى في خلواتهم، ولا سيما بلاط السلطان، وكان يدفع في ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان، في ليله ونهاره، من حرب وسلم، وهزل وجد، فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدة كتب. وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الإطلاع على الصغيرة وكان يقول إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً، وكان لا يمكن لملك أن يعبر بلاده بغير إذنه، وإذا استأذنه رسول في العبور أذن له، وأرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها، ولا يعلم من أحوالها شيئاً. ومن آرائه أنه لما اجتمعت له الأموال الكثيرة، أودع بعضها بسنجار وبعضها بالموصل، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى علي بعض هذه الجهات فتق أو حيل بيني وبينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره [1]، وكان الرجل طويل الفكر كتوماً لا يعلن عما ينويه، إلا بعد أن يتخذ الأهبة الكاملة، وكان يفرض أسوأ الاحتمالات، ويعد نفسه لها، فلما سار من بغداد قاصداً الموصل أخذ البوازيج، وهي قرية قرب تكريت [2]، ليملكها وتقوى بها، ويجعلها في ظهره إن منعه جاولي عن البلاد [3]، ومن حذره: تردده في دخول دمشق بعد أن وعده جماعة من أهلها بفتح أبوابها له، خوفاً من أن يتفرق جيشه ولضيق المسالك ولإمكان مهاجمتهم من ظهور البيوت [4]. ولما وصل الروم الفرنج إلى الشام نازلوا حلب، ولم ير عماد الدين أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميرة [5].

٦- **قدرته على اختيار الأكفاء من الرجال:** وكان يختار الرجال الأكفاء، الذين أخلصوا له، وكانوا دعائم دولته، ودولة أبنائه من بعده، فقد كانت له همة عالية، ورغبة في الرجال وذوي الرأي والعقل، ويرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويوفر لهم العطاء، وقال ابن الأثير حكى لي والدي، قيل للشهيد إن هذا كمال الدين، ويحصل له في كل سنة ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منه بخمسمائة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إن كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، أن شغلاً واحدًا يقوم به كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال رحمه الله [6]، وكان

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٧.
(٢) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٧.
(٣) مفرج الكروب نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٨.
(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية ص ١٦٨.
(٥) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٨. (٦) كتاب الروضتين (١/ ١٥٩، ١٦٠).

يتعهد أصحابه ويمتحنهم فقد أعطى يوماً خُشكُنانكه [1] إلى طشت دار له وقال: احفظ هذه. فبقي نحو سنة لا تفارقه خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد سنة سأله عنها، فأخرجها من منديل كان لا يفارقه خوفاً من أن يطلبها منه، فاستحسن ذلك وجعله دزداراً لقلعة كواشي[2] – وهي قلعة حصينة في الجبال الواقعة شرقي الموصل-[3] وكان يخطب الرجال ذوي الهمم والآراء الصائبة والأنفس الأبية ويوسع في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع الرجال، ومن أسباب توفيقه أنه كان نقاداً للرجال، يعرف كيف يختار الأكفاء الصالحين منهم ويوليهم ثقته [4]، فمن هؤلاء:

أ- بهاء الدين الشهرزوري الذي يقول عنه ابن القلانسي: وكان صاحب عزيمة وهمة نافذة ويقظة ثابتة.

ب- ومنهم وزيره ضياء الدين أبو سعيد ابن الكفرتوثي، وكان حسب ما حكى عنه، حسن الطريقة، جميل العقل، كريم النفس، مرضي السياسة، مشهوراً بالنفاسة والرئاسة.

ج- ومنهم نصير الدين جقر، وقد كان لنصير الدين أخبار في العدل والإنصاف وتجنب الجور والاعتساف، أخباره متداولة بين التجار والمسافرين ومتناقلة بين الواردين والصادرين من الأسفار، وقد كان رأيه جمع الأموال من غير جهة حرام، لكنه يتناولها بألطف مقال وأحسن فعال، وأرفق توصل واحتيال، فهذا محمود من ولاة الأمور وقصد سديد في سياسة الجمهور، وهذه هي الغاية في مرضي السياسة والنهاية في قوانين الرياسة [5].

٧- تقديره للرجال: ويظهر تقديره للرجال من تولية نائبه بالموصل فبعد مقتل نصير الدين ارتاب فيمن يقيمه في موضعه، ويخلفه في منصبه، فوقع اختياره على الأمير علي كوجك، لعلمه بشهامته ومضائه في الأمور وبسالته، فولاه مكانه، وعهد إليه أن يقتفي آثاره في الاحتياط والتحفظ، وتتبع أفعاله في التحرز، واليقظة وإن كان لا يغني غناءه ولا يضاهي كفاءته ومضاءه، فتوجه نحوها، وحصل بها وساس أمورها، سياسة سكنت معها نفوس أهلها، وبذل جهده في حماية المسالك وأمن السوابل، وقضاء حوائج ذوي الحاجات، ونصرة المظلومين فاستقام الأمر وحسنت بتدبيره الأحوال وتحققت بيقظته في أعماله الأمان [6].

---

(١) معناها : كعكة. (٢) مفرج الكروب (١/ ١٠٣).
(٣) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٦. (٤) المصدر نفسه ص ١٦٦.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٥، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٦.
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٢.

٨- قليل التلون والتنقل: وكان عماد الدين زنكي رحمه الله قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغيّر على أحد من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغير، والأمراء والمُقَدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا معه أخيراً، من سَلِمَ منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشَّهْزُوري، فيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العليَّة والآراء الصائبة والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف[1].

٩- غيرته: اتصف عماد الدين زنكي بالغيرة الشديدة ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرض إليهنَّ كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جنودي لا يفارقونني في أسفاري وقلَّما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حُرمهم هلكن وفَسَدْن[2]، وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصّه وأقرب الناس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه عنه أنه يتعَّرض للحُرم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغسياني أن يسير مُجدًا ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلع عينيه، عقوبة لنظره بهما إلى الحرم، ثم يصلبه، فسار الصَّلاح مُجداً، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصَّلاح ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يُسلِّم عليك ويريد أن يُعلِّيَ قدرك ويرفع منزلتك ويسلِّمَ إليك قلعة حلب، ويوليِّكَ جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهَّز وتحدر مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دِجْلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصَّلاح وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ماله، فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله[3].

١٠- عدله: حرص عماد الدين زنكي على نشر العدل بين رعيته، فقد أوصى عماله بأهل حران، ونهي عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية، هذا ما حكاه أهل حران؛ وأما فلاحو حلب، فأنهم يذكرون ضد ذلك لأنه كان يلزم الناس ويجمع الرجال للقتال

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٦٣). (٢) الباهر ص ٨٤.
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٦١).

والحصار[1]، وكان من أحسن الملوك سيرة وأكثرهم حزماً وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل، يعجز القوي عن ظلم الضعيف. ومما رواه أبو شامة، أن الشهيد كان بجزيرة في الشتاء، فدخل الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي وهو من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده، ونزل بدار يهودي وأخرجه منها، فاشتكى اليهودي والشهيد راكب وبجانبه عز الدين أبو بكر الدبيسي، ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر، نظر إلى أبي بكر الدبيسي نظرة غضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقري ودخل البلد، فأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، ولم تكن الأرض تحتمل نصب الخيام، فوضعوا عليها التبن، وخرج إليها من ساعته[2]، وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأراضي، والاكتفاء بالإقطاعات، لأن الأملاك متى صارت لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم. ولحسن سيرته قصده الناس يتخذون بلاده داراً للإقامة[3]. ومن عدله أنه لما فتح المعرة وأخذها من الفرنج جاءه الناس يطلبون أملاكهم، وكان عماد الدين حنفي المذهب ومن مَذهب أبي حنيفة أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك المسلمين خرجت تلك الأموال عن أصحابها لصيرورة البلد دار حرب، فإذا عاد البلد بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال، ولما طلب الناس منه أملاكهم استفتى عماد الدين الفقهاء، فأفتوه بما يقتضيه مذهبهم، وهو أن الأملاك لبيت المال، ولا حظَّ لأصحابها فيها فقال رحمه الله: إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم ونحن نأخذ أملاكهم فأي فرق بيننا وبين الفرنج؟ كل من أتى بكتاب يدل على أنه مالك لأرض فليأخذها، فرد إلى الناس جميع أملاكهم، ولم يتعرض لشيء منها[4].

١١- عبادته: كان عماد الدين زنكي يشعر بمسئوليته كمسلم سواء في سياسته وعلاقاته العامة أم في سلوكه الشخصي، فقد كرس حياته وطاقاته في سبيل (الجهاد) ضد الصليبيين والجهاد من أفضل أركان العبادة[5]، واعتبر نفسه قائد المسلمين الأول في الوقوف بوجه الخطر الصليبي معتقداً أن مركزه – كأقوى أمير في المنطقة – يحتم عليه ذلك، ولعل موقفه من التحالف البيزنطي الصليبي ضد المسلمين عام ٥٣٢هـ يوضح طبيعة نظرته في هذا المجال، فعندما قرر الاستنجاد بالسلطان السلجوقي واعترض قاضيه بأن ذلك ربما أدى إلى تمهيد

(١) زبدة حلب ص ٢٨٤، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٢.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٥٧). (٣) المصدر نفسه (١/ ١٥٨).
(٤) مفرج الكروب (١/ ٧٥).
(٥) تاريخ دولة سلجوق ص ١٨٦، عماد الدين زنكي ص ١٨٦.

الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بلاده ردّ قائلاً: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار [١]، وكان كلما قرر التوجه لقتال الصليبيين استثار في المسلمين تعشقهم للجهاد، ففي عام ٥٢٤هـ - على سبيل المثال - اتجه إلى الشام وصمم العزم على الجهاد، وإعلاء كلمة الله [٢]، وفي عام ٥٣٢هـ سار إلى بعرين الخاضعة للصليبيين، وجمع عساكره وحثهم على الجهاد [٣]، وعندما عزم على فتح الرها عام ٥٣٩هـ تبعته العساكر.. عازمين على أن يؤدوا فريضة الجهاد [٤]. وقد لاقى فتحه للرها استبشاراً عاماً لدى المسلمين في كل مكان؛ فامتلأت به المحافل في الآفاق [٥] واعتبروه نصراً حاسماً للإسلام ضد الصليبية [٦]، ومن ثم فإن مفهوم الجهاد خلع على عماد الدين زنكي صفة إسلامية في نظر المسلمين إلى الحد الذي دفع العماد الأصفهاني إلى القول: بأنه كان قطباً يدور عليه فلك الإسلام [٧]، كما ذكر رنسيمان أن زنكي اعتبر نفسه «حامي الإسلام» ضد الصليبيين [٨] وتتضح نزعة زنكي الدينية في سياسته الداخلية وفي سلوكه الشخصي كذلك، وهناك العديد من الأمثلة التي تبين إلى أي مدى بلغ الحسّ الديني لدى هذا الأمير المسؤول، فعندما قام عام ٥٣٤هـ - على سبيل المثال - بتولية هبة الله بن أبي جرادة قضاء حلب قال له: هذا الأمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه، فينبغي أن تتقي الله [٩]. وكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار جهراً، ويتصدق بما عداها من الأيام سراً [١٠]. كما كان يستفتي الفقهاء والقضاة قبل إقدامه على كثير من الأعمال[١١]، وقد أقام الحدود الشرعية في أنحاء بلاده [١٢].

*** شبهات حول شخصية عماد الدين:** إن عدداً من المؤرخين يأخذون على زنكي لجوءه إلى الغدر والظلم إزاء أعدائه في بعض الأحيان، فيصفه الأصفهاني بأنه كان يبلغ في ذلك حد الظلم[١٣]، ويصفه الذهبي بالظلم والزعارة[١٤]، ويذكر أسامة بن منقذ كيف كان زنكي

(١) الباهر ص ٦٢، عماد الدين زنكي ص ١٧٥.
(٢) الباهر ص ٣٩، عماد الدين زنكي ص ١٧٥.
(٣) الباهر ص ٣٩، عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩، عماد الدين ص ١٧٦.
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(٦) المصدر نفسه ص ١٧٦، الباهر ص ٦٩، ٧٠.
(٧) تاريخ دول آل سلجوق ص ١٨٥.
(٨) عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(٩) زبدة حلب (٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥).
(١٠) الباهر ص ٨١، عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(١١) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(١٢) زبدة حلب (٢/ ٢٨٤)، عماد الدين زنكي ص ١٧٦.
(١٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٦.
(١٤) العبر في خبر من غبر (٤/ ١١٢).

أحيانا يسكت عن الأساليب القاسية التي اتبعها أحياناً بعض كبار موظفيه أمثال الياغيسياني حاجبه (١)، ونصير الدين جقر نائبه في الموصل (٢)، ويحمل ابن واصل عليه لدى استعراضه أحداث الهجوم على حماه عام ٥٢٤هـ - قائلاً: وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه، ولا شيء أقبح من الغدر. ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء، استفتى الفقهاء في ذلك، فأفتاه من لا دين له، وجوّز له ما لا يحل ولا يحسن شرعاً وعرفاً (٣). وقد ناقش الدكتور عماد الدين خليل تلك التهم وقال:.. ولعل ما يبرر لزنكي موقفه هذا إزاء أمراء الشام، محاولته الجادة لكسب الوقت وتوحيد العدد الأكبر من المدن ذات الحكم الذاتي هناك من أجل الإسراع بتشكيل الجبهة الإسلامية الموحدة للوقوف بوجه الخطر الصليبي، بعد أن أدرك عدم إمكان تحقيق نصر حاسم ضدهم في حالة تمزق بلاد الشام إلى إمارات عديدة متطاحنة، فكان لابد من الخدعة سيما إنها في حالة كهذه توفر على المسلمين كثيراً من الجهود والدماء، لذا نجد زنكي يستفتي الفقهاء قبل أن يقدم على فعلته هذه، وشبيه بهذا الحيلة الطريفة التي مكنته عام ٥٢٩هـ من الاستيلاء على الرقة، دون سفك قطرة دم واحدة (٤) وهل الحرب ضد الأمراء الذين أضعفوا وحدة الأمة ومصالحها الحيوية، إلا خداعهم والكيد لهم، أما إعدامه بعض أمراء بعلبك إثر استيلائه عليها بغد قتال عنيف عام ٥٣٤هـ فقد جاء نتيجة نقضهم بعض الشروط التي تم الاتفاق عليها قبيل مغادرتهم القلعة(٥). ولعل هذه الحادثة هي أبرز ما دفع المؤرخين إلى وصف زنكي بالقسوة والغدر، وقد أشار ابن الأثير - في الكامل - إلى ذلك بقوله: واستقبح الناس ذلك من فعله، واستعظموه وخافه غيرهم (٦). ولكن زنكي سرعان ما سعى إلي التعويض عن خطئه هذا وذلك بإصداره العفو عن العدد الأكبر من المحكوم عليهم بالإعدام، وتولية بعلبك لنجم الدين أيوب، وهو الذي بذل جهوداً مشكورة في التوسط لهؤلاء الأمراء والدفاع عنهم (٧). وفي حصار زنكي لقلعة جعبر عام ٥٤١هـ، جرت مفاوضات بين الطرفين وافق فيها على تسلم مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل فك الحصار عن القلعة وما إن وصله الرسول حاملاً المبلغ المتفق عليه حتى ردّه من حيث جاء، بعد أن وردته

---

(١) الاعتبار ص ١٥٧، عماد الدين زنكي ص ١٧٧.

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٧٧.

(٣) مفرج الكروب (١/ ٤٢).

(٤) عماد الدين زنكي ص ١٧٩.

(٥) زبدة حلب (٢/ ٢٧٣)، عماد الدين زنكي ص ١٧٩.

(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٧٩.

(٧) أخبار الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٧٩.

أنباء تشير إلى أن القلعة قد أوشكت على السقوط [1]، وهو موقف يبرره تماماً حرصه على وحدة الجبهة الإسلامية إزاء أنانيات الأمراء الصغار وأطماعهم الذاتية [2]. وأما ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يقول: ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد – قاصداً نفسه[3] فإنه لا يعني سوى عزمه على اتباع نظام المركزية في الإدارة، وتركيز السلطة بيد المسؤول الأعلى [4].

* **هواياته:** كان طبع زنكي الجاد، وعمله المتواصل من أجل تحقيق أهدافه السياسية والعسكرية، يستنفدان الكثير من وقته، ولا يتيحان له من الفراغ للراحة والتمتع إلا القليل القليل، وفي هذه الفترات المتباعدة من التحرر من العمل والمسؤولية، كان زنكي يسعى للترفيه عن نفسه وممارسة هواياته المفضلة التي كان الصيد والطراد أبرزها وأقربها إلى طبيعته الجادة[5]. ويحدثنا ابن منقذ عن الجولات التي قام بها مع أمير الموصل وعن أنواع الصيد ووسائله وحيله ولنستمع إليه: شاهدت زنكي يوماً، وكانت له الجوارح الكثيرة، ونحن نسير على الأنهار، فيتقدم البازدارية [6] بالبزاة ويطلقونها على طيور الماء، وتدق الطبول كجاري العادة، فتصيد – من طيور الماء – ما تصيد، وتخطئ ما تخطئ ، ووراءهم الشواهيق الجبلية على أيدي البازدارية، فإذا أخطأت البزاة أرسلوا الشواهيق على الطيور، ويستطرد ابن منقذ قائلاً: وشاهدته يوماً ونحن بظاهر الموصل.. وبين يديه بازدار على يده باشق، فطار ذكرُ دراج[7]، فأرسله عليه، فأخذه ونزل. فلما صار في الأرض – تمكن من الإفلات – فلما ارتفع لحقه الباز وأخذه ونزل به وقد ثبته[8]. ثم يمضي ابن منقذ ويقص علينا وجوهًا أخرى من الصيد الذي كان يألفه زنكي ويهواه فيقول: ورأيت زنكي وهو في صيد الوحش مراراً عديدة، فإذا ما نصبت الحلقة واجتمعت الوحوش داخلها – ثم حاولت الخروج – رموها، وكان زنكي من أرمى الناس، فكان إذا دنا منه الغزال، رماه فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح، وشاهدته وقد ضربوا الخيام، فوصل الوحش إلى الخيام، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئاً كثيراً.. وشاهدته يوماً ونحن بسنجار، وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: ها هنا ضبعة نائمة؛ فسار زنكي، ونحن معه إلى واد هناك والضبعة نائمة على صخرة في سفحة، فترجل ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابه، فوقعت أسفل الوادي، فنزلوا

---

(1) زبدة حلب (٢/ ٢٨٢٥ – ٢٨٣).
(2) عماد الدين زنكي ص ١٧٩.
(3) زبدة حلب (٢/ ٢٨٤)، عماد الدين زنكي ص ١٧٩.
(4) عماد الدين زنكي ص ١٨٠.
(5) المصدر نفسه ص ١٨٠.
(6) الاعتبار ص ١٩٢ – ١٩٣.
(7) الدراج : طير من فصيلة الدجاج.
(8) الاعتبار ص ١٩٢ – ١٩٣.

وجاءوا بها بين يديه وهي ميتة [1]. وكان الملوك والأمراء إذا أرادوا التقرب إلى زنكي وكسب وده قدموا له هدايا مما اصطادوه من طيور وحيوانات شتى، وكان يرد عليهم – بدوره – بهدايا مما جنته يداه في جولات الصيد والطراد فهوداً وبزاة وصقوراً [2]، ولم يكن تعشق زنكي لسباق الخيل ومهارات الفروسية بأقل من تعشقه للصيد والطراد، فهذه هواية تصدر هي الأخرى عن الطبع الجاد والرغبة في قضاء أوقات الفراغ بما هو مجد في عصر كانت الفروسية فيه شارته الأولى[3]. وفي فترات أخرى من فترات الفراغ المتباعدة كان زنكي يروح عن نفسه بالقيام منفرداً برحلات هادئة في نهر دجلة، متخففاً من أعباء ومهام إمارة شاسعة الأطراف يتربص بها الأعداء من كل جانب [4].

رابعاً: سياسته الداخلية:

اهتم عماد الدين زنكي بضبط إمارته، وكانت النظم التي سار عليها تعتبر امتداداً طبيعياً لما فصلناه في كتابنا عن السلاجقة، وتحول الموصل من عهد ولاة السلاجقة (٤٨٩ – ٥٢١هـ) إلى عهد الأتابكة لم يؤد إلى ظهور مؤسسات إدارية جديدة بالمرة على المنطقة بل إن معظم هذه المؤسسات ظل موجوداً في العهد الجديد مع إجراء بعض التعديلات واستحداث عدد قليل من المناصب التي اقتضتها الظروف السياسية، والعسكرية الجديدة. وأقام زنكي تنظيماته الإدارية على أكتاف مجموعة من الموظفين منحهم نوعاً من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونهم الإدارية، ولكن تحت إشرافه التام ومراقبته الدقيقة، وكان هؤلاء الموظفون يعملون في أربعة مجالات رئيسية هي:

* محافظة قلعة الموصل وسائر قلاع الإمارة. وكانت تسمى في كثير من الأحيان: النيابة، ويدعى متوليها (النائب).
* ولاية المدن والأعمال.
* الوزارة.
* الدواوين.

١- نيابة الموصل أو محافظة القلعة: أنشأ زنكي هذا المنصب حال دخوله الموصل في رمضان عام ٥٢١هـ وقد أطلقت المصادر عليه لقب النيابة أحياناً [5]، ودزدارية قلاع

---

(١) الاعتبار ص ١٩٢ – ١٩٣.
(٢) زبدة حلب (٢/ ٢٦٣).
(٣) عماد الدين زنكي ص ١٨١.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ذيل دمشق ص ٢٦٣ – ٢٧٠، عماد الدين زنكي ص ٢٣٤.

الإمارة أحياناً أخرى [1]. ولما كانت كلمة دزدار الأعجمية تعني حافظ القلعة فمن الممكن تسمية هذا المنصب بالمحافظة، وكان من مهام نائب الموصل أن يدير شؤونها وبقية أجزاء الإمارة نيابة عن زنكي، وأن يكاتب السلطان السلجوقي والخليفة العباسي عن أحوال الإمارة خلال تغيب الأمير [2]، ومن مهامه جمع الضرائب وجباية الأموال، والإشراف المستمر على أحكام تحصينات الموصل وتعميق خنادقها، فضلاً عن الأعمال العسكرية المحصنة كالدفاع عن المدينة[3]، والقيام بحملات توسعية بناء على أوامر زنكي [4] وكان نائب زنكي بالموصل يشرف على إقامة الحدود وتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر ومعاقبة كل منهم حسب جريمته فضلاً عن مراقبة أبواب العاصمة والطواف في أحياء التجارة والمال وغير ذلك من الأعمال [5]. وفي أغلب الظن أن السلطات الإدارية الواسعة التي كان نائب زنكي يمارسها كانت تتطلب جهازاً إدارياً واسعاً لتنفيذ الأوامر والقرارات[6]، ومن أشهر نواب زنكي في الموصل:

أ- نصير الدين جقر بن يعقوب ٥٢١ - ٥٣٩هـ: هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب: نصير الدين، وكان جقر أعظم أصحاب زنكي منزلة، وقد لعب دوراً هاماً في توليته على الموصل عام ٥٢١هـ [7]. واتبع جقر سياسة إدارية تضاربت المصادر في تحديد سماتها، بل إن المصدر الواحد لم يستطع تجنب هذا التناقض، فابن خلكان يصفه بأنه عرف بالعدل والإنصاف وتجنب الجور والظلم، ثم يشير إلى أن الطابع العام لسياسته وما اشتهر عنه هو الظالم وأنه كان: جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء مستحلاً للأموال [8]، ويشير الفارقي إلى ما لقي الناس منه من شدة الجور والظلم والقتل والمصادرات والأقساط[9]. وكان ظلم جقر – كما يشير ابن خلكان – أحد أسباب المؤامرة التي دبرها أحد الأمراء ضده [10]. وكان زنكي يقول عنه: إنه يخافني وما يخاف الله [11]. ووضح عماد الدين خليل هذه التناقضات بقوله:.. إن جقر اتبع سياسة شديدة قاسية ممتزجة بأسلوب من الرفق واللباقة أضفى على سياسته سمات العدل، ودفع بعض المؤرخين على عدم التأكيد على أي من الجانبين. ويظهر أنه كان

(١) الباهر ص ٣٥ ، الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٧٦).
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣، عماد الدين زنكي ص ٢٣٥.
(٣) وفيات الأعيان (١/ ٣١٥ ، ٣١٦).
(٤) الباهر ص ٦٤، عماد الدين زنكي ص ٢٣٥.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٢٣٥ – ٢٣٧.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٣٨.
(٧) الباهر ص ٣٤ – ٣٥.
(٨) وفيات الأعيان (١/ ٣١٥ – ٣١٦).
(٩) عماد الدين زنكي ص ٢٣٩.
(١٠) وفيات الأعيان (١/ ٣١٦).
(١١) الاعتبار ص ١٥٧.

قد اهتم إلى حد كبير بتجميع الأموال لحسابه وحساب أهله وأقاربه حتى إن زنكي لدى عودته إلى الموصل بعد مقتل جقر، استخرج ذخائره وصادر معظم ما لأولئك الأقارب [1].
إن أهم الأعمال التي أنجزها جقر خلال فترة نيابته هي إحكامه لاسوار الموصل. وحفره لخنادقها ودفاعه عنها ضد حصار الخليفة المسترشد العباسي عام ٥٢٧هـ الذي اضطر أخيراً إلى الإنسحاب بسبب صمود جقر [2] لقيادة جيوش زنكي لدى مهاجمة حصون الأكراد في الجهات الجبلية شمالي الموصل، حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها [3]، وكان يساعد جقر في حكم الموصل وال يعينه هو[4]

ب- زين الدين علي كجك بن بكتكين ٥٣٩ - ٥٤١هـ: يعتبر زين الدين علي كجك من أبرز رجال عماد الدين، وأحد قادته الكبار، وقد اشترك معه في معظم حروبه في بغداد والشام ومناطق الأكراد، وكان زين الدين رجلاً صالحاً، ذا أصل تركماني، لقب بكجك أي: القصير اللطيف، وكان معروفاً بالقوة والشجاعة والإقدام رؤوفاً بالفقراء مواسياً للمرضى[5] اشتهر بالمحافظة على حسن العهد، وأداء الأمانة، ولم يمارس غدراً قط [6]، وبلغ من تقواه أن قال عنه زنكي: إنه يخاف الله ولا يخافني [7]، وقد رأى عنه أهل الموصل كل خير[8]، واستقام له الأمر، وحسنت بتدبيره الأحوال [9]، وانتشر الأمن في المنطقة وازداد عمران البلاد [10]، وتحققت بهذا آمال السكان [11].

جـ- نائب زنكي في حلب: أدرك زنكي أهمية حلب بالنسبة لأعماله العسكرية والسياسية في الشام فاتخذها قاعدة له في المنطقة واعتبرها عاصمته الإدارية هناك، وأقام فيها جهازاً إدارياً يشابه إلى حد ما ذاك الذي أقامه في الموصل، وجعل على رأس هذا الجهاز نائبه في حلب ليقوم في منطقة الشام بما يقوم به نائبه في الموصل في الجهات الشرقية من إمارته[12].
وقد جعل عماد الدين زنكي نائبه في حلب المسؤول الأعلى عن الجهاز الإداري هناك، وكان نائبه من كبار القادة العسكريين وكان يطلق عليه أحياناً اسم «مقدم زنكي في حلب»، ومن

---

(١) وفيات الأعيان (١/ ٣١٦).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣١٥ - ٣١٦).
(٣) الباهر ص ٦٤، عماد الدين زنكي ص ٢٤٠.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٢٤٠.
(٥) الاعتبار ص ١٧٧ - ١٧٨.
(٦) الباهر ص ١٣٥.
(٧) الاعتبار ص ١٥٧، عماد الدين زنكي ص ٢٤١.
(٨) وفيات الأعيان (١/ ٣١٦)، عماد الدين زنكي ص ٢٤٢.
(٩) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١ - ٢٨٢.
(١٠) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١ - ٢٨٢.
(١١) الباهر ص ٨٤، عماد الدين زنكي ص ٢٤٢.
(١٢) زبدة حلب (٢/ ٢٤٥)، عماد الدين زنكي ص ٢٤٥.

أشهر نواب عماد زنكي في حلب سوار بن ابتكين، قدم إلى حلب عام ٥٢٤هـ هارباً من دمشق إثر تدهور علاقته بأميرها، وتقدم لعرض خدماته على زنكي؛ فأكرمه هذا وشرفه وخلع عليه، وأجرى له الإقطاعات الكثيرة وأعطاه ولاية حلب وأعمالها، واعتمد عليه في قتال الصليبيين، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور [1]، وكانت أعماله العسكرية هي التي أكسبته شهرة واستنفدت معظم أوقاته وجهوده بسبب قربه من المواقع الصليبية. وهكذا كان الأمير سوار يقوم بشن هجمات سريعة خاطفة على قوات الصليبيين وقوافلهم وكان – أحيانا أخرى- يمد قوات زنكي بجند من عنده يقودهم بنفسه إن دعت الضرورة، كما كان يقوم بالدفاع عن مدينة حلب وأعمالها ضد هجمات الصليبيين، وفضلاً عن الجنود النظاميين الذين اعتمدهم، كان ينضم إليه أحياناً كثيرة تركمان المنطقة [2]، طمعاً في الغنيمة أو حباً للجهاد. وقد استمر سوار في منصبه حتى مقتل زنكي عام ٥٤١هـ[3].

د- ولاة (نواب) زنكي على المدن والقلاع: يتضح مما سبق أنه كان لزنكي نائبان مركزيان هما: نائبه في الموصل الذي يشرف على الجهات الشرقية من الإمارة، ونائبه على حلب الذي يشرف على الجهات الغربية «أي القسم الشامي». وفضلاً عن هذين عين زنكي على المدن والأقاليم التي فتحها مجموعة من الولاة يطلق عليهم اسم النواب أو العمال[4].

٢- الوزارة: إن الوزارة في عهد زنكي ليست سوى جزء من التطور العام لهذا المنصب طيلة عصور التاريخ الإسلامي وتبلور منصب الوزير منذ العصر العباسي الأول، وكان عمله في البداية يقتصر على تنفيذ أوامر الخليفة العباسي لذا سمي هذا النوع من الاستيزار بـ «وزارة التنفيذ» وبعد مرور فترة قصيرة ظهر نوع آخر، عندما فوض الخليفة وزيره لإدارة شؤون مملكته، أطلق عليه «وزارة التفويض»[5]، واستمر هذا المنصب يتأرجح بين التنفيذ والتفويض حسب مركز الخليفة أو السلطان الحاكم[6]. ومن أشهر وزراء عماد الدين زنكي:

أ - الكفرتوثي ٥٢٨ -٥٣٦هـ: تجمع المصادر على أن أول من استوزره زنكي هو ضياء الدين أبو سعد بهرام بن الخضر الكفرتوثي[7] عام ٥٢٨هـ، ويتضح من هذا أن السنوات السبع الأولى من حكم زنكي لم يكن اتخذ خلالها وزيراً وربما كان نائبه في الموصل هذا

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ – ٢٤١، عماد الدين زنكي ص ٢٤٦.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٤٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٦.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٦
(٦) المصدر نفسه ص ٢٥٦.
(٧) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٣، وفيات الأعيان (٤/٢٢٨).

الذي يقوم بمهام الوزير، مما جعل زنكي يستغني عن هذا المنصب طيلة تلك المدة، وتذكر المصادر بالقول بأن الكفرتوثي كان مشهوراً بحسن الطريقة والكفاية وحب الخير والمذهب الحميد[1]، وقد قدم مع زنكي إلى حلب، مما يشير إلى أنه لم يكن مستقراً في الموصل بشكل دائم [2].

ب - أبو الرضا بن صدقة ٥٣٦ - ٥٣٨هـ: بقي الكفرتوثي في منصبه كوزير طيلة اثنى عشر عاماً، وتوفي في شبعان عام ٥٣٦هـ [3]، فاستوزر زنكي بعده جلال الدين أبا الرضا محمد بن صدقة [4]، ولكنه لم يستمر في منصبه طويلاً حيث عزل عام ٥٣٨هـ لأسباب أوجبت ذلك ودعت إليه [5]

ج - أبو المحاسن العجمي: يذكر ابن القلانسي أن زنكي ألقى القبض عام ٥٣١هـ على وزيره أبي المحاسن علي بن أبي طالب العجمي واعتقله في قلعة حلب، حيث بقي هناك بسبب مصادرته للأموال وانكسار المعاملات التي عجز عن القيام بها، وتأدية ما عليه من التزامات مالية [6]، ولم تقدم المصادر عن ترجمة العجمي شيئاً يستحق الذكر [7].

د - جمال الدين الأصفهاني: وأطنبت المصادر في وصف أخلاق جمال الدين، مركزة الأضواء على كرمه العجيب، تلك الأخلاق التي قربته من زنكي، وجعلته محبوباً ومشتهراً في أنحاء واسعة من العالم الإسلامي، ومنحته لقب الجود لكثرة جوده، كما دفعت أبناء زنكي - فيما بعد - إلى الاعتماد عليه في إدارة إمارتهم [8]، وقد أطلقت بعض المصادر عن جمال الدين وزير صاحب الموصل [9]، وذكرت بعض المصادر أن زنكي جعل جمال الدين: مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيماً لا مزيد عليه [10]، ويقول ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من جمال الدين الوزير في أيام زنكي من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحافظة - أي التحقيق - فيها، ما يدل على تمكنه من الكفاية. وتشير المصادر إلى أن زنكي عول على جمال الدين في الفترة الأخيرة من حكمه، في الإشراف على ديوانه، وزاد راتبه [11]، ومكنه في

(١) زبدة حلب (٢/ ٢٥٤)، عماد الدين زنكي ص ٢٦٢.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٦٢.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٥ ، عماد الدين زنكي ص ٢٦٢.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٢٦٢.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٧، عماد الدين زنكي ص ٢٦٣.
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣.
(٧) عماد الدين زنكي ص ٢٦٤.
(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٦، عماد الدين زنكي ص ٢٦٥.
(٩) الباهر ص ١١٨ - ١١٩، عماد الدين زنكي ص ٢٥٩.
(١٠) الباهر ص ١١٨ - ١١٩، وفيات الأعيان (٤/ ٢٢٨).
(١١) عماد الدين زنكي ص ٢٦٠.

منصبه[1]، ولم يحاول جمال الدين أن يستغل منصبه لجمع المال لحسابه الخاص، بل كان يأخذ ما يكفي لمعيشته ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي[2] مما زاد من اعتماد الأخير عليه وثقته به، فمكنه من أصحاب [3] ديوانه، وهكذا كان جمال الدين يتمتع بسلطات عملية واسعة، وخاصة في مسائل الإشراف على الديوان والمسائل المالية، فقد شغل جمال الدين منصباً خطيراً، وقد أطلقت معظم المصادر على جمال الدين لقب «وزير»[4].

هـ - الوزير مروان بن علي بن سلامة: كان وزير عماد الدين زنكي في الموصل مروان بن علي بن سلامة الطنزي نسبة إلى «طنزة » من ديار بكر، وكان مروان هذا قد ورد بغداد وتفقه على الغزالي والشاشي، ثم عاد إلى بلده ليدبر أمور الوزارة حتى وفاته عام ٥٤٠هـ[5].

٣- الموظفون ونظام التوظيف: اهتم عماد الدين زنكي بأمر الوظائف والموظفين اهتماماً كبيراً كي يستطيع أن يسيّر أمور دولته بشكل منظم، وكي يجنب جهازه الإداري الهزات التي كثيراً ما تعرقل سير الأمور وقد طبق زنكي مبادئ إدارية منها:

أ - مبدأ تكافؤ الفرص في المجال الإداري: كي يحقق هدفه آنف الذكر ويضع يديه على الموظفين الأكفاء فكان: يتعهد أصحابه ويمتحنهم، فلا يرفع أحداً فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه [6]، كما كان يجعل كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه.

ب - الثقة على قدر المعرفة: فكان يولي موظفيه ثقته على قدر ما يعلم منهم كي يشعرهم بالأمن والاستقرار وهو أمر ضروري لتقديم خدماتهم الإدارية على أحسن وجه.

ج - مبدأ كفاءة الشخص: فقد جعل من كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه [7].

د - ثقته في موظفيه: على قدر ما يعلم منهم؛ كي يشعرهم بالأمن والاستقرار، وهو أمر ضروري لتقديم خدماتهم الإدارية على أحسن وجه، فكان: قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغيّر، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا معه أخيراً، فلهذا

(١) تاريخ آل سلجوق ص ١٩٢ – ١٩٣، عماد الدين زنكي ص ٢٦٠.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٦٠. (٤) المصدر نفسه ص ٢٦٠.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٦٠.
(٥) طبقات الشافعية (٧/ ٢٩٥)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٥٥.
(٦) الباهر ص ٧٩، عماد الدين زنكي ص ٢٦٦. (٧) الباهر ص ٦٣، عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.

كانوا ينصحونه، ويبذلون نفوسهم له [1]، وهذا هو الذي دعا جمال الدين الوزير إلى وصف زنكي بأنه كان متمكناً قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ولا يتلون بأقوال أصحابه مما دفع أصحابه إلى حفظه [2].

هـ - انتقاء الموظفين: كان زنكي ينتقي موظفيه من الرجال ذوي الهمم العالية، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية[3]، فإذا ما أضيف إلى ذلك توسعه في رواتب موظفيه[4] أدركنا مدى إخلاص هؤلاء له ولعملهم، ومدى سير الأمور الإدارية في ولايته سيراً طبيعياً. وخير مثل على ذلك موظفه الكبير جمال الدين الأصفهاني الذي أظهر في أيامه من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والتحقيق فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية، فلما وزر جمال الدين نفسه لقطب الدين مودود بن زنكي، قلت كفايته وصار يهمل بعض الأمور، وعندما سأله أحد الموظفين عن السبب في ذلك أجاب: ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما هي أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه [5].

و- المركزية في الحكم: يقول بعض الباحثين: كان زنكي يؤمن بما سمي اليوم (الدكتاتور العادل). ويسعى إلى تطبيق هذا المبدأ في مجال الإدارة، فكان يقول: ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد - يعني نفسه- [6] ويقول عماد الدين خليل: كلمة ظالم تعني السيطرة الفردية المركزية في الحكم، وعدم السماح للموظفين الآخرين بالارتفاع إلى مستوى مسؤليته في الإدارة، ومشاركته في الحكم، ولهذا السبب - نفسه - لم يكن زنكي يسمح لموظفيه وعماله بظلم أحد من أفراد الرعية أو التعرض لهم بأي أذى. وقد عاقب عز الدين الدبيسي - وهو من أكابر أمرائه - لأنه سلب أحد يهود جزيرة ابن عمر بيته [7]، وعاقب أحد ولاته بسمل عينيه لتعرضه لامرأة [8] فخاف الولاة وانزجروا [9] وعجز القوي عن ظلم الضعيف[10].

---

(١) عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.
(٢) الباهر ص ٨٢ - ٨٣، عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.
(٣) أخبار الروضتين (١/ ١١٤). (٤) عماد الدين زنكي ص ٢٦٧.
(٥) الباهر ص ٨٢ - ٨٣، عماد الدين زنكي ص ٢٦٧.
(٦) زبدة حلب (٢/ ٢٨٤)، عماد الدين زنكي ص ٢٦٦.
(٧) الباهر ص ٧٧، عماد الدين زنكي ص ٢٦٧، (٨) الباهر ص ٨٤، عماد الدين زنكي ص ٢٦٧.
(٩) مرآة الزمان (٨/ ١٩٠).
(١٠) زبدة حلب (٢/ ٢٨٤).

ز - نهيه أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك: كان ينهي أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك قائلاً لهم: ما دامت البلاد بأيدينا فأي حاجة بكم إلى الأملاك، فإن الإقطاعات تغني عنها، فإن خرجت البلاد من أيدينا، فإن الأملاك تذهب معها ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم [1] وقد لخص زنكي بهذا التصريح سياسته العادلة إزاء الرعية، وموقفه من موظفيه، كما أوضح مفهومه عن الحكم المستبد العادل، وهذا هو الذي دفع عدداً من المؤرخين إلى التأكيد على سياسته العادلة لدى استعراضهم لسيرته [2]، وأنه كان يتقبل آراء الرعية وانتقاداتهم. ويروي ابن واصل أن زنكي كان يمارس الظلم في بدء أمره، فسمع في إحدى الليالي شخصاً يغني بيتين من الشعر عن العدل فبكى وتبّدلت نيته في الظلم، وألزم نفسه بالعدل منذ ذلك اليوم [3]، كما يشير ابن العديم إلى أن أهل حران امتدحوا سياسة زنكي العادلة معهم ثم يقول: وبلغني أنه لا يتجاسر أحد من رعيته، كائناً من كان، أن يظلم أحداً من خلق الله [4] وفي العموم كانت سياسته إلى العدل أميل وخالطها شيء من الظلم، وحرص على التخلص منه.

٤- الدواوين: كان ديوان زنكي يقاس بدواوين السلاطين السلاجقة لكثرة التجميل ونفاذ الأمر، وعظم الحاشية والخرج[5]، وهذا يؤكد أهمية ذلك الديوان وبلوغه مرحلة متقدمة من الاتساع والنمو وكثرة الموظفين وضخامة المصروفات بحيث إن أي مراجع كان يقصده كان يجد من «توفر موظفيه عليه ونظرهم في مصالحه ما يجعله كأنه في أهله»[6].

٥ - الأمن الداخلي والإعمار: استطاع زنكي، بإدارته الحازمة وضبطه للأمور[7]، وعدالته وبمساعدة أجهزة الجيش والبريد أن يحقق نتائج مهمة في إمارته في مجال إقرار الأمن والقضاء على المفسدين ونشر العمران في البلاد، حيث يشير ابن العديم إلى أن البلاد عمرت في أيام زنكي بعد خرابها وسادها الأمن بعد الخوف، وكان زنكي لا يبقي على مفسد[8]، وقد كان الأمن مضطرباً في الموصل نفسها خلال الفترة التي سبقت حكم زنكي، ويورد ابن الأثير نصاً يلقي ضوءاً على الموضوع، رغم ما فيه من مبالغة، يقول فيه: كان الناس

---

(١) الباهر ص ٧٧، عماد الدين زنكي ص ٢٦٨.

(٢)، (٣) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٦٨.

(٤) زبدة حلب (٢/ ٢٨٤) عماد الدين زنكي ص ٢٦٨. (٥) الباهر ص ٨٣، عماد الدين زنكي ص ٢٧٠.

(٦) عماد الدين زنكي ص ٢٧٠. (٧) الباهر ص ١٣، عماد الدين زنكي ص ٢٧٠.

(٨) زبدة حلب (٢/ ٢٨٤)، عماد الدين زنكي ص ٢٧٠.

لا يقدرون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة[1]، وكان معظم المناطق البعيدة عن المركز خربة لا عمران فيها ولا أمن، وسرعان ما ساد العمران هذه المناطق لدى مجيء زنكي [2]، بفضل حمايته للبلاد ومنعه المفسدين وكفه أيدي الأقوياء [3] وكان لانتشار الأمن في المنطقة أثر واضح في زيادة عدد السكان في إمارة زنكي [4]، كما غدت الموصل ملجأ للمهاجرين من بغداد بسبب فقدان الأمن هناك واشتداد الضوائق الاقتصادية [5] وبالإمكان معرفة الدور الذي لعبه زنكي في مجال الأمن بتتبع ذلك في الأيام التي أعقبت اغتياله حيث اضطربت الأعمال، واختلت المسالك، وانطلقت أيدي الحرامية في إفساد الأطراف والعبث في سائر النواحي [6].

وعندما كان زنكي يسيطر على المدن، لم يكن يترك جنوده يتحكمون بمقدراتها ويسيئون إلى أهاليها وينشرون الرعب والفوضى في ربوعها، بل كان سرعان ما يعين عليها والياً من قبله، كي تكون الكلمة والسلطة بأيدي رجال مدنيين، من أجل إحلال الأمن في المدينة وإعمارها [7]، وكان لا يسمح - أبداً - لجنده - خلال التحركات والعمليات الحربية بأن يعتدوا على الفلاحين بنهب أو تخريب مزارعهم، فكان العسكر يمشي خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ ولو مقداراً ضئيلاً من التبن من فلاح إلا بثمنه، أو يخط من الديوان إلى رئيس القرية وإن تَعَدَّ أحد صلبه [8]، ففي عام ٥٢٨هـ - مثلاً قام بالقضاء على أعمال النهب والفوضى التي كان يقوم بها بعض أكراد شرقي الموصل ضد الفلاحين[9]. وفي عام ٥٣٣هـ استولى على منطقة شهرزور التركمانية، فأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان [10] وفي عام ٥٣٧هـ استطاع أن يستولى على عدد من حصون الأكراد شمالي الموصل وأن يقضي على أعمال الفساد في المنطقة [11] وفي عام ٥٣٩هـ قام عسكره = إثر استرجاع الرها من الصليبيين - باستباحة المدينة خلال

(١) الباهر ص ٧٧، عماد الدين زنكي ص ٢٧٠ .
(٢) الباهر ص ٧٧ - ٧٨، عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٣) المصدر نفسه ص ٧٧.
(٤) (٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٧) عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٨) زبدة حلب (٢/ ٢٨٣ - ٢٨٤)، عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(٩) عماد الدين زنكي ص ٢٧١.
(١٠) الباهر ص ٥٧ - ٥٨، عماد الدين زنكي ص ٢٧٢.
(١١) الباهر ص ٦٤، مرآة الزمان (٨/ ١٩٠)، عماد الدين ص ٢٧٢.

الأيام الأولى من الفتح، فلما دخل زنكي البلد أعجبه منظره، فأسف لما ناله من الخراب، ورأى أن تخريبه وإخلاءه من أهله غير مستحسن من مثله فأمر بإعادة ما أخذ من سبي وأموال، فردوا عن آخرهم، وعاد البلد عامراً آهلاً آمناً [(١)]، ثم أصدر أوامره بإعادة إعمار الرها [(٢)]. ولا أدل على حب عماد الدين زنكي للإعمار ورفقه بأهالي المناطق المفتوحة من تعيينه نجم الدين أيوب واليًا على بعلبك عام ٥٣٤هـ، وهو الذي توسط لدى زنكي في العفو عن أمراء بعلبك الذين حكم عليهم بالإعدام، فأجابه زنكي إلى طلبه وولاه على بعلبك وأقطعه ثلثها [(٣)]

٦- سياسة الترحيل: اتبع زنكي ما يمكن تسميته بـ (سياسة الترحيل) أي نقل جماعة من مكان إلى مكان آخر لتحقيق غرضين: أولهما: التمكين لحكمه في بعض المناطق التي استولى عليها.

وثانيهما: اتخاذ بعض هذه الجماعات كقوات حاجزة بين ممتلكاته وبين مناطق الأعداء، ففي عام ٥٣٦هـ استولى على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات، ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل ورتب أصحابه فيها [(٤)]، وأغلب الظن أن آل مهراش هم حكام «الحديثة» الذين كانوا يهددون سيطرة زنكي على المدينة مما اضطره إلى إبعادهم. وفي عام ٥٤٠هـ وعندما أعلن أرمن الرها العصيان ضد زنكي واستطاع نائبه زين الدين كجك أن يقضي على المحاولة، أمره زنكي بإعدام قادة المؤامرة ثم قام بترحيل بعض الأرمن من المدينة، وأحل محلهم ثلاثمائة عائلة يهودية تخلصاً من خطر وجودهم[(٥)]. وخلال فترة مبكرة من حكم زنكي قام بنقل طائفة من التركمان تدعى «الإيوانية» مع أميرهم ياروق أرسلان إلى الشام، وأسكنهم في ولاية حلب، وأمرهم بجهاد الصليبيين، ومنحهم الحق في تملك كل ما استولوا عليه من البلاد العائدة لهؤلاء. وقد استطاعت هذه الطائفة – فعلاً – أن تسترد من الصليبيين الكثير من الأراضي المحيطة بحلب حيث بقيت بأيديهم إلى سنة ٦٠٠هـ [(٦)]. وكان ياروق مقدماً كبيراً وإليه نسبت الطائفة الياروقية من التركمان. وقد حققت هذه الطائفة – فضلاً عن أعمالها الحربية – نتائج عمرانية، إذ بنى ياروق وأتباعه على شاطئ نهر قويق

(١) الباهر ص ٦٩، عماد الدين زنكي ص ٢٧٢.
(٢) زبدة الحلب (٢/ ٢٧٩ – ٢٨٠).
(٣) كتاب الروضتين (١/ ٨٦ –٨٧).
(٤) المنتظم (١٠/ ١٠٢)، عماد الدين الزنكي ص ٢٧٣.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٢٧٣.
(٦) الباهر ص ٨٠، عماد الدين زنكي ص ٢٧٣.

-المار بحلب- عمائر كثيرة عرفت بالياروقية واشتهرت هناك [1]، وقد استفاد زنكي في توطيد الأمن الداخلي إلى حد كبير من جهاز استخباراته الدقيق[2]، ومن البريد، ويمكن القول بأن جند زنكي وحرسه وحاميات المدن قاموا - كذلك - بدور تنفيذي مهم في هذا المجال [3]

خامساً: النظم العسكرية عند عماد الدين زنكي:

١- الجيش: كانت مؤسسة الجيش هي القوة الضاربة التي استخدمها زنكي للقضاء على الإمارات المحلية لكي يوحدها في جبهة إسلامية متماسكة ليستطيع مجابهة الصليبيين، وقد اعتنى بجيشه بحيث أصبح قوياً متماسكاً، ومن الأمور المتعلقة بالجيش التي اهتم بها زنكي:

أ- ديوان الجيش: نظم زنكي ديوان الجيش، ليقوم بالإشراف على أمور الجند وتنظيمهم وتوزيع رواتبهم وأعطياتهم بانتظام[4]، وجعل على رأس هذا الديوان موظفاً أعلى يطلق عليه «أمير حاجب» [5]، وكان عمله أن ينصف بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمراجعة النائب، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد من الجند، وما ناسب ذلك [6]، كما كان ينظر في مخاصمة الأجناد واختلافهم في أمور الاقطاعات ونحو ذلك [7]، وذكر ابن الأثير أنه: كان لزنكي جماعة كثيرة من الخراسانية في الركاب أي ما يشبه الحرس الخاص المرافق للأمير -، لهم الجامكيات [8] الوافرة، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة، ففي بعض السنين تأخرت (رواتبهم) تأخراً يسيراً، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم زنكي مجتمعين، فعلم أنهم يشكون شيئاً، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له فقال لهم: أشكوتم إلى الديوان؟ قالوا: لا. قال: فهل ذكرتم حالكم لأمير حاجب؟ قالوا: لا. قال: فلأي شيء أعطي الديوان مائة ألف دينار وأعطى الأمير حاجب أكثر من ذلك، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها؟.. كان عليكم أن تشكوا حالكم إلى الديوان، فإن أهملوا أمركم قلتم (للأمير حاجب)، فإن أهمل أمركم شكوتم الجميع إليّ حتى أعاقبهم على إهمالهم، وأما الآن فالذنب عليكم. ثم أمر

(١) عماد الدين زنكي ص ٢٧٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٤.
(٤) الباهر ص ٨٣، عماد الدين زنكي ص ١٩٢.
(٥) الباهر ص ٨٣، عماد الدين زنكي ص ١٩٢.
(٦) صبح الأعشى (٤/ ١٩)، عماد الدين زنكي ص ١٩٢.
(٧) الخطط (٢/ ٢١٩)، عماد الدين زنكي ص ١٩٢.
(٨) الجامكيات : هي الرواتب العامة.

بتأديبهم وقطع (رواتبهم)، حتى شفع فيهم بعض الأمراء فعفا عنهم. ثم أحضر موظفي الديوان وأمير حاجب وقال لهم: إذا كنتم تهملون أمر جندي الذين تحت ركابي، ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي، وبهم من الحاجة إلى النفقات في أسفارهم ما تعلمونه، فكيف يكون حال من بعد عني؟ وأنكر عليهم ذلك، فخرجوا من عنده وفرقوا في الأجناد من أموالهم إلى حين وصول «رواتبهم» فأخذوا عوض ما أخرجوه [1]، ويعلق ابن الأثير على هذه الحادثة قائلاً بأن زنكي بهذا الإجراء: أصلح الجند لطاعة الديوان وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره [2].

ب- أمير حاجب زنكي: تولى صلاح الدين بن أيوب الياغسياني منصب أمير حاجب لدى زنكي، ويرجع ذلك في تولية الأخير على الموصل إذ كان أحد عضوين في الوفد الذي توجه إلى بغداد عام ٥٢١هـ لمفاوضة المسؤولين حول إقرار الوضع في المنطقة، وقد وعده زنكي بتوليته منصب أمير حاجب حالما يستقر في الموصل فلما دخلها عام ٥٢١هـ ولاه هذا المنصب الهام[3]، وقد ظل الياغسياني يلازم زنكي في حله وترحاله، واعتمد عليه هذا في مهامه العسكرية، وجعله أحد قواده الكبار. وكلفه بقيادة جيشه في عدد من المهام والمعارك العسكرية[4]، وتقدم لدى زنكي بالمناصحة وسداد التدبير وحسن السفارة وصواب الرأي[5]، ولذلك لم يعترضه أو يقيله من منصبه طيلة فترة حكمه [6].

ج- تنظيم الجيش وعناصره: تعتبر نظم عماد الدين زنكي امتدادًا لنظم السلاجقة من جهة وأساسًا للنظم الأيوبية والمملوكية من جهة أخرى ومن العناصر التي كانت تشكل جيش زنكي، الخراسانيون، والتركمان الذين كانوا يشكلون أعداداً كبيرة، إذ يشير ابن القلانسي إلى أن زنكي عندما حاصر الرها عام ٥٣٩هـ كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها (أي على الرها) وأداء فريضة الجهاد، فوصل إليه منهم الخلق الكثير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات [7] وقد استفاد زنكي من التركمان لجهاد الصليبيين بالدرجة الأولى. وقام بنقل طائفة من التركمان الإيوانية مع أميرهم «الياروق» إلى الشام وأسكنهم بولاية

(١) (٢) الباهر ص ٨٣، عماد الدين زنكي ص ١٩٣.
(٣) الباهر ص ٣٥، عماد الدين زنكي ص ١٩٥. (٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٩٥. (٦) عماد الدين زنكي ص ١٩٥.
(٧) الباهر ص ٢٧٩، عماد الدين زنكي ص ١٩٧.

حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنفذوه من البلاد التي لهم.. فكانوا يغادرون الفرنج بالقتال ويراوحونهم ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى سنة ٦٠٠هـ. وقد استفاد الأمير سوار بن ابتكين التركماني، نائب زنكي في حلب، من التركمان في غارته ضد الصليبيين في شمالي الشام واستطاع أن يحقق بواسطتهم انتصارات عديدة[١]، وكان التركمان ينتشرون في معظم أنحاء الشام وبخاصة مناطق الفرات وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة[٢] وكان زنكي يمضي إلى الفرات لجمع التركمان قبل القيام بمعاركه المهمة، إذ كان هؤلاء بأعدادهم الضخمة ومرانهم في الحرب، وشجاعتهم، يشكلون أهم عنصر في جيشه[٣]. وجاءت إشارات متعددة عن (الحلبيين) كقوة عسكرية اشتركت في معارك عديدة ضد الصليبيين في شمالي الشام بقيادة الأمير سوار، وقامت بدور أساسي في الدفاع عن حلب وبعض المدن الأخرى القريبة، عند هجوم الامبراطور البيزنطي المتحالف مع الصليبيين على هذه المنطقة عام ٥٣٢هـ[٤]، كما قام الحلبيون بدور مهم في فتح الرها عام ٥٣٩هـ جنباً إلى جنب مع الخراسانيين، إذ كان في (الحلبيين) أيضاً من هو «عارف بمواضع النقوب»، فنقبوا عدة مواضع مع الخراسانيين، وأشعلوا فيها النار مما أدى إلى انهيار بعض أجزاء السور ودخول المسلمين إلى الرها[٥]. وقد كان هؤلاء الحلبيون، من سكان حلب الأصليين، أي من العرب، بدليل ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يجبر فلاحي حلب على الالتحاق بجيشه في أوقات القتال[٦]، ويظهر أن هؤلاء كانوا يتركون الجيش ويعودون إلى أعمالهم الزراعية بعد انتهاء القتال، ولا ريب أنهم كانوا يتقاضون أجوراً على اشتراكهم في المعارك، سواء كانت أرزاقاً معينة، أم ما يحصلون عليه من الغنائم، وقد ذكر ابن واصل أن زنكي رحل إلى أرض حماة عام ٥٣٣هـ واستصحب من أهلها تسعة آلاف راجل يخدمون الركاب[٧]، أي للقيام بمهمة الحشم في خدمة الجيش وأمرائه في حلهم وترحالهم، فضلاً عن حراسة زنكي الخاصة، مما يشير إلى أن زنكي اعتمد على أهالي الشام في كثير من الأمور الحربية[٨]، واعتمد جيشه على عناصر أخرى كالبدو والأكراد[٩].

– **عدد جيش زنكي:** ويظهر مما سبق أن عدد جيش زنكي لم يكن ثابتاً، بل كان عرضة

(١) عماد الدين زنكي ص ١٩٧.
(٢) زبدة حلب (٢/ ٢٦٤ – ٢٦٨).
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩، عماد الدين زنكي ص ١٩٨.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٩٨.
(٥) (٦) (٧) (٨) (٩) المصدر نفسه ص ١٩٩.

للزيادة والنقصان بمن ينضم إليه من المتطوعين من حين لآخر. وقد حاول زنكي أن يضمن وجود مورد عسكري بشري ثابت، ففرض التجنيد الإجباري على بعض المناطق القريبة من مواطن الخطر، ولذلك كان يلزم أهل حلب بجمع الرجالة للقتال والحصار، إن كان ذلك في جهاد الكفار، فقد كان يجب عليهم ذلك وله إلزامهم به [١].

- **معسكرات عماد الدين زنكي:** هنالك إشارات محدودة عن معسكرات الجند، ففي شتاء إحدى السنين قدم زنكي إلى جزيرة ابن عمر، فنزل بالقلعة، وعسكر جنده في الخيام خارج المدينة [٢]، الأمر الذي يشير إلى وجود معسكرات غير ثابتة في الحالات الطارئة، وأما في الحالات الدائمة، فقد كان زنكي يقيم حامية عسكرية في كل مدينة أو حصن يفتحه بعد أن يقطع أراضيها لأمراء الحامية وجنودها[٣]، وهذا يؤكد وجود معسكرات ثابتة في مختلف المناطق التابعة لزنكي، ولم تحدد المصادر فيما إذا كانت سكنى الجند داخل القلاع أم خارجها[٤]؟

- **استخدام الخيل في جيش عماد الدين:** وردت إشارات عديدة عن اهتمام قوات عماد الدين زنكي بالخيل واستخدامها في مختلف الحروب، وفي الهجمات السريعة، وقد ذكر أسامة بن منقذ بعض اللمحات عن الخيول في عهد زنكي فكان الفارس يلبس الزردية، أو الكزاغند (أي الدرع) والخوذة ويقاتل بالسيف أحياناً وبالدبوس أحياناً أخرى [٥] وقد جرى التنافس بين قوات زنكي لاقتناء الخيول الحسنة[٦]، وكان للأمراء ركائبيون واصطبلات خاصة لخيولهم[٧]. ويشير ابن العديم إلى استخدام الخيل في معارك عام ٥٣٢هـ ضد الروم والصليبيين [٨]، وقد اعتمد الأمير سوار نائب زنكي في حلب على الخيول في غاراته التي شنها ضد الصليبيين[٩]. وهنالك إشارات مختصرة عن تنظيم النقل في جيش زنكي، إذ يشير ابن منقذ إلى استخدام زنكي للبغال [١٠]. ويظهر أن حروبه الجبلية دفعته إلى ذلك،

(١) عماد الدين زنكي ص ١٩٩.
(٢) الباهر ص ٧٦ – ٧٧، كتاب الروضتين (١/ ١١٠). (٣) عماد الدين زنكي ص ٢٠٠ الباهر ص ٦٦ ، ٦٩.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٢٠٠. (٥) الاعتبار ص ٩٨، عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(٦) (٧) عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(٨) زبدة حلب (٢٦٢ – ٢٦٧). (٩) عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(١٠) الاعتبار ص ٥٩ – ٦٠، عماد الدين زنكي ص ٢٠١.

كما استخدمت الإبل في مناطق الجزيرة المستوية في الظروف التي تطلبت السرعة[1].

د - استدعاء الجيوش وأساليب الحرب: قبيل إعلان الحرب كان زنكي يستدعي قوات من المتطوعين لتنضم إلى جيوشه النظامية المجهزة [2]. فعندما عزم على فتح الرها عام ٥٣٩هـ كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها، وأداء فريضة الجهاد فوصل إليه منهم الخلق الكثير [3]. كما كان يمر - في طريقه إلى الحرب- ببعض مدن إمارته ويجمع منها الجند ليضيفهم إلى قواته كما فعل مع أهالي حلب [4]، وحماة [5]. وكان الجهاد ضد الصليبيين أحد الدوافع المهمة في اشتراك المتطوعين في حروب زنكي وخصوصاً التركمان، كما كانت الرغبة في الغنائم والخوف من سلطة زنكي [6]، من الدوافع الأخرى لذلك. وكانت معظم المعارك التي خاضها زنكي عبارة عن هجمات ومحاصرة للحصون الكثيرة المنتشرة في منطقة الجزيرة والشام، أما المعارك المفتوحة فإنها كانت أقلّ من حروب الأسوار بشكل ملحوظ ولذلك قلت الإشارات عن الأساليب التي اتبعت فيها [7].

* **وكان للجواسيس أهمية كبيرة في المعارك التي خاضها زنكي،** وكانوا ينتشرون في مناطق العدو، ويطلعون أميرهم على تحركاته وإمكانياته لكي يكون على بينة من الأمر، وكان زنكي يحدد موقفه الحربي أحياناً بناء على ما يقدمه هؤلاء من معلومات [8]، ومن ثم يتجه هو أو أحد قواده على رأس الجيش لفرض الحصار، فإذا ما استدعت الظروف السرعة في السير اتخذ من الوسائل ما يكفل ذلك، ففي عام ٥٢٨هـ على سبيل المثال، توجه إلى (خلاط) وأراد الوصول إليها بسرعة، فسلك طريقاً عبر الجبال غير الطريق المسلوك، وكان جنده يستريحون، كل واحد في موضعه دون خيام [9]. وعندما توجه لحصار الرها عام ٥٣٩هـ استعان على السرعة بركوب النجائب (أي الإبل صغيرة العمر) [10]

* **حروب الأسوار:** قدمت بعض المصادر تفصيلات عن أساليب الأسوار، ففي حصار الرها، تقدم زنكي - أولاً - إلى أهل الحصن بتسليمه له دون أن يضطر إلى تخريبه، فلما رفضوا أمر المنجنيقات بالضرب، وقاد الشجعان لنزاله على شكل زحوف مستمرة لقتال

---

(١) الباهر ص ٦٨، عماد الدين زنكي ص ٢٠١.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩، عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٥) مفرج الكروب (١/ ٨٤)، عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٦) الباهر ص ٦٨، عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٧) عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٨) مفرج الكروب (١/ ٩٣)، عماد الدين زنكي ص ٢٠٢.
(٩) الاعتبار ص ٨٨ - ٨٩.
(١٠) الباهر ص ٦٨.

الحامية، وفي الوقت نفسه، كان النقابون العارفون بمواضع النقوب يعملون على نقب بعض المناطق الواقعة تحت الأبراج وبعد ذلك وضعوا فيها الأخشاب وأحرقوها فسقطت الأبراج واحترق السور واندفع جند زنكي إلى داخل الحصن [1].

* **أسلوب الاشتباك**: اتبع زنكي أسلوب الاشتباك مع حامية الحصن حالما يسمح المجال بذلك، إذ تبدأ المنجنيقات أولاً بضرب الأسوار، وما أن تحدث بعض الفتحات حتى يقوم عدد من جنده بهجوم سريع على تلك المناطق والاشتباك مع الحامية، فإذا ما قضوا على المدافعين فتحوا الطريق أمام الجيش للدخول إلى الحصن والاستيلاء عليه [2].

* **الناحية التموينية**: كان عماد الدين زنكي يؤكد في حصاره للحصون على الناحية التموينية، فيفرض حصاراً اقتصادياً على الحصن، فضلاً عن الحصار العسكري [3]، كما كان يؤكد على إثارة حماسة الجند بأن يشترك هو نفسه في الهجوم على الأسوار كما حدث في معركتي عقر الحميدية عام ٥٢٨هـ [4] والرها عام ٥٣٩هـ [5].

* **الحروب المفتوحة**: فقد اتبع زنكي أسلوب الحرب المفتوحة، حيث تقسم القوات إلى عدة مجموعات على رأس كل منها أمير: ميمنة، قلب، ميسرة، مقدمة، مؤخرة. وقد ظهرت براعة زنكي وقواده في استخدام الأساليب المختلفة في القتال كنصب الكمائن [6] وفي الحالات التي كانوا يرون فيها أن من الخطورة الدخول بمعارك مفتوحة مع العدو، إما لقلة عددهم، أو لعدم ملاءمة الظروف العسكرية لهذا النوع من القتال، في هذه الحالات، كان زنكي وقواده يلجأون إلى شن الغارات على معسكرات العدو والانسحاب بسرعة وكانوا يستهدفون من ذلك إقلاق تلك المعسكرات ونشر الخوف والفوضى في صفوفها وذلك بما يحدثونه في أطرافها من قتل واختطاف ونهب وتخريب، مما يؤدي أيضاً إلى اضطراب في تموين العدو، وهو عامل مهم لإضعافه، وقد حققت هذه الأساليب انتصارات عديدة لزنكي ورجاله [7]. وكان زنكي – أحياناً أخرى – يمارس ضغطه الاقتصادي ضد أعدائه عن طريق القيام بعمليات النهب والتخريب في المناطق التي تمد حصون هؤلاء بالتموين، كما حدث في

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩.
(٢) الاعتبار ص ١٥٥، عماد الدين زنكي ص ٢٠٣.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٢٠٣.
(٥) مفرج الكروب (١/٩٣ – ٩٤).
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩، عماد الدين زنكي ص ٢٠٤.
(٧) الباهر ص ٥٥ – ٥٦، مفرج الكروب (١/ ٧٨ ، ٧٩).

منطقة حمص في السنوات التي سبقت الاستيلاء عليها عام ٥٣٢هـ [١] وفي حصاره لدمشق عام ٥٣٤هـ أحرق عدة قرى من المرج والغوطة وشن الغارات على حوران وأعمال دمشق للنهب والتخريب [٢].

هـ - الأسلحة التي استخدمها عماد الدين زنكي في جهاده: فقد ورد ذكر بعض منها كالدبوس وهو آلة من حديد ذات أضلاع، والرماح، والسيوف، والقوس والسهم والنشاب والمنجنيقات والدبابة والكبش والقلعة المتحركة والتي كانت تستخدم لنقل الجند والمعدات الحربية إلى الأسوار لكي تحميهم من سهام الأعداء ونيرانهم [٣]، كما استعمل جند زنكي النار العادية لحرق الأسوار بعد نقبها وملئها بالخشب[٤]. وبلغت أسلحة زنكي من الكثرة في إحدى المعارك بحيث قال عنها الشاعر: ظننا البر بحراً من سلاح [٥]، وكان مع جيوش زنكي جرائحي لعلاج مصاب الحرب [٦]، وربما كان ذلك دليل على وجود مجموعة، أو هيئة ترافق جند زنكي لإسعاف الجرحى [٧].

*** سلوك الأمراء والجند تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة:** كانت الاعتبارات السياسية والعسكرية هي التي تحدد سلوك الجند وأمراءهم تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة، ففي عام ٥٣٣هـ على سبيل المثال، فتح زنكي حصن بزاعة بالسيف وقتل كل من فيه من الروم والفرنج [٨]، كرد انتقامي على سلوك الروم والصليبيين تجاه المسلمين لدى استيلائهم على هذا الحصن، ومعاملتهم لأهله بوحشية بالغة [٩]. كما أن هذا الحصن كان يشكل مركزاً عسكرياً مهما لقربه من حلب ومن ثم فإن وجود أية جماعة تؤيد الصليبيين فيه يشكل خطراً على المنطقة كلها، وكذلك يمكن القول في موقف زنكي عند فتح الرها عام ٥٣٩هـ، بعد مقاومة شديدة دفعته إلى إطلاق الحرية لجنده وأمرائه في الأيام الأولى من الفتح، فملأوا أيديهم من الغنائم والأسلاب والأسرى[١٠]، لكنه لدى إطلاعه على البلد أعجبه

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٠٤.
(٢) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٠٥.
(٣) تاريخ المماليك ص ٢٧٦، عماد الدين زنكي ص ٢٠٥.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ ، ٢٨٢، عماد الدين زنكي ص ٢٠٥.
(٥) الباهر ص ٦٨، عماد الدين زنكي ص ٢٠٥. (٦) الاعتبار ص ٥٩ - ٦٠.
(٧) عماد الدين زنكي ص ٢٠٦.
(٨) مفرج الكروب (١/ ٨٣)، عماد الدين زنكي ص ٢٠٦.
(٩) مفرج الكروب (١/ ٧٧ -٧٨)، عماد الدين زنكي ص ٢٠٦.
(١٠) عماد الدين زنكي ص ٢٠٦.

منظره فأسف لمثله في الخراب، ورأى أن خرابه وإخلاءه غير مستحسن، فأمر بإعادة ما أخذ من الغنائم والسبي فردوا، وعاد البلد عامراً، آهلاً بالسكان، بعد أن كان داثراً [1]. وهكذا نجد أن موقف زنكي بالسماح لجنده بالنهب والأسر كان ذا اعتبار عسكري بسبب المقاومة العنيفة وتلك الأعمال كانت ذات اعتبار سياسي، إذ كان يرمي من وراء ذلك جعل المسيحيين الوطنيين في الرها كتلة واحدة يفيد منها ضد الصليبيين الذين يخالفونهم في المذهب، ولعله أراد أن يستعين بالمسيحيين الوطنيين بالإضافة إلى الحامية التركية في المحافظة على الرها بعد طرد القوات الصليبية منها [2] ولذلك اجتهد في مصالح أهل الرها ووعدهم بإجمال السيرة وبسط العدالة [3]، وعلى هذا الأساس كانت معاملة زنكي لأهل بعلبك وأمرائها بعد أن أعطاهم الأمان، إذ أن ما اتخذه معهم من شدة وقسوة قصد به إثارة خوف المقاتلين له من المسلمين في دمشق [4].

و- علاقة عماد الدين زنكي بجنوده: قامت علاقة عماد الدين زنكي بجنده على النظام والطاعة والانضباط من جهة، وعلى الود والتعاطف والرأفة من جهة أخرى، بسبب ما قدمه للجند من رواتب حسنة، وما شمل به أهليهم من رعاية واهتمام [5]، وكان عقابه صارماً للمخالفين من جنده سيما إذا كانت مخالفتهم على حساب الرعية [6]، وقد بلغ زنكي من السطوة والنفوذ لدى جنده أنه: إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع، ولا يجسر أحد من هيبته أن يدوس عرقاً منه، ولا يمشي فرسه فيه، ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ من فلاح حفنة من التبن إلا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية [7]، وكان زنكي يقدر الدور المهم الذي يؤديه الجند في خدمة الإمارة لذلك عني بتوفير الراحة والاستقرار للجندي في كل ما يتعلق به، وبخاصة عائلته وزوجته؛ فكان شديد الغيرة على الحريم، لا سيما نساء الجند، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها وقد علل ذلك بقوله: إن جندي لا يفارقونني في أسفاري وما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن [8]، ولذلك كان يعاقب المتعرضين للنساء أشد العقاب وقد مر معنا قصة والي جزيرة ابن عمر التابع لعماد الدين

---

(1) عماد الدين زنكي ص٢٠٦.
(2) الحروب الصليبية، العريني (١/ ٨٥٢٧).
(3) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠.
(4) عماد الدين زنكي ص ٢٠٧.
(5) المصدر نفسه ص ٢٠٩.
(6) كتاب الروضتين (١/ ١١٠)، عماد الدين زنكي ص ٢٠٨.
(7) زبدة حلب (٢/ ٢٨٣ – ٢٨٤).
(8) الباهر ص ٨٤ ، عماد الدين زنكي ص ٢٠٨.

زنكي (حسن البرطي) وكيف جرده من كل أمواله وعاقبه [1].

ز- الاستخبارات: أقام عماد الدين زنكي جهازاً للمخابرات وخصص له الموظفين والرواتب وقد ورد عنه أنه: كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، وكان له في بلاط السلطان السلجوقي من يطالعه ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره، ومن حرب وسلم، وهزل وجد، وكان (يصرف) على ذلك الأموال الجليلة، وكان يصل إليه في كل يوم عدة قاصدين أو كتب[2]، كما كان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار [3]، وقد اتصف عماد الدين زنكي بالدراية الواسعة والحذر في هذا المجال: فكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير إذنه، وإذا استأذنه رسول في العبور إلى بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً ألبتة [4]، كما كان لا يمكن أحد موظفيه من مغادرة بلاده ويعلل ذلك بأن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها، زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها[5]. وهنالك عدد من الروايات حول هروب بعض موظفيه وفلاحيه إلى الإمارات الأخرى وإلحاحه بإعادتهم إلى إماراته حتى لو اضطره ذلك إلى استخدام القوة[6]. وقد قدم جهاز مخابراته خدمات مهمة له في ظروف شتى ولعب دوراً هاماً في حصار بعرين عام ٥٣١هـ [7]، وحصار الرها عام ٥٣٩هـ [8]، كما كان يستخدمه عماد الدين على أحوال الجند لدى حصارهم بعض المواقع وملاحظة ما يصل إليهم من رواتب وسلاح [9]، وكان عماد الدين زنكي مع اشتغاله بأمور الدولة الهامة لا يهمل الاطلاع على القضايا الثانوية، معللاً ذلك بأن الصغير إذا لم يعرف ليمنع، صار كبيراً [10]. وكان من الطبيعي أن رجال المخابرات في الدولة الزنكية ارتبطوا بعماد الدين مباشرة نظراً لأهمية دورهم السياسي والعسكري، ولأنهم كانوا يتسلمون أوامرهم المباشرة منه [11].

---

(١) الباهر ص ٨٤، عماد الدين زنكي ص ٢٠٨.
(٢) الباهر ص ٧٨، كتاب الروضتين (١/ ١١١)، عماد الدين زنكي ص ٢٠٩.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٢٠٩ نقلاً عن الباهر.
(٤) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٠٩.
(٥) مفرج الكروب نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(٦) كتاب الروضتين (٢/ ٢٨٣).
(٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(٨) عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(٩) الباهر ص ٧٨ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(١٠) الباهر ص ٧٨، عماد الدين زنكي ص ٢١٠.
(١١) عماد الدين زنكي ص ٢١٠.

١- كان عماد الدين زنكي رجلاً ذا هدف واضح: وهذا أول شروط النجاح، وكان جاداً ومثابراً في تنفيذ خططه، وكان غالباً لا يهادن الصليبيين، قاسياً عليهم وكان حريصاً على نشر الخوف في حصونهم وقلاعهم ومدنهم، وكان يقدر الظروف الحربية، فقد هادن جوسلين عندما قدم إلى الموصل لكي يتفرغ لإصلاح البلاد وتجنيد الأجناد، وتجنب مهاجمة مملكة بيت المقدس، حتى لا يثير أوروبا ضده، فقد كان هدفه القضاء على الأطراف مثل الرها، وإضعاف أنطاكية والقضاء على إمارة طرابلس، وله فقه كبير في السياسة الحربية [١] سنبينه بإذن الله تعالى عند الحديث عن جهوده الوحدوية وأعماله الجهادية.

٢- نظام الإقطاع العسكري: أدرك زنكي ضرورة توزيع الإقطاعات على أمرائه وجنده نظراً لطبيعة الظروف الحربية والسياسية التي جابهتها إمارته، حيث انتشرت مجموعة من الإمارات المحلية المتنافسة في الجزيرة والشام والجبال وشرقي الموصل، فضلاً عن إمارات الصليبيين، فكان ذلك يحتم عليه اتباع الأساليب التي تضمن له تشكيل قوة عسكرية متمكنة، يخلص أفرادها لأميرهم ومصلحة إمارتهم بناء على وجود مصالح مشتركة، وليس ثمة في تلك الفترة ما هو أحسن من الأسلوب الإقطاعي لضمان تكوين الجندي المخلص والجيش القوي المنظم، لذلك كان أول عمل قام به زنكي عند دخوله الموصل ٥٢١هـ هو «تقرير قواعد الجنود وإقطاع العساكر» [٢]، كما جعل من منهجه قبل الاصطدام مع الصليبيين، الاستيلاء على ما بقي من البلاد الشامية والجزرية، وإصلاح شأنها، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم [٣]، وفي سبيل تحقيق ذلك عقد هدنة مؤقتة مع صليبي الرها [٤]، ولم تكن معظم مدن الموصل والجزيرة وشمالي الشام خاضعة لزنكي عند توليته هذه المناطق رسمياً من قبل السلطان السلجوقي، لذا غدت معظم عمليات التوزيع الإقطاعي متوقفة إلى حد كبير على فتوحاته، ومتدرجة زمنياً مع أوقات هذه الفتوحات، فكان كلما استولى على بلد «رتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء» [٥]، وفضلاً عن قيام المقطع بالدفاع عن المنطقة وإمداد جيوش زنكي بقوات من عنده في حالات القتال [٦]، فقد استخدم الأخير الإقطاع لأغراض أخرى أهمها الغرض

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٦٩ ، ١٧١.
(٢) الباهر ص٣٦، عماد الدين زنكي ص٢١٨.
(٣) الباهر ص ٣٧، عماد الدين زنكي ص ٢١٨.
(٤) الباهر ص ٣٧، مفرج الكروب (١/ ٣٦).
(٥) الكامل نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٨.
(٦) مفرج الكروب (١/ ١٠٣)، عماد الدين زنكي ص ٢١٨.

الإداري، وهو قيام المقطع بإدارة أمور ولايته كوال من قبل زنكي على تلك المنطقة[1]، أو لإبعاد الشخص الذي يرى في وجوده خطراً بإقطاعه منطقة بعيدة [2]، أو لإكرام بعض أمرائه المقربين اعترافاً بفضلهم [3]، أو لإغراء بعض أعدائه بتسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق [4]، كما أنه تنازل عن بعض الحصون التي فتحها في ديار بكر لحسام الدين تمرتاش أمير بني أرتق وذلك لأغراض سياسية تستهدف تقوية حلفه مع حسام الدين ضد أعدائه في المنطقة [5]، وإليك أسماء بعض الأمراء والقواد الذي أقطعهم زنكي بعض المدن والحصون:

أ- الأمير جاولي الذي كان وصياً على ابن عز الدين مسعود والي الموصل المتوفي عام ٥٢١هـ أُقطع الرحبة تخلصاً من خطره [6].

ب- بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري، قاضي قضاة الموصل، وهبه زنكي أملاكاً وإقطاعاً [7]، لم تحددها المصادر [8].

ج- أبو بكر البكجي، أحد كبار أمراء زنكي، أقطع نصيبين [9].

د- سوتكين الكرجي، أُقطع حران عام ٥٢٢هـ أو ٥٢٣هـ، وفي عام ٥٢٧هـ أعلن العصيان وقد استطاع زنكي القضاء عليه عام ٥٣٣هـ وعين نوابه هناك [10].

هـ- صلاح الدين الياغسياني (أمير حاجب) أُقطع حماة عام ٥٢٣هـ.

و- زين الدين علي كجك بن بكتكين، أحد كبار قواد زنكي أقطع أربل عام ٥٢٦هـ[11]، وعقر الحميدية وأعمالها عام ٥٢٨هـ [12] وشهرزور [13].

ز- شهاب الدين أمير الجاندار، أقطع الرقة عام ٥٢٩هـ [14].

ح- نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه: أقطعهما زنكي في بلد شهرزور إقطاعاً سنياً، وقيل إنه أقطع أسد الدين بالمؤزر[15] وذلك بعد التجائهما إليه في أواخر عام ٥٣٢هـ.

---

(١) عماد الدين زنكي ص ٢١٨.

(٢) الباهر ص ٣٥، عماد الدين زنكي ص ٢١٨.

(٣) الباهر ص ١٦ ، عماد الدين زنكي ص ٢١٨.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠، عماد الدين زنكي ص ٢١٩.

(٥) عماد الدين زنكي ص ٢١٩.

(٦) كتاب الروضتين (١/ ٧٦)، عماد الدين زنكي ص ٢١٩.

(٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢١٩.

(٨) عماد الدين زنكي ص ٢١٩.

(٩) الباهر ص ٧٩.

(١٠) مفرج الكروب (١/ ٨٤).

(١١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨.

(١٢) عماد الدين زنكي ص ٢٢٠.

(١٣) (١٤) (١٥) المصدر نفسه ص ٢٢٠.

ط- عز الدين الدبيسي من أكابر أمراء زنكي، كانت دقوقا من جملة إقطاعه [١].

ي- ناصر الدين كوري بن جكرمش (والي الموصل ٤٩٥ - ٥٠٠هـ) أقطعه زنكي إقطاعاً كثيراً اعترافاً بفضل والده [٢]

ك- الأمير سوار بن ابتكين التركماني، ولي حلب عام ٥٢٤هـ [٣]، وأجرى عليه زنكي الإقطاعات الكثيرة، واعتمد عليه في قتال الفرنج [٤]

ل- نجم الدين أيوب الذي ولاه زنكي بعلبك عام ٥٣٤هـ، بعد أن أقطعه ثلثها، وقيل: نصفها [٥]. وكان زنكي يمتلك بعض الإقطاعات خارج حدود إمارته، حصل عليها في ظروف استثنائية، كتلك التي وهبه الخليفة المقتفي إياها، من أملاكه الخاصة في بغداد، رغبة في استمالته[٦]، وقال متحدثاً عن ذلك: هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف، وهي أن يكون له في العراق إقطاع [٧]. ومن ثم اعتبر هذا النوع من الاقطاع شاذاً.

فهذه بعض الأسماء التي قدمتها المصادر عن مقطعي زنكي من كبار الأمراء والقواد، والراجح أن عدداً كبيراً من المقطعين لم تشر إليهم المصادر، إما إغفالاً منها أو لعدم أهمية الأماكن التي أقطعت لهم من النواحي العسكرية والجغرافية وربما لقلة اشتهار المقطعين أنفسهم [٨]، وقد وزعت الإقطاعات على الجند فضلاً عن الأمراء، وتشير النصوص الواردة في ذلك إلى أن زنكي كان يقوم بنفسه أحياناً، بتقرير قواعد الجند وإقطاعهم[٩]، وأورد ابن الأثير في الباهر الإجراء الذي اتخذه زنكي بشأن أمرائه المقطعين، إذ نهى هؤلاء عن اقتناء الأملاك معللاً ذلك بقوله: ما دامت البلاد لنا فأي حاجة بكم إلى الأملاك؟ فإن الاقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم، وغصبوا أملاكهم [١٠]. وهذا النص يؤكد بوضوح عدم وجود ملكية مباشرة للأرض من قبل المقطعين بل كانت هذه الملكية بيد

---

(١) (٢) عماد الدين زنكي ص ٢٢٠.

(٣) (٤) (٥) (٦) المصدر نفسه ص ٢٢١.

(٧) الباهر ص ٥٤.

(٨) عماد الدين زنكي ص ٢٢١.

(٩) الباهر ص ٣٥ – ٣٧.

(١٠) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٢٢.

الفلاحين [1]، والأهالي [2]، مقابل دفع ضريبة سنوية للحكومة والمقطعين[3]، وقد كان لهذا الإجراء الذي اتخذه زنكي بمنع المقطعين من «التملك» نتائج إيجابية:

* إذ أن اقتناء الأملاك من قِبل هؤلاء يؤدي إلى أضرار عديدة قد تلحق بالأهالي وبمصلحة الإمارة على حد سواء، أولها ما يجر إليه المقطعين من ظلم للرعية واعتداء عليهم واغتصاب لأملاكهم، ذلك أن الأمير في حالة كهذه سيستخدم ما يمتلكه من نفوذ وسلطة للضغط على أصحاب الملك ببيعه ملكهم بأقل ثمن، وربما دفعهم إلى التنازل عنه بالقوة [4]، وقد أدرك ابن الأثير مدى عدالة زنكي في هذه الخطوة فعلق عليها قائلاً: فما أحسن هذا الخلق – أي خلق زنكي– وأحسن هذا النظر للرعايا، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم. ولا خلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل، وكف الأيدي المتطاولة إلى أهلها [5]

* وفضلاً عن ذلك، فإن من نتائج اقتناء المقطعين للأملاك تجمع الثروة بأيدي طبقة محدودة من الأمراء، واحتكار هذه الطبقة لموارد الرزق، بينما تبقى أكثرية السكان في فقر مدقع.

* هذا إلى أن اقتناء الأمراء للأملاك والعناية بها قد يؤدي بهم إلى عدم توجيه جهودهم لكل ما يتعلق بالجندية والدفاع وهي الأمور التي أقطعوا الأراضي والأعمال من أجلها [6].

ويستدل من بعض الروايات أنه لم يكن يشترط في المقطع البقاء في إقطاعه خاصة إذا كان من أصحاب الوظائف العالية التي تقتضي ملازمته لزنكي، وكان المقطع في هذه الحالة ينيب عنه من يقوم بإدارة إقطاعيته، كما حدث بالنسبة لجمال الدين محمد بن أيوب الياغسياني، أمير حاجب زنكي، الذي أقطع عدة مدن، فأناب في كل منها من يعتمد عليه في إدارة شؤونها[7]؛ كحماه التي أناب فيها ابنه شهاب الدين أحمد [8]، وحصن الخربة الذي أناب فيه عيسى الحاجب [9]، وكذلك بالنسبة لزين الدين على كجك بن بكتكين قائد زنكي

(1) زبدة حلب (٢/ ٢٨٣ – ٢٨٤)، عماد الدين زنكي ص ٢٢٣.
(2) مفرج الكروب (١/ ٧٤ – ٧٥).
(3) الباهر ص ٧٩، زبدة حلب (٢/ ٢٨٠).
(4) عماد الدين زنكي ص ٢٢.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ٢٢٣.
(6) (7) عماد الدين زنكي ص ٢٢٣.
(8) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨، الاعتبار ص ٩٧ – ٩٨.
(9) الاعتبار ص ٧٨.

في الموصل، الذي أقطع أربل وعقر الحميدية وأعمالها، ومن المرجح أنه أناب عنه فيهما من يدير شؤونهما، بدليل عدم مغادرته الموصل إلى إقطاعه في أربل إلا عام ٥٦٣هـ [(١)].

وتشير الروايات إلى أن نور الدين محمود بن زنكي أدخل نظام التوريث في الإقطاع، إذ كان: من آرائه الحسنة ما كان يعتمده في أمر أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلف ولداً ذكراً، أقر الإقطاع عليه. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها وكان ذلك من أعظم الأسباب لصبر الجند في الحروب بين يديه [(٢)]. وقد رجح الدكتور عماد الدين خليل أن زنكي سبق ابنه في إدخال هذا النظام، إذ هنالك سابقة من عهده تُشير إلى هذا الاتجاه الجديد في نظام الإقطاع، وذلك عندما قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق إلى الشام؛ وأسكنهم بولاية وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكاً لهم، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم وأخذوا كثيرًا من السواد [(٣)]، وسدوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ٦٠٠هـ. ولا شك أن زنكي، أدرك، كما أدرك ولده من بعده، مدى النتائج الإيجابية التي يمكن أن يؤدي إليها نظام التوريث هذا، وأهمها إخلاص جنده له، واستماتتهم في القضاء على ما يهدد إمارته من أخطار لما في ذلك من مصلحة لهم ولأولادهم الذين سيرثون إقطاعهم من بعدهم [(٤)].

٣- نظام الإعداد القيادي (الأتابكية): وهي كلمة مشتقة من الكلمة التركية أتابك المركبة من المقطعين (أتا) بمعنى: أب و « بك» بمعنى أمير، وتعني «الوالد الأمير» وكان هذا اللقب يطلق على من يتولى تربية أبناء الملوك والسلاطين، ويرعى شؤونهم. وكان الأتابك: هو الحاكم الأعلى في الأتابكية، وكان يلقب بالملك أيضاً، وله الإشراف على جميع شؤون المملكة أو الأتابكية، كما أنه يعد المسؤول الأول عن السياسية الخارجية، ومن حقه أن يعلن الحرب ويقود الجيوش، ويعين الولاة والقواد، فهو لذلك أشبه بالسلطان السلجوقي، كما أن له الحق في نقش اسمه على السكة، والدعاء له في الخطبة إلى جانب اسم الخليفة والسلطان[(٥)].

وقد عرف عماد الدين زنكي بلقب (الأتابك) منذ تعيينه حاكماً على الموصل عام ٥٢١هـ واشتهرت الإمارة التي أسسها باسم (أتابكية الموصل)، والسلالة التي أعقبته في الحكم باسم الأتابكة،

(١) الباهر ص ٧٨ ، الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين ص ٢٢٤.
(٢) مفرج الكروب (١/ ٢٨٠).
(٣) المنطقة الزراعية المحيطة بحلب، عماد الدين زنكي ص ٢٢٥. (٤) كتاب الروضتين (١/ ١١١ ، ١١٢).
(٥) دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ص ٢٣٦.

وقد بدأت تسمية زنكي بهذا اللقب في شعبان عام ٥٢١هـ عندما ولاه السلطان محمود الموصل وسلمه ولديه ألب أرسلان، وفرّوخ شاه (المعروف بالخفاجي) وجعله أتابكاً لهما [1]، وقد ترتبت على «أتابكية زنكي» نتائج عديدة، فقد كان عليه من الناحية الرسمية، أن يحكم باسم ألب أرسلان، أكبر الأميرين، وأن يخطب له، ولذلك أظهر للخلفاء والسلاطين وأصحاب الأطراف أن البلاد التي يحكمها إنما هي للملك ألب أرسلان[2]، وأنه نائب فيها؛ فكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب على رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا وكذا [3] وكان هذا الإجراء من قبل زنكي لا يعدو أن يكون شكلياً، إذ أن السلطة الفعلية كانت متركزة في يده، ولم يكن لأحد من ابني السلطان محمود أية سلطة عملية، بل كانا أشبه بالمحتجزين، إذ فرق زنكي بينهما فجعل أحدهما في أحد معاقل سنجار، والآخر تحت اشراف زوجته في الموصل[4]، وقد استهدف من الخطبة لألب أرسلان إلقاء الصفة الرسمية «الشرعية» على سياسته وأعماله مستغلاً اسم الملك السلجوقي. كما عمل زنكي على استغلال وجود هذين الملكين السلجوقيين، فقام بمحاولات ثلاث (٥٢٥هـ - ٥٢٩هـ) لتنصيب ألب أرسلان على عرش سلاجقة العراق بالاتفاق مع الخليفة العباسي ضد السلطان السلجوقي في أصفهان وقد استهدف من وراء ذلك جعل السلطة الفعلية لسلاجقة العراق بيده باسم السلطان الشرعي المنصب ولكن هذه المحاولات انتهت جميعاً بالفشل [5].

أ- محاولة انقلابية في الموصل: قامت مؤامرة ضد عماد الدين زنكي تزعمها الملك الخفاجي عام ٥٣٩هـ أثناء غياب زنكي عن الموصل، إذ اتفق الخفاجي وأنصاره على اغتيال نصير الدين جقر نائب زنكي في الموصل، ومن ثم السيطرة على المدينة وإعلان العصيان ضد زنكي؛ ففي صباح الثامن أو التاسع من ذي القعدة عام ٥٣٩هـ ركب جقر في موكبه كعادته واخترق شوارع المدينة متجهاً إلى الدار التي يقيم فيها الملك الخفاجي للتسليم عليه[6]، فحسّن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنّك إن قتلته ملكت الموصل وغيرها ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك، ولا يجتمع معه فارسان عليك، فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه كعادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرّقوا، ويملك الملك البلاد وكان الأمر بخلاف ما ظنوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدّار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة عماد الدين مملوءة بالرّجال الأجلاد ذوي الرّأي والتجربة، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء [7].

(١) وفيات الأعيان (١/ ٣١٥ - ٣١٦)، عماد الدين زنكي،ص ٢٢٦.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٢٢٧.
(٣) الباهر ص ٧١، عماد الدين زنكي ص ٢٢٧.
(٤) (٥) (٦) عماد الدين زنكي ص ٢٢٧.
(٧) كتاب الروضتين.

ب- دور العلماء في تثبيت عماد الدين: كان عماد الدين زنكي منشغلاً بمحاصرة البيرة سنة ٥٣٩هـ وكانت هذه المدينة قد أوشكت على السقوط في يد عماد زنكي فورد إليه نبأ مقتل نائبه بالموصل نصير الدين جقر فانزعج كثيراً، واضطر عماد الدين إلى الرحيل عن البيرة وأرسل نائباً عنه إلى الموصل لاستطلاع حقيقة الأمر وهو القاضي تاج الدين بن يحيى بن الشهرزوري الذي كان ملازماً لعماد الدين أثناء محاصرته للبيرة، فلما وصل تاج الدين إلى الموصل علم أن الملك السلجوقي ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كان وراء مقتل نصير الدين جقر ليملك الموصل في غياب عماد الدين عنها [(١)]، ولذلك قام القاضي تاج الدين بن الشهرزوري بخدعة كي يفسد على الملك السلجوقي زعيم الانقلاب بالموصل مخططه، فدخل في الدار التي كان يحاصره فيها أصحاب جقر وأصحاب عماد الدين زنكي، وظل يخادعه بمعسول الكلام ويحسن له ما فعله مع جقر ويشجعه على الصعود إلى قلعة الموصل حتى يملكها ويكون في مأمن، حيث يوجد بها الأموال والسلاح فيستطيع بعد ذلك تملك الموصل، فاقتنع الملك السلجوقي بن محمود وخرج في صحبة القاضي تاج الدين وصعدا معاً إلى القلعة، وهناك قبض عليه وعلى من معه من أتباعه الذين قتلوا نصير الدين جقر، وبعد ذلك توجه القاضي تاج الدين إلى عماد الدين زنكي وبلغه بكل ما فعله فسكن جأشه واطمأن قلبه[(٢)]. ومما تقدم يتضح لنا مدى ما بلغه القاضي تاج الدين من الفطنة وحسن التصرف، مثل باقي أقاربه من بيت الشهرزوري الذين امتلأت بهم دولة عماد الدين زنكي[(٣)]، وعين عماد الدين زنكي قائده زين الدين علي كجك ليحل محل جقر نائب الموصل المقتول ثم ذهب هو بنفسه بعد ذلك لإقرار الأوضاع هناك [(٤)].

ج- سياسة عماد الدين مع الملك الآخر ألب أرسلان: أبدى زنكي، بعد مقتل الخفاجي، عطفه على الملك الآخر ألب أرسلان، فألغى احتجازه في أحد معاقل سنجار وعطف عليه وعُني بتفاصيل أمره وعين له حراساً وموظفين لخدمته واهتم بمراسيم جلوسه وركوبه، وطالب رجاله بالاهتمام بأمره واحترامه وتلبية مطالبه، وقد استهدف من هذه الإجراءات تغطية مقتل الملك الخفاجي [(٥)]، كي لا يثير السلاجقة ضده ومحاولة منه لاستغلال ألب أرسلان لتحقيق أمله في المستقبل وذلك بالمطالبة بتوليته سلطنة العراق بعد وفاة عمه السلطان مسعود، ليصبح زنكي المتحكم الفعلي باسم السلطان الجديد [(٦)].

---

(١) دور الفقهاء العلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١١٣.
(٢) الباهر ص ٧٢، دور الفقهاء والعلماء ص ١١٣.
(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١١٤.   (٤) عماد الدين زنكي ص ٢٢٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٩.   (٦) المصدر نفسه ص ٢٣٠.

المبحث الثالث

علاقة عماد الدين زنكي

بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

تسلّم عماد الدين زنكي الموصل من الأمير جاولي وأقطعه الرحبة وأعمالها [1]، ثم انصرف إلى تنظيم شؤون إمارته إداريًا وعسكريًا مستنداً في ذلك إلى ما كان سائداً عند السلاجقة من نظم الحكم، فولّى نصير الدين جقر قلعة الموصل، وفوّض إليه أمر الولاية جميعها، وعيَّن الياغسياني أمير حاجب والقاضي الشهرزوري قاضي بلاده وما يفتحه من بلاده [2]، ثم انصرف إلى العمل على تحقيق هدفين وضعهما نصب عينيه هما:

* تأسيس دولة وراثية وتوسيعها عن طريق ضم المدن والإمارات المحلية في الجزيرة وبلاد الشام، وتوحيدها مع إمارة الموصل.

* تكوين جبهة إسلامية متماسكة تستطيع مواجهة الصليبيين وتطردهم من الشرق الإسلامي، فدخل من أجل ذلك في علاقات سياسية عسكرية مع الأمراء المحليين.

ويبدو أنه لم يتمكن من المضي قدُماً في تحقيق هدفيه في بادئ الأمر، بسبب انغماسه في أحداث العراق، مما صرفه عن ميدان بلاد الشام، إذ شهد هذا البلد آنذاك صراعاً بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من أجل الاستئثار بالنفوذ، تدخل فيه عماد الدين زنكي، وانتهى بانتصار واضح لصالحه وتحديد مستقبله السياسي [3].

أولاً: محاولة عزل عماد الدين زنكي عن الموصل:

تراوحت علاقة عماد الدين بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بين التعاون المثمر والعداء الشديد وفقاً للمصلحة العامة والشخصية في الوقت نفسه، على أن هذه التقلبات لم تؤثر على مركزه في ولاية الموصل والجزيرة وبلاد الشام، فقد تعرض في بداية حكمه، لمحاولة استهدفت عزله عن منصبه وإحلال دُبَيس بن صدقة أمير الحلة مكانه، ذلك أن هذا الرجل كان قد التحق بخدمة السلطان سنجر، سلطان السلاجقة العظام في خراسان، وأضحى من أمرائه المقربين وحدث أن توجه محمود سلطان سلاجقة العراق إلى خراسان لتصفية المشاكل

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٨٨.
(٢) الباهر ص ٣٤.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٨٩.

القديمة مع عمه سنجر[1]، وأثناء المباحثات التي جرت بينهما طلب سنجر من ابن أخيه محمود أن:

* يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل والجزيرة وبلاد الشام ويوليها لدُبَيس.
* يطلب من الخليفة تحسين علاقاته به بعد المشاكل التي أثارها ضد الخلافة [2].

ويبدو أن محموداً استجاب لطلب عمه، فعندما وصل إلى بغداد في مطلع عام ٥٢٣هـ/ آخر عام ١١٢٨م سعى لدى الخليفة المسترشد بالله لتحقيق ذلك، كما طلب من عماد الدين زنكي التخلي عن منصبه وتسليمه لُدبَيس [3]

كان هذا الطلب كافياً للقضاء على آمال عماد الدين زنكي وتطلعاته السياسية، لذلك تحرك على وجه السرعة لإحباط هذا التدبير، فقدم إلى بغداد، وتمكّن بعد مباحثات طويلة من إقناع السلطان بضرورة إبقائه على ولاية الموصل لمجابهة الصليبيين، كما أكّد طاعته وإخلاصه له، فخلع عليه وجدد له ولايته، وكتب له منشوراً جديداً بحكم الموصل والجزيرة والشام، تأكيداً لمنشور عام ٥٢١هـ [4].

وقد ساعدت عماد الدين زنكي مجموعة من العوامل على بقائه في منصبه منها ما بذله الخليفة من جهود لتثبيت زنكي على الموصل بدافع من كراهيته العميقة لدبيس، حتى أنه أرسل إلى السلطان محمود يقول له: إن دبيساً أعان الفرنجة ضد المسلمين فكيف توليه؟[5] وكان دبيس قد انضم إلى الصليبيين – وهو من الطائفة الشيعية الاثني عشرية – بعد هزيمة ٥١٧هـ وأسهم معهم في حصار حلب طمعاً بالاستيلاء عليها وحكمها نيابة عنهم.

* لم يكن أهالي بغداد أقل كراهية لدبيس وحقداً عليه من الخليفة نفسه، حتى إنهم تظاهروا ضده لدى دخوله العاصمة وراحوا يندِدون به ويهتفون بالتأييد والدعاء للخليفة والسلطان[6]، بسبب محاولات دبيس المتكررة لنهب بغداد وتخريبها [7]. فضلاً عن مساعدته للصليبيين [8].

* ولم يكن في صالح السلطان محمود نفسه عزل زنكي عن الموصل وهو الذي وقف إلى جانبه في الظروف الحرجة، ولعله لم يقم بمحاولة العزل – أساساً – إلا تحت ضغط عمه

(١) أخبار الدولة السلجوقية للحسيني ص ٨٨ – ٩٠. (٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠/ ٨-٩).
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٨٩. (٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١/ ٤٠).
(٥) زبدة حلب (٢/ ٢٤٤)، عماد الدين زنكي ص ٥٠. (٦) زبدة حلب (٢/ ٢٢١ – ٢٢٥).
(٧) المنتظم (١٠/ ١١). (٨) عماد الدين زنكي ص ٥١.

سنجر صاحب السلطة العليا على السلاجقة، هذا فضلاً عن أن تعيين دبيس في الموصل قد يتيح لسنجر أن يتخذ منه صنيعة ضد مصالح السلطان محمود في العراق [1].

ثانياً: صراع البيت السلجوقي على السلطنة بعد وفاة السلطان محمود:

أطمأن زنكي إلى ولايته طيلة الأعوام الأخيرة من حكم السلطان محمود وعند ما توفي هذا في منتصف عام ٥٢٥هـ أرسل زنكي إلى الخليفة المسترشد يطلب منه أن يقيم الخطبة ببغداد للملك السلجوقي ألب أرسلان – وهو أحد الملكين اللذين أنيطت بزنكي مهمة الإشراف على تربيتهما- إلا أن الخليفة اعتذر عن ذلك محتجاً [2]:

١- بصغر سن ألب أرسلان وبعدم صلاحيته للحكم.

٢- بأن السلطان كان قد عهد بالسلطنة من بعده وهو بأصفهان إلى ابنه داود.

٣- بأن حكام الولايات قد بدأوا فعلاً بإقامة الخطبة له وأضاف بأنه لن يقدم على اتخاذ أي إجراء بهذا الصدد قبل أن تصله رسالة من السلطان سنجر زعيم السلاجقة الكبار في خراسان [3]. وهكذا فوَّت الخليفة فرصة ذهبية على عماد الدين زنكي للاستفادة من وفاة السلطان محمود، التي لو نجح في اغتنامها لأتاحت له مجالات جديدة في العمل السياسي، ودفعته إلى الخروج عن الولاء للسلاجقة بتنصيب أحد أمرائهم المقيم تحت إشرافه في الموصل سلطاناً على سلاجقة العراق فيصبح بذلك المتحكم الفعلي في شؤون العراق باسم السلطان الجديد [4].

وفي العام التالي استطاع السلطان مسعود بن محمد – حاكم أذربيجان- استمالة زنكي لمساعدته في المطالبة بعرش سلاجقة العراق، لقاء منحه مدينة أربل الحصينة شرقي الموصل، وتم الاتفاق بينهما على أن يتجها إلى بغداد لمطالبة الخليفة المسترشد بالخطبة لمسعود والاعتراف به سلطاناً على العراق [5]، إلا أن سلجوق شاه بن محمد – أخا مسعود الذي كان يطمح هو الآخر بعرش السلاجقة في العراق- سبق أخاه إلى بغداد، وطالب الخليفة بالخطبة له فامتنع الأخير عن تنفيذ طلبه، ولما سمع سلجوق شاه باقتراب زنكي على رأس قواته الموالية لمسعود، أمر قائده (قراجا الساقي) بالإسراع في التوجه شمالاً لإيقاف تقدمه، فوصل إلى مشارف سامراء بأقل من يومين، ودارت المعركة بين الطرفين عند قصر المعشوق

(١) عماد الدين زنكي ص ٥١. (٢) المصدر نفسه ص ٥١.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص٩١. (٤) عماد الدين زنكي ص ٥٢.
(٥) مفرج الكروب (١/ ٩٧)، عماد الدين زنكي ص ٥٢.

على الجهة المقابلة لسامراء، وانتهت بهزيمة زنكي وأسر عدد كبير من قواته، فلجأ بمن معه من فلول إلى تكريت [1] حيث أسرع واليها نجم الدين أيوب بإقامة المعابر لهم، وإكرام ضيافتهم لحين عودتهم إلى الموصل [2]، وهناك استطاع زنكي أن يعيد تنظيم قواته، بعد أن أنفق عليها أموالاً كثيرة وجهزه بالمؤن والمعدات [3].

ثالثاً: موقف السلطان سنجر من الأحداث:

كان السلطان سنجر يراقب تطورات الأحداث السياسية في العراق، بهدف انتهاز فرصة للتدخل والهيمنة على مقدرات الأمور وإخضاع سلاجقة العراق لإشرافه المباشر. وحتى يدعم موقفه، رأى أن يستقطب كلاً من عماد الدين زنكي ودُبيس بن صدقة، فطلب منهما التوجه إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة فيها له ولخليفته الملك طغرل بن محمد بن محمود، وتعهد بإضافة شحنكية بغداد إلى عماد الدين زنكي، وبإقطاع الحلة لدُبَيس[4] فوافق عماد الدين زنكي على هذا العرض لاعتقاده بأن النصر سيكون حليف سنجر، وبذا يستطيع أن يحقق مزيداً من مطامعه. أدرك كل من مسعود وسلجوق شاه أن الصراع بينهما سوف يتيح الفرصة لتدخل عمهما سنجر ويقضي على مصالحهما في العراق فعقد صلحاً بينهما ووحَّدا قواتهما للوقوف في وجهه، لكن سنجر انتصر على جيوشهما، وأجلس طغرل بن محمد علي عرش سلاجقة العراق في شهر جمادي الآخرة عام ٥٢٦هـ/ شهر نيسان عام ١١٣٢ [5]. في هذه الأثناء كان عماد الدين زنكي ودُبيس قد اقتربا من بغداد، واشتبكا مع قوات الخليفة في «أواخر شهر رجب/ شهر آيار» وحلَّت بهما الهزيمة، فتراجع عماد الدين زنكي إلى الموصل، وقام دُبَيس بمحاولة فاشلة لاستعادة الحلة[6]. واستطاع مسعود، بعد سلسلة من الحروب، أن يقضي على منافسيه ويجلس على عرش سلاجقة العراق بموافقة سنجر في شهر صفر عام ٥٢٧هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٣٢م.

- **نتائج تلك الحروب:** كان للحروب التي حدثت بين السلاجقة فيما بينهم من جهة، ثم فيما بينهم وبين الخلافة العباسية من جهة أخرى، واشتراك عماد الدين زنكي فيها نتائج مهمة على وضعه السياسي والعسكري منها:

---

(١) المنتظم (١٠/ ٢٥)، الباهر ص ٤٣.
(٢) الباهر ص ١١٩، ١٢٠، عماد الدين زنكي ص ٥٢.
(٣) الباهر ص ٤٣، عماد الدين زنكي ص ٥٢.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٩٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٩٢.
(٦) الباهر ص ٤٥ ، ٤٦، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٩٣.

١- أنه خسر علاقته الودية بالسلطنة السلجوقية التي استفاد منها في أيام السلطان محمود، إلا أنه حصل على مدينة إربل المهمة عسكرياً.

٢- اتسعت شهرته كأمير ذي قوة مؤثرة في الصراع الدائر في المنطقة.

٣- خرج من تلك الحروب وقد تعرَّف على عائلة بني أيوب، مما سيكون له أثر كبير في تطور هذه العائلة، وازدياد نشاطها.

٤- تدهورت العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية [١].

رابعاً: محاصرة الموصل:

أرسل المسترشد بالله إلى عماد الدين الإمام أبا الفتوح الاسفراييني، فأغلظ له في القول فأهانه عماد الدين وعاد إلى المسترشد بالله، فسار إلى الموصل بثلاثين ألفا سنة ٥٢٧هـ [٢]، وحاصرها في ٢٠ رمضان فنزل زنكي بالموصل نائبه نصير الدين وسار هو إلى سنجار ليقطع الميرة عن عسكر الخليفة، واستمر الحصار ثلاثة أشهر وعاد الخليفة إلى بغداد يوم عرفة. وسبب هذا الحصار سير عماد الدين زنكي السابق إلى بغداد، واختلاف سلاطين السلاجقة، وإهانة زنكي لرسول الخليفة[٣] لم يتمكن جيش الخليفة من اقتحام الموصل وكان عماد الدين في غضون ذلك يشن الهجمات عليه، حتى أضحى محاصراً، فتناقصت أقواته وساء وضعه القتالي[٤]. وعلى الرغم من هذا الموقف الصعب الذي وجد الخليفة فيه نفسه إلا أن عماد الدين زنكي لم يتمكن من النيل منه، وكان تراجع الخليفة العسكري الذي حصل بعد ذلك نتيجة لعوامل خارجية؛ إذ استغل السلطان مسعود فرصة انهماك الخليفة بحصار الموصل فتوجه إلى بغداد لتعزيز مركزه فيها، واستغاث بُدَبيس بن صدقة للاستيلاء عليها[٥]. تلقى الخليفة هذه الأنباء المقلقة، وهو يحاصر الموصل، ففكَّ الحصار عنها وعاد إلى بغداد ليدافع عن عاصمته، فوصل إليها في العاشر من شهر ذي الحجة [٦] وبذلك تخلص عماد الدين زنكي من الخطر الذي كاد يقضي على آماله [٧].

---

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٩٣.
(٢) زبدة حلب نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٧٥.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية ص ٧٥. (٤) الكامل في التاريخ (٨/ ٦٩٦).
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٩٤.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٩٤.
(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٩٤.

خامساً: التوتر بين عماد الدين والسلطان مسعود:

أجرى الخليفة المسترشد بالله العباسي مفاوضات ناجحة مع عماد الدين زنكي وعُقد الصلح بين الجانبين في مطلع عام ٥٢٨هـ أواخر عام ١١٣٣م، وتبودلت الهدايا، وأرسل عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي إلى الخليفة ليؤكد طاعته وولاءه له[١]، واستنجد الخليفة بزنكي عام ٥٢٩هـ أثناء صراعه مع السلطان مسعود وكان عماد الدين زنكي آنذاك يحاصر دمشق، ففك الحصار عنها، وعقد صلحاً مع حكومتها حتى لا يُطعن من الخلف وعاد مسرعاً إلى بغداد لنجدة الخليفة إلا أنه وصل متأخراً، إذ انتصر السلطان مسعود على الخليفة المسترشد في المعركة التي دارت بينهما في العاشر من شهر رمضان ووقع في الأسر، وظل مأسوراً حتى منتصف ذي القعدة، حين هاجمه جماعة من الباطنية وقتلوه[٢]. وقد فصلت في سيرة المسترشد بالله العباسي في كتابي عن دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي. هذا وقد أخذت البيعة بعد مقتل المسترشد بالله لابنه أبو جعفر منصور الملقب بالراشد بالله (٥٢٩هـ -٥٣٠هـ) بموافقة السلطان مسعود [٣]، وهكذا ضاعت فرصة أخرى من يد عماد الدين زنكي للسيطرة على العراق [٤]، ونتيجة لهذه التطورات السياسية ازداد التوتر بين عماد الدين زنكي والسلطان، وقد بلغ حداً دفع الثاني إلى تدبير مؤامرة لاغتيال الأول حتى يتخلص من خطره بشكل نهائي فاستدعاه إلى أصفهان، لكن دُبَيساً أخبره بنواياه وحذّره من التوجه إلى بلاطه، فامتنع عن الذهاب، ولما علم السلطان بما فعله دُبيس قتله على الفور[٥]. وكان عماد الدين زنكي قد أحسن لصدقة فعندما وقع في يدي تاج الملوك حاكم دمشق طلب عماد الدين من أمير دمشق أن يسلمه دُبيساً وإن امتنع عن تسليمه سار إلى دمشق وحاصرها وخرّبها ونهب بلدها، فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، وأرسل عماد الدين سونج بن تاج الملوك والأمراء الذين معه، وأرسل تاج الملوك دُبيساً، فأيقن دُبيس بالهلاك ففعل زنكي معه خلاف ما ظن وأحسن إليه وحمل له الأقوات، والسلاح والدواب وسائر أمتعة الخزائن وقدمه على نفسه وفعل معه ما يفعل مع أكابر الملوك [٦] ولما سمع عماد الدين زنكي بمقتل دبيس بن صدقة قال: فديناه بالمال وفدانا بالروح[٧]. وذكر ابن كثير بأنه فداه بخمسين ألف دينار. ومالبثت العلاقات أن تدهورت بين

(١) المنتظم (١٠/ ٣٤)، الباهر ص ٤٧، ٤٨. (٢) عماد الدين زنكي ص ٥٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٥٧، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٩٥.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٩٥. (٥) المنتظم (١٠/٥٣)، تاريخ الزنكيين ص ٩٥.
(٦) الكامل في التاريخ (٨/ ٦٨٠). (٧) واقع التربية الإسلامية في عهد نور الدين ص ١٧.

الخليفة الجديد وبين السلطان مسعود واجتمع لدى الراشد عدد من الأمراء المناهضين للسلطان، وجندوا له العمل على إسقاطه والجيء بسلطان جديد يرتضونه[1]. وفي مستهل صفر عام ٥٣٠هـ وصل زنكي بغداد قادماً من الشام بعد أن استدعاه الراشد واتفق معه على إعلان الخطبة لألب أرسلان المقيم في الموصل[2] وانضم إلى الأمراء الذين كانوا قد حرضوا الخليفة على إعلان العصيان ضد السلطان مسعود[3] وجد الخليفة أن الفرصة قد سنحت للبدء بالعمل، فألغى الخطبة لمسعود وحولها لداود بن محمود، خلافاً لما تم الاتفاق عليه مع زنكي[4]

وقام السلطان الجديد بتعيين شحنة له في العراق، ولم يمض على ذلك سوى وقت قصير حتى دبت الخلافات بين الراشد وسائر الأمراء بسبب المنافسات والأحقاد القديمة[5]، واتفق المتحالفون على توجيه ضربتهم للسلطان مسعود في بلاد فارس نفسها، إلا أنهم ما أن قطعوا مسافة قصيرة حتى ورد خبر بتوجه مسعود على رأس قواته صوب بغداد، فارتأوا أن يعودوا إليها لاتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة لصد الهجوم[6]، ومالبث السلطان مسعود أن فرض الحصار على بغداد، وجرت مناوشات ومعارك جانبية بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة حاسمة وسعى الخليفة إلى إحلال الصلح وإنهاء الحرب ولكن دون جدوى وأخذت الأوضاع داخل بغداد تزداد سوءاً يوماً بعد يوم [7]، ونجح السلطان مسعود في دخول بغداد وخلع الخليفة عن سدة الخلافة وولى المقتفي لأمر الله مكانه في شهر ذي الحجة عام ٥٣٠هـ أيلول عام ١١٣٦م [8] وغادر الراشد بغداد متوجهاً إلى الموصل بصحبة عماد الدين زنكي، والجدير بالذكر أن الخطبة للمقتفي اقتصرت على بعض أنحاء العراق بينما استمرت مناطق الموصل والجزيرة وبلاد الشام تخطب للراشد الذي كان يتمتع بحماية عماد الدين زنكي [9].

سادساً: مصالحة عماد الدين زنكي للسلطان مسعود:

لم يدم التحالف طويلاً بين عماد الدين زنكي والزاشد فقد شعر كل منهما بضعف موقفه أمام موقف السلطان والخليفة الجديد لذلك أسرعا بإرسال الرسل للتوسط لديهما

(١) عماد الدين زنكي ص ٥٨.
(٢) النجوم الزاهرة (٥/ ٣٥٨)، عماد الدين زنكي ص ٥٨.
(٣) المنتظم (١٠/ ٥٥)، عماد الدين زنكي ص ٥٨.
(٤) مفرج الكروب (١/ ٦٤)؛ عماد الدين زنكي ص ٥٨.
(٥) عماد الدين زنكي ص ٥٩.
(٦) المنتظم (١٠/ ٥٧)، مفرج الكروب (١/ ٦٥).
(٧) عماد الدين زنكي ص ٦٠.
(٨) مفرج الكروب (١/ ٦٥، ٦٦)، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٩٥.
(٩) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٩٦.

وإنهاء حالة الحرب [1]، وأضحى عماد الدين زنكي على الرغم من ضعف موقفه، القوة التي تتطلع إليها الأطراف المتنازعة لاستقطابها، وهكذا استماله أعوان المقتفي، إلى جانبهم وكافأه الخليفة، بأن أقطعه بعض أملاكه وزاد في ألقابه [2]، واضطر تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية إلى التخلي عن حليفه الراشد. كانت التقلبات السياسية السريعة بعماد الدين زنكي تهدف إلى ضمان استمرار حكمه، وتحقيق وحدة الصف الإسلامي في الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحّدة تقف في وجه الصليبيين [3]، وكان من الطبيعي أن تتحسن العلاقات بينه وبين السلطان مسعود الذي أرسل إليه في شهر ربيع الأول عام ٥٣٢هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٣٧م التشريف الكامل والخلع [4].

وأدرك عماد الدين زنكي خطورة الأوضاع في شمالي الشام بفعل تهديد الصليبيين لمدينة حلب التي كانت تعاني من الفوضى في ظل صراع على السلطة بعد وفاة حاكمها إيلغازي الأرتقي في شهر رمضان عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، فأرسل قاضيه الشهرزوري ليشرح للسلطان هذا الوضع، ويطلب منه مساعدة عسكرية لإبعاد الصليبيين عن المنطقة[5]، ونجح الشهر زوري في مهمته، وتمكّن من إقناع السلطان بإمداده بقوة عسكرية إلا أن رسالة عاجلة وصلت إلى بغداد من عماد الدين زنكي، أفادت بأن الصليبيين رحلوا عن حلب، وأنه لم يعد بحاجة إلى المدد العسكري وتدليلاً على العلاقات الجيدة بين السلطنة السلجوقية والدولة الزنكية، فقد أرسل السلطان مسعود رسالة تهنئة إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب حمص بمناسبة انتصاره على الصليبيين وخلع عليه الخلع السلطانية، إلا أن هذه العلاقات تبدّلت في عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م حين حاول السلطان مسعود -الذي خشي من طموحات عماد الدين زنكي واتساع رقعة إمارته، وتنامي قوته العسكرية- توجيه ضربة حاسمة له، معتقداً بأنه وراء القلاقل التي كان يقوم بها أمراء الأطراف ضد حكمه في العراق وأن هؤلاء لا يلتزمون بسياسته، والراجح أن عماد الدين زنكي هدف إلى إلهاء السلطان لمنعه من مضايقته وبذلك يستطيع وهو مطمئن أن يوطد نفوذه في الموصل ويوسع رقعة أملاكه على حساب الأمراء المسلمين المجاورين، ويحارب الصليبيين[6]. ولما علم بنوايا السلطان أرسل إليه يستعطفه ويستميله وفعلاً جرت مفاوضات بين الطرفين أدّت إلى إعادة الوفاق بينهما وكان من أهم بنود الصلح أن:

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وفي بلاد الشام ص ٩٦.
(٢) الباهر نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٩٦.
(٣) (٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٩٦.
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ٩٦.
(٦) تاريخ الزنكيين ص ٩٧.

- يدفع عماد الدين للسلطان مبلغ مائة ألف دينار.
- يتنازل له عن بعض إقطاعاته.
- يحضر شخصياً إلى بلاطه لإعلان الطاعة [1].

والواضح أن تراجع السلطان عن موقفه العدائي تجاهه يعود إلى أمرين:

الأول: أنه أدرك خطورة الوضع في الجزيرة وشمالي الشام حيث غدا الصليبيون يشكلون خطراً مباشراً على المنطقة وأن عماد الدين زنكي هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تقف في وجههم، وترغمهم على التراجع.

الثاني: أنه جُوبه بمعارضة شديدة من رجال دولته ومواطنيه من أجل إبقاء إمارة الموصل كحاجز قوي متماسك أمام أطماع الصليبيين، وقد أوضحت هذه المعارضة أن عماد الدين زنكي هو الأمير الوحيد في المنطقة الجدير بالتصدي لتلك الأطماع، وأن القضاء عليه يعني فتح الطريق أمام الصليبيين في العراق[2]. بعد إقرار الصلح، أرسل عماد الدين زنكي عشرين ألف دينار كدفعة أولى تنفيذاً للبند الأول من الاتفاق، ثم تنازل السلطان عن المبلغ المتبقي بهدف استقطابه وكسب وده حتى لا ينضم إلى أمراء الأطراف الذين خرجوا عن حكمه، كما تغاضى عن تنفيذ البند الخاص بحضوره إلى البلاط السلجوقي، وعذره بسبب انهماكه في جهاد الصليبيين إلا أنه اشترط عليه فتح الرها [3].وقامت علاقات عماد الدين زنكي مع الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله على الود والتعاطف، واستمرّت الصلات المتبادلة بينهما، وازدادت هذه العلاقات وثوقاً بعد أن فتح عماد الدين زنكي الرها في عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) حيث منحه عدداً من الألقاب، كالأمير الكبير، العادل، المؤيد، المظفر، المنصور[4]. وهكذا يتضح أن عماد الدين زنكي اتبع سياسة مستقلة إلى حد كبير، تجاه علاقته بكل من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وأضحى يشكل قوة مؤثرة ضاغطة في الأحداث التي شهدها العراق مستغلاً علاقات الخلافة المتقلبة بالسلطنة السلجوقية لتحسين وضعه السياسي غير أن هذه السياسية لم تؤدّ إلى استقرار وضعه بل على العكس هدّدت حكمه بين الفينة والفينة، ولولا نجاحه في مقاومة الصليبيين وإقامة إمارة حاجزة في الموصل، بينهم وبين العراق، لكان من المحتمل أن تتعرض إمارته لهزات سياسية شديدة وخطيرة، ربما أودت بجهوده في بناء دولة [5]

***

(١) المنتظم (١٠/١٠٨)، الباهر ص ٦٥. (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٩٨.
(٣) الباهر ص ٦٥، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٩٨. (٤)(٥)تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص٩٨.

المبحث الرابع

توســع عماد الديـن

في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة

٥٢١هـ - ٥٤١هـ/١١٢٧ - ١١٤٦م

بدأ عماد الدين زنكي محاولاته لتوحيد المنطقة بضم المدن التي حوله والقريبة منه، بسبب ضعفها وتفرقها وضيق مساحتها، وكان ولاة الموصل الذين سبقوه قد عجزوا عن اكتساحها وبالتالي عن تحويل السلطة الرسمية- التي منحهم السلاجقة إياها، بحكم الموصل والجزيرة وشمالي الشام- إلى سلطة فعلية، ولذلك سعى زنكي للقضاء على هذه المواقع المستقلة كي تغدو سلطته في هذه المناطق أمراً واقعاً. كانت البوازيج – الواقعة على طريق الموصل، عند مصب الزاب الأسفل – أول المواقع التي استولى عليها زنكي وذلك لدى توجهه إلى الموصل عام ٥٢١هـ لتولي مهام منصبه، مستهدفاً من وراء ذلك اتخاذها خط رجعة له لحماية ظهره في حالة تصدي – وصي حاكم الموصل – لزحفه ثم استمر في سيره نحو الموصل، وعندما وصل جاولي نبأ تقدمه على رأس قوات حاشدة، يحمل معه منشور السلطان بحكم الموصل أدرك أن ليس في طاقته التصدي له وآثر السلامة، فخرج لاستقباله، بصحبة أمراء الموصل وقادتها، وما أن التقى به حتى ترجل وقبل الأرض بين يديه وأعلن طاعته له، فأقطعه زنكي مدينة الرحبة وأعمالها، وسيره إليها [1].

أولاً: جزيرة ابن عمر ٥٢١هـ: بعد أن رتب عماد الدين زنكي أوضاعه في الموصل، أراد الانتقال إلى جزيرة ابن عمر وسار بقواته إليها، بمجرد وصوله إلى مشارفها علم أعيانها وسكانها بقدومه فخافوا منه وامتنعوا عن استقباله وأغلقوا أبواب المدينة في وجهه، فضرب عماد الدين حصاره حولها وبدأ بمراسلة أعيان المدينة ومماليك البرسقي، وحاول إقناعهم بالمهادنة وبذل لهم الوعود الكثيرة إن سلموا المدينة، غير أنهم امتنعوا عن موافقته، وعند ذلك قرر عماد الدين قتالهم وإخضاع المدينة عنوة. وكان مجرى دجلة يفصل بين جيش عماد الدين والمدينة، فأمر قواته بعبور النهر إلى المدينة، فمنهم من عبر بالسفن، وبعضهم بالأكلاك[2]. ولما تكاثر جيش عماد الدين وشدّد حصاره على المدينة، كان السكان قد

(١) عماد الدين زنكي ص ٦٩، ٧٠.

(٢) تاريخ جزيرة ابن عمر ص ١٢١.

خرجوا إلى منطقة بين الجزيرة ودجلة تعرف بالزلاقة وكانوا بخروجهم يحاولون منع جيش عماد الدين من إكمال عبوره، ولكن عساكر عماد الدين تمكنوا من العبور وشددوا الحصار على المدينة، وجرت مناوشات بين مماليك البرسقي والمهاجمين، ظهر فيها التباين بين القوتين، ولم يمض وقت طويل حتى انهزم جماعة البرسقي. ولما رأى أهالي الجزيرة أن ميزان المعركة ليس في صالحهم، ضعفوا وأيقنوا أن على المدينة أن تستسلم أفضل من دخولها عنوة. فبعثوا إلى عماد الدين، يطلبون منه الأمان فاستجاب لطلبهم وتسلم المدينة [1]، ولعله بدأ بمهاجمة هذا الموقع قبل غيره من المدن والقلاع بسبب قربه من الموصل وأهميته العسكرية والاقتصادية [2].

ثانياً: حلب ٥٢٢هـ:

تعد حلب ذات أهمية بالغة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين، بفضل ما تتمتَّع به من حصانة عسكرية، ومركز متميز، وإمكانات اقتصادية وبشرية وسياسية مهمة، بالإضافة إلى موقعها على خطوط المواصلات بين فارس والعراق من جهة وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، ثم بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وغدت منذ عهد طويل، قاعدة لا يمكن بدونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام في الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي بلاد الشام وأواسطه، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد، وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين، لذلك كان ضمها من قبل أي قائد إسلامي، بمثابة فتح الطريق أمامه لتبوؤ مركز القيادة في حركة الجهاد[3]. وساعدت الظروف السياسية التي كانت تمر بها إمارة حلب التي وجدت نفسها في حالة شديدة من الفوضى، عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود ابن البُرسقي في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م) وتعدُّد المطالبين بالسلطة وتنازعهم، فقد استأثر قتلغ أبه نائب الأتابك، بإدارة شؤونها[4]، في الوقت الذي طمع فيه جوسلين الثاني أمير الرها، وبوهيمند الثاني أمير أنطاكية لاتخاذها قاعدة لمد نفوذه باتجاه الشرق والجنوب الشرقي. وشنَّ الصليبيون هجمات عنيفة للاستيلاء عليها رافقها تدهور حاد في أوضاعها الاقتصادية، وانتشار الخوف والقلق بين السكان[5]، مما دفع هؤلاء إلى الالتفاف حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار الأرتقي وقد تزعم الثورة ضد قتلغ أبه الذي اتصف بالتعسف[6]، ويبدو أن سليمان لم يتمكن من وضع

---

(١) تاريخ جزيرة ابن عمر ص ١٢١.
(٢) (٣) عماد الدين زنكي ص ٧١.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٠.
(٥) الباهر ص ٣٤ ، ٣٧ – ٣٨.
(٦) زبدة حلب (١/ ٤٣١)، تاريخ الزنكيين ص ١٠١.

حد لتدهور الأوضاع على الرغم من أنه عقد هدنة مع جوسلين الثاني تنازل له بموجبها عن بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية لحلب[1]، لكن يقظة عماد الدين زنكي أفسدت على الجميع خططهم ومشاريعهم وقد سعى إلى ضم حلب بوصفه يملك منشوراً من السلطان السلجوقي بحكم الموصل والجزيرة وبلاد الشام، ومهَّد لخطواته هذه بإرسال الرسل إليها حتى يشرحوا لسكانها أحقيته في تولي أمورها، كما أرسل حاجبه الياغسياني لتنظيم أمورها الإدارية وتمهيد الطريق له لدخولها، ثم غادر الموصل في طريقه إليها وضم في طريقه بزاعة[2]، ومنبج، ولما وصل إلى مشارف المدينة في شهر جمادى الآخرة عام ٥٢٢هـ شهر حزيران عام ١١٢٨م خرج سكانها لاستقباله آملين ببداية عهد جديد من الأمن والاستقرار بعدما سئموا من الفوضى التي سادت مدينتهم، فدخل القلعة وبدأ بتنظيم أمورها، وأقطع أعمالها لأمرائه وأجناده [3] وحتى يثبت أقدامه في حلب ويقطع الطريق على المفسدين ضايق عماد الدين زنكي زعماء المدينة المعارضين لحكمه وذوي المصالح القديمة فيها، فقضى على بعضهم وفر البعض الآخر من وجهه، فقتل قتلغ أبه، وفر إبراهيم بن رضوان بن تتش إلى نصيبين، وغادر سليمان بن عبد الجبار المدينة والتجأ فضائل بن بديع رئيس حلب السابق إلى قلعة جعبر القريبة من حلب [4]. وبذلك تحقَّقت الوحدة بين الموصل وحلب، مرة أخرى، وحصل عماد الدين زنكي على موقع مهم، وأمن جانب المعارضة، وتهيأت له الفرصة للتدخل في الأوضاع السياسية لبلاد الشام لتوحيد صفوف المسلمين ومجابهة أخطار الصليبيين، كما أدّى ذلك إلى عزل إمارة الرها عن بقية الإمارات الصليبية في الغرب والجنوب[5].

ثالثاً: سنجار والخابور وحران وإربل والرقة:

١- سنجار والخابور: لم يتعرض زنكي – حين توجهه إلى حلب – للمدن والحصون الواقعة على الطريق بينها وبين الموصل، إذ كانت الظروف تستدعي منه أن يضع يده على حلب أولاً، ثم ينطلق لفرض سيطرته على المواقع الأخرى من أجل تأمين الطريق إلى الشام، وما أن أقَرّ الأوضاع في المدينة المذكورة حتى اتجه في أواخر عام ٥٢٢هـ للاستيلاء على سنجار والمناطق المجاورة [6] وفرض الحصار عليها، إلا أن أهاليها امتنعوا عليه، ولما لم يروا من مقاومتهم جدوى إزاء إصرار زنكي على اقتحام المدينة، اضطروا إلى مصالحته وتسليم

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠١.
(٢) بزاعة : بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب.
(٣) الحروب الصليبية د. سهيل زكار (٢/ ٦٧٨).
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٠١.
(٥) المصدر نفسه ص ١٠١.
(٦) عماد الدين زنكي ص ٧٤.

سنجار إليه [١] ثم ما لبث أن أرسل من هناك بعض قواته إلى الخابور [٢]، حيث تمكنت من الاستيلاء عليه [٣]. وكانت سنجار تقع وسط الطريق بين الموصل وحلب، وتشكل منطلقاً للسيطرة على المناطق الأخرى[٤]، ولذا فقد حقق زنكي باستيلائه عليها نصراً مهمًا [٥].

٢- ضم حرّان: كانت حران تابعة لعز الدين مسعود بن البُرسُقي وكانت قد تعرضت بعد وفاته لتهديدات الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على بعض المواقع القريبة منها كالرها وسروج، فاستدعى أهلها عماد الدين زنكي في عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م إذ انتهت المشكلة بوفاة سوتكين [٦]

٣- ضم إربل: أدرك عماد الدين زنكي أهمية إربل العسكرية بالنسبة للموصل، إذ هي بمثابة الباب الشرقي الذي يصلها ببلاد فارس والمشرق، ونقطة الدفاع الرئيسية في الطريق الذاهب غرباً صوب الشام، وعندما أتيحت له فرصة مهاجمتها لم يتردد رغم كونها من ممتلكات مسعود بن محمد السلجوقي سلطان أذربيجان فهاجمها عام ٥٢٦هـ وشدد النكير عليها، إلا أن حاميتها استطاعت أن تصمد لحين تقدم السلطان مسعود لنجدتها، فاضطر زنكي إلى الانسحاب، ثم رأى مسعود أن يضحي بهذا الموقع كي يكسب زنكي إلى جانبه في صراعه ضد منافسيه من أجل الحصول على عرش سلاجقة العراق، فوافق الأخير على اتفاق كهذا يتيح له ضم موقع مهم إلى إمارته قد يساعده في المستقبل على التوغل شرقاً، وبعد أن أخذ كل من الحليفين العهود من صاحبه تسلم زنكي إربل وعين فيها نائباً عنه [٧].

٤- ضم الرقة[٨]: مر عماد الدين زنكي بالرقة في عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٥م) وهو في طريقه إلى دمشق فرأى أن يضمها إلى أملاكه، فانتهز هذه الفرصة ونفذ خدعة ذكية فأعلن رغبته بالاستحمام في حمام البلد، فقام حاجبه الياغسياني بتدبير هذا الأمر واتفق مع مسيب بن مالك صاحب الرقة الذي لم يشك في نوايا عماد الدين زنكي ورجاله، على السماح للجيش بدخول المدينة، وما أن أصبح آخر جندي داخل السور حتى أمر عماد الدين زنكي قواته بالاستيلاء على المدينة، فأبعد المسيّب وأقطعها أحد أمرائه [٩].

(١) الباهر ص ٣٧، الكامل في التاريخ (٨/ ٦٦١). (٢) عماد الدين زنكي ص ٧٤.
(٣) الباهر ص ٣٧، الكامل في التاريخ (٨/ ٦٦١). (٤) (٥) عماد الدين زنكي ص ٧٤.
(٦) مفرج الكروب (١/ ٨٤)، تاريخ الزنكيين ص ١٠٢.
(٧) مفرج الكروب (١/ ٩٧)، عماد الدين زنكي ص ٧٦.
(٨) مدينة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام معدودة.
(٩) زبدة حلب (٢/ ٤٥٠)، تاريخ الزنكيين ص ٧٦.

٥- ضم دقوقا [١] وشهرزور [٢]: وضم عماد الدين زنكي دقوقا في عام ٥٣١هـ/ ١١٣٧م عنوة [٣]، ودخل بعد ثلاث سنوات قلعة شهرزور الواقعة وسط سهل واسع يمتد من إربل إلى همذان ويقطنه الأكراد[٤]، وقد ارتبط هذا الضم بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بين الأمير قفجاق بن أرسلان تاش التركماني حاكم شهرزور وبين السلطان السلجوقي مسعود فخشي عماد الدين زنكي أن يتنازل الأمير التركماني عن بعض أملاكه للسلطان ومنها شهرزور فيغدو مجاوراً لإمارة الموصل، فيشكل عندئذ خطراً شديدًا عليه [٥]

٦- التوسع باتجاه الجنوب: توسع عماد الدين زنكي بين عامي (٥٣٦هـ- ٥٣٨هـ/ ١١٤١ - ١١٤٣م) في الجنوب الغربي، فضم الحديثة[٦] الواقعة على الفرات، وعانة[٧] القريبة منها، وفي عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦م كان قد بلغ درجة من القوة مما دفعه إلى ضّم قلعة جعبر المطلة على الفرات، عملاً بخطته القاضية: بألاّ يبقى وسط بلاده ما هو ملك لغيره [٨]. وكانت هذه القلعة تحت حكم العقيليين، فهاجمها على حين غرَّة وحاصرها، وتوغلت قواته في ربضها، واستمر القتال حتى اليوم الخامس من شهر ربيع الآخر، حيث اغتيل عماد الدين زنكي، فساد الاضطراب صفوف جيشه، فاضطر أفراده إلى فك الحصار[٩]، مما سنبحثه مفصلاً بإذن الله تعالى.

رابعاً: علاقة عماد الدين زنكي بالأكراد:

١- بنو أيوب حكام تكريت ٥٢٦ - ٥٤١ هـ: تعتبر علاقة عماد الدين زنكي بالبيت الأيوبي الكردي متميزة وبدأت هذه العلاقة في الثاني عشر من ربيع الآخر عام ٥٢٦هـ عندما انهزم زنكي في أعقاب المعركة التي دارت بينه – كحليف للسلطان مسعود- وبين قوات الملكين طغرل وداود المنافسين للسلطان المذكور [١٠] وانسحب بفلول جيشه نحو تكريت التي كان يحكمها نجم

---

(١) دقوقا : مدينة بين إربل وبغداد، الحموي (٨/ ٤٥٩).
(٢) شهرزور : كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٣.
(٤) معجم البلدان.
(٥) الباهر ص ٥٧ -٥٨، تاريخ الزنكيين ص ١٠٤.
(٦) تقع على جزيرة وسط الفرات وهي غير حديثة الموصل.
(٧) عانة : بلد مشهور ، بين الرقة وهيت يعد من أعمال الجزيرة.
(٨) (٩) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٤.
(١٠) عماد الدين زنكي ص ٧٦.

الدين أيوب [1]، فأقام هذه المعابر على دجلة وجهز عدداً من السفن لنقله وقواته إلى الضفة الأخرى التي تقع عليها مدينة تكريت، وهناك أحسن نجم الدين إلى زنكي وجنده، وداوى جراحهم، وقدم إليهم سائر ما يحتاجون إليه، وبعد أسبوعين غادر زنكي وأتباعه تكريت مودعين بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وإكرام[2]، وأخذ يرسل الهدايا إلى نجم الدين تباعاً اعترافاً منه بفضله وحسن ضيافته [3]. وعندما بلغ بهروز- شحنة بغداد – موقف نائبه في تكريت من زنكي بعث إليه رسولاً ليعاتبه على إحسانه لعدو سلاجقة العراق وإطلاق سراحه بعد أن كان قد وقع في يديه [4]، وازداد حرج بهروز لدى قيام أسد الدين شيركوه بقتل أحد سكان تكريت بسبب تعرضه لإحدى النساء، واضطر إلى إصدار أمره إلى نجم الدين بمغادرة تكريت وجميع أفراد عائلته، ولم يكن باستطاعة بهروز معاقبة أسد الدين شيركوه لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه[5]. في هذه الفترة الحرجة من أواخر عام ٥٣٢هـ ولد صلاح الدين لنجم الدين أيوب، واضطرت العائلة لمغادرة تكريت، وربما كان ذلك في الليلة التي ولد فيها الطفل المذكور [6]، ولم يكن هناك ملجأ أكثر أمناً لهذه العائلة الطريدة من كنف الأمير الذي أحسنوا إليه قبل عدة أعوام، ولم ينس زنكي الإحسان فاستقبل عائلة بني أيوب أحسن استقبال، وأقطع رجالاتها الإقطاعات الواسعة [7] وأتاح للأخوين نجم الدين وأسد الدين الانخراط في قواته [8] والاشراف على تربية أبنائه [9]، والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضد الصليبيين [10]، وظلت العائلة الأيوبية تنعم بحماية عماد الدين زنكي، وأخذت علاقاتها به تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم، وعندما استولى على بعلبك عام ٥٣٤هـ عين نجم الدين أيوب والياً عليها وأقطعه ثلثها [11]، فاستقر هناك هو وأفراد العائلة الأيوبية [12]، وظل يمارس مهام عمله كوال لزنكي حتى مقتل الأخير عام ٥٤١هـ وكان صلاح الدين خلال تلك الفترة قد ترعرع في كنف والده، وبدت عليه سمات النجابة والذكاء، والتمعت عيناه ببريق القوة [13]. وهكذا قدر لعماد الدين زنكي أن يلعب دوراً مهمًا في إظهار العائلة الأيوبية في المجالات السياسية والعسكرية والإدارية، وأن يمهد لها

(١) عماد الدين زنكي ص ٧٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٧.
(٣) كتاب الروضتين (٢/ ٥٣٧).
(٤) وفيات الأعيان (٦/ ١٤٢)، عماد الدين زنكي ص ٧٧.
(٥) الباهر ص ١١٩، عماد الدين زنكي ص ٧٧
(٦) وفيات الأعيان (٦/ ١٤٣ – ١٤٤)، عماد الدين زنكي ص ٧٧
(٧) كتاب الروضتين (٢/ ٥٣٨).
(٨) الباهر ص ١١٩، عماد الدين زنكي ص ٧٧.
(٩) عماد الدين زنكي ص ٧٧.
(١٠) كتاب الروضتين (٢/ ٥٣٨)، عماد الدين زنكي ص ٧٧.
(١١) الكامل في التاريخ (٨/ ٧٥٠)، عماد الدين زنكي ص ٧٨.
(١٢)(١٣) عماد الدين زنكي ص٧٨.

الطريق إلى المكانة الكبيرة التي تمتعت بها في عهد ابنه نور الدين محمود [1].

٢- الأكراد الحميدية: بدأ عماد الدين زنكي يضم مناطق الأكراد الحميدية بسبب قرب حصونهم من الموصل. وكان الحميديون يقومون في كثير من الأحيان بمهاجمة قرى ومزارع الموصل الشرقية ونهب فلاحيها، مما سبب قلقاً وخوفاً لفلاحي الموصل، وعندما أسس عماد الدين زنكي إمارة الموصل، أقر الأمير عيسى الحميدي على ولايته ولم يعترضه بشيء مما في يده [2] إلا أن الأمير المذكور سرعان ما خرج على طاعة زنكي لدى حصار الخليفة المسترشد الموصل عام ٥٢٧هـ، حيث انضم إليه بجيوشه وأمده بالأقوات، وحشد له عدداً كبيراً من الأكراد، وما أن فشل الحصار وانسحب المسترشد عائداً إلى بغداد حتى بدأ زنكي هجومه على قلاع الحميدية، فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً حتى أنه حمل بنفسه على حامية العقر وصعد في جبلها المرتفع إلى سورها فوصلت طعنته إليه [3]، ثم ما لبث أن استولى عليها ٥٢٧هـ منهياً بذلك أسباب القلق والخوف التي كانت تسببه هجمات الحميديين على فلاحي الموصل [4]، الأمر الذي أدى – ولا ريب – إلى عود ازدهار الحياة الزراعية والتجارية في المنطقة[5]. ونتيجة لضم قلاع الحميدية، حقق عماد الدين زنكي هدفين:

الأول: أمَّن المركز العسكري المسيطر على أمن الموصل بفعل ما كانت تشغله الإمارة الحميدية من موقع مهم.

الثاني: حصل على موطئ قدم مهد الطريق أمامه للتوغل في بلاد الأكراد الجبلية [6].

٣- الأكراد الهكارية: أدرك أبو الهيجاء الهكاري، صاحب قلعة آشب، مدى قوة عماد الدين زنكي، وخطورة النصر الذي حققه على وضع الأكراد بعامة، فاستعطفه بمبلغ من المال، وتوسل إليه ألا يتعرض له، ثم ما لبث أن قدم إلى الموصل لإعلان ولائه [7]، والجدير بالذكر أن طائفة من الأكراد الهكارية تقطن في المنطقة المعروفة بهكاريا إلى الشمال من نهر الخابور الذي يصب في أعالي دجلة، وكانت قلعة آشب مركزهم الرئيسي وتنتشر حولها عدة قرى زراعية ترتبط بها وتؤمن لها التموين الغذائي.

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في ص ١٠٥.
(٣) مفرج الكروب (١/ ٥٥)، عماد الدين زنكي ص ١٠٥.
(٤) الباهر ص ٤٨، عماد الدين زنكي ص ١٠٥. (٥) عماد الدين زنكي ص ١٠٥
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٠٦.
(٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٦

واستمرت العلاقات الجيدة بين عماد الدين زنكي وبين الهكاريين حتى عام (٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) إذ توفي في ذلك العام أبو الهيجاء فدبت الفوضى في إمارته بسبب النزاعات الأسرية، وبرز في هذه الصراعات باو الارجي، نائب أبي الهيجاء في حكم الإمارة الذي ساند الطفل علي بن الهيجاء ليهيمن من خلاله على شؤون الإمارة ويحكم باسمه، في حين ساند عماد الدين زنكي أخاه أحمد [1]، ونجح عماد الدين زنكي في ضم قلعة آشب بعد أن هزم باو وأنصاره، ثم غادر المنطقة عائداً إلى الموصل بعد أن ترك فيها نائبه نصر الدين جقر ليتم ما بدأه بضم منازل الهكارية، فاجتاح هذا القائد القلاع المتبقية وسيطر على المنطقة[2]، واستطاع عماد الدين زنكي بهذه الانتصارات أن ينهي أعمال الفوضى والفساد في المنطقة، فحل الأمن في ربوعها وعاد نفعه قبل كل أحد على الأكراد أنفسهم، الذين تخلصوا من المنازعات الداخلية على ما يبدو، واتجهوا إلى الانتاج ثم ما لبث عماد الدين زنكي أن أصدر أوامره ببناء قلعة العمادية – نسبة إلى اسمه[3] – على أطلال حصن قديم كان الأكراد قد خربوه لعجزهم عن الدفاع عنه[4]، ويبدو أن زنكي أراد اتخاذ هذه القلعة قاعدة عسكرية للدفاع والتموين في حالات التمرد التي قد يقوم بها الأكراد ضد ممتلكاته هناك، ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذه في المنطقة [5].

٤- **الأكراد المهرانية:** بدأ عماد الدين زنكي هجماته على الأكراد المهرانية في عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، والجدير بالذكر أن هذه الفئة تقطن عدداً من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية المتاخمة لجزيرة ابن عمر، وأهمها كواشي الواقعة في جبال الجودي، شرقي نهر دجلة، والزعفراني، والشعباني وغيرها[6]. والواقع أن ضمَّ المنطقة الخاصة بالمهرانية يُعد خطوة متممة لضم المنطقة الخاصة بالهكارية، بفعل تجاورهما، فبعد أن انتهى عماد الدين زنكي من ضم المنطقة الثانية انتقل إلى ضم المنطقة الأولى. واستطاع أن يفرض سيطرته على عدة قلاع، منها المذكورة أعلاه، وألقت هذه الانتصارات السريعة الرعب في قلوب حاميات القلاع الأخرى المجاورة مما دفعها إلى طلب الأمان، وخضعت لحكم عماد الدين زنكي [7].

(١) الباهر ص ٦٤، عماد الدين زنكي ص ١٠٦.
(٢) الكامل في التاريخ نقلا عن تاريخ الزنكيين ص ١٠٧.
(٣) الباهر ص ٦٤، عماد الدين زنكي ص ١٠٩. (٤) عماد الدين زنكي ص ١٠٩.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٠.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٧ نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٧.

٥- الأكراد البشنوية: التفت عماد الدين بعد ذلك إلى مناطق الأكراد البشنوية في بلاد الزوزان الواقعة في الأرض الممتدة من جبال أرمينية شمالاً حتى الموصل جنوباً ومن أذربيجان شرقاً حتى إقليم ديار بكر غرباً (١)، وكان أمراء البشنوية قد أنشأوا عدداً من الحصون لعل أهمها حصن فنك المطل على نهر دجلة، واتخذوه مركزاً رئيسياً لهم نظراً لما يتمتع به من حصانة طبيعية ومتانة، وكان أميرهم آنذاك حسام الدين البشنوي قد اشترك مع عدد من الأمراء الأكراد القاطنين شمالي الموصل في إثارة الفتن والاضطرابات ضد إمارة عماد الدين زنكي، فهاجمها هذا الأخير وأخضعها لسلطانه، باستثناء حصن فنك الذي أوكل مهمة إخضاعه إلى قائده زين الدين على كجك في حين توجه هو لحصار قلعة جعبر، وفرض كجك الحصار على الحصن، وصادف أن اغتيل عماد الدين زنكي أثناء حصار قلعة جَعْبَر فاضطر كجك إلى فك الحصار والانسحاب إلى الموصل (٢).

تلك هي الجماعات الكردية التي هاجم زنكي مواقعها، واستطاع أن يضع يده على معظم ممتلكاتها وقواعدها المهمة، ويخضعها لسيطرته في أقل من عقد ونصف، بفضل قدرته العسكرية، وخططه السياسية البارعة التي أتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة، وسط فئات لا تدين له بالولاء. وقد تمكن بذلك من تأمين إحدى الجهات المهمة لإمارته بعد أن كانت تشكل نقاط خطر عليه، وأن يجعلها تستند إلى خطوط دفاعية يصعب اختراقها، تحقيقاً لخطته في بناء السياج الذي صمم على بنائه حول إمارته عندما قال يوماً: إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول (٣).

خامساً: عماد الدين والإمارات المحلية في ديار بكر:

كان هدف زنكي، بعد أن تم له الاستيلاء على حلب واتخاذها قاعدة في بلاد الشام، السيطرة على المناطق الممتدة بينها وبين الموصل والتي كان يحكمها أمراء مستقلون، عملاً بخطته القاضية بألا يبقى في بلاده ما هو ملك لغيره، حزماً منه واحتياطاً. ذلك أنه كان يستهدف – كما ذكرنا – إنشاء إمارة موحدة قوية، تمكنه من تحقيق انتصارات حاسمة ضد الصليبيين. وكان عليه – لتحقيق هذا الهدف – اكتساح عدد من الإمارات المحلية في منطقة ديار بكر، والتي كانت تشكل خطراً على مواصلاته مع الشام، سيما في حالات صدامه مع الصليبيين (٤).

---

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٧.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٠٨.
(٣) مفرج الكروب (١/١٠٣)، عماد الدين زنكي ص ١١٦.
(٤) عماد الدين زنكي ص ٨٥.

أ- ضم نصيبين: بدأ عماد الدين زنكي حركته التوسعية الهادفة إلى توحيد الإمارات الإسلامية بالهجوم على نصيبين التابعة لإمارة ماردين، وقد اختارها أولاً بفعل كونها أقرب المواقع إلى الجهات التابعة لحكمه، فضرب عليها حصاراً مركزاً فاستنجد حاكمها حسام الدين تمرتاش بداود بن لقمان صاحب حصن كيفا، لصده وإرغامه على فك الحصار عنها، فوعده بالمساعدة [1]، كما بعث إلى أهاليها وحاميتها رسالة مستعجلة على جناح طائر يحثهم فيها على الصمود ريثما تصلهم النجدة الأرتقية خلال فترة لا تتجاوز الخمسة أيام، إلا أن الرسالة وقعت بيد زنكي واطلع على ما فيها، ورأى أن ينتهز الفرصة لتدبير حيلة قد تساعده على تحقيق هدفه، فأمر بكتابة رسالة أخرى إلى أهل نصيبين بدلاً من الرسالة الأولى، جاء فيها: من حسام الدين تمرتاش، إنني قد قصدت ابن عمي داود وقد وعدني بالنجدة والمسير بالجيوش، وسوف لن يتأخر قدومه إلينا بأكثر من عشرين يوماً، لذا أطلب منكم الثبات طيلة هذه المدة[2]، وبعث الرسالة على جناح الطائر نفسه، ولم يشك النصيبيون لحظة واحدة بأنها وردت إليهم من أميرهم الارتقي؛ فخافوا على نفوسهم وأيقنوا أنهم يعجزون عن الدفاع عن البلد خلال هذه المدة الطويلة، لذا أرسلوا إلى زنكي وصانعوه وسلموا مدينتهم إليه، فبطل على حسام الدين وداود ما كانا قد عزما عليه[3]. وبفتح نصيبين انفسح الطريق أمام زنكي لتحقيق أهدافه ضد إمارات ديار بكر، إذ اتخذ من هذا الموقع قاعدة عسكرية في المنطقة للهجوم على المواقع المجاورة[4].

ب- معركة داوا: مهد ضم نصيبين الطريق أمام عماد الدين زنكي لتحقيق أهدافه في ديار بكر بعد أن تأكد من عجز الحكام المحليين عن مواجهته، إذ غدا هذا الموقع قاعدة انطلاق للانتشار في المنطقة ومن جهتهم، وأدرك أمراء هذا الإقليم مدى خطورة توسع عماد الدين زنكي على أملاكهم، فتداعوا في عام (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) إلى عقد حلف للوقوف في وجهه، اشترك فيه الأميران الأرتقيان حسام الدين تمرتاش وابن عمه ركن الدولة داوود، وانضم سعد الدولة أبو منصور إيكلدي صاحب آمد إلى الحلف، بالإضاف إلى عدد كبير من أمراء التركمان الموالين لداود [5]. ولما سمع عماد الدين زنكي بحشود الأمراء قرر مباغتة القوم قبل أن يتهيأوا للقتال، فانطلق على رأس أربعة آلاف مقاتل، والتقى بهم بالقرب

---

(١) التاريخ الباهر ص٣٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦ – ٣٧، عماد الدين زنكي ص ٨٦. (٣) (٤) عماد الدين زنكي ص ٨٧.
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١١٠.

من دارا [1] التابعة لتمرتاش، وانتصر عليهم. كانت النتيجة الفورية للمعركة سيطرة عماد الدين زنكي على عدد من المواقع القريبة كحصن سرجى[2] ودارا [3]، وحتى يعرقل توغله في المنطقة، قرّر داود مهاجمة جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، مما دفع عماد الدين زنكي إلى ترك ديار بكر والتوجه إليه لإيقافه عند حده لكنه لم يتمكّن من التوغل بعيداً بسبب وعورة المسالك، وانتشار التركمان في المنطقة، فاكتفى باستقطاب السكان في الجهات التي بلغها ثم قفل عائداً [4].

- أساليب سياسية من عماد الدين زنكي لإحداث انشقاق وتنافر في صفوف الأراتقة:

أدرك زنكي، أثر هذه الأحداث، مدى الخطر الذي يشكله التحالف بين أمراء ديار بكر ضد مطامحه في المنطقة، فرأى أن يلجأ إلى الأساليب السياسية علها تتيح له إحداث انشقاق وتنافر في صفوف أولئك الأمراء كي يسهل عليه – بعد ذلك – اقتطاع أراضيهم وممتلكاتهم. واعتقد أن خير ما يبدأ به خططه السياسية هو إيجاد تحالف متين مع أحد هؤلاء الأمراء والاستعانة به ضد الآخرين، وكان من الصعب عليه تحقيق هذا التحالف مع غريمه اللدود ركن الدولة، لما كان يتميز به هذا من حقد ورغبة بإنزال الضربات بعدوه وتحين الفرصة للانقضاض على ممتلكاته [5]، كما أن زنكي لم يشأ أن يتخذ من صاحب آمد حليفاً له، لضعف إمكانياته وعدم قدرته على تقديم مساعدات مجدية في حالة نشوب قتال بين أمير الموصل والأراتقة، ولم يبق أمامه إذن سوى حسام الدين تمرتاش الذي كان أكثر مرونة من ابن عمه داود، لذ أخذ يتقرب إليه، وأوقف مهاجمته لممتلكاته وسرعان ما أحس الأمير الأرتقي باتجاه زنكي الودي منه، ورأى أن التضحية بابن عمه داود لابد منها في سبيل كسب حليفه الجديد، وأمن جانبه، والسعي – عن طريق هذا التحالف – للحصول على مزيد من المكاسب في المنطقة [6].

أ- مهاجمة حصن آمد: شهد عام ٥٢٨هـ لقاء ودياً بين الحليفين انطلق بعده مباشرة لمهاجمة الحصن المنيع آمد، وفرضا الحصار عليه، فأرسل صاحبه سعد الدولة إيكلدي (٥٠٣هـ – ٥٣٦هـ) يستنجد بداود الأرتقي، وسرعان ما جمع هذا جيوشه ومتطوعيه من

(١) دارا : بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين.
(٢) سرجى أو سرجه : حصن بين نصيبين ودُنسير ودارا.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١١١.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١١.
(٥) مفرج الكروب (١/ ٥٢).
(٦) عماد الدين زنكي ص ٨٨.

التركمان واتجه لفك الحصار عن آمد، وهناك عند أسوار هذا الحصن حدث اللقاء بين الطرفين في أواخر جمادي الآخرة من ذلك العام، وانتهى القتال بهزيمة داود وأسر ولده ومقتل عدد من جنده، بينما استمر حصار زنكي وحليفه لهدفهما المنيع، وكي يلقيا الفزع واليأس في نفوس أصحابه قاما بتخريب واسع النطاق في البساتين والمزارع المجاورة إلا أن آمد صمدت وأقنعت المهاجمين بعدم جدوى البقاء طويلاً، ورضي زنكي من صاحبها – لقاء فك الحصار– تقديم مقدار من المال[1]، ثم اتجه الحليفان بعد ذلك إلى قلعة الصَوْر [2] القريبة وهي من ممتلكات داود ويحكمها ابنه قرا أرسلان فحاصراها وأرغماها على الاستسلام، وأهداها عماد الدين زنكي لحليفه تقديراً لمساعداته وتأكيداً لتحالفهما [3].

ب- اتساع شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داود: نتيجة لهذا الانقسام في الصف الأرتقي، اتسعت شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داود وبدت في الأفق السياسي بوادر نزاع مسلح بينهما في الوقت الذي ازداد فيه التحالف بين تمرتاش وعماد الدين زنكي متانة وصلابة. وقام الحليفان بشن هجوم مشترك على جبل جور [4] والسيوان في عام (٥٣٠هـ) وتمكّنا من ضمهما، ومنحهما زنكي لحليفه تماشياً مع خطته في تقوية التحالف معه[5]، وأدت هذه الانتصارات السريعة إلى إلقاء الرعب في روع قرا أرسلان بن داود الذي أدرك أنه أمام عدو صلب قوي وبالتالي عدم جدوى المقاومة، فغادر المنطقة إلى قاعدة أبيه في حصن كيفا، تاركاً مناطق ولايته لقمة سائغة في يد عماد الدين زنكي، وحاول تمرتاش الإفادة من تحالفه مع عماد الدين زنكي في توسيع رقعة إمارته بضم بعض المواقع القريبة، وتمكّن في عام (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م) من ضم قلعة الهتّاخ [6]، وهي آخر الحصون المروانية في ديار بكر[7].

ج- تعرض التحالف الزنكي الأرتقي إلى الاهتزاز: تعرض التحالف الزنكي – الأرتقي إلى الاهتزاز في عام (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) وبدا في الأفق السياسي ما يشير إلى فتور في العلاقات بين الحليفين ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى التجاء الأمير أبي بكر، نائب

(١) زبدة حلب (٢/ ٢٥٣)؛ عماد الدين زنكي ص ٨٩.
(٢) الصَوْر : قلع حصينة عجيبة على رأس جبل بين الجبال من أعمال ماردين.
(٣) الاعتبار لابن منقذ ص ١٩٩ – ٢٠١، تاريخ الزنكيين ص ١١٢.
(٤) جبل جور : اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية.
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٢.
(٦) الهتاخ : قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميافارقين.
(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٢.

عماد الدين زنكي في نصيبين إلى حسام الدين تمرتاش، بعد ما خرج عليه، فرفض الأخير تسليمه إلى عماد الدين زنكي رغم إلحاحه وجرت بينهما منازعات طويلة بسبب ذلك، فاضطر تمرتاش إلى تسليمه إلى السلطان مسعود الذي سلمه بدوره إلى عماد الدين زنكي لينال عقابه (١).

د- عودة الوئام بين تمرتاش وداود: أدرك كل من تمرتاش وداود أن هذا الخلاف الذي اشتد بينهما واتسع إلى درجة الحرب والتخريب لن يفيد أيًا منهما بقدر ما يعود بالمكاسب على زنكي الذي قد يستغله بشكل دائم لتحقيق مزيد من الانتصارات في المنطقة، وبالتالي إضعاف قوى الأراتقة جميعاً، كي يصبحوا بعد ذلك هدفاً سهل المنال، لذا قام كل من الأميرين الأرتقيين بتبادل الرسل في مطلع عام ٥٣٦هـ، وأسفرت المفاوضات عن عقد صلح بينهما وما لبث داود أن اتجه إلى ميافارقين حيث اجتمع بابن عمه بعد سنين طويلة من العداء (٢).

هـ- سعي عماد الدين زنكي في كسب حليف جديد: لم يغب عن زنكي أن الصلح الذي تم بين الأراتقة سيكون على حسابه للحد من مطامحه في المنطقة، فسعى إلى اتخاذ إجراءات سياسية تكفل عدم انعزاله من جهة واكتساب حليف جديد ضد منافسيه في المنطقة من جهة أخرى، وقد تمكن – في أقل من عام – من تحقيق هدفيه هذين(٣) واستطاع أن يحصل على مركز قوي في ديار بكر، وأن يستغل هذا المركز لمد نفوذه هناك، والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من الحصون الكثيرة المنتشرة في المنطقة والتابعة لعدد من الأمراء، كي يتسنى له بعد ذلك القيام بخطوته الحاسمة، وهي الانقضاض لإسقاط حكم بني أرتق الذي يقف عائقاً دون تحقيق هدفه الرئيسي في توحيد بلاد الموصل والجزيرة وشمالي الشام (٤).

و- حملة عسكرية واسعة من عماد الدين زنكي: وشهدت أواخر عام ٥٣٧هـ ومطالع العام التالي قيام زنكي بحملة واسعة ضد عدد كبير من الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر والتابعة لأمير يدعى يعقوب بن السبع الأحمر الذي لم تشر المصادر – بوضوح – إلى تاريخه السياسي، وهويته وطبيعة علاقاته بأمراء ديار بكر (٥). وقد تمكن زنكي –في حملته هذه – من

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٣.
(٢) (٣) عماد الدين زنكي ص ٩٢.
(٤) المصدر نفسه ص ٩٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٩٤.

الاستيلاء على مدينة طنزة، والسعرد والمعدن[1]، وحيزان [2]، وحصن الزوق [3]، وفطليس[4] وباتاسا [5]، وحصن ذي القرنين [6]، وانيرون [7]، وقام بترتيب أوضاع هذه المواقع والحصون، ووضع في كل منها حامية عسكرية لتدافع عنها ضد هجمات الأعداء[8]. وأسرع زنكي – بعد إنجازه هذه الانتصارات – بالتوجه إلى ميافارقين لتنفيذ الخطة السرية التي رسمها مع شرف الدين حبشي وزير تمرتاش وعسكر بقواته الكبيرة، في إحدى ضواحيها القريبة المسماة (تل بسمي)، أملاً أن يقوم حبشي، المقيم في ميافارقين، بفتح الأبواب لدخول قواته والسيطرة على المدينة والقلعة دون إراقة قطرة من دماء، إلا أن الخطة اكتشفت، واتفق رجلان من كبار أعيان البلد ومسؤوليه على اغتيال حبشي وإنهاء الخطر المحدق بميافارقين [9]، فتسللا إلى خيمته ليلاً وضرباه بالسيوف، ثم حملا رأسه إلى تمرتاش في ماردين، وسرعان ما انتشر نبأ الحادثة، فاضطرب جيش زنكي وعمته الفوضى، واضطر قائده إلى الانسحاب، إذ أن مقتل حبشي المفاجئ جعل من الصعوبة بمكان الاستيلاء على ميافارقين، فقفل عائداً إلى نصيبين[10].

وفي مطلع العام التالي (٥٣٩هـ) توفي داود بن سقمان صاحب حصن كيفا، فخلفه ابنه فخر الدين قرا أرسلان ويبدو أن هذا الأخير لم يكن يتمتع، كأبيه، بمقدرة سياسية أو عسكرية فرأى أن خير وسيلة لإيقاف عماد الدين زنكي هي إعادة التحالف القديم بين إمارتي حصن كيفا وماردين، فقام بالخطوة الأولى في هذا السبيل فصاهر تمرتاش[11]، واستغل عماد الدين ضعف قرا أرسلان، فتوسع على حسابه، وضم مناطق واسعة من إمارة الحصن، وقد أدَّت العمليات العسكرية التي نفَّذها إلى تعميق الخلاف بينه وبين تمرتاش وبخاصة أنه هاجم قلعتي الجور والسيوان وضمهما إلى أملاكه، بعد أن كان قد منحهما لهذا الأخير، والواقع أن عماد الدين زنكي لم يأبه لهذا النزاع بعد أن أضحى مركزه قوياً في ديار بكر، فقرر استئناف هجماته علي الأملاك الأرتقية، فاتجه إلى آمد في محاولة لضمها إلا أنه انهمك بمهاجمة

(١) تقع قريباً من منابع نهر دجلة سميت بذلك بسبب كثرة معدني الحديد والنحاس.
(٢) بلد كثير الأشجار والبساتين.
(٣) عماد الدين زنكي ص ٩٤.
(٤) (٥) (٦) (٧) (٨) (٩) المصدر نفسه ص ٩٤.
(١٠) المصدر نفسه ص ٩٥.
(١١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٥.

إمارة الرها الصليبية، فأنقذ تمرتاش من هجوم جديد ضد أملاكه [1].

ز- موقف عماد الدين من إمارة أرمينية: لابد قبل الانتهاء من سرد وتحليل علاقات زنكي أن نذكر علاقته بأمراء أرمينية[2]، إذ أرسل في عام ٥٢٨هـ يطلب خطبة ابنه سكمان القطبي الذي كانت زوجته قد تولت الوصاية على شؤون الإمارة منذ وفاته عام ٥٠٥هـ، وصادف في الوقت نفسه أن تقدم حسام الدولة بن دلماج أمير بدليس المجاورة، يخطب هذه الفتاة لابنه، الأمر الذي أغضب زنكي أشد الغضب، واعتبر الموضوع بمثابة تحد لرغبته، فتقدم على رأس قواته إلى خلاط، سالكاً بجنده الطرق الجبلية الوعرة، غير المسلوكة من أجل أن يبلغ هدفه بأسرع وقت ممكن [3]. فكان الجيش بغير خيام وكل جندي في موضعه من الطريق [4]. وعندما وصلوا خلاط ضربوا خيامهم قريباً منها، واتجه زنكي مع كبار أفراد حاشيته إلى القلعة لكتابة المهر. وما أن أتم ذلك حتى قام بإرسال حاجبه الياغسياني إلى بدليس، على رأس قسم من قواته، لتأديب صاحبها، إلا أن هذا استطاع إقناع قائد زنكي بالعودة إلى سيده مقابل مبلغ من المال [5]. وهكذا اعتمد زنكي رابطة الزواج لتعزيز علاقته بإمارة أرمينية، وكسب – بذلك – صديقاً جديداً، ربما حصل على مساعدته خلال عملياته العسكرية في المناطق القريبة من أرمينية، أو ضمن حياده على الأقل، سيما أن هذه الإمارة كانت تجاور أعداءه في ديار بكر ومناطق الجبال الكردية، مما كان يحتم إبعادها عن الدخول في الصراع إلى جانب هؤلاء الأعداء. ولم يحاول زنكي – من جهة أخرى – أن يتوسع على حساب هذه الإمارة، ربما لبعدها عن حدود ممتلكاته، وعدم تشكيلها خطراً مباشراً عليه، حيث يفصل بين الطرفين عدد من الإمارات والمواقع المستقلة في أقاليم الجبال وديار بكر، امتصت معظم جهوده خلال صراعه الطويل مع أمرائها، هذا إلى أن المنشور، الذي منحه السلطان السلجوقي لزنكي، نص على توليته الموصل والجزيرة والشام، دون أية إشارة إلى أرمينية، وفضلاً عن هذا وذاك، كان هدف زنكي الرئيسي العمل على توحيد المواقع الإسلامية التي تخدمه في صراعه ضد الصليبيين، ولم تكن أرمينية ذات غناء كبير في هذا المجال، وأخيراً لا بد أن نلاحظ بعد نظر زنكي في سياسته التي استهدفت عدم إضعاف الإمارة المذكورة التي كانت بمثابة حزام واق ضد هجمات الخزر والقفجاق القاسية على الجهات الشمالية

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٥.
(٢) عماد الدين زنكي ص ٩٦. (٣) (٤) (٥) المصدر نفسه ص ٩٧.

من آسيا الصغرى وأرمينية، أولئك الذين كانوا يشكلون خطراً على المناطق المجاورة [1].

سادساً: عماد الدين زنكي وأمراء دمشق:

١- ضم حماة: أدرك عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين إلا إذا ضم دمشق والمدن المحيطة بها إلى أملاكه، وأقام محور الموصل – حلب – دمشق لأن قطع الشام عن الجزيرة كان يجعله محتاجاً إلى البقاع وحوران لتموينه بالحبوب، بالإضافة إلى هدف سياسي يعود إلى وجود مملكة بيت المقدس اللاتينية في الجنوب. والواقع أن ممتلكات المسلمين في بلاد الشام كانت تتوزع آنذاك بين ثلاث قوى:

أ- بوري بن طغتكين، أتابك دمشق الذي يسيطر على دمشق وحماة في الشمال، وحوران في الجنوب، والجدير بالذكر أن آل طغتكين ورثوا حكم هذه المنطقة الحيوية من سلاجقة الشام، وكانت مشكلتا دمشق الرئيستان تتمثلان في تجنُّب قوة الزنكيين في الموصل وحلب، وقوة الصليبيين في بيت المقدس، والاحتفاظ بالسيطرة على السهلين الزراعيين، البقاع في الشمال الغربي، وحوران في الجنوب الشرقي، اللذين يؤمِّنان لها القمح والعلف.

ب- صمصام الدولة خير خان بن قراجا، أمير حمص.

ج- سلطان بن منقذ، الأمير العربي الذي يسيطر على شيزر.

وحتى يحقق هذا الهدف كان عليه أن يضم حماة وحمص أولاً الواقعتين على الطريق المؤدي إلى دمشق نظراً لما يمنحه ذلك من قواعد عسكرية مهمة، ومراكز للتموين لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد المدينة الأخيرة أو فرض الحصار عليها[2]. ورأى عماد الدين زنكي أن يستعمل الأساليب والمناورات السياسية لضم حماة وحمص، ويتجنَّب ما أمكن استعمال القوة، فأرسل إلى بوري بن ظغتكين في دمشق يخطره بنيته في محاربة الصليبيين، ويلتمس منه المساعدة، فكتب بوري إلى ابنه سونج في حماة يأمره بالخروج من عسكره لنجدة عماد الدين زنكي، كما أرسل من دمشق قوة عسكرية مؤلفة من خمسمائة فارس، لتنضم إلى القوات الإسلامية. ورحب عماد الدين زنكي بقدوم سونج، وأحسن لقاءه، لكنه لم يلبث أن قبض عليه، وعلى عدد من أمرائه وقادته، وأرسلهم إلى حلب ثم تقدم مسرعاً إلى حماة، منتهزاً خلوها من الدفاعات، ودخلها في شهر شوال عام ٥٢٤هـ/ شهر أيلول عام ١١٣٠م وسلمها لحليفه خير خان صاحب حمص الذي كان يرافقه في عملياته [3].

---

(١) عماد الدين زنكي ص ٩٨. (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٦.

(٣) زبدة حلب (٢/ ٤٤٠)؛ تاريخ الزنكيين ص ١١٦.

٢- محاولة ضم حمص: ويبدو أن هذه الخطوة كانت خدعة من عماد الدين زنكي ليطمئن حليفه قبل أن يضربه، وفعلاً انقلب عليه بعد ذلك، فقبض عليه، وأمره بمراسلة أهل حمص لتسليمه المدينة قبل أن يرسله إلى حلب، ثم أسرع بمهاجمتها (١). إلا أن أهالي حمص قاتلوا ببسالة كبيرة، اضطرت زنكي- أخيراً – إلى فك الحصار والعودة إلى حلب (٢). حيث أرسل من هناك كلاً من خير خان وسونج وأمرائه لكي يعتقلوا في الموصل. ثم ما لبث بوري أن أخذ يراسل زنكي ملتمساً إطلاق سراح ابنه، وأخيراً تمت موافقة أمير الموصل على إعادة المعتقلين إلى دمشق مقابل تسليمه دبيساً بن صدقة – أمير الحلة – الذي كان محتجزاً آنذاك في دمشق (٣). أما خير خان فقد بقي في السجن حتى مقتله عام ٥٢٩هـ(٤)، مالبث زنكي أن قام – في العام التالي – بهجومه الثاني على حمص، لكنه جوبه بنفس المقاومة الشديدة، فآثر الانسحاب انتظاراً لفرصة مواتية أخرى (٥)، وفي السنة التالية توفي بوري حاكم دمشق، فأعقبه في الحكم ابنه إسماعيل الذي كان أكثر طموحاً واندفاعاً من أبيه، فعزم على مهاجمة حماة، وتمكن من استردادها في شوال عام ٥٢٧هـ بعد أن أبدت حاميتها مقاومة عنيفة (٦).

٣- محاولة التفاهم مع حكام دمشق: حدث في شهر رجب عام ٥٢٦هـ/ شهر حزيران عام ١١٣٢م أن توفي بوري بن طغتكين، فخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل الذي اتصف بالطموح والاندفاع الزائد ونجح هذا الحاكم الجديد في استعادة حماة في أول شهر شوال عام ٥٢٧هـ/ شهر آب عام ١١٣٣م (٧)، مستغلاً انهماك عماد الدين زنكي بمشاكله مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية غير أن إسماعيل لم يلبث أن أساء السيرة، وبالغ في ظلم الأهالي ومصادرة أموالهم، كما أسرف في التخلص من معارضيه، حتى أضحى كل شخص يخشى على حياته، فاضطربت أحوال دمشق، وتألّب الجميع عليه (٨)، وكان قد أدرك إصرار عماد الدين زنكي على مهاجمة دمشق وصعوبة الصمود بوجهه والنقمة تحيطه من كل مكان فقرر القيام بمناورة استهدف من ورائها كسب زنكي إلى جانبه ضد خصومه الدمشقيين، فكاتبه عام ٥٢٩هـ يطلب منه القدوم إلى دمشق لتسليمها إياه طوعاً، وشرط عليه – لقاء ذلك – أن يمكنه من الانتقام من خصومه، وأبلغه أنه إن لم يسرع بتلبية طلبه قام باستدعاء الصليبيين، وسلمهم دمشق، وكان إثم المسلمين في عنق زنكي. ثم ما لبث إسماعيل أن شرع بنقل أمواله وممتلكاته

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٧.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٢٠.
(٣) المنتظم (١٠/ ٢٠).
(٤) مفرج الكروب (١/ ٧١).
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٢١.
(٦) الاعتبار ص ٩٧ – ٩٨، عماد الدين زنكي ص ١٢١.
(٧) (٨) ذيل تاريخ دمشق نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١١٧.

إلى صرخد، استعداداً لتسليم دمشق لأمير الموصل. غير أن كبار أمراء دمشق وقادتها أوضحوا لوالدته – ذات النفوذ الكبير في الإمارة – العواقب الوخيمة التي ستجرها عليهم سياسة ابنها الرعناء فأسرعت بتدبير قتله، وأجلست مكانه في الحكم أخاه شهاب الدين محمود حيث بايعه الناس [1]، كان عماد الدين زنكي آنذاك قد خرج من الموصل وعبر الفرات في طريقه إلى دمشق، وعندما بلغته أنباء التغييرات التي حصلت، لم يقطع أمله في إيجاد وسيلة التفاهم مع الحكام الجدد، لذلك واصل سيره حتى يبلغ أرباض المدينة وأرسل رسولاً إلى حكامها للتفاوض بشأن شروط التسليم اعتقاداً منه بعدم قدرتهم على المقاومة[2].

٤- حصار دمشق: الواقع أن الدمشقيين رفضوا التفاوض معه وأصروا على المقاومة. وأصر هو من جهته على مهاجمة دمشق، فضرب الحصار عليها في أوائل جمادي الأولى ونفذ غارات على أطرافها، فردّ عليه الدمشقيون بغارات مضادة، وتزعم حركة المقاومة معين الدين أنر أحد مماليك طغتكين[3]، ولما فشل في اقتحام المدينة اضطر، تحت ضغط الظروف السياسية والعسكرية المستجدّة، إلى عقد صلح مع الدمشقيين في آخر شهر جمادي الأولى عام ٥٢٩هـ/ شهر آذار عام ١١٣٥م وقفل عائداً إلى حلب[4]. والواضح أن الظروف التي دفعته إلى فك الحصار تكمن في الأحداث التالية:

أ – قيام الدمشقيين بمضايقة جيشه في الوقت الذي أخذت قواته في التناقص.

ب- تسللُ بعض جنوده إلى دمشق، وانضمامهم إلى الدمشقيين.

ج- بَعَثَ حكام دمشق إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله مبلغاً من المال، قدره خمسون ألف دينار، وطلبوا منه دفع عماد الدين زنكي عنهم، وتعهدوا، إذا نجح في ذلك، بأن يرسلوا مبلغاً مماثلاً كل سنة، فقبل الخليفة هذا العرض وأرسل إليه يأمره بفك الحصار عن دمشق، والتوجه على رأس قواته إلى بغداد لمعاونته ضد السلطان مسعود [5]، وهكذا فشلت الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي لضم دمشق، كما ظلّت هذه المدينة أمداً طويلاً تمثل عقبة في سبيل إتمام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام [6].

٥- تجدد الغارات على حمص: تمكّن عماد الدين أثناء عودته إلى حلب، بعد أن فكّ الحصار

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٢١.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٨.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص١١٩.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١١٩.
(٥) المنتظم (١٠/ ٤٣)، تاريخ الزنكيين ص ١١٩.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١١٩.

عن دمشق من إعادة ضم حماة إلى أملاكه، كما هاجم حمص، إلا أنه فشل في دخولها[1] ويبدو أن هذه المدينة ظلت طيلة السنوات الثلاث التالية ٥٣٠هـ - ٥٣٢هـ/ ١١٣٥ - ١١٣٧م) عرضة لهجماته، إذ شهد عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م محاولة أخرى لضمها، فوجد قريش بن جبرخان نفسه عاجزًا عن صده، فاستنجد بشهاب الدين محمود صاحب دمشق يلتمس منه إرسال من يراه كفئاً لتولي شؤون الحكم فيها على أن يعوضه عنها بإحدى مدن إمارته، وافق حاكم دمشق على هذا العرض الذي يتيح له ضم مدينة كبيرة ومهمة كحمص إلى إمارته فتسلمها في شهر ربيع الأول عام ٥٣٠هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٣٥م وأقطعها معين أنر[2].

لم يركن الزنكيون إلى الهدوء وتابعوا شن الغارات على حمص بقيادة سوار بن أبتكين، غير أن المدينة صمدت وانتعشت بما كان يدخلها من الميرة والأقوات، فاضطر سوار إلى طلب التفاوض، واستقر الصلح بين الطرفين على قاعدة عدم تعرض أي منهما للطرف الآخر[3]. آمن عماد الدين زنكي دائماً بأن قيام الجبهة الإسلامية المتحدة في بلاد الشام، يجب أن يسبق أية خطوة عملية يتخذها ضد الصليبيين، فرفض من هذا المنطلق إقرار الهدنة التي عقدها نائبه في حلب، وجدَّد الهجوم على حمص في شهر شعبان عام ٥٣١هـ/ شهر آيار عام ١١٣٧م إلا أنه فشل في اقتحامها بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها معين الدين أنر من جهة، وظهور بوادر تحالف خطير بين الزعماء الصليبيين من جهة أخرى، إذ قام فولك أنجو، ملك بيت المقدس، برفقة ريموند الثاني، أمير طرابلس، بنجدة المدينة [4].

٦- الهدنة مع حكام دمشق: اضطر عماد الدين زنكي إلى عقد هدنة مع حكام دمشق كي يتفرغ للتصدي للصليبيين الذين احتشدوا في حصن بارين المنيع، فانتصر عليهم [5]، وتهيأت له الفرصة مرة ثانية لمهاجمة ممتلكات آل طغتكين، وتوحيد بلاد الشام، فقام في أوائل عام ٥٣٢هـ/ أواخر عام ١١٣٧م بمهاجمة بعلبك إلا أنه قنع بما بذله له صاحبها [6]، واتجه إلى حصن المجدل فاستولى عليه دون مقاومة تذكر، وإذ ذاك شعر إبراهيم بن طرغت صاحب بانياس بضعف مركزه تجاه زنكي فراسله وأعلن دخوله في طاعته، وعندما دخل الشتاء واشتد البرد، أوقف زنكي نشاطه في المنطقة [7].

٧- الحصار على حمص: ومع بوادر الربيع انطلق على رأس قواته صوب حمص وفرض

---

(١) زبدة حلب (٢/ ٤٥١ - ٤٥٢)، تاريخ الزنكيين ص ١١٩.

(٢) (٣) (٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٠.

(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٢٠.

(٦) (٧) عماد الدين زنكي ص ١٢٤.

الحصار عليها. كان مركزه في المنطقة قد بلغ درجة كبيرة من القوة أتاح لنفسه معها أن ينقض الهدنة التي عقدها مع حكام دمشق في العام الماضي، كما أنه باستيلائه على حصن المجدل، وفرض طاعته على صاحبي بعلبك وبانياس تمكن من السيطرة على معظم المواقع الغربية لإمارة آل طغتكين، ولم يبق أمامه، لاتخاذ طريقه صوب دمشق، سوى مدينة حمص[1]. شدد عماد الدين زنكي الحصار على حمص، وجمع عليها جموعاً كبيرة من مقاتلي التركمان واستقدم من حلب فرقة عسكرية متمرسة على أساليب الحصار وقام بشن هجماته على أنحاء المدينة، مستخدماً هذه المرة مزيداً من أساليب العنف والإرهاب، إلا أنه اضطر إلي فك الحصار وتوجه لمجابهة أخطار التحالف البيزنطي – الصليبي، وقد تمكن في فترة قصيرة من القضاء على هذا التحالف الذي انتهى بانسحاب امبراطور الروم إلى بلاده [2]، وعاد زنكي إلى حصار حمص من جديد، محاولاً هذه المرة استخدام الأساليب السلمية لتحقيق هدفه، مستغلاً مركزه القوي في المنطقة إثر الانتصارات الحاسمة التي حققها ضد الصليبيين والبيزنطيين فتقدم طالباً يد زمرد خاتون والدة شهاب الدين محمود حاكم دمشق، لعله يضمن الحصول على حمص عن طريق هذا الزواج السياسي، فأجيب إلى طلبه بعد مفاوضات قصيرة وتمت إجراءات العقد في السابع عشر من رمضان، بعد أن تمكن من إقناع آل طغتكين بتسليمه حمصًا كجزء من الاتفاق، على أن يعوض نائبها بعدد من الحصون القريبة من دمشق كبعرين واللكمة والحصن الشرقي، كما اشترط عليهم تزويج ابنته من شهاب الدين محمود – مستهدفاً من وراء ذلك إقامة علاقته بهذه العائلة الحاكمة على قواعد راسخة قد تفيده في المستقبل القريب [3].

٨- تجدُّد هجمات عماد الدين زنكي على دمشق: ظن عماد الدين زنكي أن بهذا الرباط العائلي ستصبح دمشق في متناول يده إلا أنه لم يكسب شيئاً، باستثناء الحصول على حمص فقط، أما ضمُّ دمشق الذي كان هدفه الأساسي من هذا الزواج فلم يتحقق. ويقول ابن الأثير في ذلك: إنما حمله على الزواج بها ما رأى من تحكمها في دمشق، فظن أنه يملك البلد بالاتصال بها، فلما تزوجها خاب أمله، ولم يحصل علي شيء، فأعرض عنها[4].

فما الذي تغير في الأوضاع السياسية في دمشق وحال بين عماد الدين زنكي وبين تحقيق هدفه؟ الواقع أنه ما إن غادرت زمرد خاتون دمشق حتى فقدت مكانتها السياسية العالية

---

(١) عماد الدين زنكي ص ١٢٤.	(٢) المصدر نفسه ص ١٢٥.
(٣) مرآة الزمان (٨/ ١٦٥)، عماد الدين زنكي ص ١٢٥.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٢.

التي كانت تتمتع بها، حيث غدت الكلمة الأولى لابنها محمود وحاشيته[1]. وشكلت سنة (٥٣٣هـ/ ١١٣٩م) نقطة تحول مهمة في تاريخ دمشق، فقد هوجمت هذه المدينة من اتجاهين متباعدين، فقد هاجمها الصليبيون في بيت المقدس من الجنوب، في حين هاجمها عماد الدين زنكي من الشمال، ولم يدرك الدمشقيون أي الخطرين كان أشد على وضع مدينتهم إلا أن الجبهة الجنوبية شهدت هدوءاً يكاد يكون تاماً بعد حملة عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م، ثم تحقق السلام بين الجانبين في عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م والذي كان من الممكن أن يتجدَّد. أما سياسة عماد الدين زنكي تجاه دمشق، فقد اختلفت كلياً، فإنه بوصفه المدافع الأول عن المسلمين، فقد رأى توحيد صفوفهم تحت رايته، ولكن دمشق وقفت عقبة أمام تحقيق ذلك فكان عليه تذليلها، وشهدت دمشق خلال (شهر شوال / شهر حزيران) تطورات سياسية متسارعة أدّت إلى مقتل شهاب الدين محمود على أيدي رجاله، وتنصيب أخ له غير شقيق هو جمال الدين محمد صاحب بعلبك. والراجح أن معين الدين أنر كان وراء هذه الأحداث بهدف السيطرة على الحاكم الجديد والتفرد باسمه بالسلطة الفعلية. وفعلاً حقَّق أنر هدفه بعد أن فوض إليه الأتابك أمور المدينة وأقطعه بعلبك [2]. وهكذا أدّت تلك التطورات السياسية إلى ازدياد نفوذ أنر مما حمل ابن الأثير على وصفه بأنه صار هو الجملة والتفصيل[3]، ولم تكن هذه التطورات في صالح عماد الدين زنكي، كما عز على زمرد خاتون التي كانت تقيم في حلب أن يقتل ابنها ويحل محله في حكم دمشق ابن ضرتها، فأرسلت إلى عماد الدين زنكي، وكان في الموصل تستدعيه طالبة الثأر لولدها والسيطرة على دمشق[4]. كما أن الأمور لم تستتب للحكام الجدد بسهولة، إذ كان للأتابك جمال الدين محمد أخ يدعى بهرام شاه، عزَّ عليه أن يتجاهله أنر بعد مقتل شهاب الدين محمود، فلجأ إلى حلب، ومنها سار إلى الموصل، طالباً مساعدة عماد الدين زنكي [5]، وبذلك تهيأت لعماد الدين زنكي فرصة أخرى للتدخل في شؤون دمشق، فأعد جيشاً خرج على رأسه في (شهر ذي القعدة عام ٥٣٣هـ/ شهر تموز عام ١١٣٩م) قاصداً دمشق لاقتحامها قبل أن تستتب الأمور فيها، ويبدو أنه أدرك أن مهاجمة دمشق ليس بالأمر الهين، فهي المدينة التي أخلص أهلها لبيت بوري، إذ لم يكد سكانها يسمعون بأخبار الزحف باتجاه مدينتهم حتى صمَّموا على الدفاع والمقاومة. انطلاقاً من هذا الواقع، وضع خطة عسكرية من شقين:

---

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٢٢. (٢) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٣.
(٤) زبدة حلب (٢/ ٤٦٢)، تاريخ الزنكيين ص ١٢٣. (٥) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٣.

* تنفيذ حصار شديد على دمشق وعزلها عن بقية ممتلكاتها.
* تكوين جبهة مناهضة لحكامها [1].

وتنفيذاً للشق الأول هاجم بعلبك، التي كانت إقطاعاً لأنر، ودخلها في شهر صفر عام ٥٣٤هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٣٩م ووضع يده عليها [2]، والواضح أن ضمَّ بعلبك في هذه الأونة وحمص وحماة وبانياس والجدل من قبل، هيَّأ له تحقيق الشق الأول من خطته بعزل دمشق ومنع حكامها من الاتصال ببقية أجزاء الإمارة لطلب المساعدة العسكرية والاقتصادية، الأمر الذي سيضعف من مقاومتها إلى حد كبير [3]، وتنفيذاً للشق الثاني قام بجهود سياسية لتقوية موقفه، فراسل رضوان ابن الولخشي، الوزير الفاطمي، الذي كان في طريقه إلى دمشق هرباً من ثورة الجند عليه وأغراه بالانضمام إليه، وفعلاً استجاب الوزير الفاطمي ومال إلى مساندتيه [4]. ويبدو أن أنر أدرك خطورة هذ التحالف على وضعه الداخلي، فسعى لإحباطه، وأرسل أسامة بن منقذ إلى رضوان ليقنعه بالعدول عن هذا التحالف، وبذل له من الأموال ما أغراه [5]. وظل عماد الدين زنكي قابعاً في بعلبك حتى شهر ربيع الأول عام ٥٣٤هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٣٩م، أعاد خلالها تنظيم أمورها الإدارية، وعين عليها نجم الدين أيوب، ثم زحف نحو دمشق، وعسكر في سهل البقاع، ورأى قبل أن يهاجمها استقطاب الأتابك جمال الدين لتسليمه المدينة، مقابل منحه حمص وبعلبك إلا أن هذا الأخير رفض هذا العرض، وسانده رجال دولته وعلى رأسهم معين الدين أنر [6]. عندئذ اضطر إلى التقدم نحو المدينة وفرض الحصار عليها، ودارت عدة اشتباكات بين الطرفين لم تكن حاسمة إنما جاءت لمصلحة عماد الدين زنكي، الذي أوقف القتال مدة عشرة أيام لإعطاء المحاصرين فرصة أخرى للتسليم [7]، ويبدو أن جمال الدين محمد اقتنع أخيراً، بعدم جدوى المقاومة، وضرورة حقن الدماء، إلا أنه جوبه بمعارضة أنر فوجد نفسه مضطراً لاستئناف القتال [8]. وفي شهر شعبان عام ٥٣٤هـ/ شهر آذار عام ١١٤٠م توفي جمال الدين محمد، مما أتاح لعماد الدين زنكي، في ظل النزاع بين الورثة حول الفوز بحكم دمشق، فرصة مواتية لتوجيه ضربة حاسمة ضد المدينة، إلا أن أنر أسرع بتعيين مجير الدين أبق بن محمد أميراً على دمشق، فاضطر عماد الدين زنكي، الذي ضعفت نفسه وضاق صدره إلى التراجع قليلاً، بعدما رأى إصرار الدمشقيين على المقاومة لكن استمر حصاره أملاً في انهيار الحالة

(١) (٢) (٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٤.
(٤) الاعتبار ص ٣٧ — ٤٠، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٤.
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٤. (٦) (٧) (٨) المصدر نفسه ص ١٢٥.

الاقتصادية في دمشق، ومن استسلام المدينة [1].

٩- التحالف بين حكام دمشق والصليبيين: وأمام استمرار الحصار، واشتداد الخطر الزنكي، رأى أن يستعين بالصليبيين، فأرسل أسامة بن منقذ إلى فولك أنجو، ملك بيت المقدس لإجراء مفاوضات معه تستهدف طلب المساعدة وأبدى استعداده بأن:

أ- يدفع عشرين ألف دينار كل شهر، وهي نفقات القوات الصليبية التي ستأتي لمساعدته.

ب- يعيد له حصن بانياس بعد انتزاعه من حاكمه التابع لزنكي.

ج- يسلمه عدداً من كبار أمرائه ليكونوا رهائن ضماناً لحسن التنفيذ، وأوضح له أنه إذا نجح عماد الدين زنكي في ضم دمشق فإن مقدرات بلاد الشام ستصبح بين يديه مما يشكل خطراً كبيراً على الصليبيين، وفعلاً، أدرك الملك فولك ومجلسه الاستشاري أن عماد الدين زنكي الذي بات يمتلك الموصل وحلب وحماة وحمص وبعلبك، لا ينبغي، بأي حال، أن يمتلك دمشق، وإلا فإن تحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام وشمالي العراق ستصبح واقعاً، وهذا معناه طردهم من الشرق الإسلامي، وأقنعتهم الظروف السياسية والعسكرية بضرورة التعاون المثمر مع أنر، وساد بينهم الشعور بأنه لابد من قبول عرضه، وبخاصة أنهم كانوا يتطلعون إلى استعادة حصن بانياس [2]، وسرعان ما اتجه الصليبيون شمالاً بقيادة فولك لنجدة حليفهم. أما عماد الدين زنكي، فظل يراقب الوضع عن كثب، وفك الحصار عن دمشق حتى لا يقع بين فكي الكماشة، وأسرع للتصدي للصليبيين منفردين قبل أن يقتربوا من دمشق وعسكر في إقليم حوران في شهر (رمضان/ نيسان) بانتظار وصولهم، ويبدو أن فولك، الذي كان يتقدم بحذر، فضّل التوقف قرب بحيرة طبرية، مما دفع عماد الدين زنكي إلى معاودة حصار دمشق، بيد أنه ما لبث أن فكّ الحصار عندما سمع بتقدم الصليبيين لنجدة حلفائهم، وعاد إلى حمص وتمكن الحليفان من الاستيلاء على بانياس في شهر (شوال/ آيار) وتسلمها فولك وفقاً للاتفاق المبرم مع أنر. والواقع أن التحالف بين دمشق وبيت المقدس، أنقذ الأولى دون أن ينشب القتال، وتخلص أنر من أخطر وآخر محاولة جدية من عماد الدين زنكي لضمها إلى أملاكه، الأمر الذي أعاق جهوده بتوحيد المسلمين في بلاد الشام، إلا أنه ظل على الرغم من ذلك يفكر طوال سنوات حكمه المتبقية لتحقيق هذا الهدف [3].

---

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٢٥ نقلاً عن الكامل في التاريخ. (٢) (٣) المصدر نفسه ص ١٢٦.

المبحث الخامس
جهاده ضـــد الصليبيين

أولاً: حال المسلمين والصليبيين قبل عماد الدين:

كان المسلمون في الشام متفرقين تكاد كل مدينة أن تكون دولة مستقلة، وأقام الصليبيون في شمال سوريا تسعة شهور بعد فتح أنطاكية قبل سيرهم إلى بيت المقدس واستفادوا من هذه الفترة بالإغارة على المناطق الشمالية في سوريا وأقاموا النفوذ الصليبي محل النفوذ الإسلامي دون أن يحتكوا بالبيزنطيين، فأقاموا بذلك سداً في وجه القوات الإسلامية والبيزنطية على السواء إذا فكرت في مهاجمة أنطاكية أو غيرها من الإمارات الصليبية في المستقبل. كما جعلت الترابط بين الإمارات اللاتينية متيسراً لتستطيع إحداها أن تنجد الأخرى على جناح السرعة إذا جد الجد وتعقدت الأمور.

وتقدم الصليبيون نحو الجنوب فأسسوا مملكة بيت المقدس مستغلين ضعف الدولة الفاطمية، ودمشق عن حماية المنطقة والمدن الساحلية، وبإنشاء إمارة طرابلس حدث توازن بين الصليبيين والمسلمين، فأنطاكية تواجه حلب، وطرابلس تواجه مدن وادي العاصي، والرها تقع بين حلب، والدولة الإسلامية في الشرق والغرب، والقدس تقع بين دمشق ومصر ونقطة التوازن.

والسؤال المطروح هل تنضم حلب إلى دمشق أو للموصل أو إلى الصليبيين [1]. لقد كانت بلاد الفرنجة تقتصر على سواحل سوريا وفلسطين وتعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج وعلى سلسلة من القلاع الضخمة المبتدئة من ذغيرة في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ثم كرك وبيت جبريل وألدروم، وكان خلف هذا الخط الأول توجد القلاع الممتدة من شقيق أرنون إلى صفد والقسطل وفي الشمال حصون عكا والكرك وبارين ومن ورائها جميعاً المدن الساحلية الكبيرة أنطاكية طرابلس وعكا وصور والمرقب وبيروت ويافا وعسقلان وهي أطراف القوى الصليبية من ناحية البحر. ويقابلها من ناحية البر مرجعيون وجسر يعقوب وبيسان وطبريا. وامتازت هذه الحدود الصليبية، أن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية، من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دينية وصحية [2].

---

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٣٢. (٢) المصدر نفسه ص ١١٢.

وأما خصائص الاستراتيجية الإسلامية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد آمنة للتموين في سرعة، ففي الشمال حَلب وحماه وإلى الشرق الموصل وقلاع الجزيرة ولكنها مدن حصينة، وفي الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب العربي والنوبة واليمن [1]. وبدأ المسلمون في مقاومة الصليبيين منذ اللحظات الأولى لقدومهم لكن كانت الكفة الراجحة للصليبيين فطمعوا في حلب ودمشق وفرضوا عليهما الإتاوات، ويصف الحال ابن الأثير[2]: لما ملك المولى الشهيد البلاد كانت الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وامتدت إلى بلاد الشام أيديهم وضعف أهلها عن غارتهم، وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وشيجتان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماه ودمشق، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد ومن الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين، وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا إلى الرحبة والبر، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعباً ومشقة ويخاطرون بالقرب من القبائل العربية بأموالهم وأنفسهم، ثم زاد الأمر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم، ثم لم يقتنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر البلاد النصرانية وخيروهم في المقام عند أربابهم أو العودة إلى أوطانهم والرجوع إلى أهلهم وإخوانهم، وناهيك بهذه الحالة للمسلمين ذلة وصغاراً وللكافرين قدرة واقتساراً.. أما حلب فإنهم ناصفوها أعمالها حتى الرحا على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة وأما باقي بلاد الشام فكانت حالها أشد من هذين البلدين [3].

ثانياً: سياسة عماد الدين زنكي مع الصليبيين:

أدّت مواقف عماد الدين زنكي من الصراع ضد الصليبيين دوراً بارزاً في تحديد مستقبله السياسي، إذ دفعت السلطان محمد السلجوقي إلى توليته الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام إثر وفاة واليها عز الدين مسعود بن البُرسُقي في عام ٥٢١هـ/١١٢٧م، ويبدو أن السلطان اقتنع بأنه الرجل الكفء الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه حكام الموصل من قبل، مما يؤكد حرصه على الاستفادة من قدراته لصد الخطر الصليبي الجاثم على حدود العراق الغربية [4]. لم يمارس عماد الدين زنكي، في بداية حكمه للموصل أي نشاط عسكري

(١) صلاح الدين، قلعجي ص ٣١٠ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١١٣.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ (٣) المصدر نفسه ص ١١٤.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٢٩.

ضد الصليبيين قبل أن يُثبّت أقدامه في إماراته الجديدة، ويُعزّز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ويوحد ما أمكنه من الإمارات الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام إلى الحد الذي يمكنه من التصدي لهم، ولعل ما يدل على بُعد نظره في هذا الصدد، أنه وقّع هدنة مع جوسلين الثاني أمير الرها لمدة سنتين أخذ أثناءها يوحد سلطانه في بلاد الشام [1]، ولم تشر المصادر إلى شروطها، إلا أن ابن الأثير يذكر أنها تمت على ما اختاره عماد الدين زنكي، ويبدو أن المشاكل التي جابهت صاحب الرها، اضطرته إلى قبول هدنة لصالح عدوه المسلم. كان هدف عماد الدين زنكي من عقد الهدنة التفرغ لضم حلب إلى أملاكه واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام [2]، ونجح في تحقيق هذا الهدف، وانطلق بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وإمارات محلية منتهزاً فرصة الهدنة[3].

ثالثاً: مشكلة وراثة أنطاكية:

وصادف عام ٥٢٤هـ أن اجتازت أنطاكية الصليبية ظروفاً صعبة كادت تنتهي بسقوط هذه الإمارة في يد زنكي، أو بخضوعها لطاعته على الأقل. ذلك أن أميرها «بوهيمند الثاني» قتل هذا العام على أيدي سلاجقة آسيا الصغرى، فخلفته في الحكم زوجته «أليس» ابنة (بلدوين) ملك بيت المقدس، وعندما استنجد الأنطاكيون بأبيها، واتجه لإنهاء المشاكل هناك، أسرعت ابنته وبعثت رسولاً إلى زنكي تعرض عليه إعلان طاعتها له مقابل إقرارها كأميرة على أنطاكية. لكن الرسول ما لبث أن قتل على يد بلدوين، الذي عثر عليه أثناء توجهه إلى أنطاكية، إلا أن ملك بيت المقدس ما أن وصل إلى هناك حتى قامت ابنته بإقفال الأبواب في وجهه ثم ما لبثت أن أعلنت – مضطرة – خضوعها له[4]، وهكذا خسر زنكي فرصة ثمينة لا تعوض، كانت ستتيح له – بلا شك – السيطرة على أهم إمارات الصليبيين في الشمال.

رابعاً: فتح الأثارب:

كان عماد الدين آنذاك قد أنهى معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر [5]، كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية، مستهدفاً أشدها قرباً وخطراً على كيانه السياسي في حلب، ولم يكن غير حصن الأثارب المجاور هو

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٠
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٠.
(٣) (٤) عماد الدين زنكي ص ١٤٠.
(٥) الباهر ص ٣٩، عماد الدين زنكي ص ١٤٠.

ذلك الهدف، بسبب ما كان يلحقه من أضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين، وكان من فيه من الصليبيين يقاسمون سكان حلب كل أعمالها الغربية، ويقومون بغارات مستمرة عليهم، وقد جمعوا فيه خيرة فرسانهم، نظراً لخطورة موقعه وأهميته بالنسبة لأهدافهم في المنطقة (١)، اتجه عماد الدين زنكي إلى هذا الحصن وفرض الحصار عليه، فلما علم صليبيو الشام بذلك حشدوا قواتهم من كل مكان، وشكلوا جيشاً ضخماً اتجهوا به لقتال زنكي، فاستشار هذا أصحابه وقادته فيما يعمل، فأجمعوا أمرهم على الانسحاب، وترك الحصن، لأن لقاء الصليبيين في بلادهم مجازفة وخيمة العاقبة، إلا أنه أجابهم إن الفرنج متى رأونا قد عدنا من بين أيديهم، طمعوا وساروا في أثرنا، وخربوا بلادنا ولا بد من لقائهم على كل حال (٢). ومن ثم سار بجيشه للقائهم بعيداً عن الأثارب، وجرت بين الطرفين معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين وقتل وأسر عدد كبير من الصليبيين. ثم ما لبث زنكي أن اتجه إلى الحصن وفتحه عنوة، وقتل وأسر معظم أفراد حاميته، ثم أمر بتخريبه(٣)، كيلا يكون عرضة لتهديد مستمر من قبل الصليبيين وتقدم من هناك إلى حارم الواقعة على طريق أنطاكية، وضرب عليها الحصار، فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم والتمسوا مهادنته، فأجابهم إلى ذلك، وقفل عائداً إلى حلب (٤). وقد أشار ابن الأثير إلى نتيجة من أهم نتائج معركة الأثارب، وهي أن الأحداث في الشام أخذت تتجه اتجاهاً جديداً لصالح المسلمين، الأمر الذي جعل الصليبيين يدركون أن عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم، ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع (٥).

خامساً: حصن بعرين أو بارين:

انهمك عماد الدين زنكي طيلة السنوات بين (٥٢٥ -٥٢٨هـ/ ١١٣١ - ١١٣٤م) بتنظيم شؤون إمارته وتوسيعها، ولم يستطع أن يوجه اهتمامه إلى الصليبيين على الرغم من المنازعات التي نشبت بينهم إثر وفاة الملك بلدوين الثاني (٦)، وفي عام ٥٢٩هـ أتيحت له الفرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب والتي كانت تهددها باستمرار، فضلاً عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها: الأثارب، زردنا،

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٤٠.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٤١.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٤١.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٤١.
(٥) المصدر نفسه ص ١٤١ نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٣.

تل اغدي، معرة النعمان، وكفر طاب [1]، أدت هذه الانتصارات التي حققها زنكي ضد الصليبيين إلى تنبيههم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في الشام، وإلى ضرورة توجيه ضربة حاسمة إليه، وراحوا يتحينون الفرصة المواتية لإنزال هذه الضربة وبعد عامين وحينما كان منهمكاً في حصاره لحمص، قاموا بحشد جيش كبير تقدموا به مسرعين لمباغتة زنكي والقضاء عليه، وكسب حكام دمشق إلى جانبهم، وعندما سمع بذلك سار للقائهم بعيد عن حمص كيلا يوقع نفسه في شقي الرحى بينهم وبين الحمصيين، ورأى أن خير وسيلة يستدرج بها الصليبيين إليه، وتتيح له، في نفس الوقت تولي زمام المبادرة بنفسه، هو أن يظهر عزمه على مهاجمة حصن بعرين الصليبي القريب، وما أن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة كل من فولك ملك بيت المقدس وريموند كونت طرابلس ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقتل وأسر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته، كان زيموند من بينهم، أما فولك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين [2]. ومالبث عماد الدين زنكي أن تقدم نحو الحصن وفرض عليه حصاراً شديداً، بينما اتجه عدد من المنهزمين من المعركة إلى بلاد البيزنطيين وأوروبا طالبين النجدة من أبناء العالم المسيحي وأمرائه قائلين لهم: إن زنكي إذا ما تمكن من الاستيلاء على بعرين، سهلت عليه السيطرة على بقية الممتلكات الصليبية في الشام، لعدم وجود من يدافع عنها، وأن المسلمين لهم نية في قصد بيت المقدس. فجمع المسيحيون جيشاً كبيراً من الصليبيين والبيزنطيين، وساروا لنجدة الحصن، إلا أن زنكي كان قد عزله عن العالم الخارجي ومنع عنه تسلل الأخبار، كما أن تشديده الحصار على هذا الموقع الهام أدى إلى تناقص الميرة والذخيرة فيه، الأمر الذي اضطر أصحابه إلى طلب الصلح، فأجابهم زنكي إليه، بعد أن علم بتقدم الأعداء لنجدته، واشترط عليهم، فضلاً عن تسليم الحصن، تقديم مبلغ قدره خمسون ألف دينار يستعين بها على نشاطه العسكري، فلم يتردد أصحاب الحصن في قبول مطالب زنكي، بعد أن أيقنوا بعجزهم عن مقاومته، والتمسوا منه إطلاق سراح أمرائهم وكبار أسراهم، فأطلقهم، بعد أن عاملهم معاملة حسنة، وتسلم الحصن [3].

والواقع أن ما اشتهر به عماد الدين زنكي من الجلد والصبر ساعده في تحقيق أهدافه، وهو على يقين بما يفعله، فلم تكن بارين (بعرين) قلعة غير ذات أهمية، إذ أن تملكها سوف

(١) زبدة حلب (٢/ ٢٥٩)، عماد الدين زنكي ص ١٤٢.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ – ٢٥٩، عماد الدين زنكي ص ١٤٢.
(٣) عماد الدين زنكي ص ١٤٣.

يمنع الصليبيين من أن ينفذوا إلى أعالي وادي نهر العاصي، كما أن موقعها الاستراتيجي يجعلها تسيطر على حماة وحمص، ويُعد فتحها بالغ الأهمية في مشاريعه المستقبلية [(١)].

١- الشاعر ابن القيسراني يخلد انتصار عماد الدين في بارين: قال عنه الذهبي في سيره: سيد الشعراء، أبو عبدالله، محمد بن نصر بن صغير بن خالد القيسراني ولد بعكّا ونشأ بقيسارية، وسكن دمشق وامتدح الملوك.. وقرأ الأدب، وأتقن علم الهيئة والهندسة. قال عنه السمعاني: هو أشعر من رأيته بالشام، ولد سنة ثمان وسبعين وأربع مئة، وتوفي سنة ثمان وأربعين، وخمس مئة[(٢)]. ويعتبر القيسراني من أشهر شعراء العهد الزنكي وقد خلد انتصارات عماد الدين في بلاد الشام، وشهد بأم عينيه البطولة الإسلامية وهي تحقق الانتصارات الرائعة على الصليبيين وقد قال هذا الشاعر قصيدة مدح فيها عماد الدين زنكي وخلد انتصاره على الفرنجة في معركة بارين أمنع حصونهم، سنة ٥٣٤هـ [(٣)].

حـذار منـا وأنّـى ينفـع الحَـذَرُ ... وهـي الصـوارم لا تبقـي ولا تـذَرُ
وأيـن ينجـو ملـوك الشّـرك مـن مَلِكٍ ... مَـن خيلُـهُ النصـر لا بـل جُنْـدُهُ القَـدَرُ
سـلُّوا سـيوفاً كأغمـاد السُّـيوفِ بهـا ... صـالوا فمـا غَمَـدُوا نَصْـلاً ولا شـهروا
حتـى إذا مـا عمـاد الـدين أرهَقَهُـم ... في مـأزق مِـنْ سَـنَاه يَبْـرُقُ البَصَـر
وَلّـوْا تضـيقُ بهـم ذَرْعـاً مسـالكهم ... والمـوتُ لا ملجـأٌ منـه ولا وَزَرُ
وفي المسـافة مـن دون النَّجـاة بهـم ... طُـولٌ وإن كـان في أقطارهـا قِصَـرُ
وأصـبح الـدِّين لا عينـاً ولا أثـراً ... يخـاف والكُفْـرُ لا عـين ولا أثـرُ
فـلا تخـف بعـدها الإفـرنج قاطبـة ... فـالقوم إن نفـروا ألْـوى بهـم نَفَـرُ
إن قـاتلوا قُتلـوا أو حـاربوا حُرِبـوا ... أو طاردوا طُردوا أو حاصروا حُصِروا
وطالمـا اسـتفحل الخطـب البهـيمُ بهـم ... حتـى أتـى مَلِـكٌ آراؤه غُـرَرُ
والسـيف مُفْـترِعٌ أبكـارَ أنفسـهم ... ومـن هنالـك قيـل الصـارم الـذَكرُ
لا فارَقَـتْ ظِـلٌ محيـي العَـدْل لامعـة ... كالصُّبح تطوي مِن الأعـداء مـا نَشَـروُا
ولا انثنـى النَّصـر عـن أنصـار دَوْلتـه ... بحيـث كـان وإن كـانوا بـه نُصِـروُا

---

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٧.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٢٦).
(٣) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص ٢٥.

حتى تعود ثغورُ الشام ضاحكة كأنما حَلَّ في أكنافها عمر [1]

ويعتبر عماد الدين زنكي أول من مدحه ابن القيسراني من الزنكيين، وكان جمال الدين الأصفهاني وزير عماد الدين السبيل الذي أوصله إليه، فنظم في جمال الدين القصائد ومدحه بمدائح كانت - كما يقول العماد - أجود ما سمع من منظومة في الأفاضل[2]، ومما قاله في مدح جمال الدين الأصفهاني:

وإذا الوفود إلى الملوك تبادرت فعلى جمال الدين وفدُ محامدي
يا حبذا همم إليك أصارني وعزيمة تقفو رياضة قائد
أنا روضةٌ تزهى بكل غريبة أفرائدي من لم يُفْر بفرائدي
إن ساقني طلب الغنى أو شاقني حبُّ العُلا فلقد وَرَدَتُ مواردي
ومتى عَدَدْت إلى نداك وسائلي أعْدَدْتُ قصدي من أجلّ مقاصدي
حتى أعود مِن امتداحك حالياً وكأنني قُلِّدتُ بعض قلائدي [3]

ومما قال فيه أيضاً:

ومروَّع سَكَنَتْ خوافقُ أمنه لولا جمال الدين عزَّ أمانه
أمحمد بن عليٍّ اعتنق الأسى فكبري فضاق بفارس مَيدانُهُ
ما بالُ حادي المجد مغبِّر المدى وأخو الهُوَينى روضةٌ أعطانُهُ
وأنا الذي لا عيب فيه لقائل ما لم يُقلْ هذا الزمان زمانه
فهل المحامد ضامناتٌ عنكَ لي معنًى على هذا البيان بيانُه؟
وهي القوافي ما تناظر بالندى إلا وقام بفضلها برهانُهُ
ما كان بيتُ فضيلةٍ في فارس إلا ومن عربيتي سلمانُهُ [4]

وقد أورد الذين ترجموا لابن القيسراني طائفة مختارة من شعره ولاسيما العماد الكاتب في خريدته، وياقوت في إرشاده. وقد درس مجموعة من الناقدين شعره ومن أشهرهم من المعاصرين الدكتور عمر موسى باشا وقد أشار إلى أن شعره تميز باتجاهات عامة ثلاثة، تصور

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٣٢).
(٢) الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص ١٧٧.
(٣) الخريدة (١/ ١٠٤ ، ١٠٦)، الأدب في بلاد الشام ص ١٧٧.
(٤) الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص ١٧٨.

الأحداث الكبرى في بلاد الشام والاتجاه التقليدي في المدح، والتجديد في معاني الغزل والنسيب. ونحن ندعو شعراء اليوم للقيام بواجبهم في بث روح الجد والعمل والجهاد في الأمة من خلال ملكة الشعر التي وهبها الله لهم.

أ- أحداث كبرى: صور الشاعر الأحداث الكبرى في عصره خير تصوير، ووصف من خلال المدح الأبطال المسلمين وحروبهم ورسمها بدقة، فكانت لنا صورة حقيقية عن الملاحم المشتجرة بين المسلمين والفرنجة، ونستطيع القول إن المدح التقليدي المعروف خرج عن طوقه الآسر، وتطرق إلى وصف هذه الأحداث خلال فترة مديدة من الزمن ولم يبق الشاعر كما كان كثير من سابقيه أسير المعاني التقليدية المعروفة: جود، وبأس، وحلم، وجد نفسه أمام صراع مرير تسترخص فيه المهج وتبذل له الأرواح في سبيل العقيدة، وصون الأوطان، وحماية الأعراض، وطرد المغتصب، فقد أدى الشاعر مهمته خير أداء، فصور هذه الأحداث الجسام ونظمها في شعره، وخلدها على توالي الأيام وتعاقب الدهور، شأنه في ذلك كأي مؤرخ [1]، وقد تفاعل مع الأحداث، ومما قاله في عماد الدين زنكي وجهاده:

فقل لملوك الكفر تُسلِم بعدها	**ممالكها إن البلاد بلاده**
كذا عن طريق الصبح فليتنه الدجا	**فيا طالما غال الظلام امتداده**
ولله عزمٌ ماءَ سيحان وردهُ	**وروضة قسطنطينة مستراده** [2]

ب- التجديد في معاني الغزل والنسيب: درج الشعراء في معظم الأحيان على استهلال قصائدهم بالنسيب، وعلى هذه السنة جرى ابن القيسراني في مطالع بعض القصائد وله في هذه المجال كلام يطول[3]. وقد وصف العماد الكاتب في وصف إحدى قصائده أنها: قطعت مجنسة في لطافة الهواء، مالكة رق الأهواء، خلصت من كلفة التكلف، وصفا مشربها عن قذى التعسف، فالأشعار المتكلفة المصنوعة قلما ينفق فيها الأبيات المطبوعة، إلا أن يخص الله من يشاء بالخاطر العاطر، والفكر الحاضر، والقريحة الصافية، والآداب الوافرة الوافية، وربما يندر للناظر مقطعات يرزق فيها القبول، كهذه القطعة التي تسلب العقول [4].

(١) الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ص ١٨٧.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٧، ٣٨).
(٣) الأدب في بلاد الشام ص ١٨٩.
(٤) الخريدة (١/ ٩٨) نقلاً عن الأدب في بلاد الشام ص ٢٠٤.

وبما قاله في هذا الباب:

سقى الله بالزوراء [1] من جانب ... مهاً وردت عين الحياة من القلب
عفائف إلا عن معاقرة الهوى ... ضعائفُ إلا في مغالبة الصبّ
عقائلُ تحشاها عُقيلُ بن عامر ... كواعب لا تعطى الدّمام على كعب
إذا جاذبَهُنَّ البوادي مزيّة ... من الحسن شبهن البراقع بالنقب
تظلمتُ من أجفانهنَّ إلى النّوى ... سفاها وهل يعدي البعادُ على القرب
ولما دنا التوديع قلت لصاحبي ... حنانيك سربي عن ملاحظة السّرب
إذا كانت الأحداق نوعاً من الظُّبا ... فلا شك أن اللحظ ضرب من الضرب
هبوني تعشقت الفراق ضلالة ... فأصبحت في شعب وقلبي في شِعْب
فمالي إذا ناديت ياصبرُ منجداً ... خذلت، ولبى إن دعا حرقةً لبّي
تقضّى زماني بين بين وهجرة ... فختام لا يصحو فؤاديَ مِنْ حب
وأعجب ما في خمر عينيه أنها ... تضاعف سكري كلما قلّلت شربي
إذا لم يكن في الحب عندي زيادة ... تُرجّى فما فضلُ الزيارة عن رغب
فصرت إذا ما هزّني الشوق نحوهم ... أحلت عذولي في الغرام على صحبي [2]

٢- ابن منير الطرابلسي يمدح عماد الدين في بارين: شاعر الشام أبو الحسين، أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي، صاحب ديوان مشهور وله نظم بديع، وكان يلقب بمُهَذّب الدين-ويقال له: عين الزمان[3]. قال ابن عساكر: رأيته مرات، وكان رافضيًا، خبيث الهجو والفُحش، سجنه بُوري – حاكم دمشق – مدة وهمَّ بقطع لسانه، ثم تَسَحَّبَ، فلما ولي شمس الملوك عاد إلى دمشق، فبلغ شمس الملوك عنه أمرٌ، وأراد صلبه، فاختفى، وهرب، ثم قدم في صحبة نور الدين، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمس مائة بحلب، وكان هو والقيسراني كفرسي رهان، ولكن القيسراني سُني دَيّن [4].

ولقد صور ابن منير في مدائحه الزنكية كفاح المسلمين البطولي ضد الغازين الصليبيين

(١) الزوراء : أي مدينة الزوراء ، وسميت دجلة بغداد الزوراء. (٢) الأدب في بلاد الشام ص ١٨٩.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢٢٣). (٤) المصدر نفسه (١٠/ ٢٢٤).

ومما قاله في موقعة بارين:

فـــــدتك الملـــــوك وأيّامهـــــا ... ودان لنقضـــــك إبرامهـــــا
وزلـــــتْ لِعَيْنِـــــك أقـــــدامُها ... وزال لبطشـــــك إقـــــدامُها
ولـــو لم تُسـلم إليـــك القلـــوب ... هواهـــا لمـــا صـــح إســـلامها
أيـــا محيـــي العـــدل لَمَّـــا نعـــاه ... أيـــامَى البرايـــا وأيتامهـــا
ومســـتنقِذ الـــدّين مـــن أمَّـــةٍ ... أزال المحاريـــب أصـــنامها
دَلَفْـــتَ لهـــا تقتفيـــك الأســـود ... والبـــيض والسُّـــمر آجامهـــا
جَـــزَرْتَ جزيرتهـــا بالســـيوف ... حتـــى تشـــاءمها شـــامها
وصـــارت عـــواريَّ أكنافـــه ... متـــى شـــئت أرخـــص مُسْـــتامُها [1]

تصور هذه الأبيات حب الشاعر لعماد الدين وإعجابه به وشماتته بأعدائه الصليبيين، فيفتحها بالدعاء بأن يجعل الله ملوك الصليبيين فداء لعماد الدين وبأن يديم قدرته على نقض ما يبرمون، ويرجو أن تزل أقدامهم أمام ثبات أقدامه وأن يزول إقدامهم أمام بطشه، ويرى أن قلوب المسلمين لا يصح إسلامها إذا لم تسلم إليه زمامها، وهو الذي أحيا العدل بعد أن بكت على فقده الأرامل والأيتام وأنقذ الدين من الصليبيين الذين أزالوا المحاريب وأقاموا مقامها الأصنام ثم يمدحه لفتحه الجزيرة بسيوفه حتى تشاءم أهل الشام وتوقعوا أن يحل بهم ما حلّ بإخوانهم أهل الجزيرة [2].

سادساً: الامبراطور البيزنطي يغزو بلاد الشام:

١- **ظروف قيام الحملة:** ذكر ابن الأثير أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصار الملك فولك في بارين أرسلوا طالبين النجدة من الامبراطور البيزنطي والغرب الأوروبي، فدخلت القسس والرهبان بلاد الروم والفرنج وماوالاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيه من الفرنج، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها، وأن المسلمين ليس لهم إلا قصد البيت المقدس، فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم [3]، والواقع أنه إذا كانت الأميرة الأنطاكية أليس لم تنجح في الاتصال بعماد الدين زنكي لمساندتها في صراعها مع والدها والنبلاء الآخرين، فنجدها تلجأ إلى طريقة أخرى هي الاتصال بالامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٣٢). (٢) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص١٣٨. (٤) معالم التاريخ الإسلامي الوسيط ص ٢٠٥.

تعرض عليه زواج ابنتها الأميرة كونستاس من ابنه[1]، وقد صادف هذا العرض قبولاً حسناً من قبل الامبراطور، لأن ذلك يعني دخول أنطاكية في تبعية بيزنطية، وهي ما تسعى إليه جاهدة منذ الحملة الصليبية الأولى، وهو الأمر الذي لا يقره بقية الزعماء الصليبيين لذلك سارعوا بتزويج كونستاس من ريموند دي بواتييه وقد غضب يوحنا من هذا الزواج الذي تم دون استشارته لأن أنطاكية تابعة له من الناحية الاسمية، وبذلك أضحى الصدام وشيكاً بين يوحنا وريموند [2]. والحقيقة أن العداء قد اشتد بين البيزنطين والصليبيين منذ وصول هؤلاء إلى أطراف بلاد الشام والعراق، ورفضهم التقيد بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطي بتسليمه جميع المدن والبلدات التي كانت فيما مضى من ممتلكات الامبراطورية البيزنطية قبل أن يفتحها المسلمون، وقد تركز جزء كبير من العداء بين الطرفين في العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية، لأن هذه الإمارة بالإضافة إلى إمارة الرها كانت تشكل أهمية دينية وعسكرية وتجارية في السياسية البيزنطية، وعدت بيزنطة هذه البلدات جزءاً من ممتلكاتها، والواضح أن هذه البلاد كانت تتيح للأرمن الذين سكنوها منذ أكثر من مائة عام، التوغل داخل الأراضي البيزنطية وتهديدها، ثم إن إقامة الصليبيين في بلاد الشام كان يعني توطيد النفوذ اللاتيني المضر بالمصالح البيزنطية، مما يعرض للخطر تجنيد المرتزقة الصليبيين ضمن إطار النظام العسكري البيزنطي. بالإضافة إلى ذلك، فإن مدنها الرئيسية كانت تشكل رؤوساً للجسور التجارية البالغة الحيوية في التجارة البيزنطية، فضلاً عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في بلاد الشام تطرفاً إلى جهة الشمال، مما جعل حدودها تجاور الحدود البيزنطية في كيليكية [3]، ويذكر أن الامبراطور يوحنا كومنين حدَّد السياسة البيزنطية في الشرق الأدنى عند اعتلائه العرش على الشكل التالي:

* إعادة الحدود الآسيوية للامبراطور إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي.
* طرد سلاجقة الروم من الأناضول.
* طرد الأرمن من كيليكية.
* إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الامبراطورية.
* استعادة عدد من المواقع الإسلامية في شمالي الشام [4].

وحتى يؤمن مؤخرة جيشه أثناء زحفه نحو بلاد الشام، عقد يوحنا اتفاقيات أمنية مع سلاجقة الروم في الأناضول في عام ٥٣١هـ أما الدانشمهديون في سيواس، فقد انهمكوا في

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل-ص ١٣٨.   (٢) (٣) المصدر نفسه ص-١٣٩.

منازعات أسرية، فلم يشكلوا أي خطر جدّي على الامبراطورية، فأضحى بوسعه بعد ذلك، التدخل في أمور بلاد الشام وهو مطمئن [1].

٢- السيطرة على كيلكية وانطاكية: تقدم الامبراطور البيزنطي من السيطرة على القلاع الأرمينية في كيلكية وتابع زحفه نحو الجنوب، فاجتاز إسكندرونة، وعبر الدروب الشامية إلى أنطاكية التي كانت الهدف الثاني لحملته بعد كيليكية، فظهر أمام أسوارها، وضرب الحصار عليها، فاضطر صاحبها، ريمond بواتيه، أمام ضخامة وقوة الجيش البيزنطي من جهة، وعدم حصوله على مساعدات الصليبيين في الرها وبيت المقدس من جهة أخرى، إلى الخضوع لإرادة الامبراطور بعد حصوله على موافقة الملك فولك وتسلم الامبراطور البيزنطي المدينة، إلا أنه لم يُصر على الدخول إليها، غير أن العلم الامبراطوري ارتفع بأعلى القلعة [2].

٣- زحف الحملة على حلب: وجرت مباحثات بين الصليبيين والبيزنطيين أدّت إلى ما يلي:

* قيام تحالف بينهم.

* توحيد الجهود العسكرية وتوجيهها للقيام بحملة نصرانية كبرى ضد مسلمي بلاد الشام بهدف تحطيم قوة عماد الدين في حلب.

* القضاء على إمارة بني منقذ في شيزر.

* إقامة إمارة صليبية تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشيزر وحماة وحمص.

* تعيين ريمond بواتيه أميراً على تلك الإمارة.

* ترك ريمond إقليم أنطاكية للامبراطور البيزنطي.

* إنجاز هذا العمل التوسعي في الصيف القادم ١١٣٨م [3].

دلت المفاوضات على ما يشعر به الصليبيون من الضيق والقلق نحو الامبراطور البيزنطي، إذ أن موافقة الملك فولك أملتها، فيما يبدو، واقعية الظروف السياسية السيئة التي

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٣٩.
(٢) الحروب الصليبية، رنسيمان (٢/ ٣٤١).
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٤١.

كان يمر بها الصليبيون حيث كـان يُـدرك جيـداً أن عمـاد الـدين زنكـي هـو العـدو الأكـبر للصليبيين، ولذا لم يشأ أن يقاوم القوة البيزنطية وينهكهـا وهـي الوحيـدة القـادرة علـى وقف تقدمه، ومن جهته، فإن يوحنا كومنين كان واقعياً في تفكيره السياسي، فـأدرك أن مصلحة النصارى العامة تقضي بعـدم طـرد الصـليبيين مـن أنطاكيـة دون أن يُبـذل لهـم تعويض، يضاف إلى ذلك، أنه أراد أن يقيم على امتداد الحدود إمارات تابعـة يـتحكم في سياساتها العامة، وتتحمـل في الوقـت نفسـه صـدمات، كمـا تجلّـت أطماعـه في أمـلاك المسلمين بالشام، ويبدو أن أخبار هذا الاتفاق قد تسربت إلى أهالي حلـب الـذين قـاموا بأعمال التحصين وحفر الخنادق، كما أن الأمير سوار قام بمهاجة الجيش البيزنطـي أثنـاء عودته من أنطاكية إلى أرمينية لقضاء فصل الشتاء وظفر بسرية وافرة العدد من عسـكره، فقتل وأسر، ودخل بهم إلى حلب[1]، ورغم ما كان يضمره يوحنا من سوء النية وما كان يبيته من هجوم على حلب في العام التالي، إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الـدين زنكـي، فأرسل إليه رسولاً أخبره بأنه ذاهب لقتال الأرمن وأن البيـزنطيين ليسـوا راغـبين في أن يبادروا إلى مهاجمته وهو ينوي خداعه حتى يطمئن إليه[2]، ثم ما لبث أن أصـدر أوامـره بإلقاء القبض على جميع المسافرين القادمين من حلب والقرى المجـاورة صـوب الغـرب، كيلا تصل أنباء تحركـات قـوات المتحـالفين إلى زنكـي[3]، ومـن ثـم تقـدم الامبراطـور، يصحبه أميرا الرها وأنطاكية، وبدأوا بمهاجمة حصن بزاعة القريب من حلب وتمكنوا مـن الاستيلاء عليه [4]، وقد استطاع بعض أهاليه أن يفروا إلى حلب، حيث أنذروا المسؤولين فيها عن قرب الخطر، فقـام هـؤلاء بتعزيـز التحصينات الدفاعيـة، وأرسـلوا إلى زنكـي يطلبون نجدة مستعجلة، فأمدهم بقوة من الفرسان، كان لدخولها حلب تأثير كـبير علـى رفع معنويات أبنائها وما أن وصل المتحالفون إلى حلب وفرضوا الحصـار عليهـا، حتـى أدركوا مدى مناعتها وقدرتها الكبيرة على المقاومة، هذا إلى أن الحلبيين أخـذوا يقومـون بهجمات سريعة على معسكرات الأعداء أدخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسـهم، فآثروا الانسحاب، ولما علم جند الأثارب بـذلك، خـافوا مـن توجـه المتحـالفين إلـيهم، فأحرقوا خزائن القلعة وانسحبوا، وقام الامبراطور – أثر ذلك – بإرسال بعض قواته إلى هذا الموقع، فتمكنت من الاستيلاء عليه. أما هو فقد تقدم على رأس القسم الأكـبر مـن جنده إلى معرة النعمان واستولى عليها، وتوجه من هناك إلى شيزر، وفرض الحصار عليها

(١) ، (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٤١.
(٣) زبدة حلب (٢/ ٢٦٤)، عماد الدين زنكي ص ١٤٤. (٤) عماد الدين زنكي ص ١٤٤.

ساعياً بذلك إلى وضع يده على موقع مهم يمنح الغزاة السيطرة على وادي نهر العاصي، ويقف سداً أمام مطامح وأهداف زنكي البعيدة في المنطقة [1].

٤- مناصرة عماد الدين زنكي لبني منقذ في شيزر: أبدى أهالي حلب مقاومة عنيفة للقوات الغازية فضلاً عن وصول نجدة عماد الدين زنكي مما أقنع الامبراطور بعدم جدوى الاستمرار لحصار المدينة، فغادرها واتجه إلى حصن الأثارب وملكوه، ثم احتلوا بعد ذلك معرة النعماة وكفر طالب واتجهوا إلى شيزر [2] كما ذكرنا. وكان حجم القوات الغازية: مائة ألف راكب ومائة ألف راجل، ومعهم من الكراع والسلاح مالا يحصيه إلا الله. وأمام هذا الخطر الكبير ما كان من حاكم شيزر أبو العساكر إلا أن يعزز من استحكامات المدينة ويطلب النجدة من عماد الدين زنكي، الذي أسرع بالقدوم إلى المنطقة ونزل حماة واتخذها قاعدة لقواته [3]. وشرع الامبراطور في بادئ الأمر بمهاجمة حصن الجسر، وتمكن من زحزحة المدافعين الذين انسحبوا عنه إلى داخل حصن شيزر، واتخذ الامبراطور من ذلك الحصن الواقع على الجهة اليمنى من نهر العاصي مقراً له، ثم اندفع فرسانه إلى الجزء الذي عليه «البلد» وأظهر بنو منقذ مقاومة عنيفة في المعركة التي جرت بين الطرفين وجرح فيها أحد أمرائهم، وهو أبو المرهف نصر بن منقذ الذي توفي فيما بعد متأثراً بجروحه، وتمكن عدد من المهاجمين من النفاذ إلى داخل القلعة من خلال إحدى الثغرات التي أحدثتها قذائف المنجنيقات إلاّ أن رجال بني منقذ تصدوا لهم وأجبروهم على الانسحاب من المدينة[4]، ولكن البيزنطيين ظلوا يحتفظون ببعض المواقع المتقدمة في ضواحي المدينة، واستمرت غاراتهم مدة عشرة أيام، ثم اقتصر القتال فيما بعد على ضرب المدينة بالمنجنيقات [5].

أ- توزيع القوات المهاجمة: توزعت القوات المهاجمة في أثناء فترة القتال على النحو التالي: قوات ريموند حاكم أنطاكية الذي كان يتمركز في مسجد سمّون الذي يقع بالقرب من باب المدينة، وقوات حاكم الرها جوسلين الثاني الذي اتخذ مواقعه في الساحة العامة المخصصة للصلاة، أما الامبراطور يوحنا فبعد ما عجز عن تحقيق النصر في غارته على المدينة

(١) الباهر ص ٥٥، عماد الدين زنكي ص ١٤٥.
(٢) أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري ص ١٥٦.
(٣) الباهر ص ٥٥، أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص ١٥٨.
(٤) الاعتبار ص ١٤٦.
(٥) زبدة حلب (٢/ ٢٦٧)، أسرة بني منقذ ص ١٥٨.

اختار مرتفعاً مقابلاً لشيزر يعرف باسم جبل جرجيس ونصب عليه ثمانية عشر منجنيقاً وأربع لعب كانت تضرب المدينة بشكل مباشر، وتمنع المدافعين عنها من الوصول إلى النهر والتزود من مائه [1]، وعلى الرغم من ذلك فقد ذكر أسامة بن منقذ أن جماعة من الراجلة من أهالي شيزر خرجوا لقتال المهاجمين ولكنهم قتلوا وأسر البعض منهم [2]، وقد أثارت المنجنيقات التي جلبها البيزنطيون معهم الاستغراب والذعر لدى أهالي شيزر، نظراً لضخامتها ولما ألحقته من خراب ودمار بالمدينة حتى وصفها أسامة بأنها: مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل وتبلغ حجرها ما تبلغه النشّابة، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً [3]، ويذكر أن إحدى القذائف أصابت منزلاً لصديق له يدعى يوسف بن أبي الغريب فانقلب رأساً على عقب وإن أخرى وقعت على القاعدة الحديدية التي أثبتت عليها السارية المرفوعة في دار عمه الأمير فكسرتها على أحد المارة فقتلته [4].

ب - **موقف عماد الدين زنكي من هذه المجابهة:** وأما عن دور زنكي في هذه المجابهة فإنه لدى سماعه استغاثة أبي العساكر هرع بقواته إلى المنطقة واختار موضعاً بين حماة وشيزر على ضفاف نهر العاصي، ولم يشأ أن يغامر بشن هجوم عام على البيزنطيين وحلفائهم نظراً لتفوقهم عليه عدة وعدداً، وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم [5]، ويضيف ابن القلانسي: أن عماد الدين زنكي كان يحوم بخيله على أطرافهم ويفتك بمن يظفر به، فضلاً عن قيامه بمساعدة بني منقذ بالرجال والسلاح، كما أنه استطاع منع وصول المؤن إلى القوات المهاجمة[6]، فأثر هذا في زيادة حراجة الموقف بالنسبة لهم. ويؤيد هذا الرهاوي في تاريخه بقوله: وشرعت القوات تشعر بالنقص في المؤونة، لأن شعباً فقيراً كان معهم، وكان عماد الدين زنكي بمهارته يمنع باحتراس وصول شيء إليهم [7].

* **أساليب الحرب النفسية:** ولجأ عماد الدين زنكي إلى اعتماد أساليب الحرب النفسية تجاه أعدائه، فقد أرسل إلى الامبراطور البيزنطي يقول له: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فأنزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرتم بي

(1) أسرة بني منقذ ص ١٥٩. (2) المصدر نفسه ص ١٥٩.
(3) الرطل: كان يعادل آنذاك الكيلو ونصفاً - الاعتبار ص ١٤٥.
(4) الاعتبار ص ١٤٥ - ١٤٦، أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص ١٦٠.
(5) الكامل في التاريخ (٨/ ٧٣٩٦).
(6) الباهر ص ٥٥، أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص ١٦٠.
(7) أسرة بني منقذ ودورها السياسي ص ١٦٠.

استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها، ولم يكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه[1]. وعندما أشار الفرنجة على الامبراطور بالاستجابة لمنازلة عماد الدين قال لهم: أتظنون أن معه من العساكر من ترون وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه، إنما يريد أن تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له [2].

* **طلب النجدة من مختلف المناطق:** ومن الجدير بالذكر أن عماد الدين زنكي قد أرسل في طلب النجدة من مختلف المناطق، فأرسل إلى القاضي كمال الدين أبي الفضل محمد ابن عبدالله بن القاسم الشهرزوري ليرسل إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه يستنجده ويطلب منه العساكر فقال القاضي لعماد الدين حين أرسله: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة علينا وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها. فقال عماد الدين: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها [3]. وهذا الموقف درس عملي من عماد الدين للقادة السياسيين والعسكريين في الولاء والبراء، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [المائدة: ٥١]. وقال رسول الله ﷺ: **«أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»** [4]، وكم ضاع من بلاد المسلمين قديماً وحديثاً بسبب ضياع هذا المبدأ العقائدي المهم في حياة الأمة. قال القاضي كمال الدين: فسرت طالب بغداد وجددت في السير، فلما وصلت بغداد وحضرت قدام السلطان وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد شيئاً، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلاناً وهو فقيه كان ينوب عني في القضاء – فقلت له: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد: وإسلاماه؛ وادين محمداه، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين، ثم وضعت إنساناً آخر فعل ذلك في جامع السلطان؛ فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى، وبطلت الخطبة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان؛ وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون،

---

(١) الكامل في التاريخ (٨/ ٧٥٠).
(٢) المصدر نفسه (٨/ ٧٤٠).
(٣) مفرج الكروب (١/ ٧٩).
(٤) صحيح الجامع الصغير (٢/ ٣٤٣).ح ٢٥٣٦.

وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقيل: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة فقال: أحضروا القاضي ابن الشهرزوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق. فلما دخلت قال: يا قاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر ولاشك أن السطان لم يعلم كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، وإن أخذوا حلب انحدروا إليكم في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمر عليه حتى كأنه ينظر إليه؛ فقال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم، وعرفتهم الحال وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا، وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس من خيار العسكر، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير، وأجدد استئذانه في ذلك فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، وعبرت بالعساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة، إذ قد وصل نجّاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر؛ فلما خاطبت السلطان في ذلك أصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها، وكان قصده أن يطأ عيياكره البلاد ويملكها، ولم أزل أتشاور مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد[1].

ويتضح لنا مما تقدم مدى بعد نظر القاضي كمال الدين الشهرزوري وحكمته وفطنته لما يدور حوله، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود، وبحسن تصرفه في الموقفين في توفير الجيش عند الاحتياج له وصرفه عند انتفاء الحاجة إليه، وهذا أنقذ عماد الدين زنكي من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذ وصلت عساكر السلطان إلى الشام في ذلك الوقت بعد رحيل البيزنطيين والصليبيين عن حُلب، ويكفي هنا لتوضيح أهمية وجود القاضي كمال الدين في دولة عماد الدين زنكي أن نذكر تعقيب ابن الأثير على ما قام به هذا الفقيه مع السلطان مسعود، إذ يقول: فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس، رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، ويرغبهم ويخطبهم في البلاد ويوفر لهم العطاء[2]. إن عماد الدين زنكي، ثبت الله ملكه بالعلماء، فقد جاء إلى حكم الموصل بسبب آرائهم، وأنقذه الله من انقلاب محقق على أيديهم، وأبعد الله عنه أطماع السلطان مسعود بسبب حنكة العلماء وذكائهم من أمثال القاضي كمال الدين الشهرزوري. ولهذا كانت لكمال الدين مكانة خاصة عند عماد الدين

(١) مفرج الكروب (١/ ٨١،٨٠).

(٢) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في المشرق الأدنى ص ١١٢.

زنكي، فقد قال عن جهوده وأعماله: إن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار[1]. هذا وقد أرسل عماد الدين إلى سلاجقة الروم يشير عليهم بالإغارة على المواضع البيزنطية في آسيا الصغرى حتى ينصرف البيزنطيون عن القتال هناك [2]، وصدق حدس الامبراطور عندما وردته أخبار مفادها قدوم أرسلان بن داود ومعه عساكر بلغ تعدادها عشرين ألف فارس لنجدة شيزر [3].

* **سهام الحيلة والدهاء يطلقها عماد الدين زنكي:** أدرك زنكي كنه العلاقة بين الامبراطور والفرنجة فلجأ إلى اعتماد أسلوب الحيلة والخداع لتعميق الخلاف بينهما فراح يراسل فرنج الشام ويحذرهم من ملك الروم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه بأن الفرنج معه. فسادت الشكوك بين الطرفين المسيحيين [4] سيما أن أميري الرها وأنطاكية لم يسعيا إلى التعاون الجاد مع الامبراطور، فضلاً عن اشتداد المنافسة بينهما، وتخوف ريموند من انتصار الروم، وبالتالي تنفيذ الاتفاقية التي وقعها معهم، والتي تجعله يقف وجهاً لوجه أمام قوات المسلمين بعيداً عن أنطاكية، ولم يرغب أمير الرها – هو الآخر – في أن يكون منافسه ريموند قريباً منه في حلب، في حالة انتصار المتحالفين وتنفيذ بنود الاتفاقية المعقودة بينهم، وقد عرقلت هذه العوامل جميعاً توحيد الجهود لفتح شيزر [5]. ووردت أنباء تشير إلى أن أمير حصن كيفا الأرتقي أرسل ابنه على رأس جيش كبير من التركمان [6]، وأن قوات دمشق تحركت لمساعدة زنكي [7].

ج- فك الحصار عن شيزر: إزاء هذا وذاك رأى الامبراطور أن الانسحاب أصبح أمراً محتماً فأنهى حصاره لشيزر في التاسع من رمضان (٥٣٢هـ)، بعد أن عرض عليه أميرها مبلغاً من المال [8]. وقال له: أيها الملك إن الفرنج خدعوك إذ دفعوك إلى محاصرة هذا الموضع، بينما نحن لم نسيء إلى أحد قط ولم نضايق المسيحيين، فاستجاب الامبراطور بسبب الضغوط الخارجة عن يده وأعلن الانسحاب وبادر بنو منقذ بإرسال هدايا إليه قوامها آنية كنيسة من الذهب والفضة وصلبان من الذهب مرصعة بالياقوت، وهي بقايا الغنائم التي

(١) الباهر ص ٦٣ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص ١١٢.
(٢) تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان (٢/ ٣٤٦). (٣) أسرة بني منقذ ص ١٦١.
(٤) الباهر ص ٥٦، عماد الدين زنكي ص ١٤٦.
(٥) محاضرات عن الحروب الصليبية، صالح أحمد العلي ص ٢٣٥. (٦) زبدة حلب (٢/ ٨٢٦٨).
(٧) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦، عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٨) عماد الدين زنكي ص ١٤٧.

حصل عليها آباؤهم في أثناء مشاركتهم في معركة ملاذكرد [(١)]، وقاد يوحنا كومنين الامبراطور البيزنطي القوات المسيحية في طريق العودة إلى أنطاكية وحينئذ انقض عماد الدين زنكي على آلاتهم الحربية الثقيلة ومجانيقهم العظام فاستولى عليها ورفعها إلى قلعة حلب [(٢)]، كما أرسل بعض جنده في آثار قوات العدو المنسحب، فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً منهم [(٣)]، وفي أنطاكية حدث خلاف جديد بين الامبراطور والصليبيين، كاد أن ينتهي بفتنة واسعة بين الطرفين لولا إسراع كومنين بالرجوع إلى بلاده [(٤)].

د- أسباب فشل الحملة:

يمكن تحديدها فيما يلي:

* عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الامبراطور [(٥)].

* اشتداد المنافسة بين كل من ريموند بواتييه وجوسلين الثاني، فخشي الأول أنه إذا سقطت شيزر بيد النصارى سيجبر على أن يقيم بها، وفقاً للاتفاقية المبرمة بين الحلفاء وهي تقع على الخط الأمامي للممتلكات النصرانية المواجهة للمسلمين، وسيبتعد نتيجة ذلك عن أنطاكية ومباهجها. أما جوسلين الثاني فيكنُّ في قرارة نفسه الكراهية لريموند بواتييه، ولا يود أن يراه مستقراً في شيزر، وفي حلب فيما بعد، فحاول الإيقاع بينه وبين الامبراطور، ونجح في ذلك[(٦)].

* انتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم فرصة تواجد الامبراطور يوحنا بعيداً عن الامبراطورية، وانشغاله بأمر الصليبيين وعماد الدين زنكي فقام بمهاجمة مدينة أذنة، ولا شك بأن مثل هذه الأنباء قد أزعجت الامبراطور لأنه خرج بجيشه من أجل العمل على ضم أنطاكية إلى أملاك بيزنطية، لا من أجل فقدان بعض أملاك الامبراطورية، مما حمله على فك الحصار وشرع في العودة إلى بلاده لحمايتها من السلاجقة [(٧)].

* اتبع عماد الدين زنكي خطة عسكرية ذكية يمكن أن نطلق عليها الحرب النفسية -إذا جازت هذه التسمية في ذلك الوقت-، ذلك أنه راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند مدينة شيزر يقول لهم: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين [(٨)] من شركم. وكادت

---

(١) أسرة بني منقذ ص ١٦٣.
(٢) زبدة حلب (٢/ ٢٦٨)، الباهر ص ٥٦. (٣) الباهر ص٥٦، عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٤) زبدة حلب (٢/ ٢٦٨)، عماد الدين زنكي ص ١٤٧.(٥) الباهر ص ٥٦، عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٦) (٧) (٨) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٠٤٥.

الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الامبراطور بالنزول إليه وقتاله ولكن يوحنا خشي مغبَّة ذلك وأجاب: أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدات المسلمين ما لا حد له. وفي نفس الوقت كان يراسل صليبيي الشام يحذرهم من امبراطور الروم ويعلمهم أنه إذا استولى على حصن واحد في الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، ويرسل من جهة أخرى إلى الامبراطور يخوفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، فاستنفر كل طرف من الطرف الآخر وسادت الشكوك بينهما، وكان قد بلغ الامبراطور أن قرا أرسلان بن داود الأرتقي قد عبر الفرات في جموع عظيمة في طريقه إلى شيزر، مما كان له دافعاً له على فك الحصار وكذلك عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الامبراطور [1].

هـ- النتائج التي أسفر عنها فشل حملة المسيحيين: إن أهم النتائج التي أسفر عنها فشل حملة المسيحيين هذه، هي تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية وفي الأيام التي أعقبت انسحاب المتحالفين، واستطاع صلاح الدين الياغسياني حاجب زنكي، أن يستولي على كفرطاب بعد أن بلغه هروب الصليبيين منها [2]. كما سار زنكي إلى حصن عرقة، فحاصره وفتحه عنوة، وأسر من فيه من الصليبيين، ثم أمر بتخريبه [3]. وما لبث أن اتجه في مطلع العام التالي ٥٣٣هـ إلى حصن بزاعة، فاجتاحه عنوة وقتل معظم من فيه من قوات الصليبيين والروم، ثم حاصر الأثارب، وتمكن من فتحها – في صفر – وقفل عائداً إلى الموصل[4]. وانهمك زنكي، في الفترة التالية، بالعمل على إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية، كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين، وقام عام ٥٣٣هـ بعدة مناورات وعمليات عسكرية وسياسية، في بعض جهات الجزيرة مستهدفاً ضمها لإمارته [5]، ثم عاد ليستأنف السعي من أجل تحقيق هدفه القديم بالاستيلاء على دمشق وتوحيد الجبهة الشامية، فاتجه إليها في أواخر العام نفسه، وفرض حصاراً شديداً عليها كاد أن يسقطها في يديه، لولا استنجاد أمرائها بصليبيي بيت المقدس، واستجابة هؤلاء لهم، رغبة منهم في القضاء على الخطر المشترك الذي يمثله وجود زنكي في المنطقة، الأمر

(١) الباهر ص ٥٦، عماد الدين زنكي ص ١٤٧.
(٢) زبدة حلب (٢/ ٢٦٨)، عماد الدين زنكي ص ١٤٨. (٣) الباهر ص ٥٧، عماد الدين زنكي ص ١٤٨.
(٤) مفرج الكروب (١/ ٨٣)، عماد الدين زنكي ص ١٤٨. (٥) عماد الدين زنكي ص ١٤٨.

الذي اضطر الأخير إلى الإنسحاب[1]، وفي عام ٥٣٨هـ أتيح لزنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر [2]، والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لإمارة الرها الصليبية، والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين، كجملين والموزر [3]، وتل موزن، وغيرها من حصون إقليم شيختان [4]، وكان هدفه من وراء ذلك قطع الاتصال بين قرا أرسلان الأرتقي، أمير حصن كيفا وبين جوسلين أمير الرها، ويسبب تحالفهما ضده [5]، وبذلك تمهد الطريق أمامه لإنزال ضربته المباشرة بالرها نفسها وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سني صراعه الطويل ضد الصليبيين [6].

و- مبالغات عند الكتّاب الأوروبيين متعلقة بشيزر: عند الحديث عن حقيقة انسحاب الامبراطور عن شيزر يلاحظ عنصر المبالغة الذي اتسمت به الكتابات الأوروبية وانساق وراءها مؤرخونا المحدثون مفيدة أن بني منقذ أعلنوا عند مفاوضاتهم مع الامبراطور عن قبولهم بالتبعية والسيادة له، ويبدو أن هذه الكتابات اعتمدت على بعض الروايات البيزنطية التي أرادت أن تغطي الفشل الذريع الذي واجهه الامبراطور عند أسوار شيزر، والذي يثبت عدم صحتها – كما نرى – هو أن الامبراطور لم يكن في وضع يسمح له بأن يملي شروطه على بني منقذ للأسباب الآنفة الذكر، حتى إنه لم يمتلك الوقت عند انسحابه لحمل معداته الحربية أو تدميرها، فتركها في أماكنها، فأمر زنكي بحملها إلى حلب، يضاف إلى هذا عجز قواته عن صد الهجمات التي كانت تتعرض لها قواته من قبل زنكي بعد انسحابه عن شيزر [7]، علاوة على أن المصادر العربية والسريانية التي عاصرت تلك الحملة لم تتطرق إلى هذه المسألة [8].

ز- من عجيب ما يحكى: أن ملك الروم لما عزم على حصار شيزر سمع من بها ذلك، فقال الأمير مرشد بن علي صاحبها وهو ينسخ مصحفاً: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام [9].

ح- ابن قسيم الحموي يمدح عماد الدين زنكي: ولد شرف الدين أبو المجد، مسلم بن

(١) (٢) عماد الدين زنكي ص ١٤٨.

(٣) يذكر ابن شداد أنها وجلين قلعتان لهما عمل متسع بين ديار بكر وديار مضر، على مسيرة يوم جران.

(٤) شيختان: هو أحد أقاليم ديار بكر عند منابع نهر الخابور.

(٥) (٦) عماد الدين زنكي ص ١٤٩.

(٧) (٨) أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري ص ١٦٤.

(٩) الكامل في التاريخ (٨/ ٧٤٢).

الخضر بن مسلم بن قسيم التنوخي الحموي أوائل القرن السادس الهجري بحماة ٥٠٠هـ وهو أحد شعراء العصر الزنكي الثلاثة المشهورين بعد ابن القيسراني وابن منير، نبغ في عصر شيخوختهما وبلغ إلى درجتهما[١]، وأحرز ابن قسيم أول نصر أدبي له عام ٥٣٢هـ وكان ذلك في الثلاثينات من عمره عندما هرع عماد الدين للدفاع عن المسلمين ضد الأطماع الصليبية في شيزر، وقد خلد الشعراء هذا الحادث الكبير وكانت قصيدة ابن قسيم الوحيدة التي اقتبسها المؤرخون في كتبهم دون سائر القصائد الأخرى، وهي لأعلام شعراء عصر عماد الدين زنكي [٢] ومما قاله من الشعر:

بعزمك أيها الملك العظيمُ ... تَذِلُّ لك الصعاب وتستقيمُ
ألم تر أن كلب الرُّوم لما ... تبينَ أنه الملك الرحيمُ
فجاء يطبِّق الفلوات خيلاً ... كأن الجحفَل اللَّيْلُ البهيمُ
وقد نزل الزمان على رضاه ... فكان لِخَطبِه الخَطْبُ الجسيمُ
فحين رَمَيْتَه بك في خميس ... تيقَّن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة [٣] منك جيشاً ... فأحرن [٤] لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور ... توقَّدَ وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولَّى ... وليس سوى الحِمام [٥] له حميم [٦]
يؤملُ أن تجود بها عليه ... وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنجُ لديك عفواً ... وأنت بقطع دابرها زعيم [٧]
وكم جَرَّعْتَها غُصَصَ المنايا ... بيوم فيه يَكْتَهِلُ الفَطِيمُ [٨]
ولما أنْ طلبتهُم تَمَنَّى ... المنية جُوسلينُهُمُ [٩] اللئيم
أقام يطُوفُ الآفاق حيناً ... وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك ... وعاد وما يعادله سقيم

(١) الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين ص ٢٢٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠.
(٣) المفاضة : مكان واسع تندفع منه الغارة.
(٤) فأحرن : في بعض النسخ فأحزن أي بمعنى الأرض الغليظة المرتفعة.
(٥) الحمام : الموت.
(٦) الحميم : صديق.
(٧) زعيم: كفيل.
(٨) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٧٤).
(٩) صاحب الرها.

إذا خطـــرت ســـيوفك في نفـــوس فـــأول مـــا تفارقهـــا الجســـوم [1]

سابعاً: فتح الرها:

كانت إمارة الرها الصليبية أولى الإمارات التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م بزعامة بلدوين الأول الذي استمر في حكم هذه الإمارة حتى سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م حين انتقل إلى حكم بيت المقدس عقب وفاة جورفرى ملك بيت المقدس[2]. وقد تميزت الرها عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها في وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذي أصاب السلاجقة في بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م[3]، ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الاستراتيجي وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام بل إنها شكلت خطراً أساسياً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة [4]. ومما يوضح ذلك أن الحملة التي قام بها كربوقا صاحب الموصل سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م نجدة للمسلمين بأنطاكية قد تعطلت بعض الوقت حول الرها في محاولة لانتزاعها من بلدوين الأول [5]، وعلى الرغم من أن الرها لم تقع في نطاق الأراضي المقدسة في فلسطين فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية، وقد ساعدت وفرة الثروات أمراء الرها على توسيع رقعتهم فامتدت إمارة الرها الواقعة على ضفتي نهر الفرات من راوندان وعين ثاب غرباً إلى مشارق ومن بهنسي وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً[6]. واكتسبت الرها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاع فاستطاعت الصمود في وجه المقاومة الإسلامية، على الرغم من أن الرها كانت تعاني من نقطتي ضعف واضحتين أحداهما الحدود الطبيعية إذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة وثانيتها عدم وجود تجانس بين سكانها إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين «السريان والأرمن

---

(١) كتاب الروضتين (١/ ١٢٤ ، ١٢٥).

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص ٢٣٠

(٣) سلاجقة إيران والعراق، عبدالمنعم حسين ص ٨٤.

(٤) إمارة الرها، علية الجنزوري ص ٣٤، الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٣٠.

(٥) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص ٢٣٠.

(٦) الحركة الصليبية، سعيد عاشور (١/ ٤٢٤)، الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٣٠.

اليعاقبة» ومن الصليبيين الغربيين، فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا في مدن بكاملها كسروج والبيرة التي خضعت للصليبيين[1]. ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبي، بل كانت في نظر المسلمين من أهم المواقع التي يجب السيطرة عليها، فقد ذكر ابن الأثير مكانتها في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب، أي بينها قاعدة عما في شمال العراق وقاعدتها في الشمال، ولهذا ووصفها بأنها من الديار الجزرية عينها ومن البلاد الإسلامية محضها مما جعل القوى الإسلامية سواء في العراق أو الشام أو الجزيرة ترغب في السيطرة عليها [2].

١- أوضاع إمارة الرها الداخلية: كانت ظروف الرها الداخلية مواتية لعماد الدين زنكي، إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية وانسياقه وراء العواطف والأهواء وعدم امتلاكه مقدرة سياسية، وبعد نظر، والواقع أن جوسلين الثاني تأثر في نشأته بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية وفضَّلهم على النصارى الغربيين، الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية، حتى إنه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر من الضفة الغربية للفرات، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكون فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوطها، والجدير ذكره أن هذه شكلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة [3]، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية [4] ودينية.

٢- عمليات الفتح: استغل عماد الدين زنكي الظروف السابق ذكرها وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من أقصر طريق. وكان يعلم أنه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرها ما دام جوسلين وقواته موجودين بها، وهكذا انصب اهتمامه على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته، فاتجه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وأنها هدفه دون

(١) الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٣١.
(٢) التاريخ الباهر ص ٦٦ ، ٦٧، الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٣١.
(٣) (٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٤٩.

غيرها، وبث عيونه – في الوقت نفسه – في منطقة الرها ليطلعوه – أولاً بأول – على تحركات أميرها الذي ما أن رأى انهماك زنكي بحروبه في ديار بكر وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية، حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته [1]، بعد أن اتخذ إجراءً احتياطياً بأن عقد هدنة مع قرا أرسلان صاحب حصن كيفا الذي كان قد التجأ إليه بعد تهديد زنكي لإمارته [2]، ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات، كي يتخلص هناك، من كل مسؤولية، ويتفرغ لملذاته، تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال، بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة [3]، وجاءت عيون عماد زنكي لتطلعه على النبأ الذي كان يتحرق إليه فأسرع بالتوجه إلى الرها مستعيناً على السرعة بركوب نجائب الإبل مستنفراً كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين، فطوق بهم الرها من جهاتها الأربع. وحاول في البدء أن يتوسل بالطرق السلمية علها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف، فراسل أهالي الرها باذلاً لهم الأمان، طالباً منهم أن يفتحوا له الأبواب قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى تدمير أسوار بلدهم وإخلاء ديارهم، إلا أنهم أبوا قبول الأمان [4]. وحينئذ اشتد زنكي في التضييق على الحصن، مستخدماً آلات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير أسواره، قبل أن تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لإنقاذ هذا الموقع الخطير، وأرسل جوسلين –لدى سماعه نبأ الهجوم – في طلب نجدة مستعجلة من جميع الإمارات الصليبية في الشام، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس، التي وصلت نجدتها بعد فوات الأوان[5]، كما أنه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة، أو إرسال نجدة لتعزيز دفاعها فحيل بينه وبين ذلك. وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة ٥٣٩هـ وبعد مرور ثمانية وعشرين يوماً على بدء الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، أثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة [6]، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برصوما بإجراءات تسليم الرها لزنكي [7].

---

(١) الباهر ص ٦٧، عماد الدين زنكي ص.١٥١.   (٢) عماد الدين زنكي ص ١٥١.
(٣) (٤) المصدر نفسه ص ١٥٢.
(٥) الحركة الصليبية (٢/ ٦٠٥، ٦٠٦)، عماد الدين زنكي ص ١٥٢.
(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ – ٢٨٠، عماد الدين زنكي ص ١٥٢.
(٧) عماد الدين زنكي ص ١٥٣.

٣- سياسة عماد الدين زنكي في الرها: رأى عماد الدين زنكي، بعد أن فتح الرهـا، أن ذلك البلد لا يجوز في السياسة تخريب مثله[1]، وأصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر والسلب، وإعادة ما استولوا عليه مـن سبي وغنـائم، فأعيـدوا ولم يفقـد إلا الشـاذ النادر، وأعقب ذلك بإصدار أمر آخر بالإسراع في تنظيـم مـا اضـطرب مـن أمـور الرهـا، وتعمير ما تهدم خلال أسابيع طويلة من القتال ورتّب من رآه أهلاً لتدبير أمرهـا وحفظهـا والاجتهاد في مصالحها، ووعد أهلها بإجمال السـيرة وبسـط العدالـة [2] مسـتهدفاً مـن وراء ذلك استمالة سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصـليبيين الكاثوليـك، الأمـر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية، واحتفاظه بكنائس الشرقيين [3].

٤- العوامل التي ساعدت عماد الدين على استعادة الرها: هناك العديـد مـن العوامـل التي ساعدت عماد الدين على تحرير الرها منها:

* تنامي حركة الجهاد الإسلامية حتى عصره وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكـي تكـون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقـد أجهـدها أمر الإغارات المستمر من جانب أتابكة الموصل على نحو خاص طوال ما يزيـد علـى أربعـة عقود من الزمان على نحو مثّل موتاً بطيئاً لها إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور.

* ويضاف إلى ذلك براعة عمـاد الـدين زنكـي العسـكرية الـذي فاجـأ تلـك الإمـارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنـه لـن يهـاجم فاستغل فرصـة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها ووجه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسـقاطها، وهكـذا أثبت ذلك القائد المسلم الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم.

* زد على ذلك أن الخلاف الواقع بين إمارتي الرها وأنطاكية أثر بدوره على إمـارة الرها، وأدى إلى إجهادها واستهلاكها سياسياً وعسكرياً [4]، على نحو أثبت أن الخلافات التي كانت تحدث بين القيادات الصليبية أثرت بدورها على كياناتهم السياسية وها هي – لحسن الحظ – إمارة الرها تدفع الثمن بأن سقطت في قبضة من استحقها من قادة الجهاد الإسلامي في ذلك الحين.

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ١٥٣.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠، عماد الدين زنكي ص ١٥٣. (٣) عماد الدين زنكي ص ١٥٣.
(٤) الحروب الصليبية – العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٢.

* ولا نغفل – من ناحية أخرى شخصية أمير الرها جوسلين الثاني الذي لم يكن على نفس القدر من الكفاءة السياسية والعسكرية التي اتصف بها والده جوسلين الأول، وكان أميل إلى حياة الخلاعة والمجون والسعي الحثيث إلى الملذات، بل إنه كثيراً ما غادر مدينة الرها ذاتها واتجه إلى تل باشر من أجل أن يجد هناك ما يبحث عنه من صور الفساد، ولذلك أدرك فيه المسلمون تلك الزاوية فأحسن قائدهم الإفادة منها وهاجم الرها وقت أن غاب عنها جوسلين الثاني، فأصابها في مقتل [1].

* ويبدو أن الجيل الصليبي الذي حل بعد الجيل الأول الذي أسس الكيان الصليبي وحافظ عليه، لم يكن قادراً على الحفاظ على ما شيده السابقون بل لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخي في ذلك الموقع الشديد الحساسية الذي أحاطه المسلمون من كل جانب، وهكذا شارك جوسلين الثاني – دون أن يدري – في إنجاح حركة الجهاد الإسلامية حينذاك بقيادة قائدها الكبير عماد الدين زنكي [2].

* وعلى أية حال فإن من المؤرخين الغربيين من حاول إظهار عوامل الضعف الداخلي في إمارة الرها، وجعل تلك العوامل وحدها هي التي أدت إلى إسقاطها، وهدف من وراء ذلك إضعاف فعاليات المسلمين السياسية والحربية، غير أن المنطق التاريخي يدعونا إلى تصور أن العوامل الداخلية والخارجية تعاونت معاً من أجل صنع انتصار عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م ومهما كان شأن عوامل «النحر والانتحار» الداخلية ونتائجها في الرها فإنها ما كانت لتسقط دون الفعاليات العسكرية لقائد موهوب مثل عماد الدين زنكي، وجنوده من خلفه [3].

٥- موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها وماذا جرى في صقلية ورؤيا لعماد الدين بعد موته:

أ- موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها: كان للفقيه المؤذن موسى الأرمني المدرس بإحدى مدارس الموصل موقف مشكور في فتح الرها حيث استخدم أسلوب الحرب النفسية في حملة عماد الدين زنكي على الرها عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م فقد نزل الفقيه محاصراً ومقاتلاً، فخطرت بذهنه خطة ذكية أثناء حصار عماد الدين للرها، فقد نزل السوق، واشترى ملابس الأرمن، لكي يدخل بها إلى المدينة حتى لا يعرفه الصليبيون، ويشكون في

---

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٢.

(٢) (٣) المصدر نفسه ص ١٦٣.

أمره[1]، فقال: فنزلت السوق، واشتريت لباساً من لباس الأرمن، وتزينت في زيهم [2] ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله، فجئت إلى الجامع فدخلت ورأيت المنارة فقلت في نفسي: أصعد إلى المنارة، وأؤذن حتى يجري ما جرى، فصعدت وناديت الله أكبر الله أكبر، وأذنت، والكفار على الأسوار، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هجموا البلد من الجهة الأخرى، فترك الكفار القتال ونزلوا من أعلى السور، فصعد المسلمون وهاجموا المدينة [3].

ب- ملك جزيرة صقلية: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يُحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرُّها سير ملك الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي، وقد نعس وهو شبيه النائم فأيقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها - أي أتباع رسول الله ﷺ - فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم، واشتد هذا على الملك، فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلو منزلة الرّها عند النّصرانية [4].

ج- رؤيا للشهيد بعد قتله: ويحكى أن رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها [5].

د- مؤامرة فاشلة من سكان الرها: ما لبث سكان الرها من الأرمن أن دبروا – في العام التالي – مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين وإعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين، إلا أن زنكي سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة، والقبض على مُدبريها وإعدامهم، ثم أعقب ذلك بنفي عدد من الأرمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين [6].

٦- نتائج فتح الرها: حقق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ٢٢.
(٢) المصدر نفسه نقلاً عن بغية الطلب في تاريخ حلب.
(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب (٩/ ٣٨٥١)، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٢٢.
(٤) (٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٤١).
(٦) عماد الدين زنكي ص ١٥٧.

الصليبيين طوال مدة حكمه، وكان لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

أ- تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامية وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحافًا بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما مودود. وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية، واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء، وإنجاز.

ب- تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية غير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق، وكذلك بلاد فارس [(١)].

ج- زاد الضغط على النطاق الصليبي الذي اتخذ شكلاً طولياً من أنطاكية في الشمال إلى أيلات (الرشراش) جنوباً ومن نهر الأردن شرقاً إلى الساحل الشامي – باستثناء عسقلان، إذ أن صور سقطت بالفعل عام ١١٢٤م/ ٥١٨هـ بما اشتملت من إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، فالمؤكد أن رأس الحربة الصليبية في الرها سقطت إلى غير رجعة، والآن أصبحت ذراعها قائمة في باقي الكيان الصليبي، ولذلك ازداد الضغط العسكري عليه من قبل القوى الإسلامية التي سيطرت على الظهير الشامي الموازي للساحل والسهل الساحلي، وكأن المعركة صارت – على المستوى الجغرافي – معركة بين الساحل والظهير، واعتمد الأول على الدعم الخارجي الأوروبي في الأساس، واعتمد الثاني على إمكاناته المحلية الوافرة التي تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين.

د- أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأم في الغرب الأوروبي، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لابد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام حملة صليبية

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٤ ، ١٦٥.

١١٤٧ – ١١٤٩ م/ ٥٤٢ – ٥٤٤هـ التي اشتهرت بالصليبية الثانية، وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها، وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين – عامة – في عهد الحروب الصليبية.

هـ- ومن النتائج العديدة التي نتجت عن ذلك الإنجاز، ارتفاع شأن عماد الدين زنكي إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية، تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين، فقد احتل مكانة بارزة [1]، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء، أمير العراقين والشام[2]. وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية، أحاديث تمحورت حول شخصه، تصور لنا مدى التقدير، والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير، ومهد هذا الفتح الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة، وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في المنطقة، وأدّى فتح الرها دوراً كبيراً في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها، فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين[3]، وهذا إن شاء الله من عاجل بشرى المؤمن.

٧- **رأي المستشرق جون لامونت في عماد الدين:** يعد المستشرق جون لامونت من أبرز المؤرخين الأمريكيين خلال النصف الأول من القرن الماضي، وتعددت مؤلفاته في مجال الصليبيات، ولاسيما دراسته الوافية عن الملكية الإقطاعية في مملكة بيت المقدس، غير أن له دراسة أخرى عنوانها الحرب الصليبية والجهاد ضمن كتاب التراث الإسلامي الذي نشره نبيه فارس، وفي هذه الدراسة؛ اتجه لامونت إلى تفنيده فكرة الجهاد عند المسلمين حينذاك، وتصور تحرك قادة الجهاد الإسلامي حينذاك على أنه من خلال الدوافع السياسية والاقتصادية فقط، وذكر أن عماد الدين زنكي لا يعتبر بأي حال من الأحوال بطل الجهاد،

---

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٥.

(٢) (٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٥٦.

فإن عماد الدين وإن كان يطمع في استرجاع الرها منذ وقت طويل كما يقول كمال الدين بن العديم، لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً، وإلا بعد أن حثه على ذلك أمير حران جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان الذي بين له سهولة احتلال المدينة[1]، ويستمر في تصوره قائلاً: الظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجاً عن سياسته وعملاً قام به بناء على تحريض الآخرين[2] وذكر أيضاً: أن استيلاء زنكي على حماه، وحمص، وحلب وحروبه ضد الأرتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا رأى في ذلك مصلحته [3]. ومن الممكن تفنيد تلك الآراء على النحو التالي:

*كان اتجاه عماد الدين زنكي لمهاجمة الرها متأخراً وذلك أمر لا يقلل البتة من دوره الجهادي خاصة أنه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية في صراعاته وحروبه معها ضد حصونها ومعاقلها، ثم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبر غور دفاعاتها، ومعرفة نقاط الضعف فيها، وكذلك نقاط القوة، ومن ناحية أخرى من الطبيعي تصور أن نصيحة أمير حران لزنكي بإسقاط الرها لم تكن لتغير من الموقف شيئاً لو لم يكن زنكي قد خطط مسبقاً لذلك، بل أغلب الظن أن سقوط تلك الإمارة من الصعب تصور حدوثه على النحو الذي يصوره لامونت، بل إنها في الأغلب كانت من مخططات الزنكيين منذ أمد بعيد، أما تعليل عدم تبكير زنكي بالاستيلاء عليها، فذلك مرجعه إلى عدم رغبته في إجهاض قوته الحربية في صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه المبكرة، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرها – على نحو ما فصلته المصادر اللاتينية والسريانية، والعربية– يعتبر بحق من أبرز دلائل حنكة زنكي السياسية. يبدو أن ادعاء لامونت بأن إسقاط الرها كان بعيدًا عن سياسة عماد الدين زنكي هو أكبر الادعاءات التي لا تجد سنداً تاريخياً يدعمها، فمن المعروف أن زنكي كان مشتركاً في جيش مودود، وبنص عبارة ابن الأثير: شهد معه حروبه [4]، ولا ريب أنه أدرك أهمية إسقاط الرها، بل إن ذلك الحلم ترسب في ذهنه منذ زمن بعيد والمتصور أنه أراد النجاح فيما أخفق فيه مودود من قبل، وقد اعتقد أن إسقاطها أمر ضروري على اعتبار أنها الهدف الصليبي الأقرب إلى الموصل، كما أن تحقيق مثل ذلك الهدف من شأنه تيسير اتصاله بشمال

(١) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٦.
(٢) (٣) المصدر نفسه ص ١٦٦.
(٤) الباهر ص ١٧، الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٧.

الشام، وخاصة من خلال رؤيته التوحيدية الثاقبة [1].

* إن افتراض جون لامونت بأن زنكي كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية، افتراض يدعم حنكة عماد الدين زنكي السياسية، فقد لجأ إلى عقد الاتفاقيات مع الصليبيين أحياناً من أجل التقاط الأنفاس، وعدم الوقوع في أتون جبهتين؛ جبهة الشرق بصراعه مع قواه السياسية وجبهة الصراع مع الصليبيين، ثم إنه أراد أن يبعث الطمأنينة في نفوس الآخرين من خلال مثل تلك الاتفاقات، في حين كان يبطن النية للاجهاز على الرها، ولذا جاءت عمليات الحصار من جانبه نحوها أمراً مفاجئاً لأهلها [2].

* أما القول بأن زنكي لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرها، بل إنه كان يسعى أيضاً إلى بناء دولته على حساب جيرانه سواء المسلمين أو الصليبيين فينبغي ملاحظة أن كل القيادات الإسلامية التي ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين وساهمت في قضية الجهاد، كان لديها طابع ما من الطموح السياسي وكانت تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية المجاورة لها، غير أن العبرة هنا بأن الطموح السياسي – كما أشرت من قبل – يتم تفجيره في قضية الأمة بأسرها وهي الجهاد، لأن مثل تلك القيادات كان من الممكن أن ترضى العيش في ذلة وانكسار مع الصليبيين ولا تتوسع على حسابهم تجنباً لإثارة المشكلات السياسية معهم ولسقوط القتلى والجرحى بل وتعرض مناطق نفوذها الأصلية لاعتداءات الغزاة غير أنها رفضت ذلك وقبلت التحدي الصليبي وأظهرت قدرتها على تغيير الجغرافية السياسية للمنطقة من خلال تبنيها لمشاريع الجهاد [3].

* من المهم أن تعرف أنه لا يخفى على دارسي تاريخ العلاقات الإسلامية مع القوى المسيحية في مرحلة الحروب الصليبية، كيف أن قطاعاً من المستشرقين حرص على سلب المسلمين إنجازاتهم، وشككوا في المراحل الناصعة من تاريخهم، كما أن هناك ثأراً ملازماً ذلك القطاع منهم لاسيما مع فكرة الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، ولذلك حرصوا الحرص أجمعه على إنكارها، والتشكيك فيها، والإساءة إلى كل التجارب الجهادية الماضية للمسلمين حتى لا يتبنوها في الحاضر والمستقبل، وهكذا من الممكن التقرير – بموضوعية ودون اعتساف في الأحكام – أن عصر الحروب الصليبية شهد نقلة نوعية في تطوير فكرة الجهاد في الإسلام،

(١) (٢) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٦٧.
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٨.

حيث إن الجهاد هذه المرة ضد عدو استقر على الأرض الإسلامية، بعد ضعف المسلمين من جراء صراعاتهم مع بعضهم البعض، فإذا ما أدركنا أن هويتهم الدينية كانت في خطر أمام مشاريع التنصير التي علقت عليها البابوية آمالاً كباراً، أدركنا كم كانت فكرة الجهاد فكرة محورية في عصر الحروب الصليبية [1]، إن المراجع الغربية حاولت تشويه صورة هذا المجاهد الكبير قديماً وحديثاً، ومن أشهر الكتب المعاصرة كتاب الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم وقد قالت صاحبة الكتاب كارين ارمسترونغ عن عماد الدين زنكي: لم يكن هذا بأي حال قدوة تحتذى، بل كان سكيراً عربيداً قلما يفيق من سكره، كما كان قاسياً بطاشاً مثل معظم رجال الحرب في عصره [2]. وسيرة الرجل تكذب ما يقولون ووصفه مؤرخونا بالشهيد وهو وسام عالي الرتبة والمقام لا يعطى إلا لمن هو أهل لهذا الوصف الكبير، فقد قالوا في سيرته: من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف [3]، وكان معظماً للشريعة ومقيماً لحدودها في دولته وقد كلف بذلك القضاة.

إن من أهداف بعض المستشرقين:

* تشويه رموز الجهاد لكي تبقى أجيالنا بدون قدوات تقوي العزائم وتنهض بالهمم.

* إضعاف روح الفداء والتضحية والشهادة والجهاد في الأمة حتى يستطيعوا سوقها كالبهائم.

* محاولة فصل الأمة عن تاريخها بالأكاذيب والتشويه حتى لا ترجع إلى تاريخها الحافل فتستخرج منه الدروس والعبر.

* كانت كتاباتهم تنبثق من روح صليبية حاقدة على الأبطال الذين أسهموا في إفشال المشروع الصليبي ولذلك حاول المستشرقون تشويه صورة عماد الدين زنكي.

* إن سيرة عماد الدين ومن حوله من أعوانه المخلصين كالقاضي الشهرزوري تقطع بدون شك بكذب أولئك المستشرقين الذين حاولوا طمس الحقائق وإلصاق التهم الباطلة بذلك الرجل العظيم، فتجربته الجهادية تستحق الدراسة والتحليل العميق مع ربط ما وصلنا إليه من دروس وعبر بواقعنا المعاصر، لكي نستفيد منها في السعي الجاد لنهضة الأمة.

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق الغرب ص ١٦٨.
(٢) الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم ص ٢٤٥.
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٥٧).

٨- مدح الشعراء لعماد الدين عند فتح الرها: إن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط، آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ وأدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها رغبتهم في عدم إطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعزة والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين عرباً وأكراداً وأتراكاً - وهم يقودون الجيوش ويحملون راية الإسلام - مقاتلين ومجاهدين ومنتصرين يترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية وتجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة، ثم إلى إعادة تقييم وحينئذ سنجد أن آراءنا قد تغيرت تغيراً إيجابياً لأننا سنجد فيه الكثير مما يستحق الدراسة، وسنجد الكثير من الأشعار اللطيفة الرقيقة في الحماسة ووصف المعارك ومديح الأبطال وسنجد الشعر الحزين الباكي في رثائهم[١]. وهذه باقة طيبة من الأشعار متعلقة بفتح الرها ومدح عماد الدين زنكي فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرها فقال:

بجيش جاش بالفُرسان حتى ... ظننت البر بحراً من سلاح
وألسنة من العذبات حُمْر ... تخاطبنا بأفواه الرِّياح
وأروع جيشه ليلٌ بهيم ... وغُرَّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن ... قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلباً ... وهيبته جناحاً للجناح [٢]

أ- ابن القيسراني يمدح عماد الدين في فتح الرها:

قال الشاعر:

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوق الأملاك إلا نجاده

ولقد كان لهذا الفتح رنة فرح في نفوس الناس، وبفتح الرها تغيرت نظرة الفرنج إلى قوة المسلمين، وأعادها عماد الدين زنكي إلى ديار الإسلام بعد أن حكمها الفرنج نصف قرن ومما جاء في القصيدة:

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظُّبى ... سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده

---

(١) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٠. (٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٣٩).

وذاد قسيم الدَّولة ابنُ قسيمها … عن الله ما لا يُستطاعُ ذياده
لِيَهْنِ بني الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ … رواسيه عزًّا واطمأنَّ مهاده
وفتحٌ حديثٌ في السماع حديثه … سهيٌّ إلى يوم المَعَادِ مُعَادهُ
أراح قلوباً طِرْنَ من وُكُناتِها … عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ
لقد كان في فتح الرُّها دلالة … على غير ما عند العُلُوجِ اعتقاده
يُرَجُّون ميلاد ابن مريم نصرة … ولم يُغْنِ عند القوم عنهم ولاده
مدينة إفك منذ خمسين حِجَّة … يفِلُّ حديد الهند عنها حداده
تفوتُ مدى الأبصار حتى لو أنها … ترقت إليه خان طرْفاً سواده
وجامحةٌ عزُّ الملوكَ قِيادُها … إلى أن ثناها من يعزُّ قياده
فأوسعها حرُّ القِراع مُؤيَّدٌ … بصيرٌ بتمرين الألدِّ لِدَاده
كأنَّ سنا لَمْعِ الأسنَّةِ حوله … شرارٌ ولكن في يديه زناده
فأضرمها نارين: حرباً وخدعة … فما راع إلا سورُها وانهدادُهُ
فصدَّت صُدُودَ البِكْر عند افتضاضها … وهيهات كان السيف حتماً سفاده[1]
فيا ظَفَراً عمَّ البلاد صلاحه … بمن كان قد عمَّ البلادَ فساده
فلا مُطْلَقٌ إلا وشُدَّ وثاقه … ولا مُوثَقٌ إلا وحُلَّ صفاده
ولا مِنبرٌ إلا ترنحَّ عُودُه … ولا مصحف إلا أنار مداده
فإن يثكل الإبرنز فيها حياته … وإلا فقل للنجم كيف سُهادُهُ
وباتت سرايا القمص نقمص دونها … كما يتنزَّى عن حريق جراده
إلى أين يا أسرى الضَّلالة بعدها … لقد ذلَّ غاويكم وعَزَّ رَشاده
رُوَيْدكُمُ لا مانع من مُظَفَّر … يعانِدُ أسباب القضاء عِنادُهُ
مُصيبُ سهام الرأي لو أن عَزْمَهُ … رمى سَدَّ ذي القرنين أصمى سَدادُهُ
وقل للملوك الكُفْر سلم بعدها … ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصُّبح أيتها الدُّجى … فيا طالما غال الظلام امتدادُهُ
ومن كان أملاك السَّمواتِ جنده … فأية أرض لم ترضها جياده

(١) في رواية: نفاده.

ولله عـــزم مـــاءُ ســـيحان ورده ... وروضـــة قســـطنطينة مســـتراده [1]

وله قصيدة هنَّأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرُزُوْري أَوّلُها: هي جنة المأوى فهل من خاطب. يقول فيها:

إن الصَّــفائح يــوم صــافحت الرُّهــا ... عطفــت عليهــا كــل أشــوس ناكــب
فــتح الفتــوح مبشّــراً بتمامــه ... كــالفجر في صــدر النَّهــار الآيــبِ
لله آيَـــة وقفـــة بدريـــة ... نُصــرت صــحابتها بــأيمن صــاحب
ظفــرٌ كمــال الــدين كنــت لقاحَــه ... كــم نــاهض بــالحرب غــير محــارب
وأمــدكم جــيشُ الملائــك نصــرةً ... بكتائـــب محفوفـــة بكتائـــب
جنبــوا الــدَّبور وقــد تم ريــح الصــبا ... جنــدُ النبــوة هــل لهــا مــن غالــب
أتــرى الرُّهــا (الورهــاء) [2] يــوم تمنعــت ... ظنــت وجــوب الســورِ ســورة لاعــب
لا أيــن يــا أســرى المهالــك بعــدها ... ضــاق الفضــاء علــى نجــاة الهــارب
شـــدَّا إلى أرض الفرنجـــة بعـــدها ... إن الــدُّرُوبَ علــى الطريــق اللاَّحــب
أفغَـــركم والثَّـــأرُ رهـــنُ دمـــائكم ... مــا كــان مــن إطــراق لحــظ الطَّالــب
وإذا رأيـــت الليـــث يجمـــع نفســـه ... دون الفريســة فهــو عــينُ الواثــب [3]

ب- ابن منير يمدح عماد الدين في فتح الرها:

صـــفاتُ مجـــدكَ لفـــظ جـــلَّ معنـــاه ... فـــلا اســـتردَّ الـــذي أعطاكـــه الله
يـــا صـــارماً بـــيمين قائمُـــة ... وفي أعـــالي أعـــادي اللَّـــهِ حَـــدَّاه
أصــبحت دون ملــوك الأرض منفــرداً ... بـــلا شـــبيهٍ إذ الأمـــلاكُ أشـــباه
فــداك مــن حاولــت مســعاك هِمتُــهُ ... جهــلاً وقصَّــرَ عــن مســعاك مســعاه
قــل للأعــادي ألا موتــوا بــه عمــداً ... فـــالله خيـــبَّكم والله أعطـــاه
مَلــكٌ تنــام عــن الفحشــاء هِمتُّــهُ ... تقـــى وتســـهر للمعـــروف عينـــاه
مـــا زال يَسْـــمُكُ والأيـــام تخدمـــه ... فيمـــا ابـــتلاه وتُـــدْني مـــا توخَـــاه
حتــى تعالــت عــن الشُّــعْرى مشــاعره ... قـــدراً وجـــاوزت الجـــوزاء نعـــلاه

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/١٤٣).

(٢) الورهاء: الخرقاء.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٤٤).

وقـد روى النـاس عـن فـتح أُتـيح لـه ... مظَّــلٌ أفـــف الـــدنيا جناحـــاه
علـــى المنـــابر مـــن أنبائـــه أرج ... مقطوبـــة بفتيـــق المِسْـــك ريـــاه
فـتحٌ أعـاد علـى الإسـلام بهجَتَـهُ ... فـــافتر مبسُـــمه واهتـــزّ عِطْفَـــاه
يُهْـــدَى بمتعصـــم بـــالله فتكتـــه ... حَـــديثها نَسَـــخ الماضـــي وأنســـاه
إن الرُّهـــا غـــير عموريـــةٍ وكـــذا ... مَـــنْ رامهـــا لـــيس مَغْـــزَى، كمغـــزاه
أخـت الكواكـب عِـزًّا مـا بغـى أحـدٌ ... مـــن الملـــوك لهـــا وَقْمـــاً [١] فواتـــاه
حتـى دلفـت لهـا بـالعزم يشـحذه ... رأيٌ يبيـــتُ فُوَيْـــقَ الـــنَّجْم مســـراه
مشـــمِّراً وبنـــو الإســـلام في شُـــغْلٍ ... عـــن بَـــدْءِ غـــرْس لهـــم أثمـــار عقبـــاه
يـا مُحيـي العَـدْلِ إذ قامـت نُوَادبُـه ... وعـــامر الجُـــودِ لمـــا مـــحَّ [٢] معنـــاه
يـا نعمـة الله يستضـفي المزيـد بهـا ... للشـــاكرين ويســـتقني صـــفاياه
أبقـاكِ للـدين والـدُّنيا تحوطُهمـا ... مـــن لم يُتوّجْـــك هـــذا التَّـــاج إلا هـــو

ولابن منير أيضاً من قصيدة أخرى يقول فيها:

أيـا مِلِكـاً ألقـى علـى الشِّـرك كلكـلاً ... أنـــاخ علـــى أماتـــه [٣] كَلْكَـــلُ الثُّكـــل
جمعـت إلى فـتح الرُّهـا سـدّ بابـه ... بجمعـك بـين النَّهْـب والأسْـر والقتـل
هـو الفـتحُ أنسـى كـلَّ فـتح حديثـه ... وتـــوَّجَ مســـطورَ الرِّوايـــة والنَّقْـــلِ
فضضـت بـه نقـش الخـواتِمِ بعـده ... جُزيتَ جزاءَ الصدق عـن خـاتم الرسـلِ
تجـــردت للإســـلام دون ملوكـــه ... تُبتـــك أســـباب المذلَّـــةِ والخـــذل
أخـو الحـرب غَذَّتـهُ القـراع مفطَّمـاً ... يشـوب بإقـدام الفتـى حُنْكَـة الكهـل

وقال أيضاً:

بعمـاد الـدين أضـحت عـروة الـدين ... معصـــوبًا بهـــا الفـــتح المـــبين
واســـتزادت بقســـيم الدَّولـــة ... القســـم في إدحـــاض كيـــد المـــارقين
ملـــك أســـهر عينـــاً لم يـــزل ... همهـــا تشـــديد هَـــمٌ الرَّاقـــدين
لا خَلَـت مـن كَحَـل النَّصْـر فقـد ... فقـــأت غيظـــاً عيـــون الحاسَـــدين

---

(١) وقماً: أي ذلاً.
(٢) محّ: خلق ودرس.
(٣) أماته: مفردها أم والجمع أمات أو أمهات.

كـــلُّ يـــوم مـــرّ مـــن أيامـــه ... فهـــو عيـــد عائـــد للمســـلمين
لـــو جـــرى الإنصـــاف في أوصـــافه ... كـــان أولاهـــا أمـــير المـــؤمنين
مـــا روى الـــرّاوون بـــل مـــا ســـطّروا ... مثـــل مـــا خَطَّـــتْ لـــه أيـــدي الســـنين
إذ أنـــاخ الشـــرك في أكنافـــه ... بمئـــي ألـــفٍ تلاهـــا بمـــئين
وقعـــة طاحـــت بكلـــب الـــروم مـــن ... قطعـــه الـــتين إلى قطـــع الـــوَتين(١)
إن حمـــت مصـــر فقـــد قـــام لهـــا ... واضـــح البرهـــان أن الصّـــين صـــين
والرُّهـــا لـــو لم تكـــن إلا الرُّهـــا ... لَكَفَـــتْ حســـماً لشـــك الُمتريـــن
درج الـــدّهر عليهـــا مُعصِـــراً ... لم تـــدنس بمـــرام اللاّمســـين
هَـــمَّ قســـطنطين أن يَفْرَعَهَـــا ... ومضـــى لم يَحـــوِ منهـــا قِسْـــطَ طـــين
ولكـــم مِـــنْ مَلِـــكٍ حاولهـــا ... فتحلّـــى الحـــين وسمـــا في الجـــبين
هـــي أخـــت الـــنجم إلا أنّهـــا ... منـــه كـــالنجم لـــرأي المبصـــرين
مُنِيَـــتْ منـــه بليـــث قائـــدٍ ... بعـــران (٢) الـــذُّلُ أســـاد العـــرين
زارهـــا يـــزْأرُ في أســـد وغـــى ... تبـــدل الأســـد في الـــزأر الأنـــين
صـــولجوا البـــيضَ (٣) بضـــرب نثـــر ... الهـــام في ســـاحاتها نثـــر الكُـــرِيْن (٤)
يـــا لهـــا همـــةُ ثغـــر أضـــحكت ... مـــن بـــني القُلْـــفِ (٥) ثغـــور الشّـــامتين
بَرْنَسَـــتْ رأسَ بـــرنسٍ ذِلـــةٌ ... بعـــدما جاســـت حوايـــا جوســـلين
وســـروج مُـــذْ وعـــت أســـراجه ... فَرَّقَـــتْ جُمَّاعهـــا عنهـــا عِضـــين
تلـــك أقفـــال رماهـــا الله مـــن ... عزمـــه الماضـــي بخـــير الفـــاتحين
شـــامَ منـــه الشّـــامُ برقـــاً ودَقُـــه (٦) ... مـــؤمنُ الخـــوف مخيـــفُ الآمـــنين
كـــم كنـــيس كُنِســـت آرامهـــا ... منـــه بعـــد الـــروح في ظـــل السّـــفين

إلى أن قال:

همـــة تمســـي وتضـــحي عزمـــةً ... لـــيس حصـــن إن نحتـــه بحصـــين

---

(١) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٢) العران : خشبة تجعل في وتر أنف البعير وهو ما بين المنخرين.
(٣) أي جعلوا السيوف صوالجة، مفردها : صولجان.
(٤) مفردها كرة : وهي التي يلعب بها بالصولجان.
(٥) القُلْف : أي الذين لم يختتنوا ويعني الصليبيين.
(٦) ودقه : مطره.

قــــل لقــــوم غــــرّهم إمهالــــه ... ســـتذوقون شـــذاه بعـــد حـــين
إنـــه المـــوت الـــذي يـــدرك مـــن ... فـــر منـــه فشـــجاً للغـــافلين
وهـــو يُحيـــي مُمســـكي عُروتـــه ... إنهـــا حبـــل لمـــن تـــاب مـــتين
مـــن يطـــع يـــنج ومـــن يعـــص يكـــن ... مـــن غـــداةٍ عـــبرةً للآخـــرين
أقســـم الجـــد بـــأن تبقـــى لكـــي ... تملـــك الأرض يميناً لا يمـــينْ(١)
وتُفـــيض العـــدل في أقطارهـــا ... منسيـــاً مـــؤلم عســـف الجـــائرين
لا تـــزل دارُك كيـــف انتقلـــت ... كعبـــة محفوفـــة بالطـــائفين
كـــل يـــوم يتحلـــى جيـــدها ... مـــن نظـــيم المـــدح بالـــدُّرِّ الـــثمين
كلمـــا أخلـــص فيهـــا دعـــوةً ... لـــك قالـــت ألسُـــنُ الخَلْـــقِ آمـــين(٢)

ثامناً: الأحداث العسكرية بعد فتح الرها:

كان فتح الرها بداية لها ما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة (٣)، واتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الفرار واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى (٤)، وجعل لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها، إلا سلّم إليه في الحال (٥)، ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من أهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني، وأشدها مناعة، ففرض الحصار عليها وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت والميرة والمعونة حتى أشرفت على الاستسلام، وحينذاك بلغ زنكي نبأ مقتل نائبه في الموصل فاضطر إلى فك الحصار والإسراع بالتوجه إلى مقر إمارته لإقرار الأوضاع فيها، إلا أن صليبيي الحصن خافوا من مهاجمته إياهم ثانية، فأرسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الأرتقي وأعلموه برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا، قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود.

---

(١) لا يمين: لا يكذب.
(٢) كتاب الروضتين (١/ ١٤٩).
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٥٦.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠، عماد الدين زنكي ص ١٥٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

وهكذا فقط صليبيو الرها كل حصونهم الواقعة شرقي الفرات [١]، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب وعزاز [٢]، واستطاع نور الدين محمود - فيما بعد - اكتساحها جميعاً، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود [٣].

تاسعاً: من أساليب عماد الدين زنكي في محاربة الصليبيين:

لم يقتصر عماد الدين زنكي، في قتاله للصليبيين على الحروب النظامية، فحسب، إذ كان ذلك يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام، واستنفاد قواه في قتال أعدائه هؤلاء، وعدم تمكنه - بالتالي - من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة في العراق والجزيرة، وأدرك أهمية الاستفادة من الغارات، أي الهجوم والانسحاب السريع، سيما في فترات غيابه عن الشام، ذلك أن هذا النوع من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة، أولاها إقلاق الصليبيين وعدم إعطائهم المجال لإعادة تنظيم قواتهم، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين في المنطقة، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم والاحتفاظ بها، وثانيتها إضعاف قوى العدو العسكرية والاقتصادية، بما تحدثه - هذه الحروب - من قتل وأسر ونهب وتخريب، وثالثة تلك النتائج قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالي الشام، وعدم إعطائهم الفرصة للتجمع وتوجيه ضربة موحدة ضد المسلمين [٤]، وقد اعتمد زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان، ومهد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم وإسناد كبرى المناصب الحربية إليهم، وقد عمل زنكي على توفير القيادة الحاذقة من التركمان مثل ابتكين، ولجة التركي والياروق وغيرهم، والمحاربين الشجعان، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات، وجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والإسلامية على السواء، فهي تتوسط أنطاكية والرها الصليبيتين، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما، كما أنها تعد خير قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين، وقوافل إمدادهم وتموينهم. وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن غارات عديدة ضد جيوش الأعداء ومعسكراتهم، وقوافلهم ومراكز تجمعهم، ولم تخل سنة من سني الصراع من حروب العصابات التي كان يقوم بها هؤلاء التركمان، ويلحقون

---

(١) مفرج الكروب (٩٦/١) عماد الدين زنكي ص ١٥٧.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٥٧.
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٧.
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٨.

- بفضلها - خسائر مختلفة في صفوف أعدائهم، ففي رجب من عام ٥٢٤هـ على سبيل المثال جهز زنكي قوة عسكرية أغارت على عزاز الصليبية وعاثت في بلاد جوسلين أمير الرها [(١)]. وفي العام التالي حدث اشتباك بين سوار وجوسلين، شمالي حلب، أسفر عن انتصار الصليبيين ومقتل عدد من المسلمين، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الأثارب، والاستيلاء على مقادير من أموالهم ومحاصيلهم، ثم ما لبث، بعد عام واحد (٥٢٦هـ) أن أوقع بصليبيي تل باشر وقتل منهم خلقاً كثيراً[(٢)] ولم يتوقف سوار وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما أتيحت الفرصة لذلك، وشهد صفر من عام ٥٢٧هـ عدة اشتبكات بين الطرفين، وقع أحدها بالقرب من قنسرين، أثر قيام بلدوين أمير بيت المقدس بمحاولة للهجوم على أطراف حلب، حيث تصدى له سوار، وجماعة من جنده، وأسفر القتال عن هزيمة المسلمين وانسحابهم إلى حلب، إلا أن قائدهم الشجاع ما لبث أن خرج بهم ثانية ووقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر القتل والأسر، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم وعاد إلى حلب حاملاً معه رؤوس القتلى والأسرى وكان يوماً مشهوداً [(٣)]، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى قام صليبيو الرها بمحاولة جديدة للإغارة على أعمال حلب، فخرج إليهم سوار يصحبه الأمير حسان البعلبكي أمير منبج، وأوقع بهم على حين غرة، وتمكن من إبادة عدد كبير منهم، وأسر الباقين، ثم قفل عائداً إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى[(٤)]. وفي جمادي الآخرة من نفس العام قام سوار على رأس قوة من الفرسان بالإغارة على تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا أنه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس ألف رجل، حملها معه إلى حلب [(٥)]. وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين، على رأس قوة من فرسان أنطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين، واضطر قائد زنكي إلى مصالحتهم، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سراياهم بهجوم سريع وتمكن من قتل معظم أفرادها، ثم قفل عائداً إلى حلب؛ فسر الناس بذلك بعد مساءتهم. ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرها على أطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى أحد المعسكرات الصليبية فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج، وأباد عدداً كبيراً منهم، بينما وقع معظم الباقين في الأسر[(٦)]،

(١) مفرج الكروب (١/ ٤)، عماد الدين زنكي ص ١٥٩.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٦٠.
(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٠ - ٢٤١، عماد الدين زنكي ص ١٦٠
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٦٠.
(٥) المصدر نفسه ص ١٦١.
(٦) زبدة حلب (٢/ ٢٥٢).

ثم ما لبث سوار أن قام – في نفس العام – بغارة واسعة على المواقع الصليبية في منطقة الجزر [1]، وزردنا، وأوقع بأعدائه عند حارم ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب [2]، وأخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً، وشهد رجب من عام ٥٣٠هـ محاولة واسعة قام بها سوار، إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له أي حساب، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى والمزارع الصليبية، ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم، وقد استبشر مسلمو المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذي أحرزه سوار، والذي كان بالنسبة لصليبيي الشمال نكبة لم يمنوا بمثلها [3]. والواقع أن ما شاهدته أنطاكية، خلال عامي ٥٢٩هـ ٥٣٠هـ من فتن داخلية بسبب النزاع على الحكم، أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين[4]، الأمر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبيي الشمال وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغت ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقاً، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها ثم قفل عائداً إلى مقره في حلب [5]، ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب، وبعد أن حققت هذه القوات هدفها، أوكل إليها حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا أن سوار ما لبث أن خرج على رأس قواته وهاجم الحامية الصليبية والبيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور وسادتها الأفراح لهذا النصر الذي حققه أميرها[6]. وفي عام ٥٣٣هـ هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده[7]، واستمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية، وأصابها بعض

(١) الجزر: إحدى كور حلب، معجم البلدان (٢/ ٧١).
(٢) زبدة حلب (٢/ ٢٥٤)، عماد الدين زنكي ص ١٦١.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥ – ٢٥٦، عماد الدين زنكي ص ١٦١.
(٤) الحروب الصليبية، العريني (١/ ٥١٠)، عماد الدين زنكي ص ١٦١.
(٥) عماد الدين زنكي ص ١٦٢، زبدة حلب (٢/ ٢٦٣).
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص ١٦٢.
(٧) زبدة حلب (٢/ ٢٧١)، عماد الدين زنكي ص ١٦٢.

الفتور خلال عامي ٥٣٤ – ٥٣٥هـ أثر فشل زنكي في الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيون والدمشقيون ضده إلا أن هذه المناوشات ما لبثت أن استعرت من جديد في عام ٥٣٦هـ والسنين التي تلته، ففي الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربي حلب، ولدى تفرقهم أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم الدين، أغارت على المواقع الصليبية وتوغلت إلى أسوار أنطاكية، ثم عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب(١)، وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركي على بعض المناطق الصليبية في الشمال فساق وسبى وقتل، وذكر أن عدد القتلى بلغ سبعمائة رجل (٢)، وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقي من أنطاكية، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصي صوب تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر، وأسر الباقين (٣)، وما لبث أمير أنطاكية أن خرج – في العام التالي – للإغارة على وادي بزاعة القريب من حلب، فتصدى له سوار وأجبره على الانسحاب. واستغل جوسلين الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمائة رجل منهم، ثم أرتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها(٤)، وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب، وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية في جمادي الأولى من عام ٥٣٨هـ تحرسها قوة من الفرسان في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة ومعها مال كثير وأموال ومتاع باغتها المسلمون، وأوقعوا بها، وتمكنوا من إبادة كل أفراد القوة التي خرجت لحمايتها، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع قيمة(٥). وفي أواخر ذي القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا وأبادوهم، وأسروا صاحب باسوطا حيث اعتقله سوار في حلب (٦).

عاشراً: حصيلة الدور السياسي العسكري الذي لعبه عماد الدين على مسرح التاريخ الإسلامي:

يمكن القول بأن عماد الدين زنكي استطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانه خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع أدرك

(١) زبدة حلب (٢/ ٢٧٥)، عماد الدين زنكي ص ١٦٢.
(٢) عماد الدين زنكي ص ١٦٣، زبدة حلب (٢/ ٢٧٥).
(٣) زبدة حلب (٢/ ٢٧٦)، عماد الدين زنكي ص ١٦٣.
(٤) عماد الدين زنكي ص ١٦٣.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٨، زبدة حلب (٢/ ٢٧٧ – ٢٧٨).
(٦) زبدة حلب (٢/ ٢٧٨)، عماد الدين زنكي ص ١٦٣.

الخطر الذي أحاط بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة، استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين. وقد اتضح لنا من خلال استعراض علاقة عماد الدين زنكي بالقوى الإسلامية - كإمارات المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والشام، والقبائل الكردية والتركمانية - مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية من خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة في المنطقة، فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقي «محمود بن محمد بن ملكشاه» عام ٥٢٢هـ منشوراً يقر سلطته الشرعية على الموصل والجزيرة والشام، وقد تأكد هذا المنشور خلال الأعوام التالية، إلا أنه لم يكن كافياً لتثبيت سلطته الفعلية في هذه الفترة التي استطاع فيها عدد كبير من الأمراء أن يفرضوا سلطتهم على عدد لا يحصى من المدن والأقاليم، مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية ومستفيدين من مجموعة من العوامل الشخصية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والبشرية، فكان لابد لزنكي -إذن- من إخضاع هذا العدد الكبير من السلطات المتمركزة في المنطقة، ومن اختيار أسلوب الهجوم، منذ البداية بالرغم مما يحيق بهذا الأسلوب من أخطار أولها احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من هؤلاء الأمراء وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومي، كما حدث بالنسبة للأراتقة. وثاني تلك الأخطار عدم وجود خط رجعة في حالة انكساره أو انسحابه أمام الأمراء المحليين الذين كانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. إلا أنه لم يأبه لهذه الأخطار، وراح يهاجم الأمراء المحليين منذ البداية، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية، واطمئنانه إلى قاعدة شعبية تحبه وتخلص له لمواقفه السابقة تجاه الصليبيين، قبل أن يتولى الحكم في الموصل، كما ساعده على ذلك منشور السلطان، آنف الذكر، بتسلم الموصل والجزيرة والشام، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكي في الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها، والتوسل بأية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف [1]، لكن الأهم من ذلك كله ما تمتع به زنكي من مقدرة سياسية وعسكرية وما تميز به من نظر بعيد. ذلك أنه عرف - منذ البدء - أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الأمراء المحليين فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد إمارته، لقربها منها، ولاستراتيجية مواقعها إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، لانحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية سلاسل جبلية وأنهار متشابكة

---

(١) عماد الدين زنكي ص ١٦٥.

وحصون منيعة. كما أن السياسة الانعزالية التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف، هذا في الوقت الذي كان على زنكي فيه أن يعمل على إزالة العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة، المبعثرة، في جبهة إسلامية موحدة-تستطيع أن توقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين. هذه العوامل التي دفعت زنكي إلى اتباع سياسة الهجوم، والتي تخللتها أحياناً علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمر فيه، وفي نفس الوقت عمل زنكي على تأمين حدود إمارته باتجاه الشرق والشمال الشرقي، حيث يشكل الأكراد والتركمان في هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد إمارته، لاسيما عند تأزم علاقاته بالإمارات الغربية، أو عند توغله بعيداً عن مقره في الموصل [1]. ومن ثم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين ٥٠٢ - ٥٠٧هـ وايلغازي وبلك الأرتقيين ٥١٢ - ٥١٨هـ وآق سنقر البرسقي ٥١٨ - ٥٢٠هـ [2]، ومن المرجح أنه لو تمكن زنكي من فتح دمشق وإنجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يقتل - وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين - لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذي قام به في التاريخ الإسلامي، وهو دور فاصل تتضح خطورته، إذا عرفنا أن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين لم تكن جهودهما سوى إتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق [3].

الحادي عشر: الأيام الأخيرة من حياة عماد الدين زنكي:

١- تهنئة عماد الدين بالشفاء من مرض عرض له: في عام ٥٤٠هـ أنشد ابن المنير بالرقة قصيدة في عماد الدين زنكي، يهنّئه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قال فيها:

يا بدرُ لا أُفْلٌ ولا مُحَاق [4]، ولا يَرِم [5] مشرقك الإشراق

بالدِّين والدُّنيا الذي تشكو هول يهتز فرعٌ لم يُقِمه ساق

(١)(٢)(٣) عماد الدين زنكي ص ١٦٦م /

(٤) لا أفق ولا مجال وهو وهم. (٥) لا يَرِم : يبرح.

لـن تُـورِق القُضْـب ويجـري ماؤهـا فيهـــا إذا التاثـــت الأعـــراق
إن الرّعايـا مـا سـلمت في حمًـى للخطــب عــن طُرُوقــه إطــراق
غرسـت بالعـدل لهـم خمـائلاً ترتـــع في حـــديقها الجِـــداقُ
ياهضـبة الـدين الـتي عاذبهـا فعـــاد لا بغـــت ولا إرهـــاق
لـو لم تُحطُـه راحـلاً وقـافلاً أصـــبح لا شـــام ولا عِـــراق
عمـاد الـدين مُـذ أقـام زيغَـهُ حـــيٌّ ومـــات الشّـــركُ والنفـــاق
يـا محيـي العـدْل الـذي في ظلِّـه تســـربَلَتْ زينَتَهـــا الأفـــاق
يَفـديك مـن لان مِهـادٌ جنبـه لمـــا نبـــا بجنبـــك الإقـــلاقُ
مـن يشَـبَا سـيفك[1] أنبطـت[2] لـه العـــذْب ومـــاء عيشـــه زُعـــاقُ[3]
تجـرَّع السُّـمَّ ولـو لم تحمـه بجـــده لعـــزه الـــدّرياق[4]
ملـوك أطـراف حمـى أطرافهـا عزمـــك هـــذا اللاّحـــق السَّـــبّاقُ
لـو لم تـرق مـاءَ كـرى العـين لمـا ســـاغت بـــأفواههم الأريـــاق[5]
شـققتَ مـن دونهـم مـوج الـرّدى وشـــقَّ أكبـــادَهُمُ الشـــقاق
أقسـم لـو كلَّفـتهم أن يسـمعوا حـــديث أيامـــك مـــا أطـــاقوا
لمـا اشـتكيت دبَّ في أهـوائهم تـــوجّسٌ للســـمع واســـتِراق
تطـاولوا لا عـدمت آمـالُهم قصـــراً ولا جانبهـــا الإخفـــاق
توهَّمُوهـا غَسَـقاً ثـم انجلـت والصَّـــفْو مـــن مشـــربهم غَسَّـــاق[6]
لـئن لَـمَّ ألَـمَّ يقـدم خَـــدُّ السُّـــها[7] لنعلـــها طـــراق
أو كـان مـدَّ يَـدَهُ إلى يـدٍ تجـــري بهـــا الآجـــال والأرزاق
فالنَّصْـل يُغْلَـى صَـدأً وتحتـه حـــدٌّ حســـام وســـنا رقـــراق
رمـى الصَّـليبَ بصـليب الـرَّأي عـن زوراء أوْفـــى[8] نزعهـــا الإغـــراق

(١) أي بحد سيفك. (٢) انبطت : أي استخرجت.
(٣) ماء زعاق : مر غليظ لا يطاق شربه من أجوجته.
(٤) الدّرياق : لغة في الترياق، فارسي معرب وهو يستعمل لدفع السم.
(٥) الأرياق : مفردها ريق وهو اللعاب.
(٦) الغساق : ما يسيل من صديد أهل النار وغُسالتهم.
(٧) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. (٨) في النسخ الخطية : أوهى.

ونـــوم مَـــنْ خلـــف الخلـــيج سَـــهَرٌ | والعـــــيش في فرنجـــةٍ ســـــياق [1]
مـــاتوا فـــلا همـــسٌ ولا إشـــارة | خــــوف همــــوس زأره إزهـــاق
لا سَـلَبَتْ منـك اللّيـالي مـا كسـت | ولا عَـــرًا [2] جـــدُّك الإخـــلاق [3]

٢- مقتله: ٥٤١هـ: تجمع المصادر على أن زنكي اغتيل ليلة الخامس من ربيع الآخر عام ٥٤١هـ خلال حصاره لقلعة جعبر، عندما انقض عليه – وهو نائم – غلام أو عدة غلمان من مماليكه المقربين الذين كانوا يقومون على حراسته أثناء نومه، وقد هربوا – بعد قتله – إلى القلعة ونادوا أصحابها بحقيقة الأمر ففتحوا لهم الأبواب، وأنه ما أن انتشر نبأ الاغتيال في معسكره حتى اضطرب وتشتت وسادته الفوضى، فلم يـر قادته بداً من فك الحصار والرحيل[4]. قال ابن الأثير:.. ختم الله له بالشهادة في أعماله.

لاقـــى الحِمـــام ولم أكـــن مُســـتَيقناً | أنَّ الحِمـــام سُـــيُبْتَلَى بحِمـــامِ

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للإسلام أفل، وأي ناصر للإيمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غرب، وأي أسد افترس ولم يُنْجِهِ قُلَّة [5] حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدّبها [6] في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم، ومقسيها في الحَدَث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهوراً، وبعد وثير المضاجع في التراب معفراً مقبوراً، رهين جَدَثٍ لا ينفعه إلا ما قدم، قد طويت صحيفة عمله فهو موثوق في صورة مستسلم [7].

وقد اختلفت المصادر في تفاصيل عملية القتل وهوية القاتل وسبب القتل، فمن حيث تفاصيل عملية القتل يشير العماد الأصفهاني إلى أن عماد الدين زنكي إذا نام ينام حول سريره عدة من خدامه، يشفقون عليه في حالتي يقظته ومنامه ويذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه ويزورونه زور الخيال في أحلامه وهو يحبّهم أعمق الحب.. ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم وهم أبناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه وأقصاه واستبقى ولده وخصاه... فهم على أنهم من ذوي الاختصاص ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص، فنام تلك الليلة وحوله مماليكه، فانتبه وهم قد شرعوا في

(١) السياق: نزع الروح عند الموت. (٢) في الأصل: عرق.
(٣) أخبار الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٥٣).
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤، عماد الدين زنكي ص ١٨٣.
(٥) القلة: أعلى الجبلة، وقلة كل شيء أعلاه. (٦) كتاب الروضتين أخبار الدولتين (١/ ١٥٤).
(٧) المصدر نفسه (١/ ١٥٥).

اللعب، وأخذوا في الطرب، فزجرهم وتوعدهم وهم ساكتون، لكن كبيرهم المدعو «يرنقش» أسر ذلك في نفسه، وراح ينتظر الفرصة للأخذ بثأره، وما أن عاد سيده إلى النوم ثانية حتى أسرع إليه، وبرك عليه، وذبحه، واستطاع - إثر ذلك - أن يتسلل من المعسكر إلى أسوار جعبر، دون أن يشك أحد فيه باعتباره كبير حراس زنكي، وهناك أخبر أهل القلعة وحراسها بما أقدم عليه، وأراهم الأدلة والعلامات[1]، فأسرعوا بإشاعة الخبر في داخل القلعة وبين صفوف قواته كي يشيعوا الاضطراب فيها ويجبروها على الانسحاب، وقد نجحوا في ذلك[2]، ويتفق كل من ابن القلانسي وسبط بن الجوزي مع العماد الأصفهاني في هذه الرواية مع اختصار وحذف بعض التفاصيل[3]. وأما ابن العديم فإنه يذكر أن زنكي تهدد يرنقش خلال النهار، فخاف الأخير منه وأسرع باغتياله ليلاً [4]. وأما من حيث هوية القاتل فيشير كل من ابن القلانسي ورنسيمان وأليسييف إلى أن القاتل كان من أصل إفرنجي أما حسن حبشي فيقول: ولعل القاتل كان باطنياً[5]، ومن حيث سبب القتل فيبدو أن صاحب قلعة جَعْبَر هو الذي حرض على قتله كي يتخلص من الحصار، وأنه كان على صلة بالقاتل بدليل ما أورده ابن العديم من أن حساناً البعلبكي، صاحب منبج، تقدم إلى أسوار القلعة ونادى على ابن مالك وقال له: يا أمير علي، إيش بقى يخلصك من أتابك؟ فقال له: يا عاقل، يخلصني الذي خلصَّك من حبس بلك، يعني حين قُتل بلك على منبج وخلص حسان، يضاف إلى ذلك أن يرنقش التجأ إلى القلعة بعد حادثة الاغتيال[6]. والراجح أن يرنقش نفَّذ عملية الاغتيال مدفوعاً بثلاثة عوامل: شخصية ونفسية وسياسية [7].

أما العامل الشخصي: فيتمثّل بتهديد عماد الدين زنكي له وخشيته عاقبة هذا التهديد، فأسرع باغتيال سيده دفاعاً عن نفسه، **ويتجلى تأثير العامل النفسي** في انزعاج يرنقش من معاملة عماد الدين زنكي القاسية له وزجره إياه ثم شعوره العميق بما أصابه من ظلم[8]، ولعب إحساسه بمرارة الإهانة دوره، فاندفع لحماية كرامته وذبح سيده، ويصور الأصفهاني حركات يرنقش أثناء الاغتيال بالشكل الذي يبرز أثر الانفعال النفسي فيها: فأسرع إلى زنكي، وبرك عليه وذبحه في نومه[9].

(١) عماد الدين زنكي ص ١٨٣، تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٠.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٦٠. (٣) المصدر نفسه ص ١٦٠.
(٤) زبدة حلب (٢/ ٢٨١ - ٢٨٢)، عماد الدين زنكي ص ١٨٤.
(٥) نور الدين والصليبيون ص ٤٠، تاريخ الزنكيين ص ١٨٤. (٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٦٠.
(٧) المصدر نفسه ص ١٦٠، عماد الدين زنكي ص ١٨٤. (٨) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٦١.
(٩) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٩ - ١٩٠، عماد الدين زنكي ص ١٨٥.

وأما الدافع السياسي للاغتيال فيقوم على وجهين **أولهما** اتفاق يرنقش – سراً – مع أصحاب قلعة جعبر لاغتيال عدوهم وإنهاء أزمتهم، بعد أن كاد حصنهم يوشك على الاستسلام، ويدخل ضمن هذا الاحتمال كون يرنقش ذا ميول باطنية، وربما تسلل إلى خدمة زنكي منذ زمن بعيد، لتحقيق هدفه هذا، كعادة الباطنية في التستر والانتظار الطويل لتنفيذ اغتيالاتهم لكبار الشخصيات السياسية السنية التي كانت تشكل خطراً على دعوتهم، خاصة إذا ما عرفنا العطف الذي كان يبديه أمراء جعبر تجاه الباطنية. **أما ثاني** الاحتمالين السياسيين فكون يرنقش ذا أصل «إفرنجي» كما أكدّ ابن القلانسي وابن واصل ورنسيمان، ويحتمل أن يكون قد أقدم على فعلته إما باتفاق سري مع الصليبيين أو بدافع شخصي مرتجل يعود إلى حرصه على مصالح قومه التي بدأ زنكي يوجه إليها ضربات حاسمة ولا نستطيع الجزم بأى من هذه الدوافع الثلاثة لاغتيال زنكي، ذلك أن المصادر كما رأينا – لم تعط القول الفصل في هذا المجال، ومن الخطأ الاعتقاد بأن يرنقش ذا الأصل الفرنجي اغتال سيده – وهو في قمة انتصاره على الجبهتين الصليبية والإسلامية – بدافع شخصي أو نفسي محض، ولا ريب أن وراء هذا الاغتيال الخطير، في هذه المرحلة الصعبة، دوافع سياسية أبعد مدى وأشد خطورة، ربما تعود إلى الأصل الفرنجي للقاتل، أو إلى ميوله الباطنية، وربما تعود إلى اتفاقه سراً مع أمراء قلعة جعبر لقاء ما منوه به، إذا أتم تخليصهم من عماد الدين زنكي الذي غدا قاب قوسين أو أدنى من اجتياح حصنهم. واتجه القاتل، بعد أن اغتال زنكي، إلى أسوار قلعة جعبر بسكينه الملطخ بالدم، وصاح في الحرس شيلوني فقد قتلت زنكي، فلم يصدقوه، فأراهم السكين، وعلامة أخرى، كان قد أخذها من سيده وعند ذلك أصعدوه إلى القلعة وتحققوا صدق ما كان يقول [1]، وعندما بشر صاحب جعبر بالنبأ لم يصدقه أول الأمر وآوى يرنقش إلى القلعة وأكرمه، وعرف حقيقه الأمر، فسر بذلك واستبشر بما أتاه من الفرج بعد الشدة الشديدة [2]، ويشير ابن العديم إلى رد الفعل الذي أحدثه القاتل في أهل القلعة، فعندما ناداهم: إني قتلت زنكي، أجابوه: اذهب إلى لعنة الله، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله[3]، ولم يقبض القاتل ثمناً لخيانته إلا المطاردة والخوف، ذلك أن حكام جعبر قاموا بطرده بعد وقت قصير من التجائه إليهم، ولم يكافئوه على عمله ربما خوفاً من قيام نور الدين محمود زنكي، أمير حلب بالانتقام منهم لأبيه، وأخيرًا تم القاء القبض على القاتل، وأرسل مخفوراً إلى الموصل حيث قتل هناك [4].

---

(١) (٢) (٣) عماد الدين زنكي ص ١٨٦.

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٧.

وعندما انتشر خبر اغتيال زنكي في معسكره انقسم إلى قسمين: اتجه أحدهما إلى حلب بقيادة نور الدين محمود واتجه القسم الآخر إلى الموصل بقيادة جمال الدين الأصفهاني حيث قام هو وكبار الأمراء بتنصيب سيف الدين غازي أميراً على الموصل [1]، وحملت جثة زنكي إلى الرقة حيث دفنت في مشهد هناك في منطقة قبور شهداء صفين [2].

٣- ما قيل في مقتل عماد الدين زنكي من شعر: اضطربت الأمور بعد مقتل عماد الدين واختلت المسالك بعد الهيبة المشهورة، والأمنة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحراميَّة في الإفساد في الأطراف والنواحي. وقال أبو يعلى التميمي في صفة هذا الحال أبياتاً:

كـذاك عمـاد الـدين زنكـي تنـافرت ... سـعادته عنـه وخـرَّت دعائمـه
وكـم بيـت مـال مـن نُضـارٍ وجـوهر ... وأنـواع ديبـاج حوتهـا مخاتمـه
وأضـحت بـأعلى كـلِّ حصـن مصـونةً ... يحـامي عليهـا جنـده وخوادمـه
ومـن صـافنات الخيـل كـلُّ مُطهَّـم ... يـروع الأعـادي حَلْيُـه وبراجمـه
فلـو رامـتِ الكُتَّـاب وصـف شـياتها ... بأقلامهـا مـا أدرك الوصـف ناظمـه
وكـم معقـل قـد رامـه بسـيوفه ... وشـامخ حصـن لم تفتـه غنائمـه
ودانـت ولاة الأرض فيهـا لأمـره ... وقـد أمَّنـتهم كُتْبُـه وخواتمـه
وأمَّـن في كـل قطـر بهيبـة ... يُـراع بهـا أعرابـه وأعاجمـه
وظـالم قـوم حـين يُـذكر عَدْلُـه ... فقـد زال عـنهم ظُلْمُـه وخصـائمه
وأصـبح سـلطان الـبلاد بسـيفه ... ولـيس لـه فيهـا نظـير يزاحمـه
وزاد علـى الأمـلاك بأسًـا وسـطوة ... ولم يبـق في الأمـلاك ملـك يقاومـه
فلمـا تنـاهى ملكـه وجلالـه ... وراعـت وُلاةَ الأرضِ منـه لوائمـه
أتـاه قضـاء لا تُـردُّ سـهامه ... فلـم تُنْجِـه أموالـه ومغانمـه
وأدركـه للحـين فيهـا حِمامـهُ ... وحامـت عليـه بـالمنون حوائمـه
وأضـحى علـى ظهـر الفـراش مُجـدلا ... صـريعاً تـولَّى ذبحـه فيـه خادمـه
وقـد كـان في الجيـش اللُّهـام [3] مبيتـه ... ومـن حولـه أبطالـه وصـوارمُه

---

(١) (٢) عماد الدين زنكي ص ١٨٧.

(٣) اللُّهام: أي الكثير، كأنه يلتهم كل شيء.

وسُمْرُ العوالي حَوْلَهُ بأكُفهم تذود الرّدى عنه وقد نام نائمه
ومن دون هذا عُصبةٌ قد ترتَّبت بأسهمها بُرْدى من الطير حائمه
وكم رام في الأيام راحة سره وهمَّتُه تعلو وتقوى شكائمه
وكم مَسْلكٍ أمّن سُبْلَه ومسرح حَيٍّ أن تراع سوائمه
وكم ثغرِ إسلام حماه بسيفه من الروم لما أدركته مراحمه
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله وتنفذ في أقصى البلاد مراسِمُه
فلو رُقيت في كلّ مصر بذكره أراقمه ذلَّتْ هناك أراقِمُه[1]
فمن ذا الذي ينجو من الدَّهر سالماً إذا ما أتاه الأمر والله حاتِمُه
ومن رام صفواً في الحياة فما يرى له صَفْوَ عَيْشٍ والحِمَامُ يحاومه
فإيَّاك لا تغبط مليكاً بملكه ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه
وقل للذي يبني الحصون لحفظه رُويدك ما تبني فدهرك هادمه
وفي مثل هذا عبرة ومواعظ بها يتناسى المرء ما هو عازمه[2]

وقال الحكيم أبو الحكم المغربي قصيدة في رثاء عماد الدين جاء فيها:

عينُ لا تدخري الدموع وبَكّي واستهلّي دماً على فقد زنكي
لم يَهَب شخصه الرّدى بعد أن كانت له هيبة على كل تُركي
خيرُ مَلكٍ ذي هيبة وبهاء وعظيم بين الأنام بُزُزْكِ
يَهَبُ المال والجياد لمن يمّمه مادحاً بغير تلكّي
إنّ داراً تمدُّنا بالرّزايا هي عندي أحقُّ دار بترك
فاسْكُبوا فوق قبره ماء وَرْدٍ وانضحُوهُ بزعفران ومسك
أي فتكٍ جرى له في الأعادي بعد ما استفتح الرُّها أي فتكِ
كل خطب أتت به نُوَبُ الدهر يسيرُ في جنب مصرع زنكي
بعد ما كاد أن تدين له الرُّوم ويحوي البلاد من غير شكّ[3]

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٦٥).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١٦٦).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١٦٧).

٤- فوائد متنوعة من البداية والنهاية في عهد إمارة عماد الدين زنكي:

١- في سنة ٥٢٣هـ قال ابن كثير: في هذه السنة قتل صاحب دمشق من الباطنية ستة آلاف، وعلّق رأس كبيرهم على باب القلعة وأراح الله أهل الشام منهم، وفيها حاصرت الفرنج مدينة دمشق فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم قتالاً شديداً، وبعث أهل دمشق عبد الوهاب الواعظ ومعه جماعة من التجار إلى بغداد يستغيثون بالخليفة، وهموا بكسر منبر الجامع حتى وعدوا بأنهم سيكتبون إلى السلطان ليبعث جيشاً كثيفاً نصرة لأهل الشام، فلم يُبعث إليهم جيش حتى نصرهم الله من عنده، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم عشرة آلاف، ولم يفلت منهم سوى أربعين نفساً ولله الحمد والمنة وقتل بَيْمَنْدُ الفرنجي صاحب أنطاكية [(١)].

٢- وفي أحداث عام ٥٢٤هـ: فيها كانت زلزلة عظيمة بالعراق تهدمت بسببها دور كثيرة ببغداد، ووقع بأرض الموصل مطر عظيم فسقط بعضه ناراً تأجّجُ، فاحترقت دُور كثيرة من ذلك وتهارب الناس، وفيها وجد ببغداد عقارب طيّارة لها شوكتان، فخاف الناس منها خوفاً شديداً، وفيها ملك عماد الدين زنكي بلاداً كثيرة من الجزيرة، ومن بلاد الفرنج، وجرت له معهم حروب طويلة، وخطوب جليلة، ونُصر عليهم في تلك المواقف كلها، ولله الحمد والمنة، وقتل خلقاً من جيش الروم حين قدموا إلى الشام ومدحه الشعراء على ذلك [(٢)].

٣- وفي عام ٥٢٤هـ توفي إبراهيم بن عثمان، أبو إسحاق الكَلْبي من أهل غزّة، جاوز الثمانين، وله شعر جيد ومن شعره في الأتراك قوله:

في فتنة من جيوش الترك ما تركت ... للرَّعدِ كَرَّاتُهُمْ صوتاً ولا صيتا
قوم إذا قُوبلوا كانوا ملائكة ... حُسناً وإن قُوتِلُوا كانوا عفاريتا [(٣)]

وله أيضاً:

إنَّما هذه الحياةُ متاعٌ ... والسَّفيهُ الغَوِيُّ من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمَّلُ غَيْبٌ ... ولك الساعة التي أنت فيها [(٤)]

٤- وفي سنة ٥٢٥هـ توفي أحمد بن محمد، أبو نصر الطوسي سمع الحديث وتفقه بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان شيخاً لطيفاً عليه نور، قال ابن الجوزي أنشدني:

فإن نلت خيراً نِلْتَهُ بعزيمة ... وإن قصَّرَت عنك الخطوب فعن عُذرِ [(٥)]

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٦٧).
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٢٨٤).
(٣) المصدر نفسه (١٦/ ٢٨٥).
(٤) المصدر نفسه (١٦/ ٢٨٦).
(٥) المصدر نفسه (١٦/ ٢٨٩).

قال: أنشدني أيضاً:

لبستُ ثوب الرّجا والناس قدَ رقدُوا ... وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلتُ يا ياعُدَّتي في كلّ نائبة ... ومن عليه لكشف الضُّرّ أعتمدُ

وقد مددت يدي والضُّرُّ مُشتملٌ ... إليك يا خير من مُدَّت إليه يُد

فلا تُردَّنّها يا رَبُّ خائبة ... فبحرُ جُودِك يرْوِى كل من يَرد [1]

٥- وفي سنة ٥٢٧هـ: اقتتل الفرنج فيما بينهم قتالاً شديداً فمحق الله منهم خلقاً كثيراً، وغزاهم فيها أيضاً عماد الدين زنكي فقتل منهم ألف قتيل وغنم أموالاً جزيلة، ويقال لها: غزاة أسوار[٢]. وفي نفس السنة توفي محمد بن أحمد بن يحيى، أبو عبدالله العثماني الدّيباجي، وكان ببغداد يُعرف بالمقدسي وتفقه ووعظ الناس ببغداد، قال ابن الجوزي: سمعته ينشد في مجلسه قوله:

دَعْ جفوني يَحِقُّ لي أن أنوحَا ... لم تَدَعْ لي الذُنُوبُ قلباً صحيحاً

أخْلَقَتْ بهجتي أكف المعاصي ... ونعاني المشيب نعياً فصيحاً

كلما قُلتُ قد بَرا جُرحُ قلبي ... عاد قلبي من الذنوب جَريحاً

إنما الفوز والنعيمُ لعبد ... جاء في الحشر آمناً مُستَرِيحا [٣]

٦- وفي سنة ٥٣٣هـ: توفي علي بن أفلح الكاتب وقد خلع عليه المسترشد الخليفة العباسي ولقّبه جمال الملك وأعطاه أربعة دور، وكانت له دار إلى جانبهن فهدمهن كلّهنّ واتخذ مكانهن داراً هائلة طولها ستون ذراعاً في عرض أربعين، وأطلق له الخليفة أخشابا وآجُرًا وذهباً فبناها، وغرم عليها ابن أفلح مالا جزيلاً، وكتب على أبوابها وطرازاتها أشعارًا حسنة من نظمه ونظم غيره فكان على الطُرُزِ مكتوب [٤]:

ومن المروءة للفتى ... ما عاش دار فاخرة

فاقنع من الدنيا بها ... واعمل للدار الآخرة

هاتيك وافية بما ... وعدت وهذي ساحرة [٥]

وفي موضع آخر مكتوب:

ونادٍ كأنّ جنانَ الخلود ... أعادته من حُسْنِها رَوْنَقَا

---

(١) (٢) البداية والنهاية (١٦/ ٢٨٩).

(٣) المصدر نفسه (١٦/ ٢٩٨).

(٤) (٥) المصدر نفسه (١٦/ ٣٢٣).

وأعطتــه مــن حادثــات الزمــان أن لا تُلِـــمَّ بـــه موثقـــا
فأضــحى يتيــه علــى كــلِّ مــا بُـــني مغرِبـــاً كـــان أو مشـــرقاً
تظـــلُّ الوفـــود بـــه عُكَّفـــاً وتُمســـى الضـــيوف بـــه طُرَّقـــاً
بقيـــتَ لــــه يـــا جمـــال الملـــوك والفضـــل مهمـــا أردت البقـــا
وســـالمه فيـــك ريـــب الزمـــان ووُقِّيـــت منـــه الـــذي يُتَّقـــى

فما صدقت هذه الأماني، بل عمّا قريب – بعد نيلها – اتُّهم الخليفة ابن أفلح بأنه يكاتب دُبَيساً، فأمر بتخريب هذه الدار، فلم يبق فيها جدار، وصارت خرابة بعد ما كان قد حَسُن منها المقام والقرار، وهذه حكمة من يقلِّبُ الليل والنهار وتجري بمشيئته الأقدار[1].

٧- وفي سنة ٥٣٥هـ : توفي محمد بن عبد الباقي بن محمد بن كعب بن مالك الأنصاري وكان مشاركاً في علوم كثيرة وقد أُسر في صغره في أيدي الروم، فأرادوه على أن يتكلم بكلمة الكفر فلم يفعل، وتعلم منهم خط الروم، وكان يقول: من خدم المحابر خدمته المنابر، ومن شعره الذي أورده ابن الجوزي عنه وسمعه عنه قوله:

احفـــظْ لســـانك لا تَـــبُحْ بثلاثـــة ســـنّ ومـــال مـــا اســتطعت ومــذهب
فعلـــى الثلاثـــة تُبْتَلَـــى بثلاثـــة بمُكفِّــــرٍ وبحاســـــد ومُكـــــذّب

ومن ذلك قوله:

لـــي مُـــدَّة لابُـــدَّ أبلغهـــا فـــإذا انقضـــت وتصـــرمت مِـــتُّ
لـــو عانـــدَتني الأسُـــدُ ضـــاريةً مـــا ضـــرني مـــالم يَجـــي الوقـــت[2]

ومن ذلك قوله:

بغـــدادُ دارٌ لأهـــل العلـــم طيبـــةٌ وللمفـــاليس دار الضَّـــنْك والضِّـــيقِ
ظللـــت حـــيران أمشـــي في أزقتهـــا كـــأنني مصـــحفٌ في بيـــت زنـــديق[3]

قال ابن الجوزي: بلغ من العُمر ثلاثاً وتسعين سنة لم تَتَغَيَّر حواسه ولا عقله، وكانت وفاته ثاني رجب من هذه السنة، وحضر جنازته الأعيان والناس ودفن قريباً من قبر بشر[4].

* * *

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٣٢٤).
(٢) المصدر نفسه (١٦/ ٣٢٩).
(٣) (٤) المصدر نفسه ص (١٦/ ٣٣٠).

الفصل الثاني

عهد نور الدين زنكي وسياسته الداخلية

المبحث الأول

اسمه ونسبه وأسرته وتوليه الحكم

هو نور الدين محمود زنكي، صاحب الشام، الملك العادل، ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد – عماد الدين – زنكي بن الأمير الكبير آق سنقر التركي السلطاني الملكشاهي، مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمس مئة [1]، وهم ينتسبون إلى قبيلة ساب يو التركية، ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة نور الدين وشبابه، ولكنها جميعاً تؤكد أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده، وأن والده كان يقدمه على إخوانه ويرى فيه مخايل النجابة [2]، ولما جاوز الصبا لزم والده حتى مقتله ٥٤١هـ/ ١٠٤٧م[3]. وكانت حياة عماد الدين في فترة حكمه الموصل من ٥٢١هـ -٥٤١ هـ مدرسة عليا شاملة لجميع أنواع المعارف الإنسانية في مجالات العلوم السياسية والإدارية والعسكرية بالإضافة إلى العلوم الشرعية الدينية وقد جمعت مدرسة الحياة الكبرى التي عاش فيها نور الدين بين الأسلوب النظري والتطبيقي[4]. وقد تزوج نور الدين عام ٥٤١هـ -الزواج الذي لم تكن من ورائه جارية ولا سرية- من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين حاكم دمشق، بعد أن ترددت المراسلات بين الرجلين واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما وكتب كتاب العقد في دمشق، بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وما أن تم إعداد الجهاز حتى قفل الوفد عائداً وبصحبته ابنة معين الدين [5]، وخلف نور الدين من زوجته هذه ابنة واحدة وولدين هما الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر، من جراء مرض ألم به عام ٥٧٧هـ وأحمد الذي ولد بحمص عام ٥٤٧هـ تم توفي في دمشق طفلاً [6]. وقد ذكر ابن منير في أشعاره تهنئته

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٣١).

(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص ٧٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣. (٤) المصدر نفسه ٨٨ ، ٨٩.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ – ٢٨٩، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٨.

(٦) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٨.

لنور الدين بمولده الجديد فقال:

وجئــت بأحمــد فمــلأت حمــداً مــوارد كــان معــدنها عــذابا

تهلــل وجــه مُلــك يــوم أهــدت قوابلــه لــك المَلِــك اللبابــا

شــبيهك لا يغــادر منــك شــيئاً ســنًا وحيــاً وبــذلاً واســتلابا

قســيم الحمــدِ إلا أنّ حرفــاً مــن اسمــك زاد للمعنــى منابــا

ألا لله يــــوم فُــــرّ عنــــه وركــب نــصّ بالبشــرى الركابــا [1]

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته وابنه الأكبر، فكانت زوجته تكثر القيام في الليل، ونامت ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين حينذاك للقيام، ومنح الضاربين أجراً جزيلاً [2]، وصفها المؤرخون بأنها كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، وكانت لها أوقاف وصدقات كثيرة وبر عظيم [3]، وقد ذكر ابن كثير في أحداث عام ٥٦٣هـ: وفي شوال وصلت امرأة الملك نور الدين محمود زنكي إلى بغداد تريد أن تحجَّ من هناك، وهي الستُّ عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر، فتلقاها الجيش ومعهم صندل الخادم، وحملت لها الإقامات وأُكرمت غاية الإكرام[4]. وعرف عن الصالح إسماعيل تقواه العميقة والتزامه الأخلاقي المسؤول حتى رفض الأخذ برأي الأطباء في شرب شيء من الخمر عندما ألحّت عليه علة القولنج التي أودت بحياته. وقال: لا. حتى أسأل الفقهاء، فلما أفتوه بالجواز لم يقبل وسأل كبيرهم: إن الله تعالى قرب أجلي، أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا. فأجابه: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم علي [5].

أولاً: انقسام الدولة الزنكية بعد مقتل عماد الدين زنكي:

عندما قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ كان ابنه الأكبر سيف الدين غازي مقيماً بشهرزور وهي إقطاعه من قبيل أبيه، بينما كان نور الدين محمود وهو الابن الثاني لعماد الدين مع أبيه عند قلعة جعبر، وبعد أن شهد مصرع أبيه أخذ خاتمه من يده وسار ببعض العساكر إلى

(١) كتاب الروضتين (١/ ٢٢١).
(٢) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٤٩.
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٩.
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٤٢٥).
(٥) الباهر ص ١٨٢، نور الدين محمود ص ٤٩.

حلب، فملكها هي وتوابعها في ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م [١]، وكان عمره ثلاثين سنة، كما كان مع زنكي أيضاً على قلعة جعبر الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود السلجوقي، وكان زنكي يظهر أنه يحكم البلاد باسمه منذ سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م حيث اصطحبه معه إلى الموصل بأمر من السلطان محمود[٢]. وقد ذكر المؤرخون أن الملك ألب أرسلان حاول أن يحل محل زنكي في ملك البلاد وأن يبعد أولاده عنها، فجمع العساكر وأعد العدة للتوجه إلى الموصل بقصد الاستيلاء عليها، ولكن الوزير جمال الدين الأصفهاني[٣]، قام بدور كبير في الحفاظ على الدولة الزنكية وإبقائها في أيدي أولاد صاحبه وولي نعمته عماد الدين زنكي، فما أن شعر بقصد الملك ألب أرسلان حتى بادر بالاتصال بالأمير صلاح الدين محمد الياغسياني، حاجب عماد الدين متناسياً ما كان بينهما من خلاف، فاتفقا على حفظ الدولة لأولاد زنكي وإبعاد الملك ألب أرسلان السلجوقي [٤] عنها، حيث أرسل الوزير جمال الدين إلى صلاح الدين الياغسياني يقول له: إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقاً يبقى فيه الملك في أولاد صاحبنا، ونهر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك (ألب أرسلان) قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أوله، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخرْق ولا يمكن رقعه، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبه[٥]. وكان أول عمل قام به جمال الدين، وصلاح الدين أن أرسلا رسولاً على وجه السرعة إلى زين الدين علي كُجَك نائب زنكي في الموصل يخبرانه بما حصل لزنكي فسارع سيف الدين غازي للحضور من شهرزور إلى الموصل لتسلم الحكم فيها وتسلمها قبل أن يتمكن ألب أرسلان السلجوقي من الوصول إليها [٦]، أما الملك ألب أرسلان السلجوقي فقد تكفل الوزير جمال الدين الأصفهاني بإلهائه ومخادعته ريثما تستتب الأمور لسيف الدين غازي في الموصل، وظلّ يتنقل من مكان إلى آخر بالجزيرة حتى تفرق معظم أصحابه عنه، ثم اتجه إلى الموصل فقبض عليه وأودع السجن ولم يأت له ذكر بعد هذا التاريخ [٧].

وهكذا انقسمت الدولة الزنكية بعد مقتل مؤسسها عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة ونور الدين محمود الذي حكم مدينة حلب وما جاورها

(١) زبدة حلب (٢/ ٢٨٥)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢.
(٢) الباهر ص ٧١ ، ٧٢، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢.
(٤) نهاية الأرب نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٣.
(٥) الباهر ص ٨٤ ، ٨٥.
(٦) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩١، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤.
(٧) مفرج الكروب (١/ ١٠٩).

من مدن الشام، أما أخوهما نصرة الدين أمير أميران [1]، فقد حكم حران تابعاً لأخيه نور الدين محمود، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين مودود لا يزال في رعاية أخيه سيف الدين غازي بالموصل. وكان نهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين وأدّى الوضع الجغرافي الشرقي إلى أن:

- يرث غازي الأول المشاكل الداخلية، مع كل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في العراق.

- يحمي حدود الإمارة من غارات سلاجقة فارس.

- يحمي ثغور الإمارة الشمالية من تعديات سلاجقة الروم والداشمنديين والبيزنطيين في آسيا الصغرى.

أما في القسم الغربي، فقد ورث نور الدين محمود المشكلتين الكبيرتين المتمثلتين بأتابكية دمشق والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام.

ثانياً: ترتيب أوضاع البيت الزنكي:

كان من الطبيعي أن تنشأ بين البيتين الزنكيين في كل من الموصل وحلب علاقات وثيقة، بفعل الروابط الأسرية من جهة، واشتراك آل زنكي بعامة بهدف واحد، وهو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، وكانت حلب تشكل، بالنسبة للموصل، خط الدفاع الأول وصمام الأمان ضد أي خطر تتعرض له، فنشأت نتيجة لذلك علاقات جيدة بين سيف الدين غازي الأول، صاحب الموصل، وأخيه نور الدين محمود، صاحب حلب، ثم بين الأمراء الذين توالوا على حكم الموصل بعد غازي الأول، إلا أن هذه العلاقات الودية القائمة على التعاون والدفاع المشترك، شهدت في بعض الأوقات فتوراً عاماً، كان لا يلبث أن يتلاشى لتعود المحبة والألفة [2]، فبعد استقراره في الموصل والجزيرة وبعض مناطق بلاد الشام كحمص والرحبة والرقة، كان على سيف الدين غازي الأول أن ينسق مع أخيه نور الدين محمود في حلب، ويتعاون معه لاستكمال سياسة والدهما القاضية بالتصدي للصليبيين، مُدركاً في الوقت نفسه أهمية هذا التعاون، خشية أن يستغل أعداء الأسرة فرصة انقسام الإمارة الزنكية لمهاجمتها، بالإضافة إلى الظهور بمظهر القوة أمامهم، لذلك رأى ضرورة الاجتماع بأخيه بين وقت وآخر لتسوية ما قد ينشأ بينهما من أزمات داخلية بسبب توزيع الإرث الزنكي، ويبدو أن العلاقات بين الأخوين تعرضت لأزمة عابرة عقب وفاة

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٦٨ ، ١٦٩.

والدهما بدليل أن سيف الدين غازي الأول أرسل إلى أخيه، نور الدين محمود يدعوه للحضور إليه إلا أن صاحب حلب تأخر في تلبية الدعوة معللا تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين [1]، وقد كانت هناك مجموعة من الأسباب ساهمت في الفتور في العلاقة بين الأخوين وهي:

أ- رأى سيف الدين غازي الأول أنه كان يجب على أخيه الوقوف إلى جانبه عندما تعرض الحكم الزنكي في الموصل لهزة سياسية أثارها الملك ألب أرسلان السلجوقي بهدف الاستيلاء على السلطة، وذلك حتى تستقر الأوضاع لهما في البلاد، ثم يستأذنه في العودة إلى بلاد الشام.

ب- عد سيف الدين غازي الأول تصرف أخيه نور الدين محمود بعد مقتل والدهما أمام قلعة جَعْبَر خروجاً على التقاليد الأسرية عند القبائل التركية التي تقضي بأن تكون السيادة للابن الأكبر [2].

ج - رأى سيف الدين غازي الأول في تصرف أخيه انفصالاً واضحاً عن الدولة الزنكية، لأن استئثار نور الدين محمود بأملاك الأسرة في حلب يعني تكوين حكم انفصالي عن دولة الأتابكة في الموصل[3]، دفعت هذه العوامل سيف الدين غازي الأول إلى الإلحاح على أخيه نورالدين محمود للاجتماع به وتسوية الأمور بينهما، وقد تصرف صاحب الموصل بحكمة لإزالة أسباب التوتر، كما أنه لم يعارضه عندما استولى على الرها التي كانت تدخل في منطقة نفوذه بعد محاولة جوسلين الثاني استردادها من أيدي المسلمين في أواخر عام ٥٤١هـ/ ربيع الثاني ١١٤٧م، والواقع أنه أرسل قوة عسكرية لمساندة أخيه لإنقاذ الرها المهددة، لكنها وصلت بعد أن نجح نور الدين محمود في استعادتها [4]، وأخيراً حصل اللقاء بين الأخوين في الخابور. وفي هذا الاجتماع، اعتذر نور الدين محمود لأخيه عن تأخره في الحضور، وأظهر له الطاعة والاحترام من جهته [5]، ولشدة حذر نور الدين اشترط أن يكون الاجتماع ومع كل منهما خمسمائة فارس، فقبل سيف الدين، وخرج نور الدين ومعه خمسمائة فارس، فرأى أخاه سيف الدين وليس معه إلا خمسة فوارس فتأكد من حسن نيته واقتربا وتعانقا وبكيا وقال له سيف الدين: من لي غيرك يا نور الدين ولمن أدخر الخير إن أسأت إلى أخي، فبعدها كان نور الدين يخرج إلى معسكر سيف الدين للتخدمة وصفت

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٠.
(٤) الباهر ص ٨٧ ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٧٠.
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧٠.

الأمور بينه وبين أخيه [(١)]، وسكن روعه وعاد إلى حلب [(٢)]، حيث جمع عساكره وتجهَّز، ثم عاد للاستقرار في كنف أخيه ووضع نفسه تحت تصرفه، إلا أن سيف الدين غازي الأول أمره بالعودة إلى بلاده وقال له: لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يرد السوء بنا يكف عنا، فلم يرجع نور الدين ولزمه حتى قضيا ما كانا فيه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده[(٣)].

١- **وفاة سيف الدين غازي الأول:** استطاع سيف الدين ونور الدين أن يحلا المشاكل التي بينهما وتعاونا على البر والتقوى وكان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل جنبًا إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصليبيين، وذلك في الدفاع عن دمشق ضد الصليبيين الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م ونجاحهم في حمل الصليبيين على الرحيل عن دمشق، ومن مظاهر التعاون أيضاً، اشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العُريمة وطرد الصليبيين منه، كما كان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في إنّب، وفي فتح أفاميه سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م [(٤)]، إلا أن العهد لم يطل بسيف الدين غازي حيث توفي بالموصل في جمادي الآخرة من سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م بعد أن حكم الموصل ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل [(٥)]، وكان رحمه الله جميل الصورة، وكان عمره نحوًا من أربع وأربعين سنة وخلّف ذكراً رباه عمه نورالدين محمود وزوَّجه ابنة أخيه قطب الدين مودود بن زنكي، فتوفي ولد سيف الدين شاباً، وانقرض عقبه[(٦)]، وكان سيف الدين غازي جواداً كريماً شجاعاً وهو الذي بنى المدرسة الأتابكية بالموصل، وقفها على الحنفية والشافعية، وبنى رباطاً للصوفية وكان مقصداً للشعراء، فقصده شهاب الدين الحيص وامتدحه بقصيدة قال فيها:

أتابكُ إن سميت في المهد غازيا ... فسابقة معدودة في البشائر

وَفَيتَ بها والدين قد مال روْقه ... وصدّقتها والكفر بادي الشعائر

وقد أجازه سيف الدين بألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه، وسوى الخلع والثياب [(٧)].

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٧٢).
(٢) الباهر ص ٨٧ – ٨٨، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧١.
(٣) الباهر ص ٩٢ ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٧.
(٤) (٥) (٦) (مفرج الكروب (١/ ١١٦). (٧) كتاب الروضتين (١/ ٢٢٨ ، ٢٢٩).

وعزّى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه سيف الدين بقصيدة منها:

وكان نظيرك غارَ الزمان ... من أن يرى لك فيه نظيراً
فدتك نفوسٌ بك استوطنت ... من الأمن نوراً وقد كُنَّ بوراً
بقيت مُعزًّا من الهالكين ... تُوقَّى الرَّدَى وتُوفَّى الأجورا
وما نقص الدهرُ أعدادكم ... إذا شفَّ قطراً وأبقى بحوراً
ولو أنصف المجد موتاكم ... لَخَطَّ لهم في السَّماء القبورا
حياتك أحيت رميم الحياة ... وأمْطَتْ من الجود ظهراً ظهيراً [1]

وأما القيسراني فقد قال قصيدة في تعزية نور الدين:

ما أطرق الجو حتى أشرق الأُفُق ... إن أغمد السيف فالصَّمصام يأتلق
دون الأسى منك نور الدين في حلب ... مُملَّكٌ ينجلي عن وجهه الغَسَقُ
كنت الشقيق الشقيق الغيب حين نوى ... أراق ماء الكَرَى من جفنك الأرَقُ
تلقى الأسى في لباس الصبر في جُنَنٍ [2] ... حصينةٌ تحتها الأحشاء تحترق
ومدة الأجل المحتوم إن خفيت ... فإن أيامنا من دونها طُرُقُ
وإنما نحن في مضمار حليتها ... خيل إلى غاية الأعمال تستبق

إلى أن قال:

ما دام شمسكَ فينا غير آفلةٍ ... فالدِّين منتظم والملك مُتسقُ [3]

٢- تولي قطب الدين مودود زنكي إمارة الموصل: اتفق الوزير جمال الدين الأصفهاني وزين الدين علي كُجك أمير الجيش على أن يخلف قطب الدين أخاه على الموصل، فأحضراه، وحلفا له الأمراء والعساكر في الموصل، وتسلّم جميع ما لأخيه سيف الدين غازي من البلاد التابعة للموصل[4]، وقد تعرضت العلاقات بين الموصل والشام في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة كادت تؤدي إلى اندلاع الحرب بين الأخوين لولا أن قطب الدين تدارك الأمر ووضع حداً لنزاعه مع أخيه نور الدين، وتعود أسباب هذه الأزمة إلى أن بعض الأمراء في الموصل وأعمالها وعلى رأسهم المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد صاحب سنجار، راسلوا نور الدين ليتسلم البلاد بعد وفاة سيف الدين باعتباره أكبر سناً من

(١) كتاب الروضتين (١/ ٢٣٠).
(٢) مفردها جُنَّة: وهي الدرع.
(٣) كتاب الروضتين (١/ ٢٣٠).
(٤) الباهر ص ٩٤؛ زبدة حلب (٢/ ٢٩٦).

أخيه قطب الدين [1]، ويضيف ابن الأثير سبباً آخر دفع هؤلاء الأمراء إلى استدعاء نور الدين هو: كراهيتهم وحسدهم للوزير جمال الدين ولأمير الجيش زين الدين على كجك للمكانة التي كانا يتمتعان بها في الموصل [2].

وقد لقيت هذه البادرة قبولاً طيباً عند نور الدين، وطمع في ضم بلاد الجزيرة والموصل تحت ملكه ليتحقق له توحيد الجبهة الإسلامية في ظل قيادة موحدة وباعتباره الوريث الشرعي لملك أخيه سيف الدين فجد نور الدين في السير وقطع الفرات متجهاً إلى سنجار فاستولى عليها [3]، وكان رد الفعل عنيفاً في الموصل بعد دخول نور الدين سنجار، إذ انزعج قطب الدين وأمراؤه المخلصون وعدوا ذلك اعتداء مباشراً عليهم على اعتبار أن سنجار تابعة لهم، فتجهز قطب الدين وخرج بعساكره نحو سنجار، فنزل بتل يَعفر[4]، وأرسل جمال الدين الوزير، وزين الدين كجك أمير الجيش إلى نور الدين كتاباً ينكران عليه إقدامه على أخذ سنجار واعتدائه على أملاك أخيه قطب الدين مودود، وهدداه بقصده إن هو لم يرحل عن البلد، ولكن نور الدين لم يلتفت لتهديدهما ورد عليهما بقوله: إنني أنا الأكبر وإني أحق أن أدبر أمر أخي له منكم، وما جئت إلا لمّا تتابعت إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم، فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر من أيدينا، وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم[5]. أدرك الوزير جمال الدين محمد، وزين الدين ما ينطوي عليه هذا الرد من أخطار، فأشارا على قطب الدين مودود بمصالحة أخيه والتنازل عن بعض المواقع في الشام والتي كانت تتبع الموصل مثل حمص، والرحبة والرَّقة [6]، مقابل انسحاب نور الدين من سنجار والعودة إلى حلب، فوافقهما قطب الدين، وتم الاتفاق بين الأخوين وانسحب نور الدين من سنجار محملاً بالكنوز التي كانت بخزائن سنجار في أيام أبيه [7]، وقد بلغت العلاقات بين الأخوين درجة من التحسن جعلت نور الدين يقدم في عام ٥٥٤هـ (١١٥٩م) على اختيار قطب الدين ليخلفه في حكم بلاده عندما أحسّ بضعفه ومرضه، وقد أنفذ نور الدين إلى أخيه قطب الدين وفداً يخبره

(١) الباهر ص ٩٥، زبدة حلب (٢/٢٩٦)، الحياة العلمية ص ٤٨.
(٢) الباهر ص ٩٥، الحياة العلمية ص ٤٨.
(٣) الباهر ص ٩٥ ، ٩٦، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٨.
(٤) تل يعفر : ويقال أعفر : وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل.
(٥) الباهر ص ٩٦ ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٩.
(٦) الرَّقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران مسيرة ثلاثة أيام.
(٧) الباهر ص ٩٦ – ٩٧ ، كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٩.

بالموقف وباتفاق الأمراء على توليته العهد بعده، وطلب إليه الحضور بعساكره إلى الشام، فلما خرج قطب الدين مودود على رأس جيشه من الموصل، وصلته الأخبار بتحسن صحة أخيه نور الدين وقيامه من مرضه، فأقام قطب الدين حيث هو، وأرسل وزيره جمال الدين محمد لمقابلة نور الدين محمود والوقوف على تطورات الموقف هناك، فوصل الوزير دمشق في صفر سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) واجتمع بنور الدين وأبلغه استعداد قطب الدين، ووضع إمكانياته في خدمته، فشكره نور الدين على ذلك، وعبّر له عن شكره لمشاعر أخيه قطب الدين مودود [1]. وعلى العموم كانت صلة نور الدين بإخوانه وثيقة؛ يقول ابن الأثير في حقهم: إن الله سبحانه جمع فيهم من مكارم الأفعال، ومحاسنها، وحسن السيرة وعمارة البلاد، والرفق بالرعيّة إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها، يقول: أظن أنّ القائل أرادهم بقوله:

هَيِّنون لَيِّنون أيسار بنويسرٍ ... سُوّاسُ مكرمةٍ أبناءُ أيسار

لا ينطقون على العوراء إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكبار [2]

* * *

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٥٠.

(٢) الباهر ص ١٥، نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ٥١.

المبحث الثاني

أهم صفات نور الدين زنكي

إن مفتاح شخصية نور الدين محمود زنكي شعوره بالمسؤلية وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين، وخوفه من محاسبة الله له، وشدة إيمانه بالله وباليوم الآخر، وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاّب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها:

أولاً: الجدية والذكاء المتوقد: منذ البداية والتكوين الجاد لنور الدين يدفعه إلى الإسراع لسد أي فتق أو اعتداء من قِبل الأعداء، فلما قتل زنكي ٥٤١هـ - يقول ابن الأثير - كان جوسلين الفرنجي، في ولايته غربي الفرات: تل باشر وما جاورها، فراسل أهل الرها وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، وقاتلهم وجد في قتالهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين فسار مجداً إليها في العسكر الذي عنده، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها، فلم يبق منهم إلاّ القليل وأجلى من كان بها من الفرنج [1]. وكان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام ٥٣٩هـ وأمر جنده يومها بالكف فوراً عن النهب والسلب والتخريب، ومنح النصارى المحليين حريات واسعة وحمى كنائسهم وممتلكاتهم في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزاة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من أساليب التمييز والتفرقة الدينية، أما وقد تآمروا - ثانية - في أخريات عهد زنكي، وثالثة بعد مقتله لإعادة الرها إلى السيطرة الصليبية، فهنا يجيء الرد بمستوى الجد الذي يقتضيه الموقف إذا ما أريد لهذا الموقع أن يبقى مجرداً، وألا يعود ثانية إلى قبضة الغزاة [2]. وفي عام ٥٦٧هـ هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا مملوءين بالأمتعة مكتظين بالتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته -كما يقول ابن الأثير- إذ ما لبث أن جمع عساكره وبث سراياه في بلاد الصليبيين بين أنطاكية وطرابلس، وقام بحصار حصن عرقة وتخريب ربضه،

---

(١) الباهر ص ٨٦ - ٨٧، نور الدين محمود زنكي ص ١٢. (٢) نور الدين محمود ص ١٢.

والاستيلاء على حصني صافيتا والعزيمة، وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق؛ الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لإعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة بين الطرفين، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسّة – كما يبدو – إلى هدنة كهذه[1]. ويومًا بلغه ما فعله جوسلين من إرسال السلاح – الذي كان قد استولى عليه في إحدى معاركه مع نور الدين – إلى حميه السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم، فقام نور الدين، وهجر الراحة للأخذ بثأره، فأذكى العيون على جوسلين، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا أو أسراً، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع فأخلد إلى إعمال الحيلة [2].

وكان نور الدين – كما يقول ابن الأثير- إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون حصونهم مستعدة وغير محتاجة لشيء[3]. وهكذا ترتبط جدّية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات والذي لم يتح لأحد من الأعداء في الداخل والخارج أن ينفذ لتوجيه ضربة أو إصابة مقتل، كان -كما يقول ابن الأثير- يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ويضرب على ذلك مثلاً سياسته مع مليح ابن ليون ملك الأرمن في بلاد الأناضول: فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها – إذا أراد – فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب انحجر فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه[4]، وفي محاولته فتح دمشق أدرك أن اعتماد العنف سيستفز حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم، فعمد إلى إعمال الحيلة والسياسة، فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق إليه، وأخذ نور الدين يكاتبه مشككاً إياه بنوايا عدد من أمرائه وإنهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى

(١) الباهر ص ١٥٤ ، ١٥٥، نور الدين محمود ص ١٣.
(٢) زبدة حلب (٢/ ٣٠١ – ٣٠٢)، نور الدين محمود ص ١٣.
(٣) الباهر ص ١٠٣، نور الدين محمود ص ١٣. (٤) الباهر ص ١٦٩، نور الدين محمود ص ١٣.

إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها انتقل نور الدين خطوة أخرى؛ فاتصل بأحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجماهيرها واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء [1]، فحقق بذلك الهدف الكبير الذي طالما سعى له أبوه، وقبل ذلك، وحينما بعث إليه الفاطميون – كما سيأتي بيانه بإذن الله – يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام لإشغالهم عن مهاجمة مصر، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه المهمة قائلاً: إن أهل دمشق، أعداء والإفرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما[2]. ويحدثنا أبو شامة عن إحدى خدع نور الدين حيث أغار على طبرية وجمع بعض أعلام الصليبيين وشيئاً من ملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده قائلاً: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين شيركوه المحاصر هناك بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام، وتعطيه هذه الأعلام وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس، فإن ذلك مما يفت في عضد الكفار ويدخل الوهن عليهم؛ ففعل أسد الدين ما أمر به، فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم.وسألوا حليفهم شاور- الوزير المصري – الإذن بالانفصال [3]، كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصني المنبطرة بالشام ٥٦١هـ فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره وإنما سار إليه في سرية من الفرسان على حين غرة من الصليبيين، إذ أدرك أنه بجمعه العسكر سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهبتهم، وما لبثت حامية الحصن أن فوجئت بهجوم نور الدين المباغت وبعد قتال عنيف سقط الحصن ولم يجتمع لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنه في قلعة من العساكر لأسرعوا إليه، إنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من ردّه [4]، فهذه الأحداث تظهر صفة الجدية والذكاء المتوقد في شخصية نور الدين.

ثانياً: الشعور بالمسؤولية: تولد عن ورع نور الدين وتقواه إحساس شديد بالمسؤولية، ظهر في جميع أعماله وحالاته، فالخشية من الله تعالى تجعله دائماً في موقع المحاسب لنفسه المراقب لها حتى لا تتجاوز إلى ما يغضب الله، فهو يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن كل ما يتعلق برعيته، وكل ما يتعلق ببلاد المسلمين ودمائهم وحقوقهم حتى لو كانوا من غير رعيته،

(١) الباهر ص ١٠٧ – ١٠٨، زبدة حلب (٢/ ٣٠٣ – ٣٠٥).
(٢) الاعتبار ص ١٤، نور الدين محمود ص ١٤.
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٥.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٥.

فإذا كان باستطاعته مساعدتهم فهو مسؤول إذا قصر في تقديم هذه المساعدة، يظهر هذا الفهم الشامل للمسؤولية [1] في رسالة نور الدين محمود إل إيلدكز أمير أذربيجان وأرمينية وهمذان والري، جوابًا على رسالته التي يطلب فيها من نور الدين عدم احتلال الموصل ويتهدده بأن لا سبيل له إليها فقال نور الدين للرسول: قل لصاحبك: أنا أرحم ببني أخي (يعني سيف الدين غازي) منك، فلم تدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس: الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين [2].

كان نور الدين يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الوقت أن يضيع هباء، والدم المسلم من أن يُهدر، والكرامة الإسلامية من أن تهان، والأرض الإسلامية من أن تُغزى وتُقتطع [3]. فحينما علم في عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م بتحالف الصليبيين قال: لا أنحرف عن جهادهم، إلا أنه مع ذلك كان يكفّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضِّياع ويحسن الرأي في الفلاحين ويعمل على التخفيف عنهم، الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جماهير دمشق وسائر البلاد التابعة لها، فراحت تدعو له بالنصر. وكتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين بأن الفلاحين أُخذت أموالهم وشُتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم، فلا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحداً من المسلمين[4]. وفي العام التالي خرج إليه أهل دمشق وكثير من أجنادها، بعد أن قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية لسفك دماء المسلمين، والتقى بعدد من الطلاب والفقراء والضعفاء فلم يخيب أحداً من قاصديه [5]. وقد أصر نور الدين طيلة الفترة التالية

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة.ومقاومة غزو الفرنجة ص ١٣٢.

(٢) زبدة حلب (٢/ ٣٣٢ – ٣٣٣)، نور الدين محمود ص ١٧.

(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٠٧.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ – ٣٠٩، نور الدين محمود ص ١٦.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠ نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٧.

على عدم القيام بهجوم على البلد تحرجاً من قتل المسلمين وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين [1]. فهو يعلم جيداً أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو، وإذا قدرت على حماية دمها بذلته رخيصاً في مجاهدة هذا العدو.. معادلة واضحة يمكن أن تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم وانتصاراتها على السواء [2]... ومن ثم كانت عادة نور الدين -كما يقول أبو شامة- إنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورةً، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منها كما فعل بدمشق ومصر وغيرها [3]. لقد كان الدم عنده عظيمًا، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل [4].

ثالثاً: قدرته على مواجهة المشاكل والأحداث:

اعتمد نور الدين محمود الحلول العقلية ذات الطابع العلمي في مواجهة المشاكل والأحداث واضعاً عينيه على التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب، ففي عام ٥٥٢هـ شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلازل عنيفة تتابعت ضرباتها القاسية فخربت الكثير من القرى والمدن وأهلكت حشداً لا يحصى من الناس وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، فما كان من نور الدين إلاّ أن شمّر عن ساعد الجدّ، وبذل جهوداً عظيمة في إعادة إعمار ما تهدم وتعزيز دفاعاته، فعادت البلاد كأحسن مما كانت ولولا أن الله منّ على المسلمين بنور الدين، فجمع العساكر وحفظ البلاد، لكان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار [5]. وفي عام ٥٦٥هـ ضربت بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل لم تقل هولاً عن سابقتها، خربت الكثير من المدن وهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك لإعادة إعمار ما تهدم من أسوارها وقلعتها، ولم يجأر إلى الله بالشكوى فقط أو يعلن أن الظلم قد فشا وأن هذا عقاب الله أو أن إشارات الساعة قد لاحت في الأفق القريب، فعندما وصل بعلبك وأتاه خبر دمار باقي البلاد وهلاك كثير من أهليها، فرتب في بعلبك من يحميها ويعمرها، وانطلق إلى حمص ففعل مثل ذلك ومنها إلى حماه فبعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بعرين، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧.
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٧.
(٤) الباهر ص ١٠٧، نور الدين محمود ص ١٧.
(٥) الباهر ص ١١٠، ١١٢، نور الدين محمود ص ١٨.

ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب، فلما شاهد ما صنعته الزلزلة بها، وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها وأخرج من المال مالا يقدر قدره [١].

إن الكوارث – التي يبتلي الله بها عباده – تجيء بمثابة تحديات دائمة تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والإنجاز، وإن الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود الأمم، والتجارب السياسية والحضارات خطوات إلى الأمام، والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ويصيبها بالعجز والشلل والجمود، أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول وأعاد إعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة وواصل الطريق [٢]. ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال كانت في الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلاّ من ذهب عمره ولم يتم على مراد أمره. فأشار الشيخ عمر الملاء أحد صالحي المدينة وشيوخها الورعين بابتياعها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتخطب الجمع وتدرس العلوم، ففعل نور الدين وأنفق فيه أموالاً كثيرة[٣]. وعلق الدكتور عماد الدين خليل صاحب كتاب نور الدين محمود الرجل والتجربة على هذه الحادثة فقال: لم يضرب نور الدين الخرافة والشائعة بالكلمة ولكنه ضربها بالفعل، وبالإنجاز وزالت الخرافة. وظل المسجد الكبير الذي بناه على أنقاضها حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين والدارسين[٤].

رابعاً: نزعته للبناء والإعمار:

إن الحاكم الناجح في نظره هو ذلك الذي يعرف كيف يحقق أكبر قدر من العمران والتحضر بأقل قدر من الزمن [٥]، فقد بنى نور الدين المساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح، كما أنشأ المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل، وشجع أعمال الفروسية وسائر النشاطات الرياضية لكسب المزيد من المهارات القتالية، وتنمية الجسد، وبنى أيضاً دوراً للأيتام لإيواء أطفال المسلمين، والمارستان لمعالجة المرضى، وأقام الجسور والقناطر والحدائق والقنوات والأسواق والحمامات والمخافر وشقّ الطرقات العامة فحفلت دولته بالكثير من المؤسسات الاجتماعية والعمرانية[٦]، ولم يغفل نور الدين – وهو بصدد البناء والإعمار – عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطاً أساسياً بالإبداع.. ورجل كنور الدين خرجته مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لا يمكن إلا أن يرى في العمل والتزيين في المضمون

(١) الباهر ص ٤٥.
(٢) الباهر ص ٤٥ ، نور الدين محمود ص ١٩.
(٣) نور الدين محمود ص ١٩.
(٤) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود ص ١٩.
(٥) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود ص ١٩. (٦) نور الدين محمود ص ١٩.

والشكل في الوقائع والجماليات وجهين لعملة واحدة [1]، فقد أوقف بستان الميدان والغيضة التي تليه في دمشق لتطييب جوامع دمشق ومدارسها لكي يظل هواؤها معبقاً بالروائح الطيبة والشذى العبق، وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث أنه حدد مصارف وقفه المذكور: نصفه على تطييب جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء، جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة في دمشق وأطرافها [2]. وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب، من مدينة أفاميه، مذبحاً من الرخام الملكي الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ من وراء الرخام [3]، ولما دخل قلعة دمشق عام ٥٤٩هـ أنشأ بها داراً عامة في غاية الحسن سماها دار المسّرة [4]، وفي قلعة حلبأنشأ نور الدين أبنية كثيرة وأقام ميدانا «خضّره بالحشيش»، وسمي الميدان الأخضر [5]، ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات عام ٥٥٢هـ حيث أمر نور الدين بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق والإفرنجية والأعلام والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفات، وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام [6]. لقد كان إكسسوار الحفل وديكوراته – إذا صح التعبير – مناسبة تماماً لمدينة كدمشق تتزعم حركة الجهاد وتقف في قلب التحدي. وتبدو نزعة نور الدين للإعمار والتحضر، أكثر ما تبدو، في سياسته الرامية لتوطين العناصر البدوية وجعلها تمارس حياة الاستقرار، فقد أقطع لأمراء العرب في جنوب الشام والحجاز القطائع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج [7]، ونقل أعراب بني عباد من البلقاء والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق، ورغم أن هذه الخطوة انصبت على تجميد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبيي المنطقة وإرشادهم على الطرق، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين أنفسهم كما أشارت الرواية المذكورة [8]، فإنها حققت من ناحية أخرى هدفاً عمرانياً واضحاً [9]، وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار تعدل رواية ابن جبير الرحالة الذي زار دمشق ووصف معالمها بعد سنوات

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢١.
(٢) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٢١.
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢١.
(٤) المصدر نفسه ص ٢١.
(٥) مرآة الزمان (٨/ ٣٠٦)، نور الدين محمود ص ٢٢.
(٦) نور الدين محمود ص٢٢.
(٧) مرآة الزمان (٨/ ٣٠٦)، نورالدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٢.
(٨) البرق ص ١٢٥ – ١٢٦، نور الدين محمود ص ٢٢.
(٩) نور الدين محمود ص٢٢.

فحسب من وفاة نور الدين ولا شك أن وصفه هذا ينسحب على العصر الذي تتحدث عنه لأن تغييرا جغرافيا المدن لا تقاس بالسنين المحدودة بل بعقودها على أقل تقدير، يقول الرجل، مشيراً إلى الاتساع العمودي لدمشق: وبناء البلد ثلاث طبقات فيحتوى من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً وحسنه كله خارج المدينة لا داخلها، وبدمشق (ما يقرب من) مائة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة.. وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها صنعاً [1]، وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موظفيه – كما سنرى في الفصول التالية – فراحوا يتسابقون في بناء المدارس والمساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية وما أكثر الروايات التي قيلت في هذا الصدد، ويكفي أن نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك [2].

خامساً: قوة الشخصية:

كان نور الدين محمود قوي الشخصية، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة [3]، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، وأنه كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة، شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف[4]. ويصف مجلسه فيقول: وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا.. وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي: كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كأن على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار، وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا[5]. وقال ابن كثير: لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضا، كان صموتًا وقوراً [6]. وكان نور الدين محمود يملك هيبة عجيبة على موظفيه، ويلزمهم بوظائف الخدمة، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب.. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه، ويُقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه، وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً

(١) (٢) (٣) (٤) نور الدين محمود ص ٢٤.
(٥) الباهر ص ١٧٣، نور الدين محمود ص ٢٤.
(٦) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٢٤.

كثيراً يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت الله حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا [1].

سادساً: محبة المسلمين له:

عندما تحدث ابن كثير في أحداث سنة ٥٥٢هـ قال: وفيها مرض نور الدين، فمرض الشام بمرضه، ثم عوفي ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً [2]. وقال في أحداث سنة ثمان وخمسين وخمسمائة: وفيها كبست الفرنج نور الدين وجيشه فانهزم المسلمون لا يلوي أحد على أحد ونهض الملك نور الدين فركب فرسه والشبحة [3] في رجله فنزل رجل كردي فقطعها حتى سار السلطان نور الدين فنجا، وأدركت الفرنج الكردي فقتلوه [4]. وفيما ذكره ابن كثير يظهر الحب العميق الذي تكنه الأمة لنور الدين وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق وما أبلغ تعبير ابن كثير: مرض نور الدين فمرض الشام بمرضه، فهل هناك تلاحم بين القيادة والقاعدة مثل هذا في ذلك الزمن، ومن أسباب ذلك الحب صفات نور الدين القيادية، فهو يسهر ليناموا ويتعب ليستريحوا، وكان يفرح لفرح المسلمين ويحزن لحزنهم، وكان عمله لوجه الله - نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً - وصدق الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي عندما قال:

فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد عليه بالأرواح [5]

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود والأمة لها.

إن نور الدين وضع الله له قبولاً عظيماً بين أبناء أمته وأحبته الجماهير لجهاده وإخلاصه وتفانيه في خدمة الإسلام، وامتد هذا الحب لكي يتجاوز مدن دولته وحصونها وقراها إلى ما وراء الحدود وكسب جماهير خصومه من الداخل، وهز عروشهم، وقطع جذور مواقعهم من الأعماق وأزاحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها دونما قطرة من دم، فالدم المسلم كان عنده عظيماً، وليست تجربته مع أهالي دمشق بالمثل الوحيد، فمنذ عام ٥٤٣هـ حينما تقدم

(١) الباهر ص ١٧٢ - ١٧٣، تاريخ الزنكيين ص ٤٠٩.
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٣٨٢).
(٣) الشبحة التي تربط بها يد الفرس من لباد ونحوه.
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٤٠٦).
(٥) الحركة السنوسية للصلّابي (٢/ ٧).

على رأس قواته للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق: شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه[1]، وراحوا يدعون له دعاءً متواصلاً[2]، وأخذ يخرج إليه -خلال المراحل التالية من الحصار - عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا في الواقع أصدقاءه الحقيقيين كما سيتبين لنا فما خاب قصده كما يقول ابن القلانسي [3]، أما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم، وأعلن أنه جاء لكي يحمي كدحهم من تخريب الصليبيين [4]، وفي عام ٥٤٧هـ عندما تقدم إلى دمشق لضمها إلى جبهة القتال الجادّ المخلص ضد الصليبيين، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر والأحداث [5] للخروج إلى قتاله. لم يخرج إلا القليل، لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج. وأقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولا زحف خوفاً على المسلمين[6]. وقد عزّز بذلك محبة الدمشقيين له فكانوا يدعون ليلاً ونهاراً أن يبذلهم الله سبحانه بالملك نور الدين[7]، وأخذ نور الدين يكاتب أهل دمشق ويستميلهم، وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل والديانة والإحسان فوعدوه بالتسليم [8]. وقد دخل نور الدين دمشق عام ٥٤٩هـ في فتح أبيض لم ترق فيه دماء وما ذلك إلا - بتوفيق الله - ثم بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله منذ سنوات وسنوات. يقال إن امرأة كانت على السور فدلّت حبلاً فصعدوا إليه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعدت جماعة أخرى ونصبوا علماً، وصاحوا بشعار نور الدين [9] وبعد أقل من ثلاث سنين، حينما أعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو خرج كل قادر على حمل السلاح من أهل دمشق، وتبع نور الدين في حملته تلك فتيان البلد من الأحداث والغرباء والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير [10]. وهناك رواية لابن الأثير، تناقلها كثير من المؤرخين، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع طلب نور

(١) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٢٥.
(٢) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٠٨ - ٣٠٩، نور الدين محمود ص ٢٥.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠، نور الدين محمود ص ٢٦.
(٤) زبدة حلب (٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥)، نور الدين محمود ص ٢٦.
(٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٦.
(٦) مرآة الزمان (٨/ ٢٠٩ - ٢١٠)، نور الدين محمود ص ٢٦.
(٧) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٢٦.
(٨) زبدة حلب (٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥).
(٩) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٢٦.
(١٠) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٧.

الدين عام ٥٥٩هـ نجدات من أمراء الأطراف لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة، فأما فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي، حاكم حصن كيفا في ديار بكر، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك، فكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي على طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم مالقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليّ فلا بد من إجابة دعوته، ثم تجهز هو «أيضاً» وسار إلى نور الدين بنفسه. إن نور الدين يتعامل مع الجماهير وأعيانها ورموزها، وقد حقق نجاحات باهرة في كسب قلوبها وتأييدها ومحبتها، فكان يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة، فإن تردد الحكام والأمراء، أو جبنوا، أو بخلوا فإن بمقدور القواعد الأكثر ثقلاً وتأثيراً يومذاك أن ترغمهم على الطاعة وإلاّ عصفت بهم وأخرجت البلاد من أيديهم، وذلك هو الضمان الكبير في تجنيد القدرات الإسلامية كافة ودفعها إلى ساحات الجهاد [1]، وما من شك في أن هنا انسجاماً عميقاً يتحقق بين القيادة والقواعد ومحبة واعية تسود العلاقة بين الرجل والجمهور، وتعاطفاً مخلصاً من أجل الأهداف الكبيرة.. وما من شك أن هذا وذاك من أسباب النجاح والتوفيق في إدارة دولته[2].

سابعاً: اللياقة البدنية العالية:

تطلبت حياة نور الدين محمود الحافلة بالعمل المتواصل والجهاد المضني جسداً قوياً قادراً على تحمل الأعباء والمشقات، ولا يتم بناء الجسم القوي إلا بممارسة الرياضة، ولذلك كان نور الدين مواظباً على ممارسة الألعاب الرياضية المعروفة في زمانه المتعلقة بالفروسية وأعمال القتال، وكان بشكل خاص مولعاً بلعبة الكرة أو الصولجة التي تدعى في هذه الأيام بلعبة البولو[3]، ويصفه ابن الأثير بقوله: من أحسن لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، ولم يُر

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨.
(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٣٤.
(٤) الجوكان: هو العصا التي تضرب بها الكرة.

جوكانه[1] يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان فيها، بل تكون في كـم قبائـه اسـتهانة باللعب، وعندما احتجّ عليه أحد الزاهدين من أصحابه لأنه يلهو ويعذب الخيل لغـير فائـدة دينية قال: والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، وإنما نحن في ثغر، والعـدو قريـب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاء وصيفاً إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيـذهب جمامهـا وتتعـود سـرعة الانعطـاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة [2].

وقد فسر نور الدين بكلامه هذا الممارسة الرياضية تفسير إسلامياً رائعاً في جوابه علـى اعتراض أحد إخوانـه الزهـاد عنـدما كتـب لـه [3]، ففـي هـذا التفسـير المنطقـي والتحليـل التفصيلي للعبة البولو كشف وتوضيح لنفسية نور الدين، فهو لا يلعب الكرة للعبث وإهدار الوقت، وإنما لتحقيق العديد من الفوائد التي هي في الحقيقة استعداد وتحضير للجهاد، تحضير لأجسام اللاعبين ولأجسام خيولهم، وإشغال أوقات الفراغ بما هو مفيد إضافة إلى ما تقتضيه الرياضة من راحة نفسية واستجمام وصفاء التفكير وذهاب الهم للجنـود والقـادة. وفي هـذا الجواب لصاحبه الزاهد تظهر روح نور الـدين الرياضـية في أعلـى درجاتهـا، فهـو يخاطـب الزاهد حسب مستواه من العلم والمعرفة ويأتيه من الباب الذي يقنعه، دون أن يجرح شعوره باتهامه بقلة المعرفة أو التزمت أو التعصب [4]، وبهـذا الموقـف يـبين لنـا نـور الـدين فهمـه للإسلام بالمنظور الشامل الـذي كـان عليـه رسـول الله وأصـحابه، فقـد روى البخـاري في صحيحه عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبـو موسـى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقـد قضيت جزئـي مـن النـوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي [5]. وفي كلام معاذ ﷺ دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل علـى شـؤون الحيـاة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله[6].

---

(١) (٢) الباهر ص ١٦٨-١٦٩.

(٣) نورالدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٣.

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص ١٣٤.

(٥) البخاري، ك المغازي، باب بعثة أبي موسى الأشعري رقم ٤٢.

(٦) فقه النصر والتمكين ص ١٩٧.

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين انحرافهم عن تصور مفهوم العبادة، وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل للعبادة الواسع العميق الذي كان يمارسه نور الدين وانعكاسه على جنوده وشعبه ودولته والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب.

إن من شروط النهوض التي نتعلمها من دراستنا لسيرة نور الدين الشهيد أن يكون مفهوم العبادة في حس جيلنا أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما نفهم من قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وبهذا الفهم لمفهوم العبادة عند نور الدين وجيله حقق إنجازات رائعة في كل اتجاه خاضته الدولة النورية، قال ابن الأثير في حديثه عن نور الدين محمود: وكان – رحمه الله – لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة ثم ذكر قصة اعتراض الزاهد على لعبه بالخيل والكرة التي ذكرناها آنفاً ثم علق ابن الأثير: بعد نهاية القصة فقال: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقلّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات يقلّ في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة. وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين [(١)]. والملاحظ في حياة نور الدين صياغة حياته ودولته كلها صياغة إيمانية ربانية ملتزمة بمنهج رب العالمين وامتثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقدها لشرط مهم من شروط النهوض والتمكين ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح [(٢)].

وهكذا كان نور الدين محمود لا يغيب عنه مفهوم العبادة الشامل في لهوه ولعبه وجده؛ وكان يمارس ألعابًا أخرى تشبه في مغزاها وفائدتها لعبة البولو كلعبة طعن الحلق ورمي القبق[(٣)] وكانت رحلات الصيد المتعة من رياضاته المحببة الأخرى، تحمل من الجد جنب متعتها البريئة، ما يجعلها من بين مهارات الفروسية التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس والمجاهد. ولقد قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن

(١) عيون الروضتين (١/ ٣٦٠). (٢) فقه النصر والتمكين ص ١٩٠.

(٣) القبق : عبارة عن خشبة عالية في أعلاها خشبة مستديرة، توضع الخشبة في أرض مستوية ويتم رمي السهام عليها.

قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي**[1]. وقال: **من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا**[2]. وليس مهارات الصيد – في نظر نور الدين محمود زنكي – سوى محاولة من بين عديد من المحاولات لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدد والنسيان. وحكى أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار عن ممارسة نور الدين لرياضة الصيد: وظل نور الدين يمارس رياضة الصيد، ويتعشق لعب الكرة والرماية حتى مزضه الأخير الذي أودى به بعد أيام قلائل من ذلك اليوم الحافل الذي قرر فيه ختان ولده الملك الصالح إسماعيل حيث أقيمت الاحتفالات ورددت الأناشيد وخرج الرجل مع بعض أصحابه إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لممارسة العديد من ألعاب الفروسية، كطعن الحلق ورمي القبق، كما يقول العماد الأصفهاني.. فما غادر الساحة إلا وهو يعاني ألماً حاداً وسرعان ما أودى بحياته بعد قليل[3].

ثامناً: تجرده وزهده الكبير:

جاء فهم نور الدين محمود زنكي ﷺ من خلال معايشته للقرآن الكريم وهدي النبي ﷺ، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، وعليه فإنَّها مزرعة للآخرة، ولذلك تحررَ من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد، وأسلم نفسه ظاهراً وباطناً، ومن هذه الحقائق:

* اليقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابري سبيل، كما قال النبي ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»**[4].

* وأن هذه الدنيا لا وزن لها، ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله – تبارك وتعالى– إذ يقول النبي ﷺ: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**[5]، **«ألا إن الدّنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالماً أو متعلّماً»**[6].

* وأن عمرها قد قارب على الانتهاء، إذ يقول ﷺ: **«بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السّبابة والوسطى»**[7].

* وأن الآخرة هي الباقية، وهي دار القرار، كما قال مؤمن آل فرعون **﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ**

---

(١) مسلم رقم ١٩١٧.

(٢) مسلم رقم ١٩١٩.

(٣) البرق ص ١٥٠ – ١٥٤.

(٤) سنن الترمذي، ك الزهد رقم ٢٣٣٣ وهو حديث صحيح.

(٥) المصدر السابق رقم ٢٣٢٠.

(٦) المصدر السابق نفسه ٢٣٢٢ حسن غريب قاله الترمذي.

(٧) مسلم ، ك الجمعة، باب تخفيف الصلاة رقم ٨٦٧.

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۞ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[غافر: ٣٩-٤٠] (١). كانت هذه الحقائق قد استقرت في قلب الملك العادل نور الدين محمود الشهيد فترفع -رحمه الله- عن الدّنيا وحطامها، وزهد فيهما، وإليك شيئاً من مواقفه:

١- قال ابن الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي ابن الشكري وكان خصيصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا، وأنس به وله معه انبساط، قال: كنت معه في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا، فكلّما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها. قلت: رضي الله عن مَلك يفكر في مثل هذا، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى وهما:

مَثَلُ الرزق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعاً ... وإذا وليّت عنه تبعك (٢)

٢- تشبه نور الدين محمود بعمر بن عبد العزيز في زهده وقد كان الأخير حاكمًا لأقوى دولة على الأرض في زمنه، فكان نور الدين لا ينفق على نفسه وعلى أهله إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين فيأخذ ما يفتون بحله ولم يتعده إلى غيره البتة(٣). قال العماد الأصفهاني: كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس (٤)، يصرفه في كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطه وطباخه، ومن ذلك المقرر المعين النزر ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضه على المساكين وأهل الفقر (٥).

٣- وأما ما يهدي إليه من الثياب والألطاف وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز والدبابيس، وكل دقيق وجليل لا يتصرف في شيء منه بل يعرض نظره عنه، وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصّل أثمانها الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة (٦).

---

(١) من أخلاق النصر في جيل الصحابة، د. السيد محمد نوح ص ٤٨ ، ٤٩.
(٢) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٢٦١).
(٣) الباهر ص ١٦٤، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ١٢٨.
(٤) الكواكب ص ٥٣ - ٥٤، نور الدين محمود ص ٣٩.
(٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٩.
(٦) البرق ص ١٤٣ - ١٤٤، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٠.

٤- ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة [(١)]، وحكي لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذ قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها، فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها لكان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة. فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة، وأنا أشك أنها كانت تساوي أكثر [(٢)].

٥- قال رضيع الخاتون «زوجة نور الدين»: إنها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية)؟ فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ثم قال: من أين أعطيها، أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كان تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن؛ إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم، ومعدّة لفتق - إن كان - من عدو الإسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً قد وهبتها إياها فلتأخذها، وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين ديناراً [(٣)].

٦- قال ابن كثير: كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا [(٤)]. وكان عمر الملاّء رجلاً من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل له بفتيت ورقاق فيفطر عليه[(٥)]. وكان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمد يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط [(٦)].

* وأما مقر سكن حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن فكانت دار متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، ألحق بها صُفّة يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بإزاء تلك الصفة بيتًا من الأخشاب، فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته

(١) الباهر ص ١٦٤، نور الدين محمود ص ٤٠.
(٢) الباهر ص ١٦٥، نور الدين محمود ص ٤٠.
(٣) الباهر ص ١٦٤، نور الدين محمود ص ٤٠
(٤) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٤١.
(٥) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٤١.
(٦) مرآة الزمان (٨/٣١٥)، نور الدين محمود ص ٤١.

ولايبرح[1]. ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب [2].

٧- زهده في الألقاب: عندما تفقد قيادة ما القدرة على الإسهام الجادّ في حركة التاريخ، يتحول همها إلى منح النياشين والألقاب لمن يقدرون من أجل أن تغطي عجزها وانكماشها، لكن رجلاً فاعلاً كنور الدين يرفض هذه (المنح) خوفاً أن يكون في طياتها الكذب والمبالغة والزيف، وخوفاً أن تقوده إلى نوع من الاعتداد والغرور كثيراً ما انتهى إليهما القادة العاملون. وأما نور الدين الذي علمه التجرد كيف يكون الرفض فإنه يتمنع حتى النهاية عن الذهاب مع الإغراء إلى ما يريد الشيطان لا ما يريد الله، تلقى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها «قائمة» بألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد:... اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضيّ الإمامة وأثيرها، فخر الملّة ومجدها، وشمس المعاني وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين المظلومين من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين. لكن نورالدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحد يقول: اللهم أصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي [3]، وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيداً من الأضواء عن الموضوع وتتضمن كلمات وجملاً من إنشاء نور الدين نفسه.. روي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني – بعد أن استفزته كثرة الألقاب – يأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولئلا يقول ما ليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود زنكي، فكان جواب نور الدين: هذا لا يدخله كذب ولا تزيّد. وكتب بخطه في أعلى الصفحة: مقصودي أن لا يكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل؟ والتفت إلى وزيره قائلاً: الذي كتبت به جيد: اكتب به نسخاً إلى البلاد [4]. ثم أضاف ثم يبدأون بالدعاء: اللهم أره الحق حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفّقه.. من هذا الجنس[5].

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤١.
(٢) البرق ص ١٥٣ – ١٥٤، كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين ص ٤١٠.
(٣) الكواكب ص ٦٨ – ٦٩، نورالدين محمود ص ٤٢.
(٤) مرآة الزمان (٨/ ٣٢٢/ ٣٢٣)، نور الدين محمود.ص ٤٣.
(٥) هكذا طهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٤.

إن القيادة التي تريد أن تنهض بالأمة وتمارس فقه النهوض في حياتها عليها أن تمنع كل ما من شأنه أن ينمّي روح النفاق والتزلف للمسؤولين لأن ذلك يوفر النقد البنّاء وحرية الرأي للشعوب حتى يعرف القادة أخطاءهم فيصلحوها في حركته النهضوية، وعلى القيادة أن تتصف بالتجرد لله في أعمالها وتزهد في حطام الدنيا الزائل. لقد كان زهد نور الدين زهد المؤمن الذي لا يرغب في الدنيا، وما فيها من ملذات وشهوات، ويسعى ويعمل للآخرة دار النعيم والخيرات، ولقد مدح ابن القيسراني نور الدين في زهده فقال:

يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى-أزهد زُهّادها [1]

ويقول أيضاً:

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ومال بها عن الأموال زهد [2]

ويصوره ابن منير من الصالحين الأبرار الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا، يقول:

لازلت تقفو الصالحين مسابقاً لُهم ونطلُعُ خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي فيه تفانت يَعْرُبُ ونزار [3]

تاسعاً: شجاعته:

ورث نور الدين محمود الشجاعة عن والده عماد الدين زنكي الذي يضرب بشجاعته المثل، فقد شارك نور الدين في جميع المعارك التي خاضها والده خلال فترة حكمه (٥٢١-٥٤١هـ) ومن بعد توليه الحكم أمضى معظم أيام حياته على صهوة جواده يشارك جنوده ويتقدم الصفوف ويعرض نفسه للشهادة، وقد ورد أفضل وصف لشجاعته على لسان ابن الأثير بقوله: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل، وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، صليب الضرب، يقدم أصحابه عند الكرة ويحمي منهزمهم عند الفرّة[4].

---

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين في الأدب العربي ص٦٤.
(٢) المصدر نفسه ص٦٤.
(٣) ديوان ابن منير ص ١٩٢، نور الدين في الأدب العربي ص ٦٥.
(٤) الباهر ص ١٦٨، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٥.

وعندما فاجأ الفرنجة معسكره بالقرب من حصن الأكراد عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م ولم يتمكن هو ومن كان معه من الثبات، انسحب باتجاه حمص مسافة اثني عشر كيلو متراً وتوقف حتى تجمع عنده من نجا من المعركة، وأرسل في طلب الخيام والسلاح والمؤن من حمص وحلب، وأقام معسكره في نفس المكان، فنصحه بعض قادته باختيار موقع أبعد خوفاً من متابعة الفرنجة لهم، فأجابه: إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلوا أم كثروا، والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري [(١)]. ولم يغادر مكانه إلا عندما تجمعت له القوات الكافية، فتوجه بها نحو حارم حيث وقعت معركة حارم المشهورة وبر نور الدين بقسمه [(٢)]. وقد تحدث الشعراء عن صفة الشجاعة، وشبهوا نور الدين بالأسد، بل هو يأسر الأسود ويتغلب عليها، يقول ابن القيسراني:

من باتت الأسد أسرى في سلاسله ... هل يأسر الغلب إلا من له الغلب [(٣)]

ويقول أيضاً:

أنت حيناً تقاس بالأسد الورد ... وحيناً تُعدُّ في الأولياء [(٤)]

وهو عند الأصفهاني يغلب الملوك، ويصيد الأسود، وهو فارس الفرسان ويسلب التيجان من الملوك الآخرين، ويحوز الفخار لشجاعته وبطولته، يقول العماد في مدحه:

يا غالب الغلب الملوك وصائد ... الصيد الليوث وفارس الفرسان

يا سالب التيجان من أربابها ... حزت الفخار على ذوي التيجان [(٥)]

وقال ابن قسيم الحموي:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه ... كالرمح دلّ على القساوة لينُهُ

ووراء يقظته أناة مُجرِّب ... لله سطوة بأسه وسُكُونه [(٦)]

وقال ابن منير:

ملأ البلاد مواهباً ومهابة ... حتى استرقت آية أحرارها [(٧)]

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٥.
(٢) الباهر ص ١١٧ – ١١٨، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٦.
(٣) كتاب الروضتين (١/ ١٥٤). (٤) المصدر نفسه (١/ ٢٤٥).
(٥) ديوان العماد ص ٤١٠، نور الدين في الأدب العربي ص ٦٩.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين في الأدب العربي ص ٧٠.
(٧) ديوان ابن منير ص ٢١٧، نور الدين في الأدب العربي ص ٧٠.

وقال أيضاً:

متهلـــــلٌ والمـــــوت في نبراتـــــه ‏ ‏ ‏ ‏ يُرجـى ويرهـب خوفـه وعقابـه [1]

عاشراً: مفهومه للتوحيد وتضرعه ودعاؤه:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد من عمق فهمه للتوحيد ومعرفته بالله تعالى لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة [2]، وحقق في حياته مفهوم التوحيد الصحيح، وحقق الإيمان بكل معانيه والتزم بشروطه وابتعد عن نواقضه. وهذا الموقف العظيم يدل على ما قلنا قال له قطب الدين النيسابوري - الفقيه الشافعي- مرة: بالله لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم [3] - فقد نصحه بعدم الاشتراك بالقتال والمخاطرة بنفسه حتى لا يقتل فلا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وتؤخذ البلاد-[4]، فقال نور الدين: يا قطب الدين اسكت فإن قولك هذا إساءة أدب على الله، ومَنْ محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لا إله إلا هو، فبكى من كان حاضراً [5]. وهذا الذي قاله نورالدين رحمه الله يدخل في صميم مفهوم التوحيد، فالله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وما الناس ابتداء من أصغر جندي فيهم حتى أكبر قائد إلا أدوات «فاعلة» في يده يحركها وفق مشيئته وإرادته لتحقيق كلمته في الكون الله عز وجل وكفى [6]. هذا التطبيق العملي لمفهوم الإيمان بالله وتحقيق توحيده الذي لو أدركته قياداتنا عبر التاريخ لعرفت كيف تضع هذا التاريخ لصالحنا نحن لا لصالح الخصوم والأعداء [7].

وفي ساحة الحرب، حيث الموت على بعد خطوات وحيث لقاء الله آت وراء كل لحظة.. كان نور الدين يذوب تواضعاً وإشفاقاً، وتصفه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله حيث تتمزق في أعماق وعيه بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من أجل تمزيقها لكي يقف نقياً.. فعندما التقت قواته في حارم بالصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عدة وعدداً انفرد نور الدين تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه وتضرع وقال: يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك. وإيشي فضول محمود في الوسط؟ يقول أبو شامة: يشير نور الدين هنا إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر. وبلغني أنه قال:

(1) نور الدين في الأدب العربي ص ٧٠.
(2) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٥٩).
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣٩.
(4) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٢٨.
(5) الباهر ص ١٦٩، الكواكب الدرية ص ٣٠.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٤.
(7) المصدر نفسه ص ٤٤.

اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً.. من الكلب محمود حتى ينصر[1]. وفي إحدى المعارك سنة ست وخمسين وخمس مائة، قضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفاً على تلٍّ يقال له تل حبيش وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجّالة المسلمين مع رجالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولّيا وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه بسرّه يقول: يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضعيف ملّكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النيابة، عمرت بلادك، ونصحت عبادك، وأمرتهم بما أمرتني به ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد ﷺ ولا أملك إلا نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيك. فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع في قلوبهم الرُّعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا في مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين في الكمين، فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما أقدموا عليه[2].

ومن خلال المواقف السابقة يبدو نور الدين لا فدائياً فحسب ولكن فقيهاً بقدر الله متبصرًا بدور الإنسان في حركة التاريخ، عالماً أن إرادة الله إذا شاءت تهيأت لها الأسباب ولن يعجزها شيء ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين، فإن آخر رجل منهم سيحمل المهمة ويواصل الطريق، ومن ثم يستوي – عبر هذه الرؤية – هذا القائد أو ذاك [3]. وكان نور الدين محمود في أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها [4].وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار، أنهم يقولون: ابن القسيم، له مع الله سر، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه يستجيب دعاءه، ويعطيه سؤله وما يَرُدّ يده خائبة، فيظفر علينا. فهذا كلام الكفار في حقه[5].

إن نور الدين محمود اعتبر الدعاء من أمضى الأسلحة التي تسهم في تحقيق النصر،

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٨٠.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٧٧، ٣٧٨).
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٤. (٤) عيون الروضتين (١/ ٢٥٥).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٥٥).

ومهما أعد المسلمون من أسلحة وعدة وعتاد، فإنهم يظلون عرضة للفشل والهزيمة والإحباط، إذا امتنعوا عن استخدام هذا السلاح، أو أساءوا استخدامه [(١)]، ولذلك استخدمه بنفسه وطلب من الزهاد والعباد والعلماء والفقراء والفقهاء كذلك وكان مستوعباً لقول رسول الله ﷺ: هل تنصرون إلا بضعفائكم [(٢)].

فالدعاء لله والتعلق به عند قادة النهوض الربانيين والصادقين من المسلمين مخ العبادة[(٣)]، لا بل هو سيد العبادات وأقربها وأحبها إلى الله تعالى لقوله ﷺ: الدعاء هو العبادة [(٤)]، ومفتاح الرحمة، ستمطر العباد به مفاتيح رحمة الله تعالى بعد أن تتقطع بهم الأسباب [(٥)].

أيها الأخوة الكرام المهتمون بنهضة أمتهم والتمكين لدين الله تعالى في الأرض، عليكم بالدعاء فإنه كنز حقيقي من جملة الكنوز التي تنطوي عليها الشريعة الإسلامية، فالله تعالى يحض عباده على اقتناص هذا الكنز في مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. وفي مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وغالباً ما تحدث الإجابة عاجلاً أم آجلاً ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إن من أسباب نجاح نور الدين محمود في مشروعه النهضوي، استيعابه العميق لفقه الدعاء ومقدرته على استخدامه كسلاح فتاك ضد الأعداء، وحسن تضرعه وانكساره بين يدي المولى عز وجل.

الحادي عشر: محبته للجهاد والشهادة:

كان نور الدين محمود الشهيد من محبي عبادة الجهاد في سبيل الله ويجد متعته في جهاد الأعداء والمرابطة في الثغور، قال العماد الأصفهاني: حضرت عند نور الدين بدمشق – في شهر صفر – والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها ويطربها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها [(٦)]، ومرة أخرى

(١) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة (١/ ٢٤١).
(٢) البخاري في كتاب الجهاد، الدواء الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ٦.
(٣) سنن الترمذي رقم ٣٣٦٨.
(٤) صحيحه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك (١/ ٤٩١). (٥) سنن الترمذي رقم ٣٣٦٨.
(٦) البرق ص ١٢٦، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٥.

نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوماً من دخوله إياها عام ٥٦٦هـ فيسأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت؛ ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد[1]. وأما حبه للشهادة، فقد قال عنه أبو شامة: كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي، صليب الضرب، يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير [2]، كانت عقيدة الشهادة تحركه وهذا الإيمان العميق بعقيدة الشهادة في سبيل الله هو الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى ساحات الجهاد طلباً للموت، فأسقطوا الدول، وغيروا الخرائط وسحقوا العروش ومرغوا الأنوف، ولم يموتوا، فكان نور الدين إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها [3].

إن الملك العادل نورالدين محمود الشهيد تربى على كتاب الله وهدي النبي ﷺ، فقد خص الله الشهيد بالذكر في القرآن الكريم في مواضع منها قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الشهادة إنما هي اصطفاء وتكريم من الله عز وجل لبعض عباده الأخيار، وأن الشهادة لا تكون لكل أحد من الناس، فالله سبحانه وتعالى يكرم بها من يشاء من خلقه[4]، والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى درجة المصطفين الأخيار من شهدائه أنهم مع النبيين والصديقين ومن تكون له هذه المنزلة إلا من أكرمه الله بالشهادة، ثم تأتي الصورة الناصعة للشهداء يوم القيامة يوم يؤتى بهم مع النبيين ليشهدوا يوم القيامة لمن ذب عن دين الله، وذلك شرف عظيم وموقف عظيم نالوه بالشهادة، يقول الله عز وجل في هذه الآية: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

لقد أعد الله للشهداء من الكرامة والنعيم الأبدي ما يجعل كل نفس زكية تتوق إلى

(١) الباهر ص ١٥٣ – ١٥٤، نور الدين محمود ص ٤٥.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٥).
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣١.
(٤) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة ص ٩٥.

الشهادة وترغب لتفوز بالأجر العظيم [1] قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ – ١٧٠]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وورد في السنة الثابتة عن النبي ﷺ: إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؛ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا [2]. فالشهيد فضله عظيم ومكانته رفيعة، فإذا كان الله – سبحانه وتعالى – فضل المجاهدين على القاعدين فالشهداء أكثر فضلاً وأعظم تشريفاً [3]. ولقد قاتل نور الدين الأعداء وجاهد في الله حق جهاده حتى استحق لقب الشهيد [4]، تشريفاً وتكريماً من الأمة لهذا البطل المجاهد الفذ.

الثاني عشر: عبادته:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها[5]، ويحافظ على الجماعة وكان كثير الابتهال إلى الله عز وجل في أموره كلها [6]. وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إلى المسجد بغلس، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح[7]، وقال ابن الأثير: حدثني صديق لنا بدمشق – كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين – فقال: كان نور الدين يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى

(١) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة ص ٩٦. (٢) مسلم، كتاب الإمارة (٣/ ١٥٠٢).
(٣) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة ص ٩٧.
(٤) نور الدين في الأدب العربي ص ٤٨.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين الرجل والتجربة ص ٤٦.
(٦) البداية والنهاية (١٦/ ٤٩٠).
(٧) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود ص ٤٦.

الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة[1]. وقال ابن كثير: كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، صموتا وقوراً[2]. وكان نور الدين كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده[3]. وعبارة «كان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده» هذا هو المنطق الذي علمنا إياه الإسلام والذي يجعل التعبد، الذي هو غاية الخلائق، ممارسة إيجابية تضرب في أعماق الناس فتغيّر نفوسهم، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته، كانت طبيعة تعبد نور الدين تدفعه إلى المسؤولية وتجعله في قلبها وهو أعمق وعياً وأشد خشية وأمضى عزيمة وأقدح ذكاء[4]، لقد مارس نور الدين مفهوم العبادة بمفهومها الشامل، وأعطت تلك الممارسة ثمارها على مستواه الشخصي والشعبي، وعلى دولته، وتحقيق العبادة من شروط التمكين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۞ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥ ، ٥٦]. فقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبجميع أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكافة أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ[5].

الثالث عشر: إنفاقه وكرمه:

اشتهر نور الدين بالإنفاق الواسع والكرم العظيم وكانت له أوقاف عظيمة، قال العماد: وكلف نور الدين.. بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة الأيامى..وإغناء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية

(١) الباهر ص ١٦٤ ، نور الدين محمود ص ٤٦. (٢) الكواكب ص ٥٤، نور الدين محمود ص ٤٦.
(٣) الكواكب ص ٥٤، نور الدين محمود ص ٥٤.
(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٦ ، ٤٧.
(٥) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ١٦١.

آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى الجزية والخراج وما تحصل من قسم الغلات يصرف على قويم المنهاج قال: وأمر أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصدقة أنّه يحضر جماعة من أماثل البلد في كل محلة، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم، وكان يرسم نفقته الخاصة في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمّة حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه، ويتفضل منه ما كان يتصدق به في آخر الشهر، وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصّل ثمنه، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة، وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من ذلك، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعين له وقوفاً [1]. قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمره، ومشاهدة أبنيته الدّالة على خلوص نيّته تغني عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان فضلاً عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طوله طول وعمله لله مبرور مقبول[2]. وأدرّ على الضعفاء والأيتام والصدقات حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين وأقام لهم الأطباء والمعالجين، وكذلك على جماعة من العلماء ومعلمي الخط والقرآن وعلى ساكني الحرمين، ومجاوري المسجدين، وجهز عسكراً يحفظ المدينة، وأقطع أمير مكة، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول ﷺ واستخراج العين التي بأُحُدُ، وكانت قد دفنتها كثرة السيول، وعمّر الربط والخانقاهات، والبيمارستانات، وبنى الجسور في الطرق والخانات، ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم، بقدر كفايتهم، وكذلك صنع لما ملك سنجار، وحران والرقة، ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلاّ وله فيه حسن أثر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلاّبها [3].

وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال ابن منير:

يأيها الملك المنادي جوده ... في سائر الآفاق: هل من معسر

(1) عيون الروضتين (1/ 346).
(2) المصدر نفسه (1/ 346).
(3) المصدر نفسه (1/ 351).

ولأنــت أكــرم مــن أنــاس نوَّهــوا   باسم ابن أوس واستخصّـوا الـبحتري
ذلَّــت لــدولتك الرقــاب ولا تــزل   إن تغـز تغـنـم أو تقاتــل تظفــر [1]

كان نور الدين -كما يصفه كثير من المؤرخين - قليل الابتهاج بالشعر [2] لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب، وإنما على نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل [3].

إن نور الدين هنا يذكرنا بعمر بن عبد العزيز لا في كراهيته للتجربة الشعرية ولكن بتوجسّه من ملق الشعراء وضعفهم ومزايداتهم، ومن ثم فإن نور الدين - كسلفه - لم يكن يشرع الأبواب في وجوههم بل لم يكن يعطيهم، وقد سئل يحيى بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين فأجاب في إحدى مقاماته: وهو سهم للدولة سديد وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد مجاهد، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل، وبالمحل الجديب للشاعر الأديب، فليس لشاعر عنده من نعمة تجزى [4]. وهذه العبارة توحي بأن موقفه هذا لم يكن مرضياً عنه من الجميع فهناك دائماً من يريد أن (يأخذ) على حساب أي شيء في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة «أعطوه ألف دينار» أو عبارة سل ما شئت. ومن بين هؤلاء الشعراء أسامة بن منقذ الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمنان غمزاً مستوراً لموقف نور الدين من عطاء الشعراء:

سـلطاننا زاهـد والنـاس قـد زهـدت   لـه فكـل علـى الخـيرات مـنكمش
أيامــه مثــل شــهر الصــوم طــاهرة   من المعاصي وفيها الجوع والعطش

لكن أبا شامة، المؤرخ الدمشقي، يتصدى بنفسه للردّ على الرجلين: صاحب المقامة وصاحب القصيدة، ولفضح الازدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول: ما كان - نور الدين - يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد وما يعود نفعه على العباد. وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز - وهو من سادات التابعين في الشام - أنه كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبّون. وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار

(1) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٧٠.
(2) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٣٥.
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٦.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٣٧.

به فهو القائل في مدح نور الدين:

في كـــل عـــام للبريـــة ليلـــة | فيهـــا تُشَـــبُّ النـــارُ بالإيقـــاد
لكـن لنـور الـدين مـن دون الـورى | نـاران: نـار قـرى ونـار جهـاد
أبـــداً يصـــرفُها نـــداه وبأســـه | فالعـــام أجمـــع ليلـــة الميلاد
مَلِـــك لـــه في كـــل جيـــد منـــةٌ | أبهـــى مـــن الأطـــواق في الأجيـــاد
أعلـى الملـوكِ يـداً وأمـنعهم حمًـي | وأمـــدهم كفـــاً ببـــذل تـــلاد
يعطـي الجزيـل مـن النـوال تبرُعـا | مـــن غـــير مســـألة ولا ميعـــاد
لا زال في ســـعد وملـــك دائـــم | مـــا دامـــت الـــدنيا بغـــير نفـــاد (١)

وعندما أسير الفرنج أخا أسامة بن منقذ نجم الدولة محمد طلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الإعانة في فكاكه فلم يفعل، قال أسامة: وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، فوهبه فارساً من مقدَّمي الدَّاوية يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص بـه أخـاه مـن الأسر(٢). والملاحظ أن نور الدين قد مدح من قبل شعراء عصره الكبار كابن القيسراني وابن منير والعماد الأصفهاني وغيرهم. ويبدو أن مدح الشعراء لنور الدين لم يكن بدافع التكسب أو توخي التزلف (٣). يقول الدكتور محمود إبراهيم في حديثه عن علاقة ابن القسيراني بنور الدين ومدحه له: ومما يلفت النظر في تمجيد ابن القسيراني لنور الدين، أن الشعر الذي نظم في هذا التمجيد قد خلا من الاستماحة التي لم تخل منها قصائد أخرى لابن القيسراني قيلت في أشخاص آخرين في مناسبات قديمة. ولعل هذا مما يعضِّد الاعتقاد بأن شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثل إعجاباً صادقاً بالبطل الإسلامي، وأن هذا الشعر لا يترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك (٤).

وكان نور الدين يحب الشعر ويعجب به، لأنه كان يدرك أثر الشعر في إثارة الشعور وتحريكه ولاسيما شعر الجهاد ووصف المعارك. أما كونه لا يبتهج بالمدح فهذا تواضع منه، لأنه لا يحب مبالغات الشعراء، ومزايداتهم بالمدح، ولأنه كان مقتدياً بالسلف الصالح كالخلفاء الراشدين، فلا يأخذه بهرج القول (٥). فنور الدين لم يكن في حالة خصام مع

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ١٩٧.
(٢) كتاب أخبار الدولتين (١/٣٥٨).
(٣) نور الدين في الأدب العربي ص ١٩٥.
(٤) صدى الغزو الصليبي ص ١٥٩ – ١٦٠.
(٥) نور الدين في الأدب العربي ص ١٩٧.

الشعر، بل كان يحب الشعر الملتزم فقد طلب من العماد الأصفهاني أن يعمل مثنويات شعرية في معنى الجهاد على لسانه فقال:

للغزو نشاطي، وإليه طربي ... مالي في العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب ... والراحة مستودعة في التعب
لا راحة في العيش سوى أن أغزو ... سيفي طرباً إلى العُلى يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العزّ ... والقدرة في غير جهاد عجز [1]

ويقول الأصفهاني في موضع آخر: كنت راكباً مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية فسألني: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة مطلعها:

عُقدت بنصرك راية الإيمان ... وبدت لعصرك آية الإحسان [2]

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله أن يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني والعماد الأصفهاني وابن منير، وابن الدهان الموصلي، أولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر الذي طرق أبواباً واسعة، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة لولا أن لقوا من نور الدين إعجاباً وتوافقاً وانسجاماً[3]، وأما ما تضمنه قول الوهراني، وقول ابن منقذ من إشارة إلى بخل نور الدين أو حرصه على المال، فهذا أمر مستبعد وفيه كثير من المبالغة، ولو كان نور الدين كما يقولان لما ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه ويسجلون انتصاراته، ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود، حتى أسامة بن منقذ نفسه، ولما اختصَّ بمدحه بعض الشعراء ولازموه فترات طويلة [4].

ومما له علاقة بالكرم والإنفاق في سيرة نور الدين: حضر صبي وبكى عند نورالدين، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حُجرة من حجر الوقف – يعني وقف الجامع – فسأل عن حاله؟ فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف، لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل: كم أجرة السنة؟ قالوا: مائة وخمسون قرطاساً، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرقّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى

(١) (٢) نور الدين الرجل والتجربة ص ١٣٨.
(٣) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود ص ١٣٩.
(٤) نور الدين محمود في الأدب العربي ص ١٩٨.

الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك بإخراجه من الحبس فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأنَّ الإنعام كان في حقه [1].

هذه هي أهم صفات نور الدين محمود الشهيد رحمه الله، قال فيه ابن عساكر:.. ومع ما ذكرت من هذه المناقب كلها وشرحت من دقها وجلّها فهو حسن الخط بالبنان، متأتٍ لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان، حريص على تحصيل كتب الصحاح والسنن مقتنٍ لها بأوفر الأعواض والثمن، كثير المطالعة للعلوم الدينية، متتبع للآثار النبوية، مواظب على الصلوات في الجماعات، مراع لآدابها في الأوقات، مؤدياً فروضها ومسنوناتها، معظم لقدرها في جميع حالاتها، عاكف على تلاوة القرآن على مر الأيام، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام، كثير الدعاء والتسبيح، راغب في صلاة التراويح، عفيف البطن والفرج، مقتصد في الإنفاق والخرج، متحرٍ في المطاعم والمشارب والملابس، متبرئ من التمادي، والتباهي والتنافس، عريٌّ عن التجبر والتكبّر، بريئ من التنجيم والتطيُّر، مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحدث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما حيره، ولقد حكي لي عنه من صحبه في حضره وسفره أنه لم تُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا ضجره، وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها، يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم، فإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد ولاته أمر بالكف عن أذى من تكلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله بإسقاط المرتبة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيسر له ما يقصده من جميع الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكّن له في البلدان والبقاع حتى ملك حصن شيزر، وقلعة دوسر، وهما من أحصن المعاقل والحصون واحتوى على ما فيهما من الذخر المصون من غير سفك محجمه من دم في طلبهما ولا قتل أحد من المسلمين بسببهما، وأكثر ما أخذه من البلدان، بتسليمه من أهله بالأمان، ووفى لهم بالعهود والإيمان فأوصلهم إلى مأمنهم من المكان. وإذا استشهد أحد من أجناده حفظه في أهله وأولاده، وأجرى عليهم

(١) عيون الروضتين (١/٣٥٧).

الجرايات، وولى من كان أهلاً منهم للولايات، وكلما فتح الله عليه فتحاً وزاده ولاية أسقط عن رعيته قسطًا وزادهم رعاية، حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس، واتضعت في جميع ولايته الغرامات والنحوس، ودرّت على رعاياه الأرزاق ونفقت عندهم الأسواق، وحصل بينهم بيمنه الاتفاق، وزال ببركته العناد والشقاق.. إلى أن قال: فالله يحقن به الدماء ويسكن به الدهماء ويديم له النعماء ويبلغ مجده السماء ويجري الصالحات على يديه، ويجعل منه واقية إليه، فقد ألقى أزمتنا إليه وأحصى علم حاجتنا إليه، ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ذكرت منها غيضاً من فيض، وقليلاً من كثير، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادة في تواضعه لعلو القدرة، فالله يديم على الرعية ظله وينشر فيهم رأفته وعدله، ويبلغه في دينه ودنياه مأموله، ويختم بالسعادة والتوفيق أعماله فهو بالإجابة جدير وعلى ما يشاء قدير[1].

إن ماذكرته من صفات للملك العادل نور الدين ثمرات زكية لإيمانه العميق على تحقيق ما عجز عنه غيره ممن كانت بلادهم وثرواتهم تزيد أضعافاً على ما كان عليه، فقد امتلأت نفسه بمبادئ الإسلام على نحو لا نكاد نجد لَه شبيهاً إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام، وهذا الإيمان هو الذي حوله من أمير إلى مجاهد، ومن حاكم سياسي إلى زاهد، وهو الذي أعانه على مواجهة مشكلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتغلب عليها رغم قلة الموارد، ولم يعرف عنه تعصباً وكانت نفسه سمحة اكتسبها من طبيعة الإسلام السمحة، إنه حارب الصليبيين على أنهم أجانب مغتصبون، لا على أنهم نصارى، ومن هنا فإنه لم يمس النصارى الوطنيين بسوء وكان لهم عنده حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم في حياته كنيسة، ولا آذى قساً أو راهباً على عكس الصليبيين الذين إذا دخلوا قرية قتلوا أهلها المسلمين جميعاً. وقد أكسبه إيمانه هذا احترام خصومه من الصليبيين فكانوا على عداوتهم له يحترمونه ويعترفون له بالامتياز عليهم، حتى إن المؤرخ وليم الصوري، الذي أفاض في كتاباته بالحقد على الإسلام والمسلمين، لم يستطع إلا أن يعترف بفضله وعدله وصدق إيمانه[2].

* * *

(١) تاريخ دمشق الكبير (٦٠/ ١٢٢ ، ١٢٣).

(٢) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (٢/ ٧٤٢).

المبحث الثالث

أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين

اتخذ نور الدين محمود من سيرة عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدى به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي وتمكينه في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة، ولذلك حرص على معرفة هذه السير المباركة لكي يقتدي برجالها، قال أبو حفص معين الدين الإربلي في مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين.. إنه علم للاقتداء بالسلف الفضلاء العقلاء، يكمل الأجر ويبقى الذكر واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيهﷺ بالاقتداء بسلفه من الأنبياء فقال عز من قائل: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] فلذلك اشتد حرصه – أدام الله سعادته – على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة فحينئذ رأيت حقاً على بذل الوسع في مساعدته واستنفاد القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز ﷺ والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويُيسِّر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك، ولاحت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة، معاونة على البر والتقوى[1]. لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً عملياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكَّم الشريعة، وقمع البدع، وأقام العدل، ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة، وعمق هوية الأمة، وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء وكان نسيج وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه واهتم بالإدارة والاقتصاد والقوات المسلحة، والمدارس العلمية والمؤسسات الاجتماعية، وكان شديد التقيد بأحكام الشريعة الغراء يقول

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٢)، الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٣٥٦.

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي:.. فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خِلاّنه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين – رضي الله عنهما – في العدل والجهاد، واجتهدا في إعزاز دين الله أي اجتهاد، وهما ملِكا بلدتنا وسُلطانا خُطّتنا، خصَّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فإنهم قد يستبعدون طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون نحن في الزمن الأخير وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله تعالى الكريم [1] وسددً.. هذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين، فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي شفى الله بهما كل عَيي، وظهرت من خالقهما العناية. والفضل للمتقدم، فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظيم محله، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهد الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد فهان على من بعده على الحقيقة سلوك تلك الطريقة [2].. فما أحقهما بقول الشاعر:

وألبس الله هاتيك العِظامَ وإن ... بَلين تحت الثرى عفواً وغفرانا
سقى ثرى أُودِعُوه رحمةً ملأتْ ... مثوى قبورهم روحاً وريحانا [3]

وإليك أخي أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود الشهيد في دولته.

أولاً: الحرص على تطبيق الشريعة:

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين،

---

(١) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود ١٩. (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٧).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٨).

كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية «براجماتية» لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقيماً ومبادىء أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدمًا صوب آفاقها الرحبة الشاملة. إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وبعث المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود فهي إذن دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية وكسب واحتراف. وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات، ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى – فعلاً – إلى أن تنتقل هذه الدعوة – رغم المصاعب والعقبات – من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق [1] قال: ونحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل [2]. وقال: نحن شحن [3] للشريعة نمضي أوامرها [4]، وقال مخاطباً أحد ولاته: انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميز بين المحاسن والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة [5]. وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فالله عليكما، وإلا فخبزي عليكما حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا ترفع إليَّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي[6]. وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب: إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع[7]. وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام وعلى جعل الدولة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض[8]، يقول ابن الأثير: كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها [9]. ويقول في مكان آخر: وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع

---

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦. (٢) الباهر ص ١٧٣ – ١٧٤.

(٣) شحن : أي الشرطة، أو القوة المشرفة على تنفيذ الشريعة.

(٤) الباهر ص ١٦٦؛ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

(٥) البرق ص ١٤٦ – ١٤٧.

(٦) الكواكب ص ٢٥ نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

(٧) كتاب الروضتين (١/ ٣٦ – ٣٧). (٨) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

(٩) الباهر ص ١٦٦، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه [1]، ويقول أبو شامة: سمعت أبا شداد يقول: أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين [2]، ويقول في مكان آخر: كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها [3]. ويقول ابن كثير: كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة [4]، ويقول ابن قاضي شهبة: كان نور الدين – لما صارت له الموصل – قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء – أحد شيوخ الموصل الصالحين – وعندما حضر والي الموصل وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور الدين كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها وعدم ارتداعهم: وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة ونقصان ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب، واعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالمطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه: إن الزعار وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجئ ليشهد له[5]. فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم [6]. فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه وجواب نور الدين عليه قائلاً: انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد [7].

وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكّن أحداً من إظهار ما يخالف

(١) الباهر ص ١٦٥ – ١٦٦.
(٢)، (٣) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٧.
(٤) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٧.
(٥) عيون الروضتين (١/ ٢٧٦). (٦) المصدر نفسه (١/ ٢٧٦).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٢٧٦).

الحق، ومتى أقدم على ذلك أدّبه بما يناسب بدعته[1]، وكان لا يقدم على إجراء ما عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها [2].

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد.. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج، وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعفن فيدمر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة. لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ – برهان الدين البلخي – وجهاً لوجه أمام نور الدين: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ فلا والله [3]، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الإنجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين.. لقد أصدر أوامره إلى كل موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبهة الحرام وتصفية آثار الآثام، وإراقة الخمور، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سواء[4].

لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حداً في غاية الروعة والجمال وشدة المحبة لرسول الإسلام، فقد حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمر أثناء الحديث أن النبيﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول اللهﷺ يتقلد السيف! يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم فلما كان من الغد مر، وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك [5]. رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبيﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما

(1) الكواكب ص ٢٥ ، ٣٢ – ٣٣، نور الدين محمود ص ٨٧.
(2) مرآة الزمان (٨/ ٢٤٧)، نور الدين محمود ص ٨٧.
(3) زبدة حلب (٢/ ٢١٥)، نور الدين محمود ص ٨٨.
(4) نور الدين محمود الرجل التجربة ص ٨٨.
(5) عيون الروضتين (١/ ٣٨٤، ٣٨٥).

بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيهﷺ ، فما الظن بغير ذلك من السنن [1]. وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني:

ذو الجهـادين مـن عـدو ... فهـو طـول الحيـاة في هيجـاء
أيها الملك الذي ألزم النـاس ... سلوك المحجـة البيضـاء
قـد فضحت الملوك بالعـدل ... لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسماً ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التقى على الأتقياء [2]

وقال فيه ابن منير:

عفّى جهادك كل رسم مخوفة ... وعفت بصفوة عدلك الأكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم ... لله في خطراته أسرار
غضبان للإسلام مال عموده ... فلنوره مما عراه نوار
لم يَبق ما كسى مسلم سلقاً ولا ... ساع لمظلمة ولا عشّارُ
همدوا كما همدت ثمود وقادهم ... لخسارهم مما أتوه قدارُ
العار في الدنيا شقوا بلباسه ... ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتها عمرية [3] ... رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازماً ... بأقلها تستعبد الأحرار [4]
أما نهارك فهو ليل مجاهدٍ ... والليل من طول القيام نهارُ [5]

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى، من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.. إلخ.. وسوف تتضح بإذن الله تعالى هذه الآثار في هذا الكتاب.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة قد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر ابن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي

(1) الكواكب نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٩.
(2) كتاب الروضتين (١/ ٢٨٥ ، ٢٨٦).
(3) عمرية : يقصد عمر بن الخطاب.
(4) (5) عيون الروضتين (١/ ٣٩٣).

من سنن الله الجارية والماضية، لاتتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه، ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار [1]. قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

ثانياً: بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة:

كان نور الدين رجل عقيدة وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق، قال عنه ابن كثير:.. كان مجاهداً في الفرنج، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صحيح الاعتقاد وكان قد قمع المناكر وأهلها ورفع العلم والشرع وليست الدنيا عنده بشيء رحمه الله [2].
وكان نور الدين يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة، قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة.. حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً [3]، وكان يعاقب المبتدعة بأشد العقوبات: قيل إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيه، فأركب على حماره، وأمر بصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حران [4]، وكان نور الدين يتحرى السنة في أمورها كلها ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية، وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود [5] حتى خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنية. وكان رأي نور الدين

(١) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٣٥٧.
(٢) (٣) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣٠.
(٤) كتاب الروضتين (١/ ٢٤)، الجهاد والتجديد ص ٣٣٠. (٥) الجهاد والتجديد ص ٣٣١.

في الدولة العبيدية الفاطمية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة [1]، يقول فيها: وطالما بقيت «٢٨٠» سنة مملوءة بحزب الشياطين... حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة، وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض [2]، وسيأتي الحديث عن أساليب ومنهج نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في مصر.

*** دور نور الدين في دعم المذهب السني:**

مهدت مدارس نظام الملك -رحمه الله- السبيل ويسرته أمام نور الدين والأيوبيين، فأضحى الطريق معبداً لتحقيق الهدف الذي أنشئت النظاميات من أجله وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ودعم المذهب السني، وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي والذي كان محصوراً في حلب ودمشق ومصر، وبذل جهوداً كبيرة ليمكن لمذهب أهل السنة إلا أن هذه الجهود كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث، وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة[3].

١- جهود نور الدين في حلب: أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦هـ/ ٩٤٤ - ٩٦٧م) لأن بني حمدان كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الإمامية فيسَّروا لدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، وذلك عندما غير سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦ - ٣٨١هـ/ ٩٦٧ - ٩٩١م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام ٣٦٧هـ/ ٩٧٧هـ وزاد فيه حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر [4]، فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداس والعقيليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً [5]. وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تتش الذي أمل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعدوه في أخذ دمشق منه، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن، ومن هؤلاء وأولئك تكون مجتمع الشيعة في حلب، ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين فقد كان المذهب الشيعي

(١) الجهاد والتجديد ص ٣٣١.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣١.
(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٠٦.
(٤) زبدة تاريخ حلب (١/ ١٧٢).
(٥) البداية والنهاية نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٠٧.

متغلغلاً في حلب[1]، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة، ففي رجب من عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب رأيناه يأمر الشيعة بترك حي على خير العمل في الأذان وينكر عليهم إنكاراً شديداً جهرهم بسب صحابة رسول الله ﷺ، ويحذرهم من مغبة العود إلى ما نُهوا عنه، فعظم هذا الأمر على الإسماعيلية، وأهل التشيع، وضاقت به صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة [2]، كما قام نور الدين بخطوة أخرى وهي: إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طي[3]، وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة: وهي إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين: إحداهما للحنفية وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاء وألقى بها الدروس على الفقهاء، وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة، فيذكر بعض المؤرخين أن البلخي جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع [4]. وكانت المدرسة الثانية التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة النفريَّة النورية، وقد أنشأها (سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) أحد أساتذة نظامية نيسابور، وكان حضر إلى دمشق في عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة[5]. ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادفة فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام، ويملك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية الرافضية، وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسوا في المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٠٧.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٢٠٢). (٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٨٥.
(٤) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٠٩ نقلاً عن زبدة حلب.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٠٩.

السنة ومحاربة التشيع الباطني المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته [١].

أ- الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب: كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي: النفرية والعصرونية والشعيبية، وأسند الأولى إلى استاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرَّجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، في الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر، لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة على الإحياء السني، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم، وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السني الكبير، ولأن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة. والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشأ فيها أشهر مدارسه وهي: النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى، وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين [٢] ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المسلحين بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية، لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السني غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها [٣].

ب- الاستفادة من جهود علماء السنة: لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة، ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية، وبذلك نجح نور الدين في

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٠٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٠. (٣) المصدر نفسه ص ٢١١.

التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة [1] وتوحيدها في جبهة واحدة، ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي [2].

ج- دعم التصوف السني: اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة، وقد أصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاها له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي وسيأتي الحديث بإذن الله عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة خصوصاً في عاصمة الخلافة وجهود الغزالي ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً، فقد كانت الصوفية في ذلك العصر محل تقدير الحكام واحترامهم وخاصة نورالدين الذي كان يستفيد منهم في الدعاء وجمع المعلومات عن الأعداء، وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم ويبني لهم الخوانق في أنحاء مملكته، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال ثلاث خوانق: اثنتان منها للرجال وواحدة [3] للنساء. واستطاعت الدولة النورية التأثير على التصوف السني، وأسهم التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية ومد نفوذه في أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً والتي كانت من وسائلها دعم التصوف السني لمقاومة المذهب الإسماعيلي والتيار الفلسفي، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً، ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين والمماليك [4].

د- دور تدريس الحديث: اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف وكان من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت، وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف – المجانب للحق والعدل والصواب – إلى الطعن في صحاح السنة ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وتشييد معاهد دراسية خاصة به كان سمة من سمات هذه الفترة التي حكم فيها نور الدين والأيوبيون، ذلك أن الظروف التي أحاطت بالشام ومصر في تلك المرحلة عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السنية وكان من أثر ذلك العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبئ الناس للجهاد وتحيي

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١١.
(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٨٧.
(٣) التاريخ السياسي والفكر للمذهب السني ص ٢١٢.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٥.

فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية بجامع حلب على دراسة الحديث، كما أوقف داراً أخرى للغرض ذاته، هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السني بها [1].

هـ - موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السنية: لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السني بها وظلوا يتحينون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئة شيعية يمارسون فيها شعائرهم بحرية تامة، وكانت محاولتهم الأولى في هذا السبيل عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م عندما مرض نور الدين بحلب حتى أرجف بموته ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها، فتجمع حوله أحداث الشيعة وأبدوا استعدادهم لنصرته شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك، واشتعلت نيران الفتنة بين السنة والشيعة، وقام الأخيرون بنهب بعض المراكز التعليمية السنية كالمدرسة العصرونية وغيرها من دور أهل السنة، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بأن يمضي إلى الجامع ويصلي بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه، فشرع المؤذنون في الأذان السني فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي وحذرهم وبين لهم أن نور الدين قد عوفي وأنه هو الذي أمر بهذا فانصرفوا وسكنت الفتنة [2].

و- وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م عندما أحرق الإسماعيلية مسجد حلب الجامع وكان يتخذ مكانًا للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوايا التي وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث، فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرة [3]، ولعل الحركة من جانب الإسماعيلية في حلب كانت رد فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماض في تضييق الخناق على الشيعة، وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام [4]. كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدروسة تدل على وعي وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٢.
(٢) زبدة حلب (٢/٣٠٨ – ٣١٠)، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٣.
(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٣. (٤) المصدر نفسه ص ٢١٣.

المؤسسات السنية الهادفة، وظهر هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجيد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين[1]. كما كان نورالدين – رحمه الله – يدرك قيمة العلم كسلاح يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولا شك أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي نعيشه الآن[2]، فالتصدي للغزو الباطني الحديث يحتاج لقوة عسكرية واقتصادية وسياسية، وفكرية وإعلامية تتوازن وتتعاون وتتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السني في الأمة والوقوف أمام العقائد الباطنية الزاحفة.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب وتسابق أمراؤه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة، وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية[3]. وقد آتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون وبأفعال السنة يتظاهرون، ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب: أن الشيعة انقرضوا من المدينة وتلاشوا بالمرة، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة[4]، وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع من هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة[5]، وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

٢- جهود نور الدين في الإحياء السني في دمشق: استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ومن ثم واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنية، وكان منهجه

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٣.
(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٣. (٣) المصدر نفسه ص ٢١٤.
(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب (١/ ١٩١ – ١٩٣)، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٤.
(٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٤.

في دعم المذهب السني في دمشق قد أوجب زيادة في أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً، ولذا فإن المنهج الذي سلكه نورالدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية ومن ناحية أخرى لابد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائدي تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السني – الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه – ولذلك رأينا خطة نور الدين في دمشق تسير في ثلاثة اتجاهات رئيسية [1]:

الاتجاه الأول: تركز في العناية بإنشاء المدارس السنية وربط الصوفية، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين: الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر، استجابة لميل طبيعي إلى هذا المذهب الذي كان يعتنقه دون تعصب، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى، وجعلها وقفاً على الحنفية وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق بهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة (ت٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) ووصف ابن جبير هذه المدرسة عندما زارها في عام ٥٨٠هـ بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً.. وهي قصر من القصور الأنيقة [2]، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة وهي المدرسة النورية الصغرى[3]. وأما المدارس الشافعية التي نسب إنشاؤها إلى نور الدين فآراء مؤرخي المدارس متضاربة حولها، ومع عناية نورالدين بتشييد المدارس التي تعني بتراث الإمامين العظيمين فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين، بل وقف على زاوية المغاربة وهم مالكية بالجامع الأموي ما يعينهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة [4]، وواصل نور الدين في دمشق سياسته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية فشيد لهم – خانقاه – خارج المدينة وصفها ابن جبير بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها [5]، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي ابن حموية [6].

وأما الاتجاه الثاني: فكان منصباً على العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، ومن ثم بنى أكبر دار للحديث في دمشق، ووكل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٥. (٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣١.
(٣) الدارس في تاريخ المدارس (١/٦٤٨).
(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٣١ – ٢٣٢، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٦
(٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٦.
(٦) مرآة الزمان (٨/ ٢٧٢)، التاريخ السياسي والفكري ٢١٦.

الكبير: تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر ت (٥٧١هـ/ ١١٧٥م) وكان عمدة في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلكان بأنه من أعيان الفقهاء والشافعية ولكن غلب عليه الحديث فاشتهر به[(١)]. وهذه العلوم الثلاثة -أعني الحديث والفقه، وعلم الكلام- كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة ولذلك قربه نور الدين منه وأدناه من مجلسه واستمع إليه وفوض إليه القيام بمهمة الإشراف والتدريس بدار الحديث النورية. وعناية نور الدين بالحديث الشريف – على هذا النحو – تعبر عن إدراك تام لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب: من تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وحثهم عليه في بيئة تواجه باستمرار خطر العدو الذي يحتل مقدسات المسلمين ويتربص بهم الدوائر، كما أن هذه الحفاوة بالحديث الشريف تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع من فروع الثقافة السنية. فقد شارك العلماء في هذا الميدان فحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري[(٢)].

الاتجاه الثالث: كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية فإن نور الدين بني في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم النفقات الوفيرة، كما خصص للأيتام الذين يقرأون القرآن – بالمساجد التي شيدها – أوقافاً معلومة [(٣)] يذكر ابن كثير: أن نور الدين وقف وقفاً على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة [(٤)]. وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية – على اختلاف أنواعها – الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلابها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم وتعليمه حتى إن ابن الأثير ذكر أنه بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١١م تسعة آلاف دينار كل شهر [(٥)]، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نورالدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم[(٦)]. ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٧١ – ٤٧٣).
(٢) الباهر ص ١٦٥، كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي ص ٢١٧.
(٣) الباهر ص ١٧٢، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٧.
(٤) البداية والنهاية نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٧.
(٥) الباهر ص ١٧٢، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.

النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق:

كأنهـــا جنـــة الخلـــد دانيـــة ... قصـــورها فتحـــت منهـــا المقاصـــير
في كـــل قطـــر بهـــا للعلـــم مدرســـة ... وجـــامع جـــامع للـــدين معمـــور
يتلـــى القـــرآن بـــه في كـــل ناحيـــة ... والعلـــم يـــذكر فيـــه والتفاســـير
تكامـــل الحســـن فيـــه مثـــل مـــا كملـــت ... أوصـــاف مـــولى بنشـــر العـــدل مشـــهور
الملـــك والـــدين والـــدنيا بأجمعهـــا ... وللخليفـــة مـــن أنـــواره ســـور [1]

٣- دور نور الدين في إعادة مصر إلى المعسكر السني: لم يقدر لنور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً، ومن ثم لم تتهيأ له الفرصة ليقيم فيها مؤسسات فكرية تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم – وتنتشله من مستنقع البدع والضلال – وتعيده إلى رحاب السنة مرة أخرى، فالمؤسسات العقائدية السنية التي قامت في مصر حسبت كلها في رصيد الأيوبيين، حتى ما أنشيء منها في حياة نور الدين وكان له فيها أثر غير مباشر، ذلك أن الأيوبيين قدر لهم أن يستمروا في قيادة الإحياء السني في مصر بعد وفاته، فنسبت معظم الجهود – إن لم يكن كلها – إليهم. ولكنا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة وهي أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه، فما ينسب إليهم لا بد أن نلمس فيه أثره، ونلمح فيه توجيهاته، وذلك علاوة على الدور الكبير الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السني، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: في أي الجوانب إذن تركز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة؟[2] يذكر المقريزي: أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر عقب مقتل الخليفة «الظافر» في المحرم سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وتولية ابنه «الفائز» -وكان طفلاً صغيرًا- فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن ينتهز هذه الفرصة ويزحف على الساحل الشامي ومصر ويأخذها من أيدي الفاطميين وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل السيوطي في حسن المحاضرة [3]، ويفهم من الروايتين أن الخليفة المقتفي هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر وأنه شجعه على ذلك وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السني [4]. ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة التي قام بها الخليفة المقتفي ووزيره يحيى بن هبيرة في دعم

(١) التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٨.
(٣) حسن المحاضرة (٢/ ٣)، اتعاظ الحنفا (٣/ ٢٢٣).
(٤) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٩.

مسيرة نورالدين إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيار استراتيجي في خطته لتضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوي وهذه الحقيقة عبر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته عندما أرسل إليه صلاح الدين – من مصر – هدايا وتحفًا فقال: والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل وقلع الكفار منه(١). وكلمة تطهير الساحل لعلمه أهمية الهيمنة البحرية للمعسكر السني لكي يطهر البيت المقدس وبلاد الشام من الصليبيين، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا، تحتاج لحشد قوى العالم الإسلامي، مع قطع الإمدادات أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام، وهذا لا يكون إلا بضم مصر وتخليصها من أيدي الروافض الباطنيين الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون، كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركي سني، وهو على أي حال-امتداد للسلاجقة الذين تمنوا فتح مصر وإعادتها إلى دائرة النفوذ السني، لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابعاً من ذاته ومتمشياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية، ومحققاً لأمانيه الدينية من ناحية أخرى. ومما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين التي سعى لتحقيقها قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المستضيء يبشره بإقامة الخطبة له في مصر: ما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها (٢)، كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقدي من الفاطميين بقوله عن مصر:....وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين مملوءة بحزب الشياطين حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض، وتقدمنا إلى من استبناه أن يستفتح باب السعادة، ويقيم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك (٣).

ولهذا كله كان من الطبيعي أن ينتهز نور الدين الفرصة التي سنحت له للتدخل في شؤون مصر عندما اضطربت أحوالها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء، وطمع الصليبيين فيها، فثابر على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك حتى تم الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة، وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م ووزر قائده أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد في مصر، لكنه ما لبث أن توفي وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة،

(١) مرآة الزمان نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص٢١٩.
(٢) (٣) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢٠.

ثم يتابع المسيرة بعد وفاة استاذه العظيم [(١)].

خطة نور الدين في بداية فتح مصر:

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرين مهمين:

الأول: تغيير النظام القضائي بها : بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون، يذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه – وكان بحلب – يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها، ومما قاله نور الدين للشيخ: أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق.. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع.. والآن قد تعين عليك وعليَّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت.. فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله [(٢)].

والأمر الثاني: كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر : فما أن استقرت عساكر نور الدين فيها حتى وردت إليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجل إقامة الخطبة له في مصر، ثم لما ولي «المستضيء» في عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م كرر هذا الطلب، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه إلى أن ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرج فسيئول أمره إلى الفساد، وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعاء للعباسيين على منابر مصر، وبموته سقطت الدولة الفاطمية [(٣)]، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عصرون إلى الخليفة العباسي يحمل رسالة تتضمن البشارة بهذا الحادث الكبير، وأمره نور الدين أن يقرأ البشارة في كل مدينة يمر بها، فلم يترك مدينة في الطريق إلى بغداد إلا دخلها،

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٢٠.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢٠.
(٣) التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢١.

وقرأ فيها هذه البشارة، حتى وصل إلي عاصمة الخلافة، فخرج الموكب لتلقيه، ونثرت عليه الدنانير، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين وصلاح الدين[1] وبذلك قدر لمصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين الذي تركزت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب: الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول السني، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني، ثم إسقاط الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية[2].

وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب ودمشق ومصر فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، وشيد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهيأة للعبادة والدرس، فبنى للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب وحمص وبعلبك [3]، ويقول ابن خلكان عن نور الدين إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام مثل: دمشق وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج والرحبة، وبنى بمدينة الموصل الجامع النُّوري، ورتب له ما يكفيه، كما بنى جامع حماة وجامع الرها، وجامع منبج [4].

٤- عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي: إن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى، واستطاع نور الدين أن يستغل بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها، فمن أبرز صفاته أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة ولا يسمح لأحد أن يتناول واحدًا منهم بمقالة سوء، فازدادت منزلة العلماء سموًا وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين وتقديرهم، كما كان يحرص على حضور مجالس العلم كلما سمحت له ظروفه بهذا ويواظب على عقد مجالس الوعظ، ويستمع – مع الناس – للحافظ ابن عساكر ولقطب الدين النيسابوري وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي [5]. كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة

(١) التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢١.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢١.
(٣) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤٠١). (٤) وفيات الأعيان (٤/ ٢٧٢).
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢٤.

والاستمرار في مقاومة الصليبيين ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر، والعلم والثقافة والسياسة والقوة. لقد كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني، لأن أبرز ما كان يتبجح به الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبوهم إلى صفوفهم، ويدخلوهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته، ثم بجهوده الفكرية الرائعة [(١)]. إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله، ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوّنوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، فلذلك عمل على معرفتها وتعليمها وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة، فالطريق للنهوض لابد فيه من وحدة الصف، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان [(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» [(٣)]. وعن ابن مسعود ﷺ قال: «اتبعوا ولاتبتدعوا، فقد كفيتم» [(٤)] وعنه ﷺ: «من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هديًا وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبه نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٢٥.
(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٢٦٣ ، ٢٦٤.
(٣) مسلم ، كتاب الصحابة رقم ٢٥٣٣.
(٤) رواه مالك، الموطأ رقم ١٦١٩.

المستقيم [1]. ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: العدل في دولة نور الدين محمود زنكي:

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهمّ هذه القواعد العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال رسول الله ﷺ: «أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر» [2] و«العدل أساس الحكم» [3]، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعدُّ من أقدس الواجبات وأهمها. وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل [4]، ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة، ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم، وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة وهو يؤذن بزوال الدول، وقد حرم الله الظلم على نفسه فقد قال في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» [5]. وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقال تعالى:

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٧٩).
(٢) الجامع الصغير للسيوطي رقم الحديث ١٠٥٠ حديث حسن
(٣) معوقات الجهاد في العصر الحاضر (١/ ٤٨١).
(٤) فقه التمكين في القرآن الكريم للصَّلاَّبي ص ٤٥٥.
(٥) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم ١٨٢٨.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] وقد سجل التاريخ أن نور الدين محمود ساد العدل في دولته[١]، وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم. ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية إقامته للعدل في دولته[٢]. وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادي الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر [٣]. وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً: حرام على كل من صحبني ولا يرفع إليَّ قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليَّ [٤]. ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي – الذي كان أحد نوابه في حلب – هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال: كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو يفكر فكراً عظيماً وجعل ينكش بإصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر؟ في عائلته أو في وفاء دينه؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فأجبناه بعد تردد فقال: والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك من الله (أمام الله)؛ فبالله عليكم.. وإلا فخبزي عليكم حرام – لاتريان قصة مظلوم لا ترفع إليَّ، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وأرفعاها إليَّ [٥]. وقد وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها [٦].

١- دار العدل أو المحكمة العليا: كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة، وقد جاء إنشاؤها بسبب من تزايد

(١) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص ٢٠٥.
(٢) أيعيد التاريخ نفسه ص ٩٨.
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٥.
(٤) الكواكب، ابن قاضي شهبة ص ٢٥، نور الدين محمود ٧٥.
(٥) الكواكب ص ٢٥، نور الدين محمود الرجل التجربة ص ٧٥.
(٦) الباهر ص ١٦٦.

عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل [1]. يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه فامضوا إلى كل مَنْ بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي فقالوا له: إن الناس إذ علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[2]. وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق [3]، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم؛ لا يطلب بذلك درهمًا ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله.[4]

وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى، والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالمقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة [5]. ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير: ينصف

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٦.

(٢) الباهر ص ١٦٨، نور الدين محمود الشهيد ص ٧٦.

(٣) رائد نصر المسلمين على الصليبيين.. نور الدين محمود ص ٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه (١/٦٢). (٥) كتاب الروضتين (١/ ٦٢).

المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده [1]، وكان قبل إنشائه هـذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق؛ ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم [2]، الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي مـن تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف[3]، وفي الثانية ألفاً وخمسمائة [4]، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فإنهم لم يمسوا بـأذى - رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي - وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعايـة الكاملـة، ولم يعرف عنه [5] أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهبـاً، وقـد كـان الصـليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا جلة أهله المسلمين ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساءوا حتى إلى نصارى البلاد، فظلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها، بـل إن الصـليبيين كـانوا إذا خرجـوا في بلـد تـنفس نصاراه الصعداء وأمنوا إلى عدله وإنصافه [6].

٢- استجابته للقضاء: طُلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان مـن أحـد كبـار موظفيـه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: يقـوم المولى إلى مجلس الحكـم، فـأنكر نـور الـدين علـى الرجل سخريته وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكـم؟ وأردف: يُحضـر فرسـي حتـى نركـب إليه، السمع والطاعة؛ قال الله تعـالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُـولِهِ لِـيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحـد أصحابه وقال له: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له: إني جئـت هاهنـا امتثـالاً لأمـر الشـرع [7]. ويوماً كان يلعب الكرة – هوايته المفضلة – في دمشق، فرأى رجـلاً مـن أتباعـه يحـدث آخـر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصـومة حـول بعـض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغـلام في عـرض الموضـوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخـرج مـن الميـدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: إنني قد جئت محاكمًا فاسلك معي ما تسلكه مـع غـيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصـمه وإذ لم يثبـت ضـده شـيء قـال للقاضـي ولكل الحضور: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا أنني قـد وهبـت لـه هـذا المـال

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص ٧٧.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٧. (٣) الكواكب ص ٢٥، نور الدين محمود ص ٧٧.

(٤)، (٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٨.

(٦) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص ٣٦٧ ، ٣٦٨. (٧) الباهر ص ١٦٦ – ١٦٧.

الذي حاكمني عليه وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه [(١)]. تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه، كما علق ابن الأثير[(٢)]. وفي عام ٥٥٨هـ - ١١٦٢م ادعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة[(٣)].

٣- لا عقوبة على الظنة والتهمة: لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعدٍ[(٤)]، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر [(٥)].

٤- من عدله بعد موته: ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى: أن إنسانًا كان بدمشق استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلما توفي تعدي بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصَف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى وكلّهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشد من الأوَل فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلّمناه [(٦)].

٥- رقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى: قال ابن الأثير: وحكى لي مَنْ أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره فسأل عنه، فقيل:

---

(١) الباهر ص ١٦٦ - ١٦٧.
(٢) الباهر ص ١٦٧، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٩.
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود الزجل والتجربة ص ٨٠.
(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٠. (٥) عيون الروضتين (١/ ٣٦٤).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٣٦٥).

إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال: إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا له عنّي: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه فذكروا له قول كمال الدين، فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى[1].

٦- رجال القضاء في دولة نور الدين: اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقات عرف كيف ينتقيهم، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده – كما رأينا – قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام، وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بمن فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه، ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء وما قبله وبرعوا فيها [2].

أ- القاضي كمال الدين الشهرزوري: حدث في مطلع عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه وولي قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري وهو – كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له- المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم، وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال في حالة غيابه أو شتغاله بمهمة ما فإن ولده محيى الدين ينوب عنه في منصبه [3]، كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين[4]، وقد تخرج من النظامية [5]، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي، ثم مالبث أن وفد على نور الدين [6] وأصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧ – ١١٦١م) قاضياً لقضاة الدولة كلها، وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه، وهناك من يقول إن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال

(١) عيون الروضتين (١/ ٣٦٤).
(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٢.
(٤) المصدر نفسه ص ٨٣.
(٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٢٢.
(٦) قضاة دمشق ص ٤٧ – ٤٨.

الدين، ومهما يكن من أمر فإن كمال الدين تمكن من منصبه وأصبح في دمشق كما يقول العماد: الحاكم المطلق[١]، وأصبحت دولته نافذه الأوامر منتظمة الأمور [٢]. وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام [٣]. وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء [٤]، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية، ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها[٥]. وقد أسند له نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الثغور، فأنجز مهمته على خير وجه [٦]، كما أولى عناية خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء[٧]. وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد [٨]، كما اعتمد ابنه محيى الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في أمور ديوانها وكان محيى الدين هذا، كما يصفه العماد: من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة ٥٣٥هـ - ١١٤٠م[٩]، كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم [١٠]. وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦هـ - ١١٧٠م أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري [١١].

ب- الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون: تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه [١٢]، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢هـ أو ٤٩٣هـ - ١٠٩٩م وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥هـ - ١١٥٠م، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام ٥٤٩هـ -١١٥٤م ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم

---

(١) البرق ص ٢٢٢، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.
(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.
(٣) الخريدة قسم الشام ص ٢٤٦، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.
(٤) البرق ص ٢٢٢ - ٢٢٤.
(٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣. (٦) البرق ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٧) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٤.
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٤.
(٩) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٤.
(١٠) قضاة دمشق ص ٤٧ - ٤٨، نور الدين محمود ص ٨٤.
(١١) البرق ص ٩٧، نور الدين محمود ص ٨٤. (١٢) البرق ص ١٠٠.

رجع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به، وكان فقيهاً من الطراز الأول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره، وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل، وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه – كما سبق وأن ذكرنا – صلاحيات واسعة [1]. كما اعتمده عام ٥٦٦هـ – ١١٧٠م رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد [2]. وقد توفي عام ٥٨٥هـ -١١٨٩م [3].

٧- رفع الضرائب والمكوس: لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا وأطلقها جميعها، في بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، أي ٤٥٪، وهذا إلغاء للمكوس، لم تتسع له نفس غيره [4]. وكان رحمه الله نادماً على ما فاته في أمر المكوس، فقد روى أبو شامة أن: الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: اللهم ارحم العشّار المكّاس.. وكان قد دعا أحد معاونيه – موفق الدين خالد – وقال له: اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين أني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، وأثبت ما أثبته الله عليكم [5]. وقد أمر بقراءة المناشير في الأقاليم في المساجد على الناس. روى أبو شامة: أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة ٥٦٦هـ، أمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فيه: وقد قنعنا من الأموال باليسير من الحلال، فسحقا للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة فظيعة وإحياء كل سنة حسنة.. إيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل [6]. وقرئ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام ٥٦٧هـ بعد صلاة الجمعة، عن السلطان صلاح الدين، في أيام نور الدين وبأمره جاء فيه: وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر والقاهرة وأن نتجرد فيها، لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا ونكفي الرعية ضرهم..

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٥٣ – ٥٦).
(٢) مرآة الزمان (٨/ ٢٨٣).
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٥.
(٤) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٦٢).
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٢٧.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٢٨.

ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد، يد حاسب ولا قلم كاتب [1]. وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين؛ ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلّها حلّ دمه، ومن قرأه أو قرئ عليه فليمتثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه، ممضياً لما أمر به [2]، ولم ترق هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة، فاحتج أسد الدين شيركوه بقوله: فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات، من أين تعطيهم أرزاقهم؟ -أي رواتبهم- فأجابه نور الدين: إن كنا نغزو من هذه الجهات -أي من هذه الموارد- نتركها ونقعد ولا نخرج [3]. ولم يكتف نور الدين بذلك، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس أن يسامحوه فيما جبى منهم قبلاً من هذه الضرائب، وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستعجلوا من التُّجَار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه يعني من أموالهم فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك [4].

وعندما خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرَّان وسنجار والرحبة، وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفّار، أبادهم الله، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين [5]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمُريَّة وأقرها من الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر وهدم أركان التعدِّي، وأقر الحق مقره لقوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطّاعنة، وأمكنه من ملوكها الباغية،

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٢٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٨.
(٣) كتاب الروضتين (١/ ٦٧).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٦٩).
(٥) المثاغرين : سكان الثغور.

فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرُّقاد ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ۞ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٨ - ٤٠] علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزّائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين تلتبس الجواد ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾ [الانفطار: ١٩] فصفح لجميع المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لإثمها واكتسابا لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه - اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ - في كل سنة من العين مئة ألف وستة وخمسين ألف دينار [١].

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبي من وجوه الحرام بينما كان ما ألغاه من المكوس المستحدثة لا يزيد عن (١٦٥,٠٠٠) مائة وخمسة وستين ألف دينار [٢]، ويقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم [٣] عن المكاسب، وكسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم.. يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعاً [٤].

وكانت هناك أمور عديدة ساعدت نور الدين على إلغاء المكوس وأهمها على الإطلاق توفيق الله له، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصَّ ذلك عليه ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: اللهم ارحم العشّار المكّاس وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في حلّه وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم [٥].

ومن الأسباب التي كانت محركة لنور الدين في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم موعظة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي فقد قال قصيدة في نور

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٧٠).
(٢) الجهاد والتجديد ص ٣٢٩.
(٣) المقدمة ص ٢٨٦، معوقات الجهاد (١/ ٤٢٢)
(٤) المقدمة ص ٢٩٠.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٥٤).

الدين وقدمها له جاء فيها:

مَثِّلْ وقوفك أيها المغرور | يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلّماً | فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهَيْتَ عن شرب الخمور وأنت من | كأس المظالم طافحٌ مخمورُ
عطَّلْتَ كاساتِ المدامِ تعففاً | وعليكَ كاساتُ الحرامِ تدورُ
ماذا تقول إذا نُقلت إلى البلى | فرداً وجاءك منكرُ ونكيرُ
وتَعلَّقتْ فيك الخصوم وأنت | في يوم الحساب مُسَحَّبُ مجرورُ
وتفَرَّقَتْ عنك الجنودُ وأنت | في ضيق اللُّحود مُوَسَّدٌ مقبورُ
وَوَدِدْت أنك ماوَلِيْتَ ولاية | يوماً ولا قال الأنام أميرُ
وبقِيْت بعد العز رَهْنَ حُفَيرة | في عالم الموتى وأنت حقير [1]
وَحُشِرتَ عُرياناً حزيناً باكياً | قَلِقاً ومالك في الأنام مُجيرُ
أرضِيتَ أن تحيا وقَلْبُك دارسٌ | عافي الخراب وجسمك المعمورُ
أرضيت أن يحظى سواك بقربه | أبدًا وأنت مُبَعَّدٌ مهجور
مَهِّد لنفسك حُجَّةً تنجو بها | يوم المَعاد لعلك المَعْذُورُ

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار فلما سمعها نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده [2]، فرحم الله الواعظ والمتعظ ووفق من أراد الاقتداء بهم.

٨- ما قيل من الشعر في عدله:

قال ابن منير:

بنور الدين رُوِّض كلُّ مَحْلٍ | من الدنيا وجُدِّد كلُّ بالِ
وَصَوَّب عَدْلُه في كُلِّ أوب | فعوض عاطِلاً منه بحالِ
ويُنكي رأيُهُ رأي المحامي | ويَقْتُلُ خوفه قبل القتال
لقد أحصدتَ للإسلام عِزاً | يفوت سَنامه يَدَ كُلِّ قال [3]

(١) أخبار الروضتين (١/ ٥٦). (٢) البداية والنهاية.(١٦/ ٤٨٩).
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن شعر الجهاد الشامي ص ١٦٧.

وقال أيضاً:

وانْتاشَــى ديــنَ محمــدٍ محمــودُهُ ... مــن بعــد مــا عَلَـقْ دمـاً عَبَراتُـهُ
رددت علــى الإســلام عصــرَ شــبابهِ ... ثباتــه مــن دونــه وثباتُـــهُ
أرســى قواعـــده ومَـــدَّ عِمـــادَهُ ... صُـعُداً وشـيَّدا سـوره سـوراتُهُ
وأعـــاد وجــه الحــقِّ أبــيض ناصــعاً ... إصــلاتُهُ وصِــلاتُهُ وصَــلاتُهُ [1]

وقال أيضاً:

لا تـــأمنوا في الله بطشـــة ثـــائرٍ ... لله مــــلءُ ســــريره أســــرارُ
صــافٍ إذا كُـــدِرَ المعـــادِنُ عـــادِلٌ ... إن حــاف حُكّــام الملــوك وجــاروا [2]

وقال أيضاً:

أوَ لَسْــتَ مَــنْ مــلأ البسيطة عَدْلُــهُ ... واجتَــبَ بــالمعروف أنــف المُنكَــرِ
حــدبُ الأب البَــر الكــبير، ورأفــة ... الأم الحفيــــة بــــاليتيم الأصــــغر
يــا هضـبة الإســلام مـن يُعصـم بهـا ... يــأمَنْ، وَمَــنْ يَتَــولَّ عنهــا يَكْفُــرِ [3]

وقال أيضاً:

لا مُلْــكَ إلا مُلْــكُ محمــود الــذي ... اتخــذ الكتــاب مظــاهراً ووزيــرا
تمشــى وراء حـــدودِهِ أحكامُـــهُ ... تـــأتَمُّهُن فـــيحكم التقـــديرا
يقظـــان ينشـــر عَدْلَـــهُ في دولـــة ... جــاءت لِمَطْــوي الســماح نشــورا [4]

وقال أيضاً:

يـــا ســـائلي عـــن نهـــج ســـيرته ... هــل غــير مفــرق هامــة الفجــر
عـــدل حقيـــق مـــن تأمَلـــه ... أن يحيــى العمــرين بالـــذكر [5]

وقال أيضاً:

ثنــى يـــده عـــن الـــدنيا عفـــاف ... ومــال بهـــا عـــن الأمـــوال زهـــد
رأى حـــط المكـــوس عـــن الرعايـــا ... فأهـــدر مـــا أنشـــاه بعـــد

---

(١) شعر الجهاد الشامي ص ١٦٨.
(٢) (٣) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٧٠.
(٤) المصدر نفسه ص ١٧١.
(٥) عيون الروضتين (١/ ٣٨٦، ٢٨٧).

ومـــد لهـــا رواق العـــدل شـــرعاً | وقـــد طُـــوى الـــرواق ومـــن يمـــد[1]
ويـــات وعنـــد بـــاب العـــرش منهـــا | لدولتـــــه دعـــــاء لا يـــــرد[2]

وقال العماد الأصفهاني في عدله:

يـــا محيـــي العـــدل الـــذي في ظلـــه | مـــن عدلـــه رعـــت الأســـود مـــع المهَـــا
محمـــــودٌ المحمـــــودُ مِـــــن أيامـــــه | لبهائِهـــا ضـــحك الزمـــان وقهقهـــا[3]

إن الملك العادل نور الدين زنكي حرص على بناء مجتمع العدل والقوة، وسوف يـأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية، ولا شك أن القـوة العسـكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف، فهي جانب من جوانب المدينـة المتكاملـة، فـالمجتمع القـوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخـرى لأن الأمـن العسـكري يحتـاج إلى الأمـن الثقافي والأمن الغذائي والأمن الصحي [4]، وهذه الأمور عمل نـور الـدين علـى توفيرهـا كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ وَالْمِيـزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُـرُهُ وَرُسُـلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فهذه الآية الكريمـة توضـح الأسـس اللازمـة لبنـاء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامـة العـدل، والحديـد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره. ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة اليـوم لقلنا إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضر ينبغي أن تتوفر لـه الأيديولوجيـة الصـالحة زائـد التكنيك المتقدم، فالأيديولوجيـة تحفـظ البنيـة الاجتماعيـة متماسـكة بعيـدة عـن التجزئـة والتشرذم، وتمنحها الأهداف ووحدة الحركـة والتصـميم والإرادة وتمنـع ذوبانهـا في البنـى الاجتماعية المغايرة في العقيدة والفكر والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، والتكنيك يمنحها فـرص التقـدم علـى الآخـرين علميـاً وصـناعياً، لـيس مـن أجـل إذلالهـم واسـتعمارهم، فالأيديولوجية الإسلامية لا تسـمح بـذلك، بـل لإقامـة العـدل في الأرض بعـد إقامتـه في المجتمع الإسلامي ثم لضمان استمرار العدل الذي أرسل الله تعالى الرسـل – صـلوات الله وسلامه عليهم – لبيانه ووضع الموازين الحق له، فنزول الكتب السـماوية وخاتمهـا القـرآن الكريم يهدف إلى تثبيت مـوازين العدالـة وبيـان الأسـباب والوسـائل اللازمـة لتحقيقهـا،

(١)، (٢) عيون الروضتين (١/ ٣٨٨).
(٣) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٧٤.
(٤) الإسلام والوعي الحضاري، د. أكرم العيري ص ١١٥.

فالناس يقومون بالعدل ويحيون بالأمل ويسعون بالأمن وينتفعون بالعمل والإنتاج (١).

إن العدل الشامل لا يتحقق إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً على الفهم الصحيح للكتاب والسنة والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية، وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وهو أمر لا يتحقق إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين (٢).

رابعاً: مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود:

فهم نور الدين محمود زنكي أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية فهم قلبها وعقلها المفكر، فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، أي بين أمة وأمة، وإنه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمال جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر وللتغير والتبّدل كما كان يحدث دائماً وما يقتضيه "الموقف" هذا، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن.. إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط تكديسًا كميًا يثبت للضربة والضربتين ولكنه الثالثة أو الرابعة ينهار فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودماؤها (٣).

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة، لكنه "تصميم" هادف يسعى إلى عملية "التأصيل العقائدي" من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والازدواج، وتنمحي الثنائيات، ويبرز إلى حيز التاريخ «الإنسان» المتوازن الذي أراده

---

(١) (٢) الإسلام والوعي الحضاري ص ١١٧.

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٩.

الإسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله [1] وهذا الإنسان المتوازن لا بد أن يشرف على إخراجه قيادة ربانية على رأسها العلماء الربانيون، وقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً، وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية[2]، فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم [3]، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحلّ العظيم [4]، يحضرهم إلى مجلسه، فيدنيهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويجلسه معه ويقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً [5]، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[6]، وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيّز، فالمذاهب عنده – كما أجمع المؤرخون – كلها سواء، والإنصاف سجيته في كل شيء[7]، سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين.. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، في محاولة لتعزيز مكانة (السنّة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث [8]، كما ألف كتاباً في الجهاد [9]، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الفقهية، متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين [10]، ولا شك أن هذا التوجه العلمي عند نور الدين أثر على سياسته التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته [11].

إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفض عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء.

إن جهود نور الدين محمود في دعم العلماء واحترامهم وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٠. (٢) المصدر نفسه ص ١٣١.
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٣٥.
(٤) مفرج الكروب (١/ ٢٨٣)، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٥.
(٥) الباهر ص ١٧١ – ١٧١، نور الدين محمود ص ٣٦.
(٦) الباهر ص ١٧١ – ١٧٣، نور الدين محمود ص ٣٦. (٧) الباهر ص ١٦٥.
(٨) الكواكب ص ٥٦ – ٥٧، الباهر ص ١٦٥ – ١٦٦.
(٩) مرآة الزمان (٨/ ٣١٣)، نور الدين محمود ص ٣٦.
(١٠) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٣٦.
(١١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٩.

العزيز، دولة العلماء، كما أن في دولة نور الدين مكانة للعلماء غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة أو الحكام الذين حوله.

١- تقديمه للعلماء على الأمراء: كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده، فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا [(١)]. وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه ويقول لهم: من المعصوم؟ ويكفينا هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري[(٢)] عنده، وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه فقال نور الدين له: يا هذا إن له حسنة تغفر له كل زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيك أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، لو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا – إن صحت – مع وجود حسناته؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكره أو غيره بسوء لأوذينَّك، فكف عنه [(٣)].

٢- البذل والعطاء للعلماء: لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة، ولكنه تجاوز هذا – على أهميته – إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء مقدراً أن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب وألا تلجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال [(٤)].

إن أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة عليها ألا تبخل عليهم بما يسدّ حاجتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدّهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم. ولذلك ولم يبخل عليهم نور الدين بتخصيص أوقاف ضخمة على المدارس وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

---

(١) البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص ١٢٢.

(٢) دور الفقهاء، والعلماء في الشرق الأدني ص ١٢٣. (٣) الباهر نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٣٤.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٠.

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكن العلماء بما خصصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية [1]، وهذا المنهج من هدي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي يتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب [2]، وهذا الفعل من نور الدين محمود وعمر بن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك تضطر الأمة الواعية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل حتى تسد كل الثغرات التي تحتاجها ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم بينما تهمل جوانب أخرى، ولابد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربات إلى الله – تعالى – كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة، كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذووه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ، ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد [3]، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

٣- اهتمامه بعلماء المدارس النظامية: من أهم العوامل التي يسرت أمام نور الدين سبيل النجاح أنه لم يبدأ من فراغ، وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير، وقد تحدثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود بما حققته المدارس النظامية من نتائج باهرة والتي في مقدمتها تخريج جيل يعي حقيقة الصراع والأخطار المحيطة به من باطنية وصليبية ويكون مؤهلاً بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له والدفاع عنه. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين تخرجوا من النظاميات ومنهم: القاضي كمال الدين الشهرزوري والذي كان بمثابة وزير له، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ له

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤١.
(٢) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٢٦٥.
(٣) أولويات الحركة الإسلامية ص ١٩٣، فقه النصر والتمكين ص ٢٧٢.

نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة، والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرساً في بعض مدارس دمشق إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بحلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية النورية بها، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها، وعبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت٥٦٣هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ودرس ببعض مدارس دمشق [١]، وأصبح الشام في عهد نور الدين والأيوبيين مركزاً لهجرة كثير من العلماء من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي قام بها نور الدين وهو يمكّن لمذهب أهل السنة [٢].

٤- هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود: شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً علمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة [٣] حتى إن بلاد الشام كانت -كما يصفها أبو شامة- خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية [٤]، فالدولة التي تهيىء الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشيء المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم [٥]، وقد استقدم - على سبيل المثال-.

أ- برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) وهو من علماء الأحناف، فقد استقدمه من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلاّوية، وفي حلب لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام ٥١٩هـ وجلس للوعظ وكان يتميز بصدق كلماته، فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت

---

(١) التاريخ السياسي والفكر للمذهب السني ص ٢٢٢. (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٣.
(٣) الباهر ص ١٧١ – ١٧٢، نور الدين محمود زنكي ص ١٤٤.
(٤) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود زنكي ص ١٤٤.
(٥) زبدة حلب (٢/ ٢٩٣ – ٢٩٤)، مفرج الكروب (١/ ٢٨٣).

إليها[1]، وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيع بحلب [2].

ب- الفقيه أبو العباس السلفي: فقد قام برهان الدين البلخي إثر توليه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا العباس أحمد السلفي – من دمشق أيضًا – ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القدوم فسير إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً، ولم يزل – الأخير – مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب، وما لبث أن توفى عام ٥٤٨هـ. وحل محله في التدريس عبد الرحمن بن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة ٥٦٤هـ [3]، ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى [4].

ج- عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي: تعاقب على المدرسة الحلاّوية مدرسون من جهات شتى وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) وكان في لسانه لكنة غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة، وعين في المدرسة الحلاّوية حتى وفاته عام ٥٨١هـ أو ٥٨٢هـ بينما أقر علاء الدين على التدريس في الحلاوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام ٥٨٧هـ أي بعد ثمانية عشر عاماً وقد وصفه ابن شداد بأنه: كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سارت في الآفاق ذكرها[5]، تفقه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه بابنته فاطمة، الفقيهة العالمة، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه [6]. وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه التحفة وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً وكان زوجها ربما يهمّ بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ

---

(١) زبدة حلب (٢/ ٢٩٣ – ٢٩٤)، مفرج الكروب (١/ ٢٨٣).
(٢) مرآة الزمان (٨/ ٢١٩ – ٢٢٠)، نور الدين محمود ص ١٤٥.
(٣) (٤) نور الدين محمود ص ١٤٥.
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٦.
(٦) تاريخ حلب (٤/ ٣٠٥ – ٣٠٨)، نور الدين محمود ص ١٤٦.

فيرجع إلى قولها، وكانت تمارس الإفتاء وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها وهي التي سنّت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب [1].

د- الإمام شرف الدين بن أبي عصرون: وعندما تم استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام ٥٥٠هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار -غربي الموصل- الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان -بحق- من أعيان فقهاء عصره، وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى فبنى له مدارس عدة في منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق، وفوضّه أن يولي التدريس فيها من يشاء ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ [2].

هـ- قطب الدين مسعود النيسابوري: وفي عام ٥٤٤هـ تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه[3]، وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ وقرأ القرآن والأدب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام ٥٤٠هـ فدرس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك استدعي إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير [4]. ووصفه العماد الأصفهاني بأنه: فقيه عصره ونسيج وحده [5]، وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة ٥٦٨هـ لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرّس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي، واجتمعت طلبة العلم عليه، ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عمارتها[6]، وتوفي النيسابوري

(١) نور الدين محمود ص ١٤٦.
(٢) (٣) زبدة حلب (٢/ ٢٩٣ – ٢٩٤)، نور الدين محمود ص ١٤٧.
(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧.
(٥) البرق ص ١٣٤ – ١٣٥، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧.
(٦) مرآة الزمان (٨/ ٢٩٤).

بعده بحوالي عشر سنين ٥٧٨هـ [١].

و- سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف بالفلكي النيسابوري: درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ورحل إلى بغداد مراراً وحدث بها عند جماعة من الشيوخ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته، ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به وأنزله الخانقاه والسميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته سنة ٥٦٠هـ. وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم ابن عساكر[٢]، ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)[٣].

ز- الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني: وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني الذي قدم إلى دمشق عام ٥٦٢هـ وقد قدّمه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة لنور الدين فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية، فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولي المدرسة النورية التي سميت – بعدئذ – بالمدرسة العمادية نسبة إليه، وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر والتي تم إنجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه: الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوق، زبدة النصرة، الفيح القسي، ثم معطياته الشعرية التي لاتقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير[٤].

ح- الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغدادي، ملك النحاة كما يسميه سبط ابن الجوزي ولد ببغداد سنة ٤٨٩هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق، وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبيﷺ، وكان يضم يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر اليدين، وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات وكان يكتب إليه [٥].

ط- أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري الفقيه: كان معيداً بالنظامية، سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، استفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبو شامة في كتابه «الروضتين»[٦].

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧. (٢) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ١٥٣).
(٣) المنتظم (١٠/ ٢٤٩)، نور الدين محمود ص ١٤٨. (٤) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤٠٨ – ٤١١).
(٥) مرآة الزمان (٨/ ٢٩٥ – ٢٩٧).
(٦) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود ص ١٤٩.

ي- أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ : ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد وأنفذ له الأخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه [1].

ك- شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حموية : وفد إلى الشام عام ٥٦٣هـ وكان كبير الشأن في ميدان التصوف لم يكن له فيه يومذاك مساو، فأقبل عليه نور الدين ورغبّه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشور يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام[2].

وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة أو جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين والذين تدفقوا على حواضرها وملأوا بنشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك حتى صارت بلاد الشام في عصره مهجراً لكبار عقول الأمة.

هـ- ابتعاد نور الدين عن التعصب: لم يكن نور الدين محمود زنكي متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنية لكي يسعى – من خلال نشاطه المدرسي هذا – إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب وإلى تعزيز مواقع (فقه) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتّيبس الفكري، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير: العمل على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مبدع واجتهاد خلاّق. إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري، لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة، ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الإسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه، وصراع من جهة أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه، وهذا هو الأخطر والأهم، ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعم وأشمل وأبعد مدى، وثمة حادثة – من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون – تحمل

(١)كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٥٠.
(٢) البرق ص ١٣٥، نور الدين محمود ص ١٥٠.

دلالتها الواضحة في هذا المجال [1]: في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين، كل يريد مذهبًا من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس.. وتطور الجدل إلى فتنة كاذت تقع بين الفريقين، فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم نائبه – مجد الدين بن الداية – وقال لهم على لسانه: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، ثم علمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب[2]. لقد وسع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة واستطاع أن يرص الصفوف ويوحد الجهود أمام الأخطار الداخلية، والخارجية وحقق الأجواء الصالحة لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبناه. إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدّت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب الكريم والسنةَ المطهرة. إن التقليد والتعصب يؤديان إلى مهاوي الردى ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال ويصّدان عن اتباع النور والهدى فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسرانا في الآخرة [3]. لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة وخطيرة ومن أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف[4]. وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرقة وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعضلة من التعصب وغيرها التي كانت سبباً في تفريق الأمّة شيعاً وأحزاباً.

٦- أثر العلماء في دولة نور الدين: كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ- الجهاد ضد الصليبيين: فقد كان عماد الدين وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان

(١) تاريخ حلب (٢/ ٦٨)، نور الدين محمود ص ١٦٥. (٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٦٥.
(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٩٩١)، فقه النصر والتمكين ص ٢٥٩.
(٤) فقه النصر والتمكين ص ٢٦٠.

بمشورة العلماء ومساندتهم حيث كانت لهم الكلمة النافذة والمكانة المرموقة والحظ الوافر في كل من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد [1]، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، ومن أعماله التي قام بها لينضم إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخًا لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد، دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله[2]. كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفي سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سنداً لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة مكّنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد [3].

ب- السفارات بين الدول: شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية أو الدولة المعاصرة إما بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين، ومن سفراء الاستنجاد وطلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ - ١١٦٠م) والسلطان السلجوقي مسعود (٥٢٧ - ٥٤٧هـ/ ١١٣٣ - ١١٥٢م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام[4]، وقد مر تفصيل ذلك، كما واصل القاضي كمال الدين القيام بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود إذ اعتمده نور الدين سفيراً إلى الخليفة العباسي المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥هـ/ ١١٧٢-١١٨٠م) يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل) وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: فأكرم الخليفة كمال الدين إكراماً لم يكرمه رسولاً قبله وأجيب إلى ما

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٣. (٢) معجم البلدان (١٣/ ٧٨).
(٣) معجم البلدان (١٩/ ١٤)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٤.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٥.

التمسه[1]. كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مُجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البوريين (٥٣٤ - ٥٤٩هـ/ ١١٣٩ - ١١٥٤م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) وقد تولى المهمة الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفي سنة (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخيه نجم الدين أيوب وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وقعت بينهما [2].

ج- تولي بعض المناصب المهمة في الدولة كالقضاء: وقد تم الحديث عن ذلك وكتابة الإنشاء [3] وغير ذلك من المناصب التي يأتي بيانها بإذن الله في هذا الكتاب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمور منها:

* أن نور الدين رحمه الله، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.

* أن عصر الملك العادل، كان حافلاً بالحركة العلمية مزدهراً بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها[4]، ويعود ذلك إلى ذكاء لماح ونية حسنة، وعلم غزير، مما مكنه من حل مشكلات عصره بينما عجز عنها قبله فحول وأساطين.

* أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة[5] وسيأتي الحديث بإذن الله تعالى في مبحث قادم عن دور التعليم ووظائفها في العهد الزنكي، والمدرسين والطلاب ونظم التعليم ووسائل تحصيله في العهد الزنكي، وميادين العلوم وأبرز أعلامها وأهم المراكز العلمية.

خامساً: الشورى في دولة نور الدين محمود:

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشورى، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٥.

(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٧، ١٨٩.

(٤) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري ص ٣١٣.

(٥) المصدر نفسه ص ٣١٣.

اسمها وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم، وهو يمثل أرقى أشكال التعاون، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم [١]

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه [٢]، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع، ولقد اعتمدها نور الدين محمود ولم ينفرد باتخاذ القرارات بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والنوازل والميزانية.

١- الشورى في القضايا العامة: وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن أحد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق، وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين لإرساء الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق [٣]، ففي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء [٤] وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم: ليس العمل إلاّ ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلاّ ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلاّ وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوب له. فشكروه

(١) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٢٢). (٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٤٥٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٤. (٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٠.

على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والفصيل والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين[1]. فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن أبي عصرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به [2].

٢- مجالس متخصصة: كان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[3]، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول وترفاً فكرياً.. إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة؛ بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهها الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤيته لموقع الإنسان في العالم... ومن ثم فإن ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما أو استعداد تشريع أو إقرار قانون، ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي مر ذكره مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة[4]، وقد شبه ابن الأثير مجلسه بمجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدي هذا [5].. وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نورالدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨١.
(٢) المصدر نفسه ص ٨٢.
(٣) الباهر ص ١٧١ – ١٧٣ ، نور الدين محمود ص ١٣٣.
(٤) نورالدين محمود ص ١٣٣.
(٥) الباهر ص ١٧٣، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٣.

يحلّ له من: الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده إلى غيره البتة [١]. فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين – وقد عرفنا مدى صدقه مع ربه ومع نفسه ومع رعيته – ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلاّ بعد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرعي قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء[٢]. وكان يكاتب العلماء للاستشارة، فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً[٣]، وكان نور الدين يسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه، وأشركونا في الثواب. فقال له شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه [٤].

٣- فراسته في معرفة العلماء: لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة كما يقولون، حيث يختلط الفقيه بالجاهل، تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالرديء، وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطون المكانة التي بلغوها ويختبئون خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيّفوا حقيقة، أو يلبسوا باطلاً بحق، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً. إن الرجل يرفض الكذب، الكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع، وهو – من الجهة الأخرى – يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة، كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب ﷺ متحدثاً عن نفسه: لست بالخبّ [٥]، ولا الخبّ يخدعني، ومن ثم يبدو أنه ليس بمقدور أي رجل أن يخدع بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تدثر بألف رداء علمي واختبأ خلف ستار، فهذه الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علمية

(١) الباهر ص ١٦٤.
(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٤.
(٣) المنتظم (١٠/ ٢٤٩).
(٤) عيون الروضتين (١/ ٣٧٤).
(٥) الخب : الخادع.

الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال؛ في رجب – يقول العماد – فوض إليّ نور الدين إحدى مدارسه وعول عليَّ في التدريس والنظر في أوقافها وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي سنة ٥٦٢هـ خلفَ ولدين واستمر فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء[١]، ونهج بهما سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نور الدين هذا المعنى وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمع فقال لي: تسلّم الموضوع ورتبني فيه مدرساً وناظراً [٢].

والمقصود من كلامي أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أسس صحيحة في دولته وكانت له مجالس شورية يلتقي فيها القادة العسكريون والإداريون مع العلماء والفقهاء، فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ومع تطور أمور الحياة لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام أو منشور أو قانون يعرف فيه ولي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ومتى وكيف؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى؟ وكيف؟ لأن الشكل الذي تتم به الشورى ليس مصبوباً في قالب حديدي [٣]، فأشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد وليست من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بصورة واحدة في كل العصور والأزمنة، وإنما هي متروكة للتحري، والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل الحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله لأن الشورى في جميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأمكنة والأزمنة كريهة ومخربة [٤].

إن شؤون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففي الأمة جانب القوة، وفي الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسية وتدبير الشؤون الداخلية والخارجية، وفيها جانب الفنون الإدارية، وفيها جانب

---

(١) يوم كانت الكيمياء دجلاً وشعوذة وسحراً ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين.
(٢) البرق ص ١١٩ – ١٢٠.
(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٤٦٤.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٦٥.

التعليم والتربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب ولكل جانب أناس عرفوا فيه بنضج الآراء وعظيم الآثار، وطول الخبرة هؤلاء هم أهل الشورى في الشؤون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحها ثقتها، وتنيبهم عنها في الرأي، وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد[1]. ولذلك ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة في المسائل المعروضة التي تحتاج إلى نوع من المعرفة، ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين، وفي شؤون العمران والهندسة يستشار المهندسون، وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة، وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة، وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا. وهنا لا بد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة [2]. لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته سواء من الإداريين أو السياسيين أو العلماء أو الفقهاء أو الأعيان وسنرى ذلك في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

* * *

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص ٥٧.
(٢) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص ٥٨ ، ٥٩.

المبحث الرابع

النظام الإداري عند نور الدين

إن من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد أن الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ومتفرغاً له طوال حياته دون غيره من المجالات، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذة في بناء قيادات إدارية، تحسن تنفيذ الخطط المرسومة، فقد اعتمد نور الدين محمود، في إدارة دولته المتنامية، على عدد كبير من الرجال الأكفاء، فكان يختارهم بعناية فائقة، وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن بعد ذلك يراقبهم ويشرف عليهم حتى يتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم، فإذا تحقق من ذلك وثق بهم وخولهم الصلاحيات التي يحتاجونها لتنفيذ أعمالهم، فيباشرون وظائفهم وهم يرون فيه قدوتهم في الالتزام بالشرع والإخلاص في العمل والإحساس بالمسؤولية والعدل والبساطة في العيش، والحرص على الأموال العامة، فتتحقق الإدارة الناجحة، وينعكس ذلك على الشعب بالرخاء والأمن والازدهار، ويصدق فيه قول المؤرخ ستيفن رنسيمان في هذا المجال عندما وصفه بقوله: التزم البساطة في حياته وحمل أسرته على أن تسير على نهجه، وآثر أن ينفق موارده على أعمال البر والإحسان، كان إدارياً حازماً يقظاً ودعمت حكومته الرشيدة ما أقامه له سيفه من مملكة [1].

أولاً: حسن اختياره للرجال:

اعتمد نور الدين نفس النظم الإدارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة، وجاء الأيوبيون والمماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول، لكن نور الدين أكد على مؤشر أساسي في ميدان الإدارة هو أن كفاءة أجهزتها وحصيلة معطياتها لا تعتمد على بنيان الجهاز أو تركيب المنصب نفسه قدر اعتمادها على الرجال أنفسهم الذين يعهد إليهم بتسييرها، ومن ثم فإننا نجد نور الدين يملأ مؤسساته بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال الذين كانوا يتباينون في الانتماء الجنسي والجغرافي والاجتماعي ولكنهم – في الأغلب – يجتمعون على تلك الميزات التي لا تستقيم بدونها إدارة ما [2].

١- أسد الدين شيركوه وبنو أيوب: عندما قتل عماد الدين زنكي عام ٥٤١هـ – ١١٤٦م والد نور الدين محمود وجد نور الدين في بعض رجالات والده المتقدمين في ميادين

---

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٧٠، تاريخ الحروب الصليبية (٦١٤/٤).

(٢) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود ص ٥٤.

الإدارة المدنية والعسكرية ساعده الأيمن الذي اعتمده في الوصول إلى الحكم في حلب وتثبيت أركان إمارته الفتية هناك، اتصل به أسد الدين شيركوه عم الناصر صلاح الدين وقال له: أعلم أن الوزير جمال الدين الأصفهاني – أكبر وزراء زنكي – قد أخذ عسكر الموصل وعمل على تقديم أخيك سيف الدين غازي وتمليكه الموصل وقد انضوى إليه جل العسكر، وقد أنفذ إليَّ يغريني على اللحاق به، فلم أستجب لطلبه، وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب فتجعلها كرسي ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن من ملك الشام ملك حلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق. فما كان من نور الدين إلا أن أصدر أمره بأن ينادي ليلاً في عساكر الشام للاجتماع، وانطلق من ثم إلى حلب فدخلها في السابع من ربيع الأول، واعتمد أسد الدين شيركوه الذي أصبح أشبه بوزيره الأول[1]، ومع الوقت استمرت علاقة أسد الدين مع نورالدين في القوة والانسجام وأخذت تزداد مع الأيام حتى بلغت قمتها في ترشيح أسد الدين لقيادة الحملة النورية على مصر في رحلاتها الثلاث. كما اعتمد نور الدين على أسد الدين للاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق والتمهيد لدخولها سلماً بعد أن تبين استحالة أخذها عنوة. وقد توجت هذه الاتصالات الناجحة بدخول نور الدين دمشق عام ٥٤٩هـ – ١١٥٤م بمعونة الأخوين نجم الدين وأسد الدين حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعاً، وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم الدين وهما: الناصر صلاح الدين وتورانشاه كأميرين متقدمين في الدولة. وقد قال أبو شامة: كان لأسد الدين اليد الطولى في فتح دمشق فولاه نور الدين أمرها ورد إليه جميع أحوالها [2]، وزاد على ذلك فأقطعه الرحبة[3]. ويواصل أبو شامة حديثه فقال: وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعاً وسيره إلى دمشق فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده توران شاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن استبدل بأخيه صلاح الدين [4]. وكان صلاح الدين قد فارق أباه نجم الدين منذ عام ٥٤٦هـ – ١١٥١م وانتقل إلى خدمة عمه أسد الدين في حلب فقدمه بين يدي نورالدين فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً [5]. واستخص صلاح الدين وألحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر[6]. ويذكر ابن الأثير أن كلاً من نجم الدين وأسد الدين صارا عند نور الدين بعد فتح دمشق في أعلى المنازل، لا سيما نجم الدين فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٥٤.
(٢) (٣) (٤) المصدر نفسه ص ٥٨.
(٥) (٦) المصدر نفسه ص ٥٩.

إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك، كما يحدثنا كيف أن أسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين منذ أيام والده زنكي.. وبعد أن تولى إمارة حلب راح يقربه ويقدمه، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره [١].

٢- مجد الدين ابن الداية وإخوته: لم يشأ نور الدين أن يجعل جل اعتماده على العناصر الإدارية المخضرمة ورأى أن يطعمها بعناصر جديدة أكثر ملاءمة وفهماً لأهدافه، أسوة بما يفعله مؤسسو الدول في إعادة تنظيم أجهزتهم الإدارية وترشيح العناصر الأكثر تقبلاً للوضع الجديد وتجانسًا معه[٢]، وقد كان مجد الدين محمد أبو بكر بن الداية، شقيق نور الدين من الرضاعة وإخوته شمس الدين علي وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر – الذي لم يبرز في ميدان الإدارة كما برز إخوته لربما لصغر سنه، ويتحدث العماد الأصفهاني عن المكانة العالية التي بلغها مجد الدين وإخوته في إمارة نور الدين فيقول: كان مجد الدين رضيع نور الدين قد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوض إليه نور الدين جميع مقاصده وحكمه في الملك فلا يحل ولا يعقد إلا برأيه. وكان يسكن قلعة حلب. وقد سلمت قلعة جعبر وتل باشر لأخيه الأصغر سابق الدين عثمان، وحارم لأخيه الثالث بدر الدين حسن. وثمة مواقع عديدة أخرى مثل عزاز وعين تاب وغيرهما كان مجد الدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه[٣]، وعندما هدمت الزلازل شيزر عام ٥٥٢ – ١١٥٧م واستولى عليها نور الدين من بني منقذ سلمها إلى مجد الدين [٤]. ويؤكد سبط ابن الجوزي أن مجد الدين وإخوته: كانوا أعز الناس على نور الدين وكان قد أسكنهم معه في قلعة حلب لا يصدر إلا عن رأيهم [٥]. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن مجد الدين أحسن تدبير المهمة التي عهدت إليه وأنه كان عند حسن الظن، وظل طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبته وتفويضه الأمور في قاعدة ملكه حلب. وقد امتاز الرجل بشجاعته وتدينه وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية. وعندما توفي عام ٥٦٥هـ – ١١٦٩م نفس السنة التي توفي فيها نائب كبير آخر في دولة نور الدين يدعى العمادي محمد حزن نور الدين حزناً عميقاً وقال وهو يبكي: لقد قص جناحاي، وسرعان ما عمد بجميع ما كان له من مناصب وصلاحيات إلى أخيه شمس الدين علي الذي غدا -بمرور الوقت- أكبر أمراء الدولة النورية

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٥٥.
(٢) المصدر نفسه ص ٥٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٥٦.
(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٥٦.
(٥) مرآة الزمان (٨/ ٣٢٤ – ٣٢٥).

في حلب، وأما أخوه الآخر سابق الدين عثمان فقد جعله مقدم عساكره، وفي عام (٥٦٩هـ - ١١٧٣م)- السنة التي توفي فيها نور الدين - كان بنو الداية قد تمكن نفوذهم في حلب تماماً وأصبح أمرهم إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده [١]. وكان شمس الدين علي قد عهدت إليه أمور الجيش والديوان، وعهدت الشحنكية إلى أخيه بدر الدين حسن، وكان بيد هؤلاء الإخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب [٢]، وكان هناك أسماء أخرى برزت طيلة العهد النوري لم تكن لتقل عن بني الداية شهرة وإنجازاً [٣].

٣- العماد الأصفهاني: غادر بغداد ميمماً شطر الشام فوصل إلى دمشق في شعبان سنة ٥٦٢هـ- ١١٦٦م وأعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وأنزله بالمدرسة الشافعية النورية، وسرعان ما توثقت العلاقة بينه وبين بني أيوب: نجم الدين، وأسد الدين وصلاح الدين، ثم ما لبث كمال الدين الشهرزوري أن قدمه في أواخر السنة إلى نور الدين ونوّه بشأنه، فرتبه نور الدين في ديوانه منشئاً في مطلع عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م وصار رئيس ديوان الإنشاء وكاتب السر ومديح الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين، وكان يتلقى من بني أيوب في مصر تقارير مفصلة عما يستجد فيها من أحداث فيقرأها على نور الدين ويكتب أجوبتها، وقد جاء تعيين العماد في هذا المنصب - كما يذكر هو نفسه - بعد استعفاء أبي اليسر بن عبد الله من الخدمة في ديوان الإنشاء واعتكافه في بيته، وهو يذكر أيضاً أنه وجد من نور الدين منذ ذلك الوقت «الإعزاز والتمكين على الأيام»، وقد اعتمده نور الدين فضلاً عن ذلك في عدد من السفارات إلى شاه أرمن صاحب خلاط في أرمينيا أواخر سنة ٥٦٤هـ ١١٦٨م وإلى الخليفة العباسي في أوائل سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م، كما فوضه الإشراف على المدرسة النورية في دمشق، والتي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية نسبة إليه في رجب سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وفي العام نفسه أصبح العماد مشرفاً على دواوين المملكة كلها إضافة إلى مهمته في ديوان الإنشاء، والإشراف هو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين، فكان المشرف هو المفتش العام للحكومة [٤]، فجمعت -يقول العماد- بين المنصبين وقسمت زماني على النصيبين، فمرة للكتب والمناشير وتارة للإثبات في الدساتير [٥]، ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسي [٦]، وبعد توجه الموفق

(١) الباهر ص ١٦٣، نور الدين محمود ص ٥٧.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٥٧.
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٥٧. (٤) المصدر نفسه ص ٦٠.
(٥) الدستور : هو الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم.
(٦) البرق ص ١٢٠ - ١٢٢، نورالدين محمود ص ٦٠.

خالد القيسراني إلى مصر قام العماد مقامه وصار مستوفي المملكة وأصبح بذلك الرجل الأول في الدولة وأكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته، إذ أصبح العماد بمناصبه الثلاثة تلك المسؤول الأول عن الكتابة والإشراف الإداري والمالي [1]، ويحدثنا العماد عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين، وحرص الأخير على تجاوز (الروتين) الإداري فيقول:.. وقد مال إليّ نور الدين وعول في مناصبه عليّ وطالعته كل يوم بمرافق عملي ومنافع شغلي، فما أتحف بتحفة ولا أخص من أحد بعطية إلا أطالعه به وأطلعه على سببه، فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول: تصرف فيه تصرفك في مالك[2]. ويمضي العماد إلى القول: ثم اعتمد علي اعتماداً كليًا وجعلني له نجيًا، وإذا أراد أن يكتب إلى أحد منهم يقول: اكتب إليه من عندك ومن جملة ذلك أن سعد الدين كمشتكين – نائبه في الموصل– أخذ من رجل ألف دينار بعلة عللها، فجاء الرجل وتظلم، فأمرني نور الدين بأن اكتب إليه بردها عليه. فقال كمشتكين: إنك كاتبي وأميني وصاحبي ولا تكتب إلا بأمري؟ فإن خالف كتابك إليه قلعت عينيه!! فمضى إليه بكتابي فسارع إلى طاعته ورد عليه الألف في ساعته [3]، ومما لا شك فيه أن العماد الأصفهاني قد حقق نجاحاً كبيراً في مهماته الإدارية، الأمر الذي أكسبه ثقة نور الدين المتزايدة وجعله يظفر سريعاً في مدى لا يتجاوز السنوات الست بأهم وظائف الدولة وأعلاها: الكتابة والإشراف (الإداري) والاستيفاء (المالي). وإذا صح ما يقوله الرجل عن نفسه – وهو الأرجح، لما سبق أن ذكرناه – فإن نور الدين كان قد اعتمده إلى حد تفويضه الأمر كاملاً في مناصبه تلك. ورغم ذلك فإن العماد ما كان ليقدم على خطوة إلا بعد أن يطلع سيده عليها.. وقد عمق هذا الموقف الذكي من الرجل الثقة بين الطرفين تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نور الدين [4]، وتلي هذه الأسماء في ميدان الإدارة أي بني الداية، وبني أيوب والعماد الأصفهاني، أسماء أخرى أقل منها أهمية، وإن كان بعضها قد بلغ القمة التي بلغها أولئك الرجال، رغم أن المصادر لم تشر إليها إلا عرضاً ولم تقدم لنا الشيء الكثير [5].

٤- **خالد بن محمد القيسراني:** مستوفي المملكة حتى عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م والذي يصفه العماد بأنه كان عند نور الدين في مقام الوزير، وله انبساط زائد [6]، ويذكر في الخريدة

(١) البرق المقدمة ص ١٠ – ١١، نور الدين محمود ص ٦٠.
(٢) البرق ص ٦١، نور الدين محمود ص ٦١.
(٣) البرق ص١٣٢ – ١٣٣، نورالدين محمود ص ٦١.
(٤) نور الدين محمود ص ٦١.
(٥) المصدر نفسه ص ٦١.
(٦) البرق ص ١١٦، نور الدين محمود ص ٦٢.

أنه لما وصل الشام وجد القيسراني في صدر مناصبها وبدر مراتبها، وكان نور الدين قد رفعه واصطنعه وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه ولقد كان حقيقاً بذلك [1]. ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد فيقول: كان جدي خالد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها، وكتابة الإنشاء وإمرة مجلسه وهو المشير والوزير والأمور كلها عائدة إليه [2]، وواضح أن عمله في كتابة الإنشاء كان في الفترة التي سبقت توليها من قبل العماد الأصفهاني [3].

٥- محمد العمادي: صاحب نور الدين وأمير حاجبه وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر [4]. وكان كما يصفه سبط ابن الجوزي: عزيزاً عند نور الدين ومن أعظم أمرائه [5].

٦- الشيخ الأمير مخلص الدين ابو البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي الأمين على خزائن أموال نور الدين، كان كاتباً بليغاً حسن البلاغة نظماً ونثراً، مستحسن الفنون من التذهيب البديع، وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستطرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء [6].

٧- ابو سالم بن همام الحلبي: ولي الإشراف على الديوان بدمشق حتى عام ٥٥١هـ – ١١٥٦م حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة فألقي القبض عليه واعتقل، ثم أصدر نور الدين أمراً بكشف خيانته للناس وعقابه عقاباً قاسياً والطواف به في الأسواق حيث كان المنادي يصيح: هذا جزاء كل خائن. وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أياماً أمر نور الدين بنفيه إلى حلب فغادر دمشق على أقبح صفة من لعن الناس ونشر مخازيه[7].

ثانياً: أهم الإدارات والوظائف في دولة نور الدين:

كانت دولة نور الدين مقسمة إلى عدة أقاليم هي إقليم حلب شمال بلاد الشام . وإقليم دمشق وسط بلاد الشام وإقليم الموصل والجزيرة الفراتية، وإقليم مصر، وإقليم

(١) نور الدين محمود ص ٦٢.
(٢) مفرج الكروب (١/ ٢٧٠)، نور الدين محمود ص ٦٢.
(٣) نورالدين محمود الرجل والتجربة ص ٦٢.
(٤) مرآة الزمان (٨/ ٢٨٠)، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٦٢.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٦٠). (٦) نور الدين محمود ص ٦٣.
(٧) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٠.

اليمن، وإقليم الحجاز [(١)]، وكان لكل إقليم إدارته المحلية التي تتألف من عدة موظفين يعينهم نور الدين، وكانت جميع هذه الأقاليم تتبع السلطة المركزية للدولة في دمشق، التي يشرف عليها نور الدين وجهازه الإداري المركزي. أما الوظائف التي تتألف منها الإدارة المركزية فهي:

١- **النائب:** هو الذي ينوب عن نور الدين في الإقليم، ويكون مسؤولاً عن الشؤون العسكرية والإدارية فيه، من صلاحياته توقيع المراسيم والمنشورات، وترشيح أسماء نوابه في المدن الأخرى التابعة للإقليم، والإشراف على تنفيذ قوانين ضمن منطقة مسؤوليته، ويرأس اجتماعات ديوان الجيش في الإقليم وقيادة الفرق العسكرية، الموجودة في الإقليم، وكان مجد الدين بن الداية من أشهر نواب نور الدين، فقد ظل خمسة عشر عاماً نائباً لنور الدين في حلب [(٢)].

٢- **الوزير:** هو رئيس الجهاز الإداري المركزي ويكون مسؤولاً أمام نور الدين عن جميع الدواوين والسجلات المتعلقة بالجند والبريد والخزينة [(٣)]، ويقدم النصح والرأي في الأمور السياسية والإدارية والعسكرية. وكانت وظيفة الوزير أهم وظائف الدولة قبل استحداث وظيفة النائب [(٤)]، فقد كان الوزير في بداية عصر السلاجقة هو المدبر الوحيد والحقيقي لجميع شؤون الدولة ولكن صلاحياته تقلّصت بعد استحداث وظيفة النائب الذي كان يتمتع بجميع صلاحيات السلطان ضمن منطقة مسؤوليته ويرتبط بالسلطان مباشرة، وقد حصل تداخل في الواجبات والصلاحيات بين وظيفة الوزير ووظيفة الناظر (ناظر الديوان) الذي كان يعتبر مسؤولاً عن الدواوين، وكان عمل الوزير يقتصر في بعض الأحيان على تقديم المشورة في الأمور المهمة بسبب التداخل المذكور [(٥)]، لم يكن هناك وصف دقيق للوظائف وصلاحياتها، فكان الأمر في الحقيقة يعتمد على كفاءة من يتولى المنصب وشخصيته، كما حدث مع كمال الدين الشهرزوري، فقد كان قاضي القضاة في كل مملكة نور الدين وكان يكلفه بكثير من المهام الأخرى غير القضاء، ويستشيره في الأمور الهامة [(٦)] حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه أصبح في دمشق: الحاكم المطلق وأنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أمور الشام [(٧)]، ومثال ذلك أيضاً ثقة نور الدين في العماد الأصفهاني كما مر معنا.

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧١. (٢) المصدر نفسه ص ١٧١.
(٣) (٤) (٥) (٦) المصدر نفسه ص ١٧٢.
(٧) نور الدين محمود وتجربته الإسلامية ص ٨٢ ، ٨٣.

٣- المستوفي: هو المسؤول عن موازنة الدولة جميعها من حيث تقدير الأموال المستحقة وجمعها من مصادرها وحفظها، وتخصيص الأموال اللازمة للجند وغيرهم من أجهزة الدولة ومؤسساتها، ويكون له نواب في الأقاليم يقومون بالواجبات نفسها ويعملون بإمرته، وكذلك يكون له عدد من الكتبة المساعدين في الإدارة المركزية يعملون معاً تحت إمرته في ديوان يسمى ديوان الاستيفاء(١). ووظيفة المستوفي أهم الوظائف في الإدارة المركزية بعد وظيفة الوزير، ويتبع المستوفي موظف آخر هو المشرف الذي يرأس ديوان الإشراف ويعتبر عمله مكملاً لعمل المستوفي، ومهمته تدقيق الحسابات والموازنة بين الصادرات والواردات لخزينة الدولة، ويشبه عمله إلى حد ما عمل المفتش في هذه الأيام (٢).

٤- الأمير الحاجب: هو المسؤول عن ديوان الجيش من حيث حفظ السجلات التي تحتوي أسماءهم ووظائفهم ورواتبهم وإقطاعاتهم، ويقوم بحل مشاكلهم وتقديم صورة واضحة عن أحوالهم إلى السلطان أو النائب. كما يقوم بالإشراف على سلاح الجند وخيولهم ويساعده في ذلك عدد من الكتبة والموظفين يشكلون معه ديوان الجند الذي يتولى -كما ذكرت- كل ما يتعلق بشؤون الجند من خيل وسلاح ورواتب وإقطاعات وسجلات(٣). كان محمد العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وأحد كبار نوّابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر(٤). أما الحاجب فهو الذي يتولى تنظيم مقابلات السلطان والدخول عليه في مجلسه، ومع أن بعض المراجع تذكر أن وظيفة الحاجب اختلفت عما كان عليه قبل عصر السلاجقة وأصبحت مهمة الحاجب: إبلاغ السلطان حالة الشعب وكشف مظالمهم أمامه وإطلاعه على الأمور الرئيسية للدولة، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الأعلى. فالحاجب – إذن – يشبه وزير الداخلية حالياً (٥)، إلا أنه ورد في مراجع أخرى كثيرة أن نور الدين كان يأمر بإزالة الحاجب والبواب عندما يجلس في دار العدل للقضاء ليسهل دخول الضعفاء من الناس عليه (٦)، مما يدل على أن وظيفة الحاجب ظلت حتى في عصر نور الدين تشمل واجب تنظيم الدخول على السلطان ومقابلته(٧).

٥- الوالي: تغير مفهوم وظيفة الوالي عما كان قبل دولة السلاجقة، فقد كان الوالي يمثل

(١) (٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٧٤. (٣) المصدر نفسه ص ١٧٤.
(٤) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود ص ١٧٤.
(٥) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٤.
(٦) الباهر ص ١٦٨، عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٧٤.
(٧) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٥.

الخليفة أو السلطان في ولايته ويعتبر مسؤولاً عن جميع الشؤون الإدارية والعسكرية فيها، أما في عهد السلاجقة والدولة الزنكية فقد أصبح النائب هو الذي يتولى الصلاحيات المذكورة بينما يكون الوالي مسؤولاً عن مدينة أو بلدة أو قلعة في الولاية أو الإقليم الذي يحكمه النائب باسم السلطان، أي أن النائب في عهد السلاجقة وعهد الدولة الزنكية حلَّ محل الوالي في مركزه وصلاحياته [1]. أما واجبات الوالي في المدينة فهي واجبات إدارية تشمل تنفيذ الأحكام، ومراقبة الأسواق ومحاسبة المخالفين للقانون، وتفقد أبواب المدينة وأسوارها وإطلاع النائب أو السلطان على الأوضاع العامة في المدينة [2]، بينما تختلف واجبات والي القلعة فهو يعتبر قائد الحامية، ويكون مسؤولاً عن أبواب القلعة وصيانتها وإدارة حاميتها، فهو قائد عسكري وله واجبات إدارية ضمن القلعة نفسها [3].

٦- **الشحنة:** الشحنة او الشحنكية كلمة تركية تعني قائد الحامية أو الحاكم الإداري للمدينة المسؤول عن الأمن والنظام فيها؛ يعين من قِبل السلطان ويعمل بإمرته رجال الشرطة أو الحامية ويقوم بملاحقة اللصوص والخارجين عن القانون. ويلاحظ أن هناك تداخلاً بين واجبات الوالي والشحنة في المدينة ولا تذكر المصادر والمراجع حدوداً فاصلة بين واجبات مختلف الوظائف الإدارية في تلك العصور، ويظهر أن واجبات كل وظيفة كانت تتحدد في ضوء قوة شخصية من يشغلها، فإذا كانت شخصيته قوية زادت صلاحياته واتسعت لتشمل واجبات وظائف أخرى كما حصل مع كمال الدين الشهرزوري الذي كان قاضياً في دمشق ثم صار قاضياً للقضاة في مملكة نور الدين كلها، وكان نور الدين يكلفه بأعمال كثيرة غير القضاء حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان في مقام الوزير، وتشير بعض المراجع إلى تعيين السلطان السلجوقي محمود الأمير آق سنقر البرسقي شحنة في بغداد عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، وكذلك تشير المراجع نفسها إلى تعيين السلطان نفسه لعماد الدين زنكي شحنة في بغداد عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م والمعروف أن آق سنقر البرسقي كان يقود الجيوش وهو في الوظيفة المذكورة، ويدافع عن بغداد ويتصرف كنائب للسلطان، وكذلك كان من بعده عماد الدين زنكي في هذه الوظيفة [4]، وتشير المراجع ذاتها إلى تعيين نور الدين محمود توران شاه بن نجم الدين أيوب شحنة في دمشق ومن بعده أخو صلاح الدين يوسف في الوظيفة نفسها، وكانت واجبات الأخوين في هذه الوظيفة لا تتعدى الأمور

---

(١) عماد الدين زنكي نقلاً عن دور نور الدين محمود ص ١٧٥.

(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص١٧٥. (٣) المصدر نفسه ص١٧٥.

(٤) المصدر نفسه ص١٧٦.

الإدارية [1]، مما يعني أن مفهوم وظيفة الشحنة كان يتغير من ظرف إلى آخر، ومن مكـان إلى مكان [2].

٧- القاضي: حظي القضاء برعاية نور الدين واهتمامه أكثر من أية وظيفـة أخـرى، ويرجع السبب في ذلك إلى تركيزه على إقرار العدل وإشاعته في دولته، فقـد كـان يختـار لهذه الوظيفة أشهر العلمـاء والفقهـاء المعـروفين بـالتقوى والاسـتقامة ويعطـيهم كامـل الصلاحيات في تنفيذ أعمالهم وأحكامهم، فكان القضاء يتمتع باستقلال تـام [3]، وكـان هو أول من أنشأ محكمة عليا سمّاها دار العدل – كما مر معنا– للنظر في القضايا المتعلقة بكبار رجال الدولة، عندما لاحظ تهيب القاضي طلب بعضهم للمحاكمة، فكان يجلـس فيها للقضاء ومعه الفقهاء والعلماء والقاضي ليستشيرهم فيما يعرض عليه مـن قضـايا، ثم جعل من نفسه قدوة لرجال دولته عندما ذهب إلى مجلس القضاء وطلب من القاضي أن يساوي بينه وبين خصمه في المحاكمة [4]، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك من الأمراء والقـادة وكبار موظفي الدولة على مخالفة الشريعة أو ظلم أحد من الرعية لأنه علـم أن العقـاب لا بد أن يقع عليه. وكان كمال الدين الشهرزوري أشهر القضاة في دولة نور الدين الذي كان يجلّه ويقدره فجعله قاضياً للقضاة في الدولة كلها بحيث يكـون القضـاة في الأقـاليم نوّاباً عنه، وكلّفه بأعمال مهمة غير القضاء كالإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولـة وبناء أسوار دمشق ومدارسها ومارسـتانها حتـى وصـفه العمـاد الأصـفهاني بأنـه كـان الحاكم المطلق في دمشق وأنه: ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحـل والعقـد في أحكـام الشام[5]، ومن القضاة الآخرين الذين اشتهروا في دولـة نـور الـدين شـرف الـدين أبـي عصرون، الذي وصف بأنه من أفقه أهل عصره [6].

ثالثاً: صبغ الإدارة الزنكية بالصبغة الإسلامية وتكامل القيادات السياسية والفكرية:

حرصت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية على العمـوم بالتزامهـا العقائـدي في نشاطاتها وممارساتها، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية، وإلى شخصية نور الدين، فقد كان نور الدين زنكي تقياً ورعاً وعده بعض المؤرخين بأنه أفضل من جاء بعد عمـر بـن العزيز من الحكّام، وكان يحافظ على صلاة الجماعة ويكثر من الصـلاة مـن الليـل إلى وقـت السحر إلى أن يركب. وكان محدثاً مع الحديث وأسمعه وجمعه، وكان حنفـي المـذهب عارفـاً

(١) الكواكب الدرية ص ١٤٧، دور نور الدين ص ١٧٦.
(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٦. (٣) المصدر نفسه ص ١٧٦.
(٤) (٥) (٦) المصدر نفسه ص ١٧٦.

بمذهب أبي حنيفة ولكن دون تعصّب على أحد، فالمذاهب عنده سواء ولا تعدو عن كونها مدارس في الفقه [1]، وكان لنور الدين تأثير كبير على رجاله ومعاونيه وقادة الجيش وأصبح بعضهم على مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، الذي قدم من بغداد إلى دمشق فقد كان فقيهًا أصولياً شغل مناصب مختلفة كالسفارة والوزارة وناظر الأوقاف وناظر المالية والقضاء واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين [2]. ولم تكن هذه الشخصيات إلا نماذج لرجال الإدارة والحكم زمن نور الدين. فقد أظهر هذا الرعيل من صنوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج [3]. ومن أمثلة هذه المهارات والمزايا ما يلي:

١- تكامل القيادات الفكرية والسياسية: فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المنزلة الأولى فيه [4]. وكان نور الدين يمنع الأمراء من اغتياب العلماء، وقد مر ذلك في قصة أحد الأمراء مع قطب الدين النيسابوري ودفاع نور الدين عنه.

٢- اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات: فقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية، يبحث في أمور الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأي الذي يُتفق عليه [5]، ما دام يحقق المصلحة العامة وقد مر بعض الممارسات الشورية في حديثنا عن الشورى في عهد نور الدين زنكي.

٣- غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران، فلقد كان من الطبيعي أن تقوم مشكلات وخلافات بين نور الدين – مثلاً – ووزرائه وقادته لكنهم كانوا يعالجون هذه المشكلات بأسلوب لم يخرج يوماً عن

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٢. (٢) المصدر نفسه ص ١٦٤.
(٣) الكواكب الدرية ص ٣٨؛ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٤.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٤.
(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٥.

حدود المصلحة العامة وما تقتضيه وحدة الكلمة وتغليب الأخلاق الإسلامية [1].

٤- التفانى في أداء الواجب بتعاون وتآخ: ومن طريف ما لاحظه الدكتور حسين مؤنس عند هذا الزعيم والقادة والإداريين والعلماء قوله: إن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة: فبينما كان البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمصام الدولة، كان قادة هذه الدولة وأعوانهم والعاملون معهم يختارون عماد الدين، وسيف الدين، ونور الدين، وصلاح الدين، وأسد الدين، ونجم الدين وزين الديس وهكذا [2]، وثمة ملاحظة أخرى وهي تعلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين [3].

٥- الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام: تجلت آثار التربية الإسلامية في مواقف رجال الدولة والإدارة والجيش من الثروات والسياسة الاقتصادية، فقد زهدوا بالمكاسب، وعزفوا عن الاحتكار والترف. وحذا حذوهم الأغنياء في المدن والقرى، فقد كان نور الدين زنكي مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعلى أسرته، وكان لا يكنز ولا يستأثر بالدنيا، ولم يكن له بيت يسكنه وإنما كان مقامه في قلعة البلد الذي يحل فيه [4]، وكان نفقته في الشهر مئة وخمسين درهماً يأخذها من دكاكين كانت له في مدينة حمص حيث اشتراها من حصته من الغنائم، ولقد شكت له زوجته يوماً قلة نفقاتها وأرسلت له أخاها في الرضاع تطلب زيادة فقال: من أين أعطيها ما يكفيها؟ والله لا أخوض في نار جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم وأنا خازنها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم فقد وهبتها إياها فلتأخذها. وكان نور الدين صاحب مهنة يخيط الكوافي ويعمل سكاكر للأبواب ويعطيها لبعض العجائز فتبيعها ولا يدري به أحد [5]. ومع ذلك فقد شهدت دولته تقدماً اقتصادياً يأتي بيانه بإذن الله. وكذلك كان قادة الجيش، منهم أسد الدين شيركوه أكبر قادته

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٦.
(٢) نور الدين محمود ص ٤٠٧، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٦.
(٣) البداية والنهاية نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٦.
(٤) نور الدين محمود د. حسين مؤنس ص ٣٦٩ .
(٥) الكواكب الدرية نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٧.

العسكريين، فقد كان يملك أراضي واسعة أنفق مواردها في بناء المدارس التي تنشر الفكر الإسلامي وحين مات لم يخلف إلا دنانير قليلة [1]، وكذلك فعل وزير نور الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري الذي أوقف أوقافاً كثيرة: منها مدرسة الموصل ومدرسة نصيبين، ورباطاً في المدنية المنورة، وأوقف أوقافاً في قرية «الهامة» على المقادسة الذين نزحوا من وجه الاحتلال الصليبي، وكان كثير التبرع والهبات ولا تقل هبته في المرة الواحدة عن ألف دينار فما فوقها [2]، وكذلك فعل عبد الله بن عصرون حيث بنى مدرستين في دمشق وحلب، وكذلك فعل نجم الدين يوسف والد صلاح الدين حيث بنى خانقاه تُعرف بالنجمية[3]. وعلى هذا المنهاج سار بقية رجال الحكم والإدارة، وحذت حذوهم نساؤهم. من ذلك ما فعلته الست خاتون عصمت الدين زوجة نور الدين حيث أوقفت «الخاتونية» بمحلة حجر الذهب وخانقاه خاتون باب النصر، وأوقافاً كثيرة أخرى ومثلها زمرد خاتون بنت جاولي[4].

٦- توافر الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة: تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة، كحرية الرأي المنضبطة والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع في الوقت الذي انتفت جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة، ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام إلى يومنا هذا فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه، وإنعام يسديه. فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف في بيت واحد[5]. وإلى جانب ذلك، امتازت الأجواء العامة بحرية الرأي، فكان كل إنسان يقول رأيه دون خوف من التعرض للأذى أو الانتقاد حتى لو كان النقد موجهاً لنور الدين بالرغم من استعمال البعض لأساليب قاسية محرجة، ولقد أورد المؤرخون الإسلاميون أمثلة عديدة لمواقف نور الدين التي تكشف عن أنه كان يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت حدته وينظر في كلام الناقدين، فإذا رأى فيه ما ينفع سارع إلى الأخذ به، وقد مر معنا كلام الواعظ أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي وكيف تناول موضوع الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه فحذره

(١) طبقات الشافعية (٦/ ١١٧ – ١١٩).
(٢) نور الدين محمود ، حسين مؤنس ص ٣٩١.
(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٨.
(٤) المصدرنفسه ص ٢٦٩.
(٥) التاريخ الباهر نقلا عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٠.

وخوفه مما هو فيه وأنشد أمامه أبياتًا من الشعر[1] - مّر ذكرها-. إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة في الحركات الإسلامية والدول من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله تعالى ولقد عرف بعض الباحثين التخطيط بأنه: جسر الحاضر والمستقبل[2]. إن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل، وعلى هذا فإن الإداري المسلم يكون قد عرف التخطيط لأن الله تبارك وتعالى قد وجه إلى ذلك في آيات كثيرة. قال تعالى: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾** [القصص: ٧٧]. إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة [3].

إن نور الدين محمود رجل عاش مع كتاب الله، وعرف من قصة يوسف وغيرها أهمية التخطيط والإدارة، ولذلك نجحت إدارته، فقد أدرك الملك العادل أن الإسلام لا يقوم على التخمين والتواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها، فقد عرف أن من ثمار حسن إدارة يوسف عليه السلام وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء، والتخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة، التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان فهما التنبؤ والأهداف، وأما العناصر فهي السياسات، والوسائل والأدوات، والموارد البشرية، والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التخطيطية التقديرية [4]. إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق، وهذا عين الذي مارسه الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي والجهادي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي كل ذلك في ذهنه قد أعد إعداداً كافياً، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله تعالى. إن الاهتمام بالفكر الإسلامي وأصوله وقواعده وفق التصور الإسلامي الصحيح من الأسباب المهمة التي مارسها نور الدين محمود وساعدته على إنجاح مشروعه النهضوي الكبير.

* * *

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٣.
(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٢٧٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٧.
(٤) سورة يوسف.. دراسة تحليلية ص ٤١٥ ، ٤١٦.

المبحث الخامس

النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية

أولاً: مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية:

ثمة سؤال يفرض نفسه قبل الحديث عن هذا الموضوع، فنور الدين محمود أنفق مقادير كبيرة من المال في تغطية الخدمات الاجتماعية المتشعبة الواسعة، وأسقط في الوقت نفسه مبالغ نقدية أكبر منها حجمًا كانت تصب في خزائن الدولة ضرائب ومؤنًا ورسوماً ومكوساً، فمن أين كانت دولة نور الدين تحظى بموردها الدائم الذي يحميها من العجز، وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير بإسقاط المكوس والضرائب، وتنفق عن سعة في ميادين الخدمات الاجتماعية دون أن يصيبها الخلل فتتوقف – على الأقل – عن العطاء إن لم نقل ترجع ثانية فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سد الفتق واستعادة التوازن والقدرة على العمل؟ إن دولة نور الدين لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال وبشكل دائم لما واصلت سياستها تلك لآخر لحظة، ولما وصفها العماد بأنها كانت: نافذة الأوامر، منتظمة الأمور [1]. وقد كانت خزائن الدولة تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدرة على الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي وغيرها بسبب سياسة نور الدين الحكيمة، وإليك شيئًا من التفصيل:

١- نظام القطاع الحربي: اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع الحربي للصرف على جيوشهم خلال جهادهم ضد الصليبيين، فقد نشأ نظام الإقطاع الحربي في الشرق الإسلامي في الدولة السلجوقية التي كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيش النظامي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي حيث أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليها وإرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتبات التي تصرف للجيش، إلى تفكير الوزير نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية، بالإقطاعات من الأراضي لمختلف عناصر الجيش [2]، وقد انتقل نظام الإقطاع الحربي كاملاً إلى الدولة الزنكية التي نبتت وترعرعت في أحضان السلاجقة ثم ورثتهم بعد ذلك [3]. وقد ارتبط الإقطاع الحربي في عصر الزنكيين

---

(١) نور الدين محمود ص ١١٩، ١٢٠، البرق ص ١٤٧.

(٢) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين وابنه ص ٢٦ نقلاً عن جيش مصر، حسان سعداوي ص ١ ، ٢.

(٣) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين وعماد الدين وابنه ص ٢٦.

بالخدمة الحربية، إذ كان الأمير المقطع يلزم بتقديم العساكر وقت الحرب مجهزة بكامل عتادها وعدتها، وكان إقطاعاً وراثياً، أي أن إقطاع الأمير أو الجندي يمنح بعد وفاته لأولاده [1]، وفي حالة صغر سن الابن كان السلطان يعين من يدير الإقطاع حتى يبلغ سن الرشد. ومنح الإقطاع بواسطة السلطان لم يكن معناه تمليك الأراضي الزراعية للمقطع، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بمتحصلات الإقطاع لفترة طويلة، بل كان يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه وأجناده مجموعة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية العسكرية التي كان المقطع ملزماً بها [2]، والملاحظ أن توزيع الإقطاعات الحربية على الأمراء والأجناد في العهد الزنكي شمل كل البلاد التي تمكن عماد الدين وابنه نور الدين من ضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية آنذاك. والأدلة على ذلك كثيرة منها أنه عندما لجأ نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه إلى الموصل، رحب بهما زنكي وأقطعهما الإقطاعات في شهرزور بشمال العراق ثم خص أسد الدين بالمؤزر [3]. وأقطع الأمير جاولي الرحبة وأعمالها[4]. وسار نور الدين محمود على نهج والده في توزيع الإقطاعات الحربية، فعندما استولى على دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، أقطع صاحبها مجير الدين ضياعاً بحمص عوضاً عن دمشق، كما أقطع شهاب الدين على بن مالك العقيلي سروج والملاحظة والباب وبزاعة[5]. وأقطع في سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م مجد الدين أبا بكر بن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر، ثم أقرها بعد وفاته سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م في يد أخيه علي ابن الداية، وأقطع نور الدين مسعود بن الزعفران حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها [6]، كما أقطع أمراء العراق الإقطاعات لحفظ طريق الحجاج بين الشام والحجاز، ولمثل هذا الهدف أقطع أمير مكة إقطاعاً وافرا [7]، وشمل الإقطاع الحربي في عهد نور الدين الأراضي المصرية، من ذلك ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن نور الدين عندما سمع بأن بعض أمرائه في مصر تردد في محاربة الفاطميين والصليبيين عند البابين في صعيد مصر، هددهم بأخذ إقطاعاتهم وإعادة الموارد التي أخذوها منها[8]. واتبع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود أساليب عدة لتوزيع

(١) الكامل في التاريخ نقلا عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.
(٢) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.
(٣) مفرج الكروب (١/ ٣ – ٦)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٧٧).
(٤) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.
(٥) مفرج الكروب (١/ ٣ – ٦)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٧٧).
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٢٨.
(٧) مقومات حركة الجهاد ص ٢٨.
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٢٩.

الإقطاعات الحربية على أمرائهما وأجنادهما. منها ما كان الغرض منه استمالة الحكام المسلمين بهدف توحيد الجبهة الإسلامية، ومن ذلك أن عماد الدين عندما عزم في سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م الاستيلاء على قلعة جعبر وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة، لما رأى حصانتها كتب إلى عز الدين علي بن مالك في معنى تسليمها، وفوض عماد الدين حسان المنبجي أن يضمن لعلي بن مالك الإقطاع الوافر والعطاء الكثير مقابل التسليم [١]، ومن ذلك أيضاً ما ذكر أن نور الدين عندما حاصر دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وأدرك صاحبها مجير الدين آبق عدم جدوى المقاومة احتمى بقلعة دمشق ساعات ثم استسلم فأطلق نور الدين سراحه وأقطعه عوضاً عن دمشق حمص وأعمالها [٢]. كما منح الإقطاع في العهد الزنكي للأمراء والأجناد كمكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة سواء في مرحلة تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة أو إبان مراحل جهادهم ضد الصليبيين، من ذلك ما ذكره ابن الأثير أن عماد الدين عندما ملك بعض ديار بكر سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م رتب أمور الجميع وجعل فيها من الأجناد من يحفظها [٣].

ومن خصائص الإقطاع الزنكي انتقاله من مقطع إلى آخر عن طريق الوراثة أو غيرها، فتشير المصادر إلى أن عماد الدين زنكي قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق وأسكنهم بحلب وأعمالها وأمرهم بجهاد الصليبيين، وأعطاهم كل ما استنقذوه منهم، ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى نحو سنة ستمائة[٤]. وقد سار نور الدين على نهج أبيه يدلنا على ذلك قول ابن واصل أن نور الدين كان من آرائه الحسنة ما يعتمده من أمر اجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً ذكراً أقر عليه إقطاعه[٥]. ومن ذلك أيضاً ما حدث سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م عندما هزم جيش نور الدين في هذه السنة أمام الصليبيين بالقرب من حصن الأكراد في المعركة المعروفة بالوقيعة، أصدر نور الدين أوامره بإحضار الأموال والدواب والأسلحة والخيام من دمشق وفرق ذلك على من سلم من عسكره ومن قتل أعطى إقطاعه لأولاده [٦]. وأما انتقال الإقطاع من مقطع إلى آخر من غير ورثته والذي يحدث غالباً إذا تقاعس المقطع عن أداء واجبه أو متى بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية، يدلنا على ذلك ماحدث سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م عندما اختبر أسد الدين شيركوه رجاله لمعرفة ما

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ ، ٢٨٥، الباهر ص ٧٤ – ٧٥.
(٢) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٠. (٣) الباهر ص ٦٦ ، مقومات حركة الجهاد ص ٣٠.
(٤) الباهر ص ٨٠، مقومات حركة الجهاد ص ٣١.
(٥) مفرج الكروب نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣١.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣١.

يمكن أن يقدموه إذا اشتبكوا مع الصليبيين والفاطميين في مصر، فأبدى بعضهم تخوفه من ذلك حيث صاح فيهم أحد أمراء نور الدين والذي كان مرافقاً لشيركوه قائلاً: من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عندنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعتذر فيه ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار [1]. ويظهر من خلال هذا العرض أنه كان على المقطع في مقابل الموارد المتحصلة من الإقطاع مجموعة من الالتزامات كان يؤديها للسلطان وهي في المرتبة الأولى التزامات حربية أملتها ظروف الجهاد الذي اتصف به عصر الأسرة الزنكية؛ شملت تقديم العساكر وقت الحرب، فكان المقطع مسؤولاً مسؤولية كاملة عن نفقات عساكره، إذ كان عليه أن يخرج بهم إلى ساحات القتال مزودين بكل مستلزماته من مؤن وعتاد ودواب وغيرها فضلاً عما يتبع ذلك من تدريبات عسكرية فردية وجماعية لجيشه من أساليب القتال المعروفة آنذاك [2]، وإلى جانب ذلك كان على المقطع الاضطلاع بحماية إقطاعه من أي اعتداء خارجي، وفي ذات الوقت القيام بمراقبة تحركات الأعداء وتنفيذ بعض الأعمال الحربية ضد مراكزهم [3]، وصفوة القول فإن نظام الإقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات يعاقب عليها المقطع متى قصر في شيء منها كان كفيلاً بإخلاص الأمراء والجند واستماتتهم في أداء واجب الجهاد في سبيل الله وتحقيق المزيد من الانتصارات ضد أعداء الإسلام والتوسع في الفتوحات لجعل كلمة الله هي العليا، خاصة أن الزنكيين كانوا حريصين على تحري الدقة في توزيع الإقطاعات على أمرائهم وأجنادهم يخصون بها المخلصين منهم، يدلنا على هذا ما ذكرته [4] بعض المصادر من أن عماد الدين زنكي كان يقطع بلاده: لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم [5]. وعلى هذا النهج سار الملك العادل نور الدين محمود الشهيد.

٢- الزكاة والخراج والجزية: تشكل الزكاة والخراج والجزية جزءًا مهمًا من موارد الدولة وتؤخذ حسب أحكام الشريعة الإسلامية. فالزكاة ركن من أركان الدين الإسلامي لا يكمل إسلام المسلم وإيمانه إلا بتأديتها، ولذلك يقبل المسلمون على تأديتها من باب الحرص على دينهم دونما إكراه من الدولة، وإن كان من حق الدولة إلزام من يمنعها من المسلمين

---

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣٢.
(٢) مقومات حركة الجهاد ص ٣٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٤.
(٥) الباهر ص ٣٧.

بتأديتها لأنها ركن من أركان الدين من حقوق المسلمين يجب على الدولة جمعها وتنظيم صرفها في مصالحهم. وقد ثبت بالتجربة من خلال التاريخ الإسلامي في عهد الرسولﷺ والخلفاء الراشدين، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز [1] أن الزكاة تسهم إلى حد كبير في سد نفقات الدولة إذا كانت الدولة تطبق الإسلام على حقيقته. وكان نور الدين يحكم أرضاً اشتهرت بكثافة نشاطها الزراعي وبكثرة ذمييها ويسوس مجتمعاً بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الموجدين فيه يهرعون لتقديم زكاة أموالهم قبل أن ترغمهم الدولة على الدفع، فكانت هذه الموارد الثلاثة تشكل ضماناً ثابتاً لموازنة مالية الدولة وحماية خزائنها من العجز والإفلاس [2].

٣- الغنائم وفداء الأسرى: كانت الغنائم تمثل - بحق - مورداً من أوسع موارد الدولة التي كانت دوماً في (حالة حرب) مع الأعداء وكانت نتائج الحرب المادية والمعنوية تأتي لصالحها في أغلب الأحيان، يقول سبط بن الجوزي على سبيل المثال: عاد نور الدين بعد فتح حارم عام ٥٥٩هـ إلى حلب بالأسارى، ثم فاداهم وكان قد استفتى الفقهاء فقال قوم: يقتل الجميع، وقال آخرون: يفادي بهم، فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة ألف دينار، معجلاً، وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة، وجميع ما وقفه منها، وليس فيها من بيت المال درهم واحد[3]. ستمائة ألف دينار حصيلة معركة واحدة، فكيف سائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين والتي تغطي فترة حكمه من أقصاها إلى أقصاها؟ ثمة رواية أخرى فيها إشارة محددة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة عن طريق المفاداة: وقع صاحب طرابلس أسيرًا بيد نور الدين فأطلق سراحه لقاء ثلاثمائة ألف دينار ومائة وخمسين أسيرًا من المسلمين. هذا ما يقوله ابن الجوزي[4]. أما أبو شامة فإنه يطرح أرقاماً أخرى: مائة وخمسون ألف دينار، وفكاك ألف أسير من المسلمين[5]. ومهما كان الأمر فإن المبالغ النقدية والعينية المترتبة على فداء الأمير الصليبي كانت كبيرة حقاً، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الأقاليم التي فتحها كمصر واليمن وغيرها [6]، على شكل ضرائب وغنائم ومعطيات عينية أدركنا كم

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٠. (٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٢١.
(٣) مرآة الزمان (٨/ ٢٤٧ - ٢٤٨)، نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٤) المنتظم (١٠/ ٢٤٩)، نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٦) البرق ص ١٢٣ - ١٢٤، نور الدين محمود ص ١٢٤.

كان واسعاً وكبيراً هذا المورد الذي كان يجيء عن طريق النشاط الحربي [1].

٤- الأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين والتي آلت خزائنها العظيمة إلى نور الدين – لحسن الحظ – بدلاً من أخيه الأكبر سيف الدين غازي، حيث كان زنكي قد احتفظ بها في قلعة سنجار على الطريق بين الموصل وحلب، فلما آلت هذه المدينة إلى نور الدين عام ٥٤٤هـ وضع يده عليها ونقلها معه إلى حلب، فكانت كما يصفها كل من ابن الأثير وابن العديم «كثيرة جداً» [2]، وأنها نقلت على ستمائة جمل ما خلا البغال وكان من بين الأخيرة ستة وستون حملت عملة من الذهب [3].

٥- الأمانة العظيمة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة: تميز بأمانة عظيمة تجاه أموال الأمة والتي سعى إلى إلزام موظفيه بها، وفرض عليهم رقابته اليقظة الدائمة كيلا يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص، وإن لنا أن نقدر حجم الخسائر التي كانت ستمنى بها مالية الدولة لو ابتليت بحاكم جشع وموظفين. لا يعرفون غير تنمية جيوبهم، أسوة بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين وإن لنا أن نقدر – بالمقابل – ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين وإيمانه والتزامه واختياره الدقيق لكبار موظفيه وحسابه الشديد معهم [4]، فقد سار على نهج عمر بن عبد العزيز، وعنى بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم. والأغلب أن ذلك عوض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين[5]. وما قيل عن عمر بن عبد العزيز ينسحب بالضرورة على نور الدين [6]، كما أن وجود الحكومة الرشيدة التي كان يقودها نور الدين أسهم في تحقيق ما أراد، فقد اعتمد في إدارته لدولته الواسعة على حشد من العلماء والفقهاء المشهورين بالأمانة والاستقامة والكفاية، وكان أغلبهم قد مارس العمل مع الحكام والأمراء قبل العمل مع نور الدين، فاكتسب خبرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة فكان نور الدين يستشيرهم ويعقد لهم الاجتماعات لبحث الأمور المهمة[7]، وكان نور الدين يعتبر نفسه خازناً لأموال المسلمين يجب عليه أن يصرفها في مصالحهم فقط[8]، وألزم نوّابه ورجال دولته بهذا الفهم الذي يرقى إلى أعلى مستويات الأمانة

(١) نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٢) زبدة حلب (٢/٢٩٨)، نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٣) الباهر ص ٩٨، نور الدين محمود ص ١٢٥.
(٤) نور الدين محمود ص ١٢٥.
(٥) الدولة العربية وسقوطها ترجمة عبد الهادي أبي ريدة ص ٢٩٦ .
(٦) نور الدين محمود ص ١٢٥.
(٧) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٠.
(٨) المصدر نفسه ص ١٩٠.

والإحساس بالمسؤولية، وفرض رقابته الصارمة على بيت المال في مركز الدولة وفي الولايات، ولم يتردد في محاسبة نوابه في الأقاليم إذا أحسّ منهم ميلاً في هذا المجال [1]، وأنزل عقوبة شديدة بأحد موظفيه بعد أن ثبت أنه استغل مركزه وأخذ من الأموال العامة فوق ما يستحق من راتبه[2]، قد مر ذكرها، ويكفي أن نتذكر حادثة المال الذي وجده في الخزينة ولم يكن يعلم عنه من قبل، فأمر برده إلى القاضي كمال الدين الذي كان قد أرسله لبيت المال ليرده إلى أصحابه [3]. لنعلم كم كان الرجل صارماً، ودقيقاً في مسألة الحلال والحرام فيما يتعلق بالأموال العامة فحفظت وانعدم التسرب منها إلى حد كبير إلى جيوب الولاة والموظفين[4].

لقد انتصر نور الدين على نفسه قبل أن يواجه أهله ورعيته بسياسته التقشفية، فاستطاع بإيمانه القوي أن يتجرد من أهواء الدنيا ومغريات الملك ومن مظاهر البذخ والترف التي كان يعيشها غيره من الحكام غير مبالين بما تعانيه خزينة الدولة بسبب ذلك، وألزم نفسه بالعيش المتواضع دون أن يفقد شيئاً من هيبة السلطان وقوة الحكم، بل كان كما قيل: من شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما يحيّره[5]، فاقتدى به أهله وأمراؤه وقادته والتزموا البساطة في حياتهم، ثم انتقلت خصائله إلى العامة من الناس، فكان لهذه السياسة أثرها البعيد في توفير الأموال التي كانت تهدر في مجالات اللهو والبذخ والترف فصارت تصرف في وجوه الخير والمصلحة العامة [6].

٦- سيادة الأمن والاستقرار الداخلي: كانت النزاعات والحروب بين الإمارات الإسلامية المتعددة في بلاد الشام قبل توحيدها تستهلك أغلب موارد هذه الإمارات وتقضي على الأجواء المناسبة لاستغلال الأرض ورواج التجارة فيما بينها، فكانت الأوضاع الاقتصادية سيئة فلما توحّدت بلاد الشام كلها تحت زعامة نور الدين زالت أسباب التوتر والنزاع وساد الأمن والاستقرار على الجبهة الداخلية، وأصبحت الجهود كلها موجهة نحو الخطر الخارجي المتمثل بالفرنجة الذين أصبحوا بفضل جهود نور الدين العسكرية في وضع دفاعي، ولا يشكلون خطراً مباشراً على المدن الإسلامية في بلاد الشام كما كانوا من قبل، فانصرف الناس إلى أعمالهم الزراعية والتجارية وهم مطمئنون، فتحسنت الأحوال

(١) (٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص١٩٠.
(٣) (٤) المصدر نفسه ص ١٨٩.
(٥) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود ص ١٨٩.
(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٩.

الاقتصادية وكثر العمل، وكان من نتيجة ذلك كله زيادة مقادير الزكـاة الـتي تشـكل المـورد الرئيسي لخزينة الدولة.[١].

٧- مساهمة الأثرياء: أثرت جهود نور الدين وقيادته الحكيمة في إيجاد مجتمـع التكافـل والتضامن في بلاد الشام، وصار التعاون والتراحم والمودة والمواساة سمات بارزة في المجتمع، وأخذ الأثرياء من أبناء الأمـة يسـارعون إلى أعمـال الخـير تأسياً بسـلطانهم وطلباً للأجـر والثواب من الله سبحانه وتعالى، فتم بناء الكثير من المدارس والمساجد ودور الأيتام من قبل القادة والأمراء والولاة وغيرهم من الأثرياء حتى صارت هذه الأعمال مـن ظـواهر المجتمـع الدائمة، وامتدت بعد دولة نور الدين واتسعت في زمن الدولة الأيوبية ودولة المماليك، ومـا يهمنا هنا أن هذه المساهمات ساعدت في توفير الأموال لخزينة الدولة [٢].

٨- المعاهدات والاتفاقات: فقد شكلت المعاهدات والاتفاقات مورداً ماليـاً طيبـاً للدولـة الزنكية ففي سنة ٥٥٧هـ/ ١١٥٦م سار نـور الـدين بقواتـه لمحاصـرة حـارم التابعـة لإمـارة أنطاكية، وجمع الصليبيون قواتهم لصده عنها، وكان في هذا الحصن رجل صـليبي مـن دهـاة الإفرنج، يرجعون إلى رأيه فنصحهم بمفاوضة نور الدين فوافق على ذلك مقابـل أن يعطـوه نصف أعمال حارم [٣]، كما حدث سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م أن وافق نور الدين علـى إطـلاق سراح بوهيمند (١١٦٣ – ١٢٠١م) أمير أنطاكية بعد أن دفع فدية كـبيرة وتعهـد أن يرسـل مالاً كثيراً وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين عنده، وفي السنة نفسها شاطر الصليبيين في أعمال طبرية، وقرروا له من المناطق التي يشاطرهم عليها مالاً في كل سنة[٤].

٩- دعم الخليفة العباسي: كان نور الدين يـدين بالتبعيـة السياسـية للخلافـة العباسـية السنية في بغداد فتحصل على إضفاء صفة الشرعية على قيام دولته والحصـول علـى التأييـد منها في أعماله الجهادية حرصاً – على ما يبدو- في ذات الوقت على طلب المسـاعدة الماليـة منها أحياناً لدفع حركة الجهاد ضد الصليبيين، يدلنا على ذلك ما ذكر أن نور الدين محمود لم يتحرج في أن يطلب من الخليفة العباسي المستنجد بالله النفقات والأسلحة لسد الكلمة ودفع الملمة على أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م [٥].

١٠- سياسته الزراعية: عهد نور الدين إلى اعتماد سياسـة زراعيـة سـليمة كانـت بمثابـة

---

(١) (٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩١.
(٣) مفرج الكروب (١/ ١٢٨)، مقومات حركة الجهاد ص ٣٥.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣٥.
(٥) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص-٣٥.

المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المحورية في عالم الاقتصاد، فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين والفلاحين من كل صنوف الأذى والتخريب والعدوان التي كان يمكن أن تلحق كدهم من جراء حالة الحرب المستمرة، وتحرك الجيوش الدائم وتحوّل الأرض الشامية إلى ساحة قتال لا تعرف طعم السلم إلا قليلاً.. وقد مر بنا كيف أن نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق كان يشدد على أصحابه وجنده ألاّ يفسدوا المزارع والضياع والقرى وألاّ يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير حق.. كما أنه أعلن نفسه حامياً للفلاحين، وتتذكر رواية ابن القلانسي: سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين فقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع وإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم. وكتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم [1]. وقد نجح نور الدين في كسب الفلاحين ومثلوا دعماً حربياً متجدداً للجيش النوري وساعدتهم الدولة على الاستفادة من إمكانتهم المتميزة في مجال الزراعة، فقد امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوبة التربة بصفة عامة وتوافر مصادر الري سواء من الأنهار أو الأمطار، أو الينابيع، والآبار وحرصت الدولة على تشييد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهار إلى المناطق المزروعة، وقد أنتج القطاع الفلاحي العديد من المحاصيل الزراعية التي دخل بعضها في نطاق التصنيع مثل القطن وقصب السكر، والسمسم، والزيتون وغيرها [2].

١١- **المجال الصناعي:** امتازت الدولة النورية بتوافر المواد اللازمة للتصنيع وكذلك العمال المهرة ووسائل النقل، وازدهرت حينذاك صناعة المنسوجات القطنية والصوفية والحرير خاصة ثياب الدمسك [3] والموسلين، وكذلك صناعات الورق، والزجاج وغيرها. ويلاحظ أنه من خلال استعراض عديد من الصناعات في عهد الدولة النورية يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوقات التقدم حينذاك، وهي أن الآلات التي أمكن استخدامها لهم كانت معقدة، ولم

---

(١) نور الدين محمود الزجل والتجربة ص ١٢٢.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي- السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٣.

توجد المعدات التي يمكن أن تدار على طريق المعادن التي وجدت في بلاد الشام والجزيرة وظلت الطاقة الأساسية متمثلة في حركة الماء لإدارة الطواحين، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد والنحاس في بيروت والموصل ومناطق أخرى في صناعات ثقيلة بل إن استخدام الحديد انحصر في صناعة أدوات الطب [1] والجراحة، وكذلك الأسلحة، وأيضاً في بعض أدوات الصناعة البسيطة، وهذا الوضع بالطبع حد من نمو حركة التصنيع، ومن جهة أخرى حرصت الطبقة الوسطى التجارية على استثمار رأس مالها في حركة التجارة الداخلية والخارجية النشطة ولم تشأ استثماره في المجال الصناعي[2]، حيث رغبت في توظيفه في المجال الذي توارثته وسبرت أغواره، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقي في وسائل الإنتاج، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة، وعدم توافر وعي صناعي للطبقة الوسطى التجارية، أدى إلى أن تكون بلاد الشام والجزيرة في عهد نور الدين محمود معاصرة لنهضة صناعية لا ثورة، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية[3].

١٢- القطاع التجاري: اتبعت الدولة النورية سياسة انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية وكذلك الخارجية، واستطاعت التحكم في طرق التجارة في إقليم الجزيرة وخاصة بعد استرداد الرها جعلها تتحكم في طرق التجارة التي تربط بين العراق وآسيا الصغرى من ناحية وبلاد الشام من ناحية ثانية. كما أن سيطرة نور الدين بعد ذلك على الأراضي المصرية وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة بعد القضاء على الدولة الفاطمية في القاهرة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م مكنه من الاتصال بتجارة الهند والشرق عبر ممرين مائيين هما الخليج العربي والبحر الأحمر [4]. وكانت العشور يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة النورية سواء الداخلة أو الخارجة منها، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركيّة في العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له: (العاشر) أي: الذي يأخذ العشور [5]، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد النبيﷺ، وخليفته الأوَّل أبي بكر الصديق ﷺ لأنَّ تلك الفترة كانت فترة دعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل نشره، وبناء الدولة الإسلاميَّة، فلما اتسعت الدولة في عهد الخليفة عمر ﷺ وامتُدت حدودها شرقاً وغرباً وصار التبادل التجاري مع الدول المجاورة ضرورة تمليها المصلحة العامَّة، رأى الخليفة عمر ﷺ أن يفرض تلك الضَّريبة على الوارد إلى دار الإسلام، كما كان أهل الحرب يأخذونها من تجَّار

(١) سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ص ١٥٩.
(٢) (٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي- السياسة الخارجية ص ٤٣.
(٤) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٧.
(٥) الخراج لأبي يوسف ص ٢٧١، اقتصاديات الحرب ص ٢٢٣.

المسلمين القادمين إلى بلادهم، معاملة بالمثل. [1] وقد أجمع المؤرخون [2] أن أوّل من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب [3] رضي الله عنه.

اهتمت الدولة الزنكية بالحركة التجارية وإقامة العدد من المؤسسات التجارية مثل الخانات [4]، والفنادق [5]، وأورد ابن عساكر العديد منها في مدينة دمشق، كذلك شجعت التجار اليهود على المشاركة في النهضة التجارية التي شهدتها البلاد وقد استقروا في مناطق خطوط التجارة العالمية المارة بمدن الشام والجزيرة الكبرى مثل: دمشق وحلب، وشيزر، ومعرة النعمان والموصل وغيرها، ففي دمشق مثلاً وجدوا بأعداد كبيرة وعرفت حارة باسمهم [6]. وقد تزايدت أعدادهم بها حتى بلغوا الآلاف ووصفوا بأن منهم «ذوى اليسار»[7]، أي أنهم اشتغلوا بالتجارة حيث كانت أكثر المجالات المحققة للثروة وكذلك وجدوا مجالاً متسعاً في أعمال الصيارفة [8].

.وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من الكيانات السياسية في عالم البحر المتوسط، فهناك الامبراطورية البيزنطية، والقوى التجارية الإيطالية مثل جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفى، [9] وتمكن الإيطاليون على نحو خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام والجزيرة، وأقام قناصلهم في المدن الشامية والجزرية مثل حلب، ودمشق، والموصل وغيرها، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية. [10] ولا مراء في أن ذلك العهد قد شهد صحوة للطبقة الوسطى التجارية يدل على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار في العمليات التجارية وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري المتخصص فهناك الخزانون ثم الركاضون، والمجهزون [11]، ويكشف لنا الدمشقي المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم كذلك ظهرت عدة أسرات تجارية كبيرة النفوذ مثل أبناء الرجبي ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م الذي عاصر نور الدين محمود، فقد ترك أبناء لهم اشتغال جيد في هذا الفن [12]، ووجدت في حلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة [13] يتوارثونها، وطبيعي

(١) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي ص ٣٢٧. (٢) سياسة المال في الإسلام ص ١٢٨.
(٣) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي ص ٣٢٧.
(٤) الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان (١/ ٢٣٤).
(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٤.
(٦) خطط مدينة دمشق ضمن كتاب ابن عساكر عبد القادر ريحاني ص ١٠٩.
(٧) فن الصراع الإسلامي الصليبي – السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٥.
(٨) (٩) (١٠) المصدر نفسه ص ٤٥.
(١١) الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي، تحقيق الشوربجي ص ٧٤، ٧٥.
(١٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٢١٧. (١٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٤٦.

أنها نجمت عن النشاط التجاري في مدينة اشتهرت بذلك الطابع. يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موجودة من قبل [1]، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام[2]، وانطبق ذلك على بلاد الشام والجزيرة حينذاك نظراً للموقع الجغرافي المتوسط ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية، وقد فرضت الدولة النورية المكوس على النشاط التجاري، وكانت حلب أحد المراكز الرئيسية لجمع تلك الضرائب التجارية حيث جبيت فيها أموال الروم وديار بكر ومصر والعراق، [3] ويبدو أن الدولة النورية احتكرت تجارة بعض السلع الاستراتيجية ولم تشأ أن تجعلها في أيدي بعض كبار التجار الأثرياء خوفاً من احتكارها، وتزايد ثرواتها على حساب احتياجاتها، واحتياج السوق الشامي واستقراره، ويبدو أنها احتكرت بعضها كتجارة الحديد والأخشاب والقار وهكذا، فعندما توقفت في إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بالخشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهم وجديد، ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأشعار ووقع ذلك في عام ٥٦٧هـ فقال:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب   عوضت مصر فيها من النشب [4]

إن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي غنمت الكثير واستفادت بعد الفتوحات ونصرة الإسلام من نشاطها التجاري إذ أخضعت تجارة شمال الشمال ومرت بها الطرق التجارية القادمة من شرق ووسط آسيا في أوروبا، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام وأيضاً القادمة من دمشق، فضلاً عن تلك المتجهة إلى الامبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية، ويمر بها طريق الحجاج الشاميين وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى شمال إفريقيا إلى الشام، أما الموصل فقد اشتهرت بنشاطها التجاري، وأنها مثلت حركة اتصال مؤثرة وحيوية بين تجارة شمال العراق وشمال الشام بصفة خاصة، وتجارة الإقليميين المتجاورين بصفة عامة [5]. ويلاحظ أن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي أسهمت في إحكام قبضتها على قسم حيوي من البحر المتوسط، ومن المؤكد فقد تمكنت من إخضاع

---

(١) تاريخ التجارة ص ١٩١.
(٢) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارات ص ٢٠٢.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٦.
(٤) الخريدة نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٤٧.
(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٣٨.

الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب، ولا نغفل أن الدولة النورية بإحكام قبضتها على برقة وجبل نفوسة، قد أخضعت قسماً مهماً من تجارة الشمال الإفريقي خاصة تجارة الذهب والرقيق وهما عصب تجارة العالم الإسلامي في ذلك العهد، فإذا أضفنا إلى تلك المحطات التجارية البرية، المحطات البحرية مثل عيذاب على البحر الأحمر ودمياط والإسكندرية على البحر المتوسط أدركنا كم كان حجم القوافل المارة عبر تلك الطرق والمحطات التجارية المذكورة، ولامراء في أن خزينتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على نحو دعم مشاريعها التوسعية [١]. وقد تمكنت الدولة النورية من فتح أسواق جديدة في جميع المناطق التي أخضعتها لسيطرتها السياسية [٢].

أ- مبدأ التخصص في التجارة الخارجية: شهدت التجارة في عهد تلك الدولة تطوراً مهماً من جراء التوسع الخارجي، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطة بحلب – قلب تجارة شمال الشام – صار هناك مبدأ التخصص في التجارة الخارجية، وفي قطاعات إقليمية منسقة وموزعة بين قسم من غربي قارة آسيا والشمال الأفريقي، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ثلاثة محاور:

* **المحور الأول:** المتاجرة مع الكيان الصليبي، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية، إذ كانت دولة داخلية حبيسة ليست لها موانئ على الساحل الشامي، وحيث إن تلك الموانئ خضعت للسيطرة الصليبية، فإنها مثلت دور الوسيط التجاري بين تلك الدول والأسواق التجارية الدولية التي استهلكت منتجاتها التجارية مثل الامبراطورية البيزنطية وجنوب أوروبا وغربها، ومن المعروف أن ميناء صيدا كان ميناء تجارياً لدمشق، وكذلك كان ميناء طرابلس مجالاً لتصريف منتجات كل من حماه وحمص، ولا نغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل مدن جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفى، دورها في دعم النشاط التجاري الصليبي [٣].

* **المحور الثاني:** تجارة التوابل فقد نهض بأمرها الكارمية، وقد احتلت أهمية كبيرة في ميزانية الدولة، ويلاحظ أن هيمنة الدولة النورية على تجارة التوابل الهندية تمت لها بعد أن سيطرت على مصر وقضت على النفوذ الفاطمي بها، واحتاج الأوروبيون على نطاق متسع لتلك التوابل التي حددها لوبيز بأنها كانت تشمل أصنافاً متعددة من السلع المستخدمة في الزينة والعطور، والعقاقير، والصيانة الكيماوية، والطهو [٤].

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٣٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٠.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤١.

* **المحور الثالث:** تجارة الرقيق والذهب من بلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى، فقد مثلت أهمية بالغة للدولة النورية، وقد تهيأ لها أن تشارك في تلك التجارة بصورة متزايدة بعد أن مدت سيطرتها السياسية إلى مصر، وأمتنها بالسيطرة على برقة، وجبل نفوسة [(١)] بطرابلس، وكذلك بإحكام قبضتها على النوبة أما تجارة الرقيق فكانت لها أهمية خاصة، [(٢)] وازدهرت تجارة الذهب مع إفريقيا وعبر الصحراء الكبرى وغنمت من وراء ذلك غنائم عظيمة، ولكن ينبغي أن نُدرك أن امتدادها إلى تلك الحدود جاء متأخراً أي بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وبالتحديد قبل ثلاث سنوات من وفاة نور الدين محمود نفسه [(٣)].

ب- التجارة بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس: لم تقاطع الدولة النورية مملكة بيت المقدس اقتصادياً لاسيما التجارة، بل إن القوافل استمرت تتردد بين الجانبين، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسي، وذلك من خلال عائد المكوس المفروضة، ومن المرجح أن الازدهار التجاري الذي شهده ميناء عكا بالذات يرجع – في أحد أسبابه – إلى المتاجرة مع الدولة النورية إذ اعتبر أحد الموانئ الرئيسية المهمة لتصريف تلك الدولة. وقد أثرت سياسة التوسع النورية والتداخل الذي جرى بين تلك الدولة والكيان الصليبي على المستوى التجاري، أثرت على سياسة المملكة اللاتينية إذ أنها لكي تتاجر مع المسلمين كان عليها أن تتبع الموازين والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل [(٤)]، كما كان الصليبيون في حاجة إلى استعمال نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون نوعًا من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها، عملت عملة خاصة عرفت بالدينار الصوري وتم استخدامه في التحارة مع المسلمين على أوسع نطاق وقد شابه البيزنت البيزنطي، وقد نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً في كافة أنحاء بلاد الشام [(٥)]، ويلاحظ أن الهدنات التي عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس، كان لها أثرها الفعال على التبادل التجاري بين الجانبين، إذ توقفت عند ذلك المعارك ووجد التجار فرصة سانحة لمرور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب [(٦)]، وأما الإمارات الصليبية فقد أفادت – شأنها في ذلك شأن

---

(١) تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد ص ٦٩.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤١. (٣) المصدر نفسه ص ٢٤٤.
(٤) مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق ص ١٢٤.
(٥) (٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤٧.

المملكة اللاتينية نفسها – من المتاجرة مع الدولة النورية [1].

ج- مكانة التجار عند نور الدين زنكي: تجدر الإشارة أن الدولة النورية حرصت على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرضها على نحو يدعم اقتصاديات الدولة ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها، ومما ساعد على التعاون بين التجار ودولة نور الدين أن مصالحهما التقت مع بعضهما، فعندما سقطت دمشق في قبضة نور الدين محمود عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وبصورة غير دموية ودون جهد عسكري ضخم، مثل هذا دليلاً واضحاً على أن كبار التجار وجدوا في سلطان حلب قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، ومن الأمور ذات الدلالة: أن نور الدين عندما دخل المدينة، حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم، ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة [2]. وقد استفاد التجار من هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية [3].

١٣- إلغاء الضرائب: أدرك نور الدين محمود أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن والأمثل لن يستكمل أبعاده إلاّ من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية بالحق والعدل بحيث لا يبقى هناك ظالم أو مظلوم، وكان موقفه الفعال ينطلق من الرؤية الإسلامية الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنة رسوله، ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ، وكان الملك العادل نور الدين محمود زنكي يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق) جماهير المواطنين وتقديم أوسع الخدمات لهم، وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الأخذ والاستلاب والابتزاز والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي، وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسّع الضرائبي السالب، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات، ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطئ سعى نور الدين إلى التحرك صوب الطرف المقابل تماماً، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الأدنى المتاح، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته، وكان يحوط هذا التحرك – الذي أخذ يتصاعد بمرور الزمن – برقابة صارمة على أموال الدولة العامة ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء، كما يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الأمة، من أجل تفهم

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤٨. (٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨ – ٣٢٩.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٥٥.

واقعها المرير ودفعها إلى مستوى الكفاية، يستند في ذلك كله على قدر من السياسات والموارد، كانت قادرة على تغطية متطلبات العطاء الواسعة التي نفذتها دولته الراشدة [1]. كانت الضرائب في عصر نور الدين تتزايد مع الزمن حتى إن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكسًا يصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها، وابتكر ظلمة الحكام منهم أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة، وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما ينفقون به، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجبي أضعافه من الناس[2]. في عصر كهذا كان إسقاط الضرائب بعد – ولا شك – يثير استغراب الكثير من أبناء ذلك الجيل وهي خطوة إيجابية في طريق العدل الاجتماعي. وأخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منذ فترة مبكرة، وكان –حيناً بعد حين– يصدر الأوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب (اللا شرعية) التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين سبقوا نور الدين، والتي كان لا يزال العديد من الحكام والأمراء الذين عاصروه يعتمدونها، وكانت شعبيّته تزداد باطّراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها [3]. وهذا يؤكد ما قاله الدكتور عماد الدين خليل: بأن إجراءاته الضرائبية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من أجل تحقيق العدل الاجتماعي وكان ينتهز الفرص المناسبة كفتح من الفتوح، أو انتصار من الانتصارات، أو حادث من الأحداث أو كلمة ذكرى تهز الفكر وتستجيش عواطف التجرّد والعطاء [4].

أ- في دمشق عام ٥٤٩هـ: عندما دخل دمشق عام ٥٤٩هـ أصدر منشوراً بإسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق: دور البطيخ، سوق الخيل، سوق البقل، ضمان الأنهار [5]، سوق الغنم، الكيالة.. وغيرها وقرىء المنشور على المنبر: فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس والفلاحون والحرم والمتعيشون برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه.

ب- في عام ٥٥٢هـ عندما دخل شيزر: أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم والمكوس شمل معظم أنحاء دولته وجاوز المائة والخمسين ألف دينار وقد جاء فيه:.. هذا ما

---

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٤.
(٢) نور الدين محمود ، حسين مؤنس ص ٤٠٢.
(٣) (٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٥.
(٥) أي احتكار توزيع الماء للري والشرب.

أتقرب به إلى الله تعالى صافحاً، وأطلقه مساحاً لمن علم ضعفه من الرعايا – رعاهم الله – لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار.. أبادهم الله تعالى...إلخ ثم يعرض من المنشور بعد هذه المقدمة قائمة بالمواقع التي شملها الإلغاء والمبالغ التي أعفيت من دفعها [1].

ج- في الموصل عام ٥٦٦هـ: عندما دخل الموصل عام ٥٦٦ هـ لم يشأ إلا أن يسقط عن أهليها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس، وشمل ذلك أيضاً عدداً من المدن الجزرية كالخابور ونصيبين وغيرهما، وأصدر بذلك منشورا من إنشاء العماد الأصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه: وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت، وسحقاً للحرام الحقيق بالمقت.. وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولايةٍ لنا بعيدة أو قريبة وإزالة كل جهة مشتبهة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، وإحياء كل سنة حسنةٍ، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً..وهذا حق الله قضيناه وواجب علينا أديناه [2].

د- في مصر عام ٥٦٦هـ: فقد رفع صلاح الدين في مصر في عام ٥٦٦هـ جميع المكوس صادرها وواردها، جليلها وحقيرها [3]. ويبين ابن الأثير كيف أن المكس في مصر كان يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارًا: فأطلقها نور الدين، وهذا لم تتسع له نفس غيره [4]. ويؤكد ابن العديم أن عام ٥٦٧هـ شهد حملة شاملة أخرى من حملات نور الدين لإسقاط المظالم والمكوس [5].

هـ- وفي عام ٥٦٩هـ السنة التي توفي فيها نور الدين: قام بحملة تطهير أخرى للضرائب فأسقط ما أطلق عليه «فريضة الأتبان» في بلاد الشام، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني. وقد اطلع أبو شامة على نسخة المنشور وعلامته بخط نور الدين «الحمد لله»، ومما جاء فيه: وبعد: فإن من سنتنا العادلة وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم، وما نزال نجدّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ونصفيّها من الشبهة والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي رسومها الجائرة بما أسقطناه

(١) نورالدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٦ نقلاً عن كتاب الروضتين.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٩٨. (٣) الباهر ص ١٦٦؛ نورالدين محمود ص ٩٨.
(٤) نور الدين محمود ص ٩٩. (٥) البرق ص ١٤٣، نور الدين محمود ص ١٠٢.

من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله [1] تعالى. ويلخص العماد الأصفهاني الوضع الضرائبي في السنة التي توفي فيها نور الدين بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب سوى الجزية والخراج.. وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج [2]. وقد مرّ الحديث عن إلغاء المكوس مفصلاً عند حديثنا عن العدل في دولة نور الدين محمود. إن نور الدين محمود في سياسته الاجتماعية والمالية يظهر حرصه العجيب على الأموال العامة وأموال الأمة التي هي حصيلة كدها ودمعها وعرقها، سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس أم عامة في أيدي الدولة.

و- حمايته للرعية من جشع التّجار: كان رحمه الله حريصاً على حماية الرعية من أي مظالم قد تقع عليهم، حضر إليه يومًا جماعة من التجار وشكوا إليه أن القراطيس (أجزاء الدينار)؛ كان كل ستين منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة والنقصان مما يلحق بهم الكثير من الخسائر وأشاروا عليه أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس فسكت وقتاً طويلاً ثم قال: إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد منهم عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، إيش يعمل بها، فيكون ذلك سبباً لخراب بيته ورفض من ثم – الاستجابة لمطالب التجار [3].

ز- الأموال التي خلفها أمير شيزر: وعندما دخل شيزر عام ٥٥٢هـ بعد أن خربتها الزلازل لم يكن لينسى أن هنالك مالاً كثيراً خلفه أميرها السابق وأن عليه المطالبة به والبحث عنه لأنه أصبح جزءاً من أموال الأمة، ويذكر ابن العديم كيف أنه سأل زوجة الأمير عن هذا المال وهددها وكيف أنها ذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم وأخرجت هي حية من دونهم وأنها لا تعلم شيئًا، وإن كان ثمة شيء فهو تحت الأنقاض [4]، ولا ندري إن كان المال قد عثر عليه أم لا؟ ولكن الأهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه [5].

ح- خراج معرة النعمان: ويحدثنا أبو طاهر الحمدي الفقيه: كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق وقد أخرج جريدة (سجلّ) خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى أهلها فقال: رفع إليّ الخبر من الثقات أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك ويشهد له هذا في دعوى أخرى، وإن الملك الذي بأيديهم إنما حصل

---

(١) البرق ص ١٤٣، نور الدين محمود ص ١٠٢. (٢) نورالدين محمود الرجل والتجربة ص ١٠٣.
(٣) الكواكب ص ٢٤، نور الدين محمود ص ١٠٥.
(٤) زبدة حلب (٢/ ٣٠٧)، نور الدين محمود ص ١٠٥. (٥) نور الدين محمود ص ١٠٥.

لهم بهذا الطريق، وكانت معرة النعمان قد سقطت بأيدي الصليبيين حيناً من الدهر ثم استعادها المسلمون مما سبب ضياع المستندات الخاصة بالملكية، فقلت له: أيها الملك إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستمدّ تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لا يجوز!! فأطرق نور الدين وقتاً طويلاً ثم قال: إني أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك والتفت إلى كاتبه قائلاً: اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البينات في ذلك [1].

ط- اختيار أصحاب الأمانة في الإشراف على المشاريع: عندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام ٥٦٦هـ ليكون مسجداً جامعاً للمصلين ومدرسة كبيرة للدارسين، لم يتسرع في اختيار الرجل الذي سيتولى أمر الإشراف على بنائه، لاسيما أنه عائد إلى حلب، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة وإنما بحث عن المشرف الأمين الذي يطمئن إليه فكان عمر الملاء الرجل الصالح الكادح كما يصفه المؤرخون، ويحدثنا العماد الأصفهاني شاهد العيان عن الرجل فيقول: إنما سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بآجره يتقوى بها وكان يهب كل ما يصل إليه ولا يستبقى لنفسه شيئاً. وكان العلماء والفقهاء والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، وكان نور الدين من أخصّ محبيه، ويستشيره في حضوره ويكاتبه في مصالح دولته [2]. هذا وقد أنفقت على الجامع الكبير أموال كثيرة واشترى عمر الملاء الأملاك المحيطة به من أصحابها بأوفر الأثمان، وعندما تم إنشاؤه وحضر نور الدين لافتتاحه عام ٥٦٨هـ تقدم إليه عمر الملاء بدفاتر الحسابات التي تضمنت تفاصيل الصرف بدقة بالغة، رفض نور الدين تدقيقها لثقته العميقة بنزاهة الرجل.. عرف كيف ينتقيه لهذه المهمة أول مرة فاستراح إلى النتيجة [3].

المحاسبة الدقيقة لعمال الزكاة:

وحكى معين الدين محمد حفيد القيسراني وزير نور الدين الشهيد قائلاً: انكسر عند ضامن دار الزكاة المعروف بابن شمام مال جمّ، فحبس، فباع ما كان يملكه من عقار بما قيمته ثمانية آلاف دينار وحمله إلى الخزانة، ولكنه بقي في الحبس مطالباً بما بقي في ذمته [4].

(١) الكواكب ص ٧١، نور الدين محمود ص ١٠٦.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٠٦.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٠٦.
(٤) مفرج الكروب (١/١٩٩): نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٠٦.

هذه الخطوط العريضة في مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية الرشيدة، من نظام القطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، والأمانة التي تميز بها وحكومته الرشيدة، وأهمية سيادة الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية، ومساهمة الأثرياء، والمعاهدات والاتفاقات التي يترتب عليها امتيازات مالية، ودعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وسياسة نور الدين الزراعية والصناعية والتجارية وغير ذلك من سياسته الاقتصادية الحكيمة هي ساهمت في دعم دولة الجهاد وتحقيق أهدافها.

إن من أسباب النهوض التي أخذ بها نور الدين الاهتمام بالجانب الاقتصادي، لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها يقهر ولا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي على القادة المهتمين بأمر نهوض الأمة أن يعتمدوا على الذات في موارد ثابتة، وهذا عامل مهم من عوامل النهوض.

إن حاجات مشروع نهوض الأمة متعددة تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها، والمطلوب من الحركات الإسلامية والحكومات كذلك أن تخرج من رجالها من التجار المسلمين من تظهر على سلوكه أخلاق الإسلام في التعاملات التجارية، وتزوده بالخبرات الميدانية بحيث يقتحم مع إخوانه مجالات التجارة الدولية والأسواق العالمية ويعمل على توحيد جهود التجار المسلمين، لإيجاد شبكات للتعاون المثمر لمقارعة الشركات اليهودية والشيوعية والنصرانية وبذل ما في وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد الإسلامي على الأسواق العالمية وتوظيفه لخدمة المشروع الإسلامي من تحرير شعوب المسلمين من سيطرة الفكر الرأسمالي الدخيل والشيوعي [1].

إن التاجر المسلم – في المفهوم الإسلامي الأصيل – من صناع الحياة، بل هم صناع الصناع، يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد في هذا الصدد: وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحًا من إسرافها القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية [2]. وطلب في كتابه (صناعة الحياة) من الدعاة أن يهتموا بجمع المال ولينزل منهم نفر إلى السوق، لأن في ذلك مردودًا دعويًا وذكر اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق ونحن لا نجيد إلا سبهم ونضجر من المارون والأقباط والبهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٢٨٨.
(٢) صناعة الحياة ص ٤٦.

منهم السبق إلى المال، بتسهيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك في فترة الاستعمار جزماً، وبمساعدة قوى خفية أخرى، ولكننا لم نحسن غير سبّهم وشتمهم. إلى أن قال:.. ولابد أن تهتم الحركات الإسلامية بميدان الصناعة والزراعة والعقار والاستيراد والتصدير وبخاصة في البلاد الحرة التي لا ينال أموالنا فيها ظلم، وفي العالم الكبير الفسيح متسع للاستثمار [1].

إن نور الدين محمود اهتم بالقوة الاقتصادية وجعلها في خدمة الأمة والدعوة وسياسة الدولة وقادة الفكر، ودعم بها مشروعه النهضوي.

ثانياً: سياسة الإنفاق في الخدمات الاجتماعية:

سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه، وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لتغطية شتى الحاجات ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل وانتهاء بقضايا الروح ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمارستانات والملاجيء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار.. وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة [2]. كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز، لا أداة قسر واستنزاف [3]، فزمانه كما يقول أبو شامة: مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم [4].

١- المجال الصحي (المستشفيات): اهتم نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات) وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية، وتعتبر البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات، وإذا كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥ - ٧١٥م) هو أوّل من بنى البيمارستانات الثابتة في الإسلام. كما بينا في كتابنا الدولة الأموية عوامل

---

(١) المصد نفسه ص ٤٦ ، ٤٧.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١١. (٣) المصدر نفسه ص ١١٢.

(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١٢.

الازدهار وتداعيات الانهيار. فإن الملك العادل نور الدين محمود وخلفاؤه من البيت الأيوبي هم أول من استكثر منها من الملوك والسلاطين واهتموا بدراسة الطب وممارسته اهتمامًا بالغاً وقاية لبلادهم من الأوبئة والأمراض، وكانت حلب في عهد الملك نور الدين محمود أحد مراكز تدريس الطب في بلاد الشام، وكان ذلك البيمارستان النوري يؤدي رسالة علمية لها أهميتها في تدريس الطب إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية علاج المرضى ومتابعتهم [(١)].

أ- البيمارستان النوري: قال ابن الشحنة: إن الملك نور الدين محمود هو الذي بنى هذا البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهواء [(٢)]. وقال الغزيّ: هو لصيق البهرامِيّة من جنوبيها الشرقي، بناه نور الدين محمود زنكي [(٣)]. وقد ذكر ابن الشحنة أن الملك نور الدين حينما أراد بناء هذا البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة صحيحة الهواء صالحة لإقامة البيمارستان بها، وذبحوا خروفاً وقطعوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلمّا أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الرّبع الذي كان في هذا الموقع، فبنوا البيمارستان [(٤)] فيه، وهذه خطة حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان في وقت تنعدم فيه آلات قياس الأبعاد ودرجات الحرارة واختبارات الأجواء[(٥)].

ويقع هذا البيمارستان حالياً في منطقة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف حالياً بزقاق البهراميّة [(٦)]، وقد وجد مكتوباً عند باب البيمارستان: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل، صلاح الدنيا والدين، قسيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين، ناصر الحق بالبراهين محيي العدل في العالمين، قامع الملحدين قاتل الكفرة المشركين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته [(٧)]. وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان: قرية معراشا، ونصف مزرعة وادي العسل، من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفرنايا، وثلث مزرعة الخالدي وطاحونها من المُطخ، وثُمن طاحون غربية طاهر باب الجنان، وثمانية أفدنة من مزرعة أبو

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢.
(٢) الدّر المنتخب ص ٢٣٠، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢.
(٣) نهر الذهب (٢/ ٦٤)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٣. (٥) المصدر نفسه ص ٤١٣.
(٦) أخبار حلب وأسواقها، خير الدين الأسدي ص ١٦٧.
(٧) نهر الذهب (٢/ ٦٥ ، ٦٦)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٣.

مَدَايا من عزاز، وخمسة أفدنة بمزرعة الحميرة المُطخ، اثني عشر فداناً من مزرعة الغرزل من المعرة، وثلث قرية بيت راغِل من الغربيّات وعشرة دكاكين بسوق الهواء منها ثلاثة تمام والباقي شركة الجامع الكبير، وأحكار ظاهر باب أنطاكية، وباب الفرج وباب الجِنان [1]، وكثرة هذه الأوقاف تدل على مقدار المال الوفير الذي تدرّه هذه الأوقاف لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير [2]، وقد أشار محمد كرد إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارستان تشمل على كثير من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدين محمود على هذا البيمارستان[3]، مما يؤكد أثر هذا البيمارستان في النشاط العلمي في هذا العهد إلى جانب الوظيفة الطبية التي كان يقوم بها [4].

ب- البيمارستان النوري في دمشق: ينسب هذا البيمارستان للملك نور الدين محمود زنكي قال عنه ابن الأثير: وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير [5]، وذكر أبو شامة أن لأصل بنائه قصة عجيبة وهي: أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحسنيين وهما الفِداء، وموت ذلك اللّعين، فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم [6]، كما علق أبو شامة على قول ابن الأثير: بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير [7]، فقال: وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه والله المستعان،

(١) الدر المنتخب ص ٢٣١، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٣.
(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٤.
(٣) خطط الشام (٦/ ١٨٧)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٤.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٤.
(٥) التاريخ الباهر ص ١٧٠، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٦.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن العهد الزنكي ص ٤٥٦. (٧) المصدر نفسه ص ٤٥٧.

وإنما صرح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فخصّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لاسيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء، والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى، وروى أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان – أي دواء للعلاج – وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي. والله أعلم [(1)]. وهذا الشرط يؤكد الهدف الاجتماعي النبيل من إنشاء هذا البيمارستان إذ كان الفقراء موضع عناية كبيرة لدى الملك نور الدين [(2)] رحمه الله، وذكر كرد علي أن هذا البيمارستان ظل عامراً إلى سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من التكيّة السليمانية المطّلة على المرج الأخضر وجمعت له إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في ١٥ ذي القعدة ١٣١٧هـ بافتتاح المستشفى الجديد [(3)]، أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة للبنات ثم اتخذت سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م داراً لمدرسة التجارة الرسمية [(4)]. وحالة البيمارستان النوري الحاضر جيدة وقد رُمّمت قبة المدخل حديثاً على الشكل الذي كانت عليه ويقام فيه حالياً: متحف الطب والعلوم عند العرب التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية [(5)].

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي بتدريس الطب، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م فذكر أن أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشرفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لا يؤخر عنهم، وكان مع فراغه من ذلك، وطلوعه على القلعة وتفقده المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماع من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم تجري مباحث طبية ويُقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٧.
(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٧.
(٣) خطط الشام (٦/ ١٥٩)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٨.
(٤) تاريخ البيمارستانات أحمد عيسى ص ٢١٣. (٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٨.

مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره [١]، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخُرستانين [٢]، اللذين في صدر الإيوان[٣]. كما كان بعض مشايخ الطب ومتقدميهم يجعل له مجلساً عاماً لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه كما كان يفعل الطبيب مهذب الدين بن النّقاش [٤]، المتوفى سنة ٥٧٤هـ - ١١٧٨م، [٥] فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، كما شارك في مجالس العلم التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب وتدريسه لطلابهم، ولم تُشر المصادر إلى وجود مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك، عندما أُنشئت أول مدرسة خاصة لتدريس الطب سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م وهي المدرسة قبلي الجامع الأموي بدمشق [٦].

٢- المساجد: اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم وظل المسجد قاعدة مهمة للتربية والتعليم [٧]، ويروى العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت فأناف على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعين له أوقافاً [٨]. وأصلح أحوال المسجد الأموي وأضاف إلى أوقافه المعلومة الأوقاف التي لا تعرف شروط واقفيها وسمّاها مال المصالح [٩]. وأما أشهر المساجد التي بناها فهو المسجد النوري بالموصل الذي يذكره ابن الأثير بقوله: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان [١٠] وبنى جامعاً في حماه على نهر العاصي وصفه ابن الأثير بأنه من أحسن الجوامع وأنزهها [١١]، وأمر بإصلاح الجوامع في جميع المدن التي تأثرت بالزلازل سنتي (٥٥٢هـ، ٥٦٦هـ) [١٢] وأصبحت المساجد في عصره من أهم المراكز العلمية والتي من أهمها:

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٤٦.
(٢) تعني المكان اللائق أو المخزن أو الخزانة.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٤٦.
(٤) (٥) (٦) المصدر نفسه ص ١٤٧.
(٧) المصدر نفسه ص ١١٠.
(٨) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١٦.
(٩) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨، الكواكب ص ١٧.
(١٠) الباهر ص ١٧٠ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(١١) الباهر ص ١٧٠، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(١٢) الدر المنتخب ص ٦١، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٨٩.

أ-ﻓﻲ حلب: كانت المساجد من المؤسسات العلمية التي استخدمها نور الدين في الإحياء السني والوقوف أمام المذهب الشيعي، ولقد شهدت المساجد في حلب نشاطاً علمياً واسعاً في مجال الدراسات الشرعية اللغوية والأدبية، واستمرت تلك المساجد في نشاطها العلمي رغم انتشار المدارس في هذه المدينة، حيث أشارت المصادر إلى النشاط العلمي في أول جامع أنشيء في حلب وهو:

***المسجد الكبير:** وقد ذُكر أن موضع هذا الجامع كان بستاناً للكنيسة العظمى في أيام الرّومان، وهي منسوبة إلى هيلانة أو قسطنطين الملك باني القسطنطينية، ولما فتح المسلمون حلب صالحوا أهلها على موضع المسجد الجامع [1]، وقد ذكر ابن شداد أن هذا الجامع من بناء الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ/ ٧٠٥ -٧١٥م) هو الذي قام ببناء هذا المسجد [2]، وفي شعبان سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) في أيام الملك العادل نور الدين محمود قام الإسماعيلية بإحراق هذا الجامع، كما احترقت الأسواق المجاورة له، فقام الملك نور الدين وأمر ببنائه واجتهد في عمارته، ونقل إليه عُمداً من بُعادين، وقنسرين لأن العمد التي كانت فيه قد تفطرت من النار، وقام بإضافة سوق قبلي الجامع إليه، واتسع به المسجد، وأوقف نور الدين عليه أوقافاً كثيرة ويقع هذا الجامع حالياً في سويقة حاتم أشهر حارات حلب وأقدمها، ويبعد الجامع عن قلعة حلب الكبرى مسافة نصف ميل تقريباً من جهة الغرب، وبناؤه الحالي يرجع للعهد المملوكي باستثناء منارته التي يرجع تاريخها إلى سنة ٤٨٢هـ - ١٠٨٩م [3]. أما النشاط العلمي في هذا الجامع فقد أشارت المصادر إلى وجود حِلَق عديدة يجتمع حولها المشتغلون بالعلم أشهرها: السارية الخضراء التي كانت مخصّصة للدراسات الأدبية، كما كانت حِلَق الأدب واللغّة والنحو تُعقد باستمرار في هذا الجامع إلى جانب قراءة القرآن الكريم والفقه [4]. وقد أنشأ نورالدين في هذا الجامع زاويتين إحداهما لتدريس الفقه على المذهب المالكي، والأخرى لتدريس الفقه الحنبلي. وقد كان لهاتين الزاويتين نشاط علمي ملموس خلال فترة البحث وبخاصة في عصر مؤسسهما وبالإضافة إلى تدريس الفقه في هذا الجامع، فقد حظي علم الحديث باهتمام الملك نور الدين محمود توجيهاً منه لسياسة التعليم في عصره نحو الدراسات الشرعية ليدعم بها المذهب السني في حلب فأنشأ زاوية لتدريس علم الحديث في هذا الجامع، وأوقف عليها الأوقاف الكافية للصرف

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠.

(٢) زبدة حلب (٢/ ١٠٥)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠. (٤) المصدر نفسه ص ٣٩٠، ٣٩١.

عليها وعلى المشتغلين بها [1].

ب- المساجد في دمشق: قامت العديد من المساجد في دمشق بدور في نشاط الحياة العلمية في هذا زخم التوسع الكبير في إنشاء المدارس وازدياد نشاطها في تلك الفترة، وكان من أبرز تلك المساجد ما يلي:

* **الجامع الأموي:** يُعد الجامع الأموي بدمشق من المساجد المتميزة بحسن عمارتها، أراد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك(٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥ – ٧١٥م) عندما عزم على بنائه أن يجعل منه مفخرة من مفاخر دمشق، فأنفق فيه الأموال، وجلب إليه المهرة من الصُنّاع وأهل الفن البارعين، وبقي العمل فيه تسع سنين، أنفق عليه أربع مئة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وبذلك أصبح مفخرة من مفاخر العمارة الإسلامية على مر العصور [2]. وقد حظي هذا الجامع باهتمام بالغ ورعاية كبيرة من الخلفاء والملوك والحكام على مر العصور الإسلامية وذلك فيما يتعلق بمتابعة تعميره، وتحسينه، أوصيانته وزيادة الوقف عليه، وفيما يتعلق بتشجيع حِلق التعليم التي كانت تعد في جنباته،والصرف عليها [3]، وقد ظل الجامع منذ بنائه مناراً للعلم والمعرفة، ومدرسة جامعة لعلماء دمشق وطلابها فيه تُلقى الدروس العلمية من كل فن، وإليه يفد طلاب العلم من كل صوب للنهل من معين الثقافة وللاجتماع بالعلماء الذين وقفوا أنفسهم في هذا المسجد على نشر المعارف وتدريس العلوم، واستمر هذا الجامع في العهد الزنكي قبلة للعلماء والدارسين، ومركزاً علمياً بارزاً، فيه تعقد حِلق التعليم الخاصة والعامة، وفي جنباته تنشر زوايا تدريس القرآن وإملاء الحديث، وفيه صُنفت وأمليت العديد من المؤلفات المُهمّة مثل تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر وغيره، كما تواتر في المصادر ذكر الزاوية الغزاليّة، ومجلس ابن عساكر، وزاوية المقادسة والزاوية الكوثرية،والسبُع الجاهدي، وغيرها من منابر العلم في هذا المسجد والتي كان لها نشاط علمي مميز خلال هذا العهد، وكان النشاط العلمي في الجامع الأموي قد تركز على تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والفقه، كما عُقدت في هذا الجامع العديد من مجالس الإملاء.والسماع اجتمع إليها عدد من العلماء وطلاب العلم حتى أصبح هذا الجامع من أبرز مواطن الثقافة في دمشق تناوب فيه جلّة من أعلام العلماء الذين لا تزال أسماؤهم لامعة في ميادين العلوم الشرعية، ولا تزال آثارهم ومؤلفاتهم

(١) الحياة العملية في العهد الزنكي ص ٣٩٠ ، ٣٩١. (٢) المصدر نفسه ص ٤١٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٤١٧.

باقية حتى اليوم ويصور أحد الشعراء المعاصرين للملك نور الدين محمود، وهو علي بن منصور السُروجي المتوفي سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) نشاط التعليم في هذا الجامع في قصيدة وصف بها النشاط العلمي الذي شهدته دمشق في العهد الزنكي فيقول:

كأنهـــا جنـــة للخُلـــد دانيـــة ... قُصُـــورها فتحـــت منهـــا المقاصـــير

في كـــل قطـــر بهـــا للعلـــم مدرســـة ... وجـــامع جـــامع للـــدين معمـــور

يُتلـــى القـــرآن بـــه في كـــل ناحيـــة ... والعلـــم يـــذكر فيـــه والتفاســـير

تكامـــل الحســـنُ فيـــه مثـــل مـــا كُملـــت ... أوصـــاف مـــولى بنشـــر العـــدل مشـــهور

الملـــك والـــدّينُ والـــدّنيا بأجمعهـــا ... وللخليفـــة مـــن أنـــواره سُـــورُ [١]

وكان من أشهر مرافق التعليم في هذا الجامع:

الزاوية الغزالية: تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع الأموي، كانت تُنسب إلى الشيخ المقدسي المتوفي سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م) ثم نسبت إلى الشيخ أبي حامد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ (١١١٢م) [٢] لكونه دخل دمشق، وقصد الخانقاه السميساطيّة ليخلو إليها فمنعه الصُوفية من ذلك لعدم معرفتهم به فعدل عنها وأقام بهذه الزاوية بالجامع إلى أن عُلِم مكانه، وعُرِفت منزلته؛ فحضر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له، وأدخلوه إلى الخانقاه، فعرفت تلك الزاوية به [٣]. وقد درّس مجموعة من العلماء في هذه الزاوية بعد الشيخ نصر المقدسي منهم: تلميذه عالم الشام أبو الفتح نصر الله المصيصي المتوفي سنة ٥٤٢هـ – ١١٤٧م والشيخ أبو النصر محمد بن علي الطوسي المتوفي سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م [٤]، وخطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل الحارثي المتوفي سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م والصائن أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن عساكر المتوفي سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م، وأبو الفضائل عبد الرحيم بن رُستم الزنجاني المتوفي سنة ٥٦٣هـ١١٦٨م [٥]، ثم درّس بها مرتين العلامة قطب الدين النيسابُوري المتوفي سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م [٦]. أن تدريس جميع هؤلاء العلماء الأعلام في الفقه الشافعي في هذه الزاوية يؤكد الأثر الكبير والنشاط العلمي المتواصل في هذا الجامع رغم انتشار المدارس في دمشق في هذا العهد، وربما كان هذا النشاط يفوق نشاط

(١) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٨.
(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢ – ٣٤٦). (٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٤١٩.
(٥) طبقات الشافعية (٤/ ١٥٩)، الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤١٨).
(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٠.

الكثير من مدارس دمشق في تلك الفترة سيما أن هذه الزاوية تناوب عليها جُلة من أقطاب الفقه الشافعي في بلاد الشام في ذلك العصر [1].

* **السُبُع المجاهدي:** يقصد بالسبع، قراءة سبع من القرآن ثم أطلق على المكان الذي كان يقرأ السبع فيه، ويقع هذا السبع على ما ذكر النعيمي داخل الجامع بمقصورة الخَضر داخل باب الزيادة، ويُنسب للأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامين أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود، موصوف بالشجاعة والبسالة مواظب على الصلاة والصدقات، توفي في داره بدمشق في صفر ٥٥٥هـ - ١١٦٠م ودفن بالمدرسة المشهورة باسمه[2].

* **الحلقة الكوثرية:** تقع هذه الحلقة تجاه شباك الكلاّسة تحت مئذنة العروس بالجامع الأموي [3]، وقفها الملك نور الدين محمود على صبيان صغار وأيتام يقرأون في كل يوم بعد صلاة العصر «سورة الإخلاص» ثلاث مرات يهدون ثوابها للواقف، ولهم على ذلك مُرتّب يتاولونه من ديوان السُبع الكبير [4]. وقد ذكر النعيمي أن عدد طلاب هذه الحلقة في عصر واقفها يصل إلى ثلاث مئة وأربعة وخمسين طالباً [5].

* **حلقة لإقراء القرآن الكريم تحت قبّة النسر:** ورد في ترجمة المقرئ الحنبلي أبو العباس أحمد بن الحسين العراقي المتوفي سنة ٥٨٨هـ - ١١٩٢م أنه قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م فنزل بها وكان يقعد لإقراء القرآن في الجامع الأموي تحت قبة النسر[6].

* **مجلس الحافظ ابن عساكر:** ذكر ياقوت الحموي أن الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن بن عساكر أكمل أربع مئة مجلس وثمانية مجالس في فن واحد [7]، وكان الجامع الكبير بذمشق ميدان هذه الأمالي وبخاصة قبل إنشاء دار الحديث النورية بدمشق، والتي أملى كثيراً من مجالسه فيها [8]، كما كانت تُعقد بالمنارة الشرقية من هذا الجامع مجالس السماع لمصنفه الكبير «تاريخ دمشق»، وقد حفظت لنا العديد من هذه السماعات ونُشرت في المجلدة الأولى من الكتاب، وفيها ذكر لتاريخ السماع، وعدد سطور السماع، وعدد السامعين وهي الأمور التي لابد من ذكرها عند تمام السماع [9].

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٠.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٢٠.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢١.
(٤) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤٥١).
(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢١.
(٦) شذرات الذهب (٤/ ٢٩٢)، الحياة العلمية ص ٤٢١.
(٧) معجم الأدباء (١٣/ ٨١).
(٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٢.
(٩) المصدر نفسه ص ٤٢٢.

* **جامع القلعة:** هذا الجامع أنشأه الملك العادل نور الدين محمود في قلعة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف الكافية للصرف على المسجد وإمامه ومؤذنه [1]، وقد ذكر ابن شداد ضمن مدارس الحنفية مدرسة بجامع القلعة واقفها الشهيد نور الدين محمود، كما ذكرها النعيمي باسم: المدرسة النورية الحنفية الصغرى، بجامع قلعة دمشق [2].

ج- في الموصل، جامع نور الدين محمود: كان من ضمن أعمال نور الدين، أمره ببناء جامع يستوعب عدداً أكبر من المصلين وكان قد فوض أمر بناء هذا الجامع للشيخ عمر الملاء، وقد باشر الشيخ عمر بناء الجامع سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م واستمر العمل فيه نحو ثلاث سنوات [3]، وكان نور الدين قد أنفق في بناء هذا الجامع أموالاً كثيرة، وأوقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، وكان قد قدم الموصل سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م وصلى في جامعه بعد أن فرشه بالبسط والحصران، وعيّن له مؤذنين وخطيباً ورتب ما يلزمه [4]. وقد بلغ هذا الجامع درجة عالية من روعة البناء وحسن التخطيط قال عنه ابن الأثير: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان [5]، وحينما اكتمل بناء هذا الجامع رأى نور الدين أن من الأفضل أن يجمع فيه بين الصلاة وطلب العلم، فأمر ببناء مدرسة بداخله، ووافق أن وصل الموصل في تلك السنة الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي، ففوّض إليه أمر التدريس في هذه المدرسة، وكتب له منشوراً بذلك [6].

هذا على سبيل المثال لا الحصر في اهتمام نور الدين بالمساجد وتفعيل دورها العلمي والتربوي، فكان لها آثار ملموسة في الازدهار العلمي وتطوره في العهد الزنكي، رغم وجود المدارس وانتشارها بشكل واسع في ذلك العهد [7]. وتبقى ملحوظة مهمة هي: أنه لا يكاد يخلو مسجد من هذه المساجد من مكتبة ضخمة تضم عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم، والتخصصات، وكانت تلك المكتبات تُوقف خصيصاً على المساجد ليرجع إليها الطلاب والباحثون، مثل مكتبة الشرقيّة لجامع حلب، وهي مكتبة عامرة، مسبلة للمطالعة، وتشتمل على الكثير من الكتب في مختلف فروع المعرفة [8].

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٢.
(٢) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٦٤٨).
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص٣٥٦.
(٤) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٣٥٦.
(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٥٧.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٥٧.
(٧) تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٤.
(٨) المصدر نفسه ص ١١٥.

وهكذا كانت المساجد من المؤسسات المهمة في المجتمع الإسلامي وهي بمثابة المعاهد العلمية المُشعّة التي نهضت بمختلف العلوم في هذا العهد أسوة بالعهود الإسلامية السابقة وخرجت العديد من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا في تقديم العلم وازدهاره، وكانت تلك المساجد تتميز بتكافؤ الفرص بين الطلاب دون تمييز لغني منهم على فقير، فزاد إقبال طلبة العلم عليها، ولم يقف الفقر حائلاً أمام طلب العلم فيها، بل على العكس، فقد وجد الكثير من الأوقاف التي قُررت لمن يرتاد هذه المساجد معلّما أو متعلماً حتى يتفرغوا لطلب العلم دون أن يشغلهم طلب العيش عن ذلك.

٣- المدارس: كانت المساجد المراكز الأولى للتعليم في الإسلام، إلى جانب كونها محل عبادة المسلمين، ومقر اجتماعاتهم ولكن مع مرور الزمن انتقل التعليم في بعض مظاهره عن المساجد إلى أماكن أخرى عرفت بالمدارس وقد ناقش د. أحمد شلبي هذا الأمر وعلله بأمور عديدة من أهمها:

- ازدياد الإقبال على الدراسات الشرعية، وبالتالي ازدحام حلق التعليم في المساجد بالكثير من الرّواد، وكان ينبعث من كل خلقة من هذه الحِلق صوت المدرس يُلقي درسه، وأصوات الطلاب يناقشونه ويسألونه، حتى تلاقت الأصوات المتصاعدة من الحِلق المتعددة، فأحدثت في المسجد شيئاً من الضجيج مما يتنافى مع مكانة المسجد، وهذا ما جعل احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً أمراً صعباً [(١)].

- تطور العلوم والمعارف مع مرور الزمن، حيث أصبحت هناك مواد تستدعي دراستها الكثير من الحوار والنقاش، ومثل هذه المواد تتنافى مع ما يجب أن يكون عليه روّاد المسجد من هدوء وسكينة [(٢)].

- انشغال جماعة من المسلمين بالتعليم في حلق المساجد معظم وقتهم ومحاولتهم الارتزاق عن طريق ممارسة حرف بسيطة قاموا بها إلى جانب التدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى معيشي مناسب، مما أدى بهم إلى البحث عن مكان مستقل تتوافر فيه شروط التدريس من جهة، ويضمن لهم جرايات وافرة تقوم بحاجاتهم من جهة أخرى [(٣)]، وعلى هذا الأساس بُدئ بتأسيس هذا المكان الذي حمل اسم «المدرسة» ومن ثم بدأت

---

(١) (٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١١٣.

(٣) تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٤، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٢٢.

طلائع الحركة المدرسية الفعلية بالظهور، والتطور مع الزمن [1]. وتطورت المدارس وازداد انتشارها في زمن السلاجقة على يدي الوزير نظام الملك السلجوقي. وقد ذكر السبكي في ترجمته لنظام الملك ما نصه: وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة [2]. وقد تحدثت عن المدارس النظامية بالتفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي. ولما تولى نور الدين حكم الدولة الزنكية شهدت حركة بناء المدارس انتشاراً واسعاً فقد أخذ في إنشائها واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية وبنى لهم العديد من المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك دعم المذهب السني، ومقاومة مذهب التشيع في المنطقة [3].

أ- المدارس في حلب: بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم نور الدين محمود لها في عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) والذي ركز نشاطه منذ تسلمه الحكم في تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب، فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، مما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السنية، وتوجيه التعليم وجهة سنية عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية، وقد جلب عددًا من العلماء الأكفاء لتولي المهمة، وبهذه السياسة نجح نور الدين في إنقاذ حلب من تأصل الفكر الشيعي بها وتمكن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي في المنطقة [4]، وقد أثمرت تلك الجهود في دعم حركة التعليم في حلب حتى أصبحت من المراكز العلمية المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، حيث قامت فيها نهضة علمية بارزة من مظاهرها إنشاء العديد من دور التعليم على اختلاف تخصصاتها حتى بلغت بذلك مصاف المراكز العلمية المشهورة في العالم الإسلامي، بل ربما تفوقت عليها في بعض المجالات لما تميزت به حلب من موقع متوسط بين تلك المراكز، وإمكانات مادية وبشرية تفوق بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى، إضافة

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٢٢.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٢، طبقات الشافعية (٤/ ٣١٣). (٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٢٥.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٨٩.

إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم الزنكي في نفس الفترة التي بدأ بها نظراً لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرين طيلة عصر نور الدين، والسلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم [1]. وكانت أبرز المدارس التي أنشئت في حلب.

- المدارس الشافعية:

* **المدرسة الزّجاجية:** تعد هذه المدرسة من المدارس السابقة على الحكم الزنكي، فقد أنشأها بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي سنة (٥١٧هـ/ ١١٢٣م) وهي أول مدرسة سنية فيها، وحينما عزم بدر الدولة على بناء أول مدرسة بحلب لم يمكنه الحلبيون من ذلك لغلبة نزعة التشيع فيهم، فكان كلما بنى فيها شيئاً في النهار أخربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك فأحضر الشريف زهرة بن علي الحُسَيني وأوكل إليه أمر الإشراف على بنائها ليكفّ عنه الشيعة، فلازم الشريف زهرة بناء تلك المدرسة حتى تم الانتهاء منها [2]. وهذا يدل على مدى تغلغل هذا المذهب في حلب في تلك الفترة التي سبقت الحكم الزنكي لها [3]، ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر حلب في سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م نقل والده وكان مدفونا في قرنْبيا [4]، فدفنه في شمالي هذه المدرسة، وزاد عماد الدين في وقفها للصرف على القُرّاء والمتفقهين المرتبين بها [5]، وكان أبرز المدرسين في هذه المدرسة في العهد الزنكي: شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي المتوفي سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م [6]، حيث ذكر ابن شداد أنه لما اكتمل البناء في هذه المدرسة فوّض مُنشئها أمر التدريس والنظر بها للشيخ شرف الدين أبي طالب المعروف بابن العجميّ، وقد استمر شرف الدين مدرساً بها إلى أن توفي سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م [7]، وتولى التدريس بها بعده حفيداه مجد الدين طاهر بن نصر بن جهبل المتوفي (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)[8] وأخوه زين الدين عبد الملك بن نصر بن جهبل المتوفي سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م[9]، وكانا من العلماء المتميزين والفضلاء المبرزين [10].

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٨٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٨٤ ، ٨٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٥.
(٤) قرنبيا : يقع شرقي حلب.
(٥) الدر المنتخب ص ١١٠، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٢.
(٦) طبقات الشافعية (٧/ ١٤٧)، الحياة العلمية ص ٣٩٢.
(٧) (٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٣.
(٩) (١٠) الحياة العلمية ص ٣٩٣.

* **المدرسة النضرية (النورية)**: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري هو أول من وُلي التدريس في هذه المدرسة وكان قدم إليها من دمشق، ثم ولي تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهبل المتوفى سنة(٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) [1]، ولم يزل مدرساً بها إلى أن نقل إلى القدس الشريف فدرس به إلى أن توفي [2].

* **المدرسة العصرونية**: كان موقع هذه المدرسة في الأصل دار لأبي الحسن علي بن أبي الثُريّا وزير بني مِرداس أصحاب حلب، ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشترى هذه الدار وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمدرسين بها من الفقهاء وذلك (سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية [3]، وبعد أن أتم نور الدين محمود بناء هذه المدرسة استدعى لها من نواحي سنجار الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفي سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٣م [4] وفوّض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أول من درّس بها فعُرفت به، ونسبت إليه [5]، ولم يزل الإمام شرف الدين بن أبي عصرون يُدّرس في هذه المدرسة وينظر أوقافها إلى أن عاد إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ - ١١٧٤[6]، ولما خرج إلى دمشق استخلف (نيابة) فيها ولده نجم الدين أبو البركات عبد الرحمن وظل هذا حتى ولي قضاء حماة فغادر حلب [7]. وممن أقام في هذه المدرسة الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصّقلّيّ المتوفي سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م [8]، فقد ذكر أنه حلّ بحلب وأقام بالمدرسة العصرونية وصنّف كتباً حسنة، فلما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة وأظنها فتنة سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م [9]، ونُهبت كتبه فيما نُهب وخسر جزءاً من مؤلفاته القيمّة، رحل إلى حماة وأقام بها حتى وفاته [10].

* **المدرسة الشرفية**: أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي المعروف بابن العجمي المتوفي سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٦م) وقد صرف شرف الدين على بنائها

---

(١) الحياة العلمية.
(٢) طبقات الشافعية للأسنوي (١/ ٣٧٢).
(٣) الدر المنتخب ص ١١٠، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٥.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٤. (٥) المصدر نفسه ص ٣٩٥.
(٦) وفيات الأعيان (٣/ ٥٤)، الحياة العلمية ص ٣٩٧. (٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٧.
(٨) المصدر نفسه ص ٣٩٧. (٩) المصدر نفسه ص ٣٩٧.
(١٠) معجم الأدباء (١٩/ ٤٨)، بغية الوعاة (١/ ١٤٢، ١٤٣).

ما نيف على أربع مئة ألف درهم وأوقف عليها أوقافًا جليلة [1].

* **المدرسة الأسدية الجُوّانية:** تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان المتوفي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م الذي أنشاها بمحلة الرحبة بحلب للمذهب الشافعي [2].

* **المدرسة الشُعيْبيّة:** كان موقع هذه المدرسة مسجداً يقال إنه أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وعُرف هذا المسجد بأبي الحسن الغضائِريّ المتوفى سنة ٣١٣هـ فلما ملك نورالدين محمود حلب وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شُعيبْ الأندلسي إلى حلب فصيّر له هذا المسجد مدرسة وجعله مدرساً بها فعرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرّساً بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م [3].

- **المدارس الحنفية:**

* **المدرسة الحلاّوية (الحَلَويّة):** يذكر ابن شداد أن هذه المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلانى أم قسطنطين فلمّا حاصر الصليبيون حلب سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م قاموا بقطع الأشجار ونبشوا قبور الموتى، وأحرقوا من فيها، فعمد القاضي أبو الفضل بن خشاب الحلبي إلى أربع كنائس داخل حلب، وصيرها مساجد وكانت هذه المدرسة تُعرف قديماً بمسجد السّراجين، فلمّا ملك نور الدين محمود مدينة حلب جعل هذا المسجد مدرسة، وأنشأ فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء وإيواناً للدروس، وكان مبدأ عمارتها في سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م [4]، وقد جلب نور الدين إلى هذه المدرسة من أفاميه مجموعة من الرخام الشفّاف «الذي إذا وضع تحته ضوء أبان من وجهه ووصفه فيها» [5]، وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامِكيّة، وكان من شروط الواقف: أن يحمل في كل شهر من رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس يصنع بها للفقهاء طعاماً، وفي ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى مغلومة وفي الشتاء ثمن بياض لكل فقيه شيء معلوم، وفي أيام شرب الدواء من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة، وفي المولد أيضاً الحلوى وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها من دراهم معلومة، وفي أيام الفاكهة ما يشترون به بطيخاً ومشمشاً وتوتًا [6].

(١) الدر المنتخب ص ١١٢، الحياة العلمية ص ٣٩٨.
(٢) الحياة العلمية ص ٣٩٩.
(٣، ٤، ٥) المصدر نفسه ص ٤٠٠.
(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠١.

* **المدرسة المقدمية:** ذكر ابن شداد أن الذي أنشأ المدرسة هو عز الدين عبد الملك المُعدّم وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي ابن الخشاب مساجد في سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها، وأنه ابتدئ في عمارتها سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) (١). وكان أول من درّس في هذه المدرسة الشيخ برهان الدين أبو العباس أحمد بن علي الأصولي مدرس المدرسة الحلاوية، ثم وليها بعده السيد الشريف الإمام العالم افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي، ولم يزل بها إلى أن توفي في جمادي الآخرة سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م (٢).

* **المدرسة الجديّة الجُوّانية:** ذكر ابن الشحنة أن هذه المدرسة تنسب إلى نائب حلب في عصر نور الدين محمود وهو مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية المتوفي في رمضان سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م (٣).

* **المدرسة البّرانيّة:** ذكرها ابن الشحنة أيضاً، ونسبها إلى مجد الدين بن الداية مؤسس الجوانية (٤).

* **المدرسة الحدّاديّة (الحدّادين):** ذكر ابن شداد أن منشيء هذه المدرسة هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، وأنها كانت من الكنائس الأربع التي ذكرنا خبر تحويلها إلى مساجد سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م (٥).

ب- في دمشق: كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م وهي المدرسة الصادرية الحنفية ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس، في العهد الزنكي لدمشق (٥٤٩هـ - ٥٦٩هـ/ ١١٥٤ - ١١٧٤م) وقد توزعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنبلي، وأخيراً المذهب المالكي (٦).

المدارس الحنفية:

* **المدرسة الصادرية:** أنشئت هذه المدرسة على يد الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة٤٩١هـ، ١٠٩٧م داخل باب البريد مما يلي الباب الغربي للجامع الأموي وهي أول

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠٥.

(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٦.

(٤) أحياء حلب وأسواقها ص ١٤٢.

(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٦.

(٦) المصد نفسه ص ٤٢٣.

مدرسة أنشئت في دمشق [1].

* **المدرسة الطرخانية:** قال ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق: مسجد بالمدرسة المعروفة بدار طرخان وهي كانت قديماً للشريف أبي عبد الله بن أبي الحسن فوقفها سنقر الموصلي وجعلها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة [2].

* **المدرسة المُعينيّة:** ذكرها ابن عساكر ضمن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة المُعينيّة في قصر الثقفيين [3]، وقال ابن شداد: حصن الثقفيين أنشأه معين الدين أنر أتابك الأمير مجير الدين آبق آخر الحكام البوريين بدمشق [4]، وذكر الصفدي: أن معين الدين قد بنى هذه المدرسة للشيخ أبي المظفر محمد بن أسعد الفقيه الحنفي المعروف بابن الحكيم العراقي مُدرس الصادرية والطرخانية المتوفى ٥٦٧هـ/ ١١٧١م [5].

* **المدرسة النُورية الكبرى:** ذكر كل من أبي شامة وابن شداد أن هذه المدرسة تقع بخط الخواصين [6]، وأن الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي [7]، وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً وأنها قصر من القصور الأنيقة [8]. وفي هذه المدرسة يقول الشاعر المشهور عرقلة الدمشقي المتوفى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م [9]:

ومدرسة سيدرس كُلُّ شيء ... وتبقى في حِمى علم ونُسكِ
تضوع ذكرُها شرقاً وغربًا ... بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق ... بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت مُلكي ... وهذي في المدارس بيت مِلكي [10]

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد، حيث كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة

(١) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٥٣٧).
(٢) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٥.
(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٢٦.
(٤) الحياة العلمية ص ٤٢٦.
(٥) الدارسي في تاريخ المدارس (٢/ ٢٠٣).
(٦) يسميه أهالي دمشق حالياً : سوق الخياطين.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٧.
(٨) الرحلة ص ٢٥٦ الحياة العلمية ص ٤٢٨.
(٩) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٢٩.
(١٠) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٢٩.

نور التعليم، وتتضح أهمية هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي قام به شيوخها ومدرسوها ومُعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرجوا منها إضافة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد [1]، وباستقراء الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكّون العتبة العليا لباب المدرسة يتبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق من ريعه على الطلاب والمدرسين، والعاملين بالمدرسة نفاقاً سخياً متواصلاً..

ونص هذه الكتابة كالآتي: بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه، ووقف عليها، وعلى الفقهاء، والمتفقهة بها جميع الحمام المُستجد بسوق القمح، والحمامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة والدار المجاورة والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نُص وشُرط فكتب الوقف رغبة في الآخرة، وتقدمه بين يديه يوم الحساب: فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم [2].

* **المدرسة الخاتونية البرانية:** كانت هذه المدرسة مسجداً أوقفته الست زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دُقاق بن تُتُش المتوفاة سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م [3]، وتاريخ وقفه سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م على الشيخ أبي الحسن علي البلخي المتوفي سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م [4]، وقد ذكر الذهبي أن الست زُمُرّد خاتون على قدر من الثقافة والعلم واستنسخت الكتب وحفظت القرآن وبنت الخاتونية بصنعاء دمشق، ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين، فلما قُتل حجّت وجاورت بالمدينة ودفنت بالبقيع [5].

- المدارس الشافعية:

* **المدرسة الأمِينيّة:** ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة من بناء أمين الدولة ربيع الإسلام، وزاد عليه النعيمي أنها أول مدرسة بُنيت للشافعية بدمشق بناها أتابك العساكر بدمشق وكان يقال له أمين الدولة، وكان مبدأ التدريس بها سنة ٥١٤هـ على ما ذكر الذهبي في ترجمته لجمال الإسلام أبي الحسن علي بن المسلم السُلمي الدمشقي الشافعي مدرس الغزالية

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٣٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٠.
(٤) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٥٠٢، ٥٠٣).
(٥) العبر (٣/ ٢٧)، الحياة العلمية ص ٤٣١.

والأمينيّة ومفتي الشام في عصره المتوفي سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م [١].

* **المدرسة الجاهدية الجُوانية:** وواقف هذه المدرسة الأمير الكبير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامين بن علي بن محمد الجلالي الكُردي أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود وقبله [٢].

* **المدرسة الجاهدية البرانية:** تنسب هذه المدرسة للأمير مجاهد الدين بُزّان واقف المدرسة الجاهدية الجُوّانية وقد دفن فيها بعد وفاته [٣].

* **المدرسة العمادية:** بناها نور الدين محمود رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي وهو أول من درّس بها [٤]، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده. وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م فقال: وفي رجب من هذه السنة فوّض إليّ المدرسة التي بحضرة حمام القصير، وعول عليَّ في التدريس بها والنظر في أوقافها [٥].

* **المدرسة العصرونية:** تنسب هذه المدرسة للفقيه العلاّمة قاضي القضاة شرف الدين عبد الله بن محمد بن أبي عصرون المتوفي سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م [٦]، وقد بنى له مدارس عديدة بحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها [٧]، وقد وردت نصوص تفيد أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون قد بنى لنفسه بدمشق [٨]، يقول عنه ابن خلكان: توفى ليلة الثلاثاء الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق، ودفن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد وهي معروفة به [٩].

المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية:

* **المدرسة الأسديّة:** تنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه، أحد أمراء نور الدين الكبار والمتوفى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م [١٠]. وقد درس في هذه المدرسة عدد من المدرسين على المذهبين الحنفي والشافعي، ذكر النعيمي منهم خلال العهد الزنكي: الواعظ

---

(١) الحياة العلمية ص ٤٣٢.
(٢) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤٥١)، الحياة العلمية ص ٤٣٥.
(٣) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤٥٣،٤٥٤)، الحياة العلمية ص ٤٣٧.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٣٨.
(٥) المصدر نفسه ص ٤٣٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٤٤٠.
(٧) وفيات الأعيان (٣/ ٥٤).
(٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤١.
(٩) وفيات الأعيان (٣/ ٥٥).
(١٠) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ١٥٢).

الحنفي المعروف بابن الشاعر نزيل القاهرة سنة (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) [١]. وكان قد قدم دمشق وسمع الحافظ ابن عساكر وغيره، فحدث وأفاد ودرّس بالأسدية [٢].

- المدارس الحنبلية:

* **المدرسة الحنبلية الشريفية:** ذكر ابن شداد أنها من إنشاء سيف الإسلام أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب [٣].

* **المدرسة العمرية:** سمّاها ابن شداد مدرسة الشيخ أبي عمر بالجبل في وسط دير الحنابلة، وذكر أن بانيها وواقفها هو الشيخ أبو عمر الكبير [٤]، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكان من الأولياء المشهورين، وذكر ابن طولون أنه إلى الشيخ أبي عمر وإلى ولده أحمد بن قدامه المتوفي سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م يرجع سبب كثرة أتباع المذهب الحنبلي بدمشق وبلاد الشام، فوالد الشيخ أبي عمر كان قد فر بدينه وعياله من نابلس بفلسطين عقب استيلاء الفرنجة على القدس، ووصلوا إلى دمشق في سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م ونزلوا في سفح جبل قاسِيّون بمسجد أبي صالح، ولهذا عرفوا بالصالحين، وأقاموا في السفح منزلاً كثير الحجرات عُرف بدير الحنابلة، ثم تتابع البناء وعُمرت تلك الأراضي ودُعيت بالصالحية نسبة إلى بني قدامة الصالحين لما عُرِف منهم من علم وتقى وصلاح [٥]، وكان آل المقدسي عندما هاجروا إلى الشام استقر نزلهم في الجبل وكان الناس يزورن الشيخ أحمد بن محمد بن قدامه وكان السلطان نور الدين الشهيد يأتي إلى زيارته [٦].

- المدارس المالكية:

* **المدرسة النورية الصلاحيّة:** ذكر الإربلي: المدرسة النورية ضمن مدارس الطائفة المالكية بدمشق ولكنه لم يحدد موقعها [٧] . وأثبت ابن عساكر المدرسة النورية في حديثه عن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة النورية التي أوقفها نور الدين على المالكية في حجر الذهب [٨]. هذه هي أهمِ المدارس التي كانت في دولة نور الدين وهي على سبيل المثال لا الحصر.

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٤.
(٢) الدارس (١/ ٤٧٣)، الحياة العلمية ص ٤٤٤.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٤.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٤٦.
(٥) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية (١/ ١٢٥).
(٦) المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها ص ٣٩.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٨.
(٨) المصدر نفسه ص ٤٤٨.

٤- دور الحديث: على الرغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي، وشيوع لفظ «مدرسة» على المكان المخصص للتعليم والإقامة والرعاية، فقد وجدت بجانبها دور تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس وإن لم تحمل اسمها، فلفظ دار كان مرادفاً في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة، وقد ورد كثيراً في ذلك العهد، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، ولم يطلق عليها مسمى مدرسة، ومن بعده تكاثرت دور الحديث كمدارس أحادية تخصصه لهذا العلم، وقد عنى المسلمون بدراسة الحديث الشريف عناية كبيرة باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدور التي تتولى مهمة تدريس أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وأحواله من حيث رواية الحديث والبحث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ من حيث أحوال رواتها ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعاً، كما تتناول دراسة المعني المفهوم من ألفاظ الحديث، والمراد منها مبيناً على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقاً لأحوال النبي ﷺ [١].

وكان الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، وتشييد دُوُر خاصة به من أبرز سمات التعليم في العهد الزنكي، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام كما ذكرنا ذلك، وهي دار الحديث النُورّية بدمشق والتي أُسند أول مهمة للتدريس فيها، والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م [٢]، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي، وتُعد مبادرة نور الدين تلك إدراكاً منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي الذي تحمل عبء تقويضه من المنطقة ونشر المذهب السني[٣]، أو ما يتمثل بالخطر الصليبي المحيط بالمنطقة، إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد العدوان، فكثرت الدراسات والتآليف حول فضائل الجهاد والحث عليه، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصص، وكانت دور الحديث مقراً لذلك النشاط [٤]. وليس هناك اختلاف في نظم التعليم بين دور الحديث والمدارس الأخرى سوى في كون المناهج الأولى تُركز على الدراسات المتصلة بعلوم الحديث بينما يغلب التخصص الفقهي على مدارس العصر، وهذه

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة ص ١٣٢.
(٢) التاريخ الباهر ص ١٧٢؛ الحياة العلمية ص ١٣٣.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٣٣.
(٤) المصدر نفسه ص ١٣٣.

خطوة تميزت بها حركة التعليم في العهد الزنكي لعدم وجود مثل هذا النوع من المدارس قبل ذلك، إذ أن دراسات الحديث كانت تتم في حِلَق المساجد، كما كانت مادة إضافية في العديد من المدارس الفقهية، ومع ذلك فإن علم الحديث لم تقتصر دراسته في العهد الزنكي على تلك الدور فحسب، بل كان يضاف لمناهج الدراسة في كثير من المدارس، إضافة إلى تخصيص بعض الزوايا الملحقة بالمساجد لتدريسه [(١)].

أ- في حلب: وردت في بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دور الحديث في حلب في هذا العهد، ولكن تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور أو نشاطاتها أو مواقعها، واكتفت بنسبتها إلى مؤسسيها وكانت أبرز تلك الدور ما يأتي:

- دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود [(٢)]، وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدريس هذا العلم والتي سبق الحديث عنها [(٣)].

- دار أخرى أنشأها نائب نور الدين في حلب مجد الدين ابن الداية المتوفي سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م [(٤)].

- دار أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في الخانقاه التي بنتها [(٥)].

ب- في دمشق: سبقت الإشارة إلى أن الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، وإنشاء دُوُر خاصة به كان من أبرز سمات التعليم في هذا العهد، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، والتي أوكل مهمة التدريس فيها والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال، وهو الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر المتوفي سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي. ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار [(٦)].

- دار الحديث النُّوريّة [(٧)]: أجمعت كثير من المصادر على أن هذه الدار من إنشاء الملك العادل نور الدين محمود زنكي وأنها أول دار من نوعها في الإسلام [(٨)]. قال عنه ابن الأثير: وبنى بدمشق أيضاً داراً للحديث، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه [(٩)]، وكان نور الدين قد عهد بأمر التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٣٤. (٢) الدر المنتخب ص ١٢٣.
(٣، ٤، ٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٨.
(٦، ٧، ٨) المصدر نفسه ص ٤٥٠.
(٩) التاريخ الباهر ص ١٧٢، كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٥٠.

الدمشقي المتوفي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م [١]، وكان من بين تآليف الحافظ كتاب سمّاه: تقوية المنة على إنشاء دار السُّنة في ثلاثة أجزاء [٢]، حيث كانت هذه الدار تُسمى دار السنة في السماعات القديمة التي قُرئت بها، وقد زاد من مكانتها أن الذين تولوا التدريس فيها في أول أمرها هما الحافظ الكبير وابنه القاسم بهاء الدين المتوفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م من بعده، ثم تناوب فيها جُلّة من علماء الحديث البارزين، وكانت هذه الدار مركز إشعاع للدراسات الحديثية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) [٣].

٥- الخوانق والربط: تُعد الخوانق والرُبط من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي، حيث يمارس فيها التصوف سلوكاً بالإضافة إلى قيامها بوظائف دينية واجتماعية أخرى، ولكنها مع ذلك كانت دور تعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية بالإضافة إلى مهمتها الأساسية التصوف [٤]. وكان التصوف في تلك الفترة اتجاهاً له نفوذه وسيطرته، وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، فكان الصوفية محل تقدير الحكام واحترامهم، وقد برز نور الدين في هذا المجال، وحظي الصوفية لديه بمكانة عالية فأكرمهم، وأدناهم من مجلسه وبنى لهم الخوانق والربط في شتى أنحاء مملكته [٥]، وكانت مراكز الصوفية تلك مكاناً للعبادة والدرس قدمت مع دور التعليم الأخرى خدمات جليلة لحركة التعليم في ذلك الوقت. [٦]

وقد عرف العهد الزنكي الخوانق ضمن الأماكن التي كان لها أثر في التعليم وإن كان هذا الأثر أقل من أثر المساجد، والمدارس، ذلك لأنها لم تُبنَ أساساً لأغراض التعليم، والقيام بوظائفه، وإنما بنيت بقصد إيواء الصوفية الذين كانوا يخلون بأنفسهم لعبادة الله تعالى، فخصصت لهم تلك الدور لإقامتهم حيث كان يُوفر لهم فيها كافة أسباب الراحة والعيش حتى يتفرغوا للعبادة وطلب العلم بعيداً عن مشاغل الحياة، وكان منشئوها يوقفون بعض الأوقاف للصرف عليها وعلى مِن ينزل بها من الصوفية.

أ- في حلب: أشارت المصادر إلى العديد من الخوانق التي كانت قائمة بحلب في العهد الزنكي من أشهرها:

- **خانقاه البلاط:** ذكر ابن شداد أن منشئها هو شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٠.
(٢) معجم الأدباء (١٣/ ٧٨)، الحياة العلمية ص ٤٥٠.
(٣) الحياة العلمية ص ٤٥١.
(٤) المصدر نفسه ص ١٣٥.
(٥) الباهر ص ١٧١، الحياة العلمية ص ١٣٥.
(٦) الحياة العلمية ص ١٣٥.

رضوان ابن تاج الدولة تُتُش السلجوقي، وهيَ أول خانقاه بنيت بحلب وذلك سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م [١].

- **خانقاه ابن العجمي**: تنسب هذه الخانقاه لشمس الدين أبي بكر بن العجمي أخي الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن المتوفي سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م وكان موقع هذه الخانقاه داراً يسكنها شمس الدين بن العجمي فلما تُوفي سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م أوقفها أخوه شرف الدين أبو طالب على الصُوفيّة، وجعل لها وقفًا يُدَرّ عليها [٢].

- **خانقاه القديم**: أنشأها نور الدين محمود، وتولى النظر على عمارتها شمس الدين أبو القاسم بن الطرسوسي [٣].

- **خانقاه ابن المقدم**: تُنسب هذه الخانقاه لعز الدين عبد الملك المقدم منشيء المدرسة المقدمية الحنفية المتقدم ذكرها.

- **خانقاه القصر**: وهي تحت القلعة أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد زنكي، وسميت بهذا الاسم لأنه كان في مكانها قصر من بناء شجاع الدين بن فاتك وكان مبدأ عمارته لها سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة [٤].

- **خانقاه مجد الدين بن الداية**: تُنسب هذه الخانقاه لنائب حلب في عصر نور الدين محمود وأخيه من الرضاعة مجد الدين أبي بكر محمد بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م[٥].

خوانق النساء: إلى جانب الخوانق الخاصّة بالرجال، أنشئت في العهد الزنكي خوانق مخصّصة لإقامة النساء، يتعبدن فيها ويتلقين دروساً في الوعظ الديني، ومن أشهر هذه الخانقاهات في حلب «خانقاه نور الدين» حيث ذكر ابن شداد أن الملك نور الدين أنشأ خانقاه للنساء سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م على الأرجح [٦]، ولكنه لم يُحدد موقع هذه الخانقاه، كما أنه لم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر.

هذه أهم الخوانق التي كانت قائمة في حلب في العهد الزنكي، وقد كان لهذه المؤسسات مشاركة فعّالة في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد نظراً لما كان يُعقد فيها من دروس وحلق ووعظ، إلى جانب قيامها بالوظيفة الأساسية التي أنشئت من أجلها وهي إيواء المتصوفة

(١) (٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٤١٠.
(٤،٥) المصدر نفسه ص ٤١١.
(٦) المصدر نفسه ص ٤١٢.

للانقطاع فيها للعبادة، ومجاهدة النفس والبعد عن الدنيا [1].

ب- في دمشق: وشهدت دمشق خلال العهد الزنكي العديد من الخوانق والرُّبط، وكانت لها مشاركة فعالة في إثراء الحياة العلمية في هذا العهد، فقد كانت ميداناً للتعليم إلى جانب ممارسة التصوف بها كنشاط أساسي أنشئت تلك الدور من أجله، وكانت أبرز هذه المنشآت ما يأتي:

- الخانقاه السُّميساطية: تُنسب هذه الخانقاه للسُّميساطي أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السُّلمي الحُبَيْشيّ المتوفي سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م كان من أكابر الرؤساء في دمشق[2]، وكان أول من تولى مشيخة هذه الخانقاه في العهد الزنكي الوزير أبو المظفر الفلكيّ، فقد قدم دمشق زمن الملك نور الدين محمود فارتبطه عنده وأنزله هذه الخانقاه وجعله شيخها وأسهم أبو المظفر في زيادة عمارتها [3].

- خانقاه القصر: ذكر كل من ابن شداد والإربلي أن هذه الخانقاه تُنسب لشمس الملوك وذكر الحُسيني [4]أنه إسماعيل بن تاج الملوك بُوري المتوفى سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م أما ابن جبير السابق لهما فقد نسب هذه الخانقاه للملك نور الدين محمود حيث شاهدها في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م ووصفها بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (يعني الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقلّ في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشرافاً منها، وهو من البلد بنصف الميل له بستان عظيم يتّصل به، وكانت متنزّهاً لأحد الملوك الأتراك فيقال: إنه كان في إحدى الليالي على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مؤيداً لهم، فطال العجب من السماحة بمثله، وبقي أثر الفضل فيه مخلداً لنور الدين رحمه الله [5].

- الخانقاه الأسديّة: تنسب هذه الخانقاه للأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م [6]، منشيء المدرسة الأسدية المشتركة بين الحنفية والشافعية بالشرق القبلي ظاهر دمشق [7]، وكانت هذه الخانقاه داخل باب الجابية، بدرب الهاشميين المعروف بباب الوزير [8].

- خانقاه الطاحُون: تُنسب هذه الخانقاه للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وهي

---

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢. (٢) المصدر نفسه ص ٤٥١.
(٣) الوافي بالوفيات (١٥/ ٢٠٤)، الحياة العلمية ص ٤٥٣.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٤. (٥) الرحلة ص ٢٥٧، الحياة العلمية ص ٤٥٤.
(٦، ٧، ٨) الحياة العلمية ص ٤٥٥.

خارج البلد بالوادي [1].

- **الرباط البياني:** جاء ذكر هذا الرباط عند ابن شداد: رباط أبي البيان بحارة درب الحجارة [2]. وذكر السبكي أن هذا الرباط ينسب إليه إنما أنشىء بعد موته بأربع سنين، اجتمع أصحابه على بنائه وقد أعانهم الملك نور الدين وأوقف عليه مكاناً بحُرّين [3].

ج- في الموصل: كان في الموصل في العهد الزنكي رُبُط عديدة شاركت في نشاط الحياة العلمية في ذلك العهد، حيث كانت مراكز للتعليم والتثقيف والتأليف إلى جانب قيامها بوظائف التصّوف التي أنشئت من أجلها، ومن الملاحظ هنا أنه لم يفرق بين الخانقاه والرّباط في الموصل كما حصل في بعض مناطق الشام في ذلك العهد [4]، وكان من أشهر الربط التي كانت قائمة بالموصل:

- **رباط الملك سيف الدين غازي:** أنشأه بالموصل الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين (٥٤١- ٥٤٤/ ١١٤٦-١١٤٩م) وهو الرباط المجاور لباب المشرعة وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفي باحتياجاته [5].

- **رباط الوزير جمال الدين الأصفهاني:** يُنسب هذا الرّباط للوزير الموصلي جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالجواد المتوفي سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م [6]، وقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى الرُّبُط بالموصل، وسنجار ونصيبين وغيرها [7].

- **الرّباط الزيني:** لم يقتصر بناء الرّبط على الملوك الزنكيين بل تبعهم في ذلك أمراؤهم ووزراؤهم فأنشأوا الكثير من الرّبط في الموصل وغيرها كما أنشأوا دُوُر التعليم الأخرى، وكان ممن أنشأ رباطاً بالموصل الأمير زين الدين علي بن بُكتكين المتوفى سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م منشئ مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) والمدرسة الزينية، فقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى مدارس ورُبُطاً بالموصل وغيرها [8].

- **رباط بن الشهرزوري:** أشار إليه ابن خلكان في ترجمته للشيخ عز الدين أبو القاسم بن عقيل بن نصر الإربلي المتوفى سنة ٦١٩هـ(١٢٢٢م) حيث ذكر أنه ساكن ظاهر الموصل في

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٥.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٦.
(٣) طبقات الشافعية (٧/ ٣١٩)، الحياة العلمية ص ٤٥٦.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٨٤.
(٥) الباهر ص ٦٣ مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٣٨٤.
(٦) الحياة العلمية ص ٣٨٤.
(٧) التاريخ الباهر ص ١٢٩، الحياة العلمية ص ٣٨٥.
(٨) الحياة العلمية ص ٣٨٥.

رباط الشهرزوري، وقرر له صاحب الموصل راتباً، ولم يزل هناك حتى توفي [1].

وقد قامت الخوانق والربط في عهد نور الدين بدور كبير في الجهاد وجمع المعلومات وتحريك العامة والدعاء للجيوش الإسلامية، ومقاومة التشيع الرافضي، وتعليم الجهّال أمور دينهم، وكانت الدولة النورية تشرف على ذلك وتوظف هذه الطاقات لخدمة مشروع النهوض. وكان للخانقاه عادة شيخ يتولى نظارتها والإشراف عليها يُسمى شيخ الشيوخ، وقد اشترط الفقهاء فيمن يتولى هذه المناصب شروطًا عدة وآدابًا تؤهله لذلك، منها ما ذكره السبكي من أنه لابد أن يتمتع بقسط وافر من العلم والحلم، وأن يتحمل الأذى والضيم على نفسه، وأن يكون حسن التلفظ، حريصاً على الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن الكريم، وأن يحرص على تعليم مريديه العلم النافع، متدرجاً بهم بالأهون فالأهون، مبتعداً بهم عن الألفاظ التي يصعب عليهم معرفتها [2]. وكان الملك نور الدين قد عهد هذا المنصب للفقيه عماد الدين عمر بن علي بن حمويه المتوفي سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م [3]. وكان قد قدم دمشق في أيامه، ولم يلبث أن آنس منه نور الدين علماً وزهداً، ففوض إليه سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م مشيخة الخوانق والرُّبُط في كل من دمشق، وحمص وحماة، وحلب، وبعلبك [4]. ومنذ أن تولى الشيخ عمر بن حمويه هذا المنصب أطلق عليه لقب شيخ الشيوخ وهو اللقب الذي عرف به شيخ الصوفية أو ناظر الخوانق منذ ذلك الوقت [5].

٦- **الكتاتيب**: الكَتَاتِيب أو الكُتَّاب: يطلق على المحل الذي يتعلم به الصبيان وكانت تقوم مقام المدارس الابتدائية في وقتنا الحاضر، وقد اتخذ المعلمون في العهد الزنكي زوايا بالمساجد وغرفاً ملاصقة لها لتعليم الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي في شتى المدن الزنكية، من ذلك الحلقة الكوثريّة والمجتمع السُّبعي وكلاهما في الجامع الأموي [6]، ويبدو أن السبب في اتخاذ المساجد أمكنة لتعليم الصبيان يعود إلى أن كثيراً من معلميهم كانوا يعتكفون في هذه المساجد، وكان يحترفون هذه المهنة ليضمنوا منها كسب عيشهم، وهم مقيمون على عبادتهم في المساجد، فلزم حضور الصبية إليهم وبجانب هذه الكتاتيب قامت أخرى مستقلة عنها، وقد أنشئ هذا النوع لتعليم الأيتام الذين فقدوا عائلهم أو الأطفال غير القادرين من أبناء المسلمين من الفقراء الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب

(١) معيد النعم ص ٩٧، الحياة العلمية ص ١٣٧.
(٢) العبر في خبر من غبر (٣/ ٧٤) الحياة العلمية ص ١٣٧.
(٣) الدارس (٢/ ١٥٣،١٥٤)، الحياة العلمية ص ١٣٧.
(٤) الحياة العلمية ص ١٣٨.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٩.
(٦) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ١٢٠.

لتعليمهم بأجر، أو إحضار مؤدبين يعلمونهم في بيوتهم، وقد اهتم روّاد التعليم في العهد الزنكي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب وأكثروا منها في بلادهم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها رغبة في الأجر، وحرصاً على نشر العلم، وقد أطلق على هذا النوع من الكتاتيب (مكاتب الأيتام) أو (مكاتب السَبِيْل). وقد خصّ ابن عساكر هذا النوع من الكتاتيب في حديثه عن أعمال الملك نور الدين محمود الخيرية فقال: ونصَّب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم، وعليهم بقدر ما يكفيهم [1]، كما تحدث ابن جبير عن واحد من هذه الكتاتيب في دمشق، ووصفه بقوله: وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوتهم [2]. كما كان كثير من المحسنين في العهد الزنكي يبنون المدارس وبجانبها مكاتب الأيتام حتى إذا أتمّ الصبي تعليمه في الكُتّاب، انتقل إلى المدرسة إن رغب في مواصلة دراسته وله الجراية المستمرة أو النفقة الواسعة إلى أن يُنهي دراسته، ومن ذلك ما قام به الأمير مجاهد الدين قَايْمَاز والي القلعة في الموصل المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) إذ أنشأ مكتباً للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على دجلة[3]. وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكية حيث وجد العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس، أو قريبة منها [4]، وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال، وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وجانباً من العلوم الإسلامية المُتفقة مع قدراتهم لتكتمل تنشئة الصبية على أسس إسلامية متينة[5]. وهكذا نرى أن للأطفال نصيبا في المشروع الإسلامي النهضوي الذي قاده نور الدين للتصدي للأخطار الباطنية والغزو الخارجي، والسير على نهج الإحياء الإسلامي السني الكبير.

٧- **المكتبات:** تعد المكتبات القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أي عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات لدرجة أنه يمكن اتخاذها في كثير من الأحيان المعيار الذي يُحكم به على تقدم هذا المجتمع أو ذلك العصر وقد كانت المكتبات بمثابة دور التعليم في شتى العصور الإسلامية، وهيئات ينفق عليها الملوك، والأمراء، والأثرياء، والعلماء، لنشر العلم بين الناس، خصوصاً في وقت لم يكن للطباعة أي وجود، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نسّاخ متخصصين في هذا العمل، فكان يتعذر على الكثيرين من طلاب العلم اقتناء الكتب لقلة عدد نسخها وارتفاع أسعارها، لأنها تنسخ باليد، ومن هنا نشأت فكرة جمع

---

(١) الرحلة ص ٢٤٥.

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٨٢، ٨٣)، الحياة العلمية ص ١٢١.

(٣)، (٤)، (٥) الحياة العلمية ص ١٢١.

الكتب في مختلف ميادين المعرفة في مكان واحد كي يسهل على طالب العلم الإطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عُرف بـ (خزائن الكتب أو المكتبات)[1]، وقد اهتم الزنكيون – كغيرهم – بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، وغيرها من دور التعليم القائمة في ذلك العهد وقلما نجد داراً تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة من الكتب التي يرجع إليها الطلاب والباحثون في مختلف التخصصات تبعاً لحجم تلك الدار، والأوقاف التي أوقفت عليها، ولا أدل على ذلك الاهتمام من سياسة نور الدين محمود الذي أمر بتزويد كل هيئة تعليمية بمكتبة قيمة، وجعل عليها وقفاً كبيراً يصرف منه على المكتبة والمشتغلين بها [2]. وقد قال ابن عساكر عن نور الدين: إنه حصّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة [3].

٨- الإنفاق على الأيتام والأرامل: كانت طبيعة المجتمع جهادية واشتبك المسلمون مع الصليبيين في معارك كثيرة وترتب على ذلك تزايد أعداد من الشهداء وخرجت للوجود ظاهرة الترمل ووجدت النساء المترملات اللاتي فقدن أزواجهن في ساحات الوغى. وأشرفت الدولة النورية على تزويج الأرامل والاهتمام بهن، ووجد الأطفال اليتامي الذين فقدوا آباءهم في ساحات الهيجاء العناية والاهتمام، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن الدولة حرصت على علاج أوضاعهم من خلال صرف مخصصات لهم من مال وكساء [4]، ففي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م استدعى نور الدين محمود بن زنكي رؤساء دمشق ومشايخها ومقدمي حاراتها ودروبها، وقال: أريد منكم أن تكشفوا عن أحوال مجاوريكم فعرفوني باليتامي والأرامل ومن انقطع عن التكسب ومن اختلت أحواله لأنظر في حالهم ففعلوا ذلك، فبعث إليهم بالغلات والكسوات ووظف لهم الوظائف [5]، وكان نور الدين محمود يعتني بعائلات الذين ماتوا في ميادين المعارك أو موتاً طبيعياً، فإن توفي أحد أجناده وله ولد يقره على إقطاع أبيه، وإن كان الولد صغيراً رتب معه رجلاً يوثق به إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد من الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب [6].

(١) الحياة العلمية ص ١٢١.
(٢) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٥٤.
(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ١٥٤.
(٤) زبدة حلب (٢/ ٣٩)، فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٦١.
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن الخدمات العامة في بغداد ص ٨٠
(٦) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٩١.

٩- الإنفاق على الحصون والخانات و«المجال العمراني»: كان نور الدين محباً للبناء والعمران ولكن ليس لبناء القصور وأماكن اللهو والترف، فقد كان أبعد الناس عن هذا المعنى، إنما العمران الذي يقضي الحاجة، ويخدم مصالح الأمة، كأسوار المدن والقلاع والحصون الضرورية لحماية السكان وصد هجمات العدو، وإسكان الجند، وحفظ المؤن والأسلحة اللازمة للقتال، الأمر الذي كانت تقتضيه ظروف المواجهة مع الغزاة الفرنجة، ثم المساجد والمدارس ودور الأيتام والغرباء الضرورية لتربية الأجيال على الخير والصلاح، والمستشفيات والأسواق والخانات والحمامات والقنوات والقناطر والجسور لتسهيل العمل بالزراعة، والتجارة، من أجل تحقيق الكفاية وتحسين المعيشة وزيادة موارد الدولة، هذا هو العمران الذي أحبه نور الدين وأنفق القسم الأكبر من خزينة الدولة في سبيل تحقيقه[1]، فقد بنى أسوار مدن بلاد الشام جميعها وأصلح القلاع والحصون بعد الزلازل التي حصلت عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م وكذلك بعد الزلازل التي وقعت عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م [2]، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة يقول ابن الأثير في ذلك: فمن ذلك أنه بنى أسوار بلاد الشام جميعها وقلاعها فمنها حلب وحماه وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس [3]، وكنا قد تحدثنا بنوع من التفصيل عن المدارس والمستشفيات ودور الأيتام والمساجد.

ومن مظاهر العمران التي استحدثها نور الدين بناء الأبراج على الطرق بين الإمارات الفرنجية وما جاورها من بلاد الشام حتى المدن الرئيسية (دمشق، حلب، حماه، حمص) ووضع فيها حاميات صغيرة ومعهم الزاجل لينذروا من يليهم من بلاد المسلمين عن حركات الفرنجة، فيستعد المسلمون للقائهم، فكانت هذه الأبراج تعمل كنقاط مراقبة دائمة لتمرير المعلومات عن العدو. [4] وأما ما يتعلق بالمرافق العامة كالخانات والحمامات، والأسواق ودور الوضوء فقد تميزت مدن الشام بكثرتها وترتيبها ونظامها، فقد وصف ابن جبير دمشق بقوله: وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلّها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة وأسواق هذه البلدة من أفضل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً ولاسيما قيسارياتها، وهي مرتفعة كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور [5].

(١) سنا البرق الشامي ص ٢٧.
(٢) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص١٨٧.
(٣) (٤) الباهر ص ١٧٠، ١٧١، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٣٥ ، ٢٣٦.

ويصف ابن جبير مدينة حلب بقوله: أما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من كل سماط صنعة أخرى إلى أن تفرع من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل؛ السماط خزانة واحدة، وتخللتها شُرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم، وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها، وحسنه أكثر من أن يوصف. ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة [1]. واتسعت مدن بلاد الشام وتضاعف عدد سكانها عدة مرات خلال عهد نور الدين[2]. فقد كانت بنايات مدينة دمشق- أحيانا – من ثلاث طبقات تحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن. وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة وصارت تعاني من كثرة العالم، وامتدت بساتين دمشق من حولها إلى مسافة خمسة عشر ميلاً، ولم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مُغل. ومع أن نور الدين كان يركز في البناء والعمران على البساطة والمتانة إلا أنه كان يميل إلى تجميل البناء وتحسينه ليكون البناء متناسقاً حسن الصورة مع عدم المبالغة في الزخرفة والتزيين، فقد أحضر للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب قطعاً من الرّخام الشفاف من مدينة أفاميه، وأمر بتجميل محراب المدرسة العمادية في دمشق بفصوص من الذهب، وبنى في قلعة دمشق داراً عامّة سمّاها دار المسّرة وأوقف بعض البساتين في دمشق على تطييب جوامعها ومدارسها [3]. لقد شكلت الإنجازات الباهرة المتعددة التي حققها نور الدين أركان نهضة الأمة. والجدير بالملاحظة والاعتبار أن نور الدين حقق هذه الإنجازات في ظل ظروف بالغة الصعوبة فقد كان في حالة حرب مستمرة مع الغزاة الفرنجة [4].

١٠- فك الأسرى: وثمة مساحات أخرى امتدت إليها خدمات الدولة وضمانها الاجتماعي في عصر نور الدين، لقد فرّق الرجل اثنى عشر ألف دينار في فداء أسرى أهل الشام فكان يقول: هؤلاء يفكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم [5].

١١- خدمات اجتماعية كبيرة: في عام ٥٦٩هـ، السنة التي توفي فيها نور الدين،

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٠٣ ، ٢٠٤، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨.
(٣) الكواكب الدرية ص ٤٧.
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨.
(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٨٠، نور الدين محمود ص ١١٨.

شهدت دولته جملة خدمات اجتماعية أخرى، شملت الكثير من القطاعات وتطلبت الكثير من النفقات: فزيدت الأوقاف ووسَعت الصدقات، ووفرت النفقات، ويجمع عدد من المؤرخين على أن تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للإعجاب وتوضّح لنا إلى أي مدى كان نور الدين يسعى جاداً إلى تغطية حاجات أمته بفئاتها الفقيرة المحتاجة، ملبساً ونفقة وإشباعاً، إكساء الأيتام والنسوة وتزويج الأرامل وإغناء الفقراء وختان الأطفال[1]. ويعلق العماد الأصفهاني على حملة تلك السنة بقوله:.. حسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر فقد زاد على ثلاثين ألف دينار ذهباً، وكان إذا مر بصدقة غلّة أو ذهب تقدم إلى خادمه بإحضار جماعة من أماثل البلد وعدوله من أهل كل محلة فيقول لكل واحد: كم تعرف في جوارك من المحتاجين وغيرهم؟ فيقول: أعرف كذا وكذا فيسلم إليه صدقات أولئك الأعداد، حتى يستقرئ بالسؤال جميع الحاضرين. ثم يأتيه كل منهم يثبت ما فرقه[2].

لقد تحقق في عهد نور الدين محمود ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الأساسية. إن المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخدم فحسب.. ولكنه (المجتمع) الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله، المجتمع الذي يمحى فيه الاستغلال، وتضيق الفوارق ويشترك الجميع بالحق والعدل فيما يمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية، لكي يقدر الجميع على التحرك إلى ما وراء الآفاق الواسعة الرحيبة التي جاء الإسلام لكي يقوم الناس إليها. لقد تحقق التعاون الفعّال بين القيادة والقواعد [3]، فنهض الجميع من كبوته واستوعب مشروعه الحضاري وقام بدوره الريادي. وهذه صورة من بين عشرات الصور، التي وصف بها هذا المجتمع يحدثنا عنها شاهد عيان بعد حوالي العقد فحسب من وفاة نور الدين:.. إن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام (٥٨٠هـ)، خرج الناس لتلقيهم، الجم الغفير رجالاً ونساءً يصافحونهم.. وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا إليهم الأطعمة.. وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم – إن أحبّ – ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وينتال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى [4]. وفي مكان آخر يقول ابن جبير شاهد العيان هذا مثمناً أخلاقية المجتمع الإسلامي هناك:.. ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلاّ مبادرة

(١) زبدة دمشق (٢/ ٢٤٠)، نور الدين محمود ص ١١٧.
(٢) البرق ص ١٤٣، نور الدين محمود ص ١١٧.
(٣) نور الدين محمود ص ١١٩.
(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٥٩، نور الدين محمود ص ١١٩.

أهلها لإكرام الغرباء، وإيثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها لكفى بها فضلاً[1].

إن من أبرز المعالم في تاريخنا كله: الإيمان بكرامة الإنسان وفطرة الإنسان، وحرمة الإنسان: حرمة دمه وعرضه وماله، وحقوق الإنسان: حقه في الحياة، وحقه في الحرية، وحقه في المساواة، وحقه في عيش كريم له ولمن يعول، وأصل ذلك: أن الإسلام الذي صنع هذا التاريخ يكرم الإنسان من حيث هو إنسان من ذرية آدم، الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله في الأرض خليفة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وأكد القرآن مع كتب السماء ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. كما أكد الإسلام أن البشر جميعاً سواسية كأسنان المشط، لا يفرق بينهم عرق ولا لون ولا لغة ولا إقليم ولا طبقة، وإنما يتفاضلون عند الله بالتقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

لهذا كان من أبرز المعاني الإنسانية المرعية والمؤكدة في تاريخنا كله: المساواة بين البشر جميعاً: بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، حكاماً ومحكومين، أغنياء وفقراء، شرفاء ووضعاء، مسلمين وغير مسلمين [2] في إقامة العدل.

ومن المعاني الإنسانية العميقة البارزة في تاريخنا الإسلامي البر والإحسان بالناس، وبذل المعروف لهم، وإعانتهم في السراء والضراء، وخصوصاً الضعفاء والمحرومين منهم، أيا كان سبب ضعفه، فمنهم من ضعفه بسبب فقد المال كالمسلمين ومنهم من ضعفه بسبب فقد الوطن كابن السبيل، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الحرية كالأسير والرقيق، وقد أوصى الإسلام بهم جميعاً كما قال تعالى في وصف عباده الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩] قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١١٧] وهؤلاء لهم في الإسلام حقوق بعضها واجبة وبعضها مندوبة وبعضها تطالب به الدولة.. وبعضها من الصدقات المعتادة، وبعضها من الصدقات الجارية، التي تمثلت في نظام الوقف الخيري، الذي رسخت جذوره، وسبقت فروعه، وامتدت ظلاله، وآتى ثماره في الحياة الإسلامية وتميز به تاريخ المسلمين أكثر من غيرهم من الأمم [3].

---

(١) نور الدين محمود ص ١١٩.
(٢) (٣) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي ص ١٣٨، ١٤١.

* ومن أبرز الدلائل على رسوخ المعاني الإنسانية في حضارتنا ووضوحها في تاريخ أمتنا: كثرة المؤسسات التي تعني بخير الإنسان والبر به [1]، وإليك هذه الصفحات المشرقة مما كتبها الداعية الكبير والمجاهد الشهير العلامة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه البديع من روائع حضارتنا عن هذه المؤسسات فقال: كانت المؤسسات نوعين: نوعاً تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوعاً ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء، ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسبنا أن نلّم بأهمها:

- **فمن أولى المؤسسات الخيرية:** المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها وحسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبدالملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي مما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال. ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات.

- **ومن المؤسسات الخيرية** «بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر».

- **ومنها:** التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وجل.

- **ومنها:** بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً.

- **ومنها:** السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً.

- **ومنها:** المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء (شُربة)، وحلوى، ويقول الدكتور السباعي: ولا يزال عهدنا قريباً بهذا النوع من كل من تكية السلطان سليم، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق.

- **ومنها:** بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت وعمت أرض مكة كلها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كلها موقوفة على الحجاج.

- **ومنها:** حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها، حتى قل أن يتعرض المسافرون – في تلك الأيام– لخطر العطش.

---

(1) تاريخنا المفترى عليه ص ١٤٤.

- ومنها: أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر، ويتبع ذلك وقف الخيول وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله عز وجل، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفدون إلى بلادنا – أيام الهدنة – ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عالة على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا، ويتبع ذلك أوقاف يُعطى ريعها لمن يريد الجهاد وللجيش المحارب، حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل يودُّ أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنة عرضها السماوات والأرض.. فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعاً للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من من أموالنا كل يوم – لا أسبوعاً واحداً في العام – مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعدادًا لصد العدوان وحماية الديار.

- ومن المؤسسات الاجتماعية ما كان وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور.

- ومنها: ما كان للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

- ومنها: ما كان أكفان الموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

- ومنها: المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي لليتامى ولختانهم ورعيتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.

- وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستوى تغذيتهم بالغذاء الواجب، لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم إليها.

- ومنها: مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تمحُّصها للخير الخالص لله عز وجل، وقد كان من مبرات صلاح الدين: أنه جعل في أحد أبواب القلعة – الباقية حتى الآن في دمشق – ميزابًا يسيل منه

الحليب، وميزابا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر [١].

ومن أطرف المؤسسات الخيرية: وقف الزبادي [٢] للأولاد الذين يكسرون الزبادى وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة ثم يرجعون إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئاً. وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات: المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى فيه حتى تلاقي حتفها. أما بعد، فهذه أنواع من المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا فهل تجد لها مثيلاً في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟.. اللهم إنه سبيل الخلود تفردنا به وحدنا يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتظالم، اللهم إنه سبيل الخلود كشفنا به عن الإنسانية المعذبة أوصابها وآلامها.. فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيادي التي تمسح عبرة اليتيم، وتأسو جراح الكليم، وتجعل من مجتمعنا مجتمعاً متراصاً، ينعم فيه الناس جميعاً بالأمن والخير والكرامة والسلام؟ [٣]

* * *

(١) من روائع حضارتنا مصطفى السباعي ص ١٧٨.
(٢) الزبادي : جمع زبدية وهي إناء من الفخار عادة يوضع فيه اللبن حتى يتخمر.
(٣) من روائع حضارتنا ص ١٧٨ – ١٨٢، تاريخنا المفترى عليه ص ١٤٨.

المبحث السادس
أهمية التربية والتعليم في النهوض الحضاري

أدرك المشرفون على عملية التغيير وفقه النهوض أن عز هذه الأمة وقوتها في تمسكها بدينها وعملها بكتاب ربها وسنة نبيها، وأن الجيل الأول من سلف هذه الأمة ما انتصر على أعدائهم إلا بقوة العقيدة، وأن النصر والتأييد والتمكين لهذه الأمة مقرون بالالتزام بعقيدة التوحيد الخالصة، والعمل بمقتضاها، وأن هذه الأمة تكون هدفاً للسهام وطعمة لسيوف الأعداء بمجرد الزيغ عن هذه العقيدة، والانحراف عن هذا المنهج، وأن الهزائم التي حلت بالمسلمين أمام حملات الصليبيين كانت ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية للانحراف العقائدي والفساد الفكري الذي أصاب الأمة [(١)]، وقد ألهم الله قادة الأمة من أمثال نور الدين محمود إلى إدراك دور العقيدة الصحيحة في صناعة النصر وأن الأمة بدونها تتحول إلى قطيع من الأغنام لا تقوى على شيء، ولذلك فإن أول ما بدأت به عملية التغيير والإصلاح والتجديد هو إعادة بناء العقيدة في النفوس، وإعادة صياغة الإنسان المسلم على التوحيد الخالص، بتجديد العقيدة في نفوس الناس وإزالة كل ما علق بالنفوس من بدع وعقائد فاسدة، ولذلك راحوا يواجهون التحديات الباطنية في إفساد العقائد الإسلامية بنشر العقيدة الصحيحة عن طريق مؤسسات تجسد العقيدة في النفوس وواقع الحياة اليومية عن طريق التعليم الإسلامي النقي في عدد من المدارس والمساجد تم إنشاؤها وإعدادها لهذا الغرض وقام بالتدريس فيها صفوة من علماء الأمة وخيرة مفكريها [(٢)].

وقد كانت بداية حركة الإصلاح والتجديد على يد السلاجقة السنة الذين زحفوا على بغداد، واستنقذوا الخليفة العباسي من الأسر والذل الفاطمي الرافضي الشيعي بعد الانقلاب الذي دبرته الدولة الفاطمية على يد القائد العسكري البساسيري الذي تشيع وترفض واعتنق المذهب الإسماعيلي، وقد هدى الله قادة تلك الدولة السلجوقية السنية إلى أن السيوف تفل السيوف، وأن الحجة لاتقرع إلا بالحجة، وأن الأفكار والعقائد لابد من غرسها عن طريق التعليم والتربية والتهذيب لا بالسيف والسنان، خصوصاً أن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الحق ودين الله تعالى الذي بعث به رسوله، فأنشأوا لهذا الغرض ما عرف باسم المدارس النظامية نسبة إلى الوزير العظيم نظام الملك، وقد تحدثت عن سيرة نظام الملك والمدارس النظامية في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني

(١) لا طريق غير الجهاد لتحرير القدس ص ٣٢٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣١.

والغزو الصليبي. وإلى جانب نظام الملك كان هناك عشرات من الذين تولوا الإدارة والجيش والقضاء والحسبة وآخرون تولوا القيام على المدارس النظامية كالإمام الجويني وأبي إسحاق الشيرازي، وأبي القاسم القشيري والإمام الغزالي وغيرهم. ولقد واجهت الدولة السلجوقية ورجالها العظام الخطر الفاطمي الباطني الذي انتشر في مختلف البقاع الإسلامية، لقد كانت للمدارس النظامية والحركة المباركة التي قادها السلاطين السلاجقة- من أمثال ألب أرسلان - مع العلماء لمواجهة التحدي الفاطمي الرافضي الباطني أطيب الأثر في وضع الأمة على الطريق الصحيح الذي سار عليه من بعدهم رجال من القادة السياسيين والعلماء العاملين المخلصين، فكانت لتلك الشجرة الطيبة الكثير من الغصون والثمار التي طابت وأينعت وامتدت ونمت وتفرعت حتى عم خيرها الجميع [1]، وقد تحدثت عن حركة الإصلاح التي قام بها الإمام الغزالي في كتابي عن دولة السلاجقة وعن جهوده الفذة في مقارعة التشيع الرافضي الباطني، وسيأتي الحديث بإذن الله عن المدرسة القادرية وشيخها عبد القادر الجيلاني وجهوده في الإحياء السني ودوره في نهضة الأمة وترشيد التصوف السني، فقد لعبت المدرسة القادرية دوراً مهماً جداً في حركة الإصلاح والتجديد والتغيير الاجتماعي وتهيئة الأمة للجهاد في سبيل الله. وعندما جاء نور الدين للحكم استفاد من الجهود العلمية والتربوية التي سبقته، وأدركت دولته أن التعليم هو الدعامة الإساسية في بناء الشخصية المتكاملة من جميع النواحي العقائدية، والثقافية والفكرية... إلخ واعتبرت الإنسان الكنز الذي لا يقدر بأي ثمن، فجعلته مدار اهتمامها، وقطب الرحى في تفكيرها؛ فعمدت إلى بناء المؤسسات التعليمية من مدارس ودور القرآن والحديث، وأحيت رسالة المسجد ليسهم في عملية البناء والتصحيح الجديدة، وتوجيه وتوعية الأمة وتعبئتها تعبئة عامة شاملة لمواجهة الأخطار ومجابهة التحديات الداخلية الباطنية والخارجية الصليبية، وكونت مجلساً عاماً يشرف على العملية التعليمية والصياغة التربوية يضم أهل الحل والعقد وهيئة كبار العلماء العاملين المخلصين والقادة العسكريين والفقهاء والشيوخ المستنيرين. وكان نور الدين أحد أعضاء هذا المجلس الأعلى الذي يشرف على التخطيط العام والشامل، وكان يجلس مع العلماء والشيوخ يتدارسون الأمور لما يحقق المصلحة الإسلامية [2]، ورسم هذا المجلس الأعلى للتخطيط والتنسيق بين السياسات العامة الواجب اتباعها نحو إعداداً الأمة الإسلامية كلها إعداد جديداً، وبنائها بناء سليمًا على طريقة السلف الصالح، فقرروا ضرورة تأسيس مئات المدارس ونشر التعليم الإسلامي في جميع أنحاء البلاد، كما قرروا إقامة مئات المساجد للقيام بواجب التزكية والتحلية بالفضائل، والتخلية من

(١) لا طريق غير الجهاد ص ٣٢٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤.

الرذائل، واستقدموا آلاف العلماء، والمربين المشهورين للقيام بواجب التدريس في المدارس والتوجيه في المساجد وكانوا من خريجي المدرستين الغزالية والقادرية [1]. ولم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة[2].

وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة [3] منها، فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم جميع المسلمين من عمال وفلاحين ومزارعين من الكبار والصغار والرجال والنساء، وعملت الخطة على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما عمدت الخطة الحكيمة إلى تعرية المذاهب الهدامة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشعوبية، وأبانت عن خطرها وضررها على النفس والمجتمع والأمة، وأنه لا خروج من المحنة، ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة في صورتها الأولى التي كان عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيدات فلسفية ومجادلات كلامية، لا طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروجيها.

لقد التزمت الدولة الزنكية بالإسلام عقيدة وعملاً ومنهج والتزمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة للجميع، فأصلحت ما يمكن إصلاحه من أصحاب الاتجاهات والفلسفات كالصوفية المنحرفة التي استطاعت الدولة الزنكية أن تنقيها مما علق فيها من أتباع الفكر الإسماعيلي الباطني، فأقامت لشيوخها الزّوايا والربط وأنفقت عليهم الأموال، وأمدتهم بالعطايا والهبات، وأخرجت التصوف من أسر الفكر الباطني وبذلك أصبحت المؤسسات الصوفية تؤدي دورها التربوي ونشر السلوك الإسلامي وفق منهج أهل السنة والجماعة إلى جانب المدارس والمساجد في التوجيه والإرشاد والتعليم والتهذيب حسب الخطة العامة للدولة، وتحت إشراف المجلس التعليمي الأعلى. لقد وجه التعليم الإسلامي عناية خاصة لإعداد الأمة كلها للجهاد بكافة أنواعه من الإعداد المادي والمعنوي وتربية النفوس ومجاهدتها في ذات الله، ومجاهدة الشيطان والجهاد بالمال والنفس، والتعبئة الروحية

(١) لا طريق غير الجهاد ص ٣٣٤.
(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٥٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ ، ٢٥٩.

العالية، وتربية الإرادة القتالية عند جميع أفراد الأمة دون أن يقتصر ذلك على طائفة دون أخرى بالإضافة إلى طائفة مختصة عنيت الدولة بإعدادها إعداداً قتالياً خالصاً، وتدريبها تدريباً عسكرياً متميزاً يجعلها تتفوق على ما عند الأعداء [(١)].

أولاً: فئات المدرسين في الدولة الزنكية:

١- **معلمو الكتاتيب:** الاسم الشائع الذي كان يطلق على معلم الصبيان في العهد الزنكي هو (المعلم) أو (المؤدب). ومعلم الكتاب في ذلك العهد يماثل معلم المرحلة الابتدائية في عهدنا الحاضر، من حيث إنه يتولى تعليم الأطفال العلوم الأساسية، ويشرف على تربيتهم وتوجيههم، وتأهيلهم إلى المرحلة الأعلى وقد اهتم حكام العهد الزنكي بهذه المرحلة من التعليم اهتماماً خاصاً وحظي معلمو هذه المرحلة بمكانة عالية لديهم، فوفروا لهم كل سبل العيش المريح للقيام بمهمتهم على أفضل وجه وأداء رسالتهم المهمّة في توجيه اللبنة الأولى في التعليم على النهج السليم الذي رسمته تلك الدولة، وهو إعدادهم منذ صغرهم ليتخرجوا صحيحي العقيدة سليمي الذهن [(٢)] متأثرين بذلك التوجه الإسلامي ليتخذوا مواقعهم في المجتمع، وليقوموا بالأعمال المنوطة بهم مستقبلاً على التوجه السليم والسياسة المرسومة [(٣)]. وكان من أهم ما يتطلبه تعليم الصبيان في المعلم أن يكون حافظاً لكتاب الله، ملماً ببعض علوم اللغة وأصول الحساب والخط [(٤)]، وكان يشترط فيمن يقوم بتعليم الصبيان شروط خلقية كثيرة ذلك لأنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجملاً ورفعة، وفي هذا الصدد يقول الإمام الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١٢م: إن صلاح التلميذ بصلاح معلمه، فإن أعينهم إليه ناظرة، وآذانهم إليه مصغية، فما استحسنه فهو عندهم الحسن، وما استقبحه فهو القبيح [(٥)]، كما اشترط المربون في المعلم أن يكون عادلاً بين الصبيان، وأن يكونوا عنده بالمنزلة سواء، لا تفريق بينهم فابن الفقير وابن الغني على حد سواء في التربية والتعليم [(٦)]. هذا إلى جانب كونه من أهل التقوى والورع والعفة، واستحب المربون في معلم الكتّاب أن يكون كبير السن [(٧)]، وقد اشتهر بالتأديب في العهد الزنكي الشيخ علي بن منصور السُرُوجي المتوفي سن ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م [(٨)]، وكان قد ندبه الملك عماد الدين زنكي لتربية أولاده وتعليمهم، وقد اشتهر السروجي ببراعته في الأدب والشعر

---

(١) لا طريق غير الجهاد ص ٣٣٥.
(٢) (٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٦٦.
(٤) مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة (٢/ ٣١٧).
(٥) إحياء علوم الدين (١/ ٦٣،٦٤).
(٦) (٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٦٧.
(٨) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص١٦٨.

وحسن الخط [1]. ولقد تمتع معلمو الكتاتيب في ذلك العهد بمركز مالي جيد في الكتاتيب الموقوفة إذ وفر لهم الواقفون رواتب شهرية تُصرف لهم من إيراد الوقف [2]، كما ذكر أبو شامة عن نور الدين أنه بنى في بلاده الكثير من الكتاتيب وأجرى على المعلمين والصبيان رواتب وافرة [3]، وقد دفع هذا التشجيع المادي والمعنوي الكثير من المعلمين إلى الإقبال على التعليم، بطمأنينة وراحة بال [4].

٢- **المدرسون**: إن نظام التعليم المتبع في العهد الزنكي لا يقل شأنا عن نظام المدارس في العصر الحاضر، فإن النظام المتبع آنذاك هو أن يكون لكل مدرسة عدد من المدرسين يختص كل واحد منهم بتدريس مادة أو أكثر، ويشرف عليهم شيخ يسمى ناظر المدرسة، ويشترط أن يكون الناظر من خيار المدرسين وأشهرهم ومن الذين بلغوا درجة عالية من النضج العلمي، والقدرة العالية في مجال التأليف والتدريس، وقد عني الزنكيون ومن سار على نهجهم في إنشاء المدارس ودور التعليم المختلفة باختيار العلماء الأفذاذ للتدريس في مراكزهم وحرصوا على استجلاب من أثر عنه العلم الوافر، والسمعة الحسنة بين العلماء وطلاب العلم، كما حرصوا أن يكون المدرس سليم العقيدة حتى يتوافق مع التوجه الديني الشامل للدولة [5]. وكان المدرسون في العهد الزنكي يتقاضون رواتب، أو معاليم تصرف لهم من الأوقاف التي كانت توقف على المدرسة، وكانت تلك الأجور أو المعاليم تتأثر بظروف مقدار الوقف على المدرسة وما يدره شهرياً أو سنوياً، وكان هناك من المدرسين من يأنفون من أخذ ما يُخصص لهم من تلك الأوقاف فقد رفض القاسم ابن الحافظ علي بن الحسن بن عساكر المتوفي سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) [6] وكان مدرساً بدار الحديث النورية بدمشق، أن يتناول من معلومه شيئاً، فقد تنازل عنه لمن يتردد عليه من الطلبة [7]، وكان يحق للمدرس أن يستنيب من يقوم بالتدريس مكانه في إحدى المدارس، ومن هنا ظهر منصب «نائب المدرس» وهو أعلى من رتبة المعيد، وأقل من رتبة المدرس، ومن ذلك أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون درس بالمدرسة الأمينية بدمشق [8]، وأناب عنه في بعض وقته الفقيه أبا الفضائل الدمشقي [9]؛ المتوفى سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٥م [10].

(١) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ١٦٨.
(٢) الحياة العلمية ص ١٦٩.
(٣) كتاب الروضتين نقلا عن الحياة العلمية ص ١٦٩.
(٤) الحياة العلمية ص ١٦٩.
(٥) المصدر نفسه ص ١٧٠.
(٦) (٧) المصدر نفسه ص ١٧٦.
(٨) الدارس (١/ ١٧٨)، الحياة العليمية ص ١٧٨.
(٩) طبقات الشافعية (٧/ ١٨٦)، الحياة العلمية ص ١٧٨.
(١٠) الحياة العلمية ص ١٧٨.

٣- المعيدون: من الواضح أن نظام الإعادة الذي نجده منتشراً في جامعتنا في الوقت الحاضر لم يكن وليد نُظم التعليم الحديثة، فقد سبقتها المدارس الإسلامية الأولى إلى استعمال هذا النظام، ولم تظهر وظيفة المعيد في تاريخ التعليم عند المسلمين إلا مع ظهور المدارس وتطور وظائفها في منتصف القرن الخامس الهجري [١].

ثانياً: فئات الطلاب:

١- طلاب المرحلة الأولى: اهتم الحكام الزنكيون وبعض الموسرين في الدولة الزنكية بإنشاء الكتاتيب لتعليم صغار المسلمين القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، وطرفاً من العلوم الأولية البسيطة مثل: الكتابة، والحساب، وما يُستحسن من الأشعار، وقد ذكر ابن العربي الذي زار بلاد الشام في بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أن: للقوم في التعليم سيرة بديعة، وهو أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب [٢]، وقد حدد ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م بقوله: ومتى اعتدل المزاج وتكامل العقل، أوجب ذلك يقظة الصبي، فإذا بلغ خمس سنين أخذ يحفظ العلم [٣]، وأما المدة التي كان يقضيها الطفل في الكُتّاب فهي أيضاً تختلف باختلاف استعداد الطفل ومدى قابليته للتعلم، وإمكانياته في الانتقال إلى المرحلة التعليمية التالية على أن هناك بعض الإشارات التي تحدد مدة الدراسة بالكتّاب بسن البلوغ، فقد أشارت بعض المصادر إلى أن الصبي إذا بلغ سن البلوغ ترك المكتب وهذه تتراوح مابين الثانية عشرة والخامسة عشرة، [٤] وكانت أيام التعليم في الغالب خمسة أيام ونصف اليوم: السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، والأربعاء وصبيحة الخميس حيث كان بقية يوم الخميس، وطوال الجمعة عطلة الراحة، بالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض المناسبات العامة [٥]. وأما من حيث منهج الدراسة في المرحلة الأولى فيؤكد أقرب المصادر للعهد الزنكي التي توضح منهج التعليم في هذه المرحلة هو كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزري المتوفي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م الذي وصف حال تعليم الصبيان في ذلك العهد، وما ينبغي للمعلم اتخاذه تجاه تعليمهم وطريقته ومن ذلك قوله: وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، ويُدرّجه في ذلك حتى يألفه طبعه ثم يعرفه عقائد أهل السنة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات

(١) الحياة العلمية ص ١٧٩.
(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٨٩٥)، الحياة العلمية ص ١٩٣.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٩٣.
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٥.
(٥) التربية والتعليم في الإسلام، محمد أسعد طلس ص ٧٨.

والأشعار دون سخيفها ومسترذلها [1].

ولم تقتصر الحياة التعليمية في الكتاتيب على تعليم الصبية الكتابة والقراءة وتحفيظهم القرآن فحسب، بل تعداه إلى أن يقوم المعلم بتأديب الصبيان وتعويدهم الآداب الحسنة [2]، وقد شبه الإمام الغزالي المعلم الذي يُربي الصبية ويهديهم للأخلاق الفاضلة بالرفق واللين، ويبعدهم من السقوط بالمهالك والشرور بالفلاح الذي يقطع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه [3]، وقد تعددت وسائل التحصيل وأساليب التعليم في الكتاتيب على النحو الآتي: في السنوات الأولى من هذه المرحلة يهتم المؤدب بتعليم الأطفال السور القصار من القرآن الكريم وكانت وسيلته في ذلك أسلوب التلقين، بمعنى أن المعلم كان يقرأ وعلى الصبي أن يكرر ما يقرأه معلمه من فقرات إلى أن يتم حفظها وهكذا يستمر معه. وقد أكد بن جبير اشتهار هذه الطريقة في البلاد الزنكية التي زارها بقوله: وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين. [4] ويذكر ابن جبير عند الحديث عن تعليم الصبيان في دمشق أن سور القرآن لم تستعمل في تعليم الأطفال الكتابة، وإنما استعملت أبيات من الشعر لهذا الغرض، وأن تعليم القرآن والكتابة لا يقوم بهما مدرس واحد وإنما يخصص معلم لكل منهما على حدة، فإذا فرغ الصبي من التلقين التحق بالكُتاب الخاص بتعليم الخط. ويستصوب ابن جُبير هذه الطريقة إذ يرى فيها إتقاناً للخط. لأن المعلم له لا ينشغل بغيره فهو يستفرغ جهده في تعليم الخط، فيبرع الطفل في ذلك [5].

أما طريقة تدريس الشعر فكانت تتلحص في أن يختار المعلم للأطفال الأشعار السهلة في العبارة واللغة، كي يسهل حفظها وفهمها، كما يراعي في اختياره ما قيل من الأشعار الحسنة والنبيلة دون السخيف والرذيل منها، وكان الطفل يقوم بتكرار هذه الأشعار حتى يتم حفظها[6].

هذه هي أهم وسائل التحصيل وأساليب التعليم في تلك المرحلة المبدئية من التعليم وكانت تتميز بالبساطة، والتدرج في المعلومات ما أمكن والحرص على تربية الصبية خلقيًا إلى جانب تحصيلهم العلمي[7].

٢- طلاب المرحلة العليا: يُطلق على هذه الفئة من الطلبة في بعض الأحيان لقب «الفقهاء»، وقد غلب إطلاق هذا اللقب في العهد الزنكي على طلاب المدارس[8]، ويمكن

---

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٣.
(٢) نهاية الرتبة ص١٠٣.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٩٧.
(٤) كتاب أدب المعلمين ص ٧٦.
(٥) الرحلة ص ٢٤٥، الحياة العلمية ص ١٩٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٠١.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٠٠.
(٨) الحياة العلمية ص ٢٠١.

تصنيف هذا النوع من الطلبة إلى صفين: طلبة عارضين، وآخرين منتظمين، فالصف الأول يشمل أعداداً كبيرة من أصحاب الحرف والعمّال وغيرهم ممن يحضر الدروس بين حين وآخر، ولاسيما مجالس الوعظ والإملاء وحلق التعليم العامة، غير أنهم لا يواصلون دراستهم ولا يواظبون على الحضور، وهؤلاء يمثلون أضعاف أعداد الطلاب المنتظمين، أما الصنف الآخر فهم الطلبة المنتظمون، وكانوا يقضون شطراً كبيراً من حياتهم في طلب العلم وحده، ولكن ذلك لا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق [1]. وكانت المساجد تقوم بالتدريس ولا يشترط فيمن يريد التعلم عدد معين ويختلف الوضع بالنسبة للمدارس، إذ كان يجلس أمام المدرس فيها عدد معين من الطلاب لا يصح تجاوزه في الغالب، ثم إن هذا العدد قليل جداً إذا قيس بأعداد طلاب الحلق في المساجد، وكان مما جرت عليه العادة في المدارس أن يعين منشيء المدرسة أو واقفها مدرساً لها، ويُحدد في الوقت نفسه عدد الطلاب الذين يسمح لهم الالتحاق بها كما حصل في المدرسة النورية بالموصل حيث حدد واقفها نور الدين أرسلان شاه عدد الطلاب بستين طالباً من فقهاء الشافعية [2]، وكذلك في المدرسة العصرونية بدمشق والتي شرط فيها واقفها ألا يزيد عدد طلبتها على عشرين طالباً من الشافعية وغيرهم [3]. وكان طلاب العلم يحصلون على مرتبات ونفقات تحصل في الغالب من موارد الوقف المخصص للحلقة أو المدرسة، وقد اشتهرت بعض مدارس العهد الزنكي بوفرة ما يناله منسوبوها من الأموال، والمأكولات والملابس، والهدايا في المناسبات، كما كانت عليه المدرسة العُزية بالموصل والحلاوية بحلب والنورية الكبرى في دمشق [4]، وغالباً ما يزدحم الطلبة على مثل هذه المدارس لغني مخصصاتها [5]. كما حرص واقفو المدارس في العهد الزنكي على توفير كل احتياجات الطلبة الدارسين فيها وبالأخص المسكن الملائم لهم كي يجد الطلبة الغرباء، والفقراء المناخ المناسب لتلقي العلم، فكان من مكملات المدارس إنشاء مرافق تُلحق بها تخصّص لسكني الطلبة الغرباء والفقراء، وقد حدثنا الرحالة الأندلسي ابن جُبير عما شاهده في دمشق من التسهيلات المغرية لطلاب العلم، ومنها هذه المرافق فقال: ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولاسيما لحفاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب.. وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد: فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في

---

(1) الحياة العلمية ص ٢٠١.
(2) المصدر نفسه ص ٢٠٢.
(3) المصدر نفسه ص ٢٠٢.
(4) (5) المصدر نفسه ص ٢٠٤.

طلب العلم، فيجد الأمور المعُينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمّها (١).

وقد حرص المربون في العهد الزنكي وبعده أن يُسْدوا الوصايا والتوجيهات التربوية للطلبة أثناء تلقيهم العلم وكان من أهم تلك الوصايا والتوجيهات ما يأتي:

- أن يخلص الطالب نيته في طلب العلم وذلك بأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى والعمل بما يعمل وأن يحذر أن يكون هدفه الأصلي من علمه طلب الرئاسة والمال والجاه (٢).

- أن يحرص الطالب على وقته بأن يبادر باغتنام فرصة الشباب لاكتساب العلم، وأن يعلم بأن كل ساعة تمضي من عمره لابد لها، ولا عوض، لذلك يجب على طالب العلم أن يقلل من الانشغال عن الدراسة قدر الإمكان (٣).

- كما ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويثبت على أستاذ وعلى كتاب، حى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإن ذلك كله يفرق الأمور، ويشغل القلب، ويُضيع الأوقات ويؤذي المعلم(٤).

- وعلى الطالب أن يلتزم بالورع في جميع شؤونه، وأن يتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه.. وذلك ليستنير قلبه ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به (٥).

وفيما يتصل بالعلاقة بين الطالب وأستاذه، فإن هناك جملة آداب كفلت للمدرس حق الاحترام والطاعة من طلابه إذ كان على الطالب أن يُوفيه تلك الحقوق كاملة من غير نقص ويمكن اختصارها في الأمور الآتية:

- من آداب الطالب مع أستاذه إذا دخل عليه أن يكون كامل الهيئة متطهر البدن والثياب، يستأذنه في الدخول وكذلك في الانصراف وأن يكون دخوله لقاعة الدرس قبل حضور المدرس (٦).

- أن يجلس بين يدي أستاذه بأدب مصغياً إليه بانتباه، وألا يتشاغل أثناء الدرس ولا يكثر حركة يديه، ولا رجليه ولا يعبث بشيء، أو يكثر الكلام بغير حاجة إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة (٧).

---

(١) الرحلة ص ٢٢٧ – ٢٢٨، الحياة العلمية ص ٢٠٥.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم، ابن جماعة ص ٦٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٧٠، الحياة العلمية ص ٢٠٥.
(٤) تعليم المتعليم ص ٤٩، الحياة العلمية ص ٢٠٦.
(٥) تعليم المتعلم ص ٧٥، الحياة العلمية ص ٢٠٦.
(٦) تذكرة السامع والمتكلم ص ٩٥.
(٧) الحياة العلمية ص ٢٠٧.

- كما يلزم على الطالب أن يحُسن مخاطبة شيخه، وألا يقاطعه، أو يخالفه، وأن يتلطف في سؤاله، وأن يحذر من تكرار السؤال، وألا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره[1].

وإذا ناول الشيخ شيئاً ناوله باليمين، وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه لفتحه والقراءة فيه[2].

- وينبغي للطالب أن يدعو لشيخه مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه بعد وفاته..ويسغفر له ويتصدق عنه[3] إلى غير ذلك من الواجبات التي كفلت للأستاذ حق الاحترام والتقدير من طلبته حتى تدوم العلاقة الحسنة بين ركني التعليم- المدرس والطالب- على الحب والمودة والتقدير من كلا الجانبين لتكتمل الفائدة[4].

٣- تعليم الإناث: بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الدين الإسلامي الصحيح لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث الشريف تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام، حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية، ونافسن فيه كبار الحفاظ والمحدثين، وكنّ مثالاً رائعاً للأمانة والعدالة، وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئة في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات، والمحدثات والفقيهات، والأديبات، والنحويات، إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى، كما دأب الكثير منهن على التنقل بين الأقاليم الإسلامية مع محارمهن طلباً للعلم على أكابر العلماء والمحدثين، وقد حصلن على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المدن[5]،والدليل على نشاط المرأة في هذا الميدان أن الذين ترجموا لابن عساكر المتوفي ٥٧١هـ (١١٧٦م) أجمعوا على أنه أخذ العلم عن بضع وثمانين امرأة[6]، وهذه الإشارة تدل على كثرة النساء المشتغلات بالعلم في ذلك العهد، بحيث أن عالماً واحدًا من علماء العصر سمع ما يزيد على ثمانين امرأة، هذا فضلاً عن كثير من عدد النساء اللاتي ترجم لهن ابن عساكر في تاريخه[7]، ويبدو من خلال بعض الإشارات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه الكبير أن المنزل كان المدرسة الأولى التي تتلقى فيها المرأة علومها، ويلاحظ على النساء اللاتي اشتهرن بالعلم في ذلك العهد أنهنّ نشأن في بيوت

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٠١ ، ١٠٢.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٠٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٠.
(٤) الحياة العلمية ص ٢٠٧.
(٥) الحياة العلمية ص ٢١٢.
(٦) معجم الأدباء (١٣/ ٧٦)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٥٦).
(٧) ترجم ابن عساكر في تاريخه لمائة وست وتسعين من النساء.

العلماء، وأنهن درسن على آبائهن أو أحد ذويهن من أولي العلم، أو أنهن كنّ يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوتهن لتعليم الطلاب حيث كنّ يسمعن إلى ما كان يُلقى في منازلهن من دروس، وهو ما أطلق عليه «التعليم داخل منازل العلماء» [1]، فابن عساكر عندما يترجم لأم أولاده، وابنة خالته – عائشة بنت علي بن الخضر بن عبد الله السّلِميّة المتوفاة سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م يقول عنها: أسمعتها الحديث من فاطمة بنت علي بن الحسين ابن سهل بن بشر بن أحمد الأسفراييني المدعوة سِت العجم، والمعروفة بالعالمة الصغيرة يقول ابن عساكر: سمعت أباها أبا الفرج [2].

كما أن أبواب المساجد كانت مفتوحة لمن أراد أن يتلقى تعليمه من النساء، حيث كن يترددن لحضور الحِلق التي كانت تعقد فيها في أماكن مخصصة لهنَّ ومعزولة عن أماكن الرجال لا يكون هناك سبيل للاختلاط [3]، ولم يكن للمرأة الحق في التعليم فقط بل كان لها أيضاً الحق في نشر التعليم وقد شاركت المرأة في ذلك وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس التخصصية بالشكل الذي نراه اليوم، فقد أشار ابن عساكر، لمثل هذه المشاركة في ترجمته لفاطمة بنت سهل بن بشر المدعوة سِت العجم من أنها: كانت تعظ النساء في المساجد [4]. وممن اشتهر من النساء بالتدريس في هذا العهد: العالمة فاطمة الفقيهة [5]، المعاصرة للملك العادل نور الدين محمود، فقد تصيدرت للتدريس في حلب وألفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث، كما استشارها الملك نور الدين في بعض أموره، واستفتاها في بعض المسائل الفقهية وكان دائماً يبذل لها ويعينها على مواصلة نشاطها العلمي [6]، وما حدث بين الملك نور الدين والعالمة فاطمة الفقيهة يؤكد حرص المرأة المسلمة في ذلك العهد على الالتزام التام بالحجاب الإسلامي حيث إن المحادثات بينهما كانت تتم بواسطة امرأة تُندب لهذا الأمر، وفي هذا الصدد يورد القُرشي قصة مفادها: أن علاء الدين الكاساني زوج العالمة فاطمة الفقيهة عزم الرحيل من حلب إلى بلاده بإيعاز من زوجته فاطمة، فاستدعى الملك نور الدين الإمام علاء الدين الكاساني، وسأله أن يقيم في حلب، فعرفه علاء الدين دواعي سفره وأنه لا يمكن أن يخالف زوجته ابنة شيخه، فأرسل الملك إلى زوجته فاطمة خادماً يخاطبها عن الملك في ذلك، فلم تأذن للخادم واحتجبت منه، وأرسلت إلى زوجها من يقول له: بعد عهدك بالفقه إلى هذا الحد؟ أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إليّ هذا الخادم، وأي

(١) الحياة العلمية ص ٢١٤.
(٢) تاريخ دمشق نقلا عن الحياة العلمية ص ٢١٤.
(٣) الحياة العلمية ص ٢١٥.
(٤) تاريخ ابن عساكر تراجم النساء ص ٢٨٨، الحياة العلمية ص ٢١٥.
(٥) الحياة العلمية ص ٢١٥.
(٦) المصدر نفسه ص ٢١٦.

فرق بينه وبين الرجال في عدم النظر، فعاد الخادم، وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك فخاطبتها وأجابته إلى ذلك وأقامت بحلب إلى أن توفيت، وتوفي زوجها الكاساني بعدها سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م ودفن عندها بحلب[1] وقد تحدث الدكتور محمد بن عزوز عن جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف بنوع من التفصيل.

٤- **أساليب التقويم:** لم يُعرف في العهد الزنكي ما يشير إلى أنه يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة – كالامتحانات التي تُعقد في عصرنا هذا – ولكن الأساتذة كانوا يمنحون طلبتهم الأكفاء شهادات أو إجازات ينصون فيها على أن الطالب قد أتم دراسة منهج معين، إشراف الشيخ الفلاني دون أن يؤدي الطالب امتحاناً، والغرض من الإجازة الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده، وانكبابه على العلم، وتفرغه للدراسة والبحث، وكانت الإجازات العلمية شهادات شخصية يمنحها الشيوخ لمن يرون فيه الكفاية ولا علاقة لها بمنظمة تعليمية معينة – كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر – وإذا كانت الإجازة إقرارًا بأن الطالب قد أتم دراسة كتب معينة، أو إقرارًا له بصلاحيته للتدريس، أو الفتوى بناء على مجهود علمي قام به فهي بذلك تعد أحد أساليب التقويم، كذلك إذا كانت ألقاب العلماء تعني المكانة العلمية التي بلغها العالم أو المدرس بالنسبة لعلماء عصره فهي أيضاً تعد من أساليب التقويم وقد انحصرت أساليب التقويم في العهد الزنكي في هذين المعيارين، الإجازات العلمية، والألقاب العلمية، كالإمام والحافظ والشيخ والفقيه والمحدث، والمقرئ[2].

ثالثاً: ميادين العلوم في العهد الزنكي:

شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها وإن كانت الصيغة العامة لمدارس الزنكيين والدراسات التي قامت بها، هي الاهتمام بدراسة مذهب أو أكثر من المذاهب السُّنِّية، لكون هذا جزءاً من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه المدارس وتلك الدور التي ركزت اهتمامها على نشر المذهب السني ومقاومة المذهب الشيعي الذي كان منتشراً في بعض المناطق في مدة سابقة على حكم الزنكيين للمنطقة، وبخاصة في بلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة إبان فترة خضوعها للدولة الفاطمية الشيعية [3] في مصر. ولكن هذا لا يعني بكل الأحوال اقتصار التعليم في ذلك العهد على تدريس الفقه أو غيره من فروع العلوم الشرعية

(١) الجواهر المضيّة (٤/ ١٢٣ ، ١٢٤)، الحياة العلمية ص ٢١٦.
(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٢٢٠ إلى ٣٣١.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٧.

وما يتصل بها من العلوم اللغوية والأدبية، وإنما كانت هناك مدارس علمية تُدرّس فيها مختلف التخصصات العلمية إلى جانب ذلك التخصص الموجه من الدولة، الذي يتوافق مع مصالح الأمة وعقيدتها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك، إضافة إلى تدريس الطب في كثير من البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر[1]، واتساع أفق التفكير الإسلامي في هذا الأمر وتنوع الدراسات والبحوث التي قدمت فيه نتيجة واضحة للنشاط العلمي الذي شهدته المدن الزنكية خلال ذلك العهد وإليك أهم تلك العلوم:

١- العلوم الشرعيّة: كانت الغلبة في ميادين العلوم في العهد الزنكي للعلوم الشرعيّة من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصوله ثم علوم اللغة العربية وآدابها، وهذا الأمر يتفق مع ترتيب العلماء للعلوم حسب أهميتها، فقد رتبوها إلى علوم شرعية وعلوم أخرى تخدمها وتوضحها، وفي هذا المجال ذهب الإمام الماوردي المتوفى ٤٠٥هـ/١٠٥٨م إلى أن أفضل العلوم هي علوم الدين إذ قال: إنه إن لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولها، وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون، إذ لا يصلح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط أجزائها[2]، وهذا رأى ابن جماعة أيضاً عندما قال: إذا تعددت الدروس قُدّم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن، ثم الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذاهب ثم الخلاف، أو النحو أو الجدل [3]، وتشتمل العلوم الشرعية على فروع عديدة من أهمها:

أ- علم القرآن: وقد نشط علم القراءات في العهد الزنكي وكان من العلوم التي تُدرّس في دور التعليم المختلفة، كما ظهر عديد من علماء القراءات الذين كانت لهم مصنفات مهمة في القراءات في العهد الزنكي:

- عبد العزيز بن علي بن محمد بن سلمة أبو حميد وأبو الأصبغ السماني الإشبيلي

(١) الحياة العلمية ص ٢٣٧.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٤٤.
(٣) تذكرة السامع والمتكلم ص ٣٥، ٣٦.

المعروف بأبي الصحّان المتوفي بحلب ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م وهو أستاذ كبير وإمام محقق بارع مجود ثقة ولد سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م تنقل بين البلاد طلباً للعلم، ودخل الشام ومات بحلب بعد الستين وخمسين [(١)] مئة وكانت له مصنفات مهمّة في القراءات منها كتاب «الوقف والابتداء وكتاب: مرشد القاري إلى تحقيق معالم المقاري الذي قال عنه ابن الجزري: لا يعرف قدره إلا من وقف عليه» [(٢)].

– كما برز من مُقرئي العهد الزنكي: أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمّام بن محمد الأزدي المتوفي بالموصل سنة ٥٦٧هـ [(٣)]، ١١٧٢م من أهل قرطبة، سكن دمشق والموصل، أحد أئمة اللغة والقرآن وله يد قوية في النحو والقراءة بروايات مصر والعراق تنقل بين البلاد يطلب العلم حتى وصل الموصل، وأقام بها إلى أن مات، وأقرأ الناس القرآن الكريم بالقراءات، وانتفع به خلق عظيم، قال عنه ياقوت: شيخ فاضل عارف بالنحو ووجوه القراءات [(٤)]. وقال الذهبي: وبرع في العربية والقراءات وتصدر فيهما مدة [(٥)].

ب- علم التفسير: كانت حركة التفسير نشطة في العهد الزنكي حيث كان التفسير مادة أساسية في بعض دور التعليم في هذا العهد، وبرز فيه علماء أجلاء تركوا أثراً زاخراً في هذا العلم كان من أبرزهم:

– الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م وذكر له ياقوت من التصانيف في التفسير «كتاب التفسير الكبير» «وينبوع الحياة» [(٦)].

– ومن المفسرين المبرزين علي بن إبراهيم الغزنويّ المتوفى في حلب سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) وكان قد تلقى تعليمه في بغداد على إمام التفسير في عصره محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٢م صاحب الكشاف في التفسير، فلما عاد إلى حلب تولى التدريس فيها وألف فيها مصنفات عديدة في التفسير والفقه واللغة والأصول، وكان أشهر ما ألفه في التفسير كتاب «تقشير التفسير» [(٧)] وقد فرغ من تصنيفه في حلب سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م [(٨)].

---

(١) الحياة العلمية ص ٢٤٠.
(٢) غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣٩٥).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٩٥).
(٤) معجم البلدان (٢٠/ ١٤،١٥).
(٥) المصدر نفسه (٢٠/ ١٤).
(٦) العبر (٣/ ٥٣).
(٧) كشف الظنون (١/ ٤٦٦)، الحياة العلمية ص ٢٤٥.
(٨) بغية الوعاة (٢/ ١٤٠)، الحياة العلمية ص ٢٤٥.

ج- **الحديث:** ازدهر علم الحديث في العهد الزنكي حتى إنه يمكن أن يعد هذا العهد من العصور الذهبية لدراسات الحديث والتأليف، ففيه أنشئت أول دار للحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق، ولعل من أبرز عوامل الاهتمام بعلم الحديث ودراسته والتأليف فيه في هذا العهد اهتمام الملك العادل نور الدين محمود نفسه بهذا العلم، فقد أثر عنه أنه كان مهتماً بدراسة الحديث الشريف وفهمه [(١)]، كما كان له إجازات عديدة في هذا العلم من عدة شيوخ[(٢)]، وبلغ من حرصه على هذا العلم أن صنّف كتاباً في فضائل الجهاد وأحاديثه وهو بدمشق[(٣)]، كما كان الاهتمام بعلم الحديث لوناً من ألوان التوجيه الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة، فقد شارك الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م في هذا المجال بجمع أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد وأهداه إلى الملك نور الدين محمود[(٤)]، كما صنف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م مصنفاً جمع فيه أحاديث الجهاد وفضائله في كتاب أسماه «البحر النوري»[(٥)] وقد زاد الاهتمام بهذا العلم، حيث ظهر في العهد الزنكي عدد كبير من رجال الحديث الذين أفنوا أعمارهم في جمعه وتصنيفه وضبطه وتنقيحه، ومنهم علماء جمعوا تراجم مُستفيضة لرجال الحديث في جميع العصور، وكان لهؤلاء العلماء فضل لا ينكر في الكتابة والتصنيف في هذا الفرع من العلوم الشرعية [(٦)] ومن أبرز علماء الحديث في العهد الزنكي:

- الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر الدمشقي، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله مستقبلاً.

- ومن برز في علم الحديث في هذا العهد: الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن الأثير الجزري المتوفى ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م وقد اشتهر مجد الدين بن الأثير في علوم عديدة كان منها علم الحديث، حيث صنف فيه مصنفات هامة كان من أبرزها جامع الأصول في أحاديث الرسول [(٧)]. ذكر ياقوت أنه جمع فيه بين البخاري ومسلم والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي والترمذي، عمله على حروف المعجم، وشرح غريب الأحاديث ومعانيها وأحكامها، ووصف رجالها ونبّه على جميع ما يُحتاج إليها منها، ثم قال: أقطع قطعاً أنه لم

(١) التاريخ الباهر ص ١٦٥، الحياة العلمية ص ٢٤٨. (٢) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٨.
(٣) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٨.
(٤) معجم البلدان (١٣/ ٧٨)، الحياة العلمية ص ٢٤٩.
(٥) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٩. (٦) الحياة العلمية ص ٢٤٩.
(٧) معجم الأدباء (١٧/ ٧٦)، الحياة العلمية ص ٢٥٢.

يُصنّف مثله قط ولا يصنف [1]. وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م في اثنى عشر جزءاً بعناية عبد المجيد سَليم، وحامد الفقي، وهي طبعة ناقصة، ثم أعيد نشره كاملاً بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط وطبع في دمشق ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م في أحد عشر جزءاً وهي طبعة جديدة مشتملة على مقدمة وفهارس [2]، وقد قام صاحب كتاب السنة النبوية الشريفة في القرن السادس الهجري بدراسة موسعة عن الحديث في هذا العهد.

د- **الفقه وأصوله:** عمل العلماء في العهد الزنكي على جمع آثار من سبقهم كلّ بحسب مذهبه الذي ينتمي إليه من المذاهب السنية الأربعة الحنفي، والشافعي، والحنبلي، والمالكي ورجحوا بين الروايات وخرجُوا على الأحكام، وبنوا فتاويهم على شتى المسائل والفروع من أصول أئمتهم وقواعدهم وفتاويهم[3]، وكانت الدولة الزنكية تدعم المذاهب السنية الأربعة واستطاعت تلك المذاهب السنية أن تضيق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي في الدولة الزنكية، وأصبح الفكر السني هو المذهب السائد في بلاد الشام.

وقد برز خلال العهد الزنكي علماء أجلاء في الفقه وأصوله كان لبعضهم أبحاث رائعة ودراسات جليلة، ونظرات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله، ومن أشهر أولئك العلماء [4]:

- **في المذهب الشافعي:** وممن برز في هذا المذهب، الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي عبدالله بن أبي المظفر القاسم الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م[5] وقد وصف بأنه كان: فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً فكِه المجالسة، يتكلم في الخلاف والأصول [6]. هذا بالإضافة إلى شهرته في السياسة وأصول الحكم والكرم، كما كان كثير الصدقات والمعروف، وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق على أعمال الخير وطلب العلم، وقد اشتهرت مدرسته بالموصل بـ «الكمالية القضوية» وكان رأس المدرسين فيها، حيث خصصها لتدريس الفقه الشافعي [7].

- ومن علماء الشافعية البارزين في هذا العهد الإمام قطب الدين مسعود بن محمد

(١) معجم الأدباء (١٧/ ٧٦) الحياة العلمية ص ٢٥٢.
(٢) الحياة العلمية ص ٢٥٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٤.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٤، ٢٥٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٥.
(٦) وفيات الأعيان (٤/ ٢٤٢).
(٧) طبقات الشافعية (٦/ ١١٧ – ١٢١) الحياة العلمية ص ٢٥٦.

النيسابوري المتوفي سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م[1]، قال عنه السبكي: كان إماماً في المذهب الشافعي والخلاف والأصول والتفسير والوعظ، أديباً مناظراً [2]. أما أبرز جهوده في علم الفقه، فتمثل في مصنفه الكبير «كتاب الهادي» في الفقه، والذي قال عنه ابن خلكان: وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذى عليه الفتوى[3].

- وممن برز في علم الفقه الشافعي أيضاً: الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد، شارك في تدريس الفقه الشافعي في العديد من المدارس الزنكية، وصنّف كتباً كثيرة منها: «صفوة المذهب من نهاية المطلب» وهو في سبعة مجلدات وكتاب «الانتصار لمذهب الشافعي» في أربعة مجلدات وكتاب «المرشد» في مجلدين، وكتاب «الذريعة في معرفة الشريعة» في مجلد واحد وكتاب «مآخذ النظر» وكتاب «الإرشاد المُغرَب في نصرة المذهب » ولم يكمله وذهب فيما ذهب له بحلب [4].

- **المذهب الحنفي**: وممن برز في هذا المذهب: الشيخ عبد الغفار بن لقمان من محمد أبو المفاخر الكُردي الملقب تاج الدين المتوفى سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م [5]، إمام الحنفية في حلب، كان على غاية من الزهد والورع، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنكي، وخلَّف آثاراً جمة في الفقه وأصوله، ففي الفقه شرح الجامع الصغير في الفروع للإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة ١٨٧هـ / ٨٠٣م وكان يذكر لكل باب أصلاً ثم يخرج عليه المسائل [6]، وجمع المسائل التي يتحير في حلها العلماء في كتاب سمّاه (حيرة الفقهاء) [7]، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبد الرحمن ابن محمد الكرماني الحنفي المتوفى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م الموسوم بالتجريد في كتاب سماه (المفيد والمزيد) [8].

- ومن فقهاء الحنفية البارزين في العهد الزنكي الإمام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي المُلقب بُرهان الإسلام المتوفى بحلب عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م [9]، قدم حلب في عصر نور الدين محمود ودرَّس بالمدرسة النورية والحلاوية بعد الإمام علاء الدين الغزنوي المتوفى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، وقد اشتهر الإمام رضي الدين بمصنفه الكبير «المحيط» وهو في

(١) الحياة العلمية ص ٢٥٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٦.
(٣) وفيات الأعيان (٥/ ١٩٦).
(٤) الحياة العلمية ص ٢٥٧.
(٥) الجواهر المضيئة (٢/ ٤٤٣، ٤٤٤)، الحياة العلمية ص ٢٥٨.
(٦) كشف الظنون (١/ ٥٦١)، الحياة العلمية ص ٢٥٨.
(٧) الحياة العلمية ص ٢٥٨.
(٨) طبقات الفقهاء، طاش كبرى زادة ص ١٠١، الحياة العلمية ص ٢٥٨.
(٩) الحياة العلمية ص ٢٥٩.

أربعة مصنفات «المحيط الكبير» وهو نحو من أربعين مجلداً، والمحيط الثاني، عشرة مجلدات، والمحيط الثالث، أربعة مجلدات، والرابع مجلدان [1].

وممن اشتهر بالفقه الحنفي الإمام أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء المتوفى بحلب سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، قدِم إلى نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاّوية بعد أن عُزل منها الإمام رضي الدين السّرخسي المتوفى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، وقد استمر علاء الدين الكاساني مدرساً في الحلاوية حتى وفاته [2]، تفقّه علاء الدين على أبي منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي صاحب « تحفة الفقهاء» وزوّجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماه البدائع، فقال الفقهاء في عصره «شرح تُحفته وزوّجه ابنته»[3]. واشتهر علاء الدين الكاساني وزوجته فاطمة الفقيهة في مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام وكانت تحفظ مصنّف والدها «التحفة» [4]، وكان كتاب «البدائع» أشهر مصنفات الإمام علاء الدين الكاساني وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسُمي «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»[5].

- **المذهب الحنبلي:** وممن برز في المذهب في العهد الزنكي الشيخ الزاهد أبو الحسن علي ابن عمر أحمد بن عمّار بن أحمد بن علي بن عبدوس الحّراني الفقيه الحنبلي ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة هجرية (١١١٦ – ١١١٧م) وسمع ببغداد، وتفقه وبرع في الفقه، والتفسير والوعظ، ثم قدم حرانِ وأمّ الناس بجامعها، له مصنفات حسنة في التفسير والفقه الحنبلي أبرزها «المذهب في المذهب» وكانت وفاته في آخر نهار يوم عرفه سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م بحران[6].

- ومنهم: أبو العلاء نجم الدين بن عبد الوهاب بن شرف الإسلام عبدالواحد بن محمد بن علي الشيرازي الأصل الدمشقي، شيخ الحنابلة بالشام في وقته، والمتوفى عام ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م ولد سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، سمع وأفتى ودرّس وهو ابن عشرين سنة إلى أن مات[7]، وغيرهم.

---

(١) الجواهر المضيئة (٤/ ٢٥ – ٢٨).
(٢) الحياة العلمية ص ٢٦٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٠.
(٤) كشف الظنون (١/ ٣٧١).
(٥) شذرات الذهب (٤/ ١٨٣ – ١٨٤).
(٦) الحياة العلمية ص ٢٦١.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٦٣.

لقد ظهر في هذا العهد كثير من علماء الفقه والأصول، وبخاصة على المذهب الشافعي، والحنفي والحنبلي [١]. ولا عجب في ذلك – الاهتمام الكبير بالفقه والفقهاء – فقد كان الفقه مصدر التشريع، وعليه يعتمد الحكّام فيما يصدرونه من أحكام، وكان الملك قبل أن يصدر حكماً مهماً يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة الفقهاء، بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلساً مع الفقهاء للتشاور فيما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف والمصالح المتعلقة بالمساجد، والمدارس و... ومصارف الأوقاف وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى، ولم يتخذ نور الدين حكماً إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء وحظي بموافقتهم، وناقشهم فيما ينوي القيام به، وكُتِب في ذلك محضر بصورة ما جرى في ذلك المجلس، ووقّع عليه جميع الحاضرين [٢].

وقد اهتم العلماء بفروع أخرى من العلوم، وركزوا فيه دراساتهم وكان أشهر هذه الفروع «الفرائض» الذي يُعد باباً من أبواب الفقه نال اهتماماً خاصاً من العلماء في هذا العهد لأهميته وكثرة الاحتياج إليه، حتى أصبح علماً قائماً بذاته، وموضوعه: البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقيها على فروض مقدرة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ، وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه [٣]، وممن برز في علم الفرائض في العهد الزنكي: الإمام الحافظ حجة الله أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصقلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م وكان قد صنف تصانيف كثيرة في علوم عديدة كان منها أرجوزة في الفرائض [٤].

كما خصّ كثير من العلماء جهودهم في العهد الزنكي بعلمي الخلاف والجدل وصنّفوا فيها المؤلفات الحسنة [٥].

وقد جد العلماء في العهد الزنكي في دراسة وتحصيل علوم العربية وآدابها فلا يكاد يوجد عالم من المشتغلين بالعلوم الشرعية إلا وقد عني بدراسة هذا العلوم باعتبارها أساساً من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الشرعية، وقد حظيت العلوم العربية وآدابها بعناية فائقة من الزنكيين، حيث حرص الحكام وأمراء هذه الأسرة على اختيار العلماء الأفذاذ في هذا المجال لتولي مناصب الكتابة والإنشاء، وكانوا يستقدمون لهذه الوظائف من ذاع صيته وشأنه في هذه العلوم. واجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللغويين

---

(١) الحياة العلمية ص ٢٦٣.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٢٦٣.
(٣) الحياة العلمية ص ٢٦٤.
(٤) معجم الأدباء (١٩/ ٤٩)، الحياة العلمية ص ٢٦٤.
(٥) الحياة العلمية ص ٢٦٥.

والنحاة والأدباء، وبرز منهم علماء أجلاء خلفوا تراثاً مهماً في علوم العربية وآدابها على اختلاف فروعها والتي من أهمها: اللغة والنحو والصرف والبلاغة والنقد الأدبي، والأدب والعروض والقافية، ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب الحياة العلمية في العهد الزنكي للدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزني[1].

والرسالة التي نريد أن تصل للقاري أن النهوض عندما يحدث للأمة يكون في الغالب شاملاً وليس عسكرياً أو سياسياً كما يظن البعض ممن يطلقون الأحكام بدون دراسة واعية، أو بحث عميق، ثم يعمّمون هذه الأحكام الناقصة في جلساتهم ومحاضراتهم ومقالاتهم، وبالتالي يسهمون في تسويق ثقافة مغلوطة عن تاريخ أمتنا ظالمة لأجدادنا البواسل الذين استوعبوا فقه النهوض ومارسوه في دنياهم.

٢- **العلوم التاريخية والجغرافية:** ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي، وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية، وحيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، كما اشتهر عدد من علماء الجغرافيا والرحالة الذين أثروا هذا الجانب بتآليف جديدة مهمة وإذا كان التأليف في فضائل الجهاد والاهتمام بالدراسات الشرعية والأدبية المتعلقة به يجد تفسيره في الوجود الصليبي في المنطقة؛ فإن الاهتمام بالدراسات التاريخية والجغرافية يرجع للسبب نفسه، وقد تمثل هذا الأثر في ظهور دراسات متخصصة لها طابع الجهاد الإسلامي ضد العدوان الصليبي في المنطقة حيث وجد المتخصصون – بهذا الفرع من العلوم – في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو في الكتابة في فضائل المدن، وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، كما ظهر ذلك الأثر في كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة ووصفوا الأوضاع العامة التي كان يعيشها المسلمون إلى جانب الصليبيين فيها، كما اهتموا بتحديد البلدان وخططها، وقد أصبحت المنطقة الزنكية بسبب الوجود الصليبي فيها مركز الاهتمام السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، حيث كانت تلك الدولة تمثل مركز اليقظة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي في المنطقة، إضافة إلى استقطاب قادة هذه الدولة العديد من العلماء الأعلام من كافة المناطق الإسلامية مما كان له أثر في تطور العلوم ونشاطها [2]، وكانت أبرز الجهود التي بُذلت في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية في هذا العهد تتمثل فيمَا يَأتي:

---

(١) الحياة العلمية ص ٢٦٨ = ٣١٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٧.

- **التراجم والطبقات:** يُعد هذا النوع من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذا العهد، فقد عنى به المؤرخون عناية فائقة فما أن يظهر أحد من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب التراجم بالكتابة عن تفصيلات حياته ودراسته وتنقلاته وشيوخه وتلامذته وإسهاماته العلمية في مجال التأليف والتدريس، وتعد هذه المؤلفات من المصادر المهمة للتاريخ الإسلامي، إذ أنها تزود الباحث في التاريخ بمادة تاريخية خصبة [1].ويعد الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر من أبرز العلماء الذين اهتموا بالكتابة على هذا النهج في هذا العهد، إذ كان اهتمامه منصباً على الحديث، وتراجم العلماء وبخاصة رجال الحديث طوال حياته، ومع أن كتابه «تاريخ دمشق» قد شمل التاريخ العلمي والثقافي لمدينة دمشق، فإنه يُعد واحداً من أشهر كتب التراجم بعد كتاب «تاريخ بغداد» للحافظ أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفي ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م وكان ابن عساكر قد سار على نهجه [2].

- ومن برز في الكتابة التاريخية على هذا النهج في العهد الزنكي أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبو الفرج المعروف بالعماد الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م الذي صنف الموسوعة المشهورة عن أدباء وشعراء العصر أي كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر» والذي أرّخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية [3].

- وممن كتب في التراجم: المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن بن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م [4]، فقد كان ابن الأثير مؤلفاً نشيطاً بارعاً، استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين عن طريق مصنفاته التي من أشهرها: كتاب «الكامل في التاريخ»، وكتاب «اللباب في تهذيب الأنساب»، وكتاب «التاريخ الباهر في الدولة الزنكية» وكتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» [5]، الذي أورد فيه ما يربو على سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة، واستدرك على مافاته ممن تقدمه من مؤلفي التراجم وبيّن أوهامهم [6].

- **التاريخ المحلي (الخاص):** تخصص فريق آخر من المؤرخين بالتأليف المحلي والذي يُعد تعبيراً صادقاً عن ارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه. وقد لقي هذا الاتجاه إقبالاً كبيراً

(١) الحياة العلمية ص ٣١٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٢٢.
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٥٣ – ٣٥٦).
(٥) وفيات الأعيان (٣/ ٣٤٩).
(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٢٤.

من المؤرخين في العهد الزنكي[1]، وقد ظهر في هذا العهد عدد من المؤلفات المهمة في هذا الإطار ومن أبرز ممن كتب بهذا المنهج خلال العهد الزنكي:

- **ابن القلانسي:** أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المتوفى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م [2] العميد الأديب الشاعر المؤرخ، كان من أعيان دمشق، ومن أفاضلها المبرزين، وكانت له عناية بالحديث، وكان أديباً له خط حسن ونظم ونثر، ولي رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق مرتين، عُمِّر بضعاً وثمانين سنة، وتوفي سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وقد استفاد ابن القلانسي من عمله في ديوان الإنشاء بدمشق، فاطّلع على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها مما أكسب تاريخه أهمية خاصة بالنسبة لأحداث عصره، ولابن القلانسي: كتاب «تاريخ دمشق» بدأ به سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م وانتهى إلى سنة وفاته ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م وهو أول تاريخ لدمشق صُنف حسب الحوادث والحوليات، ثم هو المصدر الأساسي لتاريخ الشام أيام الفاطميين والسلاجقة فيه أقدم سيرة لدمشق وأهلها من النواحي العمرانية والاجتماعية والعقدية والسياسية وذلك خلال قرنين حاسمين، ولم يقتصر هذا الكتاب على تاريخ دمشق بل عالج فيه مؤلفه كثيراً من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام، والعراق والجزيرة، ومصر، ولكنها بصورة مقتضبة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام وما كان يدور بينها وبين القوى الإسلامية في المنطقة من نزاع مستمر [3].

- ومن المؤرخين في التاريخ المحلي، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م وقد صنف كتاب «تاريخ الموصل» وهو الموسوم «بالتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية» وهو تاريخ للدولة الزنكية بالموصل عرض فيه ابن الأثير بالإضافة إلى الأخبار السياسية تفاصيل منوعة اقتصادية واجتماعية وثقافية عن الموصل من مطلع عماد الدين زنكي سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م [4].

- **التاريخ العالمي (العام):** وهو الكتابة التاريخية التي يتناول فيها المؤرخ الأحداث منذ بدء الخليقة حتى عصره دون الارتباط بإقليم واحد، وأهم كتاب في ذلك العصر «الكامل في التاريخ» لعز الدين علي بن محمد الجزري المتوفى ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م، فلقد نال ابن الأثير شهرته بين مؤرخي القرن السادس الهجري بسبب تأليفه لهذا الكتاب، وكان قد ألفه على

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٥.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٨٨ – ٣٨٩)، الحياة العلمية ص ٣٢٥.
(٣) الحياة العلمية ص ٣٢٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٢٨.

طريقة الحوليات، ابتدأ فيه بأول الزمان حتى وصل به إلى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م وقد تحرى ابن الأثير الحقيقة والدّقة فيما كتب، وحاول الابتعاد عن الإسهاب وتكرير الروايات، ثم إنه راعى التوازن في كتابة تاريخه بين أقاليم العالم الإسلامي، فلم تصرفه الأحداث التي ألّمت بالمشرق عما كان يجري بالمغرب من تطورات[1]، وقد تابع ابن الأثير في كتابه الكامل المعلومات التاريخية التي أوردها الإمام محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه متابعة دقيقة إلى حد بعيد فلخّصها، ثم أضاف إليها الكثير من المعلومات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالفترة التالية لتوقف الطبري عن الكتابة. وبذلك احتل ابن الأثير مكانة مرموقة بين المؤرخين المسلمين، واتخذ كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام غيره [2].

- **التاريخ المعاصر والمذكرات:** وممن عاصر الأحداث في عهد الدولة الزنكية وكتب عنها بأسلوب المذكرات أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد الشيزري المتوفي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٠م [3]، وله كتاب «الاعتبار» وهذا الكتاب قل أن يوجد ما يشابهه من كتب التاريخ في ذلك العهد إذ يضعنا أسامة بن منقذ في هذا الكتاب أمام مذكرات في الأدب التاريخي تتضمن خلاصة تجارب أسامة، وما صادفه أسامة في حياته من حوادث، وتعكس صور الحياة في العصر من حروب وفروسية، وملامح من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي [4].

- وممن كتب بأسلوب المذكرات العماد الأصفهاني الكاتب المؤرخ المتوفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م، ومن أهم ما كتب في هذا المجال، البرق الشامي؛ وهو أشبه بالمذكرات الشخصية لأنه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وتاريخ دولتهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام [5].

- **الجغرافيا والرحلات:** تعد الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية، وقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين مثل ابن حوقل، والمسعودي، والمقدسي، والإدريسي وابن جُبير وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة، حيث فاق المسلمون في ميدان الرّحلة والكشف الجغرافي غيرهم من الشعوب، وساعد على الرّحلات الإسلامية أمور عديدة منها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة في سائر أقطار العالم الإسلامي، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في المشرق

(١) الحياة العلمية ص ٣٢٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٩.
(٣) (٤) (٥) المصدر نفسه ص ٣٣٠.

والمغرب أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله، أو القيام بمهمة كأن يكون الرّحالة سفيراً للخليفة أو السلطان[1]. وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم، وتسجيل أخبارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، كما كانوا يصفون المدن التي يمرون بها ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يمر بها[2]، فكانت تلك الرحلات وما تقدمه من معلومات مبنية على المشاهدة والإطلاع من أبرز عوامل تقدم وتطور المعارف الجغرافية عند المسلمين [3]. ولقد كان لعدد من علماء العهد الزنكي أثر في الدراسات الجغرافية، وبخاصة ما له صلة بالرحلات الجغرافية من أشهرهم: أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي المتوفى سنة ٦١١هـ/ ١٢١٥م[4] الذي قضى معظم حياته بالتجوال والرحلات حتى لقب بالسائح، وأبو الحسن الهروي أصله من هراة ولكنه ولد بالموصل، ومنها انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، واليمن والحجاز، ومصر، وبلاد الروم وبعض جزر البحر المتوسط مثل صقليّة، وقد تنقل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة وتكلّم عن مشاهدها ومساجدها وخالط أهلها، والتقى بالعلماء وأخذ عنهم، ولم يكن في تجواله مقتصراً على طلب العلم فقط، بل إنه وثّق علاقاته مع عدد من الجغرافيين المعروفين في عصره [5]، قال عنه ابن خلكان: طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك براً ولا بحراً، ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها [6]، وقد ألف الهروي عن رحلاته هذه كتابه: «الإشارات إلى معرفة الزيارات» [7].

٣- علوم الرياضيات والفلك: اهتم المسلمون في ذلك العهد بشتى فنون العلوم المختلفة، ومن ذلك علوم الرياضيات والفلك حيث نالت تلك التخصصات قدراً كبيراً من اهتماماتهم، فبرعوا في علم الحساب وصنّفوا فيه المصنفات، بحثوا فيها الأعداد وأنواعها

(١) التاريخ والمؤرخون العرب ص ٢١١، الحياة العلمية ص ٣٣١.
(٢) التاريخ والمؤرخون العرب ص ٢١٣ – ٢١٤.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٣٢.
(٤) وفيات الأعيان (٣/ ٣٤٦ – ٣٤٨)، الحياة العلمية ص ٣٣٢.
(٥) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم ص ٣٣٣.
(٦) وفيات الأعيان (٣/ ٣٤٦)، الحياة العلمية ص ٣٣٣.
(٧) الحياة العلمية ص ٣٣٣.

وخواصها وتوصلوا إلى إضافات ونتائج أثارت إعجاب علماء الغرب ودهشتهم فاعترفوا بفضلهم وأسبقيتهم في هذا المجال، وترجموا كثيراً من كتب المسلمين مما كان له أثر كبير في تقدم هذا العلم، كما اشتغل عدد من العلماء بعلم الجبر وأتوا فيه بالعجب العجاب، حتى أن (كاجوري) قال: إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر [1]. وقد نبغ في العهد الزنكي عدد من علماء الرياضيات والفلك مما كان لدراساتهم ومصنفاتهم أثر واضح في إثراء الدراسات الرياضية والفلكية وقد تمثلت أبرز الجهود في الآتي:

- **الرياضيات:** كانت العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة من العلوم التي كانت تدرس في بعض المدارس الزنكية، كما كانت هناك تنقلات ورحلات بين المناطق الزنكية لتحصيل هذه العلوم من العلماء البارعين في هذا المجال، ومما ساعد على تشجيع هذا الفرع من العلوم حاجة الفقهاء الماسة إلى علمي الحساب والجبر في تقسيم المواريث أو ما يسمى بعلم الفرائض، وكذلك الحاجة إلى هذه العلوم في معرفة المواقيت واتجاه البلدان لإقامة الصلاة، كما ظهرت الحاجة إليها في حسابات الدواوين، وفي بعض الأمور الإدارية الأخرى. ومن علماء العهد الزنكي البارزين في ميدان الرياضيات، كمال الدين أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م، ولما ذاع صيته في علم الرياضيات أخذت الرسائل تنهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له. يقول ابن خلكان: كنت بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكلت عليه مواضع في مسائل الحساب الجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتب جميعها في درج وسيّرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه [2]، ولكمال الدين بن منعة مصنفات جليلة في الرياضيات ذكر منها بروكلمان: شرح الأعمال الهندسية، وهو محفوظ في مكتبة أيا صوفيا بأسطنبول رقم ٢٧٥٣، وله رسالة في البرهان على المقدمة التي أجملها أرخميدس في كتابه تسبيع الدائرة وكيفية اتخاذ ذلك وهو محفوظ في مكتبة بودليانا برقم (٨/ ٩٨٧) [3].

- **الفلك:** يعرف قديماً بعلم الهيئة، وموضوع الأجرام السماوية من النجوم والكواكب وأحوالها وأبعادها وحركاتها وحساب الأيام والشهور والسنين والفصول على أساس تلك الحركات، وتحويل السنين من القمرية إلى الشمسية وبالعكس وأطوال البلاد وعروضها،

(١) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص ١٨١.
(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣١٥)، الحياة العلمية ص ٣٣٦.
(٣) تاريخ الأدب العربي (٤/ ٢٢٢ – ٢٢٣)، الحياة العلمية ص ٣٣٧.

والرياح والأمطار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر وما إلى ذلك من مباحث كثيرة منها نظرية وأخرى عملية، وبعض هذه المباحث تدخل الآن في علم الفضاء[1]. وكانت أبرز الجهود التي بذلت في العهد الزنكي قد تركزت في الموصل، وكان الشيخ كمال الدين موسى ابن يونس بن منعة في مقدمة العلماء الذين نشطوا في هذا الميدان، فقد قام بتدريس أصول هذا العلم لطلابه في المدارس التي درّس بها، وصنف في هذا العلم ووردت إليه – أيضاً – مسائل في مشكلات هذا العلم قام بتفسيرها، وحلّ رموزها، ونبّه على براهينها؛ بعضها من بغداد وأخرى وردت إليه من بعض ملوك أوروبا [2]، ومما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، أنه قد عرف أشياء كثيرة في قوانين تذبذب الرقاص [3]، ويذكر طوقان أن كمال الدين قد سبق العالم الإيطالي جاليليو المتوفى سنة ١٠٥٢هـ/ ١٦٢٤م في هذا المجال [4]. وقد كانت الموصل مركزاً له أهمية خاصة في علوم الرياضيات والفلك في العهد الزنكي [5].

٤- علوم الطب والصيدلة:

- **الطب:** علم الطب يبحث فيه عن بدن الإنسان، من جهة ما يصح ويعرض لحفظ الصحة، وإزالة المرض، وفائدته: بيّنة لا تخفى وكفى بهذا العلم شرفاً وفخراً قول الإمام الشافعي – رحمه الله –: العلم عِلمان: علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان [6]. وقد تقدم وارتفع شأن الطبّ في العهد الزنكي وتقدمت وسائل دراسته، ولعل من أهمها انتشار البيمارستانات في المدن الزنكية واهتمام الحكام والأمراء بإنشائها ووقف الكتب الطبية في ذلك العهد والتي كانت من نتائجها بروز عدد كبير من الأطباء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات الطبية التي كان لها مع ما سبقها من دراسات أثر كبير في إثراء الدراسات الطبية في العصور التي تلتها، استمراراً حتى العصر الحاضر، وممن برز في هذا الميدان: الطبيب أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م [7]، الذي اشتهر بالتدريس بالبيمارستان النوري بدمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود، وكان نور الدين قد أوكل إليه مهمة التطبيب في ذلك البيمارستان بعد إنشائه، وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة كيف كان ابن أبي الحكم يتفقد المرضى بنفسه، وطريقته في تدريس الطب في ذلك البيمارستان، ومناقشاته مع طلابه، ولكنه لم ينسب إليه أي كتاب ألّفه في الطب [8]،

(١) الحياة العلمية ص ٣٣٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٩.
(٣) الرقّاص : أو رقّاص الساعة، يسمى البندول.
(٤) تراث العرب العلمي ص ٣٩٨.
(٥) الحياة العلمية ص ٣٤١.
(٦) مفتاح السعادة (١/ ٣٠٣)، الحياة العلمية ص ٣٤٢.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٤٣.
(٨) المصدر نفسه ص ٣٤٣.

وممن اشتهر بالطب في هذا العهد أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي المغربي المتوفي سنة خمس أو ست وسبعين وخمس مئة (١١٧٩ – ١١٨٠م) [١]، وكان فاضلاً خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وله حسن نظر في الإطلاع على الأمراض ومداواتها، أقام بدمشق سنين كثيرة، وكانت له دكّان عطر بدمشق يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، وكان له عناية بالكتب الطبية والنظر فيها، وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها، وكانت له مع ذلك عناية بعلم الحديث وله شعر كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحول، وعُمِّر ابن البذوخ عمراً طويلاً، وضعف عن الحركة حتى إنه كان لا يأتي إلى دكانه إلا محمولاً، وعمي في آخر عمره حتى توفي [٢]، ولابن البذوخ من الكتب الطبية «شرح كتاب الفصول لأبقراط» وشرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط أيضاً، وله كتاب «ذخيرة الألباء» «والمفرد في التأليف عن الأشياء»، وله حواشي وضعها على كتاب «القانون لابن سينا»[٣].

- **الصيدلة:** ويقصد بها علم الأدوية وتركيباتها وهي متصلة بعلم الأعشاب «النبات» وبعلمي الحيوان والمعادن وبالكيمياء، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية، ثم هي تحتاج إلى معالجة وإلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء [٤]، ونظراً لعدم توافر المعرفة التامّة بطرق التحاليل الكيميائية في تلك العصور، فقد نظم المسلمون مهنة الصيدلة، فجعلوا على الصيادلة نقيباً يسمى رئيس العشّابين، وأخضعوا تلك المهنة لرقابة عريف الحسبة حتى يحولوا دون غش الدواء [٥]، وقد برع الأطباء المسلمون في تركيب الأدوية بنسب معينة، وبرز خلال العهد الزنكي عدد من المتخصصين في تركيب الأدوية «الصيدلة» كانوا في الأصل أطباء فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن الطبيب ابن البُذوخ المغربي المتوفى سنة ٥٧٥هـ أو ٥٧٦هـ ١١٧٩م –١١٨٠م [٦]، كان خبيراً بمعرفة المفردة والمركبة، وكانت له دكان عطر بدمشق يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه، وأنه كان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها وينتفع الناس بها[٧]، كما ذكر أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي المتوفى سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م في كتابه المختارات في الطب كثيراً من أنواع المأكولات

---

(١) الحياة العلمية ص ٣٤٣.
(٢) (٣) المصدر نفسه ص ٣٤٣.
(٤) تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٩٤، الحياة العلمية ص ٣٤٥.
(٥) نهاية الرتبة للشيرزي ص٤٢، الحياة العلمية ص ٣٤٥.
(٦) الحياة العلمية ص ٣٤٦.
(٧) عيون الأنباء ص ٦٢٨، الحياة العلمية ص ٣٤٦.

وأثرها على الصحة وأنواع العلاجات والأدوية وكيفية استخراجها [1].

لقد ركزت السلطة القائمة في العهد الزنكي على إحياء العلوم الشرعية والعناية بها بالدرجة الأولى لأسباب كثيرة من أبرزها الحرص على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكرية والسّرية -المهمة- والتي كانت تستهدف تشكيك المسلمين في العقيدة الإسلامية توطئة للسيطرة عليهم، وعلى رأس هؤلاء فرقة الباطنية، لذا تقلصت الدراسات الفلسفية ودراسة المنطق التي تخدم الفكر الشيعي الباطني، وتحقّق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد كما صاحب هذا النشاط في ميدان العلوم الشرعية نشاط آخر في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية، والتاريخية والجغرافيا، كما قُدمت دراسات علمية راقية في ميدان الرياضيات بفروعها المختلفة، وفي علم الفلك والميقات، إضافة إلى الاهتمام بالدراسات الطبية والصيدلة والتي كان مجالهما داخل البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وبرز من بين العلماء المشتغلين بتلك العلوم علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة والتي ظلت مرجعاً للبحوث العلمية حتى الوقت الحاضر [2].

رابعاً: ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين:

قال عنه الذهبي هو: الإمام العلاّمة الحافظ الكبير المجود، محدث الشام، ثقة الدين، أبو القاسم الدمشقي الشافعي صاحب تاريخ دمشق [3]، وهو علي ابن الشيخ أبي محمد الحسن ابن هبة الله بن عبد الله بن الحسين [4]، صنف الكثير – من الكتب – وكان فهماً حافظاً متقناً ذكياً بصيراً بهذا الشأن، لا يُحلّقُ شأوه ولا يشق غباره، ولا كان له نظير في زمانه [5]، كان مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم كل جمعة، ويختم في رمضان كل يوم، ويعتكف في المنارة الشرقية، وكان كثير النوافل والأذكار، ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة [6]، وقد لزم طريقة واحدة مدة أربعين سنة من لزوم الجماعة في الخمس في الصف الأول إلا من عذر، والاعتكاف في رمضان وعشر ذي الحجة وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، وقد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب في الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن عرضت عليه وقلّة التفاته إلى الأمراء، وأخذ نفسه بالأمر

(1) المختارات (٢/ ٢١٠ – ٣٣٦).
(2) الحياة العلمية ص ٣٤٦.
(3) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٥٤).
(4) المصدر نفسه (٢٠/ ٥٥٥).
(5) المصدر نفسه (٢٠/ ٥٥٦).
(6) المصدر نفسه (٢٠/ ٥٦٢).

بالمعروف والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم [1].

وكان له نظم من الشعر منه قوله:

ألا إنَّ الحـــديث أجـــلُّ علـــم ... وأشـــرَفُهُ الأحاديـــث العـــوالي
وأنفـــع كـــل نـــوع منـــه عنـــدي ... وأحســـنه الفوائـــد والأمـــالي
فإنـــك لـــن تـــرى للعلـــم شـــيئاً ... تحقّقُـــهُ كـــأفواه الرّجـــال
فكـــن يـــا صـــاح ذا حِـــرْصٍ عليـــه ... وخـــذه عـــن الشـــيوخ بـــلا مَـــلالِ
ولا يأخُـــذْهُ مـــن صُـــحُفٍ فترمـــى ... مـــن التصـــحيف بالـــداء العضـــال[2]

ومن شعره أيضاً:

أيـــا نفـــس ويحـــك جـــاء المشـــيب ... فمـــاذا التصـــابي ومـــاذا الغـــزل
تـــولى شـــبابي كـــأن لم يكـــن ... وجـــاء مشـــيبي كـــأن لم يـــزل
كـــأني بنفســـي علـــى غِـــرةٍ ... وخطـــبُ المنـــون بهـــا قـــد نـــزَلْ
فيـــا ليـــت شـــعري ممـــن أكـــون ... ومـــا قـــدَّر الله لـــي في الأزل [3]

قال عنه رفيقه أبو سعد السمعاني: كثير العلم، حافظ متقن دين خير، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، متثبت محتاط، رحل في طلب الحديث، وتعب في جمعه، وبالغ في الطلب[4]. وقال ابن النجار: إمام المحدثين في وقته ومن انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان وبه ختم هذا الشأن[5]. وقال السيوطي: الإمام الكبير، حافظ الشام، بل حافظ الدنيا، الثقة الثبت الحجة، ثقة الدين.. وكان من كبار الحفاظ المتقنين، ومن أهل الدين والخير، غزير العلم، كثير الفضل، جمع بين معرفة المتن والإسناد [6] وقال عنه السبكي: سمع الحديث وعمره ست سنين، ثم طلبه بنفسه ورحل في هذا الشأن عشرين سنة.. وأبعد الرحلة وجمع، وكتب الكثير في العراق وخراسان وأصفهان، وغيرها، ومن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة «حتى أصبح: إمام أهل الحديث في زمانه وحامل لوائه»[7].

(1) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٦٥).
(2) المصدر نفسه (٢٠/ ٥٦٩).
(3) المصدر نفسه (٢٠/ ٥٧٠).
(4) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٥٩).
(5) المصدر نفسه (١/ ٥٩).
(6) المصدر نفسه (١/ ٦٠).
(7) طبقات السبكي (٤/ ٢٧٣).

١- مساندته الفكرية والعقائدية لنور الدين محمود:

برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في معاضدته على الوحدة والجهاد، حيث اندفع يطلب منه التطبيق العملي في تأليف الأربعين حديثاً في الحث على الجهاد قال ابن عساكر: وأحب أن أجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين الأجلاء [١].

وكان هدف ابن عساكر هو تثقيف المجتمع الإسلامي آنذاك والقيام بواجب الوقت وهو الوقوف إلى جانب نور الدين محمود ضد الخطر الصليبي، ويسبب قناعة آل زنكي بأن الأعمال العسكرية والسياسية لا تكون ناجحة مؤثرة إلا بدعم فكري وعقائدي وعاطفي وديني، واستجاب ابن عساكر لطلب نور الدين وقال في مقدمته:... فسارعت إلى امتثال ما التمس من المراد، وجمعت له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد، واجتهدت في جمعها غاية الاجتهاد، رجاء أن يحصل لي أجر التبصير والإرشاد، والله الموفق للصواب في الإصدار والإيراد، والمسدد في الأقوال في الإسهاب والاقتصاد[٢]. وقد خصص ابن عساكر العشرة الأولى منها من توضيح منزلة الجهاد بعد منزلة الإيمان بالله مباشرة لتحريض المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي[٣]، ومن هذه الأحاديث:

- سئل رسول الله ﷺ، أي الإيمان أفضل؟ قال: إيمان بالله عز وجل، قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله عز وجل، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور [٤].

- قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله، قلت: يا رسول الله فأي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمناً، قال: فإن لم أجد؟ قال: تعين ضائعاً أو تضع لأخرق، قال: فإن لم استطع، قال: تكف أذاك عن الناس فإنها تصدق بها عن نفسك [٥].

- قلت: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: أن تصلي الصلوات لمواقيتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله ولو استزدته لزادني [٦]. وفي الأحاديث الأخرى حاول ابن عساكر أن يذكر الناس بمنزلة المجاهد في سبيل

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٢.
(٢) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ١٠٨.
(٣) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٠٣.
(٤) مسلم رقم ٨٣.
(٥) البخاري رقم ٢٥١٨.
(٦) صحيح ابن حبان رقم ١٤٧٦، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ١١١.

الله فمثلاً في الحديث الحادي عشر قال الرسول ﷺ: يا أبا سعيد الخدري، من رضي بالله ربًا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة. قال: فعجب لها أبو سعيد، قال: أعدها عليَّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله عز وجل (١).

- وفي الحديث الثاني عشر: قال الرسول ﷺ: في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله (٢).

وهناك الكثير من الأحاديث التي ذكرها ابن عساكر فهي لا تدعو ولا تذكر الجهاد مباشرة، ولكنها تدعو إلى القتال في سبيل الله. كما هو الحال في الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت وهو على ذلك (٣). كما أورد أحاديث في الرباط في سبيل الله مثلاً كالحديث الواحد والعشرين.

- قال رسول الله ﷺ: كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة (٤).

- وفي الحديث الثالث والعشرين قال رسول الله ﷺ: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها (٥). كما ذكر الخيل وضرورته في القتال مثلاً في الحديث السابع والعشرين.

- قال الرسول ﷺ: من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بموعد الله كان شبعه وروثه وبوله حسنات في ميزانه يوم القيامة (٦).

- وفي الحديث الخامس والثلاثين: قال الرسول ﷺ: طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله (٧).

وأحاديث أخرى في صناعة الأسلحة في الحديث التاسع العشرين.

- مثلاً يقول الرسول ﷺ: إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه الذي

---

(١) مسلم في الإمارة رقم ١٨٨٤. (٢) البخاري رقم ٢٧٩٠.
(٣) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله (٦/ ١٢، ١١).
(٤) سنن سعيد بن منصور رقم ٢٤١٤، قال الترمذي: حسن صحيح.
(٥) البخاري رقم ٢٨٩٢. (٦) البخاري رقم ٢٨٥٣.
(٧) البخاري رقم ٢٨٨٧.

يحتسب في صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله والذي يرمى به في سبيل الله، وقال: ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا [1]. وليس ذلك فقط، بل وذكر فضل أولئك الذين يوجهون أسلحتهم لأعداء الإسلام.

- قال رسول الله ﷺ: **من تقلد سيفاً في سبيل الله قلده الله عز وجل يوم القيامة وشاحين من الجنة لا تقوم لهما الدنيا وما فيها** [2].

وفي أحاديث أخرى ساوى بين الإنفاق في الحج والإنفاق في سبيل الله في الحرب مثلاً في الحديث الثلاثين: قال رسول الله ﷺ: **النفقة في الحج مثل النفقة في سبيل الله الدرهم بسبعمائة** [3].

إن نظرة سريعة للأحاديث التي ذكرها ابن عساكر نلاحظ أنه اختارها بدقة كبيرة من بين الأحاديث الكثيرة التي تطرقت إلى الجهاد، وبصورة عامة فهو اختار أحاديث تتحدث عن منزلة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهد على غيره من المسلمين، وعن أولئك المسلمين الذين يجهزون للقتال أدوات الحرب آنذاك كالخيول والسلاح والمرابطة في سبيل الله.. إلخ وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئته الفكرية والدينية التي كرس حياته لها، وقد آتت ثمارها في مواجهة الغزو الصليبي، فقد ساندتها السلطة السياسية العسكرية المتمثلة في شخص نور الدين محمود، والتي اعتمد عليها كقاعدة استند عليها في صراعه الطويل مع الصليبيين.

إن تحالف العلماء مع القادة السياسيين العسكريين، كتحالف ابن عساكر ونور الدين خير مثال على أهمية وحدة الصف في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية ضد الإسلام والمسلمين [4].

٢- تأليف ابن عساكر فضائل المدن: ووجد ابن عساكر أن استمرارية الغزو الصليبي للشرق الإسلامي لابد أن تواجهه استمرارية في الجهاد ضده، ولذلك أكد على فكرة الجهاد كما برزت الأحاديث التي ذكرها والتي كانت جزءاً من منهجه الجهادي المحرض للمسلمين، وليس ذلك فحسب وإنما أيضاً من خلال تأكيده على فضائل المدن الإسلامية داعياً المسلمين إلى استعادتها والدفاع عنها، حيث ألف العديد من الكتب التي تشيد بذلك منها «فضائل

---

(١) صححه الحاكم (٢/ ٨٦) ووافقه الذهبي.
(٢) حديث موضوع فيه عبد العزيز بن عبدالرحمن البالسي، المجروحين (٢/ ١٣٩).
(٣) إسناده ضعيف، عطاء بن السائب اختلط، التاريخ الكبير (٣/ ٦٣).
(٤) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٨.

القدس» و«فضائل عسقلان» و«فضائل المدن الإسلامية» و«الزهادة في بذل الشهادة»، وغيرها من الكتب التراثية العديدة التي تشير إلى مدى تركيزه واهتمامه بذكر فضائل المدن الإسلامية، وتذكير المسلمين لدور تلك المدن في التاريخ الإسلامي التي لابد من التشبث بها والدفاع عنها [1]. ولم يكن ابن عساكر الوحيد من ألف في فضائل المدن الشامية آنذاك بل اتجه العديد من الفقهاء للتذكير بهذا الجانب مثل « فضائل الشام» للفقيه الحافظ عبد الكريم السمعاني (ت٥٦٢هـ) و«فضائل الشام» للفقيه محمد عبد الواحد منصور السعدي الحنبلي (ت٦٤٣هـ)، وكتاب «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام» للفقيه عز الدين السلمي (ت٦٦٠هـ) وغيرهم الكثير[2]، وذلك لأن الغزو الصليبي كما أشار السلمي وابن عساكر لم يستهدف الإسلام كفرد أو عقيدة، وإنما أيضاً كان يستهدف القضاء على حضارته وتراثه المتكامل، ووجد أولئك الفقهاء أنه خير وسيلة لحفظ تراث تلك المدن الإسلامية، ومكانتها التاريخية من خطر زوالها، ولربما تغيير ملامحها الحضارية من قبل الصليبيين هو التأريخ لها، وتدوين أخبارها [3].

وبتشجيع من الملك العادل نور الدين محمود تم تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق، وهو تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر، وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: ورقى خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمقام الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام... وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز والاستتمام ليلم بمطالعة ما تيسر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام، شاكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام[4]. مما يوضح للباحث حرص نور الدين محمود على الاطلاع على تاريخ عاصمته «دمشق» وتشوقه إلى ذلك، كما أنه يؤرخ لنا زمن تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب، ويعد هذا العمل من الآثار العلمية الجيدة التي تبناها نور الدين محمود[5]، وبذلك كان ابن عساكر أحد أولئك الذين استخدموا التراث كوسيلة لتحريض البلاد الإسلامية للوقوف في وجه الخطر الذي يحيق بها، فقد استخدم التاريخ والأدب مع فكرة الجهاد، كمنهج متكامل من أجل بعث الحياة الثقافية في بلاد الشام التي أثقلها الضعف والصراع السياسي والديني [6].

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٨.
(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٣٩٩).
(٣) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٠٨.
(٤) تاريخ مدينة دمشق في المقدمة ص ٤.
(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٧٩.
(٦) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٩.

٣- ابن عساكر يحث نور الدين على مواصلة الجهاد: عرف عن ابن عساكر تدينه وتعففه واعتكافه وبعده عن إغراءات الدنيا وعزوفه عن المناصب، بالإضافة إلى اعتداده بمكانة العلماء ودورهم الثقافي والسياسي، فلم يتردد ابن عساكر في مخاطبة نور الدين بعد أن أعفى الأخير أهل دمشق من المطالبة بالخشب وبعد فتح مصر في أن يكتب للسلطان قصيدة يوجهه فيها إلى ما يجب أن يفعله في المستقبل فيقول:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب ... عوضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً ... للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب ... فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه ... خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد ... وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل ... لما تريد فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته ... حتى ينال بها العالي من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة ... عليّةً فاقصد العالي من القرب
فالحد والجد مقرونان في قرن ... والحزم في العزم والإدراك في الطلب
وطهر المسجد الأقصى وحوزته ... من النجاسات والإشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا ... وفي القيامة تلقى حسن منقلب [(١)]

كان نور الدين محمود قائداً متميزاً يملك نظرة قيادية استراتيجية في بناء الدولة، فقد جعلها قادرة على تحمل أعباء الجهاد والتحرير، فبمجرد مجيئه للحكم، بدأ ببناء الدولة من جميع جوانبها الإدارية والعمرانية والثقافية والسياسية، فقد كانت مداركه الحضارية واسعة فأقام صروحاً كبيرة؛ فبنى المستشفيات وأقام دار العدل واهتم بالحياة الثقافية وتنشيطها، ومن هنا كان اللقاء بين الحافظ ابن عساكر والقائد نور الدين[(٢)]. واهتم نور الدين بالبناء الداخلي وكان العلماء عوناً له على ذلك، واستطاع أن ينقل نور الدين الموقف بالنسبة للحرب في مواجهة الصليبيين من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم حتى إنه بدأ يعد العدة لخوض المعركة الفاصلة معهم فعمل أولاً على أن يحول دون سيطرتهم على مصر، فعندما أيقن

(١) الخريدة للعماد الأصفهاني (١/ ٢٧٧)، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٥٣.
(٢) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٦.

الصليبيون أن وجودهم أصبح مهدداً، فتوجهوا بأنظارهم صوب مصر وهيأوا لذلك، فأدرك القائد نور الدين ذلك، فتدخل على هذه الجبهة بنظرة إستراتيجية وأرسل ثلاث حملات متواليات تمكنت من إحباط خططهم وإنهاء الوضع المتردي في مصر، ومن ثم إسقاط الدولة الفاطمية وتوحيدها مع الشام – كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

وكان ابن عساكر في هذه الفترة مواكباً لنور الدين ومحفزاً له وداعياً للجهاد والتحرير، وكان يقول داعياً للوحدة: لم يمكن الله أهل فرقة على جماعة أبداً [1]، وخطط نور الدين لجولة فاصلة مع الصليبيين تستخدم فيها طاقات الشام والجزيرة ومصر والمغرب، وبلاد إسلامية أخرى، وبات متيقناً بالنصر، وتسامع الناس أخبار ثقته بالنصر، فقد كان لنور الدين نجار بحلب يعرف بالأخترين من ضيعة قريبة من حلب تعرف «بأخترين» اشتهر ببراعته ودقة صنعه التي لا تجارى فأمره «أن يصنع منبراً لبيت المقدس، ولبى الرجل ما ندب له، وبذل النجارون الصناع في صناعته سنين وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين[2]، واستطاع نور الدين من خلال وسائله وخططه وتواصله مع العلماء أن يقلب موازين الصراع لصلاحه، فالمعارك قبل نور الدين كانت تخوضها قوات محترفة تابعة للحكام المسلمين، ومنذ أيام نور الدين بدأ عنصر المتطوعة يكثر ويندفع في المعارك، وباتت مع الأيام أعداد المتطوعة أكبر من أعداد الجند المحترفة، وكان ذلك كله نتيجة تعبئة مشاعر الناس وتحريضهم على الجهاد، وندبهم إلى حمل السلاح وهو ما كان يتولاه الولاة والوعاظ، ويأتي ابن عساكر كبير علماء الشام ومحدثها الأول في مقدمة هؤلاء.

وفي هذا المجال لابد من ملاحظة هامة وهي أن المتطوعة لم يقتصروا على سكان العراق وبلاد الشام، أو مصر بل تعداه إلى سكان المغرب والأندلس، فلقد كان المغاربة يأتون للجهاد والحج فيجاهدون ويحجون أو يحجون ويجاهدون، أو يجاهدون وتكتب لهم الشهادة، وكلنا يعلم أن أحد أهم أحياء دمشق هو حي (المغاربة) الذي يعود إنشاؤه إلى تلك المرحلة [3]، ولقد تحدث عن المغاربة والأندلسيين ومشاركتهم في الجهاد ضد الصليبيين والعلاقات الثقافية والفكرية بين المغرب والأندلس وبين بلاد الشام والتأثيرات الفكرية بين العلماء، عدد من مؤرخي تلك الفترة وما بعدهم منهم: ياقوت الحموي في

(١) ابن عساكر ودوره في الجهاد ص ٤٨.
(٢) كتاب الروضتين نقلا عن ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٨.
(٣) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٨.

معجم البلدان، وابن العماد في شذرات الذهب، وابن جبير في رحلته، والمقرى في نفح الطيب، ومحمد بن عبدالملك المراكشي في الذيل والتكملة، والسبكي في الطبقات، وكذلك ابن سعيد المغربي في المغرب في حلي المغرب وينقل عنه المقري، كما ترجم ابن عساكر لعديد من العلماء والقراء والشعراء المغاربة والأندلسيين الذين قدموا إلى دمشق [(1)].

٤ - **وفاة ابن عساكر:** توفي ابن عساكر - رحمه الله - في رجب سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ليلة الاثنين، حادي عشر من الشهر، وصلى عليه القطب النيسابوري، وحضره السلطان صلاح الدين ودفن عند أبيه في مقبرة باب الصغير [(2)].

رحم الله ابن عساكر فقد كان له دور مهم في إيجاد صحوة إسلامية ساعدت بدورها في تدعيم المواجهة الأيديولوجية مع الصليبيين، وقد تمكن نور الدين بفضل الله ثم جهود العلماء والمخلصين من أبناء الأمة بإعداد جبهة واحدة متماسكة عقائديا، على نحو أدى في النهاية إلى تدعيم فكرة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، ولا نزاع في أن الدولة النورية قد نجحت في تحقيق أهدافها بصورة كبيرة ودل ذلك على إدراكها لأهمية العوامل العقائدية والفكرية في إيجاد كيان داخلي متماسك في مواجهة الغزو الصليبي [(3)].

* * *

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٨.

(٢) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق ص ٧٠.

(٣) فن الصراع الإسلامي - الصليبي ص ٢٧٦، ٢٧٧.

المبحث السابع

الإمام عبد القادر الجيلاني وجهوده في الدعوة الشعبية والإصلاح العام

الدعوة الشعبية والإصلاح العام:

من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها، ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاً في عهد يحيى بن هبيرة، وسيأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله تعالى. وفي هذا المبحث سنوضح بإذن الله تعالى جهود عبد القادر الجيلاني في الدعوة الشعبية والإصلاح العام فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين محمود، وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين وخصوصاً في القطاع الشعبي العريض، وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، لقد كانت عامّة الجماهير في حاجة شديدة إلى شخصية روحية رفيعة، تكون على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره لكي يؤثر في المجتمع بدعوته ومواعظه وتزكيته[1]، وتوقظ في النفوس الإيمان وتثير عقيدة الآخرة، وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلو الهمّة وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله وتدعو إلى التوحيد الكامل، والدين الخالص [2]، ولقد وجد هذا المصلح الشعبي في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ظهر في بغداد في آخر القرن الخامس، وتسلّم الزعامة الدينية وعاش نحو قرن فرداً فريداً في الدعوة إلى الله، وأثر في العالم الإسلامي تأثيراً كبيراً [3]، واستطاع أن يؤسس مدرسة أسهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ومواجهة التحديات العقائدية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية وشاركت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية[4]، فقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد – وقد فصلت ذلك في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة الغزو الصليبي – وكان هو الرجل المطلوب للدفاع عن الإسلام عند هجوم الفلسفة اليونانية وإلحاد الباطنية، وانحراف العلماء[5]، وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث

(1) رجال الفكر والدعوة (1/ 235).
(2) المصدر نفسه (1/ 237).
(3) المصدر نفسه (1/ 239).
(4) لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد ص 325.
(5) رجال الفكر والدعوة (1/ 235).

الغزالي وحول تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، يقول الدكتور ماجد الكيلاني: والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقة عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثر كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توافر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة المريديون[1]. وتعتبر شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني ومدرسته وتعاليمه ذات أثر ملموس في نهوض الأمة في عهد الزنكيين الأيوبيين، ولذلك بإذن الله تعالى سنسلط الأضواء على شخصيته ومدرسته وتعاليمه.

أولاً: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم وشيوخه:

١- **اسمه:** عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض، ويلقب أيضاً بالمجل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ[2]. وبعض الناس ينكر نسبه إلى علي بن أبي طالب[3]، ويبدو أن الصحيح صحة انتسابه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ لضعف أدلة الطاعنين وندرتهم وقوة أدلة المثبتين وكثرتهم[4].

٢- **كنيته ولقبه:** تكاد تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته أبو محمد ونسبته الجيلاني أو الجيلي[5]. وأما الألقاب التي أطلقت عليه فهي كثيرة توحي بدلالات متعددة وهي تشبه في عصرنا الإجازات العلمية والأوسمة التي تمنح للعلماء والعظماء إقراراً بفضلهم وبيانًا لعلو منزلتهم، فمن الألقاب التي أطلقت عليه لقب الإمام، أطلقه عليه السمعاني فقال: إمام الحنابلة وشيخهم في عصره. نقله عنه ابن رجب[6]. ومنها لقب شيخ الإسلام أطلقه عليه الذهبي[7].

٣- **ولادته:** ولد الشيخ عبد القادر في بلدة جيلان وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها إكيل وكيلان، والنسبة إليها جيلي وجيلاني وكيلاني، وذلك سنة إحدى وسبعين

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن لا طريق غير الجهاد ص ٣٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٧.
(٣) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني ص ٢٨.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٨.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٨.
(٧) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

وأربعمائة للهجرة [1]، وقيل: إنه ولد سنة سبعين وأربعمائة هجرية [2].

٤- طلبه للعلم ورحلاته: رحل الشيخ عبد القادر الجيلاني من بلده ومسقط رأسه جيلان إلى بغداد حيث دخلها سنة ٤٨٨هـ وعمره آنذاك ثماني عشرة سنة، والتقى في بغداد بمجموعة من مشاهير العلماء الذين نهل من مناهلهم واستفاد من معارفهم حتى أصبح عالماً في مختلف العلوم إذ يصفه الذهبي في ترجمته له بأنه: الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء ومحيي الدين [3]، وكما يصفه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة بأنه: شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف [4]، وقد أمضى في طلب العلم اثنين وثلاثين سنة درس فيها مختلف علوم الشريعة ثم جلس للتعليم والوعظ سنة ٥٢٠هـ [5]. وكان خلال فترة طلبه للعلم رغم طولها يعاني من ضيق العيش ويكابد مرارة الحرمان إلا أن ذلك لم يفت في عزيمته ولم يعوقه عن المثابرة في طلب العلم [6]، وقد نقل ابن رجب ما يصور لنا تلك المعاناة من كلام الشيخ نفسه حيث يقول: وكنت أقتات الخرنوب [7] الشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد أن بقيت أياماً لم آكل طعاماً بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها يوماً من شدة الجوع لعلي أجد ورق الخس أو البقل، أو غير ذلك، فأتقوت به، فما ذهبت إلى موضع إلاَّ وغيري قد سبقني إليه، وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياء، فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوذاً إلا وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك فدخلت إليه ووقعت في جانب منه وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صاف وشواء وجلس يأكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت ذلك على نفسي فقلت: ما هذا وقلت: ما ههنا إلاَّ الله أو ما قضاه عليّ من الموت إذا التفت إليّ العجمي فرآني فقال: بسم الله يا أخي فأبيت فأقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت متقاصراً، فأخذ يسألني: ما شغلك؟ ومن أين أنت؟ وبمن تُعرف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان. فقال: وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر، فقلت: أنا هو فأضطرب وتغير وجهه وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي فسألت عنك فلم يرشدني أحد، ونفدت نفقتي ولي

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

(٢) بهجة الأسرار للشطنوفي ص ٨٨.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

(٤) ذيل طبقة الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٩١).

(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٣٢.

(٧) الخرنوب: شجر بري ذو شوك وذو حمل كالتفاح لكنه بشع.

ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلاّ مما كان لك معي وقد حلّت لي الميتة وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي. فقلت له: وما ذاك فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير فاشتريت منها هذا للاضطرار فأنا معتذر إليك، فسكتُّه وطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة فقبله وانصرف[1].

٥- شيوخه: ونتحدث عن بعضهم:

أ- أبو سعيد المبارك بن علي المخرمي: شيخ الحنابلة تفقه بالقاضي أبي يعلي وبنى مدرسة باب الأزج، درّس بها بعده تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد أن طوّرها وأدخل عليها بعض التوسعة والتجديد، وكان نزيهاً عفيفاً، وقد فتحت عليه الدنيا، فبنى داراً وحماماً وبستاناً، مات سنة ٥١٣هـ.

ب- أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي: الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة المتكلم صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٣١هـ وكان يتوقد ذكاءً وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير [2]. وقد نقل عنه الذهبي قوله: عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة، وقصر محبتي على العلم وما خلطت لعاباً قط، ولا عاشرت إلاّ أمثالي من طلبة العلم وأنا الآن في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين، وبلغت لاثنتي عشرة سنة وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاطر والفكر والحفظ وحدّة النظر بالعين لرؤية الأهلة الخفية إلاّ أن القوة ضعيفة [3]. قال ابن الجوزي: كان ابن عقيل ديناً حافظاً للحدود، توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يتعجب منه، وكان كريماً ينفق ما يجد وما خلّفَ سوى كتبه وثياب بدنه، توفي سنة ٥١٣هـ [4]، وينقل الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي قول ابن عقيل: حججت فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر فإذا شيخ أعمى ينشده ويبذل لملتقطه مائة دينار فرددته عليه، فقال: خذ الدنانير فامتنعت وخرجت إلى الشام وزرت القدس وقصدت بغداد فأويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع فقدموني فصليت بهم فأطعموني وكان أول رمضان فقالوا: إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر ففعلت فقالوا: لإمامنا بنت فتزوجت بها وأقمت معها سنة وأولدتها ولداً ذكراً فمرضت في نفاسها فتأملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر، فقلت لها: لهذا قصة، وحكيت لها،

---

(١) الذيل عن طبقات الحنابلة لابن رجب (١/٢٩٨). (٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٤٢٨).
(٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٣٨. (٤) سير أعلام النبلاء (١٩/٤٤٦).

فبكت وقالت: أنت هو والله، لقد كان أبي يبكي ويقول: اللهم أرزق ابنتي مثل الذي رد العقد عليَّ، وقد استجاب الله منه ثم ماتت فأخذت العقد والميراث وعدت إلى بغداد [1].

ج- **حماد بن مسلم الدباس:** كان الشيخ عبدالقادر من تلامذته[2] وقد أثنى ابن تيمية على الجيلاني وشيخه حماد حيث قال: فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم: بأنه لا يريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق [3].

د- **أبو محمد جعفر بن أحمد البغدادي السراج:** الشيخ البارع المحدث المسند بقية المشايخ كتب بخطه الكثير وصنَّف الكتب، كان صدوقاً ألف في فنون شتَّى، وكان ممن يفتخر برؤيته ورواياته لديانته ودرايته، ثقة مأمون عالم صالح، ولد سنة ٤١٧هـ وتوفي سنة ٥٠٠هـ[4].

هـ- **أبو عبد الله يحيى بن الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي الحنبلي:** كان الحافظ عبد الله بن عيسى الأندلسي يثني عليه ويمدحه ويطريه ويصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق وترك الفضول وعمارة المسجد وملازمته، ولد سنة ٤٥٣هـ وتوفي سنة ٥٣١هـ [5].

هؤلاء من أشهر شيوخه الذين أخذ عنهم وكان لهم الأثر الكبير في حياته[6].

٦- **مكانته العلمية:** ويكفي في معرفة مكانة الشيخ عبد القادر الجيلاني العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه، فقد شهد ابن تيمية للشيخ عبد القادر بأنه من الشيوخ الكبار[7]. ثم شهد له بأنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء فيقول: والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر، من أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية [8]. وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي: سمعت شيخنا موفق الدين ابن قدامة يقول: دخلنا بغداد سنة ٥٦١هـ فإذا الشيخ الإمام محيي الدين عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وإفتاءً وكان يكفي طالب العلم عن قصده غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر، وكان ملء العين وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٤٤٧).
(٢) المصدر نفسه (١٩/٤٤٩).
(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠/٤٥٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/٢٢٨).
(٥) المصدر نفسه (٢٠/٦).
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص ٤٣.
(٧) فتاوى ابن تيمية (١٠/٤٦٣).
(٨) المصدر نفسه (١٠/٤٨٨).

وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء [1]. وكان يبذل أوقاتاً كثيرة في سبيل تعليم الناس الذين كانوا يحرصون على حضور دروسه على اختلاف مستوياتهم، يقول ابنه عبد الوهاب: كان والدي -رحمه الله- يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم ومدة كلامه على الناس أربعون سنة أولها ٥٢١هـ وآخرها ٥٦١هـ، ومدّة تصدره للتدريس والفتوى بمدرسته ٣٣ سنة أولها ٥٢٨هـ وآخرها ٥٦١هـ، وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة[2]. وأما ذكاؤه وفطنته وقدرته على حل المعضلات من الحوادث والمسائل فيشهد لذلك ما ذكره ابنه عبد الرزاق بقوله: جاءت فتوى من العجم إلى بغداد فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شافٍ وصورتها: ما تقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لابُّد له أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات؟ قال: فأتى بها إلى والدي فكتب عليها على الفور: يأتي مكة ويخلى له المطاف ويطوف أسبوعاً – أي سبعاً – وحده وتنحل يمينه. قال: فما بات المستفتي ببغداد [3]، وعندما ترجم له ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة قال: شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين أبو محمد صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة[4]. ويقول ابن الجوزي عنه: تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت، وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير [5].

ثانياً: منهجه في توضيح العقيدة:

بيَّن رحمه الله عقيدته بوضوح وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[6]. ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبد القادر الجيلاني يلاحظ الباحث أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها خصوصاً قضايا العقيدة يمكن تلخيصه فيما يلي:

١- **عرضه للعقيدة بأسلوب بيان بليغ سهل العبارة:** تجنح حركة الإيقاع فيه إلى التوازي والتوازن، وهو توازن مبعثه توازن حركة النفس والرغبة في الإيضاح بعيداً عن التعقيد

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٤).
(٢) بهجة الأسرار للشطنوفي ص ٩٥.
(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٤).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٢٩٠).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٩١)، الشيخ عبد القادر ص ٦٩.
(٦) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٤٢)، الشيخ عبد القادر ص ٦٢.

والغموض ومثال ذلك تعريفه للإيمان [1]: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وبالتوفيق يقع [2].

٢- حرصه على عدم الخروج عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إثبات الأسماء والصفات لله عز وجل –يدل على ذلك قوله: ولا نخرج عن الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل [3].

٣- يذكر الشيخ عبد القادر باستمرار أن عقيدته عقيدة السلف ويطلب من الله أن يميته على مذهب إمام أهل السنة والجماعة، مثال ذلك قوله: قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله وأماتنا على مذهبه أصلاً وفرعاً وحشرنا في زمرته[4]. ويقول: عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح امشوا في الجادة المستقيمة [5].

٤- رفض تأويل المتكلمين: وهذا واضح من كلامه – رحمه الله – حيث يقول في صفة الاستواء: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش، لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء الغلبة كما قالت المعتزلة لأن الشرع لم يرد بذلك[6].

٥- الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من إثبات أو نفي[7]، وهذا واضح جلي في قوله – رحمه الله: – ونعوذ بالله من أن نقول فيه وفي صفاته مالم يخبرنا به هو أو رسوله ﷺ [8].

٦- إعراضه عن علم الكلام: من قواعد منهج الشيخ عبد القادر في إيضاح العقيدة إعراضه عن علم الكلام وعدم اعتماده عليه لأنه يرى أنه منشأ الضلالات التي وقع فيها القوم، ولذا نقل في كتابه الغنية قول الإمام أحمد رحمه الله: لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلاّ ما كان في كتاب الله عز وجل أو حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه رضي الله عنهم وعن التابعين. فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود فلا يقال في

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص٧٠.
(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٦٢).
(٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص ٧٢.
(٤) الغنية للجيلاني (١/٥٥).
(٥) الفتح الرباني، المجلس العاشر ص ٣٥.
(٦) الغنية للجيلاني (١/ ٥٦).
(٧) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٧٨.
(٨) الغنية للجيلاني (١/ ٥٧).

صفات الرب عز وجل كيف ولم، ولا يقول ذلك إلا شاك [(١)].

فهذه هي أهم الجوانب البارزة في منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في إيضاح العقيدة[(٢)].

ثالثاً: من آراء الشيخ عبد القادر الجيلاني الاعتقادية:

١- الإيمان: قال الشيخ عبد القادر: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان [(٣)]. وقال في موضع آخر: الإيمان قول وعمل: فالقول دعوى والعمل هو البينة، والقول صورة والعمل روحها [(٤)].

- زيادة الإيمان ونقصانه: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[(٥)]. وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[(٦)] [المدثر: ٣١].

- الفرق بين الإيمان والإسلام: قال الشيخ عبد القادر: وأما الإسلام فهو من جملة الإيمان، وكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً. وقد استدل بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] وبحديث مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان، والإحسان [(٧)].

٢- حكم مرتكب الكبيرة: نحا الشيخ عبد القادر منحى أهل السنة والجماعة من أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الملة وأنه فاسق بمعصيته واقع تحت المشيئة في الدار الآخرة إن شاء الله عذّبه وإن شاء رحمه، وأنه لا يكفر بها إذا مات على التوحيد[(٨)]، حيث يقول: ونعتقد أن من أدخله الله النار بكبيرته مع الإيمان فإنه لا يخلد فيها بل يخرجه منها لأن النار في حقه كالسجن في الدنيا يستوفى منه بقدر كبيرته وجريمته ثم يخرج برحمة الله تعالى ولا يخلد فيها[(٩)]. ويقول في موضع آخر: ونعتقد أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة من الكبائر والصغائر لا يكفر بها وإن خرج من الدنيا بغير توبة إذا مات على التوحيد والإخلاص، بل يرد علمه

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٦).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص ٨٢.
(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٦٢).
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٨٩.
(٥) الغنية للجيلاني (١/ ٦٢).
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٩٢.
(٧) البخاري رقم ٥٠، الغنية (١/ ٦٢).
(٨)، (٩) الغنية للجيلاني (١/ ٦٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٠٥.

إلى الله عز وجل إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه وأدخله النار فلا يدخل بين الله وبين خلقه مالم يخبرنا الله بمصيره [1].

٣- **توحيد الربوبية:** أشار الشيخ عبد القادر إلى أن معرفة الله فطرية وأن النفس مقرة له بعبوديتها، وأن ذلك الإحساس نابع من داخل النفس البشرية [2]. قال رحمه الله: النفس بأجمعها تابعة لربها موافقة له إذ هو خالقها ومنشؤها وهي مفتقرة له بالعبودية[3]. وأشار إلى النظر إلى الآيات الكونية المبثوثة في الأنفس والآفاق والذي يأتي في المرتبة الثانية بعد المعرفة الفطرية [4] فيقول: «أما معرفة الصانع – عز وجل – بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد، فرد صمد ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٢-٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، ولا شريك ولا وزير، ولا ند ولا مشير[5]. والمسلم وإن كان في فطرته معرفة الله – عز وجل – لكنه بالنظر والتفكر في مخلوقاته سبحانه يزيد إيمانه ويقوي يقينه في خالقه عز وجل [6]، والشيخ عبد القادر – رحمه الله – يؤكد هذا المعنى في مكان آخر فيقول: استدل بصنعة الله عليه، تفكر في الصنعة وقد وصلت إلى الصانع، المؤمن الموقن العارف له عينان ظاهرتان، وعينان باطنتان فيرى بالعينين الظاهرتين ما خلق الله في الأرض، ويرى بالعينين الباطنتين ما خلق الله في السموات [7]. ويقول كذلك: أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها؛ لأن في ذلك دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم [8].

٤- **توحيد الألوهية:** تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني هذا النوع من التوحيد، وذكر أن الواجب على من أراد الدخول في دين الإسلام أن يتلفظ بكلمة التوحيد، وأن يتبرأ من كل دين غير الإسلام معتقداً بقلبه وحدانية الله [9]، فيقول: والذي يجب على من يريد الدخول في دين الإسلام أولاً أن يتلفظ بالشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى[10]. وفي مكان آخر يتحدث عما دعا الله خلقه إليه من توحيده وطاعته وما حذرهم منه وخوفهم وزجرهم من الشرك به والوقوع في

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٦٥).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١١٦.
(٣) فتح الغيب للجيلاني المقالة العاشرة ص ٢١.
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١١٦.
(٥) الغنية للجيلاني (١/ ٥٤)
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١١٦.
(٧) الفتح الرباني للجيلاني المجلس الثالث ص ١٦.
(٨) فتوح الغيب للجيلاني مقالة ٧٤ ص ١١٣.
(٩) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٢٨.
(١٠) الغنية للجيلاني (١/ ٢).

معصيته[1]، فيقول: وقد دعا الله خلقه إلى توحيده وطاعته بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ فحذّر وأنذر وخوّف وزجر إعذاراً لهم وتأكيداً للحجة عليهم [2]. وبيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – أن مجرد النطق بكلمة التوحيد من غير امتثال الأمر وترك النهي غير مقبول ولا يستفيد منه الإنسان فيقول: إذا قلت لا إله إلاّ الله فقد ادعيت. فيقال لك: ألك بينة؟ والبينة امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات والتسليم إلى القدر.. هذه بينة الدعوى[3].

٥- شروط قبول العبادة: وقد أقر الشيخ عبد القادر الجيلاني ضرورة توافر الإخلاص والمتابعة في العبادة وبيَّن أن مجرد النطق بالشهادتين وأداء الأعمال التي تقتضيها لا يكفي إلا بعد تحقق الشرطين [4]، يقول: إذا عملت هذه الأعمال – يعني الإتيان بالأوامر وترك النواهي – لا تقبل منك إلا بالإخلاص فلا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة [5].

– ويقول في موضع آخر: وجميع ما ذكرناه من صيام الأشهر والأضحية والعبادات، من الصلاة والأذكار وغير ذلك مما سنذكر – إن شاء الله – لا يقبل إلا بعد التوبة وطهارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة[6]. ثم يستشهد على وجوب الإخلاص بقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال سبحانه ﴿أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. ثم ساق بعض أقوال أهل العلم في تعريف الإخلاص فنقل عن سعيد بن جبير قوله: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى، ولا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله أحداً، كما نقل عن الفضيل بن عياض قوله: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص هو الخوف من أن يعاقبك الله عليهما[7]. وقد حذَّر كثيراً من الرياء والعجب وذلك لخطورته على دين العبد ولسهولة وقوع الإنسان فيه فقال: ينبغي لكل متعبد عارف أن يحذر في جميع أحواله من الرياء ورؤية الخلق والعُجب، فإن النفس خبيثة وهي منشأ الأهواء المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحق عز وجل. ثم ساق الأدلة على تحريم الرياء، منها قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ – ٧] وبوصفه

(١) عبد القادر الجيلاني للقحطاني ص ١٢٩.
(٢) الغنية للجيلاني (١/١٤٦)، عبدالقادر الجيلاني ص ١٢٠.
(٣) الفتح الرباني المجلس الثاني ص ١٠.
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٣٤.
(٥) الفتح الرباني للجيلاني ص ١٣٤.
(٦) الغنية للجيلاني (٢/٦٦)، الشيخ عبد القادر ص ١٣٤.
(٧) الغنية للجيلاني (٢/٦٧)، الشيخ عبد القادر ص ١٣٥.

عز وجل للمنـافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣]. كما استشهد من السـنة بأحاديـث صـحيحة منهـا قوله: يلقى الرجل في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدار به كما تدور الرحى بصاحبها فيقال له: أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عـن المنكـر وآتيه[1].

٦- من أنواع العبادة:

أ- الدعاء: من أعظم أنـواع العبودية الـدعاء والالتجـاء لله تعـالى لأن معـاني العبـادة والخضوع والتذلل والفقر والاحتياج تبدو واضحة جلية في الدعاء، والدعاء لا يكون إلا لله وحده؛ ولذلك توعد الله المستكبرين عن دعائه بالدخول في النار وبئس القـرار[2]، قـال عـز وجل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَـادَتِي سَـيَدْخُلُونَ جَهَـنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]، وقد ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمـه الله – بعـض الآداب الـتي يجـب مراعاتها عند الدعاء فقال: والأدب في الدعاء أن يمد يديه ويحمد الله ويصلي على الـنبي ﷺ ثم يسأل حاجته [4].

ب- التوكل: وهو أصل من أصول العبادة وهو من سمات المؤمنين الصادقين، قـال عز وجـل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُـمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفـال: ٢]. وقد عرف الشيخ عبد القادر حقيقة التوكل بقوله: وحقيقة الإخلاص ارتفاع الهمة عن طلب الأعواض على الأعمال، وكذلك التوكل هـو الخروج من الحول والقـوة مـع السـكون إلى رب الأربـاب[5]، وهـو يعنـى بـذلك عـدم الاعتماد على حول الإنسان وقوته وإمكانياته وإنما يعتمد ويسكن إلى ربه تبـارك وتعـالى وحوله وقوته، ولكن لا يعني بذلك ترك الأسباب وعدم الأخذ بها بل يـدعو إلى إعطـاء الأسباب حقها وذلك بالأخذ بها وعدم تجاهلها، ثم التوكل بعد ذلك على الله سـبحانه حيث يقول: اعط السبب حقه وتوكل واقعد علـى بـاب العمـل [6]. وذلـك أن الأخـذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله عز وجل، فإن الله عز وجل كما أمر بالاعتمـاد عليـه

(١) مسلم رقم ٢٩٨٩، الغنية للجيلاني (٢/ ٦٨).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٣٨.
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٨.
(٤) الغنية للجيلاني (١/ ٤٠).
(٥) بهجة الأسرار للشطنوفي ص ١٢٢.
(٦) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخمسون ص١٦٧.

والتوكل عليه وحده أمر بالأخذ بالأسباب فقال مخبراً عن عيسى ابن مريم وهو يخاطب أمه: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] إذ كان في قدرته سبحانه أن ينزل الرطب من غير أن تقوم مريم بهز الجذع [١]، وأيضاً أخبر – عز وجل – أن يعقوب – عليه السلام – قال لبنيه: ﴿لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] فمع توكله على الله – عز وجل – أمر أولاده بالأخذ بالسبب وهو التفرق عند الدخول حتى لا يصابوا بالعين الحاسدة [٢]، أو يلفتوا الانتباه عند دخول مصر. وعند الترمذي من حديث أنس بن مالك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال ﷺ: **اعقلها وتوكل** [٣].

ج- الخوف والرجاء: وهذان من أنواع العبادة التي أمر الله بها وأثنى على المؤمن المتحلي بها، قال عز وجل في الخوف: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال في الرجاء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨]. وقد تحدث الشيخ عبد القادر عن الخوف والرجاء فقال: من غلب رجاؤه خوفه تزندق، ومن غلب خوفه رجاؤه قنط، والسلامة في اعتدالهما [٤]، وهذا الاعتدال يوافق ما قاله الإمام أحمد بن حنبل: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحداً»[٥]. وأما حجم الخوف وقدره، فيحدده ابن القيم بأنه: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله – عز وجل – فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، ويذكر أنه سمع ابن تيمية يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله [٦]، وعن الرجاء يؤكد ابن القيم أن «من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: الأول محبة ما يرجوه والثاني خوفه من فواته والثالث سعيه في تحصيله بحسب الإمكان، وأن الرجاء الذي لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن» [٧].

د- ما ينقض التوحيد: ولقد دعا الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى التوحيد وحذّر من

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٤١. (٢) المصدر نفسه ص ١٤١.
(٣) سنن الترمذي رقم ٢٥١٩ وقد حسنّه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٦٨.
(٤) الفتح الرباني للجيلاني- المجلس الخامس والعشرون ص ٩١.
(٥) مسائل الإمام أحمد لابن هاني، تحقيق الشاويش (٢/ ١٧٨).
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٤٤، مدارج السالكين (١/ ٥١١).
(٧) الجواب الكافي لابن القيم ص ٤٦.

الوقوع في الشرك في جملة وصاياه فقال: وحدوا ولا تشركوا [1]، وقال في توجيه آخر: أخلصوا ولا تشركوا، وحدوا الحق – عز وجل – وعن بابه لا تبرحوا سلوه ولا تسألوا غيره، واستعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره [2].

٧- **توحيد الأسماء والصفات:** وأشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى هذا التوحيد بقوله: انفوا ثم أثبتوا، انفوا عنه مالا يليق به، وأثبتوا له ما يليق به، وهو ما رضيه لنفسه ورضيه لـه رسوله ﷺ، إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم[3]، وقال رحمه الله: ولا نخرج عن الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بها فيهما ونكل الكيفية إلى علم الله [4]. فاشتمل كلامه – رحمه الله- على الأسس الثلاثة التي يقوم عليها منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات وهي:

* إثبات الأسماء والصفات.
* تنزيه الله عز وجل عن مشابهة خلقه.
* الاعتراف بالعجز عن إدراك الكيفية [5].

أ- **الصفات الذاتية:** وهي الصفات المتعلقة بذات الباري سبحانه – ولا تتعلق بالمشيئة والاختيار بل لا تنفك عن الرب – عز وجل – بحال من الأحوال باعتبارها من لوازم الذات الإلهية ومنها [6]:

- **اليدان:** من الصفات الثابتة لله عز وجل، وقد أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى ثبوت هذه الصفة لله سبحانه فقال: له يدان وكلتا يديه يمين، قال عز وجل:﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وروى نافع عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر والسموات مطويات بيمينه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة ثم يقول: أنا العزيز، فلقد رأيت رسول الله يتحرك على المنبر حتى كاد يسقط[7].

- **صفة القدَم:** من الصفات الذاتية التي وردت بها الأدلة الصحيحة صفة القدم لله -عز وجل – والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت لله هذه الصفة فيقول: ويضع قدمه في جهنم

(١) فتوح الغيب المقالة الثانية ص ١٠.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني- المجلس السابع والأربعون ص ١٥١.
(٣) الفتح الرباني للجيلاني- المجلس السابع والأربعون ص ٦٢.
(٤) الغنية للجيلاني (١/٥٧). (٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٦٧.
(٦) المصدر نفسه ص ١٨٠ (٧) البخاري رقم ٧٤١٢، الشيخ عبد القادر ص ١٨٠.

فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط [(١)]، وهو بهذا يشير إلى الأحاديث الصحيحة التي جاء ذكر القدم فيها، منها: عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول: قط قط وعزتك ويزوي بعضها إلى بعض**[(٢)]. وقد تلقى علماء أهل السنة والجماعة هذه الأحاديث الصحيحة بالقبول ومرروها كما جاءت ولم يخوضوا في الكيفية [(٣)].

- **صفة الأصابع:** يثبت الشيخ عبد القادر الجيلاني الأصابع لله عز وجل لورود الأدلة الصحيحة بشأنها فيقول: وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء [(٤)]. وعلى هذا الإثبات درج علماء أهل السنة والجماعة كعادتهم في إثبات ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات على ما يليق بجلال الله -عز وجل- من غير تكييف ولا تمثيل [(٥)].

- **صفة العلو:** من صفات الكمال للذات الإلهية صفة العلو وهي فرع من توحيد الأسماء والصفات، والله سبحانه متصف بالعلو المطلق من جميع الوجوه ذاتاً وقدراً وقهراً[(٦)]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت هذه الصفة فيقول: وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] [(٧)].

ب - **الصفات الفعلية:** وهي التي تتعلق بمشيئة الله وإرادته سبحانه بحيث إن شاء الرب - عز وجل - فعلها وإن شاء لم يفعلها، وكل صفة فعلية فهي صفة ذاتية من جهة قدرة الرب - عز وجل - على فعلها في أي وقت شاء ومن هذه الصفات:

- **الاستواء:** أخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني في مسألة الاستواء بالمعنى الذي أثبته النص القرآني من غير تأويل ولا تعطيل [(٨)]، حيث قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة؛ لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث بل المنقول عنهم حمله على

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).
(٢) البخاري رقم ٧٣٣٩، مسلم رقم ٢٨٤٦.
(٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٨٣.
(٤) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).
(٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٨٥.
(٦) المصدر نفسه ص ١٨٧.
(٧) الغنية للجيلاني (١/ ٥٤).
(٨) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٩٤.

الإطلاق[1]، وقد استدل - رحمه الله - على ذلك بما روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ - رضي الله عنها - في قوله - عز وجل -: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به واجب والجحود به كفر. وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في صحيحه[2]، وكذلك في حديث أنس بن مالك ﷺ[3].

- **صفة النزول:** من الصفات الثابتة لله - عز وجل - صفة النزول من غير تكييف ولا تمثيل بل على وجه يليق بجلال الله لا يعلمه إلا هو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشوري: ١١].

والشيخ عبد القادر الجيلاني كعادته في إثبات الصفات يثبت هذه الصفة وينفي أن تكون نزول رحمته وثوابه [4]... فيقول: وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء، وكما شاء فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى ممن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلي الأعلى، لا إله إلاّ هو، له الأسماء الحُسنى، لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما ادعته المعتزلة، والأشعرية [5]. وقد استدل أهل السنة على ذلك بالأدلة الصريحة الصحيحة والتي منها حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له** [6].

- **صفة الكلام:** صفة الكلام صفة ذات باعتبار نوع الكلام، وصفة فعل باعتبار تعلقها بإرادة الله عز وجل ومشيئته فهو سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، يتكلم بصوت يُسمع، يسمعه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام من غير واسطة، وسمعه من أذن له من ملائكته ورسله، وسيسمعه المؤمنون في الآخرة ممن سبقت لهم من الله الحسنى نرجو أن نكون منهم. والشيخ عبد القادر الجيلاني يقرر ثبوت هذه الصفة لله سبحانه ويصف من ينكر ذلك بالابتداع فيقول وهو يخاطب المبتدعة [7]: يا مبتدع: ما يقدر أن يقول أنا الله إلاّ الله. ربنا عز وجل

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٦).
(٢) هذا لم يرد في شيء من الكتب الستة ولا المسند، وإنما ورد في كتب أخرى رواه اللالكائي رقم ٦٦٣ موقوفاً عليها.
(٣) هذا القول منقول عن جماعة من السلف كربيعة الرأي ومالك.
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٠٣.
(٥) الغنية للجيلاني (١/٥٧).
(٦) البخاري رقم ١١٤٥، مسلم رقم ٧٥٨.
(٧) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٠٦.

متكلم ليس بأخرس ولهذا أكّد الله عز وجل الأمر في كلامه لموسى فقال: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [1] [النساء: ١٦٤].

٨- عقيدة الشيخ عبد القادر الجيلاني في القرآن الكريم : لقد قرر الشيخ الجيلاني عقيدته في هذه المسألة المهمة من مسائل العقيدة ببيان أن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله ﷺ حيث يقول: ونعتقد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذي نزل به جبريل على رسول الله ﷺ، كما قال الله عز وجل ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]. هو الذي بلغه رسول الله ﷺ أمته امتثالاً لأمر رب العالمين، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] [2].

وفي وصاياه التي كان يوجهها لطلابه كان يؤكد على وجوب التأدب مع كتاب الله بعدم القول بخلقه فيقول: احترموا كتاب الله وتأدبوا معه، هو الوصلة بينكم وبين الله، لا تجعلوه مخلوقاً يقول الله عز وجل: هذا كلامي، وتقولون أنتم: لا؛ من رد على الله وجعل القرآن مخلوقاً كفر بالله وبريء منه. هذا القرآن المتلو، هذا المقروء، هذا المسموع، هذا المنظور، هذا المكتوب في المصاحف كلامه عز وجل [3].

٩- رؤية الله عز وجل عند الشيخ عبد القادر الجيلاني: ذهب الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة في الدار الآخرة حيث يقول: وينظر أهل الجنة إلى وجهه ويرونه لا يضامون في رؤيته. قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قيل الحسنى: هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] [4].

١٠- القضاء والقدر عند الشيخ عبد القادر الجيلاني: يقول الشيخ عبد القادر: ينبغي أن يؤمن المرء بخير القدر وشره وحلو القضاء ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان في سالف الدهور والأزمان، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور. وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور [5].

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الستون ص ٢٠٩. (٢) الغنية للجيلاني (١/ ٥٨).
(٣) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر ص ٤١.
(٤) الغنية (١/ ٥٥)، الشيخ عبد القادر ص ٢٤١. (٥) الغنية (١/ ٦٥)، الشيخ عبد القادر ص ٢٦٢.

١١- عذاب القبر وسؤال منكر ونكير: يقرر الشيخ عبد القادر وجوب الإيمان بنعيم القبر وعذابه فيقول: والإيمان بعذاب القبر وضغطته واجب لأهل المعاصي والكفر وجميع الخلق سوى النبيين ثم يخفف عن المؤمنين برحمة الله. وكذلك النعيم فيه لأهل الطاعة والإيمان [١]، كما يقرر وجوب الإيمان بمنكر ونكير وأنهما يسألان الميت في قبره. ونؤمن بأن منكراً ونكيراً إلى كل أحد ينزلان سوى النبيين ويسألانه ويمتحنانه عما يعتقده من الأديان، وهما يأتيانه بالقبر فيُرسل فيه الروح ثم يقعد فإذا سئل سُلتَّ روحه [٢]. وقد استدل أهل السنة والجماعة بعذاب القبر ونعيمه بنصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة منها؛ قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقد فسرها النبي ﷺ قال: **إذا أقعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾**. نزلت في عذاب القبر [٣].

١٢- الشفاعة: يقرر الشيخ عبد القادر وجوب الإيمان بشفاعة النبي ﷺ فيقول: والإيمان بأن الله تعالى يقبل شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر والأوزار واجب قبل دخول النار عامة للحساب لجميع أمم المؤمنين وبعد دخولها لأمته خاصة فيخرجون منها بشفاعته ﷺ وغيره من المؤمنين حتى لا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ومن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة واحدة في عمره مخلصاً لله عز وجل [٤].

١٣- الحوض: يذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن عقيدة أهل السنة هي الإيمان بوجود حوض النبي ﷺ، فيقول: وأهل السنة يعتقدون أن لنبينا محمد ﷺ حوضاً في القيامة يسقى منه المؤمنون دون الكافرين، ويكون ذلك بعد جواز الصراط قبل دخول الجنة من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، حوله أباريق على عدد نجوم السماء، فيه ميزابان يصبان من الكوثر أصله في الجنة وفرعه في الموقف [٥]. وقد قال رسول الله ﷺ: **أنا فرطكم على الحوض من ورده شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، ليردن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم** [٦].

١٤- الصراط: وأكد الشيخ عبد القادر الجيلاني في تعاليمه على وجوب الإيمان بالصراط فقال: والإيمان بالصراط على جهنم واجب وهو جسر ممدود على متن جهنم يأخذ من يشاء الله إلى النار، ويجوز من يشاء، ويسقط في جهنم من يشاء، ولهم في تلك الأحوال

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٦٦).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٦٦).
(٣) البخاري ١٣٦٩ ، مسلم رقم ٢٨٧١.
(٤) الغنية للجيلاني (١/ ٦٩).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٧١).
(٦) البخاري رقم ٦٥٨٣، مسلم رقم ٢٢٩٠.

أنوار على قدر أعمالهم فهم بين ماشٍ وساعٍ وراكب وزاحف وسحب [1]. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١- ٧٢]. ووردت أحاديث من السنة تضمنت ذكر الصراط وصفاته وصفة المرور عليه[2].

١٥- الميزان: وردت النصوص الشرعية التي تؤكد وزن الأعمال يوم القيامة والشيخ عبد القادر يذكر أن الإيمان به هو عقيدة أهل السنة فيقول: ويعتقد أهل السنة أن لله تعالى ميزاناً يزن فيه الحسنات والسيئات يوم القيامة له كفتان ولسان، وقد أنكرت المعتزلة مع المرجئة والخوارج ذلك فقالت: إن معنى الميزان: العدل دون موازنة الأعمال وفي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تكذيبهم قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]. والعدل لا يوصف بالخفة والثقل [3]. وقال رسول الله ﷺ: **كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم** [4].

هذه بعض المسائل العقدية التي كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يربي عليها تلاميذه ويبثها في الجمهور العام في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وكان لها تأثير كبير في رجوع الناس إلى الله والالتزام بدينه وأسهمت على العموم في نهضة الأمة حتى استطاعت التصدي للتغلغل الباطني والغزو الخارجي.

رابعاً: البدعة وموقف الشيخ عبد القادر منها:

١- أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة: مدار سعادة الإنسان في الدارين وفوزه وفلاحه في الحياتين يعتمد على مدى اعتصامه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأنهما النوران اللذان يضيئان للإنسان طريقه وهو يعبر دروب الحياة ومجاهيلها[5]، والشيخ عبد القادر يقرر ذلك في قوله: لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة[6]، ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح أبداً [7].

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٧٠).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص ٣٧١.
(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٧٢).
(٤) البخاري رقم ٦٤٠٦، مسلم ٢٦٩٤.
(٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٤١١.
(٦) الفتح الرباني للجيلاني- المجلس التاسع والثلاثون ص ١٢٨.
(٧) المصدر نفسه ص ١٢٨.

٢- ذم البدع والتحذير منها: والشيخ عبد القادر الجيلاني يحذر دائماً من الابتداع في الدين ويوصي بالاتباع ويقرن ذلك بوصيته بالتوحيد وضرورة مجانبة الشرك حيث يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولاتمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا[(١)]، ويقول في موضع آخر: اتبعوا ولا تبتدعوا، وافقوا ولا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا، أخلصوا ولا تشركوا[(٢)]. ويبن أن أساس الخير في متابعة النبي ﷺ فيقول: أساس الخير متابعة النبي ﷺ في قوله وفعله[(٣)]، ثم بيّن أن الأولى للمؤمن العاقل أن يتبع السنة فيقول: والأولى للعاقل المؤمن الكيس أن يتبع ولا يبتدع ولا يغالي ويتعمق ويتكلف لئلا يضلّ ويزلّ ويهلك [(٤)]. وقد استدل أهل السنة والجماعة على ذمّ البدع ومحاربتها بالأدلة الكثيرة من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وقال ﷺ: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو [(٥)] رد، وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني أيضاً: فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول الله ﷺ والجماعة ما اتفق عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين المهديين رحمة الله عليهم أجمعين. ثم بعد هذا التعريف لأهل السنة والجماعة يحذر من أهل البدع فيقول: وألا يكاثر أهل البدع ولا يدانيهم ولا يسلم عليهم؛ لأن الإمام أحمد رحمه الله قال: من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه [(٦)]، ولقول النبي ﷺ: أفشوا السلام بينكم تحابوا [(٧)]. ولا يجالسهم ولا يقرب منهم ولا يهنيهم في الأعياد وأوقات السرور ولا يصلي عليهم إذا ماتوا ولا يترحم عليهم إذا ذكروا بل يباينهم ويعاديهم في الله عز وجل معتقداً ومحتسباً بذلك الثواب الجزيل والأجر الكثير[(٨)]. وقال: واعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها فعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر بالحشوية وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة وعلامة الرافضة تسميتهم أهل الأثر ناصبة، وكل ذلك عصبية وغياظ لأهل السنة ولا اسم لهم إلا اسمًا واحدًا وهو أصحاب الحديث ولا يلتصق بهم ما لقبهم به أهل البدع كما لم يلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار مكة له ساحراً وشاعراً ومجنوناً ومفتوناً وكاهناً، ولم يكن اسمه عند الله وعند

(١) فتوح الغيب للجيلاني المقالة الثانية ص ١٠.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني المجلس السابع والأربعون ص ١٥١.
(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٧٩). (٤) مسلم رقم ١٧١٨.
(٥) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٤٣١. (٦) مسلم رقم ٥٤.
(٧) الغنية للجيلاني (١/ ٨٠)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص٤٣١.
(٨) الغنية للجيلاني (١/ ٨٠)، الشيخ القادر الجيلاني ص ٤٣٢.

ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولاً نبياً بريئاً من العاهات كلها [١].

٣- طاعة أولي الأمر: يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني طاعة أولي الأمر حيث يقول: وأهل السنة أجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين واتباعهم والصلاة خلف كل بر منهم وفاجر، والعادل منهم والجائر ومن ولَّوه ونصبوه واستنابوه [٢].

خامساً: مفهوم التصوف عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

رسم الشيخ عبد القادر الجيلاني منهجاً متكاملاً للتصوف يجمع بين العلم الشرعي المؤسس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبين التطبيق العملي والالتزام بالشرع [٣]، فقد قال رحمه الله: انظر لنفسك نظر رحمة وشفقة، واجعل الكتاب والسنة أمامك وانظر فيهما واعمل بهما ولا تغتر بالقيل والقال والهوس، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به ولا تخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال الله عز وجل في حق قوم ضلوا سواء السبيل ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [٤] [الحديد:٢٧] وقال: يا قوم انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة، عليكم بالإيمان به صدقوا بقلوبكم واعملوا بجوارحكم واشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية [٥].

١- تعريف التصوف عند الشيخ: قال: التصوف هو الصدق مع الحق وحسن الخُلق مع الخَلق [٦]. وقال: هو تقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى وتحمل الأذى والفقر وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة والإرفاق وملازمة الإيثار ومجانبة الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم والمعاونة في أمر الدين والدنيا. وبيَّن الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التصوف يقوم على عدة خصال:

أ- السخاء: ويجعل القدوة في ذلك خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي اشتهر صلوات الله وسلامه عليه بذلك.

ب- الرضا: ويجعل القدوة فيه إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وكأنه بهذا يشير إلى أنه

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٤٧٧. (٢) المصدر نفسه ص ٥٠٧.
(٣) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة السادسة والثلاثون ص ٦٥.
(٤) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر ص ٤١.
(٥) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة السابعة والخمسون ص ١٦٦.
(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٧١).

هو الذبيح وأن استسلامه لأمر ربه ورضاه كان أبرز صفاته، وهذا القول مرجوح عند أهل السنة والجماعة، فقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - الخلاف في هذه المسألة ورجّح بالأدلة القاطعة والبراهين القوية أن الذبيح هو إسماعيل عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأزكى السلام [١].

ج- **الصبر**: والقدوة في التخلق بهذا الخلق العظيم أيوب عليه السلام، فقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]. وذلك لما تحلى به من الصبر لمواجهة تلك الابتلاءات العظيمة التي لا يكاد يطيقها بشر في جسده وماله وولده [٢].

د- **الإشارة**: ويذكر أن القدوة فيها هو زكريا عليه السلام وكأنه يشير بهذا إلى سرعة بديهته وشدة فهمه وذكائه عليه السلام، فإنه لما رأى أن الله يرزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أدرك بفطنته مدى قدرة الله عز وجل وعدم ارتباطها بالأسباب، وأن الله قادر على أن يرزقه ولداً ولو كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه واشتعل بالشيب رأسه مع كبر امرأته فدعا الله وناداه وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[٣] [آل عمران: ٣٨].

هـ- **التصوف**: والقدوة في ذلك موسى بن عمران عليه السلام. ولعله أراد بذلك الإشارة إلى الاصطفاء الذي وقع عليه من الله بقوله عز وجل: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

و- **السياحة**: ويذكر أن القدوة فيها هو عيسى ابن مريم عليه السلام.

ز- **الفقر**: ولا شك أن أعظم الناس اتصافاً بهذا الوصف وهو الافتقار إلى الله وصدق اللجوء والاعتماد عليه هو خير البشر وسيد ولد آدم محمد ﷺ والشواهد على هذا كثيرة جداً في سيرته العظيمة [٤].

والصوفي عند عبدالقادر الجيلاني هو من تحقق فيه معاني التصوف حتى صار أهلاً لأن يطلق عليه صوفي، وصفه: صوفي مأخوذ من المصافاة يعني عبد صافاه الله عز وجل، أو من كان صافياً من آفات النفس خالياً من مذموماتها، سالكاً لحميد مذاهبه، ملازماً للحقائق غير

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥١١.
(٣) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الخامسة والسبعون ص ١٦٦.
(٤) الغنية (٢/ ١٦٠).

ساكن إلى أحد من الخلائق[1]، ويضع ضابطاً دقيقاً للصوفي فيقول: «الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [2]، ويقول: الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه عز وجل وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخرق وتعفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان وحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل [3].

٢- العوامل التي أدت إلى تصوفه: هناك عوامل عدة أثرت في تكوين شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني منها:

أ - نشأته في أحضان أسرة صالحة: تتألف من والده الذي كان مشهوراً بالصلاح والعبادة وحسن السيرة، ووالدته فاطمة أم الخير بنت أبي عبد الله الصومعي المعروف بالتقوى والورع، وعمته التي كانت على جانب كبير من الخير والصلاح[4]. وقد وصف الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفسه بقوله: أهَّلني الله عز وجل ببركات متابعتي للرسولﷺ وبري بوالدي ووالدتي رحمهما الله عز وجل، والدي زاهد في الدنيا مع قدرته عليها، ووالدتي وافقته على ذلك ورضيت بفعله، كانا من أهل الصلاح والديانة والشفقة على الخلق [5].

ب - اتصاله بالصوفية في بغداد : فقد شكَّل انتقاله إلى بغداد تطوراً جديداً في حياته لما واجهه من تغير كبير في البيئة العامة والحياة الخاصة حيث اختلط بالعلماء والفقهاء، ومشايخ الصوفية، وذلك في قاعات الدروس ومجالس العلم، ووقف على انتماءاتهم ونشاطاتهم وتأثر بذلك تأثراً كبيراً، وقد بدأ وقائع دراسته بدراسة الفقه الحنبلي وقراءة القرآن الكريم ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة التصوف وعلومه وكان لصحبته للشيخ حماد الدباس الأثر الكبير في تحديد توجهاته الصوفية [6].

ج - عدم ارتياحه إلى سلوك بعض الفقهاء والوعاظ في زمانه والذين كانت تحكمهم الأهواء والمنافع الشخصية، وكانوا يثيرون الخلافات المذهبية ويغيرون انتماءاتهم طبقاً لمصالحهم الذاتية مما عمق قناعته بأن انحراف بعض الفقهاء وتكسبهم بدينهم هو نتيجة حتمية

(١) الفتح الرباني ، المجلس التاسع والخمسون ص ٢٠٧.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخامس والعشرون ص ٩٠.
(٣) بهجة الأسرار ص ٨٨، وقلائد الجواهر ص ٣.
(٤) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الواحد والستون ص ٢٢٤.
(٥) ذيل طبقة الحنابلة لابن رجب (١/٢٩٨).
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥١٧.

لفراغ قلوبهم من التقوى ومراقبة الله عز وجل، وجعله يسلك طريق التصوف لكن ثقافته الفقهية التي تستمد أصولها من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح كان لها الأثر الكبير في سلامته وعبوره ساحل النجاة وعدم تأثره بالفلسفات وعلوم الكلام [1].

د - المكانة العالية والمنزلة الرفيعة التي كانت للتصوف في زمانه: أثر الجهود الكبيرة التي بذلها الإمام الغزالي الذي اشتهر أمره وذاع صيته في بداية نشأة الشيخ عبد القادر، ويظهر تأثر الشيخ عبد القادر في كتابه «الغنية» حيث يظهر التشابه بينه وبين كتاب الإحياء للغزالي[2]، وفي نظري أن الشيخ عبد القادر بسط تعاليم الغزالي ونقحها وزاد عليها وكّون تياراً إسلاميًا متماسكاً وحول هذا التيار إلى عمل جماعي منظم منضبط، واستطاع تكوين صف قيادي مساعد له أسهموا في تشكيل التيار الإسلامي العريض.

٣ - موقفه من العلم والعمل: اهتم الشيخ عبد القادر الجيلاني بجانبي العلم النظري والعملي وفي هذا المجال قال في نصيحة وجهها إلى بعض طلاّبه: إن أردت الفلاح فاصحب شيخاً عالماً بحكم الله عز وجل وعلمه يعلمك ويؤدبك ويعرفك الطريق إلى الله عز وجل. ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بها فما تفلح أبداً[3]. وكان الجانب العلمي موضع عناية الشيخ عبد القادر الجيلاني فمن وصاياه التي كان يوجهها إلى طلاّبه ومريديه قوله: يا غلام تحفظ القرآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رسوله ﷺ ولا تعمل بها. فلأي شيء تفعل ذلك؟ تأمر الناس وأنت لا تفعل وتنهاهم وأنت لاتنتهي! قال عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. لم تقولون وتخالفون؟ أما تستحون؟! لم تدَّعون الإيمان ولا تؤمنون؟! [4]. ويؤكد على التشبيه السيء للعالم الذي لا يعمل بعلمه بقوله: مثَّل الله العالم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار فقال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] والأسفار هي كتب العلم، هل ينتفع الحمار بكتب العلم ما يقع بيده منها سوى التعب والنصب. من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربّه عز وجل وطواعيته له. يا مدعي العلم أين بكاؤك من خوف الله عز وجل؟ أين حذرك وخوفك؟ أين اعترافك بذنوبك؟ أين مواصلتك للضياء بالظلام في طاعة الله عز وجل؟ أين تأديبك لنفسك ومجاهدتها في جانب الحق وعداوتها فيه؟ أنت همك القميص والعمامة والأكل والنكاح والدور والدكاكين والقعود مع الخلق والأنس بهم[5]. وكان اهتمام الشيخ عبدالقادر الجيلاني بالجوانب التربوية

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥١٨. (٢) المصدر نفسه ص ٥١٨.
(٣) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس التاسع والثلاثون ص ١٢٧.
(٤) الفتح الرباني للجيلاني المجلس العاشر ص ٣٥. (٥) المصدر نفسه ص ٥١.

كبيراً إذ أن معظم توصياته لها علاقة مباشرة بالسلوك العملي التربوي ومن الأمثلة على ذلك تلك الخصال الحميدة التي وصّى بها والتي تحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يمكن الإنسان الاتصاف [1] بها وهي:

أ- ألا يحلف بالله عز وجل لا صادقاً ولا كاذباً ولا عامداً ولا ساهياً؛ لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه وعود لسانه دفعه ذلك إلى ترك الحلف ساهياً وعامداً، فإذا اعتاد ذلك فتح الله عليه باباً من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه ورفعة درجته وقوة في عزمه وفي صبره، والثناء عند الإخوان والكرامة عند الجيران حتى يأتم به من يعرفه ويهابه من يراه.

ب- أن يجتنب الكذب لا هازلاً ولا جاداً لأنه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه شرح الله تعالى به صدره، وصفا به علمه كأنه لا يعرف الكذب وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعيره به في نفسه، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثواب.

ج- أن يحذر أن يَعِدَ أحداً شيئاً فيخلفه ويقطع العِدَةَ البتة، فإنه أقوى لأمره وأقصد لطريقه لأن الخلف من الكذب فإذا فعل ذلك فُتح له باب السخاء ودرجة الحياء وأعطي مودة في الصادقين ورفعة عند الله جلَّ ثناؤه.

د- أن يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق أو يؤذي ذرة فما فوقها، لأنها من أخلاق الأبرار والصديقين وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في الدنيا مع ما يُدَّخَر له من الدرجات ويُستَنقَذ من مصارع الهلاك ويسلمه من الخلق ويرزقه رحمة العباد ويقربه منه عز وجل.

هـ- أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق وإن ظلمه فلا يقطعه بلسانه ولا يكافئه بقول ولا فعل، فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها إلى الدرجات العلى وإذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة والمحبة والمودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد، وعزٌّ في الدنيا في قلوب المؤمنين.

و- ألا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق فإنه أقرب للرحمة وأعلى في الدرجة وهي تمام السنة وأبعد عن الدخول في علم الله وأبعد من مقت الله، وأقرب إلى رضاء الله تعالى ورحمته، فإنه باب شريف كريم على الله تعالى يورث العبد الرحمة للخلق أجمعين [2].

ز- أن يجتنب النظر إلى المعاصي ويكف عنها جوارحه فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٢٠.
(٢) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثامنة والسبعون ص ١١٧.

في القلب والجوارح في عاجل الدنيا مع ما يدخره الله له من خير الآخرة.

ح- أن يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق مؤنة صغيرة ولا كبيرة بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه واستغنى عنه، فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين، وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة، فإذا كان كذلك نقله الله إلى الغنى واليقين والثقة به عز وجل ولا يرفع أحداً سواه ويكون الخلق عنده في الحق سواء، ويقطع بأن هذه أسباب عز المؤمنين وشرف المتقين وهو أقرب باب للإخلاص.

ط- ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين ولا يطمع نفسه فيما في أيديهم فإنه العز الأكبر والغني الخاص والملك العظيم والفخر الجليل واليقين الصافي والتوكل الشافي الصريح، وهو باب من أبواب الثقة بالله عز وجل وهو باب من أبواب الزهد وبه ينال الورع ويكمل نسكه وهو من علامات المنقطعين إلى الله عز وجل.

ي- التواضع لأن به يُشيَّد محل العابد وتعلو منزلته، ويستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق، ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة. وهذه الخصلة أصل الخصال كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى في السراء والضراء وهي كمال التقوى والتواضع وألاّ يلقى العبد أحداً من الناس إلا رأى له الفضل عليه ويقول: عسى أن يكون عند الله خيراً مني وأرفع درجة، فإن كان صغيراً قال: هذا لم يعص الله تعالى وأنا قد عصيت فلا شك أنه خير مني، وإن كان كبيراً قال: هذا عَبَدَ الله قبلي، وإن كان عالماً قال: هذا أعطي مالم أبلغ ونال مالم أنل وعلم ما جهلت وهو يعمل بعلمه، وإن كان جاهلاً قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بما يختم لي وبما يختم له. وإن كان كافراً[1] قال: لا أدري عسى أن يُسْلم فيختم له بخير العمل وعسى أن أكفر فيختم لي بسوء العمل[2].

سادساً: آداب الشيخ والمريد والصحبة عند عبد القادر الجيلاني:

١- واجبات المريد: وضع الشيخ عبد القادر جملة من الواجبات التي يلتزم بها المريد المبتدئ يمكن حصرها فيما يلي:

أ- الاعتقاد الصحيح هو الأساس ويكون على عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.

---

(١) هذه العبارة بها نظر، لأن المسلم لا يمكن أن يرى أن الكافر أفضل منه أو أنه عند الله خير منه وأرفع درجة ولعلها خرجت من الشيخ مخرج المبالغة في التواضع.
(٢) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثامنة والسبعون ص ١١٧.

ب- التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمراً ونهياً، أصلاً وفرعاً.

ج- الصدق والاجتهاد والإخلاص مع الله والوفاء بوعده وامتثال أمره والاستمرار في عبادته ومرضاته ومحبته وكل ما يؤدي إلى قربه.

د- الحذر من التقصير ومخالطة المقصرين أبناء القيل والقال، أعداء الأعمال والتكاليف المدعين للإسلام.

هـ- الاتصاف بصفة الكرم مع اليقين والاعتقاد أن الله لم يخلق ولياً بخيلاً.

و- الرضا بعدم الشهرة وخمول الذكر وترك الغرور وقتل الشهوات والرضا بالجوع والحرمان.

ز- الايثار وتقديم أقرانه عند الشيخ وفي مجالس العلم، وعند العلماء وأصحاب الفضل، فيجوع هو ويشبع الباقون، ويرضى بالذل لعز الجماعة وكرامتهم.

ح- أن يطلب من الله الستر ومغفرة ما سلف من الذنوب والعصمة فيما بقي من العمر، والتوفيق لما يحبه الله سبحانه من الأعمال الصالحة والرضا عنه في حركاته وسكناته.

ط- أن يتحبب إلى الشيوخ وإلى جميع الصالحين وأن يعفو ويصفح عن زلات الغير وإساءات الناس إليه.

ى- أن يزهد في الملذات وأن يقاوم الرغبة في التوسع في الشهوات (١).

هذه هي مجمل الواجبات التي ينبغي على المريد أن يقوم بها وهي كفيلة بطبعه على الاستقامة وكريم الأخلاق ونبل الصفات (٢).

٢- آداب المريد مع الشيخ: نظراً لأهمية صلة المريد بالشيخ فقد وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني آداباً خاصة بالمريد تجاه شيخه الذي سيصحبه وهي:

أ- طاعته وعدم مخالفته في الظاهر أو الاعتراض عليه في الباطن مع الإكثار من قراءة ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]. وإذا ظهر من شيخه ما يكرهه في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ولا يصرح به لئلا ينفر منه الشيخ بسببه.

ب- أن يستر ما قد يرى من عيوب الشيخ ويتهم نفسه فربما وقع ذلك لعدم فهمه مراد

(١) الغنية للجيلاني (٢/١٦٣) بتصرف يسير.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣٠.

الشيخ، فإذا لم يجد للشيخ عذراً استغفر له ودعا بالتوفيق، ولا يخبر أحداً بما حدث منه ولا يعتقد أن الشيخ معصوم، وإنما حصل منه وهو في غفلة.

ج- ملازمة الشيخ وعدم الانقطاع عنه وإذا حدث وأن عبس في وجهه أو غضب عليه أو أظهر إعراضًا فليفتش في نفسه وما عسى أن يكون قد وقع منه من سوء أدب أو تفريط بترك أمر الله أو فعل نهيه، وعليه أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل.

د- أن يلتزم بالآداب أمام شيخه وأن يتخير أفضل الأساليب عند التخاطب معه وأن يفعل معه ما يسره.

هـ- أن يحظى الشيخ بثقة مريده ويقينه بأنه أهل لأن يتلقى العلم والمعارف على يديه.

و- أن يحذر من مقارفة الذنوب لأنها تذهب ببركة العلم وتغير الحال كما حدث لآدم حينما أخرج من الجنة بسبب الذنب.

ز- ألا يتكلم أمام شيخه إلاَّ للضرورة وأن يسكت إذا دارت مسألة عند شيخه ولو كان الجواب عنده بل ينتظر ما يقوله شيخه ولا يعارض [1].

والذي ننبه إليه أن تكون الطاعة في المعروف، فإذا أملى الشيخ ما يوافق الكتاب والسنة فلا شك في لزوم طاعته، أما إذا أملى الشيخ ما يخالف الكتاب والسنة فالواجب عدم طاعته هذا إذا كان الشيخ معروفاً بالدين والإيمان والاستقامة والصلاح، أما من عرف بالابتداع والفجور فيجب الإنكار عليه، وبيان بدعته وفجوره وتحذير الناس منه فضلاً عن أن يطاع فيما يأمر به [2].

٣- الآداب المتعلقة بالشيخ تجاه مريده: لكي تتم عملية التربية السلوكية بنجاح ولأنها مسؤولية مشتركة تتم من طرفين هما المريد والشيخ، فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني يضع آداباً وواجبات لابد أن يراعيها الشيخ أثناء تعامله مع المريد وهي:

أ- أن يقبله لله تعالى ويتعهده بالنصيحة والرفق واللين، فيكون معه كأبيه وأمه شفقة ورحمة وألاَّ يحمله مالا يطيق، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع، ومن الرخص إلى العزائم.

ب- إذا علم منه صدق المجاهدة فلا يتهاون معه بل يلزمه بأوامر الله ويزجره عن نواهيه

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٦٤).

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣١.

ابتغاء مرضاته سبحانه دون النظر إلى عائد.

ج- أن يثبته على الطريق وألاّ يعمل ما من شأنه التنفير لأن القصد هو الله، وما كان لله دام واتصل.

د- أن يواقب سلوكه فإذا رأى مخالفة للشرع وعظه وزجره وحذره من العودة ورغبه في التوبة إلى الله.

هـ- أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق؛ لأنه محل القدوة والرحمة، يرعى مصالحه وكل مشاكله ويحمل عنه عبئه [1].

٤- آداب صحبة الإخوان: بدأ الشيخ عبد القادر الجيلاني تلك الآداب ببيان آداب صحبة الإخوان وما ينبغي مراعاته في التعامل معهم، من ذلك:

أ- الإيثار والصفح عنهم والقيام معهم في شؤونهم وتقديم الخدمة الممكنة لهم.

ب- ألا يرى له على أحد حقًا ولا يطالب أحداً بحق، بل يرى أن لكل منهم عليه حقاً ثم يجتهد في أداء حقوقهم.

ج- أن يظهر لهم الموافقة في جميع ما يقولون أو يفعلون - وهذا محمول بالطبع على قول الحق والفعل الحسن - وأن يتأول لهم ويعتذر عنهم.

د- أن يجتنب مجادلتهم ومخالفتهم ويتعامى عن عيوبهم فإن خالفه أحد منهم في شيء سلَّم له ما يقول في الظاهر وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقول [2]- وهذا أيضاً محمول على كون الخلاف في الأمور العادية والحياتية- أما إذا كان الخلاف في شيء من الشرع فلا بد من بيان الحق بدليله وعدم الموافقة على الباطل.

هـ- أن يجتنب فعل ما يكرهونه من حق أو أذية أو غيبة [3].

و- أن يكون المعيار لعلاقات الإنسان بالآخرين هو الحب في الله - عز وجل - والبغض فيه، يقول في هذا المعنى: إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبَّه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت فيهما مبغوضة، فأبشر بموافقتك لله عز وجل ولرسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى تبغضه بهواك ظالماً له ببغضك إياه وعاص لله عز وجل ولرسوله مخالف لهما، فتب إلى الله عز وجل

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٦٨) بتصرف يسير.
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣٤، الغنية للجيلاني (٢/ ١٦٩).
(٣) الغنية (٢/ ١٦٩)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣٥.

من بغضك واسأله عز وجل محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده، لتكون موافقاً له عز وجل، وكذلك افعل بمن تحبه يعني اعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحببه، وإن كانت مبغوضة فأبغضه كيلا تحبه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك، قال عز وجل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] [١]. وهكذا ومن خلال تلك الآداب فإننا نرى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يجعل من التصوف حالة انفصال عن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان لأن كماله وسمو أخلاقه لا تبرز بمجرد حصوله على المعارف والعلوم وإنما تظهر في حالة احتكاكه ومخالطته وتعامله بمن يعيش معهم في المجتمع بمختلف فئاته وطبقاته، وهو المحك الذي يظهر الإنسان على حقيقته ولذا كان لا بد من مراعاة تلك الآداب حتى تنصلح الأحوال وتتقارب القلوب [٢].

سابعاً: الأحوال والمقامات:

١- **التوبة:** قال ابن عباس رضي الله عنهما: التوبة النصوح هي الندم بالقلب، والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن والإضمار على ألا يعود [٣]، كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يركز عليها ويهتم بشأنها؛ قال العلامة أبو الحسن الندوي: ظهر في بغداد رجل قوي الشخصية، قوي الإيمان قوي العلم، قوي الدعوى، قوي التأثير هو الشيخ عبد القادر الجيلاني فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه يدخل منه المسلمون يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى [٤].
والشيخ عبد القادر الجيلاني يعتبر التوبة باب الدخول على الله سبحانه لنيل رضوانه في الدنيا والآخرة فينبغي اغتنامها وعدم تفويت فرصتها، يقول: اغتنموا باب التوبة وادخلوا ما دام مفتوحاً لكم [٥]، ويبين أن المهم ليس التوبة فحسب ولكن المهم هو الاستمرار والثبات عليها فيقول: تب واثبت على توبتك فليس الشأن في توبتك.. الشأن في ثبوتك عليها، ليس الشأن في غرسك.. الشأن في ثبوته وتغصينه وثمرته [٦]. وقد جعلها بمنزلة الماء الذي تزول به نجاسة الذنوب وقذارة المعاصي إذ يقول: يا غلام لا تيأس من رحمة الله بمعصية ارتكبتها بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها [٧].

وعن التائبين يصنف الشيخ عبد القادر الناس في التوبة إلى ثلاثة أصناف: توبة العوام وتوبة

---

(١) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الحادية والثلاثون ص ٧٥.
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٣٥ ، ٥٣٦.
(٣) التعريفات للجرجاني ص ٩٥.
(٤) رجال الفكر والدعوة نقلاً عن الشيخ عبد القادر ص ٥٩٧.
(٥) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الرابع ص ١٨.
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٥٩٧.
(٧) الفتح الرباني ، المجلس الثالث عشر ص ٤٨.

الخواص وتوبة خاص الخاص ويجعل لكل صنف منهم توبة تخصه فيقول: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله عز وجل، ثم يوضح معنى قوله تعالى:﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] بأن هذا خطاب للعموم بالتوبة وأن حقيقة التوبة في اللغة الرجوع، يقال: تاب فلان من كذا أي رجع عنه، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله عز وجل ومن جنته، وتركها مقرب إلى الله عز وجل وجنته فكأنه عز وجل يقول: ارجعوا إليَّ من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا رحمتي، الجنة العليا المعدة للأبرار(١)، كما يقرر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة وأنها تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها (٢). ثم يعرف الكبائر بأنها: ما توعَّد الله عليه بالنار أو ما أوجب عليه الحد في الدنيا وأن بعض العلماء حصرها في سبع عشرة كبيرة: أربع في القلب؛ وهي الشرك بالله والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله، وأربع في اللسان: وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر. وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا. واثنتان في الفرج وهما: الزنا واللواط. واثنتان في اليدين، وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف، وواحدة في جميع البدن: وهي عقوق الوالدين (٣). وتحدث عن صدق التوبة: وصحتها ووضع لها شروط ثلاثة:

أولها: الندم على ما عمل من المخالفات.

وثانيها: الإقلاع وترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

وثالثها: العزم على ألا يعود إلى ما اقترف من المعاصي والخطيئات (٤).

ووضع الشيخ عبد القادر الجيلاني للتوبة معياراً دقيقاً هو: توجُّع القلب عند علمه بفوات محبوبه فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته فيعزم على ألاَّ يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من شؤم ذلك (٥). ويجعل أيضاً مقياساً آخر يمكن بواسطته معرفة التوبة الصادقة وهو أربعة أشياء:

- أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.

(١) الغنية للجيلاني (١/ ١١٦).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١١٦).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١١٧).
(٤) (٥) المصدر نفسه (١/ ١٢٢).

- ألاَّ يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة.

- أن يفارق إخوان السوء.

- أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً في طاعة ربه [١].

ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة على وجهين:

أحدهما: في حق العباد بعضهم تجاه بعض، وهذا لا يتحقق إلاَّ برد المظالم والتحلل من الحقوق بإعادتها إلى أصحابها.

والثاني: يتعلق بحق الله تعالى فتكون التوبة منه بالاستغفار الدائم باللسان والندم بالقلب والإضمار على ألاَّ يعود إليه في المستقبل [٢]. هذه هي التوبة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني ونظرته إليها وتوجيهاته للتائبين، وقد أوردها بعبارات جميلة وترقيقات بديعة تدل على حساسية مرهفة لمعنى التوبة وموقف العبد منها [٣].

٢- الزهد: والشيخ عبد القادر الجيلاني يفرق بين الزاهد الحقيقي والمتزهد الصوري فيقول: المتزهد يخرج الدنيا من يديه، والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قلبه [٤] ويقول: الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه فيناولها ويلبس ظاهره بها وقلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها[٥]. ويقول: وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها، يملكها ولا تملكه، تحبه ولا يحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه، يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله عز وجل فلا تقدر الدنيا تفسده فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه[٦]. ويقول: المؤمن له نية صالحة في جميع تصرفاته لا يعمل في الدنيا للدنيا، يبني في الدنيا للآخرة، يعمر المساجد والقناطر والمدارس والربط ويهذب طرق المسلمين، وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء وما لا بدَّ له منه، يفعل ذلك حتى يبنى له في الآخرة [٧]. ويبين الشيخ عبد القادر أن الزهد ليس أمراً سهلاً يمكن الاتصاف به دون تعب أو معاناة، كما أنه ليس في قدرة كل واحد أن يكون زاهداً، لأن الزهد على حد تعبير الجيلاني: منة صالحة وإلاَّ فما يقدر أحد أن يزهد في قسمه. المؤمن يستريح من ثقل الحرص لا يشره ولا يستعجل. زهد في الأشياء قلبه وأعرض عنها سره واشتغل بما أمر به، وعلم أن قسمه لا

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٠٠.	(٢) الغنية للجيلاني (١/ ١٢٦).

(٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٠٠.

(٤) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الثلاثون ص ١٠٦.

(٥) المصدر السابق، المجلس الخامس والعشرون ص ٨٩.

(٦) المصدر نفسه، المجلس الرابع والثلاثون ص ١١٣.

(٧) المصدر نفسه ، المجلس السادس عشر ص ٥٩.

يفوته فلم يطلبه، ترك الأقسام تعدو خلفه وتدل وتسأله قبولها[1]. وقال: يا غلام هذا الزهد ليس صنعة تتعلمها وليس هو شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل[2]. والشيخ عبد القادر الجيلاني يربط بين العلم والزهد، ويرى أنه لا بد من تلازمهما للوصول إلى الله عز وجل، وهذا واضح من قوله: ما وصل من وصل إلاّ بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها بالقلب والقالب [3]. وقال: من صح زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر فيه [4]. والشيخ عبد القادر الجيلاني على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، الذي قال في الزهد: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. الثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين. وعلق ابن القيم على كلام الإمام أحمد فقال: وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه ﷺ من هذا العلم بالمحل الأعلى، وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد [5]. وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبد القادر الجيلاني لأهل السنة والجماعة في مفهوم الزهد [6].

٣- التوكل: تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني مسألة التوكل وتعرض لأربع مسائل.

- الأصل في مشروعيته وتعريف حقيقته: فقال: الأصل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وقوله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وحقيقته تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي من ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير، فيقطع العبد ألاّ تبديل للقسمة، فما قسم له لا يفوته ومالم يقدّر له لا يناله فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه [7].

المسألة الثانية: أقسام التوكل ودرجاته: يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوكل ينقسم إلى ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعد ربه وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه[8]. ولكن ابن القيم يرى أن التوكل ينقسم إلى سبع درجات:

(١) المصدر نفسه، المجلس الثامن والعشرون ص ٩٨.
(٢) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الثلاثون ص ١٠٧.
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦.
(٤) المصدر نفسه، المجلس الثاني والستون ص ٢٣٢.
(٥) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٢).
(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٠٦.
(٧) الغنية للجيلاني (٢/ ١٨٩).
(٨) المصدر نفسه (٢/ ١٨٩).

الأولى: معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته وهي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثانية: إثبات الأسباب والمسببات.

الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد المتوكل فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكل معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة. ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلاً برفض الأسباب وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها، علامة هذا ألا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه عند إدبار ما يحب وإقبال ما يكره منها، لأن اعتماده على الله وسكونه إليه، ومثل حاله كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره. كذلك المتوكل لا يأوي إلاً إلى ربه سبحانه.

الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه.

السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه، ولهذا فسَّره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

السابعة: التفويض وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً، واختياراً لا كرها واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه وتمام كفايته وحسن تدبيره، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه[1].

المسألة الثالثة: ثمرات التوكل: ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن للتوكل ثمرات فقد قال: من أحب القوة في دين الله عز وجل فليتوكل على الله عز وجل؛ لأن التوكل

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٢).

يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب، لا تتوكل على درهمك ودينارك وأسبابك، فإن ذلك يعجزك ويضعفك، وتوكل على الله عز وجل فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب [(١)]. وهذا ما أكّده شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو يوضح معنى ما نقل عن الشيخ عبد القادر الجيلاني من أنه رُئي في المنام وهو يقول إخباراً عن الحق سبحانه: من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنّا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد. فقال فالأُوليان: العبادة والاستعانة، والآخرتان الطاعة والمعصية. فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى في الحديث القدسي: **من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة** [(٢)] والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه فإنه لا حول ولا قوة إلاّ بالله. وفي الأثر: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله [(٣)]. وعن سعيد بن جبير قال: التوكل جماع الإيمان [(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].. وقوله: ومن اتبع مرادنا يعني المراد الشرعي، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].. وفي الحديث الصحيح: **لئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه** [(٥)]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦] وقوله: ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد يعني: ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله؛ رجاءً ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر [(٦)]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

المسألة الرابعة: الأسباب: بيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني اعتقاده حولها والمتضمن ضرورة الأخذ بها مع عدم الاعتماد عليها فقال: اعتقاد المتبعين لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله عز وجل يقطع به، وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله عز وجل المحرق بها، وأن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله عز وجل يشبع به، وأن الماء لا يروي بطبعه بل الله عز وجل المروي به. وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله عز وجل المتصرف فيها وبها وهي آلة بين يديه يفعل ما يشاء [(٧)]، وهذا لا يعني دعوته إلى

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثاني والأربعون ص ١٣٤.
(٢) البخاري رقم ٧٥٣٦ مسلم رقم ٢٦٧٥. (٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦١٢.
(٤) (٥) السنة، عبد الله بن أحمد رقم ٧٧٦. (٦) البخاري رقم ٧٥٣٦.
(٧) فتاوى ابن تيمية (١٠/٥٤٩)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦١٣.

ترك الأسباب أو أن هناك تعارضاً بين التوكل والأخذ بالأسباب، بل إن التوكل الصحيح في مفهوم الشيخ الجيلاني هو الأخذ بالسبب والتوكل على مسبب الأسباب إذ يقول في هذا الصدد: أعط نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب [1].

٤- الشكر: تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الشكر من خلال ثلاث مسائل:

الأولى: حقيقة الشكر: فقال رحمه الله: وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع [2].

وأما أقسامه: فإنه – رحمه الله – قد قسم الشكر إلى ثلاثة أقسام فقال: الشكر ينقسم أقساماً إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة مبعث الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشعور بإدامة حفظ الحرمة [3]. وفي موضع آخر يصف الشيخ عبد القادر الجيلاني كيفية الشكر فيقول: أما كيفية الشكر فيكون باللسان بالاعتراف بالنعمة وأنها من عند الله عز وجل وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها. وأن قاسمها ومجريها وموجودها والسبب لها هو الله عز وجل، والقاسم هو الله والمجري هو الله فهو أحق بالشكر من غيره. وأما الشكر بالقلب فبالاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد المبرم أن جميع مابك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عز وجل لا من غيره، ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك. وأما شكر الجوارح: فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله عز وجل دون غيره من الخلق فلا تجب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة بحيث تجعل طاعة الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً وما عداها فرعاً وتابعاً ومأموماً [4].

وأما أصناف الشاكرين فقد جعلهم ثلاثة أصناف:

الأول: من وصفهم بالعالمين وهم السواد الأعظم من العباد وشكرهم يكون من جملة أقوالهم.

والثاني: من وصفهم بالعابدين وهم المؤمنون على وجه العموم والمباشرون للعبادات المفروضة عليهم وشكرهم يكون نوعاً من أفعالهم.

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ١٦٧.

(٢) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٣).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٩٤).

(٤) فتوح الغيب للجيلاني ص ١٣٤.

والثالث: من وصفهم بالعارفين والمقربين وشكرهم باستقامتهم لله عز وجل في سائر أحوالهم، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر لله عز وجل بتوفيقه سبحانه [1].

٥- الصبر: تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الصبر، فقال: الأصل في مشروعية الصبر قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وقوله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[2]، وأما أنواع الصبر فقد ذكر الشيخ عبد القادر أنه على ثلاثة أضرب:

الأول: صبر لله عز وجل وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.

الثاني: صبر مع الله وهو الصبر على جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

الثالث: صبر على الله وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والثواب في الدار الآخرة [3]. وقال عن أصناف الصابرين بأنهم: ثلاثة أصناف: متصبر وصابر وصبار[4]. وأخيراً فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني عند تمييزه للصبر يرى أنه على قسمين:

أحدهما: صبر على ما هو كسب من فعل أوامر الله وترك نواهيه.

والثاني: صبر على ما ليس بكسب له مما يقدر الله عليه من قضاء فيه مشقة وألم فيصبر على ذلك [5]. وبالجملة فإن معاني الصبر تكاد تكون محصورة في الصبر على أداء الواجبات وترك المنهيات والرضا بالمقدورات وهو واضح في كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمه الله- [6].

٦- الرضا: قال الشيخ عبد القادر الجيلاني:فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله - عز وجل - خير من قضاء المرء لنفسه، وما قضاه الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك مما قضى الله عز وجل لك فيما تحب، فاتق الله تعالى وارض بقضائه قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦] يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، فالله عز وجل طوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي والتسليم في المقدور والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة، واستأثر هو عز وجل بالعواقب والمصالح فينبغي للعبد

---

(١) الغنية للجيلاني (٢/ ١٩٤)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٢١.

(٢) البخاري رقم ١٧٠٢، مسلم رقم٩٢٦. (٣) (٤) (٥) الغنية (٢/ ١٩٥).

(٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٢٥.

أن يديم الطاعة لمولاه ويرضى بما قسم الله له ولا يتهمه[1]، وقال: واعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازعته للقدر والمقدور وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء، فكل من رضي بالقضاء استراح وكل من لم يرضى به طالت شقوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلاّ بما قسم له [2].

٧- **الصدق**: والأصل فيه عند الشيخ عبد القادر الجيلاني قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة،١١٩].وما روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإيّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحري الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً [3]. والشيخ عبد القادر يحدثنا عن صدقه في أحلك الظروف، فقد كان مثالاً للصدق منذ شبابه، وهذه القصة تبين مدى صدقه حيث قال: عندما استأذنت والدتي للسفر إلى بغداد طلباً للعلم، سلمتني أربعين ديناراً وخاطتها تحت إبط قميصي وأوصتني بالصدق، وفي أثناء سفرنا خرج علينا ستون فارساً فأخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد فاجتازني أحدهم وقال لي: كم معك يا فقير؟ فقلت: أربعون ديناراً فقال: وأين هي؟ فقلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي. فظنني أستهزئ به فتركني وانصرف. ومرَّ بي آخر فقال لي: مثل ما قال الأول؛ فأجبته كما أجبت الأول فتركني وانصرف وتوافيا عند مُقَدَّمِهِم فأخبراه بما سمعاه مني فقال: عليَّ به فأُتِيَ بي إليه، وإذا هم على تَلٍّ يقتسمون أموال القافلة فقال لي: ما معك؟ قلت: أربعون ديناراً. فقال: وأين هي؟ قلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي، فأمر به فَفُتِقَ فوجد فيه الأربعين ديناراً. فقال: ما حملك على الاعتراف؟ قلت: إن أمي عاهدتني على الصدق وإني لا أخون عهدها. فبكى المقدم. وقال: أنت لم تَخُنْ عهد أمك وأنا لي كذا وكذا سنة أخون عهد ربي، فتاب على يديَّ. فقال له أصحابه: أنت كنت مقدمنا في قطع الطريق وأنت الآن مقدمنا في التوبة، فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوا منهم [4].

وللصدق عند الشيخ عبد القادر الجيلاني منزلة عالية فهو عماد الأمر وفي ذلك يقول: واعلم بأن الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

(١) الغنية للجيلاني (٢/١٩٧). (٢) المصدر نفسه (٢/١٩٧).
(٣) البخاري رقم ٦٠٩٤، مسلم رقم ٢٦٠٧، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٣.
(٤) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٤.

﴿وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وقد فرّق الشيخ عبد القادر الجيلاني بين الصادق والصديق بقوله: والصادق هو الاسم اللازم من الصدق، والصديق هو المبالغة منه وهو من تكرر فيه الصدق فصار دأبه وسجيته وصار الصدق غالبه. فالصدق استواء السر والعلانية، والصادق هو الذي صدق في أقواله، والصديق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله[1].

وهكذا يتبين اهتمام الشيخ عبد القادر وتأكيده على أهمية التخلق والاتصاف بهذه الصفات الحميدة التي تكسب العبد سعادة الدنيا وفلاح الآخرة [2].

ثامناً: تأسيس الطريقة القادرية:

تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي والمنظم والقائم على جمع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم، حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر له للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقه واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني[3]، والمطلع على سيرة الشيخ عبد القادر يرى في توجيهاته ووصاياه التي وصّى بها أتباعه الحرص على التمسك بالكتاب والسنة والالتزام بالأخلاق الحميدة وفيما يلي عرض لأبرز معالم الجانب النظري لهذه الطريقة:

١- التأكيد على التمسك بالكتاب والسنة: يقول رحمه الله وهو يوجه وصيته إلى ولده عبد الرزاق: أوصيك بتقوى الله وطاعته ولزوم الشرع وحفظ حدوده، وتعلم يا ولدي -وفقنا الله وإياك والمسلمين- أن طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة وسلامة الصدر وسخاء اليد وبذل الندى وكف الجفا وحمل الأذى والصفح عن عثرات الإخوان [4]، ويقول في موضع آخر: أدخل الظلمة بالمصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإن خطر خاطر[5] أو جًد الهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم الزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك واهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين [6].

ومن تركيز الشيخ الجيلاني على أهمية التمسك بالكتاب والسنة أن جعلهما المقياس في ربط العلاقات الشخصية بالآخرين بقوله: إذا وجدت في نفسك بغض شخص أو حبه

(١) الغنية (٢/ ٢٠٠).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٣٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٣٦، ٦٣٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٦٣٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٦٤٠.
(٦) فتوح الغيب للجيلاني ص ٦٤٠.

فاعرضه على الكتاب والسنة ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله [1].

٢- خلو طريقته من الأفكار والفلسفات التي كانت سائدة في عصره نتيجة ترجمة المعارف اليونانية وتأثيرها على العقول والأفهام، حتى وقع في حبائلها كثير من المتصوفة فاستخدموا ألفاظها ومصطلحاتها مثل الهيولي [2]، والعرض، والجوهر [3].

٣- تركيزه على الاهتمام بالجوانب العملية: وتجنب الإغراق في الأمور النظرية والمقدمات الجدلية العقيمة دليل ذلك ما طبقه في حياته وماربّى عليه أتباعه وما وضعه من أصول لطريقته التي تعتمد على سبعة أصول هي: المجاهدة، التوكل، حسن الخلق، الشكر، الصدق، الرضا، الصبر [4]. وقد تحدثنا عن هذه الأصول بالتفصيل في مبحث المقامات والأحوال.

٤- وضعه لمجموعة من الآداب والتعاليم التي يجب أن يتعامل بها المنتسب لطريقته سواء مع النفس أو مع الشيخ أو مع الناس، وقد تكلمنا عن ذلك.

٥- تأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها، والبعد عن نواهيه واجتنابها، والرضا بأقدار الله والاستسلام لها فيقول: رحمه الله: لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتثله ونهي يجتنبه وقدر يرضى به، فأقل حالة المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي أن يلزم همها قلبه، ويحدث بها نفسه، ويؤاخذ الجوارح بها في سائر أحواله [5]. وقد شرح ابن تيمية كلام الشيخ عبد القادر واستحسنه بقوله: هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد، وهي مطابقة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، ولقوله تعالى: ﴿ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ولقوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور، فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله وهو أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به وطاعة الله ورسوله هي عبادته التي خلق لها الجن والإنس، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٤٠.

(٢) الهيولى: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة وهو جوهر في الجسم.

(٣) الجوهر: ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع وهو مختصر في خمسة أشياء هيولى وصورة وجسم ونفس وعقل .

(٤) الغنية للجيلاني (٢/ ١٨٢).

(٥) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الأولى ض ٦.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] ثم مضى – رحمه الله – في توجيه كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني وشرح مراده من تلك العبارات [١].

هذه هي أهم الأسس التي أوصى بها الشيخ عبد القادر أتباعه المتسبين لطريقته [٢]. وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر الجيلاني واعتبره من ضمن أئمته فقد قال:.. والذي نختار قول أئمتنا.. ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني.

تاسعاً: الخطوط العريضة لدعوته الإصلاحية:

- بدء الدعوة وأسلوبه في ذلك: يُرجع المؤرخون ظهور عبد القادر إلى عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م [٣]. والواقع أن عبد القادر بدأ دعوته قبل ذلك، فهو يذكر أنه سبق جلوسه للوعظ فترة التهيؤ النفسي وتشجيع الأصحاب والمحبين، وأنه بدأ مجلسه بالرجلين والثلاثة ثم تزاحم الناس حتى صار مجلسه يضم سبعين ألفاً [٤]، ثم تزايد الإقبال حتى ضاقت المدرسة، فخرج إلى سور بغداد بجانب رباطه، وصار الناس يجيئون إليه ويتوب عنده الخلق الكثير [٥]، ومنذ ذلك الوقت بدأ عبد القادر دعوته والتي تميزت بأمور منها:

١- اعتماد التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة: كان الشيخ أبو سعيد المخرمي قد أسس مدرسة صغيرة في باب الأزج (حي من أحياء بغداد) فلما توفي آلت إلى تلميذه عبد القادر الجيلاني فعمد إلى توسيعها وإعادة بنائها، كما أضيف إليها عدد من المنازل والأمكنة التي حولها. ولقد بذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم [٦]. وروى لنا المؤرخون – أثناء ذلك – صوراً من البذل والتضحية يكشف عن مدى تعلق الأتباع بالشيخ، من ذلك امرأة فقيرة قررت المساهمة في عمارة المدرسة فلم تجد شيئاً، وكان زوجها من العمال فجاءت إلى الشيخ عبد القادر تصحب زوجها وقالت: هذا زوجي ولي عليه من

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٤٥٦).
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٦٤٣.
(٣) نشأة القادرية، د. ماجد الكيلاني ص ٧٩.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦.
(٥) المنتظم (١٠/ ٢١٩).
(٦) المصدر نفسه (١٠/ ٢١٩)، طبقات الحنابلة (١/ ٢٩١).

المهر قدر عشرين ديناراً ذهباً ولقد وهبت له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي، ثم سلمت الشيخ خط الاتفاق الذي وقعته مع زوجها، فكان الشيخ يشغله في المدرسة يوماً بلا أجرة ويوماً بأجرة، لعلمه أنه فقير لا يملك شيئاً، فلما عمل بخمسة دنانير أخرج له الخط ودفعه له، وقال له: أنت في حِل من الباقي [1]. ولقد اكتمل بناء المدرسة عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م، وصارت منسوبة إلى الشيخ عبد القادر حيث جعلها مركزاً لنشاطات عديدة منها التدريس والإفتاء والوعظ[2]. وأما تمويل المدرسة فقد أوقف الأتباع والأغنياء عليها أوقافاً دائمة للصرف على الأساتذة والطلاب [3]. ومنهم من أوقف الكتب لمكتبتها[4]، وكان لها خدم مهمتهم العناية بأمورها وخدمة الأساتذة والطلاب [5].

وكرّس الشيخ عبد القادر معظم أوقاته للمدرسة فكان لا يخرج منها إلا يوم الجمعة إلى المسجد أو الرباط، ولقد قام أسلوبه في التدريس والتربية على مراعاة استعدادات كل طالب والصبر عليه، وكان يعتز بمهنة التدريس هذه ويعتبرها «أشرف منقبة وأجل مرتبة». وأن العالم محبوب من أهل الأرض، وأنه سيُميَّزُ يوم القيامة عمن سواه ويعطي درجات أسمى من غيره [6]. لقد أمضى الشيخ عبد القادر في التدريس ثلاثاً وثلاثين سنة بدأها عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م حتى وفاته عام ٥٦١هـ/ ١١١٦م [7] ، ولا تزال المدرسة باقية إلى اليوم[8]، ولها مكتبة فيها مخطوطات شهيرة وتعرف باسم المكتبة القادرية [9]. والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه الشيخ عبد القادر، يكشف عن تأثر كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون [10]. وإليك تفاصيل البرنامج المذكور:

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩١)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦.
(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص.١٨٦.
(٣) شذرات الذهب نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٦. (٥) المصدر نفسه ص ١٨٧.
(٦) سر الأسرار، لعبدالقادر الجيلاني نقلا عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٨.
(٧) قلائد الجواهر ص ٣٢، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٨.
(٨) مدارس بغداد في العصر العباسي ص ١٥٤.
(٩) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٨٨. (١٠) المصدر نفسه ص ١٨٩.

أ - الإعداد الديني والثقافي: يتحدد هذا الإعداد بحسب عمر الطالب أو المريد وحاله، فإذا كان ممن يقصدون تصحيح العبادة كالكبار من الناس والعامة درس له الشيخ عقيدة أهل السنة وفقه العبادات اللذين تضمنهما كتابه «الغنية لطالبي طريق الحق» الذي صنّفه على طريقة كتاب «إحياء علوم الدين للغزالي» واقتفى الموضوعات نفسها التي عالجها الغزالي في كتابه المذكور. ويضاف إلى ذلك دراسات تستهدف إعداد النابه من الدارسين ليكون داعية بين الناس مثل أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووسائله وأساليبه، ودراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة والفرق السائدة[1]، بالإضافة إلى التدريب على الوعظ والخطابة والتدريس[2]. وأما إذا كان الدارس طالباً من طلبة المدرسة، فإنه يتلقى إعداداً أوسع يتضمن حوالي ثلاثة عشر علماً تشمل التفسير والحديث والفقه الحنبلي، والخلاف والأصول والنحو والقراءات بالإضافة إلى ما سبق ذكره، على أنه كان يستبعد علم الكلام والفلسفة وينهى عن مطالعة كتبها السائدة [3]، وكان الجمع بين الفقه والتصوف السني شرطاً أساسياً للمريدين، فقد روى ابن تيمية - في مجلدي التصوف وعلم السلوك - من الفتاوى كيفية تقيد منهج عبدالقادر بالأصول الواردة في القرآن الكريم والسنة والتزامه تزكية النفس في منهاجه التربوي [4].

ب- الإعداد الروحي: يستهدف الإعداد الروحي تربية إرادة المتعلم أو المريد حتى يصبح صفاء بلا كدر، ويصير مع النبيﷺ في عقله ومشاعره ومعناه ويكون دليل قدوته [5].

ولكي يصل المتعلم إلى ذلك، عليه أن يلتزم السنة في كل شيء وأن يتصف بصفات أساسها المجاهدة والتحلي بأعمال أولي العزم، وقد بينت تلك الصفات عند حديثي عن موقفه من العلم والعمل. وكان يرافق الممارسات العملية التي دعا إليها الشيخ دراسات نظرية حول مقصود المجاهدات والعبادات التي يمارسها المريد في حياته اليومية، وبذلك أقام التزكية الروحية على قاعدة فكرية تستهدف إقناع المريد بما يمارسه، فكان هناك دراسات حوال الأوراد والأذكار [6]، ودراسات عن التقوى والورع، ودراسات عن أحوال النفس ومداخل الشيطان ودراسات عن الأخلاق التي يجب أن يكون المريد عليها. ويحتوي كتابا

---

(١) الغنية (١/ ٧١ - ٨٤). (٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٤٣٥.
(٣) قلائد الجواهر ص ٣.
(٤) الفتاوى ، علم السلوك ج ١٠ ، كتاب التصوف ج ١١.
(٥) الفتح الرباني ص ٢٠٦، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٠.
(٦) الغنية (٢/ ٨١-٨٦)، الفتح الرباني ص ٨٥.

(الغنية) و(فتوح الغيب) فصولاً مطولة مما اعتمده الشيخ عبد القادر في ذلك [1].

ج- الإعداد الاجتماعي: ويستهدف هذا الإعداد توثيق العلاقات بين الأفراد والجماعات والقضاء على أسباب التفكك الاجتماعي الذي ساد المجتمع في عصره، والميدان الذي كان يتم به هذا الإعداد هو المدرسة القادرية نفسها حيث يتدرب المريد على ما يجب أن يتحلى به الفرد خارج المدرسة في المجتمع الكبير. ويشمل هذا الإعداد تنظيم حياة المريد الخاصة؛ وعلاقات المريدين بالقيادة المتمثلة بالشيخ؛ وعلاقاتهم ببعضهم البعض؛ وعلاقاتهم بالمجتمع المحيط، أما عن حياة المريد الخاصة، فقد حدد المنهاج القادري آداباً تنظم دقائق السلوك اليومي للفرد كاللباس والنوم والدخول والخروج والزينة والجلوس والسير والطعام والشراب، ومعاملة الزوجة والأبناء والوالدين، والإقامة والسفر، وفي جميع هذه الآداب يسترشد بما ورد في السنة النبوية. كذلك حرص الشيخ عبد القادر أن يبتعد بالمريد عن كل ما ينزل من مكانته الاجتماعية كالبطالة والعيش على هبات المحسنين، وسؤال الناس، وحثه على الاشتغال بالكسب والتجارة مع مراعاة قواعد الأخلاق والأمانة [2]. وأما عن تنظيم علاقة المريد والطالب بالشيخ، فقد أوجب عبد القادر على المريد طاعة الشيخ في الظاهر والباطن وأن لا ينقطع عنه وأن يستشيره في جميع شؤونه، وفي المقابل أوجب على الشيخ أن يعامل مريديه بالحكمة والشفقة، وأن يؤدبهم ابتغاء مرضاة الله، وأن يكون لهم ملجأ وسنداً وراعياً، فإذا لم يكن في هذه المنزلة فليترك شيخه وليعد إلى شيخ يؤدبه [3]. وحدد القاعدة التي يعتمدها المريد في صحبة الأغنياء والفقراء بما يلي: أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل... وعليك بصحبة الفقراء والتواضع وحسن الأدب والسخاء.. وعلى المريد أن يحذر من الضعف أمام عطاء الأغنياء، أو يطمع بنوالهم، لأن تملقهم من أخطر الأمور على دين المرء وعلى خلقه، شريطة أن لا يحقد عليهم، وأن يحسن الظن بهم وأن لا يتعالى عليهم [4].

٢- الوعظ وموضوعاته: بالرغم من اشتغال عبد القادر بالتدريس وإعداد المربين، فإنه لم ينقطع عن مجالس الوعظ العامة التي استهدفت إيصال دعوته إلى عامة الناس، فخصص لذلك ثلاثة أيام في الأسبوع: صباح الجمعة، ومساء الثلاثاء في المدرسة، وصباح الأحد في الرباط[5]. ويذكر التادفي أن الحضور كانوا يدونون هذه المواعظ حتى عُدَّ في مجلسه مقدار

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٢. (٢) المصدر نفسه ص ١٩٣.
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٤.
(٤) الغنية (٢/ ١٢٨ - ١٥٤)، فتوح الغيب ص ٧٥، ١٦٧.
(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٥.

أربعمائة محبرة [(١)]. وقد جُمع قسم كبير من هذه المواعظ أو المجالس -كما كانت تسمى- في كتاب يُعرف باسم «الفتح الرباني» مع تحديد تواريخها وأمكنة إلقائها، كان الشيخ عبد القادر - في مواعظه - شديد الحماسة للإسلام مشفقاً لما آلت إليه تعاليمه في حياة الناس ويود لو استطاع استنفار الخلق جميعاً لنصرة الإسلام، يقول في أحد مجالسه: دين محمدﷺ تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه. هلموا يا أهل الأرض نُشيّد ما تهدم ونقيم ما وقع، يا شمس ويا قمر، ويا نهار تعالوا [(٢)]. ويقول في موعظة أخرى: سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي. إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء. آخرتي قد حصلت لي عند ربي عز وجل. ما أنا بطالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة، ولا سوى الحق عز وجل. فرحي بفلاحكم وغمي لهلاككم، إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبعت وارتويت واكتسيت وفرحت كيف خرج من تحت يدي[(٣)]. ومن أقواله كذلك: ألا إني راع لكم، ساق لكم، ناطور لكم، ما ترقيت ها هنا وأرى لكم وجود الضر والنفع بعد ما قطعت الكل بسيف التوحيد. ألزمت هذا المقام.. حمدكم وذمكم وإقبالكم وإدباركم عندي سواء. كم من يذمني كثيراً ثم يتقلب ذمه حمداً. كلاهما من الله لا منه، إقبالي عليكم لله، أخذي منكم لله، لو أمكنني دخلت مع كل منكم القبر وجاوبت عنه منكراً ونكير رحمة وشفقة عليكم [(٤)].

بهذا الحماس، انطلق الشيخ عبد القادر يستنفر المسلمين إلى الالتفاف حول الإسلام، ويدعوهم إلى العودة إلى تعاليمه وحمل رسالته. وكان يرى أن صلاح دين الفرد لا يتم إلا بإصلاح القلب وفك إساره من حب الدنيا والأخلاق الذميمة ومن كل ما يشغل عن الله، ومن هنا كثرت في مواعظه دعوة الناس إليه للتربية والتزكية [(٥)]، وكانت مواعظه وخطبه بعضها موجه لنقد العلماء والحكام، والدعوة لإنصاف الفقراء والعامة.

أ- انتقاد العلماء: كان الغالبية من العلماء في عهده يتنافسون فيما بينهم على اعتلاء منابر الوعظ والخطابة في الأماكن المشهورة ويسعون في إيذاء بعضهم بعضاً عند الخليفة والوزراء والحكام، ومنهم من عرف بسوء الخلق، ومنهم من اشتغل بالخصومات المذهبية، شاهد الشيخ عبد القادر عن كثب كل ذلك وأمثاله، فشن حملة شديدة على هذا النوع من العلماء واعتبرهم تجاراً يتاجرون بالدين ويساهمون في ارتكاب المحظورات. ومن مواعظه العامة في ذلك قوله: يا سلاّبين الدنيا بطريق الآخرة من أيدي أربابها. يا جهالاً بالحق؛ أنتم

(١) قلائد الجواهر ص ١٨. (٢) الفتح الرباني ص ٢٩٥.
(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٦.
(٤) (٥) الفتح الرباني نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٧.

أحق بالتوبة من هؤلاء العوام، أنتم أحق بالاعتراف بالذنوب من هؤلاء؛ لا خير عندكم [1] وقال في موعظة ألقاها في المدرسة في ٩ رجب ٥٤٦هـ/ ١١٥١م: لو كانت عندك ثمرة العلم وبركاته لما سعيت إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها، العَالِم لا رجلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق، والزاهد لا يَدَيْن له يأخذ بهما أموال الناس، والمحب في الله لا عينين له ينظر بهما إلى غيره [2].

وحذّر عامة الجماهير من حضور مواعظهم والاستماع إلى أحاديثهم فقال: يا عباد الله... لا تسمعوا من هؤلاء الذين يُفرحون نفوسكم. يذلّون للملوك ويصيرون بين أيديهم كالذر لا يأمرونهم بأمر ولا ينهونهم عن نهي. إن فعلوا ذلك فعلوه نفاقاً وتكلفاً، طهر الله الأرض منهم ومن كل منافق أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه.. إني أغار إذا سمعت واحداً يقول: الله الله وهو يري غيره [3].

وهاجم المتعصبين للمذاهب ومن ذلك قوله: دع عنك الكلام فيما لا يعنيك. اترك التعصب في المذاهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة[4]. ولم تنقطع حملات عبد القادر على العلماء والفقهاء [5] المنحرفين عن هدى المصلحين والعلماء الربانيين وكان هجوم الشيخ عبد القادر على العلماء المنحرفين يريد به تصحيح الوضع السائد والمساهمة في تخريج جيل من العلماء الربانيين الذين يقومون بوعظ الناس وهدايتهم وتزكيتهم ونشر التعاليم الصحيحة في أوساط الأمة حتى يخرج جيل النصر المنشود الذي يتحقق على يديه وعد الله بالنصر للمؤمنين، وقد حالف الشيخ عبد القادر الكثير من النجاح بحمد الله في تحقيق هذه المهمة.

ب- انتقاد الحكام: وخص الشيخ عبد القادر الحاكمين بانتقاداته وحذر الناس من الانصياع لهم بما يخالف الشريعة، يقول في أحد مجالسه: صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة. قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوة آلهة، ويحكم، جعلتم الفرع أصلاً، المرزوق رازقاً، والمملوك مالكاً، والفقير غنياً، والعاجز قوياً، والميت حياً.. إذا عظمت جبابرة الدنيا وفراعينها وملوكها وأغنياءها ونسيت الله عز وجل ولم تعظمه، فحكمك حكم من عبد الأصنام[6]، وانتقد الولاة والموظفين الذين يجتهدون في تنفيذ أوامر السلاطين دون تحرز؛ يقول في إحدى مواعظه: يا غلام:.. اخدم الحق عز وجل ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاطين الذين لا يضرون ولا

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٨. (٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢.
(٣) الفتح الرباني ص ٢٤٥؛ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٩.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ١٩٩. (٥) المصدر نفسه ص ٢٠١.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٠١.

ينفعون، أيش يعطونك؟ يعطونك مالم يقسم لك؟ أو يقدرون يقسمون لك شيئاً لم يقسمه الحق عز وجل؟ لا شيء مستأنف من عندهم، إن قلتَ إن عطاءهم مستأنف من عندهم كفرت [1].

ولم تتوقف انتقادات عبد القادر للحكام عند المواعظ العامة، وإنما تناولت المواقف الخاصة التي تبرز فيها انحرافات أو مظالم، ففي عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م ولى الخليفة المقتفي يحيى بن سعيد المعروف بابن المرجم القضاء. فمضى الأخير في ظلم الرعايا ومصادرة الأموال وأخذ الرشاوي، فكتبت ضده المنشورات وألصقت في المساجد والشوارع دون أن يستطيع أحد أن يجهر بمعارضته. ويذكر سبط ابن الجوزي أن الشيخ عبد القادر اغتنم وجود الخليفة في المسجد وخاطبه من على المنبر قائلاً: وليت على المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غداً عند رب العالمين، فعزل الخليفة القاضي المذكور[2]. ولقد تكررت هذه المواقف مع الوزراء والرؤساء والحُجَّاب، وتذكر المصادر التاريخية أن هؤلاء كانوا يستمعون لملاحظات عبد القادر لاعتقادهم بصلاحه وصدق أغراضه وكراماته [3]، فلقد حرص عبد القادر على أن يبقى بعيداً عن مواطن الشبهات أو التقرب للحكام، فقد ذكر عنه أنه ما ألمّ بباب حاكم قط وأنه تتناوله يده [4].

ج - انتقاده للأخلاق الاجتماعية السلبية في عهده:

نظر الشيخ عبد القادر إلى المجتمع المعاصر له على أنه مجتمع الرياء والنفاق والظلم وكثرة الشبهة والحرام. وهذه صفات أحالت كل شيء فيه إلى مظاهر خاوية فيها ولا معنى[5]، يستوي في ذلك المتدينون وغيرهم. يقول في إحدى مواعظه: هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق. قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق، فقد صار معظم الناس بلا خالق. كلكم موتى القلوب أحياء النفوس والأهوية طالبون للدنيا[6]. وقال في إحدى المواعظ: ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم، تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاطين والأغنياء. أكل فلان، واستغنى فلان، افتقر فلان.. كل هذا هوس ومقت وعقوبة، توبوا واتركوا ذنوبكم وارجعوا إلى ربكم دون غيره، اذكروه وانسوا غيره [7].

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠١.
(٢) مرآة الزمان (٨/ ٢٦٥)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٢.
(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٢).
(٤) قلائد الجواهر ص ١٩-٣٠، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٣.
(٥) (٦) (٧) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٣.

د - الدعوة لإنصاف الفقراء والعامة: ركز الشيخ عبد القادر على نصرة الطبقة العامة والفقراء خاصة، فجعل الاهتمام بشؤونهم من شروط الإيمان، وشن حملة شديدة على الولاة الذين يظلمونهم وعلى الأغنياء الذين يخصون أنفسهم دون إخوانهم من الفقراء «بأطيب الأطعمة وأحسن الكسوة وأطيب المنازل وأحسن الوجوه وكثرة الأموال» فأفتى بأن انتسابهم للإسلام دعوى كاذبة وذريعة لحقن دمائهم بالشهادتين [(١)]. ولقد جعل عدم التفرقة بين الغني والفقير من شروط تقدم المريد في مقامات التزكية، أو نجاة المسلم من عقاب الله[(٢)]. وشدّد في وصيته المشهورة لولده عبد الرزاق على خدمة الفقراء وحسن صحبتهم والتعامل معهم: حسبك من الدنيا شيئان: صحبة فقير وحرمة ولي. وعليك يا ولدي أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل[(٣)]. ولم يقف اهتمام الشيخ عبد القادر بالفقراء عند حد الوعظ، وإنما ترجمه لعمل واقع. فكان يفتح بابه للفقراء والغرباء ويقدم لهم المنام والغذاء ويحضرون الدرس ويعطيهم ما يحتاجون [(٤)]. كان يرى هذا الأسلوب من أفضل الأعمال، فلقد نقل عنه قوله: فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، ولا أشرف من الخُلُق الحسن، أودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمها الجائع، كفّي مثقوبة لا تضبط شيئاً، لو جاءني ألف دينار لم تَبِت عندي [(٥)]. لهذا كله، أقبلت العامة والفقراء على عبد القادر إقبالاً شديداً وتحمسوا له [(٦)]. وتاب على يديه أعداد كبيرة من أهل بغداد، فقد روي عنه قوله: وتاب على يدي من العيّارين والمسالحة أكثر من مائة ألف وهذا خير كثير [(٧)].

٣- التصدي للتطرف الشيعي الباطني وللتيارات الفكرية المنحرفة:

تعرض الشيخ عبد القادر الجيلاني لعقائد الفرق الإسلامية المختلفة، ويلاحظ على مناقشته لهذه الفرق أمران: الأول إنه لم يطمس أقوالها عن فرقة السنة التي ينتمي إليها، من ذلك قوله أن المعتزلة تسمى السنة مجبرة لقولها: أن جميع المخلوقات بمشيئة الله وقدرته وإرادته وخلقه، وأن المرجئة تسميها شكاكية لقول واحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى. وكان يذكر أقوال الفرق المختلفة في السنة ثم يرد عليها ويحذر منها لأن السنة هم الفرقة الراشدة الناجية[(٨)]. والثاني أن مناقشته لفرق المعتزلة [(٩)]، والمرجئة والخوارج والقدرية

(١) الفتح الرباني ص ٦٤ ، ٦٥، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٥٢، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٥.
(٣) الفيوضات الربانية ص ٣٥ = ٣٧.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٥.
(٦) المنتظم (١٠/ ٢١٩).
(٧) قلائد الجواهر للتادفي ص ١٩ .
(٨) الغنية (١/ ٨٤)،نشأة القادرية ص ١٢٦.
(٩) نشأة القادرية ص ١٢٦.

والجهمية، وما انقسموا إليه من فروع تدل على إطلاع واسع على تاريخ هذه الفرق وعقائدها ومقارنتها بعقائد أهل السنة [1]... وناقش عقائد الشيعة ففصل في ذلك تفصيلاً واضحاً مستعرضاً تاريخ الشيعة وفرقهم، ثم ناقش عقائدهم سواء ما يتعلق بقضايا السياسة والمجتمع أو القضايا الاعتقادية الغيبية، وأصدر أحكاماً عليها من حيث الإسلام أو الكفر وهو في مناقشته لعقائد الشيعة حاول أن يتتبع أصولها فجعل لبعض هذه العقائد جذوراً يهودية من ذلك قوله: قالت اليهود لا تصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من ولد علي بن أبي طالب، وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال وينزل بسبب من السماء، وقالت الروافض: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينادي مناد من السماء. وتؤخر اليهود صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم وكذلك الروافض يؤخرونها... واليهود يبغضون جبريل عليه السلام ويقولون هو عدونا من الملائكة، ولذلك صنف من الروافض يقولون: غلط جبريل عليه السلام بالوحي إلى محمد ﷺ وإنما بعث إلى علي ﷺ [2]، وأنكر على الشيعة قولهم بعدم إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان [3]، وبين أن علياً ﷺ بايعهم[4]، وكان الشيعة يقصدون مجالس الشيخ عبد القادر وكان يناقشهم في عقائدهم[5]. ويظهر الدور الكبير الذي لعبته الحركة القادرية في مقاومة التشيع المتطرف - أو التيار الفاطمي - الباطني ومساهمتها الفعّالة في تقويض دولة الفاطميين العبيديين في مصر والتمهيد لدخول جيوش نور الدين محمود، كما سيأتي بيانه في محله بإذن الله. وكان دور الشيخ عبد القادر الجيلاني في التصدي للشيعة الرافضة الباطنية كبيراً، ولذلك كان موقف الشيعة الرافضة من الشيخ عبد القادر عنيفاً ومليئاً بالحقد والبغض على المستوى السياسي والفكري، فقد كانت مدرسة عبد القادر وضريحه وآثاره وأسرته أول الأهداف التي تعرضت للتنكيل في كل مرة يدخل فيها أمراء الشيعة الرافضة إلى بغداد، ففي عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م احتل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد، فخرب المدرسة ونكل بالأسرة الكيلانية تنكيلاً شديداً وفرقهم في البلاد [6]، حتى إذا فتح السلطان سليمان القانوني العثماني بغداد أعاد للمدرسة هيبتها القديمة وأمر باصلاحها.. وعمّر الرباط وعين لها أوقافاً كثيرة [7]، ثم توالت الإصلاحات والإضافات من

---

(١) نشأة القادرية ص ١٢٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٨، الغنية (١/ ٧٩).
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٨، الغنية (١/ ٦٨).
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٨.
(٥) القلائد للتادفي ص ٣٠، نشأة القادرية ص ١٢٨.
(٦) نشأة القادرية ص ١٢٩.
(٧) المصدر نفسه ص ١٢٩.

قبل الولاة أمثال الوند زاده علي باشا وسنان [1] باشا، وفي أثناء الاحتلال الإيراني الثاني ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م قام صفي قولي بهدم مشهد الشيخ عبد القادر وخرب مدرسته ونكل بأسرته. وبقي الاحتلال حتى قيام مراد الرابع العثماني بفتح بغداد عام ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م وقيامه على تعمير المكان [2]. وأما موقف الكتاب الشيعة من الشيخ عبد القادر فيمثله مؤرخهم الكبير ومرجعهم في السير الخوانساري لترجمة الشيخ عبد القادر فقال: وضعته العامة العمياء في أرفع مكان، وفتحوا له في سوق التصنع والمخادعة للعوام دكاناً فوق دكان، بل جعلوا مكمن جسده كصنم من الأصنام العظام، وأن الرجل عدل عن دائرة العدل، وغفل عن قاعدة الشرع إلى ما هنالك من السباب والشتائم، وأنكر كراماته وطعن في نسبه [3].

٤- إصلاح التصوف: أعطى الشيخ عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف، وإعادته إلى مفهوم «الزهد» ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع، ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان:

أ- تنقية التصوف مما طرأ عليه: من انحرافات في الفكر والممارسة ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية، هدفها الأساسي غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح. ويمثل كتاباه «الغنية لطالبي طريق الحق» و«فتوح الغيب» خلاصة أفكاره في هذا المجال. ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى «كتاب السلوك» وقدمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث والوعظ وإنما طبقه في ميدان التربية العملية في مدرسته ورباطه [4].

ب- الحملة على المتطرفين من الصوفية: حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على من تلبسوا بالتصوف أو شوهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان بتغيير الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجردهما عمّا سوى مولاه عز وجل [5]، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألحان والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة، وقرر أن المريد

(١) العراق بين احتلالين للعزاوي (٤/١١٩).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٣٤)، نشأة القادرية ص ١٢٩.
(٣) روضات الجنان (٥/ ٨٥ - ٨٩)، نشأة القادية ص ١٢٩.
(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٩.

الصادق لا يهيّجه كلامٌ غير كلام الله وهو في غنى عن الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدعين، وشركاء الشياطين ركاب الأهوية، مطايا النفوس والطباع، أتباع كل ناعق وزاعق[1].

ج- محاولة التنسيق بين الفرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها: في الفترة الواقعة بين عامي ٥٤٦هـ - ٥٥٠هـ (١١٥١م - ١١٥٥م) جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ولتحقيق هذا الهدف عُقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة على المستوى التنظيمي والمستوى النظري، وتصدر الشيخ عبد القادر الزعامة وكان أول الاجتماعات التي إستهدفت توحيد القيادة عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد، حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني - خلال موسم الحج- حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الشيخ عبد القادر الجيلاني من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب [2] في ذاك العصر) كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم [3]. وفي نفس الفترة جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ رسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام[4].
ثم تلا ذلك اجتماع موسع، حضره جمع كبير من الشيوخ الذين يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار مهمة منها:

- وحدة العمل لدى مدارس الإسلام عامة، فقد أصبح للزعيم الشيخ عبد القادر اجتماعات متوالية مع كبار الشيوخ، يناقشون ما تحيله إليهم المدارس والأربطة في العالم الإسلامي من قضايا ومشكلات.

- إن المدارس والرباطات المختلفة أخذت ترسل إلى المدرسة القادرية النابهين من طلابها والمتقدمين من مربيها الذين ترى فيهم مؤهلات المشيخة في المستقبل، كما فعل الشيخ

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٠٩.
(٢) طبقات الحنابلة (٣٠٦/١)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٥.
(٣) (٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٥.

أبو مدين المغربي حين أرسل أحد مريديه - صالح بن ويرجات الزركالي - إلى بغداد حيث أكمل علوم الفقه وسلوك الزهد على يد الشيخ عبد القادر لإكمال سلوك الزهد وعلوم الإرادة [1].

- إن إحكام الربط بين تعليم الفقه وسلوك الزهد أدى إلى خفة - بل ربما اختفاء - معارضة الفقهاء وإلى التعاون بين الطرفين، بل صار الفقهاء يجمعون بين الفقه والزهد ويسمون ذلك تكامل الشريعة والطريقة. وهذا الأمر جعل ابن تيمية يعتبر عبد القادر وأقرانه من قادة مدارس الإصلاح نماذج فريدة في الجمع بين الفقه والزهد، فأطلق عليهم اصطلاح «الشيوخ الكبار المتأخرين» ونوّه في فتاويه بمزاياهم وتجردهم، واستقامتهم، ولذلك تم [2] الاتفاق على رؤية مشتركة للعمل والتعاون على تحقيق الأهداف المتفق عليها، وتقليل مساحة القضايا المختلف فيها مع وضع الخلاف في إطاره الطبيعي.

- خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف، وإسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي، فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحران وجبال هكار ودمشق، ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين فصلاح الدين، واستمر هذا التعاون حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد ورباطاتها، وبَنَيا لها فروعاً جديدة وأوقفا عليها الأوقاف، وفي المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعّالة ناجحة [3].

٥- النهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يرى الشيخ عبدالقادر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة أساسية لبقاء المجتمع وسيادة الخير فيه، فإن تُرك تطرق الفساد إليه. وهو واجب على كل مسلم وكل حسب مستواه ودوره؛ فالسلاطين إنكارهم باليد، والعلماء إنكارهم باللسان، والعامة إنكارهم بالقلب [4]، والعلماء هم الفئة التي تقرر ما هو معروف مباح، وما هو منكر محرم، أما السلاطين، والعامة فعملهم تنفيذ ما يقرره العلماء في هذا المجال، وللعلماء الذين يتسنمون هذه المنزلة صفات تحددهم في العلماء السالكين طريق الزهد دون سواهم هذه الصفات هي:

- أن يكون القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عالماً.

(١) بهجة الأسرار ص ١٠٧، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٧.
(٢) (٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٤٧.
(٤) الغنية (١/ ٤٤، ٤٥).

- أن يكون عالماً بالمنكر الذي ينهى عنه على وجه قطعي لما في ذلك من خوف الوقوع في الظنون والإثم. فالواجب إنكار ما ظهر وعدم بحث ما ستر لأن الله نهى عن ذلك[1].

- أن يكون قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه لا يؤدي إلى فساد عظيم وضرر في نفسه وماله وأهله [2].

وحدد عبد القادر لأساليب الأمر بالمعروف شروطاً وهي كما يلي:

- أن يستعمل اللين والتودد، لا الفظاظة والغلظة. وعليه أن يتحلى بالشفقة على الخلق لوقوعهم في مصايد الشيطان.

- أن يكون صبوراً متواضعاً، زائل الهوى، قوي اليقين، حكيماً يعرف كيف يعالج الأمور.

- أن يأمر العاصي وينهاه في خلوة بما ذلك من إمكانية قبول النصيحة، فإن لم ينفع استعان عليه بأهل الخير، فإن لم ينفع فبأصحاب السلطان [3].

- عدم الخوض في مسائل الاختلاف أمام من يعتقدونها، فمثلاً في مذهب الحنابلة ينكرون اللعب بالشطرنج بينما يجيزه الشافعية، فالدخول في مثل هذه القضايا يثير تصلب المخالفين من المذاهب الأخرى ويفتح باباً للجدل والخصومة، فالحكمة هنا واجبة، وأدب العالم أولى من علمه [4].

٦- مدارس النواحي والأرياف والبوادي:

تعتبر مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد من المدارس المركزية في عاصمة الدولة العباسية في عهد نور الدين زنكي، ويعتبر الشيخ عبد القادر أحد رواد المدارس الإصلاحية التي أثرت في حركة النهوض ومقاومة الغزاة، إلا أن هناك مدارس متعددة أسهمت في دعم الدولة الزنكية والأيوبية ومن أهمها:

أ- المدرسة العدوية: أسس هذه المدرسة الشيخ عدى بن مسافر الذي أدرجه ابن تيمية في قائمة (كبار الشيوخ المتأخرين) وأضاف أنه كان رجلاً صالحاً وله أتباع صالحون [5]، ونشأ عدي في قرية يقال لها: «بيت فار» في منطقة البقاع غربي دمشق، تتلمذ على الشيخ عقيل المنيحي ثم رحل إلى بغداد حيث صحب الشيخ حماد الدباس وغيره واجتمع هناك بالشيخ عبدالقادر الجيلاني وأبي الوفاء الحلواني، وأبي نجيب السهروردي، ثم ركز على خاصة

(١) (٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢١٦.

(٣) (٤) نشأة القادرية ص ١٦٨.

(٥) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف (١١/١٠٣).

نفسه، بأنواع المجاهدات والتهذيب زمناً طويلاً، ولذلك كان الشيخ عبد القادر يثني عليه كثيراً ويقول: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر[1]. قضى الشيخ عدي زمناً في مجاهدة «خاصة نفسه» بالتزكية، ثم عاد للمجتمع واستقر في منطقة «جبال هكار» في شمال العراق بين قبائل الأكراد الهكارية، حيث بنى له مدرسة وأقبل عليه سكان تلك النواحي إقبالاً هائلاً، لما رأوا من زهده وصلاحه وإخلاصه في إرشاد الناس[2]، ويصف ابن خلكان أثر الشيخ عدي في مجتمع الأكراد الهكارية فيقول: سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد[3]. ويذكر الذهبي أن من الآثار التي أحدثها الشيخ عدي بين الأكراد الهكارية انتشار الأمن في تلك المنطقة وارتداع مفسدي الأكراد وتوبتهم حتى صار لا يخاف أحد في تلك المنطقة الجبلية التي لم تكن آمنة قبل ذلك، وأنه انتفع به خلق كثير وانتشر ذكره.

لقد وصف الحافظ عبد القادر الرهاوي شخصية الشيخ عدي ومكانته فقال: ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات ثم سكن بعض جبال الموصل في موضع ليس به أنس، ثم أنس الله تلك المواضع به وعمّرها ببركاته حتى صار لا يخاف أحد بها بعد قطع السبل، وارتدع جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وعمّر حتى انتفع به خلق، وانتشر ذكره، وكان معلماً للخير، ناصحاً متشرعاً، شديداً في الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، عاش قريباً من ثمانين سنة، مابلغنا أنه باع شيئاً ولا اشترى ولا تلبس بشيء من أمر الدنيا، كانت له غليلة يزرعها بالقدوم من الجبل ويحصدها ويتقوت، وكان يزرع القطن ويكتسي منه، ولايأكل من مال أحد شيئاً، وكانت له أوقات لا يُرى فيها محافظة على أوراده، وقد طفت معه أياماً في سواد الموصل، فكان يصلي معنا العشاء ثم لا نراه إلى الصبح. ورأيته إذ أقبل إلى قرية يتلقاه أهلها من قبل أن يسمعوا كلامه تائبين رجالهم ونساؤهم إلا من شاء الله منهم، ولقد أتينا معه على دير رهبان فتلقانا منهم راهبان، فكشفا رأسيهما وقبّلا رجليه وقالا: ادع لنا فما نحن إلا في بركاتك وأخرجا طبقاً فيه خبز وعسل فأكل الجماعة. وخرجت إلى زيارة الشيخ أول مرة، فأخذ يجادلنا ويسأل الجماعة ويؤانسهم. وكان يواصل الصوم الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه، حتى أن بعض الناس كان يعتقد أنه لا يأكل شيئاً قط، فلما بلغه ذلك أخذ شيئاً وأكله بحضرة الناس. واشتهر عنه الرياضات والسير والكرامات والانتفاع به ما لو كان في القديم لكان أحدوثة. ورأيته قد جاء إلى الموصل فخرج إليه

---

(١) النجوم الزاهرة (٥/ ٣٦٢).

(٢) (٣) وفيات الأعيان (٣/ ٢٥٤)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٢٥.

السلطان وأصحاب الولايات والمشايخ والعوام حتى آذوه ممن يقبّلون يده، فأجلس في موضع بينه وبين الناس شباك بحيث لا يصل إليه أحد إلا رؤية، فكانوا يسلمون عليه وينصرفون ثم رجع إلى زاويته [1]. قال عنه الذهبي: الشيخ الإمام الصالح القدوة، زاهد وقته [2].وقد ظهرت الآثار العلمية والعملية لمدرسة عدي بن مسافر في الدور الكبير الذي لعبه أكراد جبل هكار - فيما بعد - في جيش صلاح الدين حيث شكّلوا أهم فرقة، واحتل عدد منهم منزلة الأمراء والقادة الذين حقّقوا الانتصارات وأنجزوا الفتوح [3]. توفي الشيخ عدي بن مسافر في بلدة الهكارية ودفن بها عام ٥٥٧هـ [4].

ب- مدرسة عثمان بن مرزوق القرشي: أسس هذه المدرسة الشيخ عثمان في «مصر» وكان يُعد من أعيان المشايخ الذين جمعوا بين الشريعة والزهد. كان حنبلي المذهب، وكانت له علاقات مع الشيخ عبد القادر الجيلاني. لقد لعب - فيما بعد - دوراً مهمًا في تمهيد الأجواء لحملات نور الدين على مصر. استمر الشيخ عثمان في عمله بالقاهرة حتى وفاته عام ٥٦٤هـ عن عمر يناهز السبعين ودفن بجانب قبر الإمام الشافعي [5].

ج- مدرسة أبو مدين المغربي: اشتهرت هذه المدرسة في «المغرب» وعرفت باسم الشيخ أبي مدين شعيب بن حسين الأندلسي الذي نشأ في منطقة أشبيلية في الأندلس، ودرس فيها على مذهب الإمام مالك بن أنس، ثم سلك طريق الزهد وجال في المغرب واستوطن مدة في مدينة (بجاية) إلى أن استقر به الطواف في مدينة «تلمسان»، وبدأ في الإرشاد والتدريس حيث تخرج على يديه الكثير من شيوخ المغرب وزهادها [6]، ويصف الذهبي الشيخ أبا مدين بأنه كان من أهل العمل والاجتهاد والانقطاع للعبادة والنسك والتربية [7]. كذلك اعتبره ابن تيمية من كبار الشيوخ المتأخرين الذين كانوا على طريقة صالحة ومنهج مستقيم [8]. واستمر أبو مدين مواظباً على التدريس والعبادة حتى وافاه الأجل حوالي عام ٥٩٠هـ وكان آخر كلامه: الله الحي، ثم فاضت نفسه [9].

د- مدرسة أبو السعود الحَريمي: درس في المدرسة القادرية وتربّى على الشيخ عبد القادر وصار المشار إليه بعده، وصار له القبول التام عند الخاص والعام، وأسس مدرسة خاصة به ونجح نجاحاً قويًا بين جماهير الفقراء وفتح لهم بابه [10].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٤٣،٣٤٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٤٢).
(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٥٦.
(٤) قلائد الجواهر ص ٨٥ - ٩٠.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٣ - ١١٤.
(٦) المصدر نفسه ص ١٠٨ ، ١٠٩، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٣٧.
(٧) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢١٩، ٢٢٠).
(٨) فتاوى ابن تيمية ، كتاب التصوف (١١/ ٦٠٤).
(٩) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٢٠).
(١٠) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٣٧.

هـ - مدرسة ابن مكارم النعال: تنسب هذه المدرسة إلى محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الذي كان يُشرف على رباط الوافدين من خارج بغداد والعراق إلى المدرسة القادرية ثم استقل بعد وفاة عبد القادر وصار يخرج بأصحابه لينكروا المنكر ويريقوا الخمور ويتعرضوا للأذى في سبيل ذلك [1].

و - مدرسة عمر البزاز: تنسب هذه المدرسة إلى عمر بن مسعود البزاز الذي وصف بأنه من أعيان أصحاب عبد القادر. شاع ذكره وأقبل عليه الأتباع، وتاب على يده خلق كثير من مماليك الخليفة، ويذكر ابن النجار أنه كان يحضر مجالسه [2].

ز - مدرسة الجبائي: أسسها عبدالله الجبائي الذي كان في الأصل مسيحياً من قرية «جبة» في جبل لبنان سُبي وهو فتى ثم نُقل إلى دمشق حيث أسلم هناك، فاشتراه على بن إبراهيم بن نجا أحد أصحاب عبد القادر، فأعتقه ثم أرسله إلى بغداد عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م حيث لازم الشيخ عبد القادر وصحب ابن قدامة في الدراسة، وتدل أخباره أن الشيخ عبد القادر كان يرعاه ويوده. نال الجبائي منزلة عالية في بغداد وظل يعمل مع الشيخ حتى وفاته، فرحل إلى أصبهان حيث درس وأفتى حتى وفاته عام ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م عن أربع وثمانين سنة[3].

ح - مدرسة الشيخ ماجد الكردي: أسس هذه المدرسة ماجد الكردي في منطقة «قوسان» في العراق، وكان قد اشتهر أمره في تلك المنطقة وقصده المريدون والأتباع من مختلف أرجائها. وكان على علاقة وطيدة بالشيخ عبد القادر الذي كان يجله ويثني عليه، ولقد استمر في عمله حتى وفاته عام ٥٦٢هـ[4].

ط - مدرسة حياة بن قيس الحراني: الشيخ القدوة الزاهد العابد، شيخ حرّان، وزاهدها: حياة بن قيس ابن رَجَّال بن سلطان الأنصاري الحراني، صاحب أحوال وكرامات وإخلاص وتعفف وانقباض، كانت الملوك يزورونه، ويتبرَّكون بلقائه، وكان كلمة وفاق بين أهل بلده وقيل: إن السلطان نور الدين زاره، فقوى عزمه على جهاد الفرنج ودعا له، وإن السلطان صلاح الدين زاره وطلب منه الدعاء [5]. وقد تخرج على يد الشيخ حياة الجم الغفير من الأتباع والمشايخ الذين استأنفوا منهجه في الدعوة والإصلاح، وانتمى إليه أعداد عظيمة من الناس وأشار إليه العلماء بالاحترام والتقدير. وكان أهل حران وما حوله يجلّونه ويقصدونه بالزيارة وطلب الدعاء للاستسقاء. لقد استمر في عمله حتى

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٣٧.

(٢) نشأة القادرية ص ١٩٤ - ٢١٢.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٥ - ٤٧).

(٤) قلائد الجواهر ص ١٠٧.

(٥) سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٨١ - ١٨٢).

وفاته في حران نفسها عام ٥٨١هـ [١].

وقد ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مدارس أخرى كمدرسة الشيخ رسلان الجعبري، ومدرسة عقيل المنيحي، ومدرسة الشيخ علي بن الهيتي، ومدرسة الحسن بن مسلم، ومدرسة الجوسقي، ومدرسة الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، ومدرسة مولى الزولي، ومدرسة محمد بن عبد البصري، ومدرسة القيلوي، ومدرسة علي بن وهب الربيعي، ومدرسة الشيخ بقا بن بطو[٢]. ومما يكمل الصورة للمدارس التي تناولها البحث في مدارس النواحي والأرياف والبوادي أن نقول إنها كانت تطبق منهاجاً موحداً في التربية والتدريس يتطابق إلى حد كبير إلى التعاليم والمبادئ التي دعا إليها الغزالي والجيلاني، وإنها كانت امتدادا أصغر في الأرياف والجبال والبوادي بحيث يمكن القول إنها بلغت المئات، لأن الأمر لم يتطلب أكثر من استقرار أحد الخريجين في مسجد من مساجد الريف مثلاً، أو الإقامة في رباط أو زاوية وتكريس الوقت للتدريس وسلوك الزهد [٣].

٧- التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية:

تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية [٤]. وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة الشيخ عبد القادر، كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصرة الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدو مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي:

أ- الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي: قامت المدرسة القادرية بدور مهم في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة. ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون « باسم المقادسة» نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس. وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد في ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمرين: الأول: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين. والثاني: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٣٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٤ - ٢٣٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٨.
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٧.

تجسيد لسياسات الإصلاح، ولابد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة [(١)]، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية[(٢)]، وكانت المدرسة القادرية، والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تأتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا طريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تُعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية. ويذكر سبط ابن الجوزي في كتابه «مرآة الزمان» أن والد موفق الدين بن قدامه حين نزح من بلاده إلى دمشق كان يقوم بنشاط دائب لحشد الطاقات في مواجهة الاحتلال الصليبي، وأن داره في دمشق كانت ملتقى القيادات الفكرية والسياسية، وأن نور الدين زنكي نفسه كان يداوم على حضور هذه اللقاءات [(٣)].

ب- هجرة العلماء والعمل في المدارس النورية: تداعى العلماء وخريجو المدارس الإصلاحية من كل قطر للعمل في المدارس التي أنشأها نور الدين وصلاح الدين. ومن ذلك ما قام به خريجو المدرسة القادرية حيث كان على رأس المهاجرين إلى هناك موسى بن الشيخ عبد القادر الذي قدم إلى دمشق واشتغل بالتدريس حتى وفاته عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م [(٤)]. كذلك بنى نور الدين مدرسة في حرّان وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات المتوفى (٦٠٦هـ/١٢٠٩م) والذي درس على الشيخ عبد القادر ثم عاد إلى الشام، كذلك أسند نور الدين إليه التدريس في المدرسة المسمارية، وأسند إليه القضاء [(٥)]، ولقد استمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد [(٦)]، كذلك بنى نور الدين مدرسة أخرى في حرّان أسلمها إلى حامد بن محمود المتوفى عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م الذي لازم الشيخ عبد القادر ودرس عليه، وكان نور الدين يقبل عليه وله فيه حسن ظن [(٧)].

ج- المشاركة في الجيش والجهاد العسكري: وأبرز المدارس التي رفدت هذا الميدان هي

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٥.
(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة ص ٢٧٥.
(٣) مرآة الزمان (٨/ ٣١٤،٣١٣).
(٤) شذرات الذهب (٥/ ٩٩)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٦.
(٥) العبر (٥/ ١٧)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٧.
(٦) الدارس في أخبار المدارس (٢/ ١١٥).
(٧) طبقات الحنابلة نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٧.

المدرسة العدوية وفروعها، التي أسسها الشيخ عدي بن مسافر في جبال هكار، فقد شكل خريجو هذه المدارس من الأكراد الهكارية والروادية جمهرة أمراء الجيش وقادة الفتح وجنوده، ويأتي على رأس هذه الجماعات أسرة صلاح الدين الأيوبي وهي من الأكراد الروادية، وأصلهم من بلدة «دوين» من أعمال أذربيجان، والروادية قبيلة كبيرة. ولقد وُلد أيوب والد صلاح الدين في البلدة المذكورة ومنها خرج والده شاذي مع ولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت حيث مات الوالد شاذي، وولد الحفيد صلاح الدين، ثم لم يلبث الأخوان أن رحلا والتحقا بخدمة عماد الدين زنكي[1]. وأما الأكراد الهكارية فقد شكّلوا فيما بعد أمراء جيش صلاح الدين وقادته ومن أشهرهم الأمير سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن في أمراء الدولة أحد يضاهيه في المنزلة وكانوا يسمونه الأمير الكبير، توفي في القدس عام ٥٨٨هـ وقد وصف القاضي الفاضل موته بأنه: تهدم به بنيان قوم والدهر قاض ما عليه لوم [2]، ويأتي تفصيل ذلك عند حديثنا عن الدولة الأيوبية بإذن الله تعالى.

د- المشاركة في ميادين السياسة: اشتغل نفر من تلاميذ المدرسة القادرية مع نور الدين ثم صلاح الدين في السياسة ولعب بعضهم أدواراً في غاية الخطورة، ومن الأمثلة على ذلك أسعد بن المنجا بن بركات فقد أشار ابن رجب إلى أنه بالإضافة إلى عمله في التدريس والقضاء كان له اتصال بالملوك وخدمة السلاطين[3]. وكذلك علي بن برداون بن زيد الكندي الذي حظي عند السلطان نور الدين [4]، ويشابههما حامد بن محمود الحراني الذي صحب عبد القادر ودرس عليه، وعندما انتهى من الدراسة ذهب إلى دمشق حيث اتصل بنور الدين فولاّه التدريس والقضاء والمظالم في حران. ويذكر ابن رجب أنه «رحل إلى بغداد ونزل بمدرسة الشيخ عبد القادر وجاء إلى دمشق في حوائج إلى نور الدين [5]، وكذلك زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي وصف لقاءه بالشيخ عبد القادر فقال: فاشتغلت عليه بالعلم، ففتح الله عز وجل عليَّ في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد[6]. ولقد قدر لابن نجا هذا أن يكون من رجال صلاح الدين ومستشاريه وقد أرسله الشيخ عبد القادر الجيلاني للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السنية بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية في مصر، وقد قام ابن نجا بدور خطير ومهم

(١) وفيات الأعيان (٧/ ١٣٩ - ١٤٣). (٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٩.
(٣) طبقات الحنابلة (٢/ ٤٩)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٩.
(٤) (٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٨٠. (٦) قلائد الجواهر ص ٣٣.

في زحف جيش نور الدين إلى مصر انتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام، فلو تتبعنا مسيرة ابن نجا هذا بعد أن استأذن عبد القادر بالرحيل إلى مصر لوجدناه يتوجه إلى دمشق، ويستقر بها مدة ليست قصيرة حيث اشتغل بالوعظ والتدريس، ثم وفد إلى بغداد عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م رسولاً لنور الدين حيث خلع عليه الخليفة، وبعد ذلك مباشرة يدخل مصر ويتصل بالخلافة الفاطمية وينال الحظوة عند حكّام الدولة الفاطمية[(١)]. ويذكر ابن رجب أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس لعبد القادر وسأله عن إمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر. فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة وكل محاولة سريعة لابد أن تفشل، فجري الأمر كما ذكر[(٢)]. وكان الشيخ عثمان يرأى أن يسبق غزو شيركوه لمصر مزيد من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله بما يشيعه زعماء التصوف السني والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه، وأما عن خطوة ابن نجا في بلاط الفاطميين، فكانت من ضمن الخطة التي استهدفت اختراق البلاط الفاطمي لمعرفة مواطن الضعف والقوة عندهم، ودعم التعبئة الفكرية، التي كان يقودها أمثال الشيخ عثمان بن مرزوق، لأن ابن نجا قد قام بنفس الدور الاستطلاعي في مناسبة تالية[(٣)]، وتبدو أهمية الدور الذي لعبه زين الدين بن نجا في كشفه لمؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م وسيأتي الحديث عنها بإذن الله عند بيان فقه نور الدين زنكي في إسقاط الدولة الفاطمية.

٨- صفاته ووفاته: وصف موفق الدين بن قدامة المقدسي الشيخ عبد القادر فقال: كان الشيخ عبد القادر نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر، عريض اللحية وطويلها، أسمر مقرون الحاجبين، أدعج العينين، ذا صوت جهوري وسمت وقدر[(٤)]، وكان وافر النشاط دائم الحركة يرى في الشتاء وكأنه في الصيف يتصبب العرق من جسده[(٥)]، وكان يلبس هيئة مخصوصة ويتطليس ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه[(٦)]. وقد أطنب المؤرخون الذين ترجموا لعبد القادر في وصف أخلاقه، فذكروا أن سكوته كان أكثر من كلامه، فإذا تكلم كان كلامه على الخواطر، وكان دائم البشر شديد الحياء، لين الجانب، وكانت له عناية بالفقراء والمساكين فقد كان يجالس الفقراء ويغلي لهم ثيابهم، ويقف مع الصغير ولكنه يحرص على أن لا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة، وكان لا يرد سائلاً، وكان يكرم جليسه بحيث

(١) مرآة الزمان (٨/ ٥١٥)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٨١.
(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٨)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٨١.
(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٨٢. | (٤) مرآة الجنان لليافعي (٣/ ٣٥٢).
(٥) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٩).
(٦) عوارف المعارف ص ٣٥٦، نشأة القادرية ص ١٣١.

لا يظن أن أحداً أكرم عليه منه، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسأل عن شأنهم ويحفظ ودهم ويعفو عن سيئاتهم ويصدق من حلف له ويخفي علمه فيه، وكان يأمر كل ليلة بمد السماط ويأكل مع الأضياف والفقراء، وكان إذا أهديت له هدية فرقها أو بعضها على من حضر ويكافيء عليها مهديها[1]، مع أنه لم يكن يخرج من مدرسته إلا للمسجد أو الرباط، فقد كان سريع الذهاب لمشاركة الناس أحزانهم، فلو راجعنا ماكتبه ابن الجوزي، وابن رجب، وسبط ابن الجوزي، وابن خلكان، والذهبي، وابن العماد الحنبلي لوجدنا الكثير من المتوفين المشهورين من العلماء وأرباب الخير يقال عن أحدهم «صلى عليه الشيخ عبد القادر» [2] وكان كثير الإقبال على الطاعة والخضوع إلى الله وكان كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة [3]، وكان له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه من الرستاق يزرعها له كل سنة وكان بعض أصحابه يطحنها ويخبز له منها ويكون غذاؤه [4] منها، وكان لا يمس الذهب بيده فإذا جاء أحد بذهب قال له: ضعه تحت السجادة، فإذا جاء خادمه قال له: خذ ما تحت السجادة وأعطه الخباز والبقال.[5]

- **وفاته:** أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبدالقادر الجيلاني -رحمه الله- قد توفي عام ٥٦١هـ [6]، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة [7]، وقيل: إنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط [8]. وقد سأله ابنه عن مرضه فقال له: لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلّب في علم الله عز وجل، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وسأله ابنه الشيخ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال رحمه الله: جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله عز وجل. وكان يقول رحمه الله تعالى: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت. وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: استعنت بلا إله إلا الله سبحانه من تعزَّز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة: تعزز فظل يرددها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة، رحمه الله [9].

(١) نشأة القادرية ص ١٣٢. (٢) المنتظم (١٠/ ٨٥، ١٢٢)، نشأة القادرية ص ١٣٢.
(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٢)، نشأة القادرية ص ١٣٣. (٤) نشأة القادرية ص ١٣٣.
(٥) بهجة الأبرار ص ١٠٤، نشأة القادرية ص ١٣٣. (٦) الشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٦٥.
(٧) نشأة القادرية ص ١٣٣
(٨) الشيخ عبد القادر الجيلاني لعبد الرزاق الكيلاني ص ٢٦٥.
(٩) المصدر نفسه ص ٢٦٦.

وقبل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب الوصية فقال له: عليك بتقوى الله عز وجل وطاعته ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترج أحداً سوى الله، وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل، واطلبها جميعها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، وعليك بالتوحيد، جماع الأمر كله التوحيد. ثم قال: مروا بأخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغير، والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ [1]. وقد تم دفنه ليلاً في مدرسته ولم يتمكن أهله وأصحابه من دفنه في النهار من كثرة الزحام، إذ خرج أهل بغداد وامتلأت الحلبة والأسواق والدروب، وقد ولد له تسع وأربعون ولدا، سبعة وعشرون ذكراً، والباقي إناث وتزوج أربع زوجات، وفيما يتعلق بزواجه قال الشيخ عبد القادر: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله تعالى إليّ أربع زوجات، ما منهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة[2]. ومن أقواله: الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربّك [3]. وقال عنه الذهبي: ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، لكن كثيراً منها لا يصح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة [4].

وقال عنه ابن كثير: وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً. وقد صنّف كتاب «الغنية» «وفتوح الغيب» وفيها أشياء حسنة ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار، قدّس الله روحه ونور ضريحه[5].

* * *

(١) الفتح الرباني ص ٣٧٣، فتوح الغيب ص ١٣٠.
(٢) قلائد الجواهر ص ٤١ أي أنهن بنات أغنياء أو يعرفن صنعة من الصناعات.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٥٠).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٤٥٠).
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٤٢٠).

الفصل الثالث

سياسة نور الدين الخارجية

المبحث الأول

علاقته مع الخلافة العباسية

عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر الله ٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٦-١١٦٠م، والمستنجد بالله ٥٥٥ - ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ - ١١٧٠م، والمستضيء بالله ٥٦٦ - ٥٧٥هـ/ ١١٧١ - ١١٨٠م إذ اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك، جميع البقاع الإسلامية الأخرى(١)، وقد ساعد على تمتع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين يحيى بن هبيرة، وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض فقد أسهمت مؤسسة الخلافة في المقاومة للغزو الصليبي متمثلاً ذلك في دعم نور الدين في أرض الثغور ببلاد الشام دينياً واقتصادياً وسياسياً.. إلخ متوازيًا ذلك الدعم، مع التأكيد على معاني الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات وجماهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها. وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض عديدة منها: روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوغى، وزعامة شعبيةٍ روحية مخلصة لدين الله أسهمت في تقوية المقاومة للصليبيين، وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة وتحقيق التوازن العسكري ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون والعسكريون والعلماء الربانيون.

أولاً: الخليفة المقتفي لأمر الله:

هو: أمير المؤمنين، أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله بن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر، الهاشمي العباسي البغدادي الحبشيُّ الأم، وقد بويع بالخلافة في سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمس مئة (٢).

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٥٨.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٩٨).

كان المقتفي عاقلاً لبيباً، عاملاً مهيباً، صارماً، جواداً محباً للحديث والعلم، مكرماً لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تدين وحسن سياسة، جدد معالم الخلافة، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه [1]، وأقام حشمة الخلافة واقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم، وكان من السلاطين في خلافته صاحب خراسان سنجر بن ملكشاه، والملك نورالدين صاحب الشام، وأبوه قسيم الدولة [2]. ولقب بالمقتفي لأنه يقال: إنه رأى النبي ﷺ وهو في المنام وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك فاقتف بي، فصار إليه بعد ستة أيام فلُقِّبَ بذلك لذلك [3].

١- سياسته الحكيمة: لم يكن الخليفة المقتفي لأمر الله أكثر حظاً من سلفه من حيث معاملة السلاجقة له إلا إنه كان دون شك أكثر قابلية ودهاء من الخليفة الراشد بالله، لقد حاول الخليفة المقتفي لأمر الله سياسة اقتناص الفرص من أجل تأكيد سلطة الخلافة والقضاء على النفوذ السلجوقي، كما أنه لم يذعن لطلبات السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه بن أرسلان، وقال له عندما أرسل وزيره يطلب منه مائة ألف دينار: ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى، وإن الراشد ولي ففعل ما فعل ورحل، وأخذ ما تبقى ولم يبق إلا الإثاث فأخذته كله! وتصرفت في دار الضرب، وأخذت التركات والجوالي، فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار وتتسلمها فإني عاهدت الله لا آخذ من المسلمين حبة ظلماً، فترك السلطان الأخذ من الخليفة. وعندما نشب الخلاف بين أمراء السلاجقة استغله الخليفة لصالحه، واستطاع أن يحصل على موافقة السلطان مسعود السلجوقي بإنشاء جيش في بغداد تابع للخلافة مباشرة، وكان ذلك إنجازاً كبيراً للخليفة المقتفي، ثم جاءت وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة ٥٤٧هـ فارتفعت معنويات أهل العراق وأطلقت يد الخليفة لكي يثبت مركزه ويوسع دائرة نفوذه الذي امتد ليشمل الحلة والكوفة وواسط والبصرة ثم تكريت، وتفرغ الخليفة لأحوال العراق الداخلية، فأصلح سور بغداد، ورمم مواضعها الدفاعية، واسترد الإقطاعات السلجوقية، وخرج بنفسه يقاتل من عاداه، يساعده في ذلك وزيره المعروف عون الدين بن هبيرة [4]، فنجح الخليفة الذي دام حكمه ٢٤ سنة في إزالة الكثير من النفوذ السلجوقي في العراق، وعمل على تقوية الجيش، وحفظ الأمن والاستقرار، وأصبح هو الذي يختار من

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٠٠).
(٢) المصدر نفسه (٢٠/ ٤٠١).
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٣١٠).
(٤) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ص ١٤ نقلاً عن الكامل في التاريخ.

يشاء من الأمراء للسلطة[1]. ويقول ابن الأثير: إن الخليفة المقتفي أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن (زمن القائل)، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه[2]. ومن هنا يتضح أن الخليفة أصبحت بيده السلطة الحقيقية وأن الخلافة علت مكانتها وهيبتها، وزاد احترام الأمراء وولاة الأقاليم لها[3]. ومن أراد التوسع في جهود المقتفي لإنهاء التسلط السلجوقي واقتلاعه من العراق وإرجاع الهيبة والقوة والسطوة لمؤسسة الخلافة فليراجع كتاب الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية للأستاذ محمد حسون الجبوري[4].

٢- وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله: قال ابن كثير في أحداث سنة ٥٥٥هـ: فيها كانت وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأمه نسيم المدعوة: ستّ السادة، سمراء من خيار الجواري؛ مرض بالتراقي، وقيل: بدُمَّل خرج من حَلْقِه. فمات ليلة الأحد ثاني ربيع الأوَّل من هذه السنة عن ست وستين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ودفن بدار الخلافة ثم نقل إلى التراب، وقد كان شجاعاً مقداماً، يباشر الحروب بنفسه وشاهد الحروب ويبذل الأموال الكثيرة لأصحابه الأخيار، وهو أوَّلُ من استبَّد بالعراق منفرداً عن السلاطين، من أوّل أيام الديلم إلى أيامه، وتمكن من الخلافة وحكم على العسكر والأمراء [5].

ثانياً: الوزير يحيى بن هبيرة:

الوزير الكامل، الإمام العالم العادل عون الدين، يمين الخلافة، أبو المظَفَّر يحيى بن محمد ابن هبيرة بن سعيد بن الحسن بن جهم، الشيباني الدوريُّ العراقي الحنبلي صاحب التصانيف. ولد عام ٤٩٩هـ ودخل بغداد في صباه، وطلب العلم، وجالس الفقهاء، وتفقه بأبي الحسين بن القاضي أبي يعلي والأدباء، وسمع الحديث، وتلا بالسَّبع، وشارك في علوم الإسلام، ومهر في اللغة، وكان يعرف المذهب والعربيّة والعروض، سلفي أثري، ثم أمضّه الفقر، فتعرض للكتابة، وتقدَّم وترقَّى، وصار مشارف الخزانة، ثم ولي ديوان الزمام للمقتفي لأمر الله ثم وزر له في سنة ٥٤٤هـ، واستمر ووزر من بعده لابنه المستنجد[6]، وكان ديِّنًا خيِّراً متعبِّداً عاقلاً وقورًا متواضعًا، جزل الرأي بارًّا بالعلماء، مكباً مع أعباء الوزارة على

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن سياسة الخليفة الناصر لدين الله ص ١٤.
(٢) المصدر نفسه ص١٤. (٣) المصدر نفسه ص ١٤.
(٤) الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية، محمد الجبوري ص ١٧ إلى ٣١.
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٣٩٣). (٦) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٢٦).

العلم وتدوينه، كبير الشأن، حسن الزمان [1].

١- سعيه لتقوية مؤسسة الخلافة: كان مبالغاً في تحصيل التعظيم للدولة، قامعاً للمخالفين بأنواع الحيل، وحسم أمور السلاطين السلجوقية [2]. وقد أورد المؤرخون عدة أسباب لتولي ابن هبيرة الوزارة منها أن الخليفة المتقفي لأمر الله كان معجباً بكفايته وشهامته وإخلاصه في أداء عمله [3]، ومنها أن الخليفة أمر ابن هبيرة - وكان يتولى ديوان الزمام - أن يكتب للسلطان السلجوقي مسعود شكوى في شحنة بغداد الذي لم يكن على وفاق مع الخليفة، فكتب ابن هبيرة رسالة طويلة للسلطان السلجوقي ذكر فيها ما عرف عن سلاطين السلاجقة من حسن الطاعة، والتأدب مع الخلفاء، والحرص على الذب عنهم ممن يحاول النيل منهم، وأشار إلى شكوى الخليفة المقتفي لأمر الله بألا يؤدي أي مبلغ من المال لمحمد شاه بن السلطان محمود، مقابل رفع حصاره عن بغداد، لأن هذا سيكون حافزاً للسلاجقة للمطالبة بالمزيد، وأشار بصرف المبلغ المطلوب، وقدره ثلاثون ألف دينار، في إعداد جيش للخلافة من الترك والأكراد وأهل بغداد وأعمال العراق لصد قوات محمد شاه، فقبل الخليفة رأي ابن هبيرة وفوضه في إعداد هذا الجيش، فلم تمض أيام قليلة حتى اجتمع عسكر كثير، فخرج به ابن هبيرة لقتال محمد شاه وأصحابه، فهزمهم، فلما أيقن الخليفة بحسن رأي ابن هبيرة استدعاه وولاه الوزارة سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م [4]، قال ابن الجوزي: كان يجتهد في اتباع الصواب، ويحذر من الظلم ولا يلبس الحرير، قال لي: لما رجعت من الحِلَّة، دخلت على المقتفي، فقال لي: ادخل هذا البيت، وَغَيِّرْ ثيابك، فدخلت فإذا خادم وفرّاش معهم خلع الحرير، فقلت: والله ما ألبَسُها. فخرج الخادم، فأخبر الخليفة، فسمعت صوته يقول: قد والله قلتُ إنه ما يلبسه. وكان المقتفي معجباً به [5]، وقام هذا الوزير بدور كبير في تخليص الخلافة العباسية من النفوذ السلجوقي واستعادة سلطة الخلفاء العباسيين في الدولة، وقد استطاع بمساعدة الجيش الذي أعده تخليص العراق وجميع أعماله من سيطرة السلاجقة [6].

٢- خوفه من ظلم العباد: وسأل الوزير ابن هبيرة يوماً الشريف مجد الدين أحمد بن علي الحسيني نقيب نقباء الطالبيين عرض رقعة له على الخليفة، وأن لا يهملها، وأن يراجعه فيها فقال: والله ما أهملت لأحد قط رقعة ولا حاجة حضرني ذكرها منذ وقفت على ما رواه أبو علي مسكويه .أنه رفعت رقعة عن بعض المتظلمين إلى أبي الفضل بن العميد، فوعد

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٢٧). (٢) المصدر نفسه (٢٠/ ٤٢٨).

(٣) ذيل طبقة الحنابلة (٢/ ٢٥٣)، نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦٠.

(٤) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦١. (٥) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٢٧).

(٦) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص.١٦١.

رافعها بالنظر في ظلامته فمطله، ثم عاوده، فمطله ثم عاوده فَسوَّفَه، فقال له المتظلم: هذا كلام من لا يعرف دبيب الساعات في انخرام الدول فارتاع أبو الفضل بن العميد لذلك واتعظ به ولان قلبه، وقال: لله درك كيف قلت؟ فأعاد عليه القول، فوقع له بما أراد وآلى أن يرفع ظلامات المتظلمين، وقال: لله درك يا فلان فما نصح لي غيرك، وإنما مثلنا فيما نحن فيه من الأمور السلطانية وما عمر فيها من أهوالها الملهية التي رانت على قلوبنا وأشغلتنا عن حظوظنا مثل مريض ملكته العلة وقسمت قلبه ومنعته عن النظر لنفسه، فيحتاج إلى طبيب حاذق يعنف في موضع العنف، ويرفق في موضع الرفق، فقد قالت الحكماء والأطباء: إذا رأيت صاحب الخواطر والهموم وقد استفرغه الهواجس، فصح به صيحة تزعجه وتلهيه عما اجتمع له من المواد السوداوية[(١)]. وقال: العجب ممن ينظر قبل أن يفعل في النجوم، ويحك انظر وما ترومه فإن كان طلب دنيا فهو فان، وإن كان طلب أخرى فهو باق، وإن كان حسنة فثمرتها السلامة، وإن كان سيئة فثمرتها الندامة [(٢)]. وقال: شدة الغضب إنما تكون لقوة ذكاء الحواس لأن الذكي يدرك الأسباب الموجبة للغضب بسرعة، فيحتاج إلى زيادة قهر لنفسه في الغضب، وعدم الغضب على الإطلاق عيب لأن الإنسان يجب أن يغضب لله عز وجل [(٣)].

قال عنه ابن كثير: كان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة وأبعدهم عن الظلم وكان على مذهب السلف في الاعتقاد[(٤)]. وقال عنه ابن العماد: وكان شامة بين الوزراء لعدله ودينه، وتواضعه ومعرفته[(٥)]، وقال عنه ابن الأثير: كان حنبلي المذهب، ديناً خيراً، عالماً، يسمع حديث النبي ﷺ، وله في التصانيف الحسنة، وكان ذا رأي سديد[(٦)].

٣- جهوده في خدمة العلم والعلماء: قام الوزير ابن هبيرة بعمارة مدرسة بناها بباب البصرة تكاملت في سنة ٥٥٧هـ وأقام فيها الفقهاء ورتب لهم الجراية، وكان مدرسهم أبو الحسن البراندسي[(٧)]، وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء، ويبذل لهم الأموال، فكانت السنة تدور وعليه ديون، وقال: وما وجبت عليَّ زكاة قط وكان إذا استفاد شيئاً من العلم قال: أفادنيه فُلان، فكان ينسب العلم لأهله وهذا من بركة العلم ومن الأمانة العلمية. قال ابن الجوزي: وقد أفدته معنى حديث، فكان يقول: أفادنيه ابن الجوزي، فكنت استحي، وجعل لي مجلساً في داره كل جمعة، ويأذن للعامة في الحضور، وكان بعض الفقراء يقرأُ عنده كثيراً،

(١) أخبار الدول المنقطعة ص ٣٥٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٥٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٩.
(٥) شذرات الذهب (٤/ ١٩١).
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن جهود علماء السلف ص ٦٣٨.
(٧) جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري ص١١٧.

فأعجبه، وقال لزوجته: أريد أن أزوّجه بابنتي، فغضبت الأمُّ. وكان يُقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر، فحضر فقيه مالكي، فذكرت مسألة فخالف فيها الجميع، وأصر، فقال الوزير: أحمار أنت أما ترى الكُلَّ يخالفونك؟ فلما كان من الغد، قال للجماعة: إنه جرى مني بالأمس في حق هذا الرجل مالا يليق، فليقُل لي كما قلت له، فما أنا إلا كأحدكم فضج المجلس بالبكاء، واعتذر الفقيه، قال: أنا أولى بالاعتذار، وجعل يقول: القِصاصَ القِصاصَ فلم يزل حتى قال يوسف الدمشقي: إذا أبى القصاص فالفداء، فقال الوزير: له حكمه. فقال الفقيه: نِعمك عليَّ كثيرة، فأي حكم بقي لي؟ قال: لابُدَّ. قال: عليَّ دين مئة دينار. فأعطاه مئتي دينار، وقال لإبراء ذِمَّتِه: ومئة لإبراء ذمَّتي[1]. قال ابن الجوزي: كان الوزير يتأسَّفُ على ما مضى، ويندم على ما دخل فيه، ولقد قال لي: كان عندنا بالقرية مسجد فيه نخلة تحمل ألف رطل، فحدثتُ نفسي أن أقيم في ذلك المسجد، وقلت لأخي مجد الدين: أَقعُدُ أنا وأنت وحاصلها يكفينا، ثم انظر إلى ما صرتُ [2]، وكانت لابن هبيرة جهود علمية ومن أشهرها تأليفه كتاب «الإفصاح عن معاني الصحاح» شرح فيه صحيحي البخاري ومسلم، ومن شروحه الجميلة في هذا التصنيف شرحه للحديث القدسي، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله قال: **من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب لي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**[3]. فقد قال في قوله: **ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**: لأن التقرب بالنوافل يكون تلو أداء الفرائض، بدليل أنها ذكرت بعد ذكر الفرائض، يعني إذا أدام العبد التقرب بالنوافل أفضى ذلك إلى أن يحبه الله. ثم قال سبحانه: **«فإذا أحببته كنت سمعه»** وهذا لا أراه إلا أنه علامة، وأنه لمن يكون الله قد أحبه أن يكون هو سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وتصوير ذلك أنه لا يسمع ما لم يأذن الشرع في سماعه، ولا يبصر ما لم يأذن الشرع في إبصاره، ولا يمد يداً إلى ما لم يأذن الشرع له في مدها إليه، ولا يسعى برجل إلا فيما أذن الشرع له في السعي بها إليه، فهذا هو الأصل، إلاّ أنه قد يغلب على عبد ذكر الله حتى يعرف بذلك، فإذ خوطب بغيره لم يكد يسمع لمن خاطبه حتى يتقرب إليه بذكر الله، غير أهل ذكر الله؛ توصلاً إلى أن يسمع لهم، وكذلك المبصرات والمتناولات والسعي إليها وتلك طبقة عالية نسأل الله أن يجعلنا من أهلها [4].

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٢٩). (٢) المصدر نفسه (٢٠/ ٤٢٩).
(٣) البخاري ، كتاب الرقائق، باب التواضع (٧/ ١٩٠).
(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٠٣ - ٣٠٤).

٤- تواصله مع نور الدين زنكي: كان ابن هبيرة مهتمًا بدعم نور الدين في جهوده ضد الصليبيين، وكان يتابع عن كثب المشروع النوري لفتح مصر وقد حكى ابن المارستانية في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمس مئة- كأن قمرين أحدهما أَنْوَرُ من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طُول، ويهبُ أدنى نسيم فيحركُها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجَّب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل النّاس بإمامهم. قال الرجل قد استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً براً تقيّاً، واستيقظ الرّجل، وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبَّر المنام بأن الإمام الذي بمصر يُستبدل به، وتكون لبني العباس لمكان اللحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده [(١)].

٥- وفاته وهو ساجد: كان ابن هبيرة يسأل الله الشهادة ويتعرض لأسبابها، وفي الليلة الثالثة عشرة جُمادي الأولى سنة ستين وخمس مئة استيقظ وقت السَّحَر، فقاء، فحضر طبيبُه ابن رشادة، فسقاه شيئاً، فيقال: إنه سمَّه فمات، وسقي الطبيب بعده بنصف سنة سُمّاً، فكان يقول: سَقَيْتُ فسُقيت [(٢)] قال ابن الجوزي:.. ورأيتُ أنا وقت الفجر كأني في دار الوزير وهو جالس، فدخل رجل بيده حربة، فضربه بها، فخرج الدم كالفوَّارة، فالتفتُّ فإذا خاتم ذهب، فأخذته، وقلت: لمن أُعطيه؟ أنتظر خادماً يخرج فأُسلِّمهُ إليه، فانتبهت فأخبرت من كان معي، فما استتممت الحديث حتى جاء رجل، فقال الرجل: هذا محال، أنا فارقته في عافية أمس العصر، فنفذوا إليَّ، وقال لي ولده: لابد أن تغسله فغسلته، ورفعت يده ليدخل الماء في مغابنه، فسقط الخاتم من يده حيث رأيت ذلك الخاتم، ورأيت آثاراً بجسده ووجهه تدلُّ على أنه مسموم، وحملت جنازته إلى جامع القصر، وخرج معه جمع لم نره لمخلوق قط وكثر البكاء عليه لما كان يفعله من البر والعدل، ورثته الشعراء [(٣)]. وذكر أبو شامة بأنه توفي وهو ساجد في صلاة الصبح [(٤)]. وقال عنه: وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب [(٥)]. وقال

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٢٠١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٢٩).
(٣) المصدر نفسه (٢٠/ ٤٣٠) المنتظم (١/ ٢١٧).
(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٤٤٠).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٤٤١).

ابن كثير في أحداث سنة إحدى وستين وخمسمائة: وفيها أظهر الرّوافض سبَّ الصحابة وتظاهروا بأشياء منكرة ولم يكونوا يتمكّنون منها في هذه الأعصار المتقدمة؛ خوفاً من ابن هبيرة [1]. رحم الله ابن هبيرة وأكثر الله من أمثاله في عصرنا.

ثالثاً: الخليفة المستنجد بالله:

الخليفة أبو المظفَّر يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بن المقتدي العباسي عقد له أبوه بولاية العهد في سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة[2]، ولما توفي أبوه بويع له في صبيحة يوم الأحد ثاني ربيع الأوّل من سنة خمس وخمسين وخمسمائة بايعه أشراف بني العباس، ثم الوزير والقضاة والعلماء والأمراء وعمره يومئذ سبعة وثلاثون سنة، وكان رجلاً صالحاً، وكان ولي عهد أبيه مدة متطاولة ثم عُمل عزاء أبيه، ولما خطب له يوم الجمعة نُثرت الدّراهم والدنانير على الناس، وفرح المسلمون به بعد أبيه، وأقرَّ الوزير ابن هبيرة على منصبه ووعده بذلك إلى الممات، وعزل قاضي القضاة ابن الدامغاني وولّى مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي [3]، قال ابن النجار: حكى ابن صفية أنَّ المقتفي رأى ابنه يوسف في الحر، فقال: أيش في فمك؟ قال: خاتم يَزْدَن، عليه أسماء الاثني عشر، وذلك يسكن العطش. قال: ويلك، يريد يَزْدَن أن يصيرك رافضياً، سيد الاثنى عشر الحسين ، مات عطشان.

ومن شعر المستنجد قوله:

عيَّرتني بالشَّيْبِ وهو وَقَار ... ليتها عيَّرتني بما هو عار

إن تكن شابت الذوائب مني ... فالليالي تزينها الأقمار [4]

وقال ابن الجوزي: حدثني الوزير ابن هبيرة، حدثني المستنجد قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم منذ خمس عشرة سنة، فقال لي: يبقى أخوك في الخلافة خمساً وعشرين سنة، فكان كما قال، فرأيته قبل أبي بأربعة أشهر، فدخل بي من باب كبير، ثم ارتفعنا إلى رأس جبل، وصلى بي ركعتين، وألبسني قميصاً، ثم قال لي: قل اللهمَّ أهدني فيمن هديت [5]، وقال ابن الجوزي: أقر المستنجد أرباب الولايات، وأزال المكوس والضرائب [6]، وكان موصوفاً بالعدل والرفق وأطلق المكوس بحيث إنه لم يترك بالعراق مُكساً، وكان شديداً على

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٤١٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٢).
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٣٩٤).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٣).
(٥) المنتظم (١٠/ ١٩٣).
(٦) المصدر نفسه (١٠/ ١٩٣)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٤).

المفسدين[١]، وقد شفع بعض أصحابه في رجل شرير، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وائتني بمثله لأُريح المسلمين من شره [٢].

- **وفاته:** توفي في ثامن ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة [٣] وكان سبب موته أن خافه أستاذ الدار عضد الدولة ابن رئيس الرؤساء وقايماز المُقتفوي كبيراء الأمراء فواضعا الطبيب على أذيَّته فوصف له الحمّامُ، فامتنع لضعفه، ثم أدخل الحمام، وأغلق عليه، فتلف[٤] وصُلي عليه يوم الأحد ودفن بدار الخلافة ونقل إلى التُراب من الرُّصافة [٥].

رابعاً: الخليفة المستضيء بالله:

الخليفة أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد بن المقتدي الهاشمي العباسي بويع بالخلافة وقت موت أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة، وقام بأمر البيعة عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء فاستوزره يومئذ [٦]، وكان ذا حل وأناة ورأفة وبر وصدقات [٧]. قال ابن الجوزي: بويع، فنودي برفع المكوس، ورد المظالم وأظهر العدل والكرم مالم نره من أعمارنا وفرق مالاً عظيماً على الهاشميّين[٨]، وفي خلافته زالت دولة العبيدية بمصر وخطب له بها، وجاء الخبر فغلقت الأسواق للمسرة[٩]، وخطب له باليمن، وبرقة، وتَوَزَّرَ والى بلاد الترك ودانت له الملوك، وكان يطلب ابن الجوزيّ ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويميل إلى مذهب الحنابلة، وضعُف بدولته الرّفض ببغداد، وبمصر، وظهرت السنة وحصل الأمن ولله المنّة [١٠].

- **وفاته:** كان ابتداء مرضه في أواخر شوّال من هذه السنة فأرادت زوجته أن تكتم ذلك فلم يمكنها، ووقعت فتنة كبيرة ببغداد ونهبت العوامُّ دوراً كثيرة وأموالاً جزيلة، فلما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوَّال خُطب لولي العهد أبي العباس أحمد بن المستضيء وهو الخليفة الناصر لدين الله، وكان يوماً مشهوداً نُثر الذهب فيه على الخطباء والمؤذنينَ ومن حضر ذلك عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه [١١]، فلما كان يوم السبت سلخ شوّال مات الخليفة المستضيء بأمر الله، وكان مرضه بالحُمى ابتدأ بها في يوم عيد الفطر، ولم يزل الأمر يتزايد به حتى استكمل في مرضه شهراً، فمات، رحمه الله سلخ شوال، وله من العمر تسع

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٤).
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٤٤٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٨).
(٤) المصدر نفسه (٢٠/ ٤١٤).
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٤٤٥).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٦٨).
(٧) المصدر نفسه (٢١/ ٦٨).
(٨) المصدر نفسه (٢١/ ٦٨).
(٩) المصدر نفسه (٢١/ ٧٠).
(١٠) المصدر نفسه (٢١/ ٧٠).
(١١) البداية والنهاية (١٦/ ٥٤٠).

وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، وغُسِّل وصُلي عليه من الغد [1]، وكان من خيار الخلفاء، آمّاراً بالمعروف نهاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكوسات والضرائب، ودرأ عنهم البدع والمصائب، وكان حليماً وقوراً كريماً، فرحمه الله تعالى، وبلَّ ثراه وجعل الجنة مأواه، وبويع بالخلافة من بعده لولده الناصر [2]. وقد كتب ابن الجوزي كتابه المصباح المضيء في خلافة المستضيء ووجهه إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بهدف التذكير والوعظ والنصيحة باعتباره الشخص الأول في الدولة العباسية[3].

خامساً: تعاون نور الدين محمود مع الخلفاء العباسيين:

خالف نور الدين محمود سياسة والده عماد الدين زنكي بخصوص العلاقة مع الخلافة العباسية، فقد كانت علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية متوترة في أغلب سنوات حكمه، ونشبت الحرب بين الطرفين أكثر من مرة، ولكن نور الدين محمود وطَّد علاقته بالخلافة العباسية منذ بداية حكمه، وتوثقت هذه العلاقة على مرّ السنين حتى نهاية حكمه، ويرجع الاختلاف في هذه السياسة بين نور الدين محمود ووالده إلى عدة أمور أهمها:

- **طبيعة تقاسم السلطة بين نور الدين وأخيه سيف الدين بعد موت والدهما،** فقد تولى سيف الدين غازي (الأكبر) حكم الموصل، فورث ما كان لوالده من علاقات مع الخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة بسلبياتها وإيجابياتها، بينما تولى نور الدين محمود حكم حلب فورث عن والده الجانب المتعلق بالجهاد ضد الفرنجة، الأمر الذي يعتبر مصلحة مشتركة بينه وبين الخلافة العباسية على حد سواء، وكان أمر سلاطين السلاجقة قد ضعف خاصة بعد موت السلطان مسعود بن محمد عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م وبدأت الخلافة العباسية تستعيد نشاطها في عهد الخليفة بأمر الله (٥٣١هـ - ٥٥٥هـ/ ١١٣٩ - ١١٦٠م) [4].

- **والأمر الثاني:** هو أن نور الدين كان يعتبر الخلافة العباسية رمزاً لوحدة المسلمين التي وضعها على رأس قائمة أهدافه الاستراتيجية وهو يدرك ما للخلافة من أثر في نفوس المسلمين، ولذلك سعى لنيل تأييد الخلافة ليضفي على أعماله العسكرية شرعية دينية تساعده في تحقيق وحدة بلاد الشام ومصر وشمال العراق، وفي تحرير سواحل بلاد الشام من الفرنجة المحتلين. من جهة أخرى كانت الخلافة العباسية ترى في نور الدين محمود الذي اشتهر بحرصه الشديد على تطبيق الشريعة الإسلامية على أصول منهج أهل السنة والجماعة

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٥٤٠).
(٢) المصدر نفسه (١٦/ ٥٤١).
(٣) المصباح المضيء في خلافة المستضيء ص ٩.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٣.

ناصرها وأملها في القضاء على الدولة الفاطمية [1]، وقد مرت العلاقات بين الجانبين بعدة أطوار على المستويات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية والثقافية [2].

١- **الصعيد السياسي:** يلاحظ أن كلا من الطرفين، وجدت لديه دوافع لتوطيد علاقته السياسية بالآخر، إذ احتاجت الدولة النورية من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها في بلاد الشام والجزيرة، إذ أن تأييد الخلافة لذلك يدعم حكم نور الدين، ويكسبه صفة المشروعية أمام رعاياه في تلك المناطق، ولذلك فقد حرص أشد الحرص على الحصول على تقليد سيادته السياسية، ومن جهة الخلافة العباسية رأت في الدولة النورية قوة سياسية فعالة في المنطقة، من الممكن أن تجني من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها، وحيث إنها صارعت الصليبيين، فإن تأييد الخليفة العباسي لنور الدين كان يجعله محط تقدير بالغ لرعاياه في العراق وخارجه.

وعملت الدولة النورية على توطيد علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة، وقد حرص نور الدين على اختيار السفراء الذين توافرت فيهم بعض الشروط العقلية والجسمانية، خاصة من عناصر أرباب الأقلام من الفقهاء والعلماء، ومنهم من كان من أصل عراقي، لكي يدعم أكثر من غيره الصلات بين الجانبين، وقد حمل أولئك السفراء، الرسائل والهدايا لمخاطبة ود خليفة بغداد، واحتوت الرسائل على بعض المطالب أو إظهار الولاء أو التهنئة بمناسبة تولية الخليفة إلى نحو ذلك، ولدينا العديد من أسماء السفراء الذين ترددوا بين العراق والشام، وهؤلاء جميعاً مثلوا عدداً من قيادات الدولة النورية لاسيما في جهازها الإداري [3]. ومن وراء تلك الاتصالات الدبلوماسية، قام ديوان الإنشاء النوري بدور كبير في إعداد الرسائل المناسبة لكل موقف، ولا نزاع أن ذلك الديوان تزايد دوره تعاظماً من خلال خدمته للسياسة الخارجية للدولة، ووجود شخصية مثل العماد الكاتب الأصفهاني على رأسه يدل على مدى نشاطه [4]، ومن أمثلة الاتصالات الدبلوماسية بين الجانبين أن نور الدين عندما أخضع دمشق لسيطرته عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٢م محققاً بذلك أحد أكبر انتصاراته العسكرية بعث الخليفة إليه عهداً بالسلطة وإقراراً بسيادته عليها [5]، ولا شك أن العباسيين اعتقدوا أن الأسرة البورية السابقة لم تكن تفعل شيئاً معبراً عنهم بفضل مهادنتها لمملكة بيت المقدس الصليبية، كذلك حث الخليفة العباسي نور الدين

(١) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص ٢٩٠.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٢.
(٣) من أمثلتهم: العماد الأصفهاني، وكمال الدين الشهرزوري.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٣.
(٥) حسن المحاضرة (٢/ ٣)، فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.

على السير إلى مصر، لانتزاعها من الفاطميين [(١)] أعداء أهل السنة - التقليديين - وذلك في وقت كانت فيه مصر في وهن بالغ من جراء سياسة الوزراء العظام الخرقاء، ويقرر البعض أن الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة أرسل إليه عهداً بتولية مصر وأعمالها في وقت كانت فيه الدولة الفاطمية لا تزال قائمة [(٢)]، ومنطقى أن الخلافة العباسية أدركت أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق، تمكنه من تحقيق أهدافها في القضاء على الفاطميين، ومعنى ذلك أن بلاد الشام نفسها كانت ميداناً رحباً لاختيار قدرة الدولة النورية على التغيير السياسي في المنطقة، خاصة في مصر، ولا مراء في أن النجاحات النورية هناك أكدت للعباسيين أن تلك الدولة الفتية، بإمكانها أن تحقق طموحات خلفاء بغداد في تقويض حكم زعماء القاهرة[(٣)]، ومن بعد ذلك استمرت العلاقات السياسية قوية بين الجانبين، واهتبل نور الدين فرصة انتصاره على الصليبيين في عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، فأرسل إلى بغداد تحفاً وهدايا ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم [(٤)]، إشارة إلى تأديته لدوره القتالي ضد أعداء المسلمين لكسب دعم العباسيين، وفي أعقاب الظفر على أعدائه في حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، أرسل إلى الخليفة أخبار انتصاره [(٥)]، وتكرر ذات الأمر عندما سقوط الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م [(٦)]، وقد عكس الإنجاز الأخير مدى نجاح التحالف النوري - العباسي في تحقيق الإنجازات الكبرى ضد أعداء العباسيين.

وقد استفاد العباسيون من نور الدين محمود، عندما سعوا إلى إعلام دولته بأخبار تولية الخلفاء الجدد، من أجل الحصول على مبايعته لهم، فعندما تولى المستضيء أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ويطلب مبايعته [(٧)]، وحرص نور الدين على الحصول على تقليد توليه على أملاك مصر والشام وبلاد الجزيرة وتم له ما أراد، فالوضع السابق دل على علاقة الدولة النورية الوثيقة بالعباسيين، وتدعم ذلك من خلال النقوش، إذ وردت على جدران الآثار التي شيدت في عهد الدولة النورية، بعض التعبيرات الدالة على قوة الصلات بين الحليفين، إذ وصف نور الدين في نقش يرجع إلى شوال ٥٤٣هـ فبراير - مارس ١١٤٩م في المدرسة الحلاوية بحلب بأنه «رضى الخلافة» وكذلك وصف بأنه «خليل أمير المؤمنين» من نقش يرجع إلى عام ٥٥٩هـ - ٥٦٠هـ/ ١١٦٣ - ١١٦٤م على باب شرق من أبواب مدينة

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.
(٢) العلاقات بين الشرق والغرب ص ٦٦.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.
(٤) المنتظم (٩/ ١٧٦).
(٥) سنا البرق ص ٧٥.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.
(٧) مرآة الزمان نقلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ٦٥.

دمشق [١]. ووجد تعبير «نصير أمير المؤمنين» في نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م [٢]، وكذلك تعبير «ناصر أمير المؤمنين» في نقش على قلعة حلب [٣]، وأيضاً في المدرسة النورية بدمشق، يرجع إلى عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م وفي قلعة جعبر [٤].

واستمرت العلاقة السياسية بين الدولة النورية والخلافة العباسية نحو ثلاثين عاماً دون خصومة، بل توطدت باستمرار فأفاد كل طرف من الآخر، ولم تكن لنور الدين تطلعات إلى أملاك الخلافة[٥]. وتبلورت العلاقات النورية - العباسية في تحالف سياسي قوي أكده بصورة جلية توجيه الخلافة العباسية للسياسة الخارجية النورية، وهذا ما نجده ممثلاً في إسقاط الخلافة الفاطمية، إذ أرسل المستنجد بالله إلى نور الدين في عام٥٦٥هـ/ ١١٦٩م يستحثه على الإسراع في القضاء عليها [٦]، وقد تكرر ذات الموقف من جانب المستضيء [٧]، ثم دعم العباسيون التوسعات النورية [٨]، ويلاحظ أن ذلك التحالف بين القوتين كان أمراً ضرورياً، ولم يحدث عشوائياً بل إن بغداد وجدت في سلطان حلب أكبر قوة سياسية مسلمة مجاورة لها يمكن أن تحقق أهدافها، خاصة مع عدم تواجد تطلعات مشرقية له، وأفادت الدولة النورية من ذلك التحالف كما أفاد العباسيون، واستمر التحالف بين الجانبين على امتداد نحو الثلاثين عاماً مع تعدد الخلفاء العباسيين وذلك لا يخلو من دلالة هامة، وهي أنه كان حيوياً لهم خاصة أن نورالدين لم يجد منهم ما يجعله ينقض ذلك التحالف بل عمل على دعمه ما دامت الخلافة ساعدته على توسعاته الخارجية، وأنه صار رجل الدولة العباسية في المنطقة[٩].

كان السعي لوحدة بلاد الشام ومصر أمراً مقرراً في خطط نور الدين وواضحاً في ذهنه منذ بداية حكمه، بل أن توجهات نور الدين وأفكاره كانت تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد كان هدفه الاستراتيجي الأكبر إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في هداية البشر وتحقيق الحياة الكريمة لجميع الناس [١٠]، وحتى يتحقق هذا الهدف فلا بد من تحقيق الهدف الاستراتيجي الأقرب وهو تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي، وحتى يتحقق هذا الهدف الثاني لابد من تحقيق هدف ثالث استراتيجي أيضاً وهو توحيد الدول

---

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٥.
(٤) المصدر نفسه ص ٦٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٦٧.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.
(٧) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٨) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.
(٩) المصدر نفسه ص ٦٨.
(١٠) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٤.

ينفذها حَسب أولوياتها، وكانت الأولوية بطبيعة الحال لهدف تحقيق الوحدة، ولكن سعيه لتحقيق الوحدة في المقام الأول لم يمنعه من شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنجة في الوقت نفسه [1].

٢- الصعيد العسكري: على المستوى العسكري أفاد نور الدين محمود من نفوذ العباسيين للضغط على أمراء المشرق الإسلامي لمعاونته ضد أعدائه الصليبيين، فمعلوم أن الجيش النوري اعتمد أساساً على الدعم الحربي المقدم من أمراء المشرق [2]، لاسيما في العراق، ويلاحظ أن الثقل السياسي للخلافة أجبر أولئك الأمراء على المبادرة بتقديم عونهم الحربي، كما أن نور الدين نفسه اتجه إلى مراسلة الفقهاء والمتصوفة في تلك الأقاليم من أجل الدعاية السياسية وتوضيح حاجته إلى العون الحربي من أولئك الأمراء على نحو مثّل «ضغطًا شعبيًا» عليهم [3]، ونجد في جميع المعارك الحربية الكبرى التي خاض غمارها الجيش النوري، أشارت المصادر إلى مقدم قوات المشرق وعلى رأسها الأمراء حكام أربيل، وسنجار، ومنبج وغيرهم[4]. فالدور العباسي في استقدام جيوش المشرق وحث أمرائه على دعم نور الدين لا يستهان به [5].

٣- الصعيد الاقتصادي: ارتبط الجانبان بعلاقات طيبة، فمعلوم أن العالم الإسلامي يتوقف ازدهاره على مدى سيطرته على محاور التجارة العالمية ومنافذها، إذ شكلت التجارة معظم دخل العالم الإسلامي، ومن الثابت أن معابر التجارة العالمية بين الشرق والغرب وقعت في مناطق خاضعة لسيادة العباسيين، إذ قدمت التجارة من الشرق الأقصى وتدفقت سلعها عبر الخليج العربي إلى شمال العراق ومنه إلى شمال الشام ثم الامبراطورية البيزنطية[6]، وأوروبا، كذلك ارتبط شمال الشام بشمال العراق بطرق تجارية [7] عديدة لاسيما بين حلب والموصل، وعملت الدولة النورية على إنعاش حركة التجارة بين العراق والشام، من خلال إزالة جانب من المكوس على التجار المسافرين بين الإقليمين لتشجيعهم على المتاجرة [8]، فقد اهتمت الدولة النورية بإنعاش التجارة مع مناطق العباسيين والإفادة من ثراء التجار العراقيين، وتشجيعهم على المتاجرة مع الأسواق الشامية، ولاشك أنها جنت من وراء ذلك مكوساً وفيرة [9]، ومن جهة أخرى، اتجهت الدولة النورية في بعض الأحيان إلى طلب المساعدة المالية من الخلافة العباسية للإنفاق على مرافق البلاد، ونجد مثالاً دالاً على ذلك، عندما وقعت أحداث زلزال عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م، الذي اجتاح بلاد الشام،

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٣٨.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.
(٣) زبدة حلب (٢/ ٣١٩).
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٦٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٦٩.
(٧) الرحلة لابن جبير ص ٢١٠.
(٨) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٠.
(٩) المصدر نفسه ص ٧٠.

خاصة مدن حلب، وبعلبك، وحمص، وحماه، وشيزر، وبعرين، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وتأثرت به مدينة حلب أكثر من غيرها بمظاهر الخراب والدمار [1]، وعلى الرغم من أن نور الدين أخرج من الأموال ما لايقدر بقدر [2]، من أجل ترميم ما تهدم، إلا أن ذلك لم يكف فاتجه إلى طلب عون الخلافة، ففي نص أورده ابن الفرات شرح نور الدين للخليفة المستنجد بالله ما حل بمناطق دولته من دمار بالغ على نحو أثر على دفاعاتها في مواجهة الصليبيين، واستصراخه أن يقدم له العون المالي اللازم [3]، ولا ريب في أن الخلافة العباسية كانت تحرص على دعم الدولة النورية مالياً، لتواجه أعداءها من الصليبيين، ولذلك فإنها بادرت بتقديم مساعدتها، والمرجح أن ذلك تم بسرعة واضحة لتدارك خطر تهدم أسوار وقلاع مدن الدولة النورية، خوفاً من هجوم صليبي مفاجئ عليها اغتناماً للموقف [4]. ومن جهة أخرى قدمت الدولة النورية للخلافة العباسية الأموال اللازمة التي كانت بدورها تطلبها، كدليل على الولاء، ونجد أنها عندما أقدمت في بعض الأحيان على إنقاص المكوس المفروضة على النشاط التجاري، راسل نور الدين محمود الخليفة ليوضح له الأمر، وليطلب منه تقليل ما كان يحصل عليه من قبل [5].

إن تلك العلاقات المالية تدل بوضوح على خصوصية علاقة الخلافة العباسية بالدولة النورية في بلاد الشام والجزيرة، وحرص الخلافة على دعمها وحمايتها من الخطر الخارجي بتوفير الدعم المالي لها عندما احتاجت إليه [6].

٤- الصعيد الثقافي والمذهبي: كان الهدف المشترك الكبير بين نور الدين والدولة العباسية إعادة نشر المذهب السني في بلاد الشام ومصر والوقوف أمام المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الذي كانت تتبناه الدولة الفاطمية في مصر، وكذلك الوقوف أمام المذهب الشيعي الإمامي، وكانت نظرة نور الدين محمود الاستراتيجية تعتبر وحدة العقيدة ركناً أساسياً في وحدة المسلمين السياسية، ولتحقيق وحدة العقيدة في بلاده سلك طريق العلم والإقناع بالمنطق وإقامة الحجة والبرهان، فأنشأ المدارس التي تدرس الشريعة على حسب مذاهب السنة مركزاً على المذهبين الشافعي والحنفي، واستقدم أشهر العلماء والفقهاء للتدريس فيها، ولتتولى الحوار مع علماء الشيعة على أساس الكتاب (القرآن الكريم) والسنة الشريفة، ولكنه لم يتردد في اتباع طريق الحزم لوقف التجاوزات والمخالفات التي دأب الشيعة الرافضة على ارتكابها بحق بعض الصحابة، فأمر بمنع شتم أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وكان ذلك شائعاً في مجتمع الشيعة الرافضة في حلب، كما أمر بوقف الأذان حسب

(١) الباهر ص ١٥٥، دول الإسلام (١/ ٧٨).
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧١.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص٧٢.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٢.
(٥) المصدر نفسه ص ٧٢.
(٦) المصدر نفسه ص ٧٢.

الصيغة التي استحدثها الشيعة (أضافوا فقرة حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر)[1]، وإعادته حسب الصيغة الصحيحة التي عرفت في زمن الرسول ﷺ، وعندما حاول زعماء الشيعة في حلب عدم الامتثال لأوامر نور الدين عاقبهم ونفى بعضهم خارج حلب [2]. فرضخوا وامتثلوا وتحول مجتمع حلب مع مرور السنين إلى مجتمع سني بالكامل، وكذلك باقي مدن بلاد الشام وإنما كان التركيز على مدينة حلب لأنها كانت مركزاً للشيعة الرافضة في بلاد الشام، أما في مصر فقد بدأت عملية التغيير من خلال الدولة النورية مباشرة بعد الاستيلاء عليها، وكانت توجيهات نور الدين في هذا المجال واضحة لصلاح الدين لتغيير نظام القضاء من المذهب الإسماعيلي الشيعي الرافضي إلى المذهب السني وإنشاء المدارس السنية، وكان التغيير تدريجياً حتى بداية عام ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م عندما أعلنت نهاية الدولة الفاطمية وأقيمت الدعوة للخلافة العباسية، فصار التغيير سريعاً وشاملاً، فكانت المصالح المشتركة بين نور الدين والخلافة العباسية قربت بينهما وأثمرت علاقتهما الطيبة بما عاد عليهما وعلى المسلمين بالخير والفائدة العظيمة، فحركة الإحياء السني التي تبناها نور الدين محمود، لقيت الدعم العباسي الكامل، ومن الممكن تصور أن الإنجاز الذي حققته حركة الإحياء السني في عهد الدولة النورية لم يكن من الممكن أن يتحقق بتلك الصورة من النجاح، بدون المساعدة الرسمية الكاملة من العباسيين. ومن الصلات التي وجدت بين الجانبين؛ استمرار اتصال المتصوفة العراقيين بالشاميين وقد ارتحل العديد من زعماء التصوف بين الإقليميين لينضم إليهم الاتباع والمريدون[3]، وقد بينا ذلك فيما سبق ولله الحمد.

ويتصل بالصلات المذهبية الاهتمام المشترك من جانب الخلافة العباسية والدولة النورية بالحج، والإعداد لموكبه وتأمين خطوط سيره، وقد كان هناك موكب الحجاج الشاميين وآخر للعراقيين؛ اتخذ كل طريقه الخاص إلى الأماكن الإسلامية المقدسة، وحرص نور الدين محمود على أن يظهر أمام خلفاء بغداد بمظهر الراعي لتلك الأماكن، إذ عمل على تأمين طريق الحجاج الشاميين عن طريق تقديم الإقطاعات للقبائل العربية التي سكنت نواحي الأردن وشمال الجزيرة حتى لا تتعرض للحجاج وأسهم في تعمير المسجد النبوي وعمل خندقاً حول الحجرة النبوية مملوءًا بالرصاص عام ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م، وكان هذا الاتجاه هدفاً مشتركاً بين الخلافة العباسية والدولة النورية وقال عنه ابن الجوزي: وكانت سيرته أصلح من كثير من الولاة، والطرق في أيامه آمنة، والمحامد له كثيرة، وكان يتدين بطاعة الخلافة [4].

---

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٦.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٧٥.
(٤) المنتظم (١٨/ ٢١٠).

المبحث الثاني

تصدي نور الدين محمود للحملة الصليبية الثانية وسياسته في ضم دمشق

كان نور الدين محمود منذ توليه الحكم وهو في الثلاثين من عمره، واضح الرؤية والهدف منذ أن تسلم الحكم حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرّب كل منها يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرّر إمارة الرها التي تشكل تداخلاً مع الأراضي الإسلامية فتمكّن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمّن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً. وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن واحد، فأما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد، وهو مذهب أهل السنة، وكان كلما توغل في الجهاد وتقدم به الزمان يزداد اقتناعاً بصوابية هذه السياسة، وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية والنشاط الثقافي العلمي التربوي التي تخدم توحيد الصف والهدف [1].

أولاً: القضاء على تمرد ثورة الرهاويين:

أتاحت وفاة عماد الدين زنكي وتقسيم مملكته بين ولديه فرصة طيبة لأعدائها للإقدام على غزوها، ففي الجنوب تطلع معين الدين أنر، صاحب السلطة الفعلية في دمشق إلى السيطرة على بعلبك وحمص وحماة، وفي الشرق، حاول الملك ألب أرسلان السلجوقي فرض سيطرته على الأملاك الزنكية، غير أنه باء بالفشل، واستردَّ الأراتقة المدن التي سبق أن ضمّها عماد الدين زنكي من ديار بكر. وفي شمال الشام، مضى ريموند بواتييه، أمير أنطاكية، في غاراته حتى بلغ أسوار حلب، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عدداً كثيراً من المسلمين، وتمادى في غاراته حتى بلغ صلدى ونهبها، ولما وصل الخبر إلى حلب خرج أسد الدين شيركوه على رأس قوة عسكرية للتصدي له، فأدرك فرقة صليبية استاقت بعض الأسرى،

(1) صلاح الدين بين التاريخ والملحمة الأسطورية ص ٢٨٥ ص ٢٨٦، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٥٢.

فاصطدم بها وحرر الأسرى، ثم شنَّ الغارة على ارتاح [١]، قبل أن يعود إلى حلب [٢]. وظل جوسلين الثاني أمير الرها قابعاً في تل باشر، إلا أنه أعد خطة لإعادة احتلال الرها [٣]. ولعل جوسلين الثاني هذا، كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين زنكي، لأن استرداد الرها من الصليبيين كان أهم ما قام به عماد الدين في حياته، وهو العمل الرئيسي الذي أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة في التاريخ، فكان نجاح الصليبيين في استرداد الرها، إذا ما حصل يُعد ضربة قاسية لأبنائه الذين سيفقدون المجد الذي حققه والدهم [٤]، والأهم من ذلك الأثر المعنوي السلبي الكبير في نفوس المسلمين. لم يكن بقلعة الرها سوى حامية قليلة العدد، فاستغل الأرمن هذه الفرصة وكانوا شديدي الميل للصليبيين ودبَّروا مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي وطرد المسلمين من المدينة، ووقف جوسلين الثاني على تلك النزعة فيهم فشجَّعهم على التمرد وتسليم البلد إليه، ووعدهم بتقديم المساعدة [٥]، وخرج جوسلين الثاني على رأس قوة عسكرية ميمماً وجهه شطر الرها وهو عازم على استعادتها وسانده بلدوين حاكم مرعش [٦]، وكيسوم، في حين رفض ريمون بواتييه، حاكم أنطاكية، تقديم المساعدة [٧]. ويبدو أن رفضه ناتج عن التخطيط غير السليم للحملة[٨]. وكان جوسلين الثاني يأمل في مباغتة الحامية الإسلامية ويهاجمها على حين غفلة من أمرها، إلا أنها تلقَّت إنذاراً مبكراً بهذا الهجوم، فاستعدت لصده. وصل جوسلين الثاني إلى أسوار المدينة، شهر ربيع الآخر عام ٥٤١هـ شهر أيلول عام ١١٤٦م ونجح في دخول البلدة، لكن امتنعت عليه القلعة وقد احتمت بها الحامية الإسلامية [٩].

وجد جوسلين الثاني نفسه أسيراً، هو ورجاله، داخل المدينة، ولما كانت قواته قليلة العدد لا يمكنها اقتحام القلعة، استنجد بأميري أنطاكية وطرابلس والوصية على عرش مملكة بيت المقدس، وأرسلت الحامية من جهتها تطلب مساعدة نور الدين محمود في حلب، وكان جيشه آنذاك في مهمة جهادية في أنطاكية. عدَّ صاحب نور الدين محاولة جوسلين الثاني هذه تحدياً له، ورأى ضرورة القضاء عليه قبل وصول النجدات الصليبية، فخرج من حلب في شهر جمادي الآخرة/ شهر تشرين الثاني على رأس جيش كثيف بلغ تعداده عشرة آلاف

(١) ارتاح : اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٥) مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، معجم البلدان (٥/ ١٠٧).
(٦) تاريخ الزنكيين ص ٢٥٣.
(٧) المصدر نفسه ض ٢٥٣.
(٨) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٩) المصدر نفسه ص ٢٥٤.

فارس غير المشاة والطلائع، وظهر أمام أسوار المدينة [1]، وقع جوسلين الثاني بين شقي الرحى، الحامية من الداخل وجيش نور الدين محمود من الخارج، فلم يقو على ملاقاة هذه الجموع داخل الرها وخارجها، فأسقط في يده، وأدرك أن لا سبيل إلى النجاة إلا بالهرب، فتسلَّل أثناء الليل إلى خارج المدينة، واتخذ طريقه صوب الفرات [2]. لكن هذه العملية لم تتم بسهولة فقد طارده نور الدين محمود واقتفى أثره، واشتبك معه في اليوم التالي وتغلَّب عليه، إلا أنه استطاع الفرار إلى سميساط بصعوبة بالغة بعدما أصيب في رقبته، وكان بلدوين حاكم مرعش من بين القتلى، كما قتل باسيل أسقف اليعاقبة، ووقع يوحنا أسقف الأرمن في الأسر[3]. خرج الأرمن من الرها بعد أن أدركوا ما ينتظرهم إذا ظلوا فيها، وقد أضرموا النيران في كثير من البيوت، لكن أكثرهم لم يتمكن من النجاة ووقعوا تحت ضربات المسلمين[4]، وكان من الطبيعي أن يحل العقاب بمن بقي من أهل الرها النصارى الذين غدروا بالمسلمين بعدما تخلى جوسلين الثاني عنهم [5]، فقد أراد نور الدين أن يجعل من عصيان الرها وتمردها درساً للآخرين فأباحها لجيشه وسبى أهلها، وأجلى من كان بها الفرنج.

وكانت الأخبار قد وصلت إلى الموصل بعصيان الرها وعودة جوسلين إليها، فأرسل سيف الدين غازي جيشاً لاستعادتها ولكن هذا الجيش رجع قبل وصوله للرها عندما علم باستعادة نور الدين للمدينة، وأقر سيف الدين غازي أخاه نور الدين في عمله[6]. وكانت حادثة عصيان الرها واسترجاعها من قبل نور الدين محمود مع ما رافق ذلك من نهبها وسبي أهلها وقتل الغالبية من جيش جوسلين أثناء هربه منها، ثم سكوت سيف الدين غازي عن احتلال أخيه نور الدين محمود للمدينة.. كان كل ذلك بمثابة خيبة أمل كبيرة للفرنجة الطامعين في اندلاع الحرب بين الأمراء المسلمين، الذين فرحوا بوفاة عماد الدين زنكي وزوال خطره، ولكنهم أدركوا أن ابنه نور الدين محمود لا يقل خطورة عن أبيه، ثم تعززت خيبة الأمل لدى أولئك الأعداء بعد التقاء سيف الدين غازي بأخيه نور الدين محمود واتفاق الأخوين على التعاون فيما بينهما ضد الطامعين بملك أبيهم وملكهم [7].

وهذا أول فتح لنور الدين، رحمه الله، وفيه يقول ابن منير:

---

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٥٤.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ٢٥٤.
(٣) تاريخ الزنكيين ص ٢٥٤.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٥.
(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٢.
(٧) الباهر ص ٨٧، دور نور الدين في نهضة الأمة ص٩٢.

تلـك بكـرُ الفتـوح فالشـام منهـا **شـــامه والعـــراق بعـــد عِراقُـــهُ**

وقال ابن القيسراني:

فــإن يــك فــتح الرهــا لُجّــة **فســـاحلها القـــدس والســـاحل**

فهـل علمـت علـم تلـك الـديار **أن المقـــيم بهــــا راحــــل**[1]

- مساندة نور الدين لحاكم دمشق في حوران:

في عام ٥٤١هـ/ ربيع عام ١١٤٧م خرج التونتاش أمير بصرى وصرخد في إقليم حوران، على حكمه، وأعلن استقلاله عن دمشق، وحتى يدعم موقفه التفت إلى مملكة بيت المقدس في محاولة لاستقطاب حكامها. وكان الذي شجعه على ذلك، اعتقاده بأن سياسة المسالمة التي اتبعها الملك فولك نحو دمشق قد انتهت بوفاته في «شهر تشرين الثاني عام ١١٤٢م» وأن الحكام الجدد سوف يلتزمون سياسة مغايرة وبخاصة أنه قدم إليهم في شهر ذي الحجة عام ٥٤١هـ/ شهر آيار عام ١١٤٧م عرضاً سخياً يتضمّن التنازل لهم عن بصرى وصرخد مقابل مساعدتهم له في الاستقلال بحوران [2]، وتردد بارونات بيت المقدس وحكامها في قبول هذا العرض المغري الذي سيتيح لهم استغلال إقليم حوران، كما أن السيطرة على هذا الإقليم تجعل دمشق تحت رحمتهم، ويبدو أنهم أدركوا المخاطر الناتجة عن تفكيك عرى التحالف مع دمشق في ظل تربص نور الدين محمود وللخروج من هذا المأزق تصرفوا على محورين:

الأول: أنهم أمروا بحشد الجيش في طبرية استعداداً لمساعدة التونتاش عند الضرورة [3].

الثاني: أنهم أرسلوا إلى أنر يطلبون منه إعادة التونتاش إلى حاكمية حوران. استشاط أنر غضباً من هذا التدخل السافر في شؤونه الداخلية غير أنه أراد أن يتجنّب نقض التحالف مع الصليبيين خشية من قوة نور الدين محمود، فأرسل يذكر حكام بيت المقدس بالحلف المعقود بينهم وبين حكّام دمشق والذي يعود على الجانبين بالفائدة ويحذرهم أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى محالفة نور الدين محمود مما يعرضهم لخطر جسيم، وعرض أن يؤدي نفقات الحملة التي جُهّزت لمساندة التونتاش. والواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين رغم ما فيه من المهانة لكرامته في أعين المسلمين، أسلم عاقبة من بقائه وحيداً أمام نور الدين محمود[4] إلا أن الصليبيين لا عهود لهم ولا مواثيق، فقد هدد الفرنج دمشق ووصل جيشهم

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ١٧٧). (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٥٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٧. (٤) المصدر نفسه ص ٢٥٧.

بقيادة ملك القدس إلى أطراف حوران، فاضطر معين الدين أنر مقدم العساكر في دمشق والحاكم الفعلي إلى الاستنجاد بنور الدين الذي بادر بنفسه للمساعدة وتقابل مع أنر بالقرب من بصرى للتصدي للفرنجة الذين فوجئوا بظهور نور الدين محمود مع معين الدين أنر، واضطروا للانسحاب جنوباً ومؤخرات جيشهم تتعرض لغارات المسلمين حتى عبروا نهر الأردن [1]. وتحسنت العلاقات بين نور الدين محمود ومعين الدين أنر بعد ذلك، وتوثقت أكثر بزواج نور الدين محمود من ابنة معين الدين، ورافق هذا الزواج إعادة مدينة حماة التي كان معين الدين أنر احتلها بعد مقتل عماد الدين زنكي إلى نور الدين محمود [2]. في السنة التالية ٥٤٢هـ/١١٤٨م تمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على عدة حصون ومواقع تتبع لإمارة أنطاكية منها أرتاح وباراه، وكفر لاثا[3]، وجميع هذه المواقع والحصون كانت من أعمال حلب سابقاً استولى عليها الفرنجة خلال سيطرتهم على مدينة حلب وتوسع الإمارات الفرنجية في بداية القرن، ويلاحظ أن نور الدين محمود وضع في قمة أولوياته إبعاد الخطر الفرنجي عن مدينة حلب، وهذا يعني التركيز على إمارة أنطاكية وتجريدها من كل ما استولت عليه في الماضي من الحصون والمواقع والبلدان التابعة لحلب حسب منهجه في ترتيب أولوياته، فقد أخذت الأخبار تتوارد من القسطنطينية وآسيا الصغرى عن تقدم جيوش فرنجية كبيرة جداً تتجه نحو المشرق الإسلامي لدعم وتعزيز الإمارات الفرنجية القائمة فيه واستعادة مدينة الرها التي كان عماد الدين زنكي استولى عليها عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م [4]، واحتلال ما يقدرون على احتلاله من بلاد المسلمين. وأخذت الدول والإمارات في المنطقة سواء كانت إسلامية أم فرنجية تعد نفسها وتضع في حسابها الصدام الكبير المقبل[5].

ثانياً: الحملة الصليبية الثانية:

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعث على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً، أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء الكبير الذي شيده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار[6]. وكانت نداءات الاستغاثة قد

(١) عيون الروضتين (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣). (٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩.
(٣) زبدة حلب (٢/ ٢٩١)، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٣.
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٣. (٥) المصدر نفسه ص ٩٣.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٧١.

وصلت إلى البابا يوجنيوس الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها [1]، وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا يحثهما على الإسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي الوقت نفسه كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذي قام به البابا أوربان الثاني عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٥م أثناء الدعوة للحملة الفرنجية الأولى [2]، ولبى الامبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، دعوة البابا وخرجا كل بجيشه عبر أوروبا باتجاه القسطنطينية ومن هناك عبرا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى [3].

١- السلاجقة في آسيا الصغرى يقضون على الجيش الألماني: كان الجيش الألماني يتقدم الجيش الفرنسي عدة أيام، وعندما بلغ منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقيه نفس الموقع الذي انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً، وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى واصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم، ولما وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف، عندئذ قرَّر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه وتعرض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر، والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحة مروعة، قتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه [4]، حاول كونراد الثالث، عبثاً، جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقى من رجاله، وقليل ماهم، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم [5]، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسروا أعداداً كبيرة منهم، وظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٤.
(٤) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ١٤٦.
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٦.

شهور[1]. وبهذه الهزيمة الساحقة يُمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيئ على الحملة الصليبية الثانية [2].

٢- سلاجقة الروم يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي: خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً عن الجيش الألماني، وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كان أكثر تنظيماً، واصطحب لويس السابع معه زوجته إليانور[3]. وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الامبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته [4]. وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتّخذها الملك الفرنسي فقد فأجاه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح يناوئ الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر، ونشبت في هذا المكان رحى معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر. عند ذاك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم يُنْجِ الجيش الصليبي من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان [5]، ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبد خسائر هائلة، وبعد أن شفى الامبراطور الألماني من مرضه أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطي [6]، والتقى الامبراطور الألماني والملك الفرنسي في القدس مع الملك بلدوين الثالث ملك القدس وأمه مليزاند وكبار القادة ورجال الدين في مملكة القدس، وبحث الجميع موضوع الهدف الذي ستتوجه الحملة لاحتلاله وقرروا أن يكون هدفهم الأول دمشق [7].

٣- الهجوم الصليبي على دمشق: توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة نحو دمشق التي كان يحكمها آنذاك معين الدين أنر أتابك الملك مجير الدين آبق بن محمد بن بوري، الذي كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الفرنج وتعاونًا معهم [8]، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الفرنجية الضخمة، لكنه لما علم بنوايا الفرنجة ومسيرهم نحو دمشق اتخذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن المدينة، وأرسل يطلب المساعدة من نور

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٧.
(٢) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ١٤٦.
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٧.
(٤) المصدر نفسه ص ١٤٧.
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٧.
(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٥.
(٧) المصدر نفسه ص ٩٥.
(٨) المصدر نفسه ص ٩٦.

الدين محمود وسيف الدين غازي [1]، كان من عادة نور الدين محمود تحليل الأوضاع الدولية والإقليمية ومتابعة الأحداث الجارية، وتحليلها بعمق ثم يخرج بالدروس والعبر التي تفيده في تقرير سياسته المستقبلية وقد شكلت الحملة الصليبية الثانية الحدث الأكبر في المنطقة والعالم كله عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وكانت بالنسبة لنور الدين محمود الحدث الأول من نوعه بعد توليه الحكم عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م والذي يمارس عليه سياسته المذكورة، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته (حلب) الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، على يد عماد الدين ولكن الذي حصل أن الحملة غيَّرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها محاولة احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفاجأة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أنر المدبر الحقيقي لشؤون إمارة دمشق، كانت مفاجأة نور الدين معروفة الأسباب، أما مفاجأة حكام إمارة دمشق فلأنهم كانوا أصدقاء الفرنجة الوحيدين من المسلمين في المنطقة وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب، ولكن نور الدين محمود استفاد من هذا التغيير المفاجئ في هدف الحملة التي لم يحصل ارتجالاً ولم يكن حماقة كما يذكر بعض المؤرخين [2]، بل جاء بعد دراسة وتحليل للأوضاع في المنطقة قام بها قادة الحملة في اجتماعات مكثفة اشترك بها ملك بيت المقدس وقادته في مدينة عكا قبل الهجوم على دمشق [3].

لقد تأكد لنور الدين محمود المغزى الحقيقي لغزو الفرنجة السابق في الحملة الأولى والحالي في الحملة الثانية والذي لا يمت بصلة إلى استرجاع قبر المسيح عليه السلام من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى القدس على طوال الساحل شمالاً إلى القسطنطينية، كما كان يزعم زعماء الدين المسيحي الذين خططوا لهذه الحروب، كما أن الهدف الحقيقي للحملة الفرنجية الثانية أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها لأن الحملة توجهت إلى دمشق حليف الفرنجة في المنطقة ولم تتوجه إلى حلب أو الرها حيث يوجد من يتوجب الانتقام منه، فقد أدرك نور الدين محمود أن هدف الفرنجة الحقيقي هو احتلال المشرق الإسلامي والسيطرة عليه كما كانت الامبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام، وأنهم لا يميزون في عملهم لتحقيق هذا الهدف بين إمارات ودول المسلمين، فالحليف المتعاون معهم سواء عندهم مع المقاوم لسيطرتهم وتوسعهم، المجاهد لتحرير البلاد من احتلالهم، فهم

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٩٦. (٢) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان ص ٥٢٣.
(٣) نور الدين محمود.. سيرة مجاهد صادق ص ٢١٢- ٢١٣.

يقصدون احتلال بلاد الجميع والسيطرة على الجميع، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التي تعتبر قلب بلاد الشام وأكثر الإمارات الإسلامية مساحة وموارد، ولكونها الأضعف عسكرياً، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها، فالأمر إذن حرب شاملة لن يسلم منها المراقب عن بعد ظناً منه أن الخطر بعيد عنه، فدوره قادم ولو بعد حين، وإذا كان الأمر كذلك فإن نور الدين بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لابد أن يخوض هذه الحرب من بدايتها فدمشق بالنسبة له، كحلب تماماً وهي في الوضع الراهن تشكل الخط الأول للدفاع عن حلب والموصل وباقي بلاد المسلمين، ولذلك نراه يحشد جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازي أمير الموصل بالقرب من حمص ويعلبك لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبي، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيسي في فشل الهجوم الصليبي على دمشق. وقد خرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدروس مهمة تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة. من هذه الدروس: الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجي وتحرير البلاد من احتلالهم، ثم الأهمية الاستراتيجية لإمارة دمشق في المواجهة مع الفرنجة، وضرورة الاستيلاء عليها بأي ثمن، ومنها وضع التدخل الأوروبي في الصراع مع الإمارات الفرنجية في الاعتبار [1].

٤- موقف رجال الدين المسيحي من الحملة الصليبية الثانية: أما عن موقف رجال الدين المسيحي من خروج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، فإنه لم يكد نبأ سقوط الرها - في يد عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م- يتردد في عواصم غرب أوروبا حتى أثار مخاوف وقلقاً شديدين، وأدرك الصليبيون أن ذلك يمثل بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة تحتاج مراجعة للمسؤولين عن إمارة أنطاكية، واستقر الرأي على إرسال وفد إلى البابا يوجنيوس الثالث ٥٤٠هـ - ٥٤٨هـ/ ١١٤٥ - ١١٥٣م) ليدعو إلى حملة صليبية جديدة فقامت بالفعل في أوروبا حركة كبيرة تدعو بكل حماس إلى سرعة القيام بهذه الحملة لإعادة إمارة الرها إلى المسيحيين، وبادر البابا يوجنيوس الثالث بدعوة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا ليتزعما تلك الحملة. وقد رحب لويس السابع بطلب البابا، ودعا أتباعه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من الترتيبات، ولما لم يبدِ هؤلاء أي حماس للاشتراك في هذه الحملة، قرر الملك لويس السابع تأجيل تنفيذ دعوة البابا لمدة ثلاثة شهور، ولجأ إلى أحد أعلام الدين المسيحي في مملكته، وهو القديس برنارد - رئيس دير

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص١٥١.

كليرفو الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة ويفوق الملك في السلطة -على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي رنسيمان- فقد كان له قدرة عظيمة على الإقناع والتأثير في الناس، ولم يكد الملك لويس السابع والبابا يوجنيوس يطلبان منه القيام بالدعوة للحملة الصليبية حتى أسرع القديس برنارد لتلبية هذا الطلب والعمل بكل قواه من أجل إنجاح هذا المسعى[1]، وكما وقف البابا أوربان الثاني في كليرمونت يدعو للحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة وقفت القديس برنارد خارج كنيسة فيزيليه في شوال ٥٤٠هـ/ مارس ١١٤٦م يدعو للحملة الصليبية الثانية، ونفذ ببلاغته إلى قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل ناراً، فلما استمع الناس لسحر بيانه وبلاغته وفصاحته، أخذوا يصيحون طالبين الصلبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية فقطعت وحيكت صلبانًا، وظل هذا القديس ومساعدوه يخيطون الصلبان لكل الذين تطوعوا للاشتراك في هذه الحملة[2]. وبعد عدة أيام كتب القديس برنارد رسالة إلى البابا يتضح منها مدى تأثير رجال الدين المسيحي في الناس ومدى طاعة الناس لهم – في ذلك الوقت – فيقول فيها: لقد أمرتم، فأطعت، وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتي مثمرة، فلم أكد أفتح فمي وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها، فلا تكاد تجد رجلاً واحداً لكل سبع نساء ويصادفك في كل مكان الأرامل اللائي لا زال أزوجهن أحياء [3]. وبعد ذلك أخذ الحماس يزداد عند القديس برنارد بعد النجاح الذي أحرزه في فرنسا، فأخذ يطوف أقاليم ألمانيا مؤملاً أن يجتذب الألمان للاشتراك في هذه الحملة، وقد نجح إلى حد كبير في التأثير على كونراد الثالث ملك ألمانيا للانضمام إلى الحرب المقدسة، ويطلب منهم أن يقوموا بشرح الإعلان البابوي الذي بعث به البابا إلى جميع مدن أوروبا من أجل أن يتحمل الجميع مسؤولية مساعدة الأرض المقدسة بفلسطين والعمل على تحريرها [4]، واستقر رأي المشاركين في هذه الحملة على مهاجمة دمشق واحتلالها، واشترك رجال الدين المسيحي جنباً إلى جنب مع الجند في حصار دمشق، فكان مع الملك الألماني كونراد قسيس عجوز يدعى إلياس، طويل اللحية، يعتقدون به، فلما حاصروا دمشق، ركب هذا القسيس حماره وعلق على عنقه صليباً وحمل في يده صليباً وجمع القساوسة بالصلبان وركب الملوك والفرسان بين يديه، ولم يتخلف من الصليبيين المشاركين في الحصار أحد إلا من تركوه لحفظ الخيام. ووقف هذا

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان،(٢/ ٤٠٧ – ٤٠٩).

(٢) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

القسيس أمام الجميع وهو يتقدمهم قائلاً: لقد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق ولا يردني أحد. ولكن باءت نبوءته بالفشل إذ هاجمه أحد شباب المجاهدين فقتله وقتل حماره[1].

٥- انتصار دمشق على الحملة الصليبية الثانية: في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نازلت الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون في دمشق للمصاف فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل، وعسكر البلد، فاستشهد جماعة، وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان في اليوم الخامس وصل غازي بن أتابك، وأخوه نور الدين في عشرين ألف إلى حماه، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضّرع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجَّ الناس والنساء والأطفال - مكشوفي الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله، فأغاثهم[2]، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]. وكان من أسباب الله التي جعل فيها النصر لأهل دمشق وصول جيوش الموصل وحلب في الوقت المناسب، فقد اتصل كل من سيف الدين غازي وأخوه نور الدين بمعين الدين أنر لتنسيق التعاون بينهم ضد الفرنجة، وكان معين الدين أنر حاكم دمشق لم يكن يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق وكان في الوقت نفسه يهدد الفرنجة بتسليم دمشق لسيف الدين أو لنور الدين إذا حاولوا اقتحامها، وراسل حكام القدس ووعدهم بتسليم حصن بنياس لهم إذا أقنعوا الامبراطور كونراد والملك لويس بالانسحاب عن دمشق، وترافقت هذه الاتصالات مع حدوث خلاف بين الفرنجة أنفسهم حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها [3]، فقبل حكام القدس عرض معين الدين أنر، وأقنعوا الامبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الانسحاب عن دمشق خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازي «ملك الشرق» [4]، الذي إن تسلمها طمع باحتلال القدس وباقي الإمارات الفرنجية فيما بعد فيزول الوجود المسيحي كله من الشرق، فانسحبت جيوش الفرنجة إلى فلسطين ومنها غادر الامبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية في طريق عودته لألمانيا، بينما تأخر الملك لويس عدة أشهر ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا [5]. وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الفشل الذريع بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل وحلب مع دمشق وسلاجقة الروم في وجه العدوان، وبسبب توافر إرادة المقاومة والقتال في نفوس القادة، بعكس الوضع الذي حصل خلال الحملة الفرنجية الأولى التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام بسبب اختلاف هذه الإمارات وعدم توافر إرادة القتال، وضعف روح المقاومة في نفوس

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص ٢٥٥.
(٢) شذرات الذهب (٦/ ٢١٩).
(٣) تاريخ الحروب الصليبية (٢/ ٢٥٥).
(٤) الباهر ص ٨٩، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٦.
(٥) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص ٩٦.

الحكام، كان نور الدين محمود المستفيد الرئيسي من فشل الحملة الفرنجية الثانية «بعد حاكم دمشق» فقد برزت أهمية الدور الذي قام به وأخوه سيف الدين غازي في إرغام الفرنجة على الانسحاب عن دمشق خائبين، وظهرت بالتالي أهمية التعاون والتضامن بين الإمارات الإسلامية في حمايتها من أطماع الفرنجة وهذا ما كان نور الدين محمود يسعى لتحقيقه باعتباره الخطوة الأولى على طريق الوحدة التي كانت تمثل الهدف الإستراتيجي له في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال الفرنجي، أدرك نور الدين محمود بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية الأهمية الكبيرة لدمشق في مواجهة الفرنجة سواء من حيث موقعها الجغرافي المواجه لأكبر وأقوى الإمارات الفرنجية (مملكة القدس) أم من حيث إمكانياتها وكثرة مواردها وقوتها البشرية، فترسخت فكرة الاستيلاء عليها في نفسه، وأخذ يسعى لتحقيق ذلك معتمداً الوسائل السلمية ومستفيداً من تجربة والده في هذا المجال [(١)].

٦- مشاركة فقهاء المغاربة للدفاع عن دمشق: لم تقتصر المشاركة الفعلية للفقهاء في القتال على فقهاء مدن بلاد الشام وحدهم، إذ تشير بعض الروايات إلى مشاركة أولئك الفقهاء المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يقيمون ببلاد الشام في تلك المعارك، فعندما تعرضت مدينة دمشق عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٧م للغزو الصليبي شارك أولئك الفقهاء جيوش مدينة دمشق لمواجهة ذلك الغزو؛ وكان منهم الفقيه المغربي حجة الإسلام أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي، والشيخ عبد الرحمن الحلحوني[(٢)]. وكان الشيخ الفندلاوي كبيراً زاهداً عابداً، خرج راجلاً، فرآه معين الدين – حاكم دمشق – فقصده وسلّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوّة على القتال، فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولانستقيله. يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قتل -رحمه الله- شهيداً[(٣)]. واستشهد الشيخ الحلحوني بعد قتال واستبسال [(٤)] ورُئي الشيخ الفندلاوي في المنام بعد استشهاده فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سُرر متقابلين [(٥)].

٧- ما قيل من شعر: قال أبو الندى حسان بن نمير الكلبي في مدح مجير الدين صاحب دمشق:

عَرِّجْ على نَجْدٍ لعلَّكَ مُنْجِدي   بنسيمها ويذكر سُعْدى مُسْعِدي

---

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٧.
(٢) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٢٥.
(٣) أخبار الروضتين (١/ ١٩٠).
(٤) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١١٧.
(٥) أخبار الروضتين (١/ ١٩١).

مــن قاتــل الإفــرنج دينــاً غـــيره والخيــلُ مثــل الســيل عنــد المشــهد
ردَّ الأمـــانَ بكـــلِّ نِـــدْب باســـل ومـــن الجيـــاد بكـــل نهـــد أجْـــرَدِ
ومــن السـيوف بكـلِّ عَضْـب أبـيض ومـــن العَجَـــاج بكـــلِّ نقـــع أســـود
حتـــى لـــوى الإســـلام تحــت لوائــه وغـــدا بحمـــد مـــن شـــريعة أحمـــد [1]

ثالثاً: نتائج الحملة الصليبية الثانية:

هناك مجموعة من النتائج تمخضت عنها الحملة الصليبية الثانية منها:

١- أججت العداء الغرب أوروبي تجاه الامبراطورية البيزنطية، إذ أن المعاناة التي لقيها الامبراطور الألماني كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسي لويس السابع من خلال الطريق البري الذي مر بمناطق بيزنطية أكدت العداء المتأصل بين الطرفين وهو عداء سيتراكم طوال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري.

٢- أثرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبي في الشرق، فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعي استراتيجي مع الغرب الأوروبي، الذي وفر لها كل دعم مادي ومعنوي من أجل القيام والنمو والازدهار، بل وفر لها كل حماية ممكنة وسط المحيط الإسلامي المعادي، والآن بعد المصير الذي وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التي علقت على نجاحها، اتضح لنا بجلاء أن اعتماد الصليبيين على الدعم الأوروبي الخارجي خلال تلك الحملة الفاشلة، لم يغنهم شيئاً، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة لاحتلال مناطق المسلمين طالما أن أطماعهم لاتحد، وجشعهم ليس له حدود. لقد ظل الوجود الصليبي في الشرق أشبه شيء برضيع لم يكتب له النمو الطبيعي من خلال ارتباطه المرضي بالوطن الأم في أوروبا، وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك الوليد ليس لها حل حقيقي في آلية الصراع الصليبي الإسلامي [2]. وهذا ما ينطبق على إسرائيل في هذا العصر.

٣- عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية عن تغيير واقع عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة، أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من الآن فصاعداً الإنجاز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من

---

(١) أخبار الروضتين (١/ ١٩٣).

(٢) الحروب الصليبية – العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٤.

المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم للمنطقة.

٤- **بروز نجم نور الدين محمود:** فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود في حلب إلى حد كبير، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية، إلا إنهم صاروا في علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث [١]، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام، بصورة أقوى، فقد اعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذه السياسي، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس، حليفة الأمس [٢].

٥- **ضعف حكام دمشق:** والحملة المذكورة تلقي الضوء على مدى الضعف الذي وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي عليها، ولذلك طلبت العون العسكري الخارجي، ولا ريب في أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة على نحو جعله يخطط أكثر من ذي قبل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية وضم دمشق [٣].

٦- **تدمير حصن العريمة:** استغل نور الدين محمود أول فرصة سنحت له للعمل المشترك مع معين الدين أنر، فقد استعان رايموند أمير طرابلس بنور الدين ومعين الدين ضد أحد أمراء الفرنجة الذين حضروا مع الحملة الفرنجية الثانية ضمن الجيش الفرنسي هو برتراند كونت تولوز، لم يرجع هذا الأمير مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة، وإنما توجه إلى الشمال في البحر محاذياً للشاطئ حتى صار بمحاذاة إمارة طرابلس ونزل إلى البر ومعه فرسانه، فاقتحم حصن العريمة التابع لإمارة طرابلس وتحصن فيه وأعلن نيته في الاستيلاء على طرابلس معتبراً نفسه أحق بها من أميرها رايموند، ولم يتمكن رايموند أمير طرابلس من التغلب عليه، فحاول الاستعانة بباقي الإمارات الفرنجية وعندما لم يجد منهم استجابة بعث يستنجد بنور الدين ومعين الدين اللذين بادرا بسرعة لحصار الحصن بقواتهما واستوليا عليه، وأسرا كل من كان فيه ثم دمرا الحصن حتى استوى مع الأرض، وعاد كل منهما إلى مدينته [٤]، وتدل هذه الحادثة على مدى الأثر السيئ الذي أحدثه فشل الحملة الفرنجية الثانية على وضع الإمارات الفرنجية في المشرق الإسلامي [٥].

٧- **كسر هيبة الصليبيين في نفوس المسلمين:** يعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي - المسيحي، فبالإضافة إلى أنها

---

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٤.

(٢) (٣) المصدر نفسه ص ١٨٥.

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٩٧. (٥) المصدر نفسه ص ٩٨.

أدت إلى انحطاط هيبة الصليبيين في الشام مما شجع القوى الإسلامية على الغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التي ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبي هو نور الدين محمود زنكي الذي أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، وهو المشروع الذي سيستكمله صلاح الدين فينجح في التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية، ولقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدي بحق لهذا الخطر الصليبي[1].. هذه هي أهم النتائج.

رابعاً: سياسة نور الدين محمود في ضم دمشق:

كان نور الدين يحاول التقرب من أهل دمشق وكسب ثقتهم، ويستغل كل فرصة تحقق له ذلك سعياً منه لتحقيق هدفه الرئيسي بضم دمشق دون حرب، وقد وصلته أخبار في نهاية عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م عن أعمال نهب وتخريب يقوم بها الفرنجة في مناطق حوران التابعة لدمشق دون أن يردعهم أحد[2]، وكان المطر قد انحبس حتى ذلك الوقت وعانى الناس من القحط، فتوجه نور الدين بجيشه حتى وصل بعلبك، وراسل مجير الدين آبق حاكم دمشق، يقول له: إنني ما قصدت بنزولي هنا طلباً لمحاربتكم، وإنما دعاني لهذا الأمر كثرة شكاية أهل حوران بأن الفلاحين أُخذت أموالهم، وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله تعالى وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال، أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلك لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية، ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله ولا أحداً من المسلمين، ولابد من المعونة بألف فارس مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة[3].

(١) السقوط ص ١٣٦.
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٠٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٠.

فهذه الكلمات خرجت من قلب مكلوم، يرى الفرنج يتداعون على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وأولو الأمر يقفون مكتوفي الأيدي، فلا يذبون عن أمتهم، ولا يدافعون عن رعيتهم، بل ويصل الأمر إلى أنهم يبذلون أموال المسلمين لأعداء الإسلام، مع أنه لا يجوز إعطاء الكافرين أموال المسلمين وأرضهم، فكان لابد أن يتحرك الأبرار الشرفاء. إن نور الدين في هذه الرسالة غير حريص على قتال إخوانه في الإسلام، إنما الذي دفعه إلى الخروج، والنزول حول دمشق، هو إغاثة المكلومين الذين ابتلوا بالفرنج، ولا طاقة لهم في دفعهم، مع قعود مجير الدين صاحب دمشق عن نصرتهم ابتغاء مرضاة الله وقياماً بواجب عجز حكام دمشق عن القيام به، كما أنه لا يحل لمسلم أعطاه الله القدرة على نصرة المسلمين وجهاد أعدائهم، ألا ينصرهم. وفي هذه الرسالة يرسي نور الدين معالم على طريق التحرير لعل حكام المسلمين يعون ما فيها، حينما يذكر أن التمكين في الأرض نعمة، وكثرة المال، وكثرة الرجال نعمة تستحق الشكر لله عز وجل، وتوظيفها في طاعة الله عز وجل، أي لابد هنا من توظيفها في الجهاد في سبيل الله، ولا يحل لمسلم أعطاه الله هذه النعم أن يقعد عن نصرة إخوانه في الإسلام ومجاهدة الأعداء، لهذا قرر نور الدين محمود أن يهب لنجدة إخوانه سكان دمشق [1].

كان الجواب الذي تسلمه نور الدين من حاكم دمشق: ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوفنا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا [2]، فقرر نور الدين التوجه إلى دمشق ومحاصرتها ولكن أمطاراً غزيرة جداً سقطت واستمرت أسبوعاً، فغير رأيه حقناً لدماء المسلمين، ولهج أهل دمشق وحوران بالدعاء له واعتبروا نزول المطر ببركته [3]، وقرّر نور الدين أن يستولي على المدينة بطريقة سلمية، وكان هذا القرار يتناسب مع عقيدة نور الدين محمود وطبيعته، فهو يكره سفك دماء المسلمين ويبذل قصارى جهده ليتجنب قتال المسلمين، وعُرف عنه قوله: إني أرفّه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة أعدائهم، كانت خطة نور الدين محمود للاستيلاء على دمشق سلمياً تقتضي العمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: العمل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم وتعاملهم مع الأعداء، وبالمقابل إبراز ما ينتظرهم من نور الدين محمود، وكانت القواعد والأسس اللازمة لمثل هذه الحملة متوافرة وموجودة أصلاً من خلال الواقع الذي يعيشه أهالي مدينة حلب وغيرهم،

(١) الطريق إلى البيت المقدس، د. جمال عبد الهادي، ص ٨٣. (٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ ، ٣٠٩.
(٣) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين ص ١٠٠.

من رعايا نور الدين محمود، ومن خلال ما تناقله الناس عن عدله وحسن سيرته وجهاده، ولكنه أراد أن يخصَّ أهل دمشق بمزيد من الاهتمام والرعاية في هذا المجال، فكان يوصي جنوده في كل مرة يدخل فيها أراضي الإمارة أن يحسنوا معاملة الفلاحين ومن يلقونهم من أهالي دمشق وألا يحدثوا أية أضرار في الممتلكات والمزارع، وعندما علم باعتداءات الفرنجة على حوران (جنوب دمشق) وقتلهم للمسلمين وسبيهم للنساء والأطفال ونهبهم للمواشي، دون خروج حاكم دمشق لدفعهم، بادر بالتوجه بجيشه إلى دمشق، وعندما اقترب من المدينة وأرسل إلى حاكمها الرسالة الآنفة الذكر، وعندما علم نور الدين أن حاكم دمشق طلب مساعدة الفرنجة، أجرى تعديلاً على توزيع مواقع قواته للتعامل مع الموقف الجديد. التقى مجير الدين آبق مع قادة الفرنجة وأكد معهم اتفاقه القديم ولكن أدرك فيما بعد عزم نور الدين وتصميمه على احتلال المدينة، فأرسل إليه يطلب الاجتماع به وإعلان الطاعة له، وذكر اسمه في الخطبة وسك اسمه على النقود مقابل بقائه حاكماً على المدينة، فقبل نور الدين بهذا العرض، وتم الاجتماع في معسكر نور الدين، وخرج أغلب أهل دمشق إلى معسكر نور الدين ليملأوا عيونهم من طلعة نور الدين [1] وانتهز نور الدين محمود الفرصة فحرص على لقاء العلماء وطلبة العلم وقُراء القرآن وأكرمهم كما أحسن إلى الفقراء والضعفاء وشملهم بعطفه، مما ترك أحسن الأثر في نفوس الناس، ومع أن مجير الدين آبق نقض اتفاقه مع نور الدين وأعاد علاقته بالفرنجة كما كانت في السابق، إلا أن نور الدين كان قد تملك قلوب الرعية في دمشق وحقق نجاحاً كاملاً على المحور الأول من خطته.

المحور الثاني: كان العمل يشمل الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار والقضاة والعلماء وبعض قادة الجند، وقادة التنظيمات الشعبية [2]، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب، وكان من أشهر العاملين على هذا المحور القائد المشهور أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين)، فقد كان الأخير من سكان دمشق ومن أشهر وجهائها [3]، بينما كان أسد الدين من أكبر القادة العسكريين العاملين مع نور الدين محمود، فاستغل نور الدين هذا الوضع وأوعز إلى قائده أسد الدين بمراسلة أخيه نجم الدين وتحريضه على الإطاحة بمجير الدين آبق، وتسهيل تسليم المدينة لنور الدين بدون قتال في الوقت المناسب، فاستجاب نجم الدين وبذل في هذا المجال جهوداً كبيرة أثمرت في نهاية الأمر حتى أخذ أعيان دمشق يراسلون نور الدين يطلبون

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.
(٢) الباهر ص ١٠٧، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.
(٣) الكواكب ص ١٢٢، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.

حضوره معلنين استعدادهم حصار مجير الدين آبق في قلعة دمشق وتسليم المدينة له دون قتال[1]. وهكذا كان النجاح على هذا المحور كاملاً كما هو على المحور الأول.

المحور الثالث: كان المحور الثالث من اختصاص نور الدين نفسه، فقد استطاع بخبرته ومقدرته على تحليل النفوس البشرية، النفاذ إلى شخصية مجير الدين آبق وتحليلها، ومعرفة ميوله ورغباته وتعامل معه على هذا الأساس، فأخذ يراسله ويستشيره في أمور المسلمين ويتقرب إليه بالهدايا حتى اطمأن إليه ووثق به، ثم أخذ يوقع بينه وبين قادته وأمرائه، فيكتب له عن بعض أمرائه وقادته بأنهم يراسلونه [2] (أي يراسلون نور الدين) فيقبض مجير الدين عليهم أو يجردهم من مناصبهم أو يقتلهم حتى لم يبق من كبار قادته وأمرائه من يعتمد عليه في ضبط أمور الجيش وإدارة القتال [3]، وأصبح مكروهًا من الرعية معزولاً عن الأعيان والوجهاء مجرداً من القادة الأكفاء، عندها حانت الفرصة المناسبة وأصبحت دمشق كالثمرة الناضجة، فسار نور الدين محمود إليها بجيشه وأوعز إلى أنصاره فيها لتنفيذ ما اتفق عليه، فثاروا وهاجموا أبواب المدينة من الداخل وفتحوها أمام جيش نور الدين، بينما تحصّن مجير الدين آبق مع من بقي معه من الجند في قلعة المدينة، وطلب النجدة من الفرنجة الذين سارعوا إليها ولكن نور الدين كان أسرع منهم فرجعوا خائبين، ثم أرسل نور الدين إلى مجير الدين يؤمنه على نفسه وعلى من معه من الجند، ويعده بإقطاعه مدينة حمص إذا استسلم وخرج من القلعة، فقبل وحقق له نور الدين وعده ولكن أبدله بحمص مدينة بالس على نهر الفرات في الشرق [4]. وهكذا نجحت خطة نور الدين في ضم دمشق إلى دولته بدون قتال نجاحاً كاملاً - بفضل الله - ثم حنكته السياسية ومقدرته على تأليف القلوب واستمالتها، بالإضافة إلى قوة عزمه وتصميمه على الهدف وصبره وترويه في التعامل مع الأمراء المنحرفين عن جادة الصواب [5].

ولقد تمكن نور الدين من ضم دمشق في صفر عام ٥٤٩هـ/ أبريل ١١٥٤م [6]، ويعد ضم دمشق من أهم إنجازات السياسة الخارجية النورية، وبذلك تحقق حلم طالما راود الزنكيين، وقد عده البعض أعظم إنجازاته على الإطلاق، وأنه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية [7]، حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته، وصار الصليبيون بذلك

(١) الباهر ص ١٠٧، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٥، دور نور الدين ص ١٤٢.
(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٢.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٧ - ٣٢٨.
(٥) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٢.
(٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٤.
(٧) الشرق الأوسط للعريني ص ٢٩٩، الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٨٠.

يواجهون عدواً خطيراً [1]، وإذا كان بلدوين الثالث بإسقاطه عسقلان عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م أكمل مد النفوذ الصليبي على كل أنحاء الساحل الشامي من الإسكندرية شمالاً إلى غزة جنوباً؛ فإن استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردي في قبضة قوة إسلامية موحدة [2]، وتلك هي المرة الأولى التي توحدت فيها الشام منذ العهد السلجوقي، وصار بإمكان نور الدين محمود أن يوجه ضرباته لأعدائه في الشمال صوب أنطاكية، وفي الجنوب صوب منطقة الجبل الأعلى والحدود الشمالية للمملكة اللاتينية، كذلك أدى إسقاط دمشق إلى فتح الطريق نحو القاهرة، التي غدت محط أطماع متبادلة من جانب نور الدين والصليبيين على حد سواء [3].

خامساً: أهم نتائج ضم دمشق:

ترتب على ضم دمشق عدة نتائج كانت لصالح المسلمين لعل أهمها:

١- قضى نور الدين محمود على الأسرة البورية التي حكمت دمشق منذ عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، وآلت هذه الأتابكية بجندها وإقطاعاتها إليه، فكان ذلك فتح الفتوح وأضحت الدولة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب.

٢- صفت الممالك بالشام لنور الدين محمود وألقى الإسلام بدمشق جرانه، وثبت أوتاده، وذلك إشارة إلى أن دمشق كانت في ظل حكم الأسرة البورية تحت حماية الصليبيين.

٣- قامت لأول مرة في بلاد الشام منذ أن وطئها الصليبيون دولة إسلامية متحدة مركزها دمشق، وقد أفزع هذا الصليبيين فعلّق المؤرخ وليم الصوري قائلاً: كان هذا التغيير مشؤوماً بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس لأنه وضع الصليبيين في مواجهة خصم عنيد في شدته محل رجل مسلوب الإرادة، إشارة إلى مجير الدين آبق، قد جرَّده ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم، كما أنه ظلَّ حتى ذلك الوقت يدفع لهم الجزية سنوياً شأنه في ذلك شأن التابع لهم [4]. وفي رأينا أن التغيير المشؤوم بالنسبة لمملكة بيت المقدس هو نفسه التغيير المبارك بالنسبة للمسلمين وهو توحد عدة مدن كانت دويلات في دولة واحد قوية وتوحيد جيوشها المبعثرة في جيش واحد قوي على رأسه قيادة ربانية كنور الدين زنكي استطاعت أن تعطي هيبة وقوة للدولة.

٤- شكل ضمُّ دمشق إلى حلب نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه

(١) (٢) (٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٥.

(٤) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (٢/ ٨١٥).

ترتب على هذا التحول وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود، فمن الرها شمالاً حتى حوران جنوباً امتدت دولة إسلامية واحدة مركزها دمشق، فقبل ذلك الوقت كان المسلمون في الشرق الأدنى الإسلامي منقسمين إلى قسمين منفصلين، قسم في الجنوب أي مصر، وقسم في الشمال أي شمال الشام والعراق، وقد استطاع الصليبيون بفضل موقف حكام دمشق توجيه الضربات لكل قسم من هذين القسمين على انفراد دون أن يتمكن القسم الآخر من دفع خطرهم [1].

٥- حقَّق ضمُّ دمشق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، بل فاق في كفة المسلمين رجحانه، فإذا كان الصليبيون قد حققوا السيطرة على جميع ساحل بلاد الشام من الإسكندرونة إلى غزة، فإن ضم نور الدين محمود لدمشق جعل بلاد الشام الداخلية من الفرات حتى نهر بردي في قبضة إسلامية واحدة، وإذا كان الصليبيون في الشمال قد نجحوا في الاستيلاء على حارم على الضفة الشرقية لنهر العاصي، فإن ضياع هذه القلعة من المسلمين لا يعادل بأي حال الأهمية العسكرية والمعنوية لدخول نور الدين محمود دمشق [2].

٦- تحقَّق بضم دمشق جانب كبير من أهداف نور الدين محمود الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية، وكان قد أمَّن المركز المسيطر على طريق وادي العاصي المؤدي إلى أنطاكية، فأضحى بإمكانه عند نشوب الحرب بينه وبين الصليبيين أن يسدد ضرباته وفق رغبته إلى الشمال والجنوب بعد أن انهار الحاجز المنيع الذي كان يفصل حلب عن بيت المقدس، وبعبارة أخرى، أضحت مملكة بيت المقدس في متناول يده.

٧- على الرغم من أن ممتلكات الصليبيين تفوق في المساحة وفي الثروة ممتلكات نور الدين محمود، فقد كان له ميزة توحيد الممتلكات تحت زعامة واحدة يقلُّ عن سائر أمراء الصليبيين المتشرذمين، فيما يتعرض له من مناوأة من قِبل أتباعه الطموحين [3].

٨- أخذ نجم نور الدين محمود في الصعود، غير أنه كان شديد الحذر مما منعه في المضي في استكمال انتصاراته، لذلك أكَّد من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس، فقد جدد في عام ٥٥١هـ/١١٥٦م الهدنة لمدة سنتين [4]، ولم تأخذ نور الدين نشوة الانتصار وعاطفة العوام ولم يتأثر بغرور الانتصار وإنما عالج الوضع بعقلية القائد المحنك

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٨٩.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ٢٨٩.
(٣) (٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٢٩٠.

واهتم نور الدين بالأمور الإدارية والحضارية والسعي لتعزيز المذهب السني بدمشق وعمارة الاستحكامات وأسوار المدن [1].

- **ما قيل من الشعر في حصار دمشق:** في عام ٥٤٦هـ حاصر نور الدين محمود دمشق فمدحه ابن المنير بقصيدة يحرضه على حكام دمشق فقال:

أخليفةَ الله الذي ضَمِنَتْ ... تصديقَ واصفهِ سَراةُ المِنْبَرِ
لا المستطيل بمصر ظلُّ قُصُوره ... والمستطال إليه شُقَّةُ صَرْصَرِ
يا نور دين الله وابن عماده ... والكوثر بن الكوثر وبن الكوثر
صفر بجدّ السَّيْف دار أشائب ... عقلوا جيادك عن بنات الأصفَرْ
هم شَيَّدُوا صرح النفاق وأوقدوا ... ناراً تُحَشُّ بهم غداً في المحشر

إلى أن قال:

يا أيها الملك المنادِي جُودُه ... في سائر الآفاق هل من معسر
إن القصائد أصبحت أبكارُها ... في ظل ملكك غاليات الأمهر [2]

* * *

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٦١.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٢٦٠، ٢٦١).

المبحث الثالث

العلاقات مع القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة والأناضول

أولاً: الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية من بلاد الشام:

إن حرص الدولة النورية على ضم وسط الشام إلى حلب لم يجعلها تتناسى أهمية إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية، إذ أن ذلك يعد تدعيما حقيقياً لسلطانها في حلب ذاتها [(١)].

١- العلاقة مع شيزر: كان نور الدين قبل سنة ٥٥٢هـ لا يهاجم شيزر لانشغاله عنها لجهاد الإفرنج وخوفاً من أن يسلمها صاحبها إلى الصليبيين ولكنها أصيبت في هذا العام سنة ٥٥٢هـ بزلزلة وانهدم الحصن وقتل جميع آل منقذ الموجودين [(٢)] فيه، فبادر إليها بعض أمراء نور الدين وقصد إليها وجدد أسوارها فعادت جديدة [(٣)]، ودخلت شيزر في دولة نور الدين وحقق ضمها مكاسب تجارية وسياسية واستراتيجية للزنكيين، فقد كانت تقع على خطوط التجارة بين حلب ودمشق وحمص، بحيث جعلت لمن يحكم قبضته عليها حق جباية المكوس، ومن جهة أخرى صار إخضاعها أمراً تمليه الأحداث بعد أن طمع الصليبيون في الاستيلاء عليها حيث إنهم بادروا إلى ذلك في نفس العام [(٤)]، ولا شك في أن محاولة الصليبيين قد جعلت الدولة النورية تدرك أكثر من أي وقت مضى أهمية إخضاع شيزر لأن استيلاءهم عليها يشكل خطراً داهماً خاصة على مدينة حلب قلب الدولة النورية في مرحلتها الباكرة[(٥)]. إن نجاح الدولة النورية في السيطرة على شيزر، بمثل تلك السهولة التي توردها المصادر، دلالة واضحة على أن النفوذ السياسي لبني منقذ، حينذاك، انتهى بصورة فعلية على نحو لم يشكلوا معه أية معارضة حقيقية للسياسة الخارجية النورية، ولذا جاءت أحداث الزلازل المذكورة لتعطي لنور الدين الحافز القوي للإجهاز على كيان سياسي محلي متلاش[(٦)] وهذا يذكرنا بسنة من سنن الله في خلقه وهي إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه، وقد تحدث الأمير أسامة بن منقذ عما حدث لقومه من زلزلة عظيمة في شيزر، ودمرت حصنها على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ وقتل عدد كثير من بني منقذ في هذه الزلزلة، وقد حزن أسامة كثيراً على وفاة أقاربه فقال في رثائهم:

---

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٥. (٢) (٣) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٢٣٥.
(٤) (٥) (٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٦.

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ... ولا تخرَّمهم مثنى ووحدانا
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب ... وأحمد الخطب فيهم عَزَّ أو هانا
وأقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا ... أخاً وكم فارقوا أهلاً وجيرانا
ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا ... هل ما ترى تارك للحين إنسانا
ما يترك الدهر لي من بعد فقدهم ... قلباً أُجَشّمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات أسعدُنا ... وعاش للهم والأحزان أشقانا
هذى قصورهم أمست قبورهم ... كذاك كانوا بها من قبل سكانا
بنو أبي وبنو عمي دمي دَمهم ... وإن أروني مناواة وشنانا
يُطيِّبُ النفس عنهم أنهم رحلوا ... وخلفوني على الآثار عجْلانا [1]

ورثى أسامة كذلك ولده عتيق وبكاه في أكثر من قصيدة، وكان حزنه لموته شديداً فمما قال فيه:

غَالَبتْني عليك أيدى المنايا ... ولها في النفوس أمر مطاع
فتخليت عنك عجزاً ... ولو أغنى دفاعي لطال عنك الدفاع
وأرادت جميل صبري فرامت ... مطلباً في الخطوب لا يُستطاع [2]

ونلاحظ في رثاء الشاعر لأهله وولده أنه كان متأثراً إلى حد بعيد بفاجعته فيهم وكانت قصائده تصور هذا الحزن العميق، والفاجعة الأليمة، وحيث إن رثاءه كان صادقاً ومعبراً عن حقيقة ما يشعر به تجاه هؤلاء الأقارب، فإن كلمته كانت صادقة ومؤثرة، وبعيدة عن التصنع والتكلف [3].

٢- الأسرة الجندلية في بعلبك: وامتداداً لسياسة تحجيم الأسر الحاكمة المحلية وإضعافها حتى لا تنافس الدولة النورية في حلب ودمشق سعت الدولة النورية إلى مواجهة الأسرة الجندلية التي سيطرت على بعلبك، وترأسها الضحاك بن جندل البقاعي، ودانت بالمذهب الدرزي، ولا شك أن الأقليات الدينية خاصة الدرزية شعرت بصفة مستمرة برغبة في التكتل من خلال وجودها وسط محيط سني متحمس للكتاب والسنة والعقيدة الصحيحة، ومناوئ للبدع الشيعية الرافضية الباطنية. وكان الضحاك بن جندل تابعاً لأتابكية دمشق،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٣٨،٣٣٧). (٢) الديوان ص ٥٢٦.
(٣) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ص ٣٠١.

وأدرك خطورة سيطرة الدولة النورية على دمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، وأعلن عصيانه على نور الدين، وقد خشي الأخير أن يصطدم به حتى لا يطلب عون الصليبيين، خاصة ما عرف عنه من مناورات سياسية حيث تأرجح بين الولاء للمسلمين السنة تارة والصليبيين تارة أخرى [١]، ليضمن بقاء كيانه السياسي بمنأى عن الاندحار وسط كيانات أكبر من أن يواجهها منفرداً [٢]. ولا مراء في أن الدولة النورية السنية نظرت بارتياب إلى وجود كيان محلي درزي في تلك المنطقة المهمة في سهل البقاع بالقرب من الوجود الصليبي، وعلى الرغم من أن الأسرة الجندلية لم تكن تمثل قوة سياسية كبيرة، فإن نور الدين محمود حاذر من تصعيد الصدام مع الضحاك البقاعي، ولا أدل على ذلك من أنه أخذه بالملاينة لنحو ثلاث سنوات حتى تمكن من إخضاع بعلبك لسيطرته عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م [٣]، وكان ذلك بعد المهادنة والاتفاقية بين نور الدين والملك الصليبي، ولم يظهر الضحاك مقاومة وأجاب أمر نور الدين وهكذا شهد عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م تأميناً لحلب في شمال الشام بإخضاع شيزر، ثم بتدعيم السيادة النورية في سهل البقاع بانتزاع بعلبك من السيطرة الدرزية، وبالتالي صار الطريق من دمشق إلى بعلبك مهيأً أكثر من ذي قبل لشن هجمات حربية تجاه المناطق الصليبية ولم يعد سهل البقاع يحوى قوة تمثل موضعًا مضادًا للنفوذ النوري [٤].

٣- ضم حران: اتجهت السياسة الخارجية النورية إلى ضم حران بعد أن خضعت للأخ الأصغر لنور الدين نصرة الدين أمير أميران [٥]، ومن المعروف أنه اتخذها مقراً له وقد اتسمت العلاقات بين الجانبين بالود في بادئ الأمر، حتى أن نور الدين عندما وقع فريسة للمرض عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م أوصى أن يكون نصرة الدين خليفته على عرش الدولة النورية، غير أن العلاقات تدهورت بعد أن غدت حران أقل من الطموحات السياسية الجامحة لنصرة الدين الذي تطلع إلى حلب ذات الثراء التجاري العريض، ولذا اغتنم فرصة مرض أخيه ليستولى على السلطة ويبدو أنه تحصل على دعم من الشيعة الإسماعيلية وأنهم عاونوه على تحقيق مراميه. وطبيعي أن سبب دعمهم لحركته عداء الدولة النورية لهم وحرمانهم من النفوذ السياسي الذي تمتع به البينة ويبدو أنهم وجدوا فيه ورقة رابحة لضمان نفوذهم في الدولة النورية، وتمكن نصرة الدين من الاستيلاء على المدينة غير أن قلعتها استعصت عليه، ويبدو أن ذلك مثل أهم عوامل فشل المحاولة، على الرغم من وجود تنسيق

(١) (٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٧.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١، فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٨.
(٤) (٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٨.

بين المتآمرين في كل من حلب ودمشق من أجل السيطرة على المركزين الرئيسين للدولة سياسياً واقتصادياً، وضمان إخضاع باقي الأقاليم بلا عناء كبير. ومن الواضح أن شرطة الدولة النورية تمتعت بيقظة كبيرة، إذ أن المتآمرين سعوا إلى الاتصال وتنظيم المحاولة بالرسائل، غير أنها سقطت في أيدي الشحنكجية، وأدى ذلك إلى إلقاء القبض عليهم، وقد مثلوا عناصر فعالة في الجهاز الإداري للدولة [1]، وأمام تلك الأحداث، قرر نور الدين إخضاع حران لسيادته نهائياً وإقصاء أخيه عنها، وحاصرها بالفعل لمدة شهرين وأسقطها عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م [2]، ولاذ نصرة الدين بالفرار. ولا نزاع في أن الاستيلاء على حران دعم قبضة الدولة النورية في مناطق الجزيرة، وأفادها داخلياً بتحجيم خطر الشيعة الإسماعيلية بالقضاء على نفوذ نصرة الدين وإيقاف دعمه لهم، ومع ذلك فإن نور الدين أدرك بثاقب بصره إمكانية الإفادة من مهارات أخيه الحربية بالرغم مما حدث، فتحسنت العلاقات بينهما[3] بعد انقشاع سحب النزاع السابق واشترك معه في بعض المعارك المهمة ضد الصليبيين في حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م [4]، وبانياس عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م [5].

٤- منبج: حاول الأمير غازي بن حسان المنبجي الاستقلال بمنبج، وهي التي آلت إليه، بعد وفاة والده، وأمام ذلك لم يكن بوسع نور الدين محمود إلا إرجاع الأمور إلى نصابها بالتدخل العسكري لقمع حركته حتى لا تستشري عدوى الاستقلال لدى الأمراء المقطعين على حدود الدولة النورية، وفي مناطق الحدود والأطراف بين العراق وشمال الشام، وبالفعل أخمد حركته في عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م [6]، وأقطع منبج لأخيه قطب الدين ينال بن حسان، وتدل سياسة نور الدين تجاه منبج، ومن قبل حران، على أن الاهتمام بالتوسع والسيطرة لم يكن يقتصر على مناطق وسط الشام وشماله بل أيضاً الجزيرة الفراتية والمنطقة الواقعة فيما بين العراق وشمال الشام، وقد دفعه إلى الاهتمام بتلك المناطق بعض الدوافع، فهو بالإضافة إلى رغبته في تجنب امتداد مثل ذلك الصراع إلى عقر داره في داخل بلاد الشام، فإنه أيضاً لم يشأ أن يجعل نفوذاً لبعض القوى السياسية المحلية المسلمة بجوار الخلافة العباسية في العراق، على نحو يثير له المتاعب من جهة، ويضعف من هيبة حكمه لدى بغداد من جهة أخرى، وطبيعي أنه سار وفق خطة قائمة على توحيد المدن الإسلامية، ولم تكن مجهوداته في

(١) (٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٩.
(٣) زبدة حلب (٢/ ٣٢١) فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.
(٤) البستان الجامع للأصفهاني ص ١٤٥، فن الصراع ص ١٢٠.
(٥) شذرات الذهب نقلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.
(٦) الباهر ص ١٣٤ – ١٣٥، فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.

هذا الصدد بصورة عشوائية [1].

وقال العماد الأصفهاني في فتح منبج عام ٥٦٣هـ قصيدة جاء فيها:

بشرى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبج	فليهنِ هذا النّصرُ كل متوَّج
أعطيت هذا الفتحَ مفتاحاً به	في الملك يفتح كلَّ باب مُرْتج
وافى يُبَشّرُ بالفتوح وراءه	فانهض إليها بالجيوش وعَرّجِ
أبشر فبيتُ القدسِ يتلو منبجاً	ولمنبجٌ لسواه كالأنموذج
ما أعجزتْكَ الشُّهبُ في أبراجها	طلبا فكيف خوارجٌ في أبْرُجِ
ولقدرُ من يعصيك أحقر أن يَرى	أثر العُبوسِ بوجهكَ المُتبلِّجِ
لكن تهذبُ من عصَاكَ سياسة	في ضمنها تقويمُ كلّ مُعَوَّجِ
فانهد إلى البيت المقدس غازيا	وعلى طرابُلُس ونابُلُس عُجِ
قد سِرتَ في الإسلام أحسنَ سيرة	مأثورة وسلكت أوضح منهج
وجميع ما استقريت من سُننِ الهُدى	جَدَّدْت منه كلَّ رسم منهَجِ [2]

٥- **فتح قلعة جعبر**: وأما سياسة الدولة تجاه قلعة جعبر، فإنها لم تشأ أن تجعل من مناطق الحدود بين العراق والشام مراكز قوية قد تعاديه يوماً، فقد كانت قلعة جعبر تقع على نهر الفرات وامتازت بحصانتها المنيعة، وقد اهتم عماد الدين زنكي بفتحها وقد قتل وهو يحاصرها عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م. وقد استخدم نور الدين محمود الطرق السلمية مع شهاب الدين العقيلي فبعد أن أسره على أيدى أعراب بني كلاب، عمل على إكرامه في أسره وملاينته لتسليم القلعة غير أنه رفض [3]، وعندما أدرك عدم جدوى الملاينة سعى إلى حصارها بيد أنه عجز عن ذلك، فعاد مرة أخرى لملاطفته وعوضه عنها بمناطق سروج وأعمالها ومنطقة الملاحة من أعمال حلب وباب بزاعة [4]، وهي مناطق ثرية بمواردها الزراعية، كذلك أسال لعابه عندما وهبه عشرين ألف دينار وهكذا تمكن من الاستيلاء عليها عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م [5].

ولكل ولاية نهاية، يؤتي الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، فكان هذا آخر أمر بني مالك حكام قلعة جعبر، وكان آخر أمراؤهم شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العُقيلي

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٢١.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٣٣).
(٣) نهاية الأرب نقلاً عن فن الصراع ص ١٢٢.
(٤) البشتان الجامع نقلاً عن فن الصراع، ص ١٢٢.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٤٢).

من آل عقيل من بني المسيَّب، وكانت بيده ويد آبائه من قبل من أيام السلطان ملكشاه [1]. وقيل لشهاب الدين: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً، أسروج والشَّام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه [2]. وقال العماد الأصفهاني قصيدة أنشدها لنور الدين عند فتح قلعة جعبر جاء فيها:

أسلم لبكر الفتوح مُفتَرِعا ... وَدُمْ لُملك البلاد منتزِعا
فإنَّ أولى الورى بها مَلِكٌ ... غدا بعبء الخُطُوب مضطلِعاً
إن ضاق أمر فغير همته ... لكشفِ ضيقِ الأمور لن يَسَعا
يا محيي العدل بعد مِيْتَتِه ... ورافع الحقّ بعدما قنَعا
ونور دين الهدى الذي قمع ... الشرك وعفّى الضَّلال والبِدَعا
أنت سليمان في العفاف وفي ... الملكِ وتحكي بزهدك اليَسَعا
وحُزت التُّقى والحياء والكرم ... المحضَ وحُسنَ اليقين والوَرَعا
أسقطت أقساط ما وجدت ... من المكْسِ بعدلٍ والقاسطُ ارتدعا

إلى أن قال:

ومالك حين رُمت قَلْعَتَهُ ... غدا مطيعاً للأمر مُتَّبِعا
عنا خشوعاً لربّ مملكةٍ ... لغير ربّ السماء ما خشعا [3]

وفي سابع عشر صفر من سنة ٥٦٤هـ توفي بها عمر أخو مجد الدين ابن الدّاية، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتم لمحمودٍ كآلِ محمدٍ ... متصادفي الأفعال والأسماء
يتلو أبا بكر على حسناته ... عُمر المُدحُ في سنا وسناء
ويليه عثمانُ المرجَّى للعُلا ... وعليٌّ المأمولُ في اللأواء
ويقبّلُ الحسنَ الممجَّدَ مجدهم ... فهمُ ذوو الإحسان والنعماء
فرعت بمجد الدين إخوته الذُّرى ... دون الورى في المجد والعلياء
من سابق كرماً وشمس سيادةٍ ... شرفاً وبدر دُجُنَّةٍ وبهاء
سُرُجُ الهدى سُحُبُ النَّدى شُهُب ... أُسدُ الحروب ضراغمُ الهيجاء

(١) كتاب الروضتين (١/ ٤١، ٤٢، ٤٣).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٣).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٤).

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين عليًا، وبدر الدين حسناً، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى [1].

ثانياً: ضم الموصل:

انتهت بوفاة قطب الدين مودود في شهر ذي الحجة عام ٥٦٥هـ/ شهر آب عام ١١٧٠م مرحلة مهمة من مراحل التعاون بين إمارتي الموصل وحلب. فقد كان قطب الدين مودود حسن الاتفاق مع أخيه، وعلى تفاهم معه، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله، حضرمعه المصاف بحارم وفتحها، وفتح بانياس وكان يخطب لـه في بلاده باختياره من غير خوف [2]، وأوصى قطب الدين مودود بالملك من بعده لابنه الأكبر عماد الدين، إلا أن نائبه فخر الدين عبد المسيح استطاع بالاتفاق مع زوجته الخاتون أن يحول دون توليته، وأخذ العهد لولدها سيف الدين غازي الثاني [3]، ويبدو أن النائب خشي من تأثير نور الدين محمود على ابن أخيه عماد الدين نظراً لطول إقامته عنده وزواجه من ابنته. وكان نور الدين محمود يكرهه لظلم كان فيه ويلوم أخاه قطب الدين مودوداً على توليته الأمور [4]. وفعلاً استقر الأمر لسيف الدين غازي الثاني، وأضحى فخر الدين عبد المسيح المتصرف في أمور البلاد، وليس للأتابك من الأمر إلا الاسم [5]. أدّت التغييرات التي شهدتها دولة الموصل، بعد وفاة قطب الدين مودود، وردة الفعل المناهضة لها من قبل نور الدين محمود إلى ما يلي:

- خضوعها لنفوذ نور الدين محمود المباشر.

- تقلص رقعتها بسبب اقتطاع بعض أجزائها.

والواقع أن نور الدين محمود أنف من ازدياد نفوذ عبد المسيح وتحكُّمه بأمور الموصل على حساب ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني الذي نازع أخاه الأكبر على الحكم، وشقَّ عليه إبعاد عماد الدين زنكي عن خلافة والده وقال: أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم [6]. لذلك قرر التوجه إلى الموصل لتسوية المشكلة وفقاً لمصلحته، وأرسل إلى الخليفة العباسي الحسن أبي محمد المستضيء بأمر الله (٥٦٦هـ - ٥٧٥هـ/ ١١٧٠ - ١١٨٠م) يشرح له الهدف من هذا التوجه مؤكداً شرعيته وقال: إني قصدت بيتي وبيت والدي، فأنا كبيره،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٤٥).
(٢) الباهر ص ١٤٩، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٣.
(٣) الباهر ص ١٤٦، تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.
(٤) الباهر نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٣.
(٦) الباهر ص ١٥٢، تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.

ووارثه وأوصى رسوله إليه بأن يأخذ له إذناً في ذلك، وأنه ممتثل لما يرد عليه منه[1]. وعبر نور الدين محمود الفرات عند قلعة جَعْبَر في شهر محرم عام ٥٦٦هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٠م قاصداً الرقة، وكانت من أملاك أخيه سيف الدين غازي الأول، فأذعن نائبها له، وسلمه إياها [2]. ثم تابع زحفه نحو الموصل، فانتزع الخابور كله، وأخذ نصيبين، فأقام بها يحشد العساكر من الأطراف، وانضمَّ إليه نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، ثم توجه إلى سنجار، وبها حامية من الموصل، فحاصرها، وأقام الجانيق عليها. ووفد عليه أثناء الحصار عدد من أمراء الموصل يستحثونه على القدوم عليه حتى سقطت في يده، فأعطاها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي الذي كان يرافقه في هذه الحملة، ووصلت إليه أثناء الحصار خلعة الخليفة والإذن له بدخول الموصل والجزيرة، وتابع نور الدين محمود زحفه باتجاه الموصل، فوصل إلى بلده وعبر دجلة إلى الجانب الشرقي، ألقى نفسه عند حصن نينوى شرقي الموصل بحيث أضحى لا يفصله عنها سوى النهر. وحتى يبرر تقدمه، أرسل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني يوضح له أن الهدف من حملته، حفظ المدينة، وإبعاد فخر الدين عبد المسيح عن ولاية المسلمين بوصفه نصرانياً، بالإضافة إلى أن تصرفاته الخشنة، نفَّرت منه الأمراء [3].

والواقع أن عبد المسيح كان عاجزاً عن الوقوف في وجه نور الدين محمود، كما أنه وقف على مؤامرة دبَّرها أمراء الموصل ضده لإبعاده عن الحكم، وتسليمه الموصل، فأراد تقوية موقفه، فاستنجد بالأتابك شمس الدين إيلدكز، صاحب بلاد الجبل، وأذربيجان، الذي أرسل بدوره رسولاً إلى نور الدين محمود، وكان حينئذ بسنجار، ينهاه عن التعرض للموصل، لكن نور الدين محمود أهمل الرسالة وقال للرسول: قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلم تُدخل نفسك بيننا؟ ثم هدده بالزحف على بلاده وانتزاعها منه لأنه أهمل حفظ البلد من تعديات الكرج [4]، واضطر عبد المسيح أخيراً للجنوح إلى السلم واشترط على نور الدين محمود أن:

- تبقى الموصل بيد سيف الدين غازي الثاني.
- يعطيه لنفسه وأهله.
- يمنحه إقطاعاً.

وقد استجاب نور الدين محمود لطلب الصلح، إلا أنه أصَّر على خروج عبد المسيح من

---

(١) البرق الشامي ص ٩٤.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٨٤.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٨٤.
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٥.

الموصل، ومرافقته إلى بلاد الشام [(1)]، ودخل صاحب حلب الموصل في شهر جمادي الأولى عام ٥٦٦هـ شهر كانون الثاني عام ١١٧١م من باب السر [(2)]، واتخذ عدة إجراءات تنفيذية لترتيب أوضاعها منها:

- أقرَّ سيف الدين غازي الثاني على الموصل وجزيرة ابن عمر.
- ولى مملوكه سعد الدين كمشتكين نائباً عنه في القلعة.
- أمر سيف الدين غازي الثاني بالعودة إليه في تدبير الأمور.
- أهدى ابن أخيه خلعة الخليفة المستضيء وألبسه إياها وزوّجه ابنته.
- أبطل المكوس من البلاد.
- أمر ببناء الجامع النوري.
- انتزع حران ونصيبين والخابور والجدل من إمارة الموصل، وأقطعها لأمراء عسكره، ثم عاد إلى بلاد الشام مصطحباً معه فخر الدين عبد المسيح وغيَّر له اسمه، وسمّاه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً [(3)]

غيَّرت هذه الترتيبات الإدارية التي نفّذها نور الدين محمود في الوضع الجغرافي لدولة الموصل، كما تراجع نفوذها القيادي بعد أن خسرت سنجار لصالح عماد الدين زنكي، ونصيبين والخابور اللذين تولاهما نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، فخضعت خضوعاً تاماً لنور الدين محمود، وأضحى سيف الدين غازي الثاني مجرد حاكم تابع له، يعمل تحت إشراف نائبه كمشتكين صاحب السلطة الفعلية. وتدليلاً على هيمنته على الإمارة فقد أُعلنت الخطبة في جميع مساجد الموصل وأعمالها لنور الدين محمود، وضربت السكة باسمه[(4)]، وأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة المستضيء بأمر الله يطلب تقليده ما بيده من بلاد مصر والشام والجزيرة والموصل، والبلاد التي دخلت في طاعته في دياربكر وخلاط وبلاد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، فوافق الخليفة على ذلك، وأرسل له التقليد بحكم هذه البلاد جميعها [(5)]، وحرص نور الدين محمود على أن تسود العلاقات الطيبة بينه وبين ابن أخيه في الموصل. ففي عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م أرسل إليه هدية نفيسة عبارة عن تحف نادرة كان صلاح الدين الأيوبي قد انتخبها من خزائن القصر الفاطمي،

---

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٥. (٢) (٣) المصدر نفسه ص ١٨٥.
(٤) (٥) المصدر نفسه ص ١٨٦.

بالإضافة إلى هدايا أخرى تشتمل على منسوجات وعود وعنبر [(١)].

١- رؤيا نور الدين لرسول الله ﷺ في الموصل:

حين دخل نور الدين الموصل خرج إليه ابن أخيه، فوقف بين يديه، فأكرمه وأحسن إليه، وألبسه خِلعة جاءته من الخليفة، فدخل بها إلى البلد في أبهة عظيمة، ولم يدخل نور الدين الموصل حتى قوي الشتاء، فأقام بها أربعة وعشرين يوماً، فلما كانت آخرُ ليلة أقام بها رأى رسول الله ﷺ في المنام يقول له: طابت لك بلدُكَ وتركت الجهاد وقتال أعداء الله. فنهض من فوره إلى السَّفر، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان معه، على سنجار ونصيبين والخابور، فاستناب بها ابنُ أبي عصرون نوّابًا وأصحابًا [(٢)].

٢- بشرى لنور الدين من رسول الله: قال أبو شامة: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ عليه جُزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتَسم لتتم السلسلة على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج[(٣)]. وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: أعْلِمْ نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يارسول الله، ربما لا يصدّقني، فاذكر لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارِم وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر. قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتركَّع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرَّضتُ له فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: أذكر العلامة كلَّها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا، وأُرِّخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة[(٤)]. وجاء في رواية سبط ابن الجوزي: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أن الفرنج لما نزلت على دمياط، ما زال نور الدين عشرين يوماً يصوم ولا يفطر إلا الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مهيباً، ما يجسر أحد يخاطبه في ذلك فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: يا يحيى بشر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط. فقلت: يا رسول

(١) تاريخ الزنكيين ص ١٨٦.
(٢) البداية والنهاية (١٦/٤٤٧).
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/١٤٣).
(٤) المصدر نفسه (٢/١٤٣، ١٤٤).

الله، ربما لا يصدقني فقال: قل له بعلامة يوم حارم. وانتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح، وشرع يدعو، هابه يحيى، فقال له: يا يحيي أنا أُحدثُك، رأيت النبي ﷺ هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا. قال: نعم فبالله يا مولانا، ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟ فقال: لما التقينا العدو، خفت على الإسلام، فانفردت، ونزلت، ومرغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي اللهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً «يعني نفسه» ومن هو محمود الكلب حتى ينتصر؟ الدين دينُك، والجند جُندك، وهذا اليوم افْعَلْ ما يليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم[1].

٣- رؤيا نور الدين المتعلقة بالقبر الشريف: هناك قصة شائعة على ألسنة الناس وهي أن نور الدين رأى -فيما يرى النائم- النبي ﷺ يطلب منه أن ينقذه من رجلين أشقرين - وأشار إلى شخصين تجاهه - فاستدعى نور الدين وزيره فعبَّره له بأن في المدينة المنورة حدثاً، فخرج نور الدين إلى المدينة واستعرض سكانها للصدقة، فأتى كلهم إلا رجلين مجاورين من أهل الأندلس، فأمر بإحضارهما، فإذا هما اللذان رآهما في منامه، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما، فأقرا بأنهما من الفرنجة، وصلا لكي ينقلا النبي ﷺ من الحجرة الشريفة، ووجدهما قد حفر نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد، فضربا أعناقهما، ثم أحرقا بالنار، وركب عائداً إلى الشام، فاستغاث به أهل المدينة أن يبني لهم سوراً حولها، فأمر ببنائه، فبني سنة ٥٥٨هـ وكتب اسم نور الدين على باب البقيع [2]. وقد علق الأستاذ إبراهيم الزيبق على هذه القصة في تحقيقه لكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية - والصلاحية فقال: وهذه القصة لا تثبت لدى المنهج العلمي، إذ إن أول من رواها هو محمد بن أحمد المطري، مؤذن الحرم النبوي، المتوفى سنة ٧٤١هـ في كتابه التعريف بما أنستِ الهجرة من معالم دار الهجرة، وبينه وبين نور الدين مائة واثنتان وسبعون سنة، ثم إن إسناد هذه القصة مسلسل بالمجاهيل، فقد سمعها المطري من طالب علم من المجاورين، وهو يعقوب بن أبي بكر - وكان أبوه فراشاً من قوام المسجد الشريف - وقد سمعها يعقوب ممن حدثه من أكابر من أدرك، ولم يجزم المطري بصحتها فقال: هكذا حدثني عمن حدثه وروى نحوها جمال الدين الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٢هـ في رسالة له دون إسناد نقلها عنه السمهودي في وفاء الوفاء[3]، وهذا يعني أن القصة قد ذاعت بعد وفاة نور الدين، إذ لم يذكرها أحد ممن عاصر نور الدين من المؤرخين الملازمين له كابن عساكر وابن منقذ والعماد الأصفهاني الكاتب

(١) مرآة الزمان (٨/ ١٩٩، ٢٠٠)، من أجل فلسطين مواقف عبر التاريخ الإسلامي، حسني أدهم جرار ص ٣٩.
(٢) شذرات الذهب (٦/ ٣٨٠)، الوجيز في الشام ص ٥٢. (٣) وفاء الوفاء (٢/ ٦٤٨، ٦٥٠).

ولا من المتبعين لسيرته كابن الأثير وأبي شامة مع شدة حرصهم على استقصاء أخباره وتحليتها بكل جميل، بل إنه لم يذكرها من أرَّخ للمدينة المنورة ممن عاصر تلك الفترة كابن النجار في «الدرة الثمينة»، وقد نقلها عن المطري من جاء بعده من المؤرخين كالمراغي في «تحقيق النصرة»، وابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية، والسمهودي في وفاء الوفاء، وابن العماد في شذرات الذهب، والبرزنجي في «نزهة الناظرين» [1]. ثم إن المطريَّ ذكر أن القصة وقعت سنة «٥٥٧هـ» ولم يذكر أحد من المؤرخين أن نور الدين زار المدينة في تلك السنة، بل لم يذكروا أنه زارها في أي من سني حكمه، بل إنهم لم يذكروا أنه حج أبداً، فقد شغله جهاد الفرنج عن الحج، كما شغل صلاح الدين بعده، ولا عبرة بما ذكره الفاسي في شفاء الغرام [2] من أن نور الدين حجَّ سنة (٥٥٦هـ) فقد وهم في ذلك، إذ إن الذي حج هو أسد الدين شيركوه، وقد خرج نور الدين إلى لقائه يوم رجوعه [3]. وقد يتساءل المرء: ما الباعث لهذه القصة، فأقول: ربما أثارت تكملة نور الدين لسور المدينة وكتابة اسمه عليه فكرة قدومه للمدينة، ثم اختلط هذا مع سيأتي - بإذن الله - من محاولة الصليبيين الاستيلاء على المدينة وذلك سنة (٥٧٨هـ) فقد أشيع وقتها أنهم كانوا يريدون نقل الجسد الشريف إلى فلسطين فيما ذكر ابن جبير في رحلته والمقريزي في خططه، فدمج الخيال بين الحدثين في حدث واحد ليكشف عن هاجس أقلق بال المسلمين وقتئذ وهو أن ما فشل الصليبيون في تحقيقه في العلن سيحاولونه في الخفاء، فكانت هذه القصة والله أعلم [4].

ثالثاً: سياسة نور الدين مع سلاجقة الروم:

كان نور الدين محمود يتابع الأحداث الجارية في المنطقة ويستغل الفرصة المتاحة لتحقيق أهدافه، من ذلك ما حدث عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م عندما هاجم قلج أرسلان سلطان السلاجقة في آسيا الصغرى إمارة ذا النون بن دانشمند التي تتألف من ملطية وسيواس جنوب شرق الأناضول واحتلها، فلجأ ذا النون إلى نور الدين مستنجداً فأرسل نور الدين إلى قلج أرسلان يطلب منه رد بلاد ذا النون عليه فرفض، فسار بجيشه إلى المنطقة واحتل مدنها مما أجبر قلج أرسلان لطلب الصلح بالشروط التي يفرضها نور الدين، فأرسل إليه نور الدين رسالة منها: إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء أحدها أنك تجدد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام فإنني لا أعتقد مؤمناً، والثاني إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تُسيره، فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٣١٧). (٢) (٣) (٤) المصدر نفسه (٢/ ٣١٧).

الإسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فإمّا أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الإفرنج وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم، والثالث أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي، فلما سمع قلج أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة عليَّ بالزندقة وقد أجبته إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله[1]. واستقر الصلح بعد أن عادت بلاد ذا النون إليه مع بقائها تحت حماية نور الدين. وما يهمنا من هذه الحادثة هو ما يظهر في ثناياها من سعي نور الدين لتحقيق هدفه الاستراتيجي الأكبر الذي سبق وذكرناه وهو إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في تحقيق الهداية والعدالة والحياة الكريمة لجميع الناس[2]. ومع أنه لم يكمل بعد تحقيق هدفه الاستراتيجي الثاني المتمثل بالقضاء على الفرنج وتحرير سواحل بلاد الشام من احتلالهم إلا أنه حقق هدفه الاستراتيجي الأول وهو وحدة الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، وأصبح القضاء على الفرنجة مسألة وقت فقط، فلا بأس إذن من استغلال فرصة سانحة للسير ولو بضع خطوات باتجاه الهدف الاستراتيجي الأكبر المذكور أعلاه، وما يدلنا على قصد نور الدين في هذا المعنى طلبه من قلج أرسلان في رسالته إليه تجديد إسلامه على يد رسول نور الدين ليحلَّ لنور الدين إقراره على بلاد الإسلام، ويفرض عليه إما مجاهدة الروم المجاورين له أو إرسال جنده إليه ليجاهد بهم الإفرنج. في هذا الموقف يجعل نور الدين من نفسه مسؤولاً عن جميع المسلمين وعن بلادهم، ويتوجب عليه بناءً على هذه المسؤولية ألا يسمح بتولي حاكم غير مؤمن على بلاد المسلمين، ويجدر بنا أن نوضح هنا أن نور الدين كان يصدر في هذا الإحساس بالمسؤولية عن فهمه الصحيح للشريعة الإسلامية، فهو يعتبر نفسه جندياً في خدمة الدين، وروي عنه قوله: نحن شحنٌ لها «للشريعة» نُمضي أوامرها [3]. وهذا القول ينطبق مع تفسير الإمام أبي حامد الغزالي للعلاقة بين الملك والدين حيث يقول: «الملك والدين توأمان، فالدين أصل والسلطان حارس، ومالا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع»[4]. وقد تقدم أن نور الدين كان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ولكن الأمر لا يقتصر على إحساس نور الدين بالمسؤولية وقد عبّر عن ذلك في رسالته لمجير الدين آبق حاكم دمشق بقوله:.. ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على

---

(١) الباهر ص ١٦٠ – ١٦٠، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٣.
(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٣.
(٣) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٤.
(٤) إحياء علوم الدين (١/ ١٧).

نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذّب عنها(١).

فهو يعتبر أن توافر القدرة والإمكانية لديه يفرض عليه نصرة المسلمين والدفاع عنهم أينما كانوا، ويتكرر مثل هذا الموقف عام ٥٦٦هـ/١١٧١م في رسالته لشمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل وأذربيجان (٢).

يتبين من هذه المواقف الثلاثة التي وقعت في تواريخ مختلفة ومتباعدة خلال فترة حكم نور الدين، الحادث الأول مع حاكم دمشق عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م والثاني مع حاكم أذربيجان وأصفهان عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، والثالث مع سلطان سلاجقة الروم آسيا الصغرى عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م، أنه وضع أهدافه وقرر سياسته منذ بداية حكمه، ولم يغيّرها حتى نهاية حكمه، وأنه كان يسير حسب خطة محكمة تتألف من مراحل منسَّقة، لكل مرحلة هدفها، وأنه كان يتابع الأحداث الجارية، ويقتنص الفرصة المتاحة دون أن يؤثر ذلك على خطته الرئيسية وأهدافه الاستراتيجية (٣).

* * *

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٥٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٤.
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٥.

المبحث الرابع

سياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية

أولاً: العلاقات مع مملكة بيت المقدس:

عاصر عهد الدولة النورية اثنان من أقوى ملوك بيت المقدس، بلدوين الثالث ٥٣٩-٥٥٧هـ / ١١٤٤- ١١٦٢م، وعموري الأول ٥٦٨-٥٥٧هـ/ ١١٦٢-١١٧٤م. ويعد بلدوين الثالث أول الملوك الصليبيين الذين ولدوا على أرض المملكة، وقد سيطرت عليه والدته ميلزندا، وتمكن من توسيع حدود المملكة وأمكنه الاستيلاء على عسقلان عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م وأمن بالتالي حدوده الجنوبية، كذلك عمل على تشييد عدة قلاع وحصون من أجل تدعيم مناطق سيادته في مواجهة أعدائه المسلمين وأيضاً سعى إلى حماية إمارتي طرابلس وأنطاكية من خطر الفوضى الداخلية [1] والأخطار الخارجية، وهدف إلى كسب عون الامبراطورية البيزنطية لتساعده في مواجهة الأحداث في شمال الشام، أما الملك عموري الأول، فإنه أراد توسيع حدود المملكة هو الآخر وعمل على غزو مصر وإخضاعها لسيطرته دون جدوى، وسعى إلى طلب العون البيزنطي في مشاريعه التوسعية خاصة ضد مصر [2]. وقد عمل نور الدين محمود للتصدي لمشاريع مملكة بيت المقدس التوسعية وكان دافعه المحرك في ذلك هو عقيدة الجهاد في سبيل الله لا كما يزعم بعض الباحثين لاسيما من الغربيين الذين أنكروا ذلك الاتجاه لأسباب استشراقية تعصبية لا تخفى على أحد، وفي مقدمتهم المؤرخ الأمريكي جون لامونت الذي أنكر الطابع الديني لحروب نور الدين محمود، وفضل الأخذ بالدوافع السياسية ورأى أنه لم يكن مهتمًا بالحروب الدينية اهتماماً خاصاً وأنه حارب الصليبيين على أساس أنهم وجدوا في مجال توسعه الطبيعي [3]، وأن رغبته في توسيع رقعة مملكته في الاتجاه الوحيد الممكن هي التي أملت عليه السياسة التي اتبعها في علاقاته مع جيرانه اللاتين، ويذكر أنه لم يكن للدين دخل في ذلك، وأن مراجعة أعماله الحربية توضح أن دافعه الرئيسي كان سياسياً [4]. والواقع أن الرغبة في القضاء على عقيدة الجهاد الإسلامي التي ازدهرت في مرحلة الحروب الصليبية كان أحد الأهداف الأساسية للمستشرقين الذين تناولوا بالدراسة تلك المرحلة، وذلك من أجل القضاء على النماذج التاريخية لفكرة الجهاد

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٣٧. (٢) المصدر نفسه ص ١٣٨.
(٣) الحروب الصليبية والجهاد نقلاً عن فن الصراع ص ١٣٩.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٣٩.

الإسلامي، واقتلاعها من أساسها، خاصة أنها فكرة محورية في الإسلام[1]. ولا شك أن عقيدة الجهاد وتحرير المقدسات من الاحتلال الصليبي كانا المحرك لحركة المقاومة للمسلمين في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك وما يجري اليوم في أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان.

وقد كان تحرك نور الدين محمود ضد مملكة بيت المقدس يستهدف تحقيق انتصارات في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري أحيانًا بالقتال وبالمفاوضات أحياناً أخرى.

- **المجال الاقتصادي:** فقد وصفت الدولة النورية بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلي والمنافذ البحرية على امتداد الساحل الشامي تم إخضاعها للسيادة الصليبية حيث أدرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوروبا وحصولهم على الدعم البشري والمالي والمعنوي، وكان تصريف قسم مهم من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية، كذلك أرادت تلك الدولة الحفاظ على سلامة الطرق التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية ومنطقة الجبل الأعلى في شمال فلسطين بوصفها حلقة وصل إلى الساحل الشامي البالغ الحيوية [2].

- **المجال السياسي:** مثّل الصراع مع تلك المملكة أهمية خاصة للدولة النورية ولا نزاع في أن مواصلة الصراع الحربي معها كان ضروريًا، من أجل أن يقوم نورالدين محمود بدوره في مجاهدة الكفار، ومثل هذا واجباً شرعياً ضروريًا لدعم حكمه وتوفير الاستقرار السياسي له وعدم قدرة المعارضة على كسب أعوان لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعي الحيوي، أضف إلى ذلك؛ أن الدولة النورية بعد نجاحها في توحيد بلاد الشام والجزيرة بقبضة واحدة مثلت مملكة بيت المقدس منافساً سياسياً خطيراً لها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا المنافس كان كياناً دخيلاً وافداً على المنطقة ولا يملك وجوده أصلاً أدركنا حتمية الصراع بين الطرفين لجميع الدوافع السابقة سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية[3].

- **المجال العسكري:** أدركت الدولة النورية أن تجيش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الاستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً ولتأمين حدود الدولة النورية، ولإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلاً إلى ما هو أبعد من هذا في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي وهو ما تحقق

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٣٩.
(٢) الرحلة ص ٢٥٣.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.

في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي [1].

١- المشكلة الحورانية: تعد المشكلة الحورانية من أهم الأحداث السياسية التي جعلت نور الدين محمود يواجه بدعمه العسكري مملكة بيت المقدس ومطامعها في دمشق؛ إذ تمرد الأمير الأرمني الأصل التونتاش [2]، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركي والذي تولى حكم بصرى وصرخد [3]، تمرد على سيده معين الدين أنر أتابك دمشق [4]، وقد تحدثت عن جهود نور الدين في دعم حاكم دمشق ضد هذا المتمرد الذي استعان بالصليبيين في بيت المقدس، وطلب منهم العون الحربي، وأن يستولوا على بصرى وصرخد في حالة تدخلهم العسكري في مقابل أن يكون سيداً على إقليم حوران [5]، فقد تصاهر نور الدين محمود من ابنة معين الدين أنر أتابك دمشق وكانت هذه الزيجة بمثابة عون سياسي وعسكري لدمشق، وفي نفس الحين حرصت أتابكية دمشق على التحالف مع الصليبيين لخوفها من طموحاته الكبيرة، ورغبته في ضمها إلى أملاكه في شمال الشام، بل إن دمشق عقدت هدنة مع المملكة الصليبية، وأمام دعم الصليبيين للتونتاش أرسل معين الدين أنر يطلب مساعدة صهره ضدهم، وقد تقدم نور الدين وما معه من قوات حتى بلغ دمشق [6]، وتوجه إلى صرخد ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعُدّته ووفور عدّته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلُّم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى بوصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصْرى فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين، فانهزم الكُفَّار وولُّوا الأدبار، وتسلم معين الدين بُصْرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السَّابع والعشرين من المحرم، وفي هذا الوقت وصل التونتاش الذي خرج من صَرْخَد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهماً منه أن يُكرم ويصطنع بعد الإساءة القبيحة، فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.

(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.

(٣) تبعد بصرى مسافه ١٤١كيلو متراً عن دمشق وعدت قصبة إقليم حوران، أما صرخد فبعدت عن السويدات بنحو ٣١ كيلو متراً.

(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤١.

(٥) المصدر نفسه ص ١٤١.

(٦) مرآة الزمان نقلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ١٤٣.

خطَّلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص، فسُمل كما سَمَل أخاه، وأطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها [(١)].

وتعتبر المشكلة الحورانية هي التي جعلت نور الدين محمود يواجه لأول مرة خلال تلك المرحلة من حكمه في حلب مملكة بيت المقدس، كذلك أثبتت الأحداث مدى أهمية دعمه العسكري لأتابكية دمشق إذ لم تكن لتستطيع صد الهجوم الصليبي بدون عونه الحربي، وأظهره ذلك على مسرح الأحداث السياسية بصورة أكبر من ذي قبل على نحو دعَّم مركزه أمام رعاياه خلال تلك المرحلة الأولى من حكمه، وعلى المستوى الصليبي؛ كشفت المشكلة الحورانية أن القيادة الصليبية بدأت عهدها بإظهار عدم الحنكة السياسية، إذ أنها اتجهت إلى محاربة أحد حلفائها من أجل أمير شق عصا الطاعة عليه، وأوضح موقفها أن مطامعها السافرة في إقليم حوران التابع لدمشق كانت أكبر من أية تحالفات سياسية معها، ولا شك في أن تلك الأحداث وجهت لطمة قوية للتحالف الدمشقي الصليبي، وجاءت أحداث الحملة الصليبية الثانية لتوجيه لطمة مجهزة لذلك التحالف الهش [(٢)].

٢- الحملة الصليبية الثانية: وعلى الرغم من العلاقات القائمة بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس، إلا أن الصليبيين قرروا غزوها، وقد تحدثت عن الحملة الصليبية الثانية فيما مضى من الصفحات ودعم نور الدين وأخيه سيف الدين غازي لدمشق ويمكننا أن نقول إن نور الدين اتجه إلى مقاتلة مملكة بيت المقدس عن طريق دعم دمشق [(٣)].

٣- سقوط عسقلان: حدث تطور كبير على جانب كبير من الأهمية وقع جنوب بلاد الشام لاسيما على الساحل في صورة عسقلان التي تمكن الصليبيون في عهد الملك الطموح بلدوين الثالث من إسقاط عسقلان في عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م [(٤)]، وجاء ذلك في وقت ضعفت فيه الدولة الفاطمية في ظل تغلب الوزراء العظام، وحقق الصليبيون بذلك انتصاراً مزدوجاً على نور الدين محمود والفاطميين، وانتصارهم على نور الدين تفوق على انتصارهم على الدولة الفاطمية، لأن الأخيرين كانوا قد وهنوا، ولم تعد دولتهم تمثل خطراً بالغاً على الوجود الصليبي، بينما نور الدين مثل قوة سياسية وحربية متوثبة في شمال الشام تطمع في دمشق [(٥)]، وتأتي أهمية الانتصار الصليبي من خلال إدراك أهمية عسقلان نفسها فقد مثلت مركزاً تجارياً هاماً على الساحل الفلسطيني، وقاعدة للأسطول الفاطمي،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ص ١٨١.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٤.
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٥ - ١٤٧.
(٤) فن الصراع الإسلامي ص ١٤٨ ، الباهر ص ١٠٦.
(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٨.

وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية في الشام، وبذلك امتدت السيادة الصليبية على طول الساحل الشامي من الإسكندرية حتى غزة جنوباً، ومهد بذلك السبيل أمام الصليبيين لغزو مصر [1]. وعلى أية حال لم يكن لنور الدين محمود زنكي أن يقف لا يحرك ساكنا أمام التحرك الصليبي في الجبهة الجنوبية، وسرعان ما أتى الرد دون تأخير، فتمكن نور الدين محمود بالفعل من الاستيلاء على دمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م أي في العام التالي مباشرة، وبذلك حقق مكاسب أكبر من أن تحصى، فقد مد حدوده إلى الجنوب، ولم يعد منعزلاً في الشمال، وقد تمكن بذلك الإنجاز من تهديد حدود مملكة بيت المقدس ذاتها، ولم يعد أمامه إلا نطاق جغرافي ضيق محدود لكي يوجه ضرباته إلى الجليل بصورة لم تكن متوافرة له من قبل، وشتان بين توجيه الضربات في الأطراف والوصول إلى قرب القلب الصليبي [2]، ولا نغفل أنه بإخضاع دمشق؛ صار نور الدين محمود يسيطر بصورة أو بأخرى على ثلاث مدن رئيسية يمكن أن توصف بأنها مدن الظهير الإسلامي في الجزيرة وبلاد الشام وهي: الموصل - التي دانت له بالولاء - وحلب ودمشق، وهي مدن ذات كثافة سكانية فاعلة، وأهمية اقتصادية حيوية من خلال وقوعها على خطوط التجارة الدولية، فإذا لم يغب عن ذهننا أننا أمام قائد للجهاد نذر نفسه له، أدركنا كم كانت المكاسب كبيرة للمسلمين بضم عاصمة الأمويين من قبل دمشق، خاصة مع عدم إغفال أنها المرة الأولى التي اتحدت فيها حلب ودمشق منذ العصر السلجوقي تحت سيطرة سيد واحد [3].

ومن الزوايا ذات الأهمية البالغة: إدراك أن توجيه ضربات فاعلة للصليبيين تؤثر على قلبهم في بيت المقدس، لن يكون إلا بإخضاع المدن الأربع المؤثرة في قبضة الدولة النورية، وهي الموصل، حلب، دمشق، القاهرة، وهكذا لم تعد هناك إلا مدينة واحدة: هي القاهرة قلب الوجود الفاطمي الذي بلغ من الكبر عتياً، ويلاحظ أن ضمها لشقيقاتها الثلاث سيتأخر من خلال اعتبارات عديدة [4] يأتي بيانها وتفصيلها في محله بإذن الله تعالى. على أية حال من الممكن تناول قضية مهمة وهي أيهما حقق مكاسب سياسية حربية أخطر، بلدوين الثالث باستيلائه على عسقلان عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ، أم نور الدين محمود باستيلائه على دمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. إن إسقاط عسقلان كان بمثابة إسقاط إحدى المدن الشامية الساحلية وربما كان له تأثيراته الكبيرة في حالة عدم تمكن ذلك الحاكم المسلم من انتزاع دمشق من قبضة البوريين؛ إذ أنه اكتسب العديد من المميزات، وأدى ذلك إلى نقله لمجال

(١) التنظيمات الدينية، مؤنس عوض ص ١٤٨.

(٢) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٧. (٤) المصدر نفسه ص ١٨٧.

جديد أرحب من ذي قبل، ويلاحظ أنه إذا كان الصليبيون باستيلائهم على عسقلان انفتحت أمامهم الأبواب نحو مصر، على اعتبار أن عسقلان عدت بوابتها، إلا أن الاستيلاء على دمشق فتح الطريق هو الآخر أمام نور الدين محمود نحو ذات الهدف، ومن ثم سيحدث فيما بعد التسابق بينه وبين الصليبيين لإسقاط مصر الفاطمية، وهكذا نصل إلى حقيقة مفادها؛ إن استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان، كان من الممكن أن يكون على أكبر قدر من المكاسب في حالة استمرار الوضع القائم في صورة ارتباط نور الدين محمود بحلب في شمال الشام، أما الآن بعد الاتجاه جنوباً نحو دمشق، فتأكد للصليبيين أن سيد حلب صار سيد حلب ودمشق معًا. ويكفي أن نطالع ما سطره مؤرخ الصليبيين البارز وليم الصوري كي ندرك كيف أن إخضاع عاصمة الشام عُدَّ أحد مظاهر الخطر الإسلامي القادم في الأفق على نحو ينذر بأوخم العواقب على الصليبيين والمسلمين في مرحلة جديدة اتسمت باحتدام الصراع بينهما، والتسابق على مناطق نفوذ جديدة بقوة عسكرية أكبر، وكأننا أمام استعراض عسكري للقوة من كل من الطرفين المتنافسين، وواقع الأمر أن التسابق على ضم مصر لأحد الجانبين لم يكن ليبدأ دون تلك الخطوة التكتيكية المحورية في صورة إسقاط الصليبيين لعسقلان والرد من جانب نور الدين بالاستيلاء على دمشق [1].

٤- معركة بانياس: شهدت العلاقات بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس نشوب معركة بانياس عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، والتي وقعت في وقت كانت تنفذ فيه معاهدة سلمية بين الجانبين إلا أن الملك بلدوين الثالث خرقها، وتتجلى بوضوح أهمية ثروات المنطقة من الناحية الزراعية والرعوية وميزتها الاستراتيجية كعوامل دفعت بالصليبيين إلى نقض شروط المعاهدة وإعلان الحرب على الدولة النورية، فقد توافرت في بانياس المراعي الغنية بقطعان الماشية [2]، كذلك عرفت بأهمية إنتاجها الزراعي حيث وجد الفلاحون والرعاة طمع الصليبيين في أسرهم واسترقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية، وهذا يفسر عمليات الاسترقاق التي حرص الصليبيون عليها عندما هاجموا المنطقة، كذلك احتلت بانياس أهمية استراتيجية متميزة إذ وقعت بالقرب من دمشق وفي المنطقة الواقعة بينها وبين الجليل الأعلى بشمال فلسطين، وإذا اعتبرنا عسقلان بوابة مصر فإن بانياس عدت بوابة دمشق [3]، ولا شك أن كل تلك المغريات لعبت دورها في إغراء الملك بلدوين الثالث على شن هجومه على بانياس، وكان الرعاة والفلاحون المسلمون في المنطقة قد ارتكنوا إلى وجود معاهدة

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٨. (٢) المصدر نفسه ص ١٨٨.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٩.

السلام مع الصليبيين، وبينما هم منهمكون في عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة بالقرب من بحيرة الحولة، وقد قتل وجرح العديدون، وتم سلب قطعان الماشية وأسر العديدين ويبدو أن الصليبيين أرادوا تحقيق انتصار كبير في حملتهم بدليل إشراكهم لأكبر العناصر لديهم قوة ونعني بهم الاسبتارية والداوية [1]، ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤرخ المملكة الرسمي وليم الصوري أقر واعترف صراحة بأن حملة بلدوين الثالث على بانياس، كانت خرقاً للاتفاقية المعقودة مع نور الدين، وأن الأمر كان أبعد من أن يكون مجداً عسكرياً للمملكة الصليبية[2]، ولم يكن هناك مفر من الرد العسكري النوري، وقد قام المسلمون بنصب كمين للقوات الصليبية كلل بالنجاح، وقُتل منهم الكثيرون. وعلى حد قول ابن القلانسي: صاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح [3]، وغنائم وفيرة، وأمكنهم احتلال بانياس [4]، غير أن بلدوين الثالث تمكن من استردادها في نفس العام [5]، وعاد نور الدين وفرض سيطرته عليها عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م[6]، وكان قد سار إليها بعد عودته من فتح حارم وأذِن لعسكر الموصل ودياربكر بالعودة إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريَّة، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس لعلمه بقلَّة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها وضيَّق عليها وقاتلها وكان في جملة عسكره أخوه نُصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى [7]، ولما فتح نور الدين حِصن بانياس، كان ولد معين الدين أنر الذي سلَّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفت إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذاك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برَّد جلدة والدك من نار جهنم [8].

٥- اتفاقيات وهدنة قصيرة: وعلى الرغم من تلك المعارك شبه المستمرة، لاحت في الأفق أضواء باهتة لسلام شاحب متمثل في اتفاقيات هدنة قصيرة تراوحت بين الأشهر الثلاثة والعامين وقعت بين الطرفين، ومن الأهمية بمكان دراسة دوافع السياسة السلمية التي اتبعها نور الدين محمود في بعض الأحيان تجاه مملكة بيت المقدس وتتمثل في أبعاد اقتصادية وعسكرية واستراتيجية. وكانت الدولة النورية تهتم بالعلاقات التجارية مع القوى الصليبية في بلاد الشام

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٩.   (٢) المصدر نفسه ص ١٥١.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٩.   (٤) (٥) الحركة الصليبية ، عاشور (٢/ ٦٦٨).
(٦) شذرات الذهب نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٢.
(٧) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٤٣٧).   (٨) المصدر نفسه (١/ ٤٤٠).

لعدة اعتبارات منها؛ أن بعض المواد الخام وجدت في أرض أعدائها وكانت في حاجة إليها من أجل عمليات التصنيع، ثم أن بعض الطرق التجارية الدولية التي مرت ببلاد الشام كانت منافذها في المناطق الساحلية الصليبية، وكان تصريف الدولة النورية يحتم ضرورة وجود صلات ما من أجل ضمان وصول السلع إلى شاطئ البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا، كذلك فإن المتاجرة مع مملكة بيت المقدس كانت تدر على الدولة أرباحاً طائلة من عائد العشور على نحو يدعم ميزانيتها، وتوجد إشارات إلى وجود علاقات وثيقة بين الجانبين على المستوى التجاري، ويقرر ابن جبير أن: اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعترض. ويضيف أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين [(١)].

وإذا كان نص ابن جبير المذكور يرجع إلى العصر الأيوبي، فإنه يعد امتداداً طبيعياً لما كان موجوداً بصورة فعلية من قبل في عهد الدولة النورية [(٢)]، ومن جهة أخرى، فبالنسبة للصليبيين، نعرف أنهم كانوا يدخلون إلى دمشق وغيرها من المدن المسلمة من حين لآخر من أجل «قضاء حوائجهم» [(٣)]، وطبيعي أن من بينها عمليات الشراء والمتاجرة مثلما حدث عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م [(٤)]. ولاشك في أن الدولة النورية عندما كانت تهادن القوى الصليبية، كانت تضع نصب عينيها المصالح التجارية، بل أن تلك المصالح هي التي حددت - في بعض الأحيان - موقفها السياسي من أعدائها [(٥)].

وأما الجانب العسكري، فتمثل في أن الحروب التي خاض غمارها الجيش النوري ضد مملكة بيت المقدس كانت حروباً موسمية في الغالب، ولم يكن يستطيع أن يواصل الحرب على مدى العام بأكمله، واحتاج إلى أن تكون هناك بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء القتال، ثم أن الحرب نفسها ضد الصليبيين كانت باهظة التكاليف من حيث الأسلحة، وإعداد الجند وتوفير التموين اللازم وإعداد الدواب إلى غير ذلك، ثم إنها مثلت استهلاكاً لموارد الدولة على نحو هددها اقتصادياً، وأمام تلك الاعتبارات كان الاتجاه السلمي مطلباً ضروريًا من وجهة النظر النورية، ولا نغفل أيضاً أنها اتجهت إلى مهادنة مملكة بيت المقدس لكي تتفرغ للحرب في الجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية، أو لكي تواجه سلاجقة الروم، وكان أخوف ما تخافه أن تقع بين شقي الرحى، إمارة أنطاكية وهي تشن هجماتها الحربية على مركز الدولة التجاري في حلب، ومملكة بيت المقدس تهاجم مركزها التجاري والصناعي في الجنوب أي في دمشق، إذ أن ذلك

(١) الرحلة ص ٢٥٣.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٤.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٤.
(٤) (٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٥.

كان يعني استهلاكاً أكبر لطاقاتها البشرية والمادية على نحو أدى إلى تشتيت قدراتها وعدم تحقيقها لإنجازات كبيرة على أي من الجبهتين[1].

ونجد أن نور الدين اتجه إلى مهادنة المملكة سنة ٥٥٠/ ١١٥٥م لمدة عام وفي العام التالي ٥٥١هـ/ ١١٥٦م [2] تجددت الموادعة فتم إرسال قطيعة للصليبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانير الصورية [3]، وفي نهاية المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدوين الثالث مراعي بانياس، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين في عام ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م، وعلى أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م اتجه نور الدين إلى عقد هدنة مع عموري الأول، ويضاف إلى ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر في عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م[4]، وتركزت المعاهدات والهدنات التي وقعتها الدولة النورية مع المملكة اللاتينية في المدة من عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م وعام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م، وطبيعي أن عقد الهدنات تطلب جهداً دبلوماسياً مكثفاً[5]. كان هدف نور الدين توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر ضد الصليبيين وكانت سياسته قائمة على إيجاد توازن حقيقي في القوى مع أعدائه، على أن يكون القضاء عليهم في مرحلة تالية، وقد تكفل بها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك، ويظهر دهاء نور الدين في استخدام عقد الهدنات مع الصليبيين حتى يريح قواته من عناء الحرب ويدعم قواته في آن واحد، ولم تشهد ساحات الصراع بينه وبين مملكة بيت المقدس الصليبية معارك مندفعة يقضي فيها على قواته قضاءً مبرماً، وحق للمؤرخ السرياني المجهول، ووليم الصوري أن يصفاه بالدهاء والحكمة [6]، ويلاحظ أنه لم يسع إلى نقل الصراع مع المملكة اللاتينية إلى نطاق النشاط الاقتصادي لاسيما التجاري، إذ قصر الحرب على ساحاتها دون مجال التبادل السلعي، وأفاد من حركة القوافل الصليبية في فرض العشور على نحو دعم اقتصاديات دولته وأمدها بالأموال اللازمة لاستمرار صراعها مع الصليبيين[7].

وهناك من تصور أن نور الدين قد عجز عن تحقيق نتائج حاسمة في صراعه ضد الصليبيين، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه سمايل واتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم، وأرجع ذلك إلى جبنه وانعدام روح المبادرة لديه، وخوفه من التدخل البيزنطي لصالح الدول اللاتينية، وأن الغزوات في عهده لم تكن تتسم بالطموح والواقع.

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٦.
(٢) ذيل تاريخ دمشق نقلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ١٥٦.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص ٢٩١. (٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٧.
(٥) المصدر نفسه ص ١٥٨. (٦) (٧) المصدر نفسه ص ١٥٩.

إن استعراض مراحل صراعه مع المملكة الصليبية يعكس لنا صورة مغايرة لذلك، فالاستيلاء على دمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، حسم أمرها تماماً لصالح السيادة الإسلامية، ولم تستطع المملكة اللاتينية أن تفرض سيطرتها عليها، لذلك فإن إخضاع مصر عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م لسيادته حسم الصراع حولها والذي استهلك جهداً كبيراً من الجانبين المتحاربين، وكان نور الدين يحارب في جبهات عديدة في وقت واحد سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ثم إن المرحلة نفسها كانت مرحلة الصراع من أجل توازن القوى بينه وبين المملكة الصليبية، وقد أسهمت جهود نور الدين محمود وصراعه مع مملكة بيت المقدس لتمهيد السبيل لصلاح الدين الذي استطاع إسقاط مملكة بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وقد امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس، وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية في آن واحد، وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي وحافظ على طاقاته وإنجازاته [1].

٦- الرصيد الأخلاقي في قتال نور الدين للأعداء: يروى أنه لما بلغ نعي الملك بلدوين مسامع القادة المسلمين وهم يعدون العدة لغارات جديدة، عقدوا مجلساً للمداولة فيما بينهم، وقالوا لنور الدين: إننا نستعد لمهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة بمثابة الرئة من الجسد، فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانئ الأخرى ونحو بيت المقدس والحصون الجبلية للاستيلاء عليها قبل أن تجف دموع الصليبيين وقبل أن يصحوا من ذهولهم، فلنضربهم ضربة قاضية وهم في هذه الحالة من التضعضع والضعف، إن حزنهم وحدادهم حليفان لنا في هذه الحرب؛ فلم يشاطرهم نور الدين الرأي وقال لهم: إن مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق، عمل لا يليق بي وبكم، بل يلحق بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة، فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصيم سقط عن جواده مثخناً بالجراح، إن أعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم، وقد أحاط قوادهم بجثة مليكهم يبكونه ويترحمون عليه، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجمهم ونخرجهم من أرض نعدها ملكاً لنا ونرفع عليها أعلامنا. أما اليوم، فإني سأبعث إليهم بوفد من أبطالنا، لا للتحدي ولكن للتعزية. وما لبث أن أرسل إلى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرملة [2] معزياً إياها بوفاة العاهل الراحل، وقدم إليها رسول نور الدين عقداً ثميناً كان

---

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص١٥٩، ١٦٠.

(٢) هي الأميرة البيزنطية تيودورا وكانت قد زفت إلى بلدوين الثالث سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م وهي في الثالثة عشرة من عمرها وقد بلغت يوم وفاة زوجها سن السابعة عشرة.

الامبراطور البيزنطي قد أرسله هدية لها فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى فحزنت على ضياعه كثيراً، وأكد لها الرسول أن نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً، ما دامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد، فتأثرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت إليه مع رسوله منديلها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بجميله ومروءته[1].

ثانياً: العلاقات مع الإمارات الصليبية:

من المعروف أن الحملة الصليبية الأولى نجحت في إقامة ثلاث إمارات هي الرها في أعلى نهر الفرات وأنطاكية في أقصى شمال الشام وطرابلس على الساحل اللبناني، وقد ارتبطت تلك الإمارات ارتباطاً وثيقاً مع بعضها البعض، وكذلك مع مملكة بيت المقدس اللاتينية [2].

١- إمارة الرها: حاول جوسلين الثاني استرداد إمارته المفقودة في عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م وذلك بعد مقتل زنكي، بمساعدة العناصر الأرمينية بداخلها [3]، وأمكنه عبور نهر الفرات في ربيع الثاني من عام ٥٤٢هـ/ أكتوبر ١١٤٧م.وساعده الأرمن على فتح أبوابها والاستيلاء عليها، وإن عجز عن قلعتها [4] نظراً لمناعتها وتجهيزاتها بالمعدات والرجال، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها [5]، أمام ذلك الموقف، هب نور الدين إلى إنقاذ الرها، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين بالفرار، وقد تمكن الجيش النوري من إلحاق الهزيمة بالصليبيين، وأصيب جوسلين نفسه وقتل فيمن قتل بلدوين صاحب مرعش [6]، وقام الأول بعبور الفرات مسرعاً حتى بلغ سميساط وفر من كان معه في اتجاهات متفرقة، وقامت القوات النورية بسلب المدينة ونهبها، كعقاب لأهلها على تمردهم، وغنمت من وراء ذلك الغنائم الوفيرة [7]، ووجدت لدى نور الدين محمود عدة اعتبارات دفعته إلى الإسراع نحو القضاء على محاولة جوسلين الثاني استرداد الرها، إذ أنه أراد إنقاذ الإنجاز الكبير الذي حققه والده زنكي بإخضاع أولى الإمارات الصليبية وما غنمه المسلمون من وراء ذلك من مغانم استراتيجية كبرى، كذلك أراد أن يوقف أية توسعات صليبية في المنطقة الممتدة في شمال العراق، كذلك فإن عودة السيادة الصليبية للرها، كان من شأنها توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الاستراتيجي القائم بين المدينتين، والذي حرص نور الدين على

(١) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي ص ١١٣، الجنة في ظلال السيوف، حبيب جاماتي ص ٧٥ – ٧٧ .
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦١.
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٤.
(٤) (٥) المصدر نفسه ص ١٦٥.
(٦) (٧) المصدر نفسه ص ١٦٦.

عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة [1].

أ- هزيمة نور الدين:

سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها تل باشر، وعين تاب، وعَزاز وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم حرب شديدة أسفرت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار [2] كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السِّلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قلج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وأقصر وغيرهما من تلك الأعمال، وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره [3].

ب- أعمال نور الدين للحيلة ووقوع جوسلين في الأسر:

عظمت هذه الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً وإما أسراً، فاتفق أن جوسلين خرج في عشرة، وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السَّبي امرأة منهم فخلا معها تحت شجرة، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً.. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافَّة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أَمِنَ جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره، وحاق به مكره، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. فلما أسر تيسَّر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب، وعزاز، وقُورُس والرَّاوندان، وحصن البارة، وتل خالد، وكفر لاثا، وكفر سود، وحصن بسرفوت بجبل بني عُليم ودُلُوك، ومرعش، ونهر الجوز، وبرج الرصاص [4].

وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦٦.
(٢) سلاح دار: معناه ممسك السلاح.
(٣) كتاب الروضتين (١/٢٤٦).
(٤) المصدر نفسه (١/٢٤٦).

محتاجة إلى شيء [1]. لقد رغب نور الدين محمود زنكي في تأمين خطوط التجارة بين حلب والموصل وبين حلب ودولة سلاجقة الروم والامبراطورية البيزنطية، ووقوعها غرب نهر الفرات له أهمية كبيرة إذ أنها على ما يبدو فرضت نوعاً من السيطرة على حركة التجارة بين شرق الفرات وغربه وبالذات في الجزء الشمالي لبلاد الشام، أما الدوافع الإستراتيجية العسكرية فتمثلت في رغبة نور الدين الأكيدة في تأمين الخط الدفاعي الحربي الواقع بين الموصل وحلب، إذ أن خضوع تلك القلاع والحصون في أيدي الصليبيين هدد ذلك الخط تهديداً كاملاً، ويمكن تلخيص سياسة نور الدين تجاه إمارة الرها، أنها تمثلت في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعي أن ندرك أن دوره في هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إمارة أنطاكية مثلا، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده [2]؛ ولقد أصبحت انتصارات نور الدين يتغنى بها الشعراء، فقال ابن منير:

لقد أشعرت دين الله عِزًّا ... تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره والناسُ فوضى ... قويٌّ منك في الجُلى أمين
رجعت ملوكهم وهم خيوف ... أسير في صفادك أو كنين
فَبَرنسيتَ البرنسَ لقباع خسيف ... وجُرعَ مُرَّ جوسك جوسلين [3]

٢- **إمارة انطاكية**: تولى حكم إمارة أنطاكية خلال عهد نور الدين محمود ثلاثة من الأمراء، ريموند دي بواتيه (٥١٩ - ٥٤٣هـ/ ١١٣٦ - ١١٤٩م) وقد اتجه إلى محاولة طلب عون الحملة الصليبية الثانية عندما قدمت إلى الشام من أجل مساعدته في استرداد أملاكه المفقودة شرقي نهر العاصي. ورينودي شاتيون أو أرناط في المصادر العربية (٥٤٨ - ٥٥٧هـ/ ١١٥٣ - ١١٦٢م)، فقد شن هجماته على الأعمال الحلبية ووصف بالإندفاع والتهور، وجرت تصرفاته على الصليبيين في بلاد الشام بصفة عامة أوخم العواقب، وقد عمل نور الدين على أسره، وتمكن بالفعل من ذلك ومكث في السجن سبعة عشر عاماً خرج بعدها يقاتل المسلمين بضراوة. وتولى بوهيمند الثالث (٥٥٨ - ٥٩٥هـ/ ١١٦٣ - ١٢٠٠م) عرش الإمارة تحت وصاية الأميرة كونستانس أرملة ريموند دي بواتيه، ويلاحظ أنه أسر في

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٢٤٧). (٢) فن الضراع الإسلامي الصليبي ص ١٦٩.
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٧١، ٢٧٢).

معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م [1] وقد امتازت سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة أنطاكية بتعدد المعارك الكبيرة التي خاضها ضدها على نحو لم تجده بالنسبة لغيرها من الإمارات الصليبية الأخرى [2]، ومن أشهر هذه المعارك:

أ- معركة يغرى: في سنة ٥٤٣هـ سار نور الدين إلى يَغْرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم، وقد عزموا على فقد بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج، وكانوا بين قتيل وأسير، وفي هذه الوقعة قال القيسراني:

وكيف لا نُثني على عيشنا	**المحمود والسلطان محمود**
فليشكر الناسُ ظلالَ المنى	**إن رواقَ العدل ممدود**
ونيِّرات الملك وهاجة	**وطالع الدولة مسعود**
وصارمُ الإسلام لا ينثني	**إلا وشِلْوُ الكُفر مقدود**
مناقب لم تك موجودة	**إلا ونور الدين موجود**
مُظَفَّر في درعه ضَيْغَمٌ	**عليه تاج الملك معقود**
نال المعالي حاكماً مالكاً	**فهو سليمان وداود**
ترتشِفُ الأفواه أسيافهُ	**إنَّ رُضاب العِز مورود**
وكم له من وقعة يومها	**عند ملوك الشرك مشهود**
والقوم إما مُرْهَقٌ صُرْعَة	**أو مُوثَقٌ بالقيد مَشْدُودُ**
حتى إذا عادوا إلى مثلها	**قالت لهم هيبته عودوا**
والكر والفَرُّ سِجال الوغى	**فطاردٌ طوراً ومطرود**
وإنما الإفرنج من لغيها	**عاد وقد عاد لها هُودُ**
قد حصحص الحق فما جاحد	**في قلبه بأسك مجحود**
فكل مِصرٍ بك مُستفتِحٌ	**وكل ثغر بك مسدود** [3]

ب- معركة أنب: وقعت معركة أنب في يونيه ١١٤٩م/ صفر ٥٤٤هـ وقد حقق الجيش النوري فيها انتصاراً كبيراً، وتم قتل ريموند دى بواتيه، وعدد كبير من كبار قادة الصليبيين

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦٩. (٢) المصدر نفسه ص ١٧٠.
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٢٠٠).

ويلاحظ أن الشيعة الإسماعيلية النزارية وقفوا خلال المعركة إلى جانب الصليبيين؛ مما كشف بجلاء عن حقيقة دورهم خلال تلك المرحلة، ولقي قائدهم علي بن وفا مصرعه على نحو دلّ على التواطؤ والتعاون مع أعداء الإسلام (١) والارتماء في أحضان الصليبيين ضد القيادة السنية المجاهدة (٢)، وقد قال ابن منير في مدح نور الدين قصيدة جاء فيها:

تفي بضمانها البيضُ الحِدادُ ... وتقضي دَيْنَها السُّمْرُ الصِّعاد
وتدركُ ثارها من كلِّ باغٍ ... فوارس من عزائمها الجِلاد
ويَغْشى حَوْمةَ الهيجا هُمامٌ ... تُشُدُّ بضبعِهِ السَّبْعُ الشِّداد
أظنُّوا أنَّ نارَ الحرب تخبو ... ونور الدين في يده الزِّنادُ
وجُندٌ كالصقور على صقور ... إذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا ... وإن أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها ... وهل تخشى وأنت لها عماد
وإن تُثْلِ القوافي ما نلتَه ... بأنب ما يُؤَبِّنُها سِنادُ
جرت بالنصر أقلام العوالي ... وليس سوى النجيع لها مِداد
وطالت أرؤس الأعلاج خصيباً ... فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطتِ بهم فكان القتل صبراً ... ولا طعن هناك ولا طِراد
وللإبرنز فوق الرمح رأس ... توسَّد والسنان له وساد

إلى أن قال:

وأذعنتِ الممالك واستجابت ... مُلبِّيةً لدعوتكَ العبادُ (٣)

ومما قال ابن القيسراني:

هذه العزائمُ لا ما تدَّعي القضبُ ... وذي المكارم لا ما قالت الكُتُبُ
وهذه الهِمَمُ اللاتي متى خَطَبت ... تعثَّرت خلفها الأشعار والخُطَبُ
صافحت يا ابنَ عماد الدين ذرْوَتَها ... براحة للمساعي دونها تعب

وهي قصيدة طويلة جاء فيها:

أبناء ملحمةٍ لو أنها ذكرت ... فيما مضى نسيت أيامها العَرب

---

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٧٥.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧١. (٣) كتاب الروضتين (١/ ٢٠١).

مـن كـان يغـزو بـلاد الشـرك مكتسباً | مـن الملـوك فنـور الـدين مُحتَسِـبُ
ذو غـرة مـا سمـت والليـل معتكـر | إلا تمزق عـن شمـس الضـحى الحُجُبُ
أفعالـه كاسمـه في كـل حادثـة | ووجهـه نائـبٌ عـن وصـفِهِ اللقَـبُ
في كـل يـوم لفكـري مـن وقائعـه | شـغل فكـل مـديحي فيـه مُقْتَضَـبُ
مـن باتـتِ الأسـدُ أسـرى في سلاسـله | هل يأسر الغُلْبَ إلا مـن لـه الغَلَـبُ[1]

إلى أن قال:

هـذا وهـل كـان في الإسـلام مكرمـة | إلا شـهدتَ وعُبَّـادُ الهـوى غَيَـبُ

وقال فيه قصائدَ كثيرة شعراءُ عصره بسبب فتوحاته ومعاركه التي خاضها مع الصليبيين. وعلى أثر مقتل ريموند دى بواتيه، اضطربت الأوضاع السياسية في أنطاكية، وحلت الفوضى بها واستولى الهلع على جميع الناس وصارت الأرض ممهدة أمام قوات نور الدين، لأن الحرب أخذت زهرة الجيش، وأمير البلاد، ولم يعد هناك من يقدم حماية قوية ضد الأخطار التي هددتهم، وطبيعي أن يسعي نور الدين إلى الإفادة من انتصاره فعمل على الاستيلاء على عدد من الحصون الأنطاكية في كل الوادي الأوسط لنهر العاصي، ومنها أزمان وأنب، وعم، واجتاح سهل أنطاكية حتى بلغ ميناء السويدية (سان سيمون) وبذلك قضى على المراكز الصليبية الأمامية الواقعة بين حلب وأنطاكية، بل إنه هدد أنطاكية نفسها وحاصرها واتفقت معه المدينة على الاستسلام في حالة عدم مقدم الملك الصليبي بلدوين الثالث، وبالفعل حضر وفرض حصاره على حصن حارم ولما باء بالفشل، عاد أدراجه إلى أنطاكية وعقد هدنة مع نور الدين [2]. واتجه نور الدين محمود إلى أسر أمير أنطاكية رينودى شاتيون مثلما فعل ذلك من قبل مع جوسلين الثاني، وبالفعل تم أسره حوالي عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م على نحو بعث الاضطراب في تلك الإمارة الصليبية وبصورة عكست أن أسلوب أسر حكام الإمارات الصليبية مثَّل أفضل الأساليب حينذاك التي من خلالها يتم إضعاف ذلك الكيان الصليبي وبعث الاضطراب والفوضى في صفوف أبنائه بصورة أو بأخرى [3].

ج- الاستيلاء على أفاميه: سار نور الدين إلى حصن أفاميه سنة ٥٤٤هـ وكان حصناً منيعاً على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على

(١) كتاب الروضتين (١/ ١٧٥).
(٢) إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطية ص ٢٣٦.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧٤.

أعمال حماة وشيزر وينهبونها فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نور الدين إليه، وحصره وضيق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها وساروا نحوه ليزحزحوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوْا جده في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء وأكثروا [1].

د- حصار حارم: في عام ٥٥٧هـ جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجَدَّ في قتالها فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجاعتهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصافَّ، فلم يجيبوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطَّفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده وممن كان معه في هذه الغَزَاة الأمير مُؤَيَّد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج، فلما دخله يومئذ كتب على حائطه [2]:

لك الحمد يا مولاي كم لك مِنَّة ... عليَّ وفضل لا يحيط به شُكري
نزلتُ بهذا المسجد العام قافلاً ... من الغزو موفورَ النَّصيب من الأجر
ومنه رحلت العِيسى في عامي الذي ... مضى نحو بيت الله ذي الرُّكن والحِجر
فأدَّيت مفروضي وأسقطت ثقل ما ... تحملت من وزر الشَّبيبة عن ظهري

قال أبو شامة: أذكرني هذا ما كتبه أسامه بمدينة صور وقد دخل دار أبي عقيل فرآها وقد تهدَّمت وتغيَّرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام:

احذر الدنيا ولا ... تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار مَن ... صَرَعَتْهُ منَّا بالغُرور
عمروا وشادوا ما تراه ... من المنازل والقُصُور
وتحولوا من بعد ... سكناها إلى سُكنى القبور [3]

هـ- معركة حارم: وفي سنة ٥٥٩هـ اغتنم نور الدين خُلُوَّ الشَّام من الفرنج وقَصَدهم، واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصافَّ فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم

---

(١) كتاب الروضتين (١/ ٢١٧)؛
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٩٦).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٩٧).

ووقع في الإسار إبرنس أنطاكية، وقومص طرابلس وابن لجوسلين ودُوك الروم، وذلك في رمضان [1]. وقد اشترك في هذه الغزوة ضد نور الدين، القوى الصليبية والبيزنطية والأرمينية[2]. وسبب الانتصار لنور الدين أنه لما عاد منهزماً في معركة حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره، وثأر الإسلام، وغزو العدوّ في عقر داره، ليرتق ذلك الفتق، ويمحو سِمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن – أي حصن كيفا – ونجم الدين ألبي بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف، فأما قطب الدين أتابك فجمع عساكره، وسار مجداً، وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصّه: على أي شيء عزمت؟ فقال على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصَّوْم والصلاة فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدها! فقال: إن نورالدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زُهَّادها وعُبَّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة، فقد قعد كلُّ واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون عليَّ، فلابدَّ من إجابة دعوته، ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم، فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالسَّاحل ممن لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاءوا مقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم وهو رئيس الروم ومقدَّمُها، وجمعوا من الرَّاجل مالا يقع عليه الإحصاء، ملأوا الأرض وحجَبُوا بقسطهم السماءَ، فحرض نور الدين أصحابه، وفرَّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح [3] وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا على عِم [4]. وتيقنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد

---

(١) كتاب الروضتين (١/ ٤١٦).
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧٥.
(٣) المصدر نفسه (١/ ٤١٧).
(٤) كتاب الروضتين (١/ ٤١٨).

حرمتهم كلَّ خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفُّوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبدَّدوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولُّوا الأدبار وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الضَرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعد عن راجلهم، فيميل عليهم من بقي من المسلمين، ويضعوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم، فكان الأمر على ما دبَّروا، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيَّالتهم ولم يُمنعوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرجين، فسُقط في أيديهم، ورأوا أنَّهم قد ضلُّوا، وخضعت رقابهم وذلُّوا فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنَّتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة، وانقضَّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُغَاث الطيور، فمزَّقوهم بَدَداً وجعلوهم قِدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف[1]، وقال الذهبي:.. ثم التقاهُم في سنة ٥٩هـ فطحنهم وأسر ملوكهم، وقتل منهم عشرة آلاف بحارم[2]. وأما الذين أسروا وهم الذين من قبل ذُكروا[3]. وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلَّموها إليه، ومجاورة بوهيمند أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الروم وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسّويداء وغير ذلك وعادوا سالمين، ثم إن نور الدين أطلق بوهيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم[4].

تلك كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت

(١) كتاب الروضتين (١/ ٤٦٨). (٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٥).
(٣) (٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٤١٩).

ذروتها في حارم، ومع ذلك لم تسفر عن تغيير حاسم، وكأن الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية طالما أن الامبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقبل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها [1].

٣- إمارة طرابلس: عاصر نور الدين محمود اثنين من أمراء طرابلس، ريموند الثاني ٥٣٢-٥٤٧هـ/ ١١٣٧-١١٥٢م وريموند الثالث ٥٤٧-٥٨٣هـ/ ١١٥٢- ١١٨٧م في وقت اتسمت الدولة النورية تجاه إمارة طرابلس بصراع عنيف لإسقاط حصونها وقلاعها، واحتلت تلك الإمارة الصليبية أهمية متميزة لديها نظراً لتصريف التجارة الشامية عبر موانيها إلى عالم البحر المتوسط، ودخلت إمارة طرابلس في صراع مصالح مع الشيعة الإسماعيلية بسبب وقوع قلاع الدعوة الشيعية الإسماعيلية في مناطق إمارة طرابلس، وحيث إن الاغتيال كان سلاح الشيعة الإسماعيلية الرهيب الذي أشهرته في وجوه خصومها، فإن أمير طرابلس ريموند الثاني لم يسلم منه فقد تم اغتياله [2].

أ- حصن أنطرسوس: ورد الخبر في المحرَّم من عام سبع وأربعين وخمسمائة بنزول نور الدين على حِصن أنطرسوس في عسكره وافتتاحه، وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه وملك عِدَّة من الحصون بالسَّبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان[3]، وقال ابن منير قصيدة يمدح نور الدين ويهنئه بفتح أنطرْسوس وغيرها فقال:

أبداً تباشر وجه غزوك ضاحكاً ... وتؤوب منه مؤيداً منصوراً
تُدْني لك الأمل البعيد سَواهُم ... مُحِقت أهِلَّتُها وكن بُدُورا

وجاء فيها:

هَتَمتْ طرابلساً فأصبح ثغرُها ... البسَّامُ من عِزِّ الثغور تغيراً
ضحكت لك الأيام واكتأب العِدَى ... قلقاً فجئت مبشراً ونذيراً
لا مُلك إلا ملك محمود الذي ... تَخِذَ الكِتَابَ مظاهراً ووزيراً
تمشي وراء حُدُودِه أحكامه ... تأتمهنَّ فَيُحكمُ التَّقديرا

---

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٩.
(٣) كتاب الروضتين (١/ ٢٨٠).

يقظان ينشر عدله في دولة ... جاءت لمطوي السمّاح نشورا [1]

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة اخترت منها هذه الأبيات:

مَلِكٌ تكنّف دين أحمد كِنُّه ... فأضاء نيرةٌ وصاب شهابه

فالعدل حيث تصرفت أحكامه ... والأمن حيث تصرّمت أسرابه

متهلّلٌ والموت في نَبَراته ... يُرجى ويُرْهَبُ خوفه وعقابه

طَبَع الحديدَ فكان منه جَنَانُه ... وسِنَانُه وإهابه وثيابُهُ

ويهش إن كَبَتِ الوجوه كأنما ... أعداؤه تحت الوغى أحبابه

نُشِرت بمحمود شريعة أحمد ... وأرى الصَّحابة ما احتذاه صِحابه [2]

ب- حصن الأكراد: في عام ٥٥٨هـ جمع نور الدين عساكره، ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج، عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، فبينما النَّاس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم فأراد المسلمون دفعهم، فلم يطيقوا، فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قَبَاء، فركب فرساً هنالك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رجْله شِبْحة[3]، فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقُتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلَّصي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قَدَس على فرسخ من حمص وبينهما وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، وكان النَّاس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله تعالى أشجع من ذلك وأقوى عزماً ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبَّخه وأسكته وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلُّوا أو كثروا، ووالله لا أستظلُّ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُنْد، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سَلِم، وأما من قُتل فإنه أقَّر إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يُفقد منه أحد، وأما الفرنج فإنهم كانوا

---

(١) كتاب الروضتين (١/ ٢٨٢). (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٨٢).

(٣) هي التي تربط يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه.

عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا. وكان نور الدين -رحمه الله تعالى- قد أكثر العطايا إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مائتي ألف دينار، سوى غيرها من الدواب والخيام، والسلاح وغير ذلك؛ وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكلٌ من ذكر شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادَّعاه، فأعاد الجواب: لا تكدّروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره[1]. وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدرارت كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصُوفية والقُرَّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا[2]. ومما يذكر في هذه الهزيمة موقف الشيخ البرهان البلخي حيث قال: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور. كلا. وقال كلاماً مع هذا، فلما سمع نور الدين ذلك، قام ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الفرنج[3].

ج- فتح حصن المنيطرة وبعض الحصون: اتجه الجيش النوري إلى الاستيلاء على حصن المنيطرة في عام ٥٦١هـ/ ١١٦٥م وغنم الغنائم الوفيرة، وفي العام التالي ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م تمت مهاجمة المناطق المحيطة بحصن الأكراد، وسلب الغنائم، كذلك تم الاستيلاء على حصن صافينا والعزيمة وهما من حصون الإمارة المنيعة، ووقع صدام بين الجيش النوري، وجيش إمارة طرابلس ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م فيما عرف بمعركة اللبوة، وبعد عامين أي في عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م واصل نفس السياسة وتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقة واستولت عليه عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م واحتوى على جميع ما فيه وغنم الناس غنيمة عظيمة[4]. كانت سياسة نور الدين تجاه إمارة طرابلس تتمثل في الرغبة في السيطرة على قلاعها وحصونها ولم

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٩٩). (٢) المصدر نفسه (١/ ٣٩٩).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٨٠). (٤) المصدر نفسه (١/ ٢٢٤).

تحدث معارك كبرى في إمارة طرابلس كالتي حدثت في مواجهة أنطاكية [1]، ومما تجدر الإشارة إليه، أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري، معارك كبيرة مثل يغرى، وأنب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون، مثل المنيطرة، وانطرطوس، وغيرهما [2]. وكانت المعارك جميعها برية ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية، خاصة إمارتي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا ساحلاً ممتداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونيه جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية (سان سيمون) باءت بالفشل، بسبب تصدي مملكة بيت المقدس والامبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه وأدى ذلك إلى عدم تملك الدولة النورية أية موانيء [3].

ثالثاً: العلاقات النورية - البيزنطية:

عاصر عهد الدين محمود في بلاد الشام عهد الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين ٥٤٠ – ٥٧٥هـ/ ١١٤٥-١١٨٠م [4]، الذي تولى عرش الامبراطورية خلفاً لحنا كومنين، وقد كان مانويل إمبراطوراً يؤمن بفكرة السيادة العالمية وساعده على تحقيق ذلك أنه كان دبلوماسياً ماهراً ورجل دولة قديراً، وقد كانت له سياسته في الشرق والغرب معاً، ورغب مثل أسلافه في فرض سلطته على روما سواء إذا كان ذلك عن طريق القوة أو بالاتفاق والتعاون مع البابوية [5]، وأراد القضاء على الامبراطورية الغربية التي نظر إليها البيزنطيون على أنها مغتصبة لحقوقهم، ولذا فقد اتخذ موقفاً عدائياً من الامبراطور الألماني فردريك بارباروسيا وقد توجهت سياسة الدولة النورية نحو الامبراطورية البيزنطية من خلال دوافع اقتصادية وسياسية واستراتيجية عسكرية [6].

- **أما الدوافع الاقتصادية:** فتمثلت في رغبة نور الدين محمود في استمرار الصلات التجارية بين الطرفين، فمعلوم أن الامبراطورية البيزنطية غدت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق التي دخلت الدولة النورية طرفاً مهمًا في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية ومنها الامبراطورية البيزنطية، وقد دعم الصلات التجارية بين الجانبين مرور أحد الطرق التجارية الدولية المهمة بمناطقها ونعني به طريق الشرق الأقصى - الخليج العربي - الشام، وقد بدأ من رأس الخليج العربي إلى البصرة ثم بغداد واتخذ إتجاهين صوب الشمال

(١) فن الصراع الإسلامي الصلابي ص ١٨٣.
(٢) (٣) (٤) المصدر نفسه ص ١٨٤.
(٥) المصدر نفسه ص ١٨٦.
(٦) المصدر نفسه ص ١٨٨.

نحو ديار بكر والثاني باتجاه غربي نحو دمشق ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل اللاذقية، وطرطوس، وعكا، وغيرها، وتلك الموانئ شرق البحر المتوسط مثلت دور الوسيط التجاري بين الدولة النورية والامبراطورية البيزنطية [١].

- **وأما الدوافع السياسية:** فحاول نور الدين محمود استثمار الخلافات القائمة بين الجانبين من أجل محاولة إيجاد توازن في علاقات الامبراطورية البيزنطية بدولته وبالكيان الصليبي في بلاد الشام، وساعده على ذلك أن تلك الامبراطورية احتاجت إلى قوته من أجل استمرار الصراع مع الصليبيين وإلحاق الخسائر بهم، على نحو يجعلهم يطلبون عون البيزنطيين ولا تغيب سطوتهم عن بلاد الشام وهذا ما هدفوا إليه. ومن أجل تحقيق سياسة توازن القوى في المنطقة، وعدم ارتماء بيزنطة بثقلها في دعم الصليبيين، نجد أن نور الدين عمل على تبادل السفارات مع الامبراطور البيزنطي، وكذلك الهدايا، ثم لم يجهر بالعداء تجاه تلك الامبراطورية، بل حاول أن يكسب صداقتها بقدر الإمكان، ونجد ذلك واضحاً بالنسبة للغة المصادر الرسمية، فعلى حين أشارت بالعداء الكامل تجاه الصليبيين فإنها كانت أقل حدة عندما أشارت إلى الروم أي البيزنطيين [٢]، ولامراء في أن الدولة النورية نجحت في تحقيق تلك السياسة التي مارستها أيضاً الامبراطورية البيزنطية، وهي التي رأت أن دبلوماسيتها ينبغي أن تقوم على أساس شغل القوى السياسية المجاورة بصراعاتها لإضعافها، من أجل أن تقوى الامبراطورية نفسها، ولا شك في أنها هدفت إلى استمرار صراع الدولة النورية مع الصليبيين [٣].

- **وأما الدوافع الاستراتيجية العسكرية:** فيمكن ملاحظاتها من خلال أن الامبراطورية البيزنطية شكلت قوة عسكرية كبيرة في المنطقة، وقد فاقت قوة الدولة النورية بصورة كبيرة، ويمكن إدراك ذلك من خلال إشارات المصادر عن حجم الهلع الذي انتشر في الأعمال الإسلامية الشامية [٤] خلال مقدم مانويل كومنين بقواته مشاركاً الصليبيين، لقد حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحييدها وعزلها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام، وفي الاتجاه الجنوبي الغربي صوب الدولة الفاطمية[٥].

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧. (٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٩.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧، فن الصراع الإسلامي ص ١٩٠.
(٥) فن الصراع الإسلامي ص ١٩٠.

١- تجديد التحالف بين مملكة بيت المقدس والامبراطورية البيزنطية: كانت الخطة التي وضعها بلدوين الثالث لاستقطاب مانويل هي المصاهرة فأرسل لهذا الغرض سفارة إلى البلاط البيزنطي في منتصف عام ٥٥٢هـ/صيف عام ١١٥٧م برئاسة أرنارد رئيس أساقفة الناصرة، الذي توفي في الطريق، وعضوية كل من همفري الثاني سيد تبنين [١]، وجوسلين بسبليوس، ووليم دي باري، لطلب يد الأميرة تيودورة ابنة إسحاق أخي الامبراطور [٢]، أحسن مانويل استقبال السفارة وكان أن تمت الصفقة على أن تكون هدية الزواج التي يقدمها بلدوين الثالث لعروسه مدينة عكا وما يتبعها من أراض، والراجح أن المفاوضات تطرقت إلى أوضاع الصليبيين المتردية مقابلة تعاظم قوة نور الدين محمود، وما يمكن أن يقدمه الامبراطور من مساعدة. ومن الواضح أن مانويل استغل هذه الزيجة التي تمت في شهر رجب عام ٥٥٣هـ/ شهر آب عام ١١٥٨م للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الامبراطورية في كيليكية وأنطاكية، ويبدو أنه وعد الملك الصليبي بالاشتراك في حلف لمناهضة نور الدين محمود وتأديب رينولد شاتيون صاحب أنطاكية، وكان هذا الأخير قد حالف ثوروس الثاني صاحب أرمينية الصغرى ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية معاً، في الوقت الذي اتخذ فيه الامبراطور البيزنطي من سلاجقة الروم حاجزاً يقي أملاكه في آسيا الصغرى من تضخم نفوذ الأمير الأرميني [٣].

٢- مانويل يغزو كيليكية: لم تكد الأميرة البيزنطية تيودورة تغادر القسطنطينية في صيف عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م متوجهة إلى بيت المقدس، حتى خرج مانويل على رأس جيش يقدر بخمسين ألف جندي، متوجهاً إلى كيلكية ليسترد حقوق الامبراطورية ومن ثم سيتوجه إلى أنطاكية لإخضاعها وتأديب حاكمها رينولد شاتيون [٤]، وكان أن عبر مانويل آسيا الصغرى من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي متظاهراً بمحاربة السلاجقة حتى يُموه على أهداف حملته، واتسم خروجه بالسرية التامة وكان الأمير الأرميني ثوروس الثاني آنذاك في طرسوس، ولم يساوره أي شك في إمكانية حصول غزو بيزنطي لأراضيه، حتى علم فجأة ذات يوم من من شهر رمضان / شهر تشرين الأول بأن العساكر البيزنطية شوهدت على مسيرة يوم واحد من طرسوس فهرب إلى الجبال ثم دخل مانويل سهل كيليكية واحتل بعض المدن والقلاع الكبرى مثل طرسوس، وتل حمدون وعين زربة والمعيصة التي اتخذ مقامه فيها،

---

(١) تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٠٧.
(٣) وليم الصوري (٢/ ٨٥٩)، تاريخ الزنكيين ص ٣٠٧.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٠٨.

وأضحت كيليكية في قبضته، ولاذ ثوروس بالفرار من مكان إلى آخر [1]، وأرسل مانويل إلى رينولد شاتيون في أنطاكية يستدعيه لمحاسبته على ما فعل بجزيرة قبرص، ويبدو أن حاكم أنطاكية انزعج لقدوم الامبراطور الذي رابط على حدود إمارته إذ أدرك أنه ليس بوسعه أن يتصدى للجيش الامبراطوري الكثيف فطلب مساعدة بلدوين الثالث متجاهلاً أن ملك بيت المقدس لا يقلُّ استياء من الامبراطور، وأخَّر مثوله أمام الامبراطور بانتظار وصوله إلى أنطاكية حيث كان في طريقه إليها، لكن بطانته نصحوه بالإذعان، وعرض على مانويل تسليمه قلعة أنطاكية، ورأى الامبراطور أن ذلك ليس كافياً، وأصر على أن يحضر رينولد شاتيون إلى مجلسه ليقدم خضوعه وولاءه، فاضطر إلى إجابة الطلب فعجَّل بالمسير إلى معسكر الامبراطور خارج أسوار مدينة المعيصة وأعلن خضوعه له [2].

٣- مانويل في أنطاكية: ما إن علم بلدوين الثالث باقتراب مانويل من أنطاكية، حتى عجل بالمسير نحو الشمال يرافقه أخوه عموري والبطريرك إيمري، فبلغ المدينة عقب عودة رينولد شاتيون إليها، وإذ أظهر ملك بيت المقدس شيئاً من الامتعاض عندما سمع بنبأ العفو عن رينولد شاتيون، بادر فوراً إلى طلب الاجتماع بالامبراطور ونتيجة للمباحثات التي جرت بينهما تم الاتفاق على ما يلي:

أ - عقد تحالف بين الطرفين.

ب- تسوية علاقات بلدوين الثالث برينولد شاتيون، وحصل الأول بالمقابل على وعد من الامبراطور بالعفو عن ثوروس الثاني، دخل مانويل بعد ذلك مدينة أنطاكية في شهر ربيع الآخر عام ٥٥٤هـ شهر نيسان عام ١١٥٩م وأجرى مفاوضات أخرى مع بلدوين الثالث ورينولد شاتيون اتسمت بالسرية التامة، اتفق فيها الأطراف الثلاثة على القيام بحملة كبرى ضد المسلمين على أن تكون وجهتها مدينة حلب [3]، ولم تذكر المصادر المعاصرة أن بلدوين الثالث اعترف في تلك المباحثات بسيادة الامبراطور البيزنطي على الصليبيين في بلاد الشام[4]. والواضح أنَّ ما طرأ من أحداث ترجع على ما يبدو إلى إلحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الإسلامية المتعاظمة التي يقودها نور الدين محمود الذي كان آنذاك يعمل على تقوية نفوذه في بلاد الشام، وأصبح يشكل خطراً على الإمارات الصليبية، وربما كان ما قام به وقتذاك من الموافقة على الدعوة لمهاجمة أملاك نورالدين محمود إنما قصد

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٨، وليم الصوري (٢/ ٨٦١ ، ٨٦٢).
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٠٨، ٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٠٩.

به صرف أنظار الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية [١].

٤- مانويل في بلاد الشام: وبدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين، فكتب إلى ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، ويبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم [٢]. ثم مضى إلى حلب والمناطق الشامية الأخرى يشحذ الهمم ويبعث الطمأنينة في نفوس السكان [٣]، وبدأت رسل نور الدين تتردد على معسكر الامبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير مع استعداده في نفس الوقت للحرب، وتواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم ومع هذه الكثرة العددية إلا أن نور الدين استهدف العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده حتى لا يجعل دولته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال. واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية، ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين، والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية أي بكل القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية [٤]. والملاحظة المهمة في فقه نور الدين زنكي المثابرة في المفاوضات مع الاستعداد الكبير لحشد الجيوش والاستعداد للقتال واستنفار الأمة للتصدي، وقد تخلل الاتصالات الدبلوماسية تبادل هدايا ومحاولة توطيد الصلات السياسية بين حلب والقسطنطينية[٥]، ومهما يكن من أمر، فإن الاتفاق بين الطرفين احتوى على:

أ - إطلاق نور الدين محمود سراح ستة آلاف من الأسرى النصارى الذين كانوا معتقلين بسجونه منذ الحرب الصليبية الثانية [٦].

ب- تعهده بمساندة مانويل في حروبه ضد سلاجقة الروم [٧]. وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية والصليبية الشرط الثاني [٨]، وقد فرح المسلمون بهذا الاتفاق وبرحيل الامبراطور بعد الصلح إلى بلاده، مشكوراً محموداً ولم يؤذ أحداً من المسلمين[٩]. وقد ترتب على هذا الصلح نتائج إيجابية منها:

---

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٩.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٤٠، ٥٤١، تاريخ الزنكيين ض.٣٠٩.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٩.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٩٦.
(٥) المصدر نفسه ص ١٩٧.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣١٠.
(٧) (٨) المصدر نفسه ص ٣١٠.
(٩) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠، تاريخ الزنكيين ص ٣١٠.

- أنها أنهت التحالف البيزنطي الصليبي وكان على الصليبيين أن يعتمدوا على أنفسهم أو مساعدات أوروبا في صراعهم مع الزنكيين.

- أنها حفظت وحدة الشام والتي تعد الأساس المهم لأي وحدة بينها وبين مصر.

- أنها أعادت التوازن بين الصليبيين والزنكيين بخروج البيزنطيين البيزنطي من الساحة ومن ثم عاد النزاع بينهما على مصر متوازناً مرة أخرى [1].

لقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفينًا بين التحالف البيزنطي والصليبي وهذا لم يأت بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين للروم السلاجقة ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين، فإنه وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الامبراطور البيزنطي ضد السلاجقة، فقبل الامبراطور وانسحب من الحلف الصليبي فأوقف الحملة وزال الخطر، وكان من أعظم النتائج التي ترتبت على هذه الخطوة أن تم استبعاد السلاجقة الروم من الصراع الدائر في المشرق، ذلك أن الامبراطور البيزنطي سرعان ما قام بحملة ضد السلاجقة وتعرض قلج أرسلان الثاني لضغط ثلاثي من ياغي أرسلان الدشمند والزنكيين والدولة البيزنطية، ولما لم يكن باستطاعته أن يحارب على جميع الجبهات جنح إلى السلم وبدأ بالجانب الإسلامي، وتم الصلح أولاً بينه وبين نور الدين محمود [2].

وقد أحسن نور الدين في الأداء السياسي مع مانويل، وقد تمثل دهاء نور الدين محمود السياسي في عدم إثارته للصراع مع الامبراطورية البيزنطية واتجاهه إلى عقد اتفاق سلمي معها وذلك من أجل تجنب تحالف صليبي - بيزنطي ضد دولته على نحو يؤدي إلى خسائر فادحة تلحق بهما، ولا شك أنه استغل خبرة دولته الدبلوماسية من أجل إجراء تلك المفاوضات، واستطاع تحجيم خطرها من خلال الاتصالات الدبلوماسية، وقد ساند النجاح السياسي الكبير قوة عسكرية ضاربة استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي - الصليبي، ومعه الأرمن في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م [3].

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي إسلامي على أصول أهل السنة يستوعب طاقات الأمة ويكون للقيادة القدرة على الاستفادة من إمكانياتها الكبيرة في المجال العسكري

(١) الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط ص ١٣٧.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣١٢.

(٣) فقه الصراع الإسلامي الصليبي ص٢٠٦.

والسياسي، والاقتصادي، والتربوي، والاجتماعي، والعلمي، والإعلامي.. إلخ.

رابعاً: أهم الدروس والعبر والفوائد:

في هذا الفصل كثير من الذروس والعبر والفوائد منها:

١- التفكير الاستراتيجي عند نور الدين: بعد أن تولى نور الدين الحكم كرس جهوده وإمكانيات دولته لحرب الصليبيين، وجعل القضاء على ممالكهم وإماراتهم وتحرير البلاد من احتلالهم من أهدافه الاستراتيجية وسعى لتحقيق ذلك بكل ما يملك من قوة، وخاض ضدهم معارك عديدة قتلوا وأسروا خلالها أمراءهم وقادتهم وعشرات الآلاف من رجالهم واستعاد أكثر من خمسين موقعاً وبلدة ومدينة منهم، ونور الدين محمود لم يكن قائداً عسكرياً فقط، بل كان زعيماً سياسياً يعلم أن للسياسة الدور الأكبر في مواجهة العدو وأن استخدام القوة العسكرية وخوض العمليات العسكرية إنما يكون لتحقيق الأهداف السياسية، فإذا أمكن تحقيق هذه الأهداف دون الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية أو باستخدامها كتهديد فقط دون التورط في القتال فإن ذلك أفضل وأوفر للرجال والمال. ومع أن تطبيق هذا المبدأ على حالة المسلمين مع الفرنجة لا يستقيم، لأن النزاع بينهما في بلاد الشام هو نزاع وجود، فلا تتحقق أهداف المسلمين إلا بالقضاء على الفرنجة، وهذا لا يتم إلا باستخدام القوة العسكرية في نهاية الأمر، إلا أن النزاع طويل ولابد أن تتخلله فترات هدوء يتم فيها الاستعداد والتحضير للجولات القادمة، أو التحول من جبهة إلى أخرى، كانت فترات الهدوء تحصل في بعض الأحيان بالاتفاق بين الطرفين على هدنة محددة المدة، لسنتين أو ثلاث سنوات، لا تجري فيها عمليات عسكرية بين الطرفين، وكان نور الدين لا يوافق على هدنة مع إحدى الإمارات الفرنجية إلا إذا كان ينوي التركيز على المواجهة مع إمارة أخرى، أو التفرغ لمعالجة بعض القضايا الداخلية، ففي عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م اضطر إلى منح جوسلين أمير تل باشر هدنة لمدة عامين، لأنه لجأ إلى معسكره رافعاً الرايات البيض مستجيراً وطالباً حماية نور الدين واعتبر نفسه تابعاً له [1]، كان الموقف محرجاً لنور الدين فهو لا يرغب منح جوسلين حمايته واعتباره أحد أتباعه ولا يستطيع ردّه خائباً عملاً بآداب العقيدة السمحة وتقاليد الفروسية التي كان يتمثل بها ويحرص عليها، فكانت الهدنة لمدة سنتين حلاً وسطاً بين الحالتين. وفي عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م حاصر نور الدين مدينة أنطاكية وطال الحصار دون أن يتمكن من فتحها فعرض عليه الفرنجة أموالاً وهدايا وطلبوا منه مهلة يقررون خلالها أمرهم

(١) نور الدين، د. حسين مؤنس ص ٢٣٠.

فأمهلهم وسار إلى حصن أفاميه القريب من أنطاكية وكان تحت الحصار أيضاً فافتتحه وعاد إلى أنطاكية يطلب من أهلها الاستسلام ويعرض عليهم الأمان لأنفسهم إذا استسلموا ولكنّهم تحصنوا بالمدينة ورفضوا العرض، وكان نور الدين قد علم بقدوم جيش الفرنجة من الجنوب لنجدة المدينة، كما وصلته أخبار عن معارك بين جوسلين أمير تل باشر وقلج أرسلان سلطان سلاجقة آسيا الصغرى، فاضطر إلى الاتفاق مع فرنجة أنطاكية على أن تكون المواقع القريبة من المدينة فقط تابعة لهم وأن تكون باقي المناطق باتجاه الشرق تابعة لحلب، ورفع الحصار عن المدينة متوجهاً نحو الشرق ليراقب الأحداث الجارية على الحدود الشرقية لمملكته [1]. وفي عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م بعد استيلائه على دمشق التزم نور الدين بالهدنة التي كانت قائمة بين مجير الدين آبق حاكم دمشق وملك بيت المقدس وحددها عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م لمدة عامين آخرين ليتفرغ لعلاقاته مع جيرانه في الشمال سلاجقة آسيا الصغرى والأراتقة في الجزيرة الفراتية [2]. ولكن ملك بيت المقدس نقض الهدنة في العام التالي واعتدى على بعض المواقع والبلدان التابعة لدمشق ونهبها، فانتقم منه نور الدين وانتصر عليه في عدة مواقع [3]. وفي عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م وقع نور الدين هدنة طويلة الأجل مع إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين الذي وصل على رأس جيش كبير إلى أنطاكية وحاول أمراء الفرنجة معه وتوريطه لغزو حلب، فراسله نور الدين واتفق معه على هدنة طويلة الأجل وأطلق سراح بعض الأسرى النصارى، الذين أسرهم نور الدين وأرسل الامبراطور لنور الدين هدايا كثيرة وثمينة، الأمر الذي أغاظ أمراء الفرنجة، وأفشل مساعيهم وجهودهم للتحالف مع الامبراطور ضد نور الدين [4]، وفي عام ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م كان تركيز نور الدين على الجبهة الجنوبية مع مملكة بيت المقدس، فقد كان يعتقد أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية لها، بعد ضم مصر واستقرار الأوضاع فيها فوقع هدنة مع إمارتي طرابلس وأنطاكية ليتفرغ لأمر مملكة القدس.. ولكن توفي قبل أن يحقق ذلك [5].

كان الدور السياسي لنور الدين محمود أهم الأدوار في حياته فقد حقّق من خلاله أعظم إنجازاته بتوحيد المشرق الإسلامي، بلاد الشام ومصر وشمال العراق وشبه جزيرة العرب في دولة واحدة بزعامته، فكان هذا الإنجاز المرحلة الأساسية في مقاومة غزو الفرنجة والقضاء

---

(١) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٧.
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٧.
(٣) (٤) المصدر نفسه ص ١٦٧.
(٥) الباهر ص ١٥٤، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٨.

عليهم فيما بعد، وقد بذل نور الدين جهوداً مضنية في سبيل تحقيق هذا الإنجاز. ظهرت من خلالها حكمته ومهارته السياسية، لقد كان واضح الرؤية منذ بداية حكمه حتى نهايته، فقرر أهدافه الاستراتيجية الرئيسية وحدد أولوياتها، ووضع الخطط المحكمة لتنفيذها، فكان كما قيل: عبقرياً في التخطيط والتنفيذ [(١)]، قضى أولاً على إمارة الرها التي كانت تشكل تهديداً خطيراً لدولته من جهة الشرق، فلا يستطيع أن يتوجه غرباً أو جنوباً دون أن يحسب حسابها، ثم ركّز على إمارتي أنطاكية وطرابلس فجردهما من جميع المواقع شرق نهر العاصي، وحصرهما في شريط ضيق على البحر، وأصبحا لا يشكلان خطراً كبيراً على دولته وتفرغ بعد ذلك لضم دمشق، فاستولى عليها دون إراقة دماء في خطة رائعة كانت مزيجاً من الدهاء والتهديد والترغيب، ومن بعد ذلك تطلع إلى مصر وأخذ يتهيأ لضمها وعندما سنحت الفرصة لذلك أظهر من العزم والتصميم والصبر والمرونة ما حقق له الفوز على الفرنجة وحليفهم الوزير المصري شاور، وعندما لاحت الفرصة لضم شمال العراق عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م لم يتردد في اغتنامها فاستولى على الموصل دون إراقة دماء أيضاً بفضل ما يكنه أهلها له من حب واحترام [(٢)]، كان نور الدين حاكماً عظيماً، واكتسب احترام رعاياه وأعدائه على حد سواء [(٣)]، وكان دوره السياسي سلسلة من النجاحات والإنجازات العظيمة المتوالية التي وضعته عن جدارة واستحقاق في مكان الصدارة بين الزعماء السياسيين في زمنه وجعلت منه مثالاً رائعاً للقيادة السياسية الحكيمة الناجحة على مدى الأزمان من بعده [(٤)].

٢- أهمية صلاح أولي الأمر: ورد ذكر أولي الأمر في القرآن الكريم أكثر من مرة، وفرض طاعتهم على المؤمنين وقرنها بطاعته وطاعة رسوله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء، وقدّم الماوردي العلماء على الحكام بقوله: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام الناس والعلماء حكام الملوك [(٥)]. ويعتبر العلماء أهل الفكر بينما يعتبر الحكام أهل السياسة، ولابد أن يعمل أهل الفكر وأهل السياسة معاً حتى تتحقق مواصفات القيادة الصالحة للأمة[(٦)]، يقول الإمام الغزالي في هذا المعنى: الملك والدين توأمان، الدين أصل

(١) الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين، هادية الدجاني ص ٢٨٣.
(٢) دور نور الدين محمود في غزو الأمة ص ١٦٨.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان (٤/ ٦١٣).
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٩. (٥) السياسة الشرعية ص ١٥٩.
(٦) إحياء علوم الدين (١/ ٧)، دور نور الدين ص ٢٣٢.

والسلطان حارس، وما لا أصل له، فمهدوم وما لا حارس له فضائع [1]. ونتذكر هنا قول السلطان نور الدين محمود: «إنما نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها» [2]. وقوله: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طرق والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه [3]. وقد رحم الله الأمة بأن هيأ لها قيادة صالحة تمثلت في السلطان نور الدين محمود الذي جمع من حوله العلماء والفقهاء وأشركهم في السلطة وأعاد لهم اعتبارهم الذي يستحقونه، وسار على طريق الخلفاء الراشدين، فنهضت الأمة من جديد وتعافت من جراحها واستعادت قوتها وأرضها ومقدساتها وكرامتها [4]، وصدق الشاعر عندما قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتني إلا على عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أوتاد وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا [5]

وحتى تخرج الأمة من أزمتها الراهنة لابد من صلاح أولي الأمر بصنفيهم: الحكام والعلماء، ولابد من تعاونهم ليكونوا فريقاً واحداً في قيادة واحدة تسير على نهج السلف الصالح، وللأمة في تاريخها خير عظة وعبرة، ولها العبرة كذلك من الدول المتقدمة في الوقت الحاضر حيث تشكل مراكز البحوث والدراسات الكثيرة المختلفة الأغراض مرجعاً للحكام في تلك الدول لتنفيذ سياستهم وتحقيق مصالح بلادهم، وفي دولة العدو (إسرائيل) يضع أهل الفكر من العلماء الخطوط العريضة التي تسير عليها حكومتهم في جميع المجالات [6].

٣- الاستفادة من المسيحيين: قال الذهبي في أحداث سنة ٥٦٧هـ: وفيها هزم مليح بن لاون الأرمني السِّيسِيُّ عسكر صاحب الروم وكان مصافياً لنور الدين، يبالغ في خدمته ويحارب معه الإفرنج، ولما عوتب نور الدين في إعطائه سِيْسَ، قال: أستعين به على قتال أهل ملته، وأُرِيحُ طائفة من جندي، وهو سُدٌّ بيني وبين صاحب قسطنطينية [7]، وفي رواية لابن الأثير توضح بعد نظر نور الدين وحسن سياسته في هذا المجال يقول: ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن لاون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة، وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٣٢.
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٧).
(٣) الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٢٣٢.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٣٢.
(٥) الشهب اللامعة ص ٢٣٧.
(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٢٣٣.
(٧) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٧٢).

أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طلب انحجز فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك المتولي للأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه[1]، وبذلك استطاع نور الدين أن يستفيد من الخلاف بين أرمينية وبيزنطة وحقق كسباً عسكرياً، وكفل للمسلمين حقن دمائهم وجنب المسلمين معارك رآها خاسرة بعد دراستها، فهو رنيب «الموصل» ذات الجغرافية التي تدخل الجبال تضاريسها الشمالية، وحرب الجبال كما هو معروف غاية في الصعوبة، ومن هنا ضن بدماء المسلمين في غير ضرورة [2].

٤- شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج: أعطى نور الدين محمود الأولوية في أهدافه الاستراتيجية من حيث التنفيذ لهدف تحقيق الوحدة بين الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، مصر وبلاد الشام، لأنه أدرك من خلال تحليله للموقف الدولي والإقليمي أنه لن يتمكن من القضاء على دول الفرنجة في بلاد الشام وخاصة مملكة بيت المقدس قبل تحقيق الوحدة مع مصر[3]، وإزالة الجسم الغريب في الأمة المتمثل في الدولة الفاطمية الشيعية، الرافضية الباطنية، ثم الاستفادة من الطاقات الكامنة في الشعب المصري ومن إمكانياته الكبيرة في المواجهة الأخيرة التي لابد أن تشترك فيها دول أوروبا إلى جانب الفرنجة في الشام، وقد حصل هذا بالفعل فيما بعد في زمن صلاح الدين، وثبتت صحة الاستراتيجية التي وضعها نور الدين وبدأ بتنفيذها ولكنه توفي قبل أن يكملها[4]. ولذلك اتخذ نور الدين قراراً سياسياً في منشئه، عسكرياً في طبيعة تنفيذه وهو يقصد من خلاله إضعاف قوة الإمارات الفرنجية وكسر شوكتها، وتحطيم معنويات قادتها وأفرادها واسترداد ما يمكن استرداده من المواقع والحصون والقلاع منها، وقتل أكبر عدد ممكن من رجالها، وهذا هو مفهوم حرب الاستنزاف والغاية منها، حتى إذا ما تحققت الوحدة بين بلاد الشام ومصر وتوافرت الإمكانيات العسكرية الكافية تم القضاء على الإمارات الفرنجية وإزالتها من الوجود، ومواجهة كل ما يمكن أن يتبع ذلك من تدخل أوروبي، يظهر صحة هذا التحليل من موقف نور الدين بعد انتصاره الكبير في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م حيث تمت إبادة وأسر أغلب الجيش الفرنجي، وكان من بين الأسرى قادة الفرنجة الثلاثة أمير أنطاكية، وأمير طرابلس، وقائد الحامية البيزنطية في المنطقة، وأصبحت أنطاكية بعد المعركة هدفاً

(١) الباهر ص ١٦٩، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٩.
(٢) الحروب الصليبية مواقف وتحديات ص ٧٣.
(٣) (٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٦.

سهلاً، فلما طلب قادة نور الدين محمود منه مهاجمتها واحتلالها قال: أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل، وإذا ضيَّقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وملكوه إياها ومجاورة بوهيمند أمير أنطاكية أحب إلى من مجاورة ملك الروم [(١)]، وقبل ذلك عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م قضى نور الدين محمود على جيش أنطاكية وقتل أميرها في معركة أنّب [(٢)]، ثم تقدم إلى أنطاكية وحاصرها فامتنعت ولم يضيق عليها الحصار بل تركها بعد أن جردها من أغلب حصونها الشرقية، وفي عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م وصل إمبراطور القسطنطينية بجيشه الكبير إلى أنطاكية في عرض واضح للقوة، وحاول أمراء الفرنجة استغلال وجوده مع جيشه الكبير فحرضوه على مهاجمة حلب واحتلالها وكان نور الدين محمود يتابع الأحداث فأرسل سفارة إلى الامبراطور واتفق معه على هدنة طويلة بين الطرفين، كما تم تبادل الهدايا، وأطلق نور الدين بعض الأسرى النصارى. وتدل هذه الحوادث الثلاثة على أن نور الدين محمود كان يتجنب إثارة إمبراطور القسطنطينية حتى لا يضطر إلى مواجهة عدوَّين في وقت واحد، وأنه كان يسعى لتحييد الامبراطورية البيزنطية ودول أوروبا جميعها حتى تتغير الأوضاع، وتتوافر له الإمكانيات الكافية لمواجهة هذه الأطراف، إذا تدخلت عندما يحول حزب الاستنزاف إلى حرب تحرير شاملة يقضي من خلالها على إمارات الفرنجة في بلاد الشام. ويؤكد وجود هذه الاستراتيجية عند نور الدين محمود قوله عندما أرسل له صلاح الدين الأيوبي هدايا من الجواهر والتحف التي استولى عليها من قصور الفاطميين بعد إسقاط دولتهم عام ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م فقد قال: والله ما كان لنا حاجة إلى هذا وما وصل إلينا عشر معشار ما أنفقناه في العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل [(٣)]. وقد حقق نور الدين فوائد كثيرة وإنجازات كبيرة من خلال حرب الاستنزاف التي شنها على الفرنجة طول فترة حكمه (٥٤١هـ-٥٦٩هـ) فقد استرجع منهم أكثر من خمسين مدينة وموقعاً وحصناً [(٤)]، وجرّد إمارتي أنطاكية وطرابلس من جميع المواقع والحصون التي كانت لهما شرق نهر العاصي، وجعلهما شريطاً ضيقاً على امتداد الساحل، واسترد بعض المواقع والحصون من مملكة بيت المقدس أهمها حصن بانياس جنوب غرب دمشق [(٥)]، وألحق بالفرنج هزائم منكرة قتل فيها عشرات الآلاف من رجالهم وقادتهم وأمرائهم وأسر أكثر من ذلك، فانخفضت معنوياتهم، وصار همهم المحافظة على ما

---

(١) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين ص ١٤٦. (٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٤.
(٣) سنا البرق الشامي ص ٦٥، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٧.
(٤) الكواكب الدرية ص ٢١٣، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٧.
(٥) البداية والنهاية نقلاً عن دور نور الدين محمود ص ١٤٧.

بأيديهم، بعد أن كانوا يطمحون للتوسع على حساب بلاد المسلمين [١]، وكان من أهم الإنجازات القضاء على إمارة الرها نهائياً، وفي المقابل ارتفعت معنويات المسلمين، وحصل نور الدين على ثقتهم ومحبتهم مما سهل له تحقيق وحدة بلاد الشام وشمال العراق ومصر بسهولة ويسر وبدون قتال باستثناء ما حصل في مصر [٢].

٥- اعتماد اللين والمرونة والخديعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة:

كان نور الدين محمود بحكم عقيدته وطبيعته التي تميل إلى الرحمة والرأفة يكره إراقة الدماء على غير طائل، ويسعى لتحقيق أهدافه بأقل الجهد والخسائر، ولا يتردد في أساليب المكر والخداع مع العدو، وصفه المؤرخون بأنه كان في السياسة والدهاء على جانب عظيم[٣]، وأنه كان يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب [٤]، اتبع هذا الأسلوب مع جوسلين (أمير الرها سابقًا) حتى تمكن من أسره - كما مر بنا -، وفي عام ٥٦١هـ/ ١١٦٦م، شن نور الدين غارة مفاجئة بسرية من الفرسان على حصن المنيطرة شرق طرابلس وتمكن من احتلاله بالرغم من مناعته وقوة الحامية المدافعة عنه، ولم يجسر أمير أنطاكية أو أي من أمراء الفرنجة الآخرين على مهاجمته لتوقعهم أنه احتل الحصن بكامل جيشه وليس بسرية صغيرة فقط [٥]، وفي عام ٥٥٩هـ عندما حاصر الفرنجة وجيش شاور الوزير المصري أسد الدين وجيشه في بلبيس اشتد القلق بنور الدين وخشي على قواته في مصر، فأرسل مع بعض جنوده أعلام الفرنجة وسلاحهم وملابسهم مما غنمه في معركة حارم ومعركة طبريا [٦] إلى أسد الدين المحاصر في بلبيس حتى ينشرها في أسواق بلبيس وعلى أسوارها أمام أنظار الفرنجة ليذكرهم بما حل بإمارتهم في بلاد الشام، فلما فعل أسد الدين ذلك اضطر الفرنجة لرفع الحصار والعودة إلى الشام[٧]، وكان لسلوك نور الدين مع مجير الدين آبق (حاكم دمشق) على الوجه الذي ذكرناه، أكبر الأثر في تسهيل الاستيلاء على دمشق بدون قتال [٨].

٦- الاستراتيجية العسكرية لنور الدين: يعرف المفكرون العسكريون في العصر الحديث الاستراتيجية العسكرية بأنها: علم وفن بناء وتطوير واستخدام القوات المسلحة لتحقيق الأهداف الوطنية [٩]، فإذا قمنا بتطبيق هذا التعريف على ما قام به نور الدين في المجال

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨.
(٣) الباهر ص ١٦٩، دور نور الدين محمود ص ١٤٨.
(٤) (٥) (٦) دور نور الدين محمود ص ١٤٨.
(٧) المصدر نفسه ص ١٤٨.
(٨) المصدر نفسه ص ١٤٩.
(٩) المصدر نفسه ص ١٩٢.

العسكري خلال فترة حكمه، فإننا نجد أنه كان من أعظم الاستراتيجيين في زمنه، فقد بدأ حكمه لإمارة صغيرة تتألف من مدينة حلب وضواحيها يواجه تهديداً خطيراً من قبل الغزاة الفرنجة، ومنافسة شديدة من قِبل الإمارات الإسلامية الأخرى في بلاد الشام، وبعد ثماني سنوات (سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وبعد استيلائه على دمشق) أصبح الحاكم الأقوى في المشرق الإسلامي ومن أقوى الحكام في العالم الإسلامي، والعالم كله، فلابد من قوة عسكرية توافرت لنورالدين، ولابد أنه أحسن إدامتها واستخدامها حتى تمكن من تحقيق إنجازه المذكور [١]. وتظهر ملامح استراتيجية العسكرية في النقاط التالية:

- **التركيز على النوعية والفاعلية:** اعتمد نور الدين على جيش نظامي كان صغير الحجم في بداية حكمه، ولكنه كان منظماً وفعّالاً، إن نور الدين بطبيعته يهتم بالنوعية أكثر من اهتمامه بالكمية، رائده في ذلك الحكمة المأثورة: القوة القليلة أفضل من القوة الكثيرة المبعثرة[٢]، فكان يحسن اختيار قادته وجنوده ويحسن إعدادهم وتدريبهم وتسليحهم، فيعوض النقص في عددهم بزيادة فعاليتهم، وزاد نور الدين في حوافزهم بزيادة مرتباتهم وإقطاعاتهم وتثبيت الإقطاع في أبنائهم في حالة استشهادهم، فكانوا يقولون: إنما هي أملاكنا نقاتل دونها[٣]. وإذا كان أبناء الشهيد صغار عيّن لهم رجلاً أميناً يشرف على إقطاعهم حتى يكبروا، مما زاد في إخلاص الجند وحماسهم وولائهم. فكان نور الدين يواجه أعداءه بجيشه الصغير غير مبالٍ بكثرتهم وتفوقهم العددي، وينتصر عليهم، فقد انتصر في معركة أنّب سنة ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م على جيش إمارة أنطاكية وقتل أميرها بالرغم من تفوق العدو العددي، وكذلك في معركة حارم سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٥م حقق انتصاراً ساحقاً على تجمع كبير من جيوش عديدة، وكان هذا شأنه في أغلب معاركه مع الفرنجة. وفي سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٨م انتصر جيشه في مصر بألفين من الفرسان فقط بقيادة أسد الدين شيركوه على جيش الفرنجة بقيادة ملك القدس عموري، وجيش مصر بقيادة الوزير شاور في معركة البابين، وعندما أظهر بعض الجند تردداً أو تخوفاً قبل بدء المعركة بسبب كثرة عدد الغدو وقلة عددهم قام أحد رجال نور الدين المعروفين بشجاعتهم وصاح فيهم: من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك والله لأن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة ولا عذر ليأخذن إقطاعكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مُنذ خدمتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون الديار المصرية يتصرف بها الكفار [٤].

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٢. (٢) المصدر نفسه ص ١٩٣.
(٣) الباهر ص ١٦٨، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٣.
(٤) الباهر، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٣.

أ- إعلان الجهاد (التعبئة العامة للأمة): دعا نور الدين منذ بداية حكمه للجهاد في سبيل الله، وأعلن أن هدفه تحرير بلاد المسلمين ومقدساتهم من الاحتلال الفرنجي، وراسل باقي الحكام المسلمين في بلاد الشام وشمال العراق ليسهموا معه في تحقيق هذا الهدف وتعززت دعوته هذه بما حققه من انتصارات على الفرنجة وما عرف عنه من عدل وصدق وتقوى وزهد، فاكتسب مصداقية كبيرة وتحققت له شعبية واسعة بين عامة المسلمين في بلاد الشام والعراق والجزيرة بمختلف طبقاتهم واتجاهاتهم، وصار في أعينهم رائد الجهاد ضد الفرنجة وأمل المسلمين في استعادة أرضهم ومقدساتهم المحتلة، واستقطبت دعوة الجهاد أعدادًا كبيرة من المتطوعين، كان نور الدين يستفيد منهم في عملياته العسكرية، وأوجدت رأيًا عاماً قوياً وضاغطاً على الحكام والأمراء ليستجيبوا لدعوة نور الدين، فمن يتخلف منهم عن تلبية الدعوة يتعرض للنقد حتى من رعيته ويتهم بدينه ووطنيته، ويخشى خروج الحكم من يده، ونجح نور الدين في استثمار هذا الشعور إلى أبعد الحدود، فكان يخطط للمواجهة مع الفرنجة في الوقت والمكان المناسبين ويطلب العون من باقي الأمراء والحكام المسلمين فيبادرون لإرسال القوات إليه، وغالباً ما كانوا يحضرون بأنفسهم ويضعون أنفسهم تحت قيادته فيتحقق له التفوق على العدو ويحقق الانتصارات الباهرة، ويحصلون بدورهم على حقهم من الغنائم ويعودون إلى إماراتهم. أدّى تكرار هذا العمل إلى توافر القوة الكافية لنور الدين في الوقت الذي يريده دون تحمل عبء نفقات إدامة هذه القوات خلال فترات الراحة والهدوء، كما أدّت هذه الظاهرة إلى تحسين العلاقة بين الحكام والأمراء العرب والمسلمين وتمتينها على أساس الثقة والتعاون والتنسيق ضد العدو المشترك، وزوال الخلاف والنزاع والتنافس الذي كان قائماً بينهم فيما سبق، وأصبح النزاع في المنطقة واضحاً محدداً بين جبهتين فقط هما الجبهة الإسلامية وجبهة الفرنجة، وصار نور الدين زعيم الجبهة الإسلامية بدون منافس (١).

ب- التدرج في مواجهة العدو: كان نور الدين يستخدم قواته حسب إمكانياتها ولا يكلّفها فوق طاقاتها، ويتجنب التورط في معركة بدون تحضير واستعداد يجعله مطمئناً إلى تحقيق النصر فيها ويقدر قوة عدوه تقديراً صحيحاً ودقيقاً كما يقدر قوّته بالمقابل بالمعيار نفسه وهو في هذا المجال يطبق الحكمة المشهورة «اعرف عدوك واعرف نفسك تستطيع خوض مئة معركة دون هزيمة» (٢)، وهذا لا يعني التقدير العددي فقط، بل كان يأخذ بالاعتبار العوامل الأخرى؛ المعنويات، والكفاءة والقيادة والأسلحة. واستفاد نور الدين من

---

(١) (٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٩٤ .

تجربة الحملة الفرنجية الثانية درساً مهماً، ذلك أن قوة الفرنجة في المشرق الإسلامي لا تقتصر على قوة إماراتهم فيه، وإنما تشمل دعم الدول الأوروبية لهم كلما دعت الحاجة، فقرر ألا يخوض معركة فاصلة معهم إلا بعد أن تتوافر لديه القوة الكافية للقضاء على إماراتهم في بلاد الشام ومواجهة احتمالات التدخل الأوروبي سواء حصل هذا التدخل قبل الفراغ من تدمير الإمارات أم بعده، وقد شكّل هذا القرار السبب الرئيسي في توجّه نورالدين وسعيه الحثيث لضم مصر إلى دولته، للاستفادة من إمكانياتها البشرية والاقتصادية والحصول على القوة المطلوبة لمواجهة الموقف المذكور (1).

ج- إنهاك العدو واستنزاف قوته: إذا كانت القوة اللازمة للقضاء على ممالك وإمارات الفرنجة غير متوافرة لنور الدين قبل استيلائه على دمشق ومن بعد ذلك على مصر، فإن القوة المتوافرة لديه كافية لإيقاع ضربات موجعة بالعدو يتم من خلالها قتل قادته وأفراده وتدمير اقتصاده وتحطيم معنوياته، واسترجاع ما يمكن من الأرض والقلاع والمدن التي اغتصبها من المسلمين، فقرر شن حرب استنزاف ضد الفرنجة يحقق من خلالها ما ذكر أعلاه بالإضافة إلى رفع معنويات المسلمين وإثارة روح الجهاد في صفوفهم، وما يتحقق من غنائم ومكاسب مادية تحصل من فداء أسرى العدو، تساعد في رفد موارد الدولة وتغطية نفقات الحرب (2).

٧- تطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية:

اكتسب نور الدين خبرة واسعة ومهارة فائقة في إدارة الحرب وتطبيق مبادئها قبل تولية السلطة، وكان ذلك من خلال مشاركته في جميع المعارك التي خاضها مع والده عماد الدين زنكي على مدى فترة حكمه التي دامت عشرين عاماً (٥٢١هـ - ٥٤١هـ/ ١١٢٧-١١٤٧م)(3) ومن الطبيعي أن تزداد خبرته ومهارته في هذا المجال بعد تولّيه الحكم من خلال المعارك الكثيرة التي خاضها ضد الفرنجة وغيرهم وحقق فيها انتصارات باهرة، ولعلَّ مبادئ الحرب الأساسية لم تكن تحمل نفس الأسماء المعروفة بها في الوقت الحاضر إلا أن مضمونها لم يتغير منذ العصور القديمة وإنما تغيرت الوسائل والأسلحة والمعدات وبعض المصطلحات، وما زالت المبادئ نفسها تدرس في المعاهد العسكرية العليا في هذه الأيام ومن مبادئ الحرب التي طبقها نور الدين:

أ- تحديد الهدف: كان نور الدين واضح الرؤية منذ حكمه، كان هدفه الاستراتيجي

(1) الكواكب الدرية ص ٢٠١. (2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩٥.
(3) الباهر ص ٧٤، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٥.

الرئيسي في المجال العسكري تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي، وبما أن الهدف يتطلب إمكانيات كبيرة جداً لم تكن متوافرة لنور الدين في بداية حكمه، فقد جعل تحقيق هذا الهدف على مراحل كل مرحلة هدفها وخطتها المستقلة والتي تتكامل كلها مع بعضها في سبيل بناء القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي، وقد فصلنا ذلك فيما مضى.

ب- العمل التعرضي: يعني هذا المبدأ مهاجمة العدو أولاً والمحافظة على زمام المبادرة وذلك بضرب العدو باستمرار وعدم إعطائه فرصة للاستراحة أو إعادة التنظيم، ويظهر من سيرة نور الدين أنه كان مبادراً - غالباً - وأنه احتفظ بزمام المبادرة في أغلب مواجهاته مع الفرنجة [(١)].

ج- الحشد: يعني هذا المبدأ تجميع قوة ممكنة في المكان والزمان المناسبين لمواجهة العدو والتفوق عليه، وقد طبق نور الدين مبدأ الحشد عدة مرات خلال مواجهاته مع الفرنجة [(٢)].

د- المناورة وقابلية الحركة: يعني هذا المبدأ قدرة القوات على الانتقال بسرعة من مناطق التجمع والحشد إلى ميدان المعركة في الزمان والمكان المناسبين لها دون أن يتحقق ذلك للعدو، ثم للحركة ضمن ميدان المعركة بالشكل الذي يوفر للقوات فرصة أفضل لضرب العدو والقضاء عليه، وهذا ما كان يفعله نور الدين باستمرار في إطار تطبيقه لمبدأ العمل التعرضي، فكان يختار مكان المعركة ويسبق عدوه إليه، وتميز جيشه بسرعة الحركة وسرعة التجاوب لأمر الحركة لأنه كان في حالة استنفار دائمة كما عبر عن ذلك بنفسه في جوابه لصديقه الزاهد الذي لامه على ممارسته للعبة كرة البولو وإتعابه الخيل في اللهو واللعب، فكان من ضمن جوابه قوله:.. إنما نحن في ثغر والعدو منا قريب فربما وقع صوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر، فإذا طلبنا العدو أدركناه [(٣)]. وكان في تنقل بين أطراف مملكته لتفقد أحوالها فهور في حركة مستمرة، وتعتبر حملاته على مصر من أروع الأمثلة على المناورة الاستراتيجية السعيدة كما أنها تميزت بالجرأة والسرعة وحسن التخطيط ودقة التنفيذ، ومن بين الحملات الثلاث تميزت الثانية بأنها كانت سباقاً بين جيش نور الدين وجيش مملكة القدس على مصر، فكان السبق لجيش نور الدين الذي عبر النيل وجر العدو إلى المكان الذي اختاره للمعركة فحقق انتصاراً باهراً، بالرغم من أن المسافة التي قطعها أبعد من تلك التي قطعها الجيش الفرنجي. وأما المناورة في ميدان المعركة فقد كان نور الدين يوليها اهتماماً كبيراً، فكان يخطط للمعركة ويديرها ويشرف على القتال فإذا التحم

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩٦. (٢) المصدر نفسه ص ١٩٧.
(٣) الكواكب الدرية، ص ٥٥ الباهر ص ١٦٤.

الجيشان واشتد القتال وحمي الوطيس اندفع لمشاركة رجاله مما يثير حميتهم وحماسهم فيتحقق النصر، وكان ينظم جيشه في المعركة ثلاثة أقسام كما هو معروف عن السلاجقة في هذا الأمر، ميمنة ميسرة وقلب، وعند الاصطفاف للمعركة يرجع القلب للخلف في خطة مرسومة فيندفع العدو خلفه إلى مسافة محددة ثم يثبت القلب ويضغط الجناحان على جيش العدو الذي يصبح محاصراً من ثلاث جهات، وعندما يزداد الضغط على جيش العدوان تضيق فسحة المناورة له فترتبك صفوفه ويسارع للهرب من الجبهة المفتوحة في الخلف بشكل غير منظم مما يجعله فريسة سهلة للقتل والأسر، نفذ نور الدين هذه المناورة في معركة آنب عام ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م، ومعركة حارم عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م بينما نفذها جيش نور الدين في معركة البابين بمصر، وكان بقيادة أسد الدين شيركوه، ولقد حقق نور الدين من خلال تطبيقه لمبدأ المناورة وقابلية الحركة وسرعة الحركة فائدة عظيمة بالإضافة إلى تفوقه على العدو وانتصاره عليه، تمثّل ذلك بنقل المعركة إلى أرض العدو، فكان الخراب والدمار يحلّ دائماً في مناطق العدو وعلى أرضه بينما تبقى بلاد نور الدين في أمن وسلام [(١)].

هـ - وحدة القيادة: يؤدي تطبيق هذا المبدأ إلى تجاوز الخلافات وتوحيد الجهود، واختصار الوقت والإجراءات، مما يساعد في تحقيق النصر، جمع نور الدين في شخصه بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، فكان الملك وقائد الجيش في الوقت نفسه، وقاد جيشه إلى النصر في أغلب المعارك التي خاضها ضد الفرنجة، وتمكن من توحيد بلاد الشام وشمال العراق والجزيرة ومصر في دولة واحدة بزعامته، فصارت الجبهة الإسلامية صفاً واحداً متراصاً في وجه الغزاة الفرنجة، بقيادة سياسية واحدة وقيادة عسكرية واحدة فتهيأت الظروف لتحقيق النصر [(٢)].

قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتني إلا على عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا [(٣)]

و- عنصر المفاجأة: حقق نورالدين المفاجأة في أغلب هجماته على الفرنجة، فكان يربكهم ويفقد سيطرتهم على قواتهم، ويحتل الموقع حصنًا كان أم بلدة أو يقضي على القوة

(١) (٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٠.
(٣) الشهب اللامعة ص ٢٣٧.

قبل أن تصل النجدة إليهم، حدث هذا في هجومه السريع على مدينة الرها عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م، وفي هجومه على حصن أفاميه عام ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م، وفي هجومه على حصن بانياس عام ٥٥٩هـ/١١٦٧م [١].

ز- الخديعة: كان نور الدين يكثر من أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنجة، وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب [٢].

ح- الاستخبارات: كان لنور الدين عيون يثق بصدقهم وأمانتهم في كل مدينة أو حصن ضمن مملكته، وفي الدول والإمارات المجاورة: الفرنجية والإسلامية يزودّونه بكل ما يستجد من أحداث، فيكون باستمرار مطلعاً على أحوال رعيته وأحوال الدول الأخرى، فيضع خططه على أساس هذه المعلومات، وكان دائم الحركة بين أقاليم مملكته ليتأكد بنفسه من الأوضاع العامة، ومما ساعد في سرعة نقل المعلومات استخدامه وسيلة اتصالات سريعة جداً وهي الحمام الزاجل، فقد وضع نظاماً دقيقاً لاستخدام الحمام الزاجل يغطي أطراف مملكته الواسعة ومدنها الكثيرة، فبنى الأبراج على الحدود، وعلى الطرق المؤدية إلى المدن باتجاه الداخل وركز على الحدود مع الإمارات الفرنجية، ووضع في هذه الأبراج الرجال المدربين على تربية الحمام الزاجل واستخدامه، فكانت الأخبار تأتيه في وقتها، وساعد هذا النظام في كشف تحركات العدو الفرنجي وفي سرعة الإجراءات للرد عليها، يقول ابن الأثير في هذا المجال: أمر الملك العادل نورالدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها واتخذت في سائر بلاده وسبب ذلك أنه اتسعت بلاده، وطالت مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان لا يتخللها إلا بلاد الفرنج، وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيها فوجد بها راحة كثيرة، فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها، فإنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك [٣]، كان نور الدين يدرك أهمية المعلومات وأهمية التأكد من صحتها؛ لأن نجاح خططه التي يضعها على أساس هذه المعلومات يعتمد على مدى دقتها وصحتها، ولذلك لم يعتمد فقط على

(١) (٢) دور نور الدين محمود ص ٢٠٠.　　(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

العملاء (العيون) الذين كانوا يحصلون على مرتبات ومكافآت وافرة مقابل ما يقدمونه، كوظيفة رسمية، بل كان له أصدقاء كثر من التجار والزهاد المتجولين في البلاد وبين الناس، وكانوا يراسلونه باستمرار ويزودونه بالأخبار، والأهم من هذا أنه كان يحصل على المعلومات عن الإمارات الفرنجية بطريقة تعرف في العلم العسكري الحديث باسم الاستطلاع بالقوة، فكان يرسل سرايا من جيشه ينتخبهم من الفرسان الأشداء إلى مناطق العدو ينفذون إغارات سريعة على مواقع العدو وحصونه ويتوغلون في بلاده وربما أقاموا معسكرات متنقلة سرية كلما اكتشفهم العدو وطاردهم انتقلوا إلى مكان آخر، ثم يعودون بعد فترة بالكثير من المعلومات وربما كان معهم بعض الأسرى من العدو يمكن الاستفادة من معلوماتهم أيضاً [١]، ويمكن اعتبار حملته الأولى على مصر من باب الاستطلاع بالقوة للتعرف على أحوال مصر بالإضافة للمهمة الرئيسية التي كلفت الحملة بها [٢].

ط- التقرُّب غير المباشر: طبق نور الدين هذا المبدأ عندما قرر اتباع سياسة التدرّج في مواجهة العدو، فبدأ بأضعف الإمارات الفرنجية، إمارة تل باشر، بقايا إمارة الرها، وبعد أن فرغ منها توجه بقوته نحو إمارة أنطاكية فجردها من جميع الأراضي التي كانت تسيطر عليها شرق نهر العاصي، وتحول إلى إمارة طرابلس ففعل بها مثل ذلك، وعندما حان وقت توجيه الضربة القاضية لمملكة بيت المقدس كانت خطته تقضي بالبدء من حصن الكرك الذي كان يعد نقطة ضعف بالنسبة لمملكة القدس، بالرغم من مناعته، كحصن، ولكنه يقع في أطراف المملكة ولا بد لإنقاذه من توجه الجيش الفرنجي إلى منطقة الكرك مما يسهل على نور الدين اختيار مكان المعركة وجر العدو إليها [٣]، ويظهر بوضوح تطبيق نور الدين لمبدأ التقرب غير المباشر في تعامله مع الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، خلال حملاته الثلاث على مصر، فقد كان يستغل توجه جيش مملكة القدس إلى مصر ويهاجم إمارة أنطاكية أو إمارة طرابلس أو أراضي مملكة بيت المقدس ليحقق تخفيف الضغط عن جيشه في مصر من جهة، ويحقق انتصارات ومكاسب في موقف يعتبر العدو فيه ضعيفاً من جهة أخرى، ففي عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م وبينما كان جيش مملكة القدس والجيش المصري يحاصران جيش نور الدين في بلبيس، توجه نور الدين بالقوات التي تجمعت لديه من الموصل والجزيرة إلى مدينة حارم وحاصرها فتجمعت جيوش الفرنجة من أنطاكية وطرابلس بالإضافة إلى الحامية البيزنطية في أنطاكية لإنقاذها، وهذا ما كان يخطط له نور الدين فسحق هذه الجيوش وأسر

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٢٠٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣.

جميع الأمراء المشاركين واحتل حارم ثم استثمر الفوز وتوجه إلى بانياس التي تتبع مملكة بيت المقدس وحاصرها واحتلّها، فاضطر ملك القدس لرفع الحصار عن جيش نور الدين في بلبيس والإسراع بالعودة إلى مملكته، وكان هذا أيضاً ما خطط له نور الدين وقد حققه بهجوم مفاجئ وسريع على مكان ضعيف وبعيد عن بلبيس حيث يوجد جيش مملكة القدس، وكرر نور الدين هذه الاستراتيجية عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م، عندما حاصر الفرنجة والبيزنطيون مدينة دمياط في مصر، ونجح في المرتين الأخيرتين كما نجح في المرة الأولى في تحقيق انتصارات باهرة في الشمال وإنقاذ جيشه المحاصر في مصر [١].

ي- الجاهزية القتالية: كان نور الدين القدوة الحسنة في تطبيق هذا المبدأ فقد كان كما قيل: أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيًا وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك [٢]، وكان يتفقد جنوده باستمرار ويطمئن على أحوالهم ويتفقد سلاحهم ودوابهم ويقول في هذا المجال: نحن كل وقت بصدد النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعُدد دخل الوهن على الإسلام [٣]. وعلق ابن الأثير على كلام نور الدين بقوله: لقد صدق ﷺ فيما قال وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ماخافه علينا [٤]. وقد طبق نور الدين جميع مبادئ الحرب التي لم يرد ذكرها أعلاها كالإدارة والاقتصاد بالجهد، والبساطة والأمن والمعنويات، وقد ورد كثير من هذه المبادئ في ذكر سيرته وصفاته وأدواره السياسية والإدارية [٥].

٨- الحرب النفسية عند نور الدين: ركز نور الدين على الحرب النفسية وأحسن استخدامها، فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين، ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نورالدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحددة هي: دين واحد هو الإسلام السني، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجة من كل صوب، هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة [٦]. وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبث هذه المبادئ بين صفوف الأمة، فيتألف من العلماء والعبّاد والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب تدور كلها حول

---

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٣.
(٢) الباهر ص ١٦٩، دور نور الدين محمود ص ٢٠٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٤.
(٤) الباهر ص ١٦٩.
(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٤.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٠٤.

مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقراءتها في المساجد والأسواق واللقاءات في مختلف المناسبات، وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتزم قولاً وفعلاً بالمبادئ، وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة [(١)]، وقد أسفرت الحرب النفسية المذكورة عن نتائج إيجابية كبيرة، فقد تحولت اتجاهات الرأي العام الإسلامي نحو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة واكتسب نور الدين ثقة المسلمين ومحبتهم وتعاطفهم، مما كان له أكبر الأثر في الضغط على باقي الحكام والأمراء للاستجابة لدعوته للجهاد والانضواء تحت لوائه [(٢)]. أما الحرب النفسية الموجهة للفرنجة (العدو) فقد كان مضمونها أن المسلمين بقيادة نور الدين لن يتوقفوا عن الجهاد حتى يحرروا بلادهم ومقدساتهم المحتلة، وأن الإسلام يأمر بالعدل والمساواة والإحسان إلى الأسرى ويحرِّم الظلم والعدوان، وأن من يعتنق الإسلام يكتسب من الحقوق ما للمسلمين، فكان لهذه الأفكار وما عرف عن نور الدين من ورع وعدل والتزام بالعهود والمواثيق وما تحقق له من انتصارات، أثر عميق في نفوس قادة الفرنجة وأفرادهم فصاروا يرهبونه ويحترمونه في الوقت نفسه، وكانوا يعتقدون أن له سراً مع الله، فإذا طلب منه طلباً استجاب الله لطلبه [(٣)].

٩- الإنجازات العسكرية:

كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغيَّر الموقف العسكري فأصبح راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفوق العسكري الإسلامي على الفرنجة واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين الذي حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثَّلت بشكل عام من ناحيتين:

الأولى: إلحاق هزائم منكرة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة.

الثانية: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعَّالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية المحتملة ومن خلال الناحية الأولى تحققت الإنجازات التالية:

- تحرير الكثير من المدن والمواقع والحصون الإسلامية من الاحتلال الفرنجي.

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٥. (٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٥.

- تغيير الموقف العسكري في المنطقة لصالح المسلمين والإثخان في الصليبيين وقتل عشرات الآلاف من رجالهم وأسر أكثر من ذلك وانهيار معنوياتهم.

- بث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة ورفع معنوياتهم وتوحيد جهودهم وتوجيهها نحو تحرير الأرض والمقدسات.

- الإسراع في تحقيق الوحدة السياسية لبلاد الشام وشمال العراق ومصر وشبه جزيرة العرب.

- توفير الأمن والاستقرار، مما هيأ الظروف المناسبة لتحقيق المنجزات الإدارية التي قامت على أساسها نهضة الأمة [1].

١٠- التشابه في الأسباب بين الغزو الفرنجي والصهيوني: قد تحدثت فيما مضى عن أسباب الحرب الصليبية من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية في كتابي عن دولة السلاجقة، وهذه الأسباب تتشابه مع أسباب الاحتلال الصهيوني، فمثلما أفرزت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أسباب الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، أفرزت الأوضاع نفسها في المنطقة ذاتها أسباب الغزو الصهيوني للمشرق الإسلامي نفسه في بداية القرن العشرين، ومثلما استخدم الغزو الفرنجي الدين لإثارة حماس الشعوب الأوروبية ودفعها للغزو استخدم الغزو الصهيوني بلباس الدين باعتبار فلسطين -التي تشكل قلب المشرق الإسلامي- الأرض المباركة التي منحها الرب ملكاً لبني إسرائيل قبل ألفين وخمسمائة عام وأنها كانت موطنهم في ذلك التاريخ، مما يجعل لهم فيها حقاً تاريخياً [2]. ومع السبب الديني المحرك للجانب العقائدي، هناك أسباب سياسية واقتصادية، واجتماعية، فقد كانت الأسباب السياسية من وجهة نظر الصهيونية إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، كمقدمة لإقامة دولة إسرائيل الكبرى، في معظم مناطق المشرق الإسلامي وذلك كله مرحلة أولى يتبعها السعي للسيطرة على العالم في المرحلة اللاحقة، أما من وجهة نظر شركاء الصهيونية في الغزو: بريطانيا وفرنسا وأمريكا وغيرها فكانت دوافعهم السياسية هي السيطرة على منطقة المشرق العربي الإسلامي بالتفاهم فيما بينهم، وإقامة دول تتبعهم وتسهل مواصلاتهم مع مستعمراتهم الأخرى في جنوب شرق آسيا [3]، وتمثلت الأسباب الاقتصادية للغزو الصهيوني الأوروبي المشترك بالسيطرة على موارد البلاد الاقتصادية واستغلالها لإدامة صناعاتها وجعل البلاد سوقاً لاستهلاك منتجاتها الصناعية. وأما

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٦.
(٢) حقائق قضية فلسطين ص ١٢٠ – ١٢١، إسرائيل الكبرى ص ٢٠ ، ٢١.
(٣) المقصود الهند وفيتنام وكمبوديا ولاوس.

الأسباب الاجتماعية فقد تمثّلت في خلاص اليهود المقيمين في أوروبا من حياة البؤس والشقاء والعزلة التي كانوا يحيونها بسبب تمسّكهم بمعتقداتهم العنصرية وأساليبهم الاحتكارية التي كرهت الشعوب الأوروبية فيهم وجعلت الدول الأوروبية تسعى للخلاص منهم [1].

١١- التشابه في الأهداف بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني: كانت أهداف الغزو الفرنجي واضحة محددة، فالهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار [2]. كان هذا الهدف مشتركاً عاماً بين جميع أطراف الغزو: المؤسسة البابوية والقادة والأمراء من الفرنجة والنورمان، أما الأهداف الأخرى الفرعية فهي:

أولاً: استغلال ثروات الشرق وتحقيق مغانم ومكاسب اقتصادية من التجارة والحروب وهذا هدف عام مشترك أيضاً لأطراف الغزو جميعهم شاملاً تجار أوروبا المشهورين في المدن الإيطالية، البندقية، جنوا وبيزا [3].

ثانياً: تحقيق سيادة المؤسسة البابوية على العالم المسيحي، وتفوق مركزها على مركز الامبراطورية في أوروبا وإقامة كنيسة كاثوليكية في الشرق تتبع كنيسة روما، وتقضي على نفوذ كنيسة القسطنطينية وهذه أهداف خاصة بالمؤسسة البابوية [4].

ثالثاً: الاستجابة لطلب امبراطور بيزنطة ومساعدته في استعادة الأراضي التي احتلها المسلمون الأتراك في الأناضول، ويمكن اعتبار هذا الهدف عاماً للجميع.

من جهة أخرى كانت أهداف الغزو الصهيوني واضحة ومحددة أيضاً، بالرغم من إبقائها طي الكتمان فترة من الزمن لتضليل العرب وخداعهم وكسب مساعداتهم للحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وعندما تكشفت هذه الأهداف بعد الحرب كانت كما يلي: الهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار، كان هذا الهدف مشتركاً بين جميع أطراف الغزو الصهيونية العالمية، بريطانيا، فرنسا. أما الأهداف الأخرى فهي: إقامة دولة إسرائيل في فلسطين وتهجير اليهود المقيمين في أوروبا والذين سيهاجرون إلى دولتهم الجديدة في فلسطين، والجانب الثاني هو خلق دولة غريبة في قلب المشرق العربي الإسلامي، بل في قلب العالم العربي كله، تكون أداة يستغلها البريطانيون وحلفاؤهم من دول الغرب لمنع قيام الوحدة الإسلامية الكبرى، وإغراق المنطقة كلّها في حروب مستمرة تستنزف طاقاتها، وتسهل السيطرة الغربية عليها

(١) دولة اليهود ص ٣٠، ٣١، ٤٠.
(٢) الحروب الصليبية. سهل زكار نقلاً عن دور نور الدين ص ٢٢١.
(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص٢٢١.
(٤) الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية ص ٨٢، ٨٣.

لاستغلال مواردها، علماً بأن الصهيونية كانت وما زالت تعتبر إقامة دولة إسرائيل في فلسطين مرحلة أولى لتتوسَّع في المراحل اللاحقة وتشمل أغلب منطقة المشرق العربي الإسلامي، وقد احتفظت بهذا الهدف لنفسها دون شركائها في الغزو [(١)] قال الجنرال اللنبي قائد القوات البريطانية في فلسطين بعد احتلال القدس عام ١٩١٧م: الآن انتهت الحروب الصليبية[(٢)]، وقال الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية التي احتلت لبنان وسوريا عام ١٩٢٠م بعد احتلال دمشق: ها قد عدنا يا صلاح الدين [(٣)]، ويظهر من كلام القائدين المذكورين أن فكرة غزو المشرق العربي الإسلامي لم تبارح أذهان الأوروبيين وخاصة البريطانيين والفرنسيين منذ الحروب الفرنجية، في العصور الوسطى وأن بريطانيا وفرنسا تعتبران احتلالهما للمشرق الإسلامي خلال الحرب العالمية الأولى امتداداً للحروب الفرنجية، ومن الجدير بالذكر أن الفرنجة أطلقوا على مملكة بيت المقدس اسم: فرنسا ما وراء البحار، باعتبارها امتدادًا للوطن الفرنسي الأم [(٤)]. علماً بأن أغلب جيوش الحملة الفرنجية الأولى خرجت من فرنسا، ولا ننسى أن الفرنسيين أطلقوا على مستعمراتهم في الجزائر، والشرق اسم فرنسا ما وراء البحار [(٥)]، ولابد أن الصهيونية العالمية وبريطانيا وفرنسا استلهمت الكثير من تاريخ الصليبية وأحداثها في تخطيط المشروع الإسرائيلي وتنفيذه.

١٢- التشابه في الأساليب بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني: أقام الفرنجة إماراتهم في المناطق التي احتلّوها بالقوة العسكرية في بلاد الشام وإمارة الرها في أعالي الفرات، وقاموا بتوسيع إماراتهم على حساب الإمارات الإسلامية المجاورة بفعل العسكرية، وكذلك فعل اليهود الصهاينة، فقد هيأت لهم شريكتهم بريطانيا الظروف المناسبة في فلسطين لبناء قوتهم العسكرية التي مكنتهم من احتلال الأرض وتأسيس دولتهم عام ١٩٤٨م، ثم استمروا ببناء قوتهم العسكرية المتفوقة حتى تمكنوا من توسيع رقعة دولتهم على حساب الدول العربية المجاورة عام ١٩٦٧م، ولا يزالون حتى الوقت الحاضر حريصين على تحقيق التفوق العسكري في المنطقة لأنهم يعلمون علم اليقين أن تغيير موازين القوى لصالح الدول العربية يعني زوال دولتهم من الوجود تماماً كما حصل مع الفرنجة الذين قامت إمارتهم بفعل القوة العسكرية، فلما تغيرت موازين القوة لصالح المسلمين زالت إماراتهم من الوجود، ولذلك تبذل إسرائيل كل جهودها وتسعى الصهيونية العالمية بكل طاقاتها من خلال نفوذها في الدول العظمى، لحرمان الدولة الإسلامية من امتلاك الأسلحة المتطورة أو بناء قوة عسكرية متفوقة يمكن أن تشكل خطراً على إسرائيل، فإذا ما ظهرت قوة إسلامية يمكن أن تشكل خطراً عليها بادرت إسرائيل بشن الحرب لتدمير هذه القوة

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.
(٢) أبعاد في المواجهة العربية الإسرائيلية ص ٢٨٠.
(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.
(٤) الحروب الصليبية، د. قاسم عبده ص ٧.
(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.

قبل اكتمال بنائها، حصل ذلك في حرب عام ١٩٥٦م وفي حرب ١٩٦٧م، وفي قصف المفاعل النووي العراقي [(١)] عام ١٩٨١م، وإذا لم تستطع تدمير هذه القوة العربية بنفسها سخرت القوى العظمى لتحقيق ذلك، كما حصل في حرب الخليج بداية التسعينيات عندما شجعت الصهيونية العالمية الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب الأخرى على شن الحرب ضد العراق وتدمير قوته العسكرية المتنامية التي كانت في نظرهم تشكل خطراً كبيراً على إسرائيل [(٢)]، ويحتل مبدأ استخدام القوة العسكرية المتفوقة المقام الأول في الاستراتيجية الوطنية الإسرائيلية، وضع هذا المبدأ أحد روّاد الحركة الصهيونية المشهورين، اسمه آشر غتربرغ وأطلق على فكرته التي تحولت مع الوقت إلى عقيدة راسخة في الذهنية الصهيونية اسم (التجمع والاقتحام)، ويقول بأنه استلهمها من تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام وانقضاء فترة التيه في صحراء سيناء، فقد تشبعوا بروح الاقتحام والفتك التي مكنتهم من احتلال فلسطين [(٣)].

وكان جابوتنسكي أول من طبق عقيدة التجمع والاقتحام في فلسطين عام ١٩٢٠م باستخدامه الأسلحة النارية في أول صدام بين العرب واليهود في القدس وهو أول من دعا إلى تشكيل المنظمات الإرهابية اليهودية التي ارتكبت أبشع المجازر بحق العرب في القرى والمدن الفلسطينية ثم تحولت تلك المنظمات بعد قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨م إلى الجيش الإسرائيلي، يقول مناحم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، الذي كان عضواً في عصابة أرغون الإرهابية وتلميذاً لجابوتنسكي: إن المبدأ الرئيسي لكل إسرائيل يجب أن يكون: أنا أحارب فأنا موجود [(٤)]. ويقول ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل: سوف نواجه العرب بالقوة، إن النتيجة الوحيدة المتوقعة لهذا الصراع هي النتيجة التي تفرضها القوة. ويقول مائير كهانا أشهر المتطرفين اليهود وكان عضواً في الكنيست الإسرائيلي: حدود إسرائيل هي حيث يقف الجنود الإسرائيليون [(٥)].

وقد تشابهت أساليب الغزو الصهيوني مع أساليب الغزو الفرنجي في مجالات من أهمها:

أ- الاعتماد على المساعدة الخارجية: اعتمدت الإمارات الفرنجية في المشرق العربي الإسلامي في توسعها واستمرارها على الدول الأوروبية وخاصة فرنسا التي كانت تعتبر الدولة الأم لتلك الإمارات. كانت هذه المساعدة تشمل المال والسلاح والرجال وكانت تأتي في بعض الأحيان على شكل جيوش متكاملة بقيادة ملوك وأباطرة أوروبا، عندما تواجه الإمارات الفرنجية خطراً، كما حصل بعد تحرير مدينة الرها، عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢، ٢٢٣.
(٣) حرب الخليج وأثرها على العالم الإسلامي ص ٦.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٤.

١١٤٥م [١]. وأما اليهود الصهاينة فقد وضعوا في خططهم منذ البداية استغلال قوة ونفوذ الدول العظمى في تحقيق أهدافهم [٢]، وها نحن نرى الدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل.

ب- الهجرة والاستيطان: استقرّت جيوش الحملة الأولى الصليبية في المناطق التي احتلتها من بلاد الشام وأقامت فيها الإمارات الفرنجية المعروفة، بعد ذلك تدفق المهاجرون من أوروبا إلى تلك الإمارات بأعداد كبيرة، ومع أن بعضهم كان يأتي لغرض الحج إلى القدس ويعود بعد إكمال الزيارة إلا أن غالبيتهم كانوا يأتون بقصد الإقامة والاستيطان، كانت هذه الهجرة متواصلة وبأعداد كبير زادت في بعض الحالات عن أعداد بعض الحملات المنظمة التي عرفت بأرقام متسلسلة [٣]. ساعدت هذه الهجرة على زيادة قوة الإمارة الفرنجية، وتوسّعها وصمودها في وجه القوة العربية الإسلامية التي كانت تحاول القضاء عليها [٤]، على الجانب الآخر كانت هجرة اليهود إلى فلسطين تشكل الركن الأساسي في المشروع الصهيوني لإقامة دولة اليهود فيها، وحظي موضوع الهجرة من حيث الدعاية لها وتنظيمها وتنفيذها بالقسط الأوفر من اهتمام المفكرين الصهاينة الأوائل، ومن أهمهم تيودور هرتزل أول زعيم للصهيونية العالمية الذي وضع فصلاً خاصاً في كتابه المشهور «دولة اليهود» عن الهجرة وأهميتها وتنظيمها وباب الهجرة مفتوح على مصراعيه بعد قيام دولة اليهود [٥] إلى يومنا هذا.

ج- تضليل الرأي العام وخداعه: قامت المؤسسة البابوية التي خططت للحروب الفرنجية وأشرفت على تنفيذها بتضليل الرأي العام الأوروبي من خلال الدعاية الكاذبة التي كانت تسبق كل حملة، فقد افتتح البابا أوربان الثاني الحملة الدعائية الكبيرة للحرب الفرنجية في خطابه المشهور عام ١٠٩٥م في مجمع كليرمونت، وادّعى فيه أن المسيحيين في المشرق الإسلامي يتعرضون للاضطهاد والتعذيب والقتل، وأن بيوتهم وكنائسهم تحرق وتُهدم وأن المسلمين، البرابرة المتوحشين، استولوا على مدينة القدس ومنعوا المسيحيين المؤمنين من زيارة قبر السيد المسيح فيها، ولذلك يوجب على مسيحيي أوروبا نجدة إخوانهم مسيحيي الشرق وتخليصهم من الاضطهاد والتعذيب والقتل، وتحرير قبر المسيح من سيطرة البرابرة المسلمين [٦]، انتشرت هذه الدعاية الكاذبة المضللة في أوروبا على يد رجال الكنيسة وكان لها أثر كثير في إثارة الحماس الديني لدى الأوروبيين، فتجمعت حشودهم وتوجهت تحت راية الصليب لحرب المسلمين، وبنفس الأسلوب جرت الدعاية الصهيونية المضللة قبل الغزو

(١) دور نور الدين محمود ص ٢٢٤.
(٢) (٣) (٤) المصدر نفسه ص ٢٢٥.
(٥) (٦) المصدر نفسه ص ٢٢٦.

الصهيوني للمشرق الإسلامي، فقد قامت وسائل الإعلام الأوروبية الخاضعة لسيطرة الصهيونية العالمية بتصوير المسلمين على أنهم بدو رحّل يعيشون في الصحراء مع مواشيهم، وأن اليهود سيهاجرون إلى تلك البلاد التي تعتبر موطنهم الأصلي لاستصلاح الأراضي وزراعتها وتعميرها ولبناء معبدهم القديم في القدس «هيكل سليمان»[1]. وكانت الدعاية الصهيونية تركز على أوضاع اليهود في مختلف دول العالم باعتبارهم مضطهدين محرومين من أدنى الحقوق الإنسانية وأن من حقهم ان يعودوا إلى أرض آبائهم «فلسطين» ليقيموا لهم فيها وطناً قومياً كباقي شعوب الأرض[2].

د- الإرهاب والعنف: ارتكب الفرنجة مجازر بشعة بحق المسلمين في المدن والقرى التي استولوا عليها، وشكّلوا فرقاً عسكرية خاصة من خبرة فرسانهم، وكان تقوم بشن الغارات على المدن والقرى الإسلامية وتقوم بأعمال القتل والسلب والتخريب، وتشيع الخوف والرعب بين السكان، فكانوا لا يتورّعون عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، حتى إنهم تعرضوا لقوافل الحجاج بالقتل والنهب[3].

وقد تبنى الصهاينة الأسلوب نفسه في غزوهم لفلسطين، فشكّلوا منذ العشرينات، قبل قيام دولتهم، عصابات إرهابية كانت مهمتها اقتحام القرى الآمنة، وإبادة سكانها من الرجال والنساء والأطفال بصورة همجية بشعة لإثارة الرعب والهلع بين السكان المسلمين وإجبارهم على مغادرة مدنهم وقراهم وأرضهم والهجرة إلى خارج فلسطين[4]، واندمجت العصابات الإرهابية اليهودية بعد قيام دولة إسرائيل لتشكيل الجيش الإسرائيلي، الذي تولى مهمة تنفيذ العمليات الإرهابية ضد السكان المسلمين، وأصبحت هذه العمليات سياسة رسمية لإسرائيل، تنفذها وحدات من الجيش الإسرائيلي الذي أطلق عليه قادة إسرائيل اسم «جيش الدفاع» زوراً وتضليلاً، بينما هو في الحقيقة أكثر جيوش الأرض عدواناً[5]، ولم تقتصر عمليات الإرهاب والقتل والاغتيال على السكان المسلمين في فلسطين بل تعدت إلى الدول المجاورة وحتى البعيدة، فقد قامت القوات الخاصة الإسرائيلية بتنفيذ عمليات اغتيال لقادة المقاومة الفلسطينية في الأردن ولبنان وتونس وجرت محاولات اغتيال لقادة المقاومة الفلسطينية في مختلف الدول العربية والأجنبية[6].

***

(١) دولة اليهود ص ٤٩.
(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٧.
(٥) (٦) المصدر نفسه ص ٢٢٨.

المبحث الخامس

فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية

أولاً: جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين ممن نسبوا أنفسهم إلى جعفر الصادق: فرقة ساقت الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثنا عشرية. وفرقة نفت عنه الإمامة وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية [1]. قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل [2]. وقال الشهرستاني: الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثني عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر قالوا: ولم يتزوج الصادق رحمه الله على أمه - أم إسماعيل - بواحدة من النساء ولا تسرَّى بجارية كسنة رسول الله في حق خديجة رضي الله عنها، وكسنة علي ﷺ في حق فاطمة رضي الله عنها [3].

فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب الإسماعيلية منها الباطنية، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل، ومنهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية الملحدة، وهم لايحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم[4]. وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م في الشمال الأفريقي على يدي أبو عبدالله الشيعي بعد سقوط القيروان أمام قواته وهروب زياد التغلبي إلى مصر في جمادى الآخرة عام ٢٩٦هـ[5]، وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام ٢٩٧هـ/ ٩١٠م وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين [6].

١- عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول: هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغوون الجبليَّة والجهلة [7]، وذكر الذهبي ما قيل عنه في نسبه ثم

---

(١) الدولة الفاطمية العبيدية للصلاّبي ص ٣٥.
(٢) الفرق بين الفرق ص ٦٢.
(٣) الملل والنحل (١/ ١٩١).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١٩٢).
(٥) موسوعة المغرب العربي (٢/ ٦٠).
(٦) المرجع السابق (٢/ ٧٠).
(٧) سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٤١).

قال: والمحققون على أنه دعيٌّ بحيث إنَّ المعزَّ منهم لما سأله السيد ابن طَبَاطَبا عن نسبه، قال: غدا أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرَمة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْف سيفه من غمده فقال: هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: هذا حسبي[1]. وأما مفتي الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة ٢٦٠هـ واختبأ في بلدة سلمية بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلميَّة كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن ميمون القداح، وفي منطقة سَلَمية مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي [2]، ثم قال: هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه [3]. ويذكر أن عبيد الله الشيعي عندما دخل إفريقية «يعني تونس» أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبيﷺ وأزواجه إلا علي بن أبي طالب والمقداد وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبيﷺ ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين ذكروا [4]. وكان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة [5] تجري عليهم في كثير من الأيام محن شديدة، ولما ظهر بنو عبيد أمرهم ونصبوا حسيناً الأعمى السباب في الأسواق للسب بأسجاع لُقِّنها يتوصل منها إلى سب الرسولﷺ في ألفاظ حفظها [6] مثل؛ العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى وغير ذلك والغار المقصود منه غار ثور الذي اختفى فيه الرسولﷺ وأبو بكر ﷺ عن أعين المشركين التي كانت تطاردهم في قصة الهجرة، وهذا اللفظ فيه سب للنبيﷺ وأبي بكر على حد سواء وكذلك فيه سب لآل البيت الذين حواهم الكساء [7]. وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة مكتوب عليها أسماء الصحابة، واشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل ومثّل به [8].

٢- من جرائم العبيديين في الشمال الأفريقي: ارتكب الشيعة الرافضة الإسماعيلية

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٤٢). (٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢٥٣.
(٣) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص ٤٧.
(٤) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٢٩١.
(٥) ترتيب المدارك (٢/ ٣١٨).
(٦) (٧) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٢٩١.
(٨) الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

جرائم منكرة منها:

أ- غلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي: حتى أنه أنزله منزلة الإله وأنه يعلم الغيب، وأنه نبي مرسل، يقول بدر الدين بن قاضي شهبة: وكان له (أي المهدي) دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه، وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم، فمنهم من يلقون إليه أن المهدي ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق[1]، وأما زعمهم بأنه إله فيظهر من أفعال دعاته وأقوالهم وأشعارهم، فقد كان هناك رجل يدعى أحمد البلوي النحاس: يصلي إلى رقادة أيام كان عبيد الله بها، وهي منه إلى المغرب، فلما انتقل إلى المهدية وهي منه إلى الشرق صلى إليها [2] باعتبار أنها مكة المكرمة - شرفها الله - وهذا الاعتقاد كان سائداً عند كثير من الناس يومها، فهذا أحد شعراء بني عبيد يقول في المهدية بعد انتقال المهدي إليها:

ليهنك أيها الملك الهمام . قدوم فيه للدهر ابتسام
لقد عظمت بأرض الغرب دار بها الصلوات تقبل والصيام
هي المهدية الحرم الموقى كما بتهامة البلد الحرام
كأن مقام إبراهيم فيه ترى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى لنا بعراص قصركم التثام
لك الدنيا وسلك حيث كنتم فكلكم لها أبداً إمام [3]

ومن الشعر أيضاً في تأليهه ما مدحه به محمد البديل حيث يقول:

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح

وأما زعمهم أنه كان يعلم الغيب، فيظهر من إيمان بعضهم حيث كان إذا أقسم يقول: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة [4]. ومعرفة الغيب من خصوصيات الألوهية ولا يعلم الغيب إلا الله، قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل: ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي

(١) البيان المغرب (١/ ٢٥٨ - ٢٥٩).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٢٩).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٢١).
(٤) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص ٩٠.

كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت . وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء(1).

ب- التسلط والجور: وإعدام كل من يخالف مذهبهم، هذا بالإضافة إلى ما ذكره القاضي عياض في طعنهم في الصحابة وتعليق رؤوس الأكباش الدالة في زعمهم على أسماء الصحابة وغير ذلك من الأفعال القبيحة والشنيعة التي كانوا يقومون(2) بها، وكان إجبار الناس على الدخول في مذهبهم بوسيلة التخويف بالقتل وقد نفذوا حكم الإعدام في أربعة آلاف رجل مرّة واحدة. قال القابسي: إن الذين ماتوا في دار البحر - سجن العبيديين - بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح (3). هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية، ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهالي المغرب الإسلامي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بالكتاب والسنة.

ج- تحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك: حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: هذا جزاء من يذهب مذهب مالك، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزئي: أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد المتوفي في عام تسع وعشرين وثلاثمائة (4).

د- إبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة: والزيادة في بعضها كما فعلوا في زيادة «حي على خير العمل» في الأذان وإسقاط صلاة التراويح(5)، بعد أن تُرك الناس يصلونها عاماً واحداً، ولهذا ترك أكثر الناس الصَلاة في المساجد، ويا ويح من يسقط عبارة: حي على خير العمل من الأذان، من ذلك ماروي أن عروسى المؤذن (ت ٣١٧هـ) وكان مؤذناً في أحد المساجد، شهد عليه بعض الشيعة أنه لم يقل في أذانه حي على خير العمل، فكان جزاؤه أن قطع لسانه ووضع بين عينيه وطيف به في القيروان ثم قتل (6)، إلا أن بعض العلماء فطن

(1) جهود علماء المغرب ص ٣١٢.
(2) مدرسة الحديث بالقيروان (١/ ٧٦).
(3) رياض النفوس (٢/ ٥٦).
(4) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٠٩.
(5) البيان المغرب (١/ ١٨٢ - ١٨٣).
(6) ترتيب المدارك (٢/ ٥٢٥ - ٥٢٨).

لكيد العبيديين وأغراضهم الخبيثة من وراء ذلك وهو إخلاء المساجد من المصلين، ودفعاً لهذه المفسدة أذنوا للمؤذنين أن يزيدوا حي على خير العمل لأن تركها يؤدي إلى مفاسد أعظم، ومن هؤلاء العلماء: أبو الحسن علي بن محمد بن مسرور العبدي الدباغ (ت ٣٥٩هـ) [١]، الذي كان من أهل الورع والعبادة والخشوع، فقد فطن لغرض العبيديين، فكانوا أن قال للمؤذنين: أذنوا على السنة في أنفسكم فإذا فرغتم فقولوا: حي على خير العمل، فإنما أراد بنو عبيد إخلاء المساجد، لَفِعلُكم هذا - وأنتم معذورون - خير من إخلاء المساجد [٢].

هـ- منع التجمعات: حرصت الدولة الفاطمية الرافضية على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم، ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وجُد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء[٣]، وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

و- إتلاف مصنفات أهل السنة: أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التُّجيبي (ت ٣٤٦هـ) توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه [٤].

ز- منع علماء أهل السنة من التدريس: منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد، فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر ابن اللباد شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد [٥]. وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليًّا، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

ح- عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمّن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فرواً مقلوباً دابا على يديه ورجليه فيقول لهم: (بح) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٥٢٦).
(٢) رياض النفوس (٢/ ٢٩).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٣).
(٤) مدرسة الحديث بالقيروان (١/ ٧٦).
(٥) رياض النفوس (٢/ ٥٠٤).

أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، ولا وضوء ولا صلاة، ولازكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوبًا فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم بَح، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر [1].

ط- إجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال: وكانوا كثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال [2]، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه ابن الحُبلى قاضي مدينة برقة، قال الذهبي في ترجمته: الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحُبلى أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلَّد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور – وكان هذا من رأي العبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية – فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد، فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلى، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تنصَّلْ، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فعُلق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسْقَ، ثم صلبوه على خشبة فلعنة الله على الظالمين.[3]

ى- إزالة آثار خلفاء السنة: عمل حكّام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين، فقد أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد وجعل اسمه بديلاً منهم واستولى هذا الشيعي الرافضي الباطني على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العُبَّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح [4].

ك- دخول خيولهم المساجد: من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أوراثها وأبوالها طاهرة؛ لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك [5].

إن المسلمين المعاصرين يقرءون تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن القليل من يذكر بطش هؤلاء الباطنية بالعلماء

---

(1) مدرسة القيروان (1/ 73).
(2) سير أعلام النبلاء (15/ 374).
(3) رياض النفوس (2/ 29).
(4) أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده ص 39.
(5) مقدمة حسين مؤنس على رياض النفوس ص 17.

من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون المعز لدين الله الفاطمي وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن بعض المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق، أو بالفكر الشيعي الرافضي، وبذله لهم الأموال لطمس الحقائق وتزوير التاريخ، ولا زال الصراع الباطني والإسلامي ممتداً إلى يومنا هذا، فالأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح، وأن أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة الصحيحة التي تلقتها الأمة من الحبيب المصطفى وأصحابه الغر الميامين وأهل بيته الطاهرين الطيبين رضي الله عنهم أجمعين.

٣- أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية: لقد سلك علماء السنة المغاربة في مقاومة التشيع أساليب عديدة، منها المقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية، والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة، عن طريق التأليف وعن طريق نظم الشعر.. إلخ.

أ- المقاومة السلبية: أولى الوسائل التي استعملها علماء المغرب السنة التي قاطع بها علماء المغرب كل ما له صلة بالتشيع، أو بالحكم القائم، وتمثلت تلك المقاطعة في مقاطعة قضاة الدولة وعمالها، ورفض من استطاع منهم دفع الضرائب لها[1]، ومن مظاهر هذه المقاومة مقاطعة حضور صلاة الجمعة التي كانت مناسبة للعن أصحاب رسول الله على المنابر، فتعطلت بذلك الجمعة دهراً بالقيروان [2]، ومنهم من اكتفى بالدعاء عليهم كما فعل الواعظ عبد الصمد [3]، وكما كان يفعل أبو إسحاق السبائي الزاهد إذا رقى رقية يقول بعد قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وببغضي في عبيد الله وذريته، وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته اشف كل من رقيته [4]. ومن مظاهر المقاومة السلبية أيضاً: مقاطعة كل من يسير في ركب السلطان واعتزاله، وكل من كانت له صلة بهذا السلطان أو سعى إلى تبرير وجوده عملاً بقوله تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فهذا خلف بن أبي القاسم البراذعي (ت نحو ٤٠٠هـ) [5] قام عليه فقهاء القيروان لصلته بملوك بني عبيد وقبوله هداياهم وتأليفه كتاباً في تصحيح نسبهم، وزادت النقمة عليه عندما وجدوا بخطه الثناء على

---

(١) البيان المغرب (١/ ٢٧٧). (٢) معالم الإيمان (٣/ ٢٣٧).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٧١).
(٤) (٥) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٤.

بني عبيد متمثلاً ببيت [1] الحطيئة:

أولئـك قـوم إن بنـوا أحسـنوا البنـا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقـدوا شـدوا

لذلك كله أفتى فقهاء القيروان بطرح كتبه وعدم قراءتها وإزاء ذلك اضطر هو إلى الهجرة إلى صقلية حيث حصلت له حظوة كبيرة عند أميرها [2].

ب- المقاومة الجدلية: كانت المقاومة الجدلية هي أقوى وأوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة المغاربة ضد الشيعة الرافضة المنحرفين، وقد سطع في سماء هذه المساجلات العلمية والمناظرات العقدية عدد كبير من العلماء، وكانوا لسان أهل السنة الناطق والذاب عن بيضة هذا الدين، وممن لمع نجمه في ميدان المناظرة لبني عبيد العالم ابن تبان حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة وكان هذا الإمام - فضلاً عن براعته في الجدل والمناورة- شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، من ذلك ما ذكره المالكي والدباغ من أن عبد الله المعروف بالمحتال [3] صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا بدار ابن أبي زيد القيرواني فقال لهم ابن تبان: أنا أمضي إليه، أبيع روحي لله دونكم، لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم [4]. وفعلاً ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلوا أن يعرضوا عليه أن يدخل في نحلتهم ولكنه أبى وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا؟ لو نشرتموني في اثنتين ما تركت مذهبي[5]، ولما خرج من عندهم بعد يأسهم منه تبعه أعوان الدولة الفاطمية العبيدية وسيوفهم مصلتة عليه ليخاف من يراه من الناس على تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدي الناس ويقدم لهم النصيحة، ويقول لهم دون خوف ولا وجل: تشبثوا، ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام، فإن فارقتموه هلكتم [6]. وكان يخشى على العامّة من فتنة بني عبيد ويقول: والله ما أخشى عليهم الذنوب، لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار [7].

وممن اشتهروا بالذب عن الإسلام وأشهروا حجج الحق وبراهين العدل وإقامة الحجة على دعاة الدولة الفاطمية أبو عثمان سعيد بن الحدادت ٣٠٢) لسان أهل السنة وابن حنبل

(١) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٤.
(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٥١٧ - ٥٢٤)، شجرة النور الزنكية (١/ ٩٥ - ٩٦).
(٣) أحد عمال دولة بني عبيد.
(٤) معالم الإيمان (٣/ ١١٣).
(٥) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٧.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٢٧.
(٧) معالم الإيمان (٣/ ٩١).

المغرب، قال عنه السلمي: كان فقيها صالحاً فصيحاً متعبداً أوحد زمانه في المناظرة والرد على الفرقة [1]. وقال عنه الخشني: كان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة وله في ذلك مقامات مشهودة وآثار محمودة ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القيروان بأحمد ابن حنبل[2]. وقال عنه المالكي: وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة المارقين أبي عبدالله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم [3]، حاولت الدولة الفاطمية بالمغرب إجبار الناس على مذهبهم بطريقة المناظرة وإقامة الحجة مرة والتهديد بالقتل مرة أخرى، فارتاع الناس من ذلك ولجأوا إلى أبي سعيد وسألوه التقية فأبى وقال: قد أربيت على التسعين، وما لي في العيش حاجة، ولا بد لي من المناظرة عن الدين أو أن أبلغ في ذلك غدراً ففعل وصدق، وكان هو المعتمد عليه بعد الله في مناظرة الشيعة [4]، ومن أشهر هذه المناظرات:

- **التفاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما:** وأولى هذه المناظرات كما يذكر صاحب المعالم حول التفاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما، فبعد الاجتماع بين ابن الحداد وأبي عبيد الله الشيعي؛ سأل أبو عبد الله الشيعي ابن الحداد: أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيرهم؟- يعني بأصحاب الكساء: محمداً ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، ويعني بغيرهم: أبا بكر ﷺ - فقال أبو عثمان: أيما أفضل؟ خمسة سادسهم جبريل عليه السلام؟ أم اثنان الله ثالثهما؟[5] فبهت الشيعي.

- **موالاة علي ﷺ:** في هذه المناظرة أراد عبيد الله الشيعي أن يثبت أن الموالاة في قوله عليه الصلاة والسلام: **من كنت مولاه فعلي مولاه** [6] بمعنى العبودية، قال له: فما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا؟ فقال ابن الحداد: لم يرد ولاية رق وإنما أراد ولاية الدين، ونزع بقوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٧٩، ٨٠] فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلى ﷺ لم يكن نبياً وإنما كان وزيراً للنبي ﷺ [7]. هذه إشارات عابرة

(١) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٨.
(٢) طبقات الخشني ص ١٩٩، معالم الإيمان (٢/ ٢٠٩).
(٣) رياض النفوس (٢/ ٧٥).
(٤) معالم الإيمان (٢/ ٢٩٨)، جهود علماء المغرب ص ٣٢٩.
(٥) سنن الترمذي ، وتحفة الأحوذي رقم ٣٧٩٧ حسن غريب.
(٦) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٣١.
(٧) معالم الإيمان (٢/ ١٨٥)، جهود علماء المغرب ص ٣٣٧.

وهي جزء صغير من مجموع المناظرات التي دارت بين الفريقين.

ج- **المقاومة المسلحة:** لم يكتف علماء المغرب بالمقاومة السلبية والمقاومة الجدلية، بل منهم من حمل السلاح وخرج ليقاتلهم، فهذا جبلة بن حمود الصدفي ترك سكن الرباط ونزل القيروان، فلما كلم في ذلك قال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك وقال: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك [1]. واستدل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] ومنهم الإمام: أبو القاسم الحسن بن مفرج (ت ٣٠٩هـ) الذي كان من أوائل من خرج على الشيعة ومات شهيداً، قتله عبيد الله المهدي وصلب هو ورجل يدعى أبا عبد الله السدري الذي كان من الصالحين وكان قد بايع على جهاد عبيد الله، وجعل يحث الناس على جهاده فبلغ خبره عبيده الله، فأمر بقتله [2]، ثم إن العلماء خطوا خطوة أكبر بإصدار فتوى بوجوب قتال الدولة الفاطمية العبيدية، وكان ذلك بعد اجتماع وتشاور بين علماء السنة وتحالفوا مع أهل القبلة ضد الفاطميين الذين حكموا عليهم بالكفر لمعتقداتهم الفاسدة. قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني: خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي - رحمه الله - مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عبيد مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول - ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد-: هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة - يريد عسكر بن عبيد - فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من «هو» على غير القبلة، فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عز وجل يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا. والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان نصروات، وأبو إسحاق السجائي وأبو الفضل وأبو سلمان ربيع ابن القطان [3]، وغيرهم كثير [4]. وفي الموعد المحدد خرج العلماء ومن ورائهم وجوه القوم وعامتهم في أعداد غفيرة لا يحصيهم عد، ولم يتخلف من العلماء والصلحاء أحد إلا العجزة، ومن ليس عليهم خرج، وكان ربيع القطان في طليعة الصفوف راكباً فرسه، وعليه آلة الحرب متقلداً مصحفه وهو يقول: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك [5]. وقد أبلى العلماء في تلك المواجهة بلاء حسناً، وقدموا صورًا حقيقية للجهاد في سبيل الله لأعداء الإسلام، واستشهد منهم ما لا يقل عن الثمانين عالماً، منهم ربيع القطان والمميس وغيرهما، وأظهروا شجاعة نادرة وتفانياً

(١) رياض النفوس (٢/ ١٦٩ - ١٧٢).
(٢) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص ٧٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٧٨.
(٤) معالم الإيمان (٣/ ٣٧ - ٤٢).
(٥) البيان المغرب (١/ ٢١٨).

لا مثيل له في قتال عدوهم، وحققوا انتصاراً باهراً وكادوا يستولون على المهدية، لولا أن ساعة الغدر حلت ورجعت الكرة عليهم، حين خدعهم أبو يزيد وأسفر عن وجهه القبيح المناوئ لأهل السنة وأمر جنده أن ينكشفوا عنهم بقوله: أعداؤكم من قتلهم لا نحن فنستريح منهم[1] وكان غرضه من تلك الفعلة الشنيعة والخدعة المنكرة الراحة منهم. لأنه فيما ظن إذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء فيتبعونه [2]، فهزم شر هزيمة حيث انضم عدد غير قليل من جنده إلى صفوف عدوه ولم يبق له من الجند إلا القليل، وقتل شر قتلة، وكانت نهايته يوم ٣٠محرم.سنة ٣٣٦هـ [3]، وقد أثرت هذه المواجهة بين السنة والشيعة على الساحة المغربية فيما بعد، حيث استمرت المقاومة فيمن جاء بعدهم حتى بعد خروج بني عبيد من المغرب، فكانوا يبحثون عن مراكز وجود الشيعة، فإذا عثروا عليهم قتلوهم وأخذوا أموالهم، فقد ذكر ابن عذارى في البيان المغرب أنه: كان بمدينة القيروان قوم يتسترون بمذهب الشيعة من شرار الأمة انصرفت العامة إليهم من فورهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً رجالاً ونساءً، وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهبت دورهم وأموالهم [4]، ويصف القاضي عياض هذه الحادثة: وكان ابتداء ذلك اليوم الجمعة منتصف المحرم، قتلت العامة الرافضة أبرج، قتل بالقيروان وحرقوهم وانتهبوا أموالهم، وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجروهم بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان وإلى سائر بلادهم فقتلوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم في إفريقية إلا من اختص [5]. وهكذا كان هذا النوع من المقاومة هو أشد الأنواع وأنكاها، طهر الله به أرض المغرب من بدعة التشيع الباطني الرافضي.

د- المقاومة عبر التأليف: وكانت المقاومة عبر التأليف من الوسائل المجدية والنافعة في مقاومة الشيعة والتي كان لها أثر طيب في إقلاقهم وقض مضاجعهم وإعلانهم الحرب على من يفعل ذلك، كما كان لها أثر في تبصير العامة بالحق وإرساء دعائم السنة وكانت هذه المؤلفات تنقسم إلى نوعين:

- المؤلفات التي تتناول مسائل العقيدة جملة وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومن بينها مسألة الإمامة عند أهل السنة وأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وشرعية خلافة الثلاثة خلافاً للشيعة الرافضة والترضي عن أصحاب رسول الله جميعاً من

(١) البيان المغرب (١/٢١٨).
(٢) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٤٤.
(٣) البيان المغرب (١/٢٦٨). (٤) ترتيب المدارك (٢/ ٦٢٥).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٥).

غير تفريق بينهم، واعتبارهم جميعاً عدولاً خلافاً للشيعة الذين يكفرونهم ويفسقونهم عدا نفر قليل منهم، فهذا النوع من التأليف كان له أثر عميق في تبصير الناس بدينهم ونشر المذهب الحق فيهم، حتى أصبحوا يعتبرون كل من خالف هذه العقيدة مخالفاً للإسلام وخارجاً عن جماعة المسلمين يجب فيه كل ما يجب في الكافر من المعاداة والقتال والمقاطعة، وغير ذلك من المعاملة، لعله يرتدع ويرجع ويتوب [1].

والنوع الثاني: المؤلفات التي ألفت للرد على الشيعة وعلى عقائدهم الباطلة: وهذا النوع من التأليف - كما سبق الحديث عنه - جاء نتيجة ظروف خاصة أوجبت على أهل السنة الرد عليهم، وتفنيد شبههم ودحض باطلهم. من هذا الصنف من المؤلفات نذكر كتابي «الإمامة» اللذين ألفهما الإمام محمد بن سحنون، وهما أعظم ما ألف في هذا الفن، يقول عيسى بن مسكين: وما ألف في هذا الفن مثلهما[2]، وكتاب الإمامة للإمام إبراهيم بن عبد الله الزبيدي، وكتاب الرد على الرافضة له أيضاً، واللذان كانا السبب في محنته وسجنه وضربه من قبل الدولة الفاطمية العبيدية، فهذا النوع كان له أثره في المقاومة [3].

هـ- مقاومة شعراء أهل السنة: إلى جانب وسيلة التأليف كانت هناك وسيلة نظم الشعر لهجو بني عبيد وذمهم، وقد برز في هذا الميدان كثير من الشعراء منهم: أبو القاسم الفزاري، فقد وصفهم ووصف سلوكهم فقال:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم	**نالوا بهم سبب النجاة عموماً**
وتمكن الشيطان من خطواتهم	**فأراهم عوج الضلال قويما**
رغبوا عن الصديق والفاروق في	**أحكامهم لا سلموا تسليما**
واستبدلوا بهما ابن الأسود نابجاً	**وأبا قدارة واللعين تميما**
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا	**عمن أصارهم الإله نجوما**
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم	**دهرية جعلوا الحديث قديما**
أم هم من الصابئين أم من عصبة	**عبدوا النجوما وأكثروا التنجيما**
أم هم زنادقة معطلة رأوا	**أن لا عذاب غداً ولا تنعيما**
أم عصبة ثنوية قد عظموا	**النورين عن ظلماتهم تعظيما**
سبحان من أبلى العباد بكفرهم	**وبشركهم حقباً وكان رحيما**

(١) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٤٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٩. (٣) المصدر نفسه ص ٣٤٩.

ومن شعره في المعز:

النـــور أنـــت وكـــل نـــور ظلمـــة ... والفـــوق أنـــت وكـــل فـــوق دون

فـــارزق عبـــادك فضـــل شـــفاعة ... وأقـــرب بهـــم زُلفـــى فأنـــت مكـــين

ومنه:

تـــدعوه منتقمـــاً عزيـــزاً قـــادراً ... غفـــاراً موبقـــة الـــذنوب صـــفوحاً

أقســـمت لـــولا أن دُعيـــت خليفـــة ... لـــدُعيت مـــن بعـــد المســـيح مســـيحاً

شـــهدت بمفخـــرك الســـموات العـــلا ... وتنـــزل القـــرآن فيـــك مـــديحاً

ومنه:

وعلمـــت مـــن مكنـــون ســـر الله مـــا ... لم يـــؤت في الملكـــوت ميكـــائيلا

لـــو كـــان آتـــى الخلـــق مـــا أوتيتـــه ... لم يخلـــق التشـــبيه والتـــأويلا

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في٣٦٢هـ وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة ٣٦٢هـ، وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة، وتأسف المعز على قتله. وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك (١)، واستمر المعز في سيره حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر، وامتد ملك المعز من سبته بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي، وبقي المعز في مصر سنتين ونصفًا وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة (٢). قال الذهبي: ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخَرِسَ فعزلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن (٣).

٥- زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا: استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر وأثروا في بعض الوزراء والأمراء الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة،

(١) الفتح العربي في ليبيا ص ٣٦٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٢.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٥/ ١١٣، ١١٤).

إلى أن قال:

وإنـــا بعـــد مـــن خـــوف وأمـــن | نحـــب إذا تشـــعبت الأمـــور
رســـول الله والصـــديق حبـــا | بـــه ترجـــى الســـعادة والبحـــور
وبعـــدهما نحـــب القـــوم طُـــرًّا | ومـــا اختلفـــوا فـــربهم غفـــور
ألا بـــأبي وخالصـــتي وأمـــي | محمـــد البشـــير لنـــا النـــذير
ســـأهدي مـــا حييـــت لـــه ثنـــاء | مـــع الركبـــان ينجـــد أو يغـــور[1]

٤- المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر: كان يتابع أحوال حكام وأمراء مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة ٣٥٥هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، التي كانت تزيد على مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقلي، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في خمسة عقود متتالية في الشمال الإفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة طلبًا من أعوانه وسعياً للقضاء على الدولة العباسية وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٨هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة ٣٦١هـ ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الإسماعيلي الباطني وبعد أن مهدت مصر للمعز الفاطمي العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر ليتولى أمرها فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين بن زيري وضم المعز إلى مصر كلا من طرابلس وسرت وبرقة وكان معه شاعره الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:

فكأنمـــا أنـــت النـــبي محمـــد | وكأنمـــا أنصـــارك الأنصـــار
مـا شئت أنـت لا مـا شـاءت الأقـدار | فـــاحكم فأنـــت الواحـــد القهـــار
هـــذا الـــذي تجـــدي شـــفاعته غـــداً | حقًّـــا وتُخمـــد إن تـــراه النـــار

(١) رياض النفوس (٢/ ٤٩٤).

ومن شعره في المعز:

النــور أنــت وكــل نــور ظلمــة ... والفــوق أنــت وكــل فــوق دون
فــارزق عبــادك فضــل شــفاعة ... وأقــرب بهــم زُلفــى فأنــت مكــين

ومنه:

تــدعوه منتقمــاً عزيــزاً قــادراً ... غفــاراً موبقــة الــذنوب صــفوحاً
أقســمت لــولا أن دُعيــت خليفــة ... لــدُعيت مــن بعــد المســيح مســيحاً
شــهدت بمفخــرك الســموات العــلا ... وتنــزل القــرآن فيــك مــديحاً

ومنه:

وعلمــت مــن مكنــون ســر الله مــا ... لم يــؤت في الملكــوت ميكــائيلا
لــو كــان آتــى الخلــق مــا أوتيتــه ... لم يخلــق التشــبيه والتــأويلا

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في٣٦٢هـ وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة ٣٦٢هـ، وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة، وتأسف المعز على قتله. وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك [(١)]، واستمر المعز في سيره حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر، وامتد ملك المعز من سبته بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي، وبقي المعز في مصر سنتين ونصفاً وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة [(٢)]. قال الذهبي: ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بنى بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخَرَسٌ فعزلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن [(٣)].

٥- زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا: استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر وأثروا في بعض الوزراء والأمراء الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة،

(١) الفتح العربي في ليبيا ص ٣٦٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٢.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٥/ ١١٣ ، ١١٤).

واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز إفريقية في ذي الحجة سنة ٤٠٦هـ وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الرافضة، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة ومبغضًا للمذهب الشيعي الباطني، واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي. وقد وصف الذهبي المعز بن باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً، وسريًا شجاعاً عالي الهمة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء. وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمادة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه [(١)]، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر وقال له: هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم [(٢)]، وتبين لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر وظهر ذلك في عام ٤٣٥هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسب أصحاب رسول الله ﷺ، فأوعز للعامة وللجنود بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه، وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله، وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز، فقد قال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

وسوف يقتلون بكل أرض … كما قتلوا بأرض القيروان

وقال آخر:

يا معز الدين عش في رفعة … وسرور واغتباط وجذل

أنت أرضيت النبي المصطفى … وعتيقاً في الملاعين السفل

وجعلت القتل فيهم سنة … بأقاصي الأرض في كل الدول [(٣)]

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٤٠).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوي ص ٢٨٩.

(٣) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوي ص ٢٨٩.

واستمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته وأعلن انضمامه للخلافة العباسية وغيَّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم، ومنع أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها ١٤٥سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة، والإباضية. وفي سنة ٤٤٣هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له، وكان أول من قاد حملة التطهير ضد الشيعة الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته أبو الحسن المتوفى عام ٤٣٢هـ [(١)].

٦- جهود السلاجقة في حماية العراق من التشيع الرافضي الباطني: كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، فأرسل الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله الدعاة إلى بغداد سنة ٤٢٥هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس [(٢)]، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعرف أحياناً بالمؤيد فقط، وقد نجح هذا الداعية في التأثير على البساسيري أحد القادة العسكريين في الدولة العباسية، وقد استطاع البساسيري أن يستولى على بغداد ويزيح الخليفة القائم بأمر الله وإقامة الخطبة فيها للفاطميين، وانقطعت دولة بني العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد الفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر [(٣)]. وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش

(١) تاريخ الفتح العربي ص ٢٩٠ ، ٢٩١.
(٢) دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص ٥٤.
(٣) أخبار الدول المنقطعة (٣/ ٤٣،٠).

ابن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش العقيلي - صاحب حديثة بالتحفظ على الخليفة وتأمين حياته، وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمر الله بالرحيل إلى حديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام [1]، ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وشباكه [2]، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار الخلافة وأطمعهم في نهب دار الخلافة ونهب أهل الكرخ - الشيعة - دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدّمغاني، وهلك أكثر السّجلاّت والكتب الحكيمة وبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة وأعادت الروافض الأذان بحي على خير العمل، وأُذن به في سائر جوامع بغداد في الجُمعُات والجماعات، وخطب ببغداد وضربت له السّكةُ على الذهب والفضة، وحُوصرت دار الخلافة واعتقل رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسلمة ووبخه البساسيري ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً واعتقله مهانا عنده ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصى ما أخذوا منها من الجواهر والنّفائس والدّيباج والأثاث والثياب وغير ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يوُصف.

وفي يوم عيد الأضحى في سنة ٤٥٠هـ ألبس البساسيري الخطباء والمؤذنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر صاحب مصر، والشيعة الرّافضة في غاية السرور والأذان في سائر العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرّق خلقاً ممن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا، ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقّبُ برئيس الوزراء وعليه جُبّة صوف وطرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً [3]، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلقان المداسات وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه، وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف بإزاء دار الخلافة وهو في ذلك يتلو ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ

(١) الخطط للمقريزي (١/ ٤٣٩).
(٢) الشباك : هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.
(٣) البداية والنهاية (١٥/ ٤٥٩).

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] فالبس جلد ثور بقرنيه وعُلق بكلوب في شدقيه ورفع إلى الخشبة حيًّا، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً [١].

من خصائص النفسية الشيعية الرافضة الباطنية الثابتة عبر التاريخ اتباع أسلوب التذلل والتمسكن والتودد عند الضعف ولكن متى استشعروا القوة، فإنها تمارس أشد أنواع الطغيان والنهب والبطش والانتقام، وكان طغرل بك السلطان السلجوقي الذي أزاح البويهيين كان خارج العراق بجيوشه يحارب المنشقين عنه ويمكن لدولته ولما قضى على الفتن كر بجيوشه على بغداد وأعاد الخليفة العباسي إلى الخلافة بعد فكاكه من أسره، واستطاع ملاحقة البساسيري وقتله وعادت العراق إلى الخلافة العباسية السنية من جديد وقد فصلت هذه الأحداث التاريخية في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي. وقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية [٢] ودعاتها بالحزم والشدة فتعقبوا دعاة الفاطمية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس - كما قاموا بإقصاء المتشيعين للمذهب الإسماعيلي عن دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم [٣]

٧- المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي الرافضي:

بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام ٤٥٥هـ فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة، وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان [٤]. فقد كانت الدولة الفاطمية تقوم بإعداد الدعاة من خلال جامع الأزهر الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية

---

(١) دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص ٨٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٩١.

تعني بنشر مذهبهم في عام ٣٧٨هـ [١].

هذا بالإضافة إلي البرامج التعليمية التي كانت تعد بعناية خاصة في عاصمة الدولة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم الي البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثر في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الدعوة[٢]، لذلك كله فكر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذى ينتشر به، ومعنى ذلك رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً [٣]، وتربية الأمة علي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحى الإلهى، ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التى نسبت إليه، لأنه الذى جد في إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة واختار لها الأكفاء من الأساتذة، فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة[٤]. وقد وفق الله نظام الملك توفيقاً قل نظيره فى التاريخ السياسى والعلمى والديني. فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التى طاولت الزمن زهاء أربعة قرون إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروز أبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ حيث زالت فى نهاية القرن التاسع الهجرى[٥]، وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السنى الشافعى وزودت الجهاز الحكومى بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء، وهى أهم وظائف الدولة فى ذلك العصر. وانتشر هؤلاء فى العالم الاسلامى حتى اخترقوا حدود الباطنية فى مصر وبلغوا الشمال الإفريقى ودعموا الوجود السنى بها. لقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التى رسمها نظام الملك فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا منها يرحلون الى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعى والحديث الشريف وينشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التى انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية الهامة فى دواوين الدولة، وينقل السبكي عن إسحاق الشيرازي – أول مدرس بنظامية بغداد – بقوله: خرجت الى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا كان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي [٦]، وقد أسهمت هذه المدارس فى إعادة دور منهج السنة فى حياة الأمة بقوة، وكان أبرز آثارها أيضا تقلص نفود الفكر الشيعى وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدراس وكان الإمام الغزالى على قمة

(١) دولة السلاجقة للصلابي ص ٢٩١.
(٢) التاريخ السياسي والفكري ص ١٧٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٩.
(٤) المصدر نفسه ص ١٧٩.
(٥) نظام الملك ص ٤٠١.
(٦) دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص ٣٩٠.

المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة [1].

وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكى والأيوبيين حتى يكملوا المسيرة التى من أجلها أنشئت النظاميات، وتتمثل فى العمل على سيادة الإسلام الصحيح وخاصة فى المناطق التى كانت موطنًا لنفوذ الشيعة فى تلك المرحلة كالشام ومصر وغيرها. إن الأخطار العظيمة التى تواجه الأمة اليوم تمثل المشروع الباطنى الجديد النشط فى أنحاء المعمورة وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظماءها، فهل نستلهم الدروس ونستخرج الصحيح الذى جاء به محمدﷺ فيكون من حكامنا مثل ألب أرسلان فى شجاعته، ومن وزرائنا كنظام الملك فى همته وغيرته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي والبغوي والجيلاني فى دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة وقضايا الفكر الاسلامى الصحيح، وتوظف الوسائل الحديثة فى بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله والدار الاخرة ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وإذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني فإن من أبرز أثارها أيضاً اختفاء نفوذ الفكر الشيعى وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي – العالم السنى– على قمة المفكرين الذين شنوا حربًا شعواء على الشيعة الرافضة الباطنية إذ يذكر هو أنه ألف فى ذلك كتباً عدة أشهرها فضائح الباطنية الذى كلف بتأليفه فى ٤٨٧هـ من قبل الخليفة المستظهر [2]، على أن الشيء المثير للإعجاب هو أن شجاعة الغزالى فى حملته على الإسماعيلية الباطنية جاءت فى وقت انتشر فيه دعاتهم فى فارس، وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع وهددوا أمن الناس وسلامتهم وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين وعلى رأسهم نظام الملك نفسه. والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة مع رغبة الغزالي العالم السني فى القيام بواجبه فى الدفاع عن الإسلام الحقيقى وهذا شيء جميل لما تلتقى جهود ألسلطة السياسية مع علمائها فى تحقيق أهداف الإستلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمع والدولة، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطني، فقد كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٠٤)، الغزالي للقرضاوي ص ٥٧.
(٢) الجهاد من الهجرة إلى الدغوة والدولة ص ١٤٧.

بالفلسفة والعقيدة الباطنية وظهرت في مظهر ديني سياسي، فكانت كما يقول الأستاذ الندوي - أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور [1]، وأما الباطنية، فكانت تتسرَّب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، وكان لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها والكشف عن أسرارها ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي. وكان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني، وقال فيهم كلمته التي طار بها الركبان وسارت مسير الأمثال: ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة من شيء، وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام[2]. ومما يذكر للغزالي استمراره على نقد هذه الطائفة وكشف اللثام عن تناقض أفكارها وفضائح أعمالها وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير الوزير نظام الملك، وكانت الشيعة الباطنية تهدد كل من يرونه خطراً عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام في صورة طعنة في خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له[3]. وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويخافون من القتل والاغتيال أو تهمة الطائفية، وبعضهم وقع تحت تأثير إبر التخدير الباطنية ومجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة، ولذلك تركوهم يعيثون بعقائد الأمة ومقدساتها وساعدهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم.

ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر:

قام الوزير الفاطمي ابن السلار -السني المذهب- بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال، ويقوم

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص ٦٠. (٢) المصدر نفسه ص ٦٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٢.

الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية، وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفي نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة غزة، وفي حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين أوضح له مدى انشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفواطم إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته [1]. ويلاحظ أن ابن السلار استمر في صراعه مع الصليبيين فجهز في عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية، وقد تحدث الذهبي عن ابن السلار فقال: وكان بطلا شجاعاً، مقداماً مهيباً شافعياً سنيّاً، ليس على دين العُبيدية، احتفل بالسلفي، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف [2] وجبروت. وتجددت المحاولات السابقة في عهد وزارة طلائع ابن رزيك الذي اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ غير أن نور الدين لم يتعجل وكان يرى أن الفرصة المناسبة لم تأت بعد. وكانت بين أسامة بن منقذ وأبي الغارات طلائع بن رُزيك مساجلات شعرية منها ما قاله طلائع بن رُزيك:

فقولوا لنور الدين لا فُلَّ حدُّه	ولا حَكَمت فيه الليالي الغواشمُ
تجهز إلى أرض العدوّ ولا تهن	وتُظهر فتوراً إن مضت منك حازم

ومنها مما كتبه إلى أسامة بن منقذ:

يا سَيِّداً يسمو بهمته	إلى الرُتب العَلِيَّة
فينال منها حين يُحرَم	غيره أو في مَزِيَّة
أنت الصديق وإن بعدت	وصاحب الشِيَم الرَّضية
نُنبيك أن جيوشنا	فعلت فِعال الجاهلية
سارت إلى الأعداء من	أبطالها متنا سَرِيَّة
فتُغيرُ هذي بُكرةً	وتُعاودُ الأخرى عَيشية
فالويل منها للفرنج	فقد لقوا جهد البَلِيَّة
جاءت رؤوسُهمُ تلوح	على رؤوس السمهرية

(١) كتاب الروضتين (١/ ٣٧٠).

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٨٤.

وقلائـــــع قـــــد قُسِّـــــمتْ بـــين الجنـــود علـــى السَّـــويَّة
وخلائـــــقٌ كثـــــرت مـــــن الأســـــرى تقـــادُ إلى المنيـــة
فـــانهض فقـــد أنبيـــت مجـــد الـــدين بالحـــال الجَلِيَّـــة
والمـــم بنـــور الـــدين واعلمـــه بهاتيـــــــك القضـــــيَّة
فهـــو الـــذي مـــا زال يخلـــص منـــــه أفعـــالا ونيَّـــة
ويُبيـــد جمـــع الكفـــر بـــالبيض الرُّقَـــــاق المشـــــرفية
فعســـــاه يـــــنهض نهضـــــة يفـــــني بهـــــا تلـــــك البقيَّـــة
إمّـــــا لنُصـــــرة دينـــــه أو ملكـــــه أو للحميَّـــــة

وكتب إلى أسامة بن منقذ أيضاً فقال:

قـــل لابـــن منقـــذ الـــذي قـــد حـــاز في الفضـــل الكمـــالا
فلـــذلك قـــد أضـــحى الأنـــام علـــى مكارمـــه عِيـــالاً
كـــم قـــد بعثنـــا نحـــوك الأشـــعار مســـرعة عجـــالاً
وصـــددت عنهـــا حـــين رامـــت مـــن محاســـنك الوِصَـــالا
هـــلاَّ بَـــذَلْتَ لنـــا مقـــالا حـــين لم تبـــذل فعـــالا
مـــع أنّنـــا نُوليـــك صـــبراً في المـــودة واحتمـــالا
ونبثُّـــك الأخبـــار إن أصـــخت قصـــاراً أو طِـــوالا
ســـارت سَـــرايات لقصـــد الشـــام تعتســـف الرِّمـــالا
تُزجـــي إلى الأعـــداء جُـــرد الخيـــل أتباعـــاً تُـــوالَى [1]

إلى أن قال:

فلـــو أنَّ نـــور الـــدين يجعـــل فعلنـــا فـــيهم مثـــالا
ويُسَـــيِّرُ الأجنـــاد جهـــراً كـــي ينُـــازِلَهم نـــزالا
ووفـــى لنـــا ولأهـــل دولتـــه بمـــا قـــد كـــان قـــالا
لرأيـــت للإفـــرنج طُـــرًّا في معاقلـــها اعتقـــالا
وتجهَّـــزوا للســـير نحـــو الغـــرب أو قصـــدوا الشـــمالا

(١) كتاب الروضتين (١/٣٦٨).

وإذا أبــــى إلاَّ اطراحــــاً — للنصـــيحة واعتـــزالا
عُـــدنا بتســـليم الأمـــور — لحكـــم خالقنـــا تعـــالى[1]

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يـــا أشـــرف الـــوزراء أخلاقـــاً — وأكـــرمهم فعـــالا
نَبَّهْـــت عيـــداً طالمـــا — نَبَّهتـــه قـــدراً وحـــالا
وَعَتَبْتَـــه فأَقَلْتَـــهُ — فخـــراً ومجـــداً لـــن يُنـــالا
لكـــن ذاكَ العَتْـــبَ يُشـــعِلُ — في جوانحـــه اشـــتعالا

إلى أن قال:

واشـــدُد يـــديك بـــودُّ — نـــور الـــدين والـــقَ بـــه الرِّجـــالا
فهـــو الحـــامي عـــن بـــلاد — الشـــام جمعـــاً أن تُـــزالا
ومُبيـــدُ أمـــلاكِ الفـــرنج — وجمعهـــم حـــالاً فحـــالا
مَلِـــكٌ يتيـــه الـــدهر — والـــدنيا بدولتـــه اختيـــالا
جمـــع الخِـــلال الصَّـــالحات — فلـــم يَـــدَعْ منهـــا مجـــالا
فـــإذا بـــدا للنَّـــاظرين — رأت عيـــونهم الكمـــالا
فبقيتمـــا للمُســـلمين — حِمًـــى وللـــدُّنيا جمـــالاً[2]

ولم يدخل نور الدين في تحالف عسكري مع طلائع بن رُزيك إلا أنه اهتم بالاتصالات الدبلوماسية، وقد وصلت في ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م سفارة من جانب نور الدين وتكرر ذات الأمر في العام التالي أي ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، وردَّت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النوري إلى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين[3]. ونجد سفارة أخرى من نور الدين في عام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها له، فأرسل العاضد في عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م بالخلع إليه، والواقع أن التعليل المنطقي لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م أدركوا عن ذي قبل؛ خطورة

(١) كتاب الروضتين (١/ ٣٦٩).
(٢) الجهاد والتحديد ص ١٩٥.
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٦.

الصليبيين عليهم وضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري [1].

١- دوافع فتح مصر عند نور الدين: كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى إدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء طمع الصليبيون بغزو مصر فهاجموها المرة تلو المرة، وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين [2]، ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر فيما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر أيامها فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة، أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء، فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاءون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور وضرغام، فضعفت الدولة وسادت الفوضى في البلاد، ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده «ضرغام» ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتية لتوحيد الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

الدافع الثاني: إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي باطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام ٥٤٩هـ شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر [3].

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التي أدت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية، العامل العقدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إسماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتآمرت مراراً مع أعدائهم [4]. فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها، شرعية في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام [5]

---

(١) الجهاد والتجديد ص ١٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٦.
(٥) مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك ص ١٣.

وفي هذه الظروف التي كان نور الدين الشهيد يتطلع فيها إلى غزو مصر وصل إلى دمشق عام ٥٥٩هـ الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي، طالباً النجدة منه، ضد من سلب منه منصبه قهراً، ووعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له بثلث دخل البلاد المصرية سنوياً، بعد دفع رواتب الجند، وأن يكون نائباً عن نور الدين بمصر، إذا ساعده في التغلب على ضرغام عدوه، ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعسكره بمصر، ويتصرف مع شاور في شؤون البلاد بأمر نور الدين [(١)]. لكن نور الدين كان متردداً متريثاً، يقدم إلى هذا العرض رجلاً، ويؤخر أخرى حتى استخار الله في الأمر، على ما هنالك من أخطار جسيمة ممثلة في الصليبيين بالساحل وبيت المقدس، إضافة إلى شكه في إخلاص شاور السعدي [(٢)]. ثم جهز نور الدين الحملات المتوالية، ووجهها نحو مصر منذ عام ٥٥٩هـ حتى ٥٦٤هـ بقيادة أسد الدين شيركوه [(٣)].

٢- الحملة النورية الأولى ٥٥٩هـ:

قرر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين مبدئيين:

- الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمها، وبخاصة أن شاور وعده إن هو عاد إلى منصبه، سيتحمَّل نفقات الحملة ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.

- إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع إلى منصبه.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك، كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين، وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق [(٤)]، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعدَّ على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر جمادي الآخرة ٥٥٩هـ/ شهر نيسان ١١٦٤م

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ١٩٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨.
(٣) الجهاد والتجديد ص ١٩٨.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٢٨.

بصحبة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره وسار على الطريق المحدد للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون[1]، وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً لحياة أفرادها تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر [2]، وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة في سيره أنه أجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل صرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له يدعى ناصر الدين، للتصدي لزحفه، أسفر لقاء الطرفين في بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارده أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادي الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة، وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة. اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة – المزعوم – في شهر رجب ٥٥٩هـ/ شهر حزيران ١١٦٤م كما قتل أخوه ناصر الدين، ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها [3].

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التي اتصف بها – من المكر والخداع – ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود، بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية [4]، ولم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بالملك عموري الأول الذي كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يخوفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن:

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٦.

(٢) (٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٢٩.

(٤) الباهر ص ١٢١ – ١٢٢، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣٠.

- يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

- يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

- يتكفَّل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر(1).

وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار محاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة، ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحَّب بها، وبذلك لم يُضع الفرصة عليه لدخول مصر وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء فكل ما يعنيه هو دخول مصر(2).

٣- حملة عموري الثانية على مصر: فشلت حملة عموري الأولى على مصر واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس وكانت في عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م، وعندما أتيحت الفرصة مرة أخرى لدخول مصر بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وقرَّر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أنَّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في الجهود الحربي، وأمل في أن يتمكَّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهيموند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه (3)، وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر رمضان عام ٥٥٩هـ/ شهر آب عام ١١٦٤م واتصل، فور وصوله إلى فاقوس(4)، بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس، وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه(5)، وفجأة قرَّر عمورى الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟ وهنا تبرز عبقرية نور الدين العسكرية وقيادته الفذة، فقد تلقَّى عموري الأولَ أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرض

---

(1) (2) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣٠.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣١.
(4) فاقوس : مدينة في جوف مصر الشرقي (٤/ ٢٣٢).
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣١.

ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مقضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بلبيس. وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت في النفاد فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد وأن الوضع العسكري ليس في صالحه لذلك قبل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر [1].

وفعلاً تم الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، شهر تشرين الأول، وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم، وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه [2]. وكان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلصً من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء كما تخلصً من ضرغام وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكم في مقاليد البلاد [3]، ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر، تحت تصرف نور الدين محمود، وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه في مجالسه ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزودونه بأخبارها، وأرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجَّعه على العودة إليها [4].

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعَّمت في بلاد الشام وارتفع شأنه في العالم الإسلامي، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد اليأس بهم [5]، ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تمتعُ به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجِّح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي العاضد معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور

---

(١) (٢) (٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣١.
(٤) (٥) المصدر نفسه ص ٣٣٢.

الدين محمود يستنجد به ليخلصه منه[1].

٤- **الحملة النورية الثانية:** أعد نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر في شهر ربيع الأول عام ٥٦٢هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٦٧م بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبة ابن أخيه صلاح الدين وسيَّر معه جماعة من الأمراء [2]، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس [3]، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرض الصليبيين له [4]، وسار أفراد الحملة في طريق محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيروا طريق سيرهم أحياناً للتخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد، وعلي الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدَّداً بعموري الأول، إذ أيقن من استقراء الأحداث، أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر، الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر. رحَّب عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود [5]. وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء متأخراً[6]. وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفرادة، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في شهر ربيع الآخر/ أوائل شهر شباط) وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين حتى بلغ نهر النيل عند أطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة [7]، ثم عبر إلى

---

(١) النجوم الزاهرة (٥/٣٤٨).
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٢.
(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ١٣).
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٢.
(٥) مفرج الكروب (١/ ١٤٩)، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.
(٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.

الضفة الغربية والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً (١).

أ- حملة عموري الثالثة على مصر والمفاوضات الصليبية الفاطمية:

خرج عموري الأول من بيت المقدس في شهر ربيع الأول عام ٥٦٢هـ شهر كانون الثاني عام ١١٦٧م متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس، وارتاع شاور من ظهوره المفاجيء وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى أطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة (٢)، وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يقسم عموري الأول على هذا (٣)، ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صيغة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من هيو، سيد قسارية، وجفري، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتم التصديق على المعاهدة (٤). وكان من الطبيعي أن يرحب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمية، وتُبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد(٥).

ب- معركة البابين: كان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرف بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جُمادي الأولى وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُدَدهم، وجدّهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من السَّلامة، لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشَّرقي والعوْد إلى الشَّام وقالوا له: إن نحن انهزمنا – وهو الذي لا شك

---

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ٣٤٤.
(٢) وليم الصوري (٢/ ٨٩٦).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٨٩٩)، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٤.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٤.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٤٤.

فيه - فإلى أين نلتجئ ويمن نحتمي، وكل في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌ لنا، ويوَدُّون لو شربوا دماءنا؟ وحُقَّ لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارهم ونأى ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات الألوف، فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بُزغُش - وكان من الشجاعة بالمكان المشهور - وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عُدتُم إلى الملك العادل من غير غَلَبة وبلاء تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرَّف فيها الكُفَّار؟ قال أسد الدين هذا رأيي وبه أعمل. ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وهنا برزت عقلية أسد الدين شيركوه وخبرته العسكرية فقد جعل الأثقال في القلب يستكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابلت الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الفرنج الذين حملوا على القلب - من المصريين والفرنج - فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلقْعاً لَيس بها منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرَّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل [1].

ج- حصار الإسكندرية: ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرى والسوَّاد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها من غير قتال؛ سلمَّها أهلها إليه فاستناب بها صلاح الدِّين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملكَّه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية - وبها صلاح

(١) الباهر ص ١٣٢ - ١٣٣ ، كتاب الروضتين (٢/ ١٣).

الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُّلح [1].

د - المفاوضات النورية - الصليبية بشأن الجلاء عن مصر: وبعد مفاوضات بين الطرفين تّم عقد صلح على الأسس التالية:

- رفع الحصار عن الإسكندرية.
- تبادل الأسرى.
- إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.
- يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.
- عدم التعرض لهم في الطريق من قِبل القوات الصليبية.

إن قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح وما حدث بعد إبرام الاتفاقية يمكن رصد الملاحظات التالية: فقد وافق الجانبان النوري والصليبي الفاطمي على:

- خروج القوات النورية والصليبية من مصر.
- تبادل الأسرى.
- يتعهد شاور بألاّ يُعاقب رعاياه في الإسكندرية وفي غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه [2].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية في شهر شوال/ شهر آب) في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله، والتقى الرجلان وأعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام [3]. على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين، وقد احتج هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى [4]. وكانت هذه هي المرة الثانية التي يغدر

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ١٤).
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٥٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٥١.
(٤) تاريخ الفاطميين ص ٤٩٤.

فيها شاور وقد علمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصَّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م [1].

هـ- الحماية الصليبية على مصر: غادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر في شهر ذي القعدة / شهر أيلول في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مر بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

- دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.

- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرَّر محاولة الهجوم.

- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم [2].

والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين [3]. وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري [4].

٥- الحملة النورية الثالثة على مصر عام ٥٦٤هـ:

سبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة في القاهرة، وتسلموا أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملكهم - عموري - في القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهونوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة، ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بلبيس مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا وأسروا من فيها، ثم ساروا إلى «الفسطاط» فأمر شاور بإحراقها وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد خوفاً من أن يملكها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها، وكان شاور هو المتولي للعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملكهم عموري ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها «مائة ألف دينار» وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل يجمع لهم المال فلم

---

(١) (٢) تاريخ الفاطميين ص ٤٩٥.

(٣) النجوم الزاهرة (٥/ ٣٤٩).

(٤) تاريخ الفاطميين ص ٤٩٥.

يستطيع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث إن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أموالهم [1].

أ- العاضد يستنجد بنور الدين محمود:

كان حاكم مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنقِذَهُنَّ من الفرنج [2]، وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

- منحه ثلث بلاد مصر.
- منح قادته الإقطاعات.
- يسمح لشيركوه بأن يقيم في مصر [3].

ب- أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة:

شرع نور الدين في تجهيز الجيوش وإعدادها إعداداً قوياً وأعطى قائد الحملة (شيركوه) مائتي ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن، يأخذ حاجته، فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف، وسار نور الدين وشيركوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء [4]، وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبي [5]، وسار أسد الدين مجداً فلما قارب مصر، رحل الفرنجة إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودتهم فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر في بلاده ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعاضد، الذي خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة [6].

ج- مقتل شاور: وأما شاور فلم يفصح عما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضاً، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين

---

(1) (2) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٢.

(3) تاريخ الفاطميين، محمد سهيل طقوس ص ٥٠٤.

(4) الجهاد والتجديد ص ٢٠٢، رأس الماء في منطقة حوران.

(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٢.

(6) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٥٥).

وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بين المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه [1]، وأخيراً اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر، عام ٦٤٣هـ [2].

د- تولي أسد الدين الوزارة للعاضد: ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره، وقد مدح الشعراء أسد الدين شيركوه لما حقق من الانتصارات، فقال العماد:

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر ... ونلت ما عجزت عن نيله القَدَر
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً ... فقل لنا: أعليٌّ أنت أم عمر
أفخر فإن ملوك الأرض أذهلهم ... ما قد فعلت، فكلٌّ فيك مفتكِرُ
سهرت إذ رقدوا بل هُجْتَ إذ سكنوا ... وصُلت إذ جبنوا، بل طُلت إذ قصروا [3]

هـ- وفاة أسد الدين: ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، رحمه الله رحمة واسعة وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين [4]. وكان أسد الدين من أكبر قادة نورالدين، وقد ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التي كان يمهد لها، وهي ضم مصر إلى بلاد الشام وكان رحمه الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام في عسكره فهابه جنده وأحبوه، وركبوا معه المخاطر في حملات عظيمة [5] نفع الله بها الإسلام والمسلمين وأسهمت في تقوية المشروع المقاوم للغزو الصليبي الذي كان يقوده نور الدين ثم من بعده صلاح الدين وسيأتي التفصيل بإذن الله عن أسد الدين شيركوه وبني أيوب في حديثنا عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة صلاح الدين الأيوبي بإذن الله تعالى.

(١) كتاب الروضتين (٢/ ٥٦).
(٢) الجهاد والتجديد ص ٢٠٣.
(٣) كتاب الروضتين ص ٢٠٣ ، ٢٠٤.
(٤) الجهاد والتجديد ص ٢٠٤.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٤.

ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي أنجزها:

كان صلاح الدين قد أظهر كفاءة خلال صحبته لعمه، أسد الدين شيركوه، أثناء حملاته على مصر، فتولى الوزارة بعد وفاة عمه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، اختاره العاضد لأنه كان أصغر الأمراء سناً ولعله يكون أكثر طواعيةً له، إلا أن الملك الناصر -كما لقبه العاضد - خيب ظن الفاطميين، فشرع يستميل قلوب الناس إليه كما بذل لهم من الأموال التي قد جمعها عمه، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة [1]، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في عهد نور الدين عظيمة وضخمة واستطاع القضاء على مراكز القوة:

١- مؤامرة مؤتمن الخلافة: جرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها، فالدولة الفاطمية، لازالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية، ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة وهو عازم على الاستئثار بكل الاختصاصات حتى التي تخص منصب الخلافة ونفَّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

- استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال فأحبوه.

- أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند بعد أن أحسن إليهم.

- قوّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية [2]. وقد أدَّت التدابير التي نفَّذها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد، وبالتالي مركز الإمامة، وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي في حال استمراره على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً، ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين وحاول الاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حالة الاستجابة أن

(١) الجهاد والتجديد ص ٢٠٥.

(٢) تاريخ الفاطميين ص ٥٠٩، البداية والنهاية (١٦/ ٤٣٣).

يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويثبت على منصب الوزارة ويتقاسم البلاد مع الصليبيين، غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتّخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتها، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤتمن الخلافة وانتهز الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء إهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر [1]. وقد قام صلاح الدين بإبعاد جميع الخدم من السودان عن قصر الخلافة، واستعمل على الجميع في القصر، بهاء الدين قراقوش، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بحكمه وأمره [2].

٢- وقعة السُّودان: وذلك أنه لما قتل الطَّواشي [3]، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، وعزل بقية الخُدَّام غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً مِن خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش الملك صلاح الدين بين القَصْرَين فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر منَ القصر إلى المعركة، وقد قُذِفَ الجيشُ الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهامٌ، فقيل: كان ذلك بأمر العاضد وقيل: لم يكن بأمره، ثم إن أخا الناصر - صلاح الدين - شمس الدولة توران شاه -وكان حاضراً للحرب قد بعثه نور الدين إلى أخيه لِيُشدَّ أزره - أمر بإحراق منظرة العاضد، ففتح الباب ونُودِي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السُّودان من بين أظهركم، ومن بلادِكم، فقوى الشاميون وضعف جأش السودان جدًّا،، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة التي فيها دورُهم وأهلوُهم بباب زويلة فأحرقها فولّوا عند ذلك مُدبرين، وركبهم السيف فقتل خلقاً كثيراً، ثم طلبُوا الأمان من الملك صلاح الدين، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمسُ الدولة توران شاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[النمل: ٥٢] [4]. ويبدو أن حاكم مصر الفاطمي كان في ذلك الوقت على علم بمؤامرة مؤتمن الخلافة، لأنه ليس من المتصور أن يجري ذلك في قصره وبدون علمه، ويؤكد ذلك أن قوات صلاح الدين يوسف بن أيوب تعرضت وهي تصفي أطراف المؤامرة، لهجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم، بل إن العاضد كان يراقب المعركة من القصر [5].

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الفاطميين ص ٥١٠. (٢) البداية والنهاية (١٦/ ٤٣٤).
(٣) الطواشي: جمع طوّاشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطبقات المملوكة وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة.
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٤٣٥).
(٥) الطريق إلى القدس ص ٩١.

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء وبالذات القاضي الفاضل الذي كان العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر وتثبيت المذهب السني وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في حديثنا عن الدولة الأيوبية.

كان القاضي الفاضل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء والمسّرحين منهم بصورة خاصة، وكانت العيون مبثوثة في كل ناحية ومنطقة وزاوية، في القصور وبين العساكر، وعلى الحدود، وعلى كل محطة من محَطات البريد أو محطات الاتصال بين مصر والفرنج، وقد كانت هذه العيون على اتصال مباشر بالقاضي الفاضل تزوده بتقريرها بواسطة الرسل وعلى أجنحة الحمام الزاجل [1].

٣- القضاء على الأرمن: ولم يتوقف نصر صلاح الدين بالقضاء عل شوكة السودان بل أتبعه بفلّ شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشّاب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد [2]، أضعف صلاح الدين بقضائه على شوكة السودان والأرمن الدولة الفاطمية إلى حد بعيد، بحيث أصبح من الواضح أن القضاء على الدولة الفاطمية نفسها لم يعد بعيداً [3].

٤- اهتمام صلاح الدين بتقوية جيوشه: أخذ صلاح الدين يعمل حال تولّيّة الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن حكمهم، وعن مصر من الغزو الإفرنجي ولم يْخفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة ٥٥٩هـ وسنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٣م - ١١٦٨م وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية، ومن حيث تنظيمه وفِرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان، والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان، وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق [4]، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القواتِ في عهد رزيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر كما أشرنا سابقاً، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة، الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز

(١) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني. ص ١٣٠، ١٣١.
(٢) (٣) المصدر نفسه ص ١٣٣.
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٦.

معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش، ويشرف على العيون والرسل، فألّم بهذه القوات وعرف دخائلها واطلع على كل فرقة منها، وعلى نيات كل قائد من قوّادها، ولم يضنّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج، وقد أنشأ صلاح الدين في بداية عهده في الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعدة بمرور الوقت واتساع عملياته الحربية ضد الفرنج، وكان قوام هذا الجيش في مصر الحرس الخاص، والجيش النظامي في مصر، ثم الجيوش الشعبية التي تكوّنت من أمراء الإقطاع وجنودهم، ولاسيما في الشام والجزيرة بعد سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م والبدو [١]، ويأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً في الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

رابعاً: التصدي للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وحصار دمياط ٥٦٥هـ:

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر، وتولى صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك القدس «عموري» مع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم وحاصروا دمياط تنفيذاً لذلك التحالف [٢]، وأرسل صلاح الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نورالدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإنّ سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية [٣].. إلى صلاح الدين فسر. وقد قام نورالدين بالدور المتوقع منه واتخذ القرار السليم ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية وقام بشن الغارات على حصون الفرنجة وقلاعهم ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين حتى يتمكنَ من إحكام السيطرة على مصر، لينتفرغ بعد ذلك للمساعدة في تحقيق الهدف الإستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي [٤] وقامت حامية دمياط بدور بطولي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت

(١) القاضي الفاضل ص ١٢٧. (٢) الجهاد والتجديد ص ٢٠٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٧.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٠.

وصول السفن اليونانية إليها وأنزل المسلمون المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيأوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يستطع البحارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً من السيطرة على سفنهم فغرق معظمها، ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً [1].

١- أسباب فشل الحملة على دمياط:

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

أ- فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

- صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

- سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.

- التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

- القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق [2].

- موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوثًا كثيرة يتبع بعضها بعضها، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فقصد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقَتل من رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيراً، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط [3].

- استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فعّالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حراقة [4]، والأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وإنزال نصره على عباده المجاهدين.

---

(١) الجهاد والتحديد ص ٢٠٨.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٧٩. (٣) البداية والنهاية (١٦/ ٤٤٠).
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٨٠.

ب - فيما يتعلق بالجانب الصليبي:

- لقد أخَّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد [1].

- إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرَّضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج [2].

ج- فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

- عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.

- اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

- افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهَّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.

- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

د- هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

- سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها وللعواصف التي كانت تبعد قطع الأسطول عن الشاطئ.

- سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

- أدّى سوء اختيار المكان أن أصبحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

- عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٨٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٨١.

بينهما، مما تسبب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشى الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة.[1].

٢- نتائج الحملة على دمياط:

يعد فشل الحملة الصليبية – البيزنطية المشتركة على دمياط أصبحت هذه الحادثة نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.

يُعدُّ فشل الحملة النصرانية نقطة تحول مهمة -أيضاً- في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.

بات المسلمون يهددون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين [2].

إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية فإن هزيمة النصارى أمام دمياط شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي، وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية وأضحى سيد مصر دون منازع [3].

٣- وصول نجم الدين أيوب إلى مصر: طلب صلاح الدين من نور الدين إرسال والده إليه فوافق نور الدين على ذلك، وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحمّله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسي[4].

---

(١) ، (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٨١.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨٢.

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١١٥.

وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر، فخشي نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق [1]، ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة، وخرج العاضد - صاحب القصر- لاستقباله وبالغ في احترامه والإقبال عليه، واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف - عليهما السلام - حين قدم على ولده ووجده متملكاً للديار المصرية وقال: ﴿**ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**﴾ [يوسف: ٩٩]. وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقرئين: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ**﴾ [يوسف: ١٠٠]. ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفوَّض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفء له، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة [2]، فحكَّمه في الخزائن بأسرها وأنزله اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة [3]. وفيما حدث لصلاح الدين من اجتماعه بوالده وأهله قال عمارة اليماني:

من شاكر والله أعظم شاكر ... ما كان من نعمى بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا ... حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارها ... عزّ القوي وذلة المغلوب
وحلوا عن الإسلام فيها كربة ... لو لم يجلُّوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها ... عُتقاؤهم من نازح وغريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً ... وهم اللباب فأنت غير لبيب
صحت به مصر وكانت قبله ... تشكو سقاماً لم يعُن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره ... والدهر ولاّد لكلّ عجيب
رد الإله به قضية يوسف ... نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى ... مصر على التدريج والترتيب [4]

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١١٦.
(٢) مفرج الكروب (١/ ١٨٦).
(٣) المصدر نفسه ص (١/ ١٨٦).
(٤) عيون الروضتين (١/ ٣٠١، ٣٠٢).

وحُكي أنه لما اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، ذكر نجم الدين أن صلاح الدين ولد ليلة إخراجه من قلعة تكَريت قال: فتشاءمت له وتطيرت لما جرى عليَّ وكان معي كاتب نصراني فقال: يا مولاي من يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار. قال: فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق رحمة الله عليهم أجمعين[1]. وقد توفي نجم الدين أيوب في ٥٦٨هـ فقد ركب نجم الدين أيوب، فشبب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط الحجّة يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وبابه مزدحم بالوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود[2]. وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه [3]، وكان صلاح الدين غائباً في بلاد الكَرَك والشوبك على الغزاة، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت في الدّار السلطانية، ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشريفة النبوية على سكانها أفضل الصّلاة والسلام وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل[4]، وقد رثاه عمارة اليماني فقال:

صفوُ الحياةِ وإن طال المدى كَدَرُ ... وحادث الموتِ لا يُبقي ولا يَذَرُ

وما يزال لسانُ الدهر يُنذِرُنا ... لو أثَّرَت عندنا الآيات والنُّذُرُ

فلا تَقُل غرَّت الدُّنيا مطامعنا ... فما مع الموت لا غشى ولاكدر

كأس إذا ما الرّدى حيّا الحياة بها ... لم ينج من سُكرها أنثى ولاَ ذكرُ

كما شامخ العز لاقى الذُّل من يَدِها ... ما أضعف القَدْرَ إن ألْوى به القَدَرُ

في كلِّ جيل وعصر من وقائعها ... شعوا يقطر منها النَّاب والظُّفُرُ

أودى علي وعثمان بمخلبها ... ولم يَفُتها أبو بكر ولا عمر

ومن أراد التأسي في مصيبته ... فللورى برسول الله معتبرُ[5]

(١) عيون الروضتين (١/ ٣٠٤).

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٢٤٨).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٥٢).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٢٤٩).

(٥) عيون الروضتين (١/ ٢٥٩).

خامساً: إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية:

وتعتبر هذه الخطوة من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين فقد كان نور الدين حريصاً كل الحرص على إنهائها فكتب إلى نائبه صلاح الدين يأمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء فاعتذر صلاح الدين بالخوف من قيام أهل مصر ضده لميلهم إلى الفاطميين وبأنه لم يتهيأ لذلك بعد، إلا أن نورالدين أرسل إلى نائبه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه. وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الملك العادل نجم الدين أيوب، وحمّله رسالة فيها: وهذا أمر تجب المبادرة إليه، لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وإمام الوقت - المستنجد - متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته[1]. وكان صلاح الدين متهيباً متردداً في إسقاط تلك الخلافة، حيث إن ميراث العبيديين في مصر، كان عمره أكثر من مائتي سنة، وكان نور الدين يعتبر أن فتح مصر نعمة من نعم الله عليه وعلى المسلمين، من أجل توحيد البلاد على منهج أهل السنة وإزالة البدع والرفض[2]، وكان نور الدين متفهماً لظروف صلاح الدين وكان يخاطبه بالأمير (أسفهلار) ولو أراد لأرسل خطاباً بعزله عن مصر وتوليته قطزاً آخر، وهذا ما صرح به نجم الدين لولده صلاح الدين في مصر: إن أراد عزلك.. يأمر بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد[3]. ومن دلائل احترام نور الدين لصلاح الدين ما جاء في خطابه لابن أبي عصرون يوليه قضاء مصر ويقول فيه: تصل أنت وولدك حتى أسيركم إلى مصر، وذلك بموافقة صاحبي، واتفاق منه، صلاح الدين، وفقه الله، فأنا شاكر له كثيرًا كثيرًا كثيرًا، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم[4]. فحقيقة العلاقة بين القائدين احترام متبادل وتقدير عظيم وسيأتي الحديث عن العلاقة بينهما بإذن الله والرد على الكتّاب الذين تلقوا روايات ابن أبي طيء الشيعي الذي حرص على تشويه وتلطيخ العلاقة بين الرجلين والطعن في سيرتهما كلما أمكنه ذلك.

١- التدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي: استفاد صلاح الدين من الرجل الكبير القاضي الفاضل، فقد ساعده على إحكام خطة مدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي، وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدّقة متناهية وبعد أن هيأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي، ففي سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م أبطل الأذان

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٩.

(٢) الجهاد والتجديد ص ٢١٥.

(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢١٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٥.

يحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر. ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة [1]. ثم أمر بعد ذلك، في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م - ١١٧٠م بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي، وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك [2]. وولى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني فاستتاب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السُّنية وهو في الوقت نفسه يضيق الخناق على العاضد، فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش فأخذ يحد من نفوذهم شيئاً فشيئاً، ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرق إقطاعاتهم عليهم[3]. وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة وقد خابت الآمال التي عقدها على صلاح الدين وانزوى في مخدعه فريسة للهم والمرض [4]، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مواتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُّنة ومتصوفوها وسألهم الرأي والنصيحة وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد [5]. وفي بداية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١-١١٧٢م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى من محرم ٥٦٧هـ/ ١١٧١-١١٧٢م حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله، وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية [6]. والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو أسبوعين وذلك لأنها ظلت على المذهب السني طوال العصر الفاطمي[7].

٢- وفاة العاضد عام ٥٦٧هـ: وقد توفي العاضد في العاشر من محرم ٥٦٧هـ/ ١١٧١-١١٧٢م [8]، ويقال أن صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام ندم على أنه

(١) اتعاظ الحنفا (٣/ ٣١٧)، القاضي الفاضل ص ١٣٧.
(٢) القاضي الفاضل ص ١٣٧.
(٣) الخطط للمقريزي نقلاً عن صلاح الدين الأيوبي لقلعجي ص ١٦١.
(٤) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي ص ١٦٢.
(٥) المصدر نفسه ص ١٦٢.
(٦) القاضي الفاضل ص ١٣٧.
(٧) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٥٩.
(٨) القاضي الفاضل ص ١٣٩.

تعجل في قطع خطبته وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فضحك القاضي الفاضل ورد عليه قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت [1]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية بين الوزير صلاح الدين وكاتبه أو مستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية [2].

قال ابن كثير: والعاضد في اللغة: القاطع واسمه عبدالله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر ابن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي أوّل ملوكهم وكان مولد العاضد في سنة سِتٍ وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنة[3].

٣- فرح المسلمون بزوال الدولة الفاطمية: ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون فزينت بغداد، وغلقت الأبواب وعُملت القباب، وفرح المسلمون فرحاً شديداً وكانت الخطبة قد قطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسّي حين تغلب الفاطميُّون عليها أيام المعزّ الفاطمي، باني القاهرة إلى هذه الأوان، وذلك مائتا سنة وثماني سنين [4] وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّي في أرجاء الدنيا فقد قال العماد الأصفهاني:

توفي العاضد الدعي مما ... يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا ... يوسفها في الأمور محتكما
قد طفئت جمرة الغواة وقيد ... داخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شملُ الصلاح ملتئماً ... بها وعقد السداد منتظماً
لما غدا مشعراً شعار بني ... العباس حقّاً والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتظراً ... ومن دعاة الإشراك منتقماً
وظل أهل الضّلال في ظلل ... داجية من غيابه وعمى
وارتبك الجاهلون في ظلل ... لما أضاءت منابر العُلما
وعاد بالمستضيء معتهداً ... بناء حقّ قد كان مُنْهَدِما

(١) القاضي الفاضل ص ١٣٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٩.
(٣) البداية والنهاية (١٦/٤٥١).
(٤) المصدر نفسه (١٦/٤٥٠).

واعتلَّت الدولة التي اضطهدت وانتصر الدين بعدما اهتُضما
واهتزَّ عطف الإسلام من جَذَل وافترَّ ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهُدى فرحاً فليقرعِ الكُفُر سِنَّهُ نَدما
عاد حريمُ الأعداءِ منتهك الحِمى وفيءُ الطغاة مقتسما
قصور أهل القصور أخربها عامر بيت من الكمال سَمَا
أزعج بعد السُّكون ساكنها ومات ذلاً وأنفه رَغمَا[1]

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً استراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فتم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقائده الأمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة، وحق للأمة الإسلامية وزعمائها أن تفرح بهذه البشرى الكبيرة من إزالة دولة الشيعة الرافضة.

٤- اعتبار واتعاظ من زوال الفاطميين من مصر: كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسراً، فصاروا كأمس الذاهب وكأن لم يَغْنَوا فيها، وكان أوّل من ملك منهم المهديَّ وكان من أهل سَلَمْيَة حدَّاداً اسمه سعيد، وكان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمَّى بعبيد الله، وادَّعى أنه شريف علوي فاطمي، وقال: إنه المهديُّ وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكبراء كالقاضي أبي بكر الباقلاَّني والشيخ أبي حامد الإسفراييني وغير واحد من سادات الأئمة... والمقصود أنَّ هذا الدَّعِيَّ المُدَّعِيَ الكذاب راج له ما افتراه في تلك البلاد ووازَره جماعة من جهلة العُبّاد، وصارت له دولة وصولة، فتمكَّن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه، وصار مَلِكاً مطاعاً يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم ثم المنصور، ثم المعز – وهو أوّل من دخل مصر منهم وبنيت له القاهرة – ثم العزيز ثم الحاكم، ثم الظاهر، ثم المستنصر ثم المستعلي، ثم الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر مِلِكاً، ومدتهم مائتان ونيّف وتسعون سنة... وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد وقل عندهم الصالحون من العلماء والعبّاد، وكثر بأرض الشام

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ١٩٥).

النُّصيرية والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس الشريف ونابلس وعجلون والغَوْرَ وبلاد غَزَّة وعسقلان وكَرَكَ الشَّوبك وطبرية وبانياس وصور وعشليت وصيدا وبيروت وعكا وصَفَدَ وطرابلس وأنطاكية وجميع ما وَالَىَ ذلك في بلاد آياس [١] وسيس [٢]، واستحوذوا على بلاد آمد والرُّها ورأس العين وبلاد شَتَّى، وقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله، وسَبَوا من ذراري المسلمين من النساء والولدان ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن صانها الله بعنايته وسلمها برعايته، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كُلَّها على أهلها من السادة المسلمين، ورد الله الكفرة خائبين، وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين [٣].

سادساً: القضاء على محاولة انقلابية لإعادة الدولة الفاطمية:

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان وأثَّروا في كل جوانب حياة مجتمعها، إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نظمها ومؤسساتها ورجالها والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج، وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة، لكنّ بعض مفكري الدولة الفاطمية، ورجالها وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها ظلت على ولائها لما كانت تمثله الدّولة السابقة من أفكار وامتيازات [٤]، فعملت تلك القوى الموالية للفاطميين من جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء السابقين مثل بني رزيك وبني شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية [٥]، وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصّبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خفية وخفية واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيّة، وعينّوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير، وبيّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل [٦]، ويبدو أن مؤامرتهم كانت في غاية التنظيم إذ عينوا خليفة ووزيراً ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرة يدعونهم في إحداها إلى الهجوم على مصر، في وقت كان صلاح الدين غائباً في الكرك، والتفّ هؤلاء حول عمارة اليمني، الفقيه والأديب السنيّ المذهب، الفاطمي الولاء الذي تولى مهمة المراسلة مع الفرنج، وظنّ المتآمرون أن سريتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنهم لم يعلموا أن القاضي الفاضل عن

---

(١) أياس : مدينة من بلاد الأرمن على الساحل البحر.

(٢) سيس : قاعدة بلاد الأرمن، صبح الأعشى (٤/ ١٣٤).

(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٤٥٧).

(٤) صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحياري ص ١٦٨.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٢٨٢).

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٢٨٢).

طريق ديوان الإنشاء كان يراقبهم مراقبة تامة حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرهم، وتذكر المصادر في كشف مؤامراتهم قصتين تختلفان بعض الاختلاف في التفصيلات أولاهما أن أحد الكتاب في الديوان وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى الفاضل بخضوع زائد، يخدمه ويتقرب إليه ويبالغ في التواضع إليه، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب، وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئاً، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وقال له: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع وذكر الحال، عندئذ استدعاهم صلاح الدين وقرّرهم فأقروا بمؤامرتهم، فاعتقلهم ثم أمر بصلبهم[1] وتشير الرواية الثانية إلى أن المتآمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لابن كامل من أملاك، فوافق وأمر بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجد من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ظاهرية، وبرسالة باطنية للمتآمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين [2]. وقد أشار القاضي الفاضل بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق، وتنم عن اطّلاعه الدقيق على المؤامرة، بل اشتراكه في إحباطها، فلعلّه هو الذي دسّ من أعلمه بتفصيلات المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنشاء المصري من الفرنج، وآخرين بينهم على اتصال بالديوان [3]. وجاء في الكتاب الذي كتب بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى نور الدين بعدما تّم التحقيقات التي أجراها صلاح الدين، ولخص الكاتب بتركيز وشمول بدايات المؤامرة وتطوراتها، وكيفيّة كشفها، وصلب رؤوس المتآمرين أمام بيوتهم [4].

إن صلاح الدين كان لا يزال بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يعتبر جند مصر.. وأهل القصر الفاطمي أعداء لدولته وضد وجوده ويتوقع منهم القيام بعمل ضده ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم.

وأنهم كانوا من إعلان الخطبة العبّاسية وحتى القبض عليهم لا يمر عليهم شهر ولا سنة

(١) القاضي الفاضل ص ١٤٦.
(٢) المصدر نفسه ص١٤٦، مفرج الكروب (١/ ٢٤٤، ٢٤٥).
(٣) القاضي الفاضل ص ١٤٦.
(٤) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٦٩.

إلا وهم يُدبرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج يوسعون لهم سُبُل المطامع.. ويزينون لهم الإقدام والقدوم [1]. لكن الفرنج لم يستجيبوا بداية لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤملونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

ووصل الأمر إلى أنّهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قواته يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه وقالوا في كتبهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تقدم عموري بقواته إلى صَدْر أو أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين ويمنعه من العودة، وعند ذلك تثور في القاهرة حاشية القصر، وكافة الجند (الفاطمي السابق في مصر) وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامة الإسماعيلية، وتفتك بأهل صلاح الدين ومعاونيه ورجال دولته في العاصمة [2]. لكنّ يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها أدركت عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حركات صلاح الدين في النقب جنوبي الأردن، وجمدته عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

ولم ييأس المتآمرون، فعندما وصل المدعو جِرْج (جورج أو جورجيوس) كاتب الملك عموري إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين (ويبدو أن الرسائل كانت متصلة في أوقات السلم) اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري: أنّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم علاّتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور، فعلنا ما تقدم ذكره في الثورة [3]. وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعون وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حصتهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى [4].

أن الملك عموري كان كلما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ «جِرْج» رسولاً إلى صلاح الدين: ظاهراً إلينا، وباطنا إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي

(1) كتاب الروضتين (٢/ ٢٨٧).
(2) المصدر نفسه (٢/ ٢٨٨).
(3) المصدر نفسه (٢/ ٢٨٨).
(4) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٠.

يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين «الجند» في أثناء هذه المُدَد رُسل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد [1].

كانت سياسة صلاح الدين أثناء هذه الفترة إذا شك أعوانه بأحد من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخلّى سبيلهم فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة [2].

واتصل المتآمرون في ذات الوقت «بشيخ الحيل» سنان [3]، زعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته محتجين: بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنّ ما بين أهلها خلاف إلا فيما يفترق به كلمة ولا يجب به قعود عن نُصرة [4]. وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال «الملوك» كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم، وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة [5]، أحد رجال الدولة الفاطمية السابقين، ويبدو أن الاثنين كانوا عند صاحب الجبل عند اكتشاف المؤامرة فالتجأوا إلى الصليبيين [6].

ولا نعرف إذا كان المتآمرون اتصلوا بملك صقليّة لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق ملك الصليبيين لكنّ الأسطول قدم بعد فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية، وكان مكوناً من ٢٠٠ سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة والرجالة، فمني بخسائر كبيرة خاصة أن الملك عموري لم يتقدم في البرّ كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتآمرين بحزم [7].

وفي المرة الأخيرة التي قدم فيها «جِرْج» برسالة إلى ديوان صلاح الدين وصل كتاب إلى الديوان «ممن لا نرتاب به من قومه «الصليبيين» يذكرون أنه رسول مخاتلة (خداع) لا رسول مجاملة، فاتخذ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لمراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شكٍ فيه، وقام «جرج» بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومدبري المؤامرة، وأمراء الجند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود، عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال آحد العيون إليهم من جماعته فَدَسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم[8]، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم [9].

وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة صلاح الدين من انكشاف الأمر وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أحضروا واحداً واحداً

---

(١) كتاب الروضتين (٢/ ٢٨٧).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٨٧).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٨٨).
(٤) (٥) (٦) المصدر نفسه (٢/ ٢٨٩).
(٧) (٨) (٩) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٢.

أمام صلاح الدين، وقَرَّرَهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قُطِعت أرزاقهم وأخذت أموالهم [1].

تبين من التحقيقات والإقرارات أنهم عَيّنوا خليفة ووزيراً، وأنه وقع خلاف بينهم حول الخليفة وحول الوزير (آل رُزَّيك أو آل شاور).

استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردد صلاح الدين في التنفيذ، طالب أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ، فصَدَر الأمر بقتلهم وصلبهم، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم [2]. وكان المشهورن الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، ودِاعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلا أن عمارة اعتقد أنها خدعة فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره [3].

وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بداية، ثم نُقلوا إلى أماكن مختلفة وأعطى القصر إلى أخيه العادل، ذلك أن صلاح الدين رأى: أنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها، فإنه «القصر» حبالة للضلال منصوب، وبيعة «مقامٌ» للبدع محجوبة [4].

وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر ونُفُوا أما البقية فقد أعلن في القاهرة: بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر ورجال السُّودان إلى أقصى بلاد الصعيد [5].

وكشفت التحريات والبحث في هذه القضيّة عن وجود داعية يُسَمّى «قُديد القَفّاص» في الإسكندرية، التي كان غالبية أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر، وأن أرباب المعايش (الحرب والصناعات) في ثغر الإسكندرية يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن [6]. كما وجد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر الصريح [7]. وهكذا فقد تمكن صلاح الدين بفضل الله ثم بصبره وقيادته الحازمة من القضاء على هذه المؤامرة والفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة الفاطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، والحاشية، والجند والسودان [8].

---

(١) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٢.
(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٢٨٩).
(٣) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.
(٤) كتاب الروضتين (٢/ ٢٩٠).
(٥) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.
(٦) كتاب الروضتين (٢/ ٢٩٠).
(٧) المصدر نفسه (٢/ ٢٩٠).
(٨) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.

١- عمارة بن علي اليمني الشاعر:

قال عنه الذهبي: أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكميُّ المذحجي اليمني الشافعي الفرضي، الشاعر، صاحب الديوان المشهور، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة وتفقَّه بزبيد مدةً، وحج سنة تسع وأربعين ونفّذه أمير مكة قاسم بن فليته رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بالشعر. وكان واضح الاعتقاد في أبي بكر وعمر، فقد حكى عمارة أن الصالح بن رُزِّيك فاوضه وقال: ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبقَ الإسلام علينا ولا عليكم، وأنّ محبتهما واجبة. فضحك، وكان مُرتاضاً حصيفًا، قد سمع كلام فقهاء السنة. قال الذهبي: هذا حلم من الصالح على رفضه [١].

وقال ابن واصل في سبب موالاة عمارة اليمني للفاطميين: وكان عمارة بن علي اليمني شديد التعصب لهم، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخولوه، فرعى ذلك ووفى لهم، والإنسان - كما قيل - صنيعة الإحسان، ولم يكن على مذهبهم وإنما كان شافعياً وسنياً، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر وذبَّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد؛ ولما تحرك جماعة في عَوْد الأمر إليهم، كان من جملة المساعدين على ذلك، شكراً لهم على إحسانهم إليه، فأدى به ذلك إلى أن شُنق [٢]، كما مر ذكره - وقد ذكر عمارة ميله لمذهب القوم في قصيدة يقول فيها:

أفاعيلهم في الجود أفعال سُنَّةٍ ... وإن خالفوني في اعتقاد التشيع [٣]

وقد علق الذهبي على هذا البيت فقال: يا ليته تشيع فقط، بل يا ليته ترفض، وإنما يقال: هو انحلال وزندقة [٤]، وقد قال عمارة في رثاء الفاطميين والعاضد:

أسفي على زمن الإمام العاضد ... أسفُ العقيم على فراق الواحد

جالست من وزرائه وصحبت من ... أمرائه أهل الثناء الخالد

همي على حُجُراتِ قصرك إذ خَلتَ ... يا ابن النبي من ازدحام الوافد

وعلى انفرادك من عساكرك الذي ... كانوا كأمواج الخِضم الرّاكد

قُلِّدتَ مؤتمن الخلافة أمرهم ... فكبا وقصَّر عن صلاح الفاسد

فعسى اللّيالي أن تُردَّ إليكم ... ما عوّدتكم من جميل عوائِدِ [٥]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٩٤،٥٩٥).

(٢) مفرج الكروب (١/ ٢١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٩٦).

(٤) المصدر نفسه (٢٠/ ٥٩٦).

(٥) كتاب الروضتين (٢/ ٢٩٣).

وله من جملة قصيدة:

يـا عـازلي في هـوى أبنـاء فاطمـة ... لـك الملامـة إن قصّـرت في عزلـي
بالله زُرْ ساحة القصرين وابك معي ... عليهما لا عَلى صفين والجمل
وقـل لأهلـهما والله مـا التحمـت ... فـيكم قُروحـي ولا جُرْحـي بمُنـدمل
مـاذا تـرى كانـتِ الإفـرنج فاعلـة ... في نسـل آل أمـير المـؤمنين علـي [1]

وأنا أستغرب من عمارة اليمني في نعيه لأيام الفـاطميين وحنينـه إلى بـدعهم وأعيـادهم وقصورهم وتحديه للدولة السـنية الجديـدة في مصـر ودفاعـه عـن الفـاطميين وأكـاذيبهم في زعمهم بأنهم من النسل النبوي الكريم، فهل متاع الدنيا الزائل يفعل بالعقائد الصحيحة مـا فعله بعمارة اليماني، وهل العطايا والجاه والمناصب تجعل الإنسان يترك عقيدتـه الصـحيحة ويبكي على أطلال الدولة الفاطمية الشيعية الرافضة؟ إن هذا لشيء عجاب.

٢- **حصار الإسكندرية:** إن أهل الإسـكندرية أسـهموا في نجـاح المشـروع السـني بمصـر، ودافعوا عن صلاح الدين عندما حوصر بها وهم يدافعونَ عن المدينة بشجاعة فائقة ورجولة منقطعة النظير، ومسلمي مصر عموماً وأهـل الإسـكندرية مـنهم خصوصـاً دائمـاً وأبـداً في الخندق المدافع عن قضايا الأمة قديماً وحديثاً، ولهم من الطاقات الفكرية والإمكانات المادية، والأقلام السيالة وصـفاء الفطـرة مـا يجعلـهم في مصـاف مـن يتصـدى للمشـروع الشـيعي الرافضي الباطني والمشروع الأمريكي الغربـي، وقـد قـاوم المصـريون قـديماً النفـوذ الشـيعي الباطني وتعاونوا مع إخوانهم من أهل السنة، فكرياً وعقائدياً وسياسياً وعسكرياً واقتصـادياً وإعلامياً حتى تم القضاء على المشروع الشيعي الباطني، ولذلك نجد كتّاب الشـيعة الرافضـة يقولون عن مصر وأهلها: أبناء مصر؛ لعنوا على لسان داود عليه السلام، فجعـل الله مـنهم القردة والخنازير [2]، وما غضب الله على بني إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها [3]، وقالوا: بئس البلاد مصر، أما أنها سجن من سخط الله عليه من بني إسرائيل [4]، وقالوا: انتجوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها لأنه يورث الدياثة [5]، وجاءت عندهم عدة روايـات في ذم مصـر، وهجـاء أهلـها، والتحـذير مـن سـكناها، ونسـبوا هـذه الروايات إلى رسول الله ﷺ وإلى محمد الباقر، وإلى علي الباقر، وهذا رأي الشيعة الروافض

(١) كتاب الروضتين (٢/ ٢٩٥).
(٢) بحار الأنوار (٦٠/ ٢٠٨)، تفسير القمي ص ٥٩٦. (٣) تفسير العياشي (١/ ٣٠٤) البرهان (١/ ٤٥٦).
(٤) تفسير العياشي (١/ ٣٠٥)؛ البرهان (١/ ٤٥٧).
(٥) بحار الأنوار (٦٠/ ٢١١)، أصول الشيعة (٢/ ٩٠٠).

في مصر في تلك العصور الإسلامية الزاهرة، وقد عقب المجلسي الشيعي الرافضي على هذه النصوص بقوله بأن مصر صارت من شر البلاد في تلك الأزمنة، لأن أهلها صاروا من أشقى الناس وأكفرهم (1) ويبدو أن هذه النصوص هي تعبير عن حقد الرافضة وغيظهم على مصر وأهلها بسبب سقوط إخوانهم الإسماعيليين العبيديين على يد صلاح الدين، الذي طهر أرض الكنانة من دنسهم ورجسهم، وأين هذه الكلمات المظلمة في مصر وأهلها الأحبة من وصية حبيبنا محمدﷺ بأهل مصر (2).

وإليك أيها القارئ الكريم ما قام به أهالي الإسكندرية للدفاع عن الإسلام وعن دولته السنية الجديدة في مصر، فقد تعرضت الإسكندرية لإنزال صقلي في الأيام الأخيرة من عام ٥٦٩هـ/ نهاية تموز ١١٧٤م، وكان الأسطول النورماندي يتكون من مائتي (3) سفينة، وقيل من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثون ألف مقاتل تنفيذاً للمخطط واسع النطاق الذي اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكي بيت المقدس وصقلية بهدف إحياء الخلافة الفاطمية في مصر(4) ورد الدعوة الشيعية الرافضية إلى ما كانت عليه. وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الإسكندرية في ١٦ ذي الحجة بعدما انكشفت المؤامرة وقضى على المتآمرين في الداخل من جهة وبعد وفاة عموري الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية. وشرع النورمان في مهاجمة الإسكندرية ونجحوا في إغراق بعض المراكب المصرية التي كانت راسية على الساحل(5). وقد أبدى الجيش الأيوبي وأهالي الإسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التي نصبت قرب السور «وأحسنوا القتال والصبر». وكان صلاح الدين غائباً عن الإسكندرية، وحين وصلها زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله (6). فما كان على الصليبيين سوى التسليم وصاروا بين قتيل وأسير (7). وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهالي الإسكندرية ضربة ماحقة بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون في إعادة التجربة مرة ثانية في عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة كلياً، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن (8).

---

(1) بحار الأنوار (٥/٢٠٨). (2) مسلم (٢/ ٢٩٧٠).
(3) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص ٣٨٢.
(4) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ص ٨٠.
(5) المصدر نفسه ص ٨١.
(6) (7) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص ٣٨٣.
(8) المصدر نفسه ص ٣٨٣.

سابعاً: الوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب الفاطمي وتراثه:

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب، بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد ما من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة، وتدابير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب[1]، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها[2]، وإليك بعض هذه الوسائل:

١- إذلال الخليفة الفاطمي العاضد: بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمي العاضد، للقضاء على فكرة «الولاية» التي تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ويستمد منها الحكام الفاطميون قداستهم، فأرغم الخليفة العاضد على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب، عند وصوله إلى مصر، رغم ما جرى عليه العرف، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية، من استعلاء الخليفة الفاطمي واحتجابه عن الناس لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم، بل يذكر أبو شامة أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس [3]، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد ورسوم الدولة، فمنح صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف، إذ خلع عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا [4]، ثم مافتيء صلاح الدين يعمل على الاستهانة بالخليفة وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته، فأخذ يستولي على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله، بحجة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد؛ حتى إن الخليفة في آخر الأمر، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذي لا يملك غيره، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة[5]، ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة للاستهانة به أمام رعيته كان يهدف أيضاً إلى إجبار الخليفة على الاعتزال، وتجنب الظهور في المناسبات العامة، حتى ينساه المصريون[6].

---

(١) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٥٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٥٦.
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٥٦.
(٤) (٥) (٦) المصدر نفسه ص ٥٧.

٢- وضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي: عمل صلاح الدين على وضع مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية إذا ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها «بالدولة القصرية»(١) نسبة لسكن خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة، ففي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها لمملوكه قراقوش الخادم، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج، وقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطان بمصر عن أخيه صلاح الدين(٢).

٣- قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به: ما لبث صلاح الدين في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر، طعنة قاتلة، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر الذي اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الشيعية الإسماعيلية(٣)، وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من ذلك التاريخ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس(٤)، وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة، بإزالة الشعائر الشيعية، التي أدخلها الفاطميون إلى مصر، واستمرت بها طول عصر دولتهم، من الأذان، وإبان إقامة الصلوات، فأبطل من الأذان قول «حي على خير العمل» واستمر الأذان في مصر على المذهب السني(٥) ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي، من السلام على الخليفة الفاطمي في الأذان(٦)، وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنياً يجمع فيه الدعاء للصحابة رضي الله عنهم، وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ، ولعميه حمزة والعباس رضي الله عنهما، ويأتي للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية (٧). ومما لاشك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر، الذي ظل طوال العصر

(١) كتاب الروضتين ص ٥٨.
(٢) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٦٠، ٦١. (٣) المصدر نفسه ص ٩٣.
(٤) الخطط للمقريزي (٤/ ٥٣).
(٥) المصدر نفسه (٤/ ٤٦)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٩٣. (٦) تاريخ مصر الإسلامية ص ٩٣.
(٧) المصدر نفسه ص ٩٤.

الفاطمي أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر [1]، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة – وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم – وهجرة علماء أهل السنة للتدريس فيه قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر وفي أغلب أرجاء العالم الإسلامي [2].

٤- إتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية: عمد صلاح الدين إلى الآلات الملوكية الفاطمية، وكنوز القصر الفاطمي، فعمل على إفسادها وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكي، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسي، ثم طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدة عشرة سنين[3]، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين [4]، وتحول إلى كتب الدعوة الإسماعيلية، التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم، ثم فرق الكتب غير المذهبية التي صودرت من مكتبة القصر، على كبار علماء وأنصار دولته، مثل العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل، وأبي شامة الأصفهاني، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة الشيعية الرافضية فقط [5]، وفي الحقيقة كانت كتب الدعوة الشيعية الإسماعيلية من أهم وسائل التأثير التي يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم. وقامت السلطات الأيوبية بإحراق كتب الإسماعيلية، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية إلا الكتب التي احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند بعد سقوط دولتهم بمصر [6]، هذا في الغالب.

٥- ألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين: لم يغب عن فكر صلاح الدين خطورة أثر الأعياد والمآتم والحسينيات المذهبية للشيعة في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين مما أدى إلى انقراضها من مصر منذ ذلك الوقت، وبدهاء سياسي، ومنطلق عقائدي مبني على محاربة البدع الشيعية الرافضية تم القضاء على الأعياد المذهبية المخالفة للكتاب والسنة، واستكمالاً لهذه الخطوة، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر، بصبغة سنية، بقيت إلى اليوم [7].

٦- محو الرسوم الفاطمية وعملاتهم: واقترن بمحو الرسوم الفاطمية بمصر، إبطال التعامل بالعملات الفاطمية، خاصة أنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في

---

(١) (٢) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٩٧.
(٣) كتاب الروضتين (٢/ ٢١٠)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٦١.
(٤) تاريخ مصر الإسلامية ص ٦٢.
(٥) المصدر نفسه ص ٦٢.
(٦) المصدر نفسه ص ٦٢.
(٧) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٣ – ٦٥.

الخلافة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله» كما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وصيغ عقائدية فاطمية، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين، استمالة لهم لعقيدة الدولة [١].

٧- التحفظ على أفراد البيت الفاطمي: احتاط السلطان صلاح الدين على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقَرَّر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين الرجال والنساء ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم [٢]، فكان من دواعي السياسة وطبائع الملك أن يتحفظ الأيوبيون على جميع أفراد البيت الفاطمي، خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم [٣].

٨- إضعاف العاصمة الفاطمية: بعد أن نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل، التي كانت عملاً عسكرياً بعيد المدى يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج، انتهزوا هذه الفرصة لابتذال مدينة القاهرة، عاصمة الفواطم، التي ظلت طوال مدة دولتهم، مدينة ملكية خاصة بسكن الخلفاء، وطوائف العسكر ورجال البلاد، وأرباب الدواوين، كما كانت في نفس الوقت حصناً عسكرياً بحيث كان أغلب أهل مصر يسكنون مدينة الفسطاط[٤]، وقد علق المقريزي على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله: فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصناً يعتقل به، ودار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز وابتذلت بعد الاحترام، وهذا شأن الملوك، مازالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم[٥]، ولكن ما فعله صلاح الدين في سبيل الله ونصرة لنبيه ﷺ .

٩- إحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي: ارتبط بإبادة الأيوبيين لجميع التراث الفاطمي، إحياؤهم لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي وبيان أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودي أو مجوسي، والاستمرار في هدم السند الشرعي المزيف للخلافة الفاطمية. ولقد قام العلماء المعتمدون بجهود مشكورة في فضحهم، مثل ابن خلكان، وابن أبي شامة، وابن واصل وغيرهم وأطلقوا على الفاطميين اسم «بني عبيد» إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القَداح المجوسي، بل نجد أبو شامة، يخبرنا

(١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٦٦.
(٢) كتاب الروضتين (٢/ ٢١٠).
(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٦.
(٤) العمارة العربية في مصر الإسلامية ص ٣٢٤ – ٣٢٦.
(٥) تاريخ مصر الإسلامية ص ٦٨.

بأنه ألف كتاباً منفرداً، يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين [1]، ولقد خصص أبو شامة في كتابه الروضتين، صفحات طوال في بيان ادعائهم للنسب النبوي الشريف [2].

١٠- الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن: هكذا قضى أهل السنة بزعامة نور الدين محمود على الدولة الفاطمية، وأبادوا تراثها، وتتبعوا أتباعها في مصر وانكمش التشيع ودخل في طور التخفي والتستر، وبدأ زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر مع استقرار عساكر نور الدين في مصر عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م واستمر الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بمواصلة القضاء على الدعوة الإسماعيلية في مصر واليمن والشام واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام، وظل التشيع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تدين بمذهب أهل السنة والجماعة [3].

والحقيقة أن التدابير التي اتخذها زعماء أهل السنة، كنور الدين وصلاح الدين في محاربة المد الشيعي الرافضي آتت أكلها فانقرض من مصر ذلك المذهب الشيعي الرافضي بشكل كامل، وذلك فقه عميق والأمة في أشد الحاجة إليه والدرس أن اجتثاث البدع من المجتمعات الإسلامية يحتاج لرؤية شاملة ومشروع متكامل بين الإحياء الإسلامي الصحيح والتصدي للفكر الباطني وتربية الأمة على انتزاع حقوقها، ومقاومة الغزاة الصليبيين وفيما مضى تحدثنا عن بعض وسائل صلاح الدين في القضاء على المذهب والتراث الفاطمي العبيدي.

وقد استفاد صلاح الدين والأيوبيون من تجارب نور الدين في الإحياء السني والتصدي للتشيع الرافضي، وإعداد الأمة للمقاومة وانتزاع حقوقها من أعدائها، ولذلك لم يبدأ صلاح الدين من الفراغ، وإنما استفاد من الوسائل النورية والتي من أهمها استحداث المدارس السنية، ودور الحديث، وجعل القضاء على المذهب السني وبسط إشرافه على المدارس، واستخدام الحسبة لإعادة مذهب أهل السنة، وتشجيع التصوف السني، ورصد الأوقاف لمؤسسات المجتمع المدني، ونشر عقائد أهل السنة وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الدولة الأيوبية. وقد قام الباحث محمد حمدان خالد القيسي بتقديم رسالة لاستكمال المتطلبات لدرجة الماجستير في جامعة اليرموك بالأردن حول أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغير واقع المجتمع المصري يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع.

---

(١) كتاب الروضتين نقلا عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٧٠.
(٢) كتاب الروضتين (٢/ ٢١٠٤ - ٢٢٣).
(٣) تاريخ مصر الإسلامية ص ٧٦.

ثامناً: فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي:

١- جهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين: تحقق هدف نورالدين محمود «المرحلي» وهو الوحدة الكاملة بين شمال العراق وبلاد الشام ومصر، وبعد سنتين أي في عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م شملت مملكة نور الدين السودان والحجاز واليمن، فأصبح المشرق الإسلامي كله دولة واحدة تأمر بأمر زعيم واحد ينظر بشوق ولهفة إلى الهدف الاستراتيجي الذي سعى لتحقيقه، منذ بداية حكمه، وهو تحرير بلاد الشام من الفرنجة المحتلين [١]، وقد أصبح هذا الهدف يلوح في الأفق فأمر بصنع منبر فخم للمسجد الأقصى لكي يأخذه معه عندما يتوجه لفتح القدس [٢]، وكتب إلى صلاح الدين يأمره بالمسير على رأس جيش مصر ليلقاه على قلعة الكرك الفرنجية [٣]، سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك «جنوب الكرك»، فلما علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين ولكنه تلقى رسالة منه قبل وصوله إليه يبلغه فيها أن الأمور اضطربت بمصر وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها، ولابد له من العودة لضبط الأمور وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين [٤]، كان نور الدين مهتماً اهتماماً كبيراً بقلع الكفار من بلاد الشام، وعندما وصله شيء من ذخائر قصور الفاطميين، وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ قال: والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولانسد به خلة الإقلال، فهو – صلاح الدين – يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في مصر وبنا إلى الذهب فقر.. لكنه يعلم أننا نريد ثغور الكفار من بلاد الشام [٥]. أي أنه لا يريد من المال والرجال إلا قلع الكفار من سواحل البلاد[٦]. وأما صلاح الدين فقد كان يتفق مع نور الدين في الأهداف الاستراتيجية إلا أنه خاف من اضطراب مصر، فكان يهمه ترتيب شؤون مصر أولاً وصرف همه لهذا، ولذلك اضطر للرجوع ويبدو أن نور الدين فكر بدخول مصر بجيوشه والالتفاف على الصليبيين منها بقيادته، وأحس صلاح الدين بنية نور الدين فجمع أهله في مصر وكان من بينهم أبوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي [٧]، وبعض قادة الجيش وشاورهم فيما سمعه عن نية نور الدين التوجه لمصر وعزله عنها، فأشار عليه أحد أبناء إخوته ويدعى

---

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

(٤) الباهر ص ١٥٨، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢١٣.

(٦) الجهاد والتجديد ص ٢١٣.

(٧) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

عمر بأن يتم الاستعداد لمقاتلة نور الدين إذا حضر لمصر، ووافقه بعض الحاضرين على رأيه، فبادر نجم الدين والد صلاح إلى زجرهم واستنكار قولهم وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: «بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وماها هنا من يمتنع عليك[1]. وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر [2]، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده [3]. وكان نجم الدين أيوب شديد الحب والولاء والطاعة لنور الدين رحمه الله – تعالى – وهكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين [4]. وفي بداية عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م وبعد عودة نور الدين من أذربيجان وأرمينية، تسلم منشوراً من الخليفة بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر، وفي شهر شوال من العام نفسه خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها وأعلم نور الدين بخروجه تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه في العام السابق، فخرج نور الدين من دمشق بدوره ليلقاه فلما وصل إلى الرقيم (في وسط الأردن) تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض، ويخشى عليه الموت فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويمتنعوا فيها وأنه مضطر للرحيل إلى مصر[5]. وعندما علم نور الدين بذلك قال: إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره[6]، ثم لم

(١) (٢) كتاب الروضتين (٢/ ٢٢٨).
(٣) (٤) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٩).
(٥) الباهر ص ١٥٩.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٠.

تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لمخاوف صلاح الدين فقامت عليه ثورة كبيرة بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمني وبقية أنصار المذهب الشيعي الرافضي، وقد بينت ذلك فيما مضى. وفي عام ٥٦٨هـ شن نور الدين الغارات على الصليبيين، وكان العماد الأصفهاني راكباً مع الملك العادل وهو يقول له: كيف تصف ما جرى؟ فمدحه بقصيدة وكان ذلك في دفاع نور الدين عن حوران فقال:

عُقِدت بنصرك راية الإيمان ... وبَدَت لِعَصْرِكَ آية الإحسان
يا غالب الغُلْبِ الملوك وصائد ... الصيد اللُّيوث وفارس الفُرسان
يا سالبَ التِّيجان من أربابها ... حُزت الفخار على ذوي التيجان
محمود المحمود ما بين الورى ... في كلِّ إقليم بكل لسان
يا واحداً في الفضل غير مُشَارَكٍ ... أقسمت مالك في البسيطة ثان
أحلى أمانيك الجهاد وإنَّه ... لك مؤذِنٌ أبداً بكلِّ أمان
كم بكر فتح ولَّدته ظُباك من ... حربٍ لقمع المشركين عَوَان
كم وقعةٍ لك بالفرنج حديثها ... قد سار في الآفاق والبلدان
قَمَّصت قُومَصهُم رداء من ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رِقَّ ملوكهم وتركتهم ... بالذُّل في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم ... وسحبتهم هوناً على الأذقان
إذ في السوابغ تُحطمُ السُّمر القنا ... والبيض تُخضبُ بالنَّجيع القاني
وعلى غِنَاءِ المشرفيَّة في الطُّلى ... والهام رَقصُ عوالي المُرَّان
وكأن بين النَّقع لَمْعَ حديدها ... نارٌ تألَّفُ من خلال دُخان
في مأزق ورد الوريد مُكَفَّلٌ ... فيه بري الصَّارم الظمآن
غطَّى العجاج به نجوم سمائه ... لتنوب عنها أنجم الخُرصان
أو ما كَفَاهم ذاك حتى عاودوا ... طُرُق الضَّلال ومركب الطُّغيان

ومنها:

وجلوت نور الدين ظُلمةَ كُفرهم ... لما أتيت بواضح البُرهان
وهزمتهم بالرَّأي قبل لقائهم ... والرأي قبل شجاعة الشُّجعان

أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً والكفرُ منك مضعضع الأركان
قوّضت أساس الضلال بعزمك الماضي وشيدت مباني الإيمان
قل أين مثلك في الملوك مجاهدٌ لله في سرٍّ وفي إعلان
لم تُلقهم ثقة بقوة شوكة لكن وثقت بنصرة الرحمان
وبلغت بالتأييد أقصى مَبلَغ ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدُّنيا فقاصيها إذا حقّقته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذُرا مصر إلى قُوص إلى أُسوان
لم تُلهُ عن باقي البلاد وإنما ألهاك فرض الغزو عن هَمَذان
للرُّوم والإفرنج منك مصائب بالترك والأكراد والعربان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت لك أوجه الأملاك بالإذعان
أنت الذي دون الملوك وجدته ملآن من عُرْفٍ ومن عِرفان
في بأس عمرو في بسالة حيدر في نطق قُسّ في تُقى سلمان
سِرٌّ لو أنَّ الوحي يَنْزل أنزلت في شأنها سُوَرٌ من القرآن
فاسلم طويلَ العُمر ممتدَّ المدى صافي الحياة مُخلَّدَ السُّلطان[1]

٢- **ضم المغرب الأدنى:** عمل صلاح الدين على تحصين إنجازاته التي حققها في مصر وذلك بتأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرة، وأسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى فقد كانت شمال إفريقية مرتبطة عضوياً بمصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعي أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضمّ بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى، ففي عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش غلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس، باستثناء المهدية وصفاقس، وقفصة، وتونس[2].

٣- **ضم اليمن:** يدخل ضم اليمن ضمن المخطط النوري الهادف إلى توحيد جبهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبي[3]، وقد هدفت سياسة صلاح الدين في ضم اليمن إلى:

(١) كتاب الروضتين (٢/ ٢٤٣، ٢٤٤).
(٢) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٤٦.
(٣) تاريخ اليمن الإسلامي، د. محمد عبده السروري ص ٢١١.

أ - التضييق على أنصار الفاطميين وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان شيعياً رافضياً.

ب- استطاع صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبية، لأن ضم اليمن، الذي يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية ويُبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع بين فكي الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب.

ج- كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار تتنازعها الأهواء السياسية والدينية والمذهبية وبخاصة بين زبيد وصنعاء، كما ظهر دعيٌّ زعم أنه المهدي المنتظر هو عبد النبي بن مهدي وتغلب على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسمَّى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبَّة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة.

د- أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساوئ التي تهدد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم [(١)]. ومهما يكن من أمر، فقد وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه الذي ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زبيد، فامتلكها كما سار إلى عدن وامتلكها ومنع الجيش من نهبها وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها، واستوثق له ملك اليمن بحذافيره وخطب للخليفة العباسي [(٢)]. وقتل الدعي المسمى بعبد النبيّ، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها [(٣)]، وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له [(٤)].

٤- **فتح بلاد النوبة:** وكانت وقتها مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة تقع في أعالي النيل، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام منذ الفتح الإسلامي ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدّي عليها من ناحية الجنوب، وأرسل أخاه توران شاه في شهر جمادي الآخرة عام ٥٦٨هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٧٣م إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلادالشام ص ٤٨.
(٢) الطريق إلى بيت المقدس ص ٩٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٩٦.

أماكن لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل، وعين إبراهيم الكردي والياً عليها [1]. وكان هذا الفتح سبباً في إزالة الحواجز التي كانت تحول دون انتشار الإسلام فيها[2].

تاسعاً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون عن علاقة نور الدين بصلاح الدين، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو شامة نقلاً عن ابن أبي طي أسباب الوحشة بين نورالدين وصلاح الدين التي ابتدأت سنة سبع وستين وخمسمائة. وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين[3]، وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طي عدد من المؤرخين [4]، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص، وغالوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشة ونتائجها، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك أن كل واحد منهما كان يخاف صاحبه، وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين، ويحبذ أن تظل منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكر في أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين وما إلى ذلك [5] وهذا التصورات الباطلة لا أصل لها إلا عند ابن أبي طي وابن الأثير:

فأما ابن أبي طي: فقد حاول بما أتقنه من الدس والكذب أن يطعن في العلاقة بين الرجلين وهو متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين كان قد أذلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوَّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيّ كثير التحامل على نور الدين ويحاول أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه النتنة [6].

وأما ابن الأثير: فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين وتجريحه وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين [7]، فمؤرخ البيت الزنكي في كتابيه الكامل في التاريخ والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية قد ذكر الآراء في كتابيه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وفياً لأستاذه نور

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٤٩.
(٢) جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول، د. فرست ص ٥٢.
(٣) الباهر ص ١٥٨، ١٥٩، كتاب الروضتين (٢/ ٢٢٧).
(٤) نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ١١٦.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٧.
(٦) كتاب الروضتين (٢/١١٧، ١١٨).
(٧) دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص ٦٢.

الدين، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال عنه، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام، فكل هذه الآراء [1] كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهدا نفسيهما طويلاً في تكوينها، وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم وترجع الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقاً من سوء وتشرذم وضعف، بعد انقسام البيت الزنكي، حزب في دمشق وحزب في حلب، ولم يستطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده [2]، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى ابن نور الدين يخبره أن خروجه للشام، هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج [3]، وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي رددها ابن الأثير، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع، قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتعليل مسلك صلاح الدين بعد وفاة نور الدين، وكان وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في تاريخه الكامل والباهر، وتلمس له مواضع الزلل، وأسباب الخطأ [4]. وفي الحقيقة أن صلاح الدين كان نعم الجندي في السمع والطاعة لقائده نور الدين زنكي وإليك الأدلة على ذلك:

١- **قال العماد الأصفهاني** إن صلاح الدين كان لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين [5].

٢- **وأما أبو شامة،** فقد عمد إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين، وفي رأي أبي شامة، أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إلا إسرافه في تفريق الأموال وصرفها، واستبداده بذلك من غير مشاورته [6]. ويؤكد أبو شامة رأيه بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين، يقرر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي

---

(١) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٢٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢.
(٣) مرآة الزمان (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٢.
(٤) التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص٣٨ ، ٤٩.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٣.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٣.

عصرون، الذي تولى القضاء له بالشام ثم لصلاح الدين بمصر، إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السني بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل [1].

٣-والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة، التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها، جاءت بأمر مباشر من نور الدين، ولم تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نورالدين إلى مصر، ليشرف بنفسه ويساعد ابنه للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية [2].

٤-وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نورالدين وكونه نائباً عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية، إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد [3]، وأثر نقل الخطبة للعباسيين، كان الخطيب بمصر وأعمالها يدعو لنور الدين بعد الخليفة، وقُرِّرت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين فنُقش اسم كل منهما في وجه [4].

٥-وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر سنة ٥٦٨-٥٦٩هـ لكشف البلاد وارتفاعها ومراجعة حساباتها لتقرير القطعية أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين، أمراً طبيعياً يؤكد تبعية مصر لنور الدين [5].

٦-لقد أدركت الخلافة العباسية هذه الحقيقة الجوهرية، فميزت بوضوح بين الخلع الخليفية لنور الدين وبين الخلَع الخليفية لصلاح الدين، وجَعلت خلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين في حين قلّدت نور الدين بالسيفين، إشارة إلى تقليده لقطري الشام ومصر، وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خلعًا سيّرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر [6]، وتأكيداً لتبعيتهم المباشرة له.

٧-كان صلاح الدين يراعي التأدّب في رسوم الملك، فلا يساوي نفسه بسيده نور الدين، فقد أرسل الرُسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبسَ صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح

(١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.
(٣) السلوك للمقريزي (١/ ٤٥)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.
(٤) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.
(٥) مفرج الكروب (١/ ٢١٩)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٥.
(٦) مفرج الكروب (١/ ٤٧)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٦.

الدين على مداومة إرسال ما قُرِّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة[١].

٨- وإذا كانت جميع الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية والخطبة لبني العباس والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر قد تمت بتوجيه مباشر من نور الدين وبعد إرساله لنجم الدين والد صلاح الدين فإن ضمَّ صلاح الدين لليمن تم بإذن نور الدين للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية هناك وضم اليمن لجبهة المقاومة بحيث أرسل نور الدين هذه الباشرة بنفسه للخليفة العباسي[٢]، وكذلك في ضم المغرب الأدنى وغزو مملكة النوبة ويشر الخليفة العباسي بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس [٣]. فقد كتب نور الدين إلى الخليفة العباسي: وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أَمَد الفتوح في مضمار المنافسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفاتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة، ما تيسر في هذه النَّوْبَة من افتتاح بعض بلاد النُّوبَة، والوصول إلى مواضع منها، لم تَطرُقها سنابك الخيل الإسلامية في العصور الخالية، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها.. حتى بلغوا إلى حدود المغرب [٤].

٩- ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر، حتى وفاة نور الدين داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى سيده نور الدين رمزاً للولاء والتبعية، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر، فنجده مثلاً يرسل إليه كتاباً يتضمن ذكر ثورة بقايا الفاطميين والتي كان من ضمنها عمارة اليمني [٥]، وليس أدلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين من تفاهمهما الاستراتيجي في قتال الفرنج؛ فيذكر أبو شامة أنه في سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م تولى السلطانان نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر جهاد الصليبيين، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ «جهاد السُّلطانين للفرنج» [٦]، وهذا ما أكَّده صلاح الدين في كتاب له للخليفة العباسي بقوله إنه: كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله، في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام، المملوك (أي صلاح الدين) بعسكره وبره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره [٧].

١٠- ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل، وضرب السكة

(١) (٢) (٣) مفرج الكروب (١/ ٢٣٥)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٧.
(٤) مفرج الكروب (١/ ٢٤٨)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٧.
(٥) كتاب الروضتين (٢/ ٢٣٩).
(٦) المصدر نفسه نقلاً عن تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٧
(٧) المصدر نفسه ص ٢٧.

باسمه[1]، ووافى إرسال الرسائل في العزاء بنور الدين [2]، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أنَّه حتى وفاة نور الدين، كانت مصر والشام قد توحدتا تحت زعامة نور الدين [3]، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني حين امتدح نور الدين فقال:

بملك مصر أهنيء مالك الأمم	**فشق وأبشر بنصر الله عن أمم**
فملك مصر وملك الشام قد نُظِمَا	**في عقد عز من الإسلام منتظم**[4]

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء ولا مسوّغ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة كما يقرر ذلك عدد من المؤرخين والكتاب وكل ما هنالك أنّ نور الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات وسدّ بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية المجاهدة، وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوي، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام [5]، وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك، حيث قال: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها [6].

عاشراً: وفاة نور الدين محمود:

قال العماد الأصفهاني: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلِّقت محالُّ دمشق أيامًا. قال: ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها:

عيدان: فطرٌ وطُهْر	**فتح قريب ونصر**
كلاهما لك فيه	**حقاً هناء وأجر**
وفيهما بالتَّهاني	**رسمٌ لنا مستمر**

(١) السلوك (١/ ٥٥)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨.
(٣) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨.
(٤) كتاب الروضتين نقلا عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨.
(٥) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصلنيية ص ١١٩.
(٦) زبدة حلب (٢/ ٣٣٩)، نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية ص ١١٩.

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفراش قاضي العسكر، بعد أن صلّى به وذكّر، وعاد للقلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخَاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص [2]،... وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكّر وركب وجمّل الموكب.. ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته والى حلب وقد جرب الدهر بحنتكه.. فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنّ السنة بعيدة، فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُشي وقال له: ياش[3]، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله، والنَّاس من الختان لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاَّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح [4]. قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين [5]، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها [6]، وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسة مئة، ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله، جوار الخوَّاصين في الشارع الغربي رحمه الله تعالى [7]. وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت

(١) (٢) ٣) كتاب الروضتين (٢/ ٣٠٨).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣٠٩).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ٣١٠).

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٣١٣).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٣٧).

للشهادة فلم أُدْرِكْ، وقال الذهبي: نور الدين الشهيد [1]، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

الـدين في ظُلَم لغيبة نوره ... والدهر في غُمم لفقد أميره
فلينـدُبِ الإسلامُ حامي أهله ... والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في أخطاره ... إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقد من ... قرّت نواظرُهُم بفقد نظيره
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ... أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بانياً ... لله طوعاً عن خُلوصِ ضَميره
من ينصر الإسلام في غزواته ... فلقد أصيب بُركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ... من للهُدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذلِّلاً لجماحها ... من للزمان مُسهِّلاً لوعُوره
من كاشفٌ للمعضلات برأيه ... من مُشرقٌ في الدَّاجيات بنوره
من للكريم ومن لنعش عِثاره ... من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ... من للجهاد ومن لحفظ أمُوره
من للفتوح محاولاً أبكارها ... برواحه في غزوه وبكوره
من للعُلا وعُهودها، من للنَّدَى ... ووفوده، من للحِجا ووفوره
ما كنت أحسب نورَ دينِ محمدٍ ... يخبو وليلُ الشرك في دَيْجوره
أعزز عليَّ بليث غاب للهُدى ... يخلو الشَّرى من زوره وزئيره
أعْزِز عليَّ بأن أراه مُغيَّباً ... عن محفل متشرِّفٍ بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنَّها ... مُذ غُيِّبت غاض النَّدى ببحوره
ولقد أتى من كنت تُجري رسمه ... فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتي من كنت تكشف كُرْبَه ... فارفع ظلامته بنصر عشيره [2]
ولقد أتى من كنت تؤمن سِرْبَهُ ... وقع لبيه بالأمن من محذوره
ولقد أتى من كنت تُؤثر قُرْبَه ... فأدِم له التَّقريبَ في تقريره

---

(1) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٣٧) .

(2) كتاب الروضتين (٢/ ٣٦٩).

والجيش قـد ركـب الغَـداة لَعرْضِـهِ
فاركـب لتُبصِـرهُ أوان عبـوره

أنـت الـذي أحييـت شـرع محمـد
وقضـيت بعـد وفاتـه بنشـوره

كـم قـد أقمـت مـن الشّريعة مَعْلماً
هـو مُنْـذ غبـتَ مُعَـرَّضٌ لـدُثوره

كـم قـد أمـرت بحفـر خنـدق مَعْقِـل
حتـى سَـكَنت اللَّحْـدَ في محضـوره

كـم قيصـر للـروم رُمْـتَ بقسـره
إرواء بـيض الهنـد مـن تـاموره[1]

أوتيـت فـتح حصـونه وملكـت
عقـر بـلاده وسـبيتَ أهـل قصـوره

أزَهِـدْتَ في دار الفنـاء وأهلـها
ورَغبـت في الخُلْـدِ المقـيم وحُـوره

أوَ مَـا وعـدت القُـدْسَ أنـك مُنجِـزٌ
ميعـاده في فتحـه وظهـوره

فمتى تجير القُـدْسَ مـن دَنس العِـدَى
وتقـدّس الـرحمن في تطهـيره

يـا حـاملين سـريره مهـلاً فمـن
عَجَـبٍ نهوضـكم بحمـل ثـبيره[2]

يـا عـابرين بنعشـه أنشـقتُمُ
مـن صـالح الأعمـال نشـر عـبيره

نزلـت ملائكـة السـماء لدفنـه
مسـتجمعين علـى شـفير حفـيره

ومـن الجفـاء لـه مقـامي بعـده
هـلاً وفيـتُ وسـرتُ عنـد مسـيره

حَيَّـاك مُعْتَـلُّ الصَّـبا بنسـيمه
وسـقاك مُنْهَـلُّ الحيـا بـدروره

ولبسْـتَ رضـوان المهـيمن سـاحِباً
أذيـال سُـندس خـزّه وحريـره

وسـكنت علـيّين في فِرْدَوْسِـهِ
حِلـفَ المسَـرَّة ظـافراً بـأجوره[3]

وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاده تلميذه الـذكي وجنده المخلص صلاح الـدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أسَّسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بـذلك علـى أكمل الوجوه وأتمها، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن عصر الدولـة الأيوبية وسيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

***

(١) التامور : النفس ومهجتها.
(٢) ثبير : من أعظم جبال مكة المكرمة.
(٣) كتاب الروضتين (٢٠/ ٥٣٧) .

الخلاصـــــة

١- من الحقائق المسلم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين انبعثت لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة وهي تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مضر، وديار بكر، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الريع والنماء، واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة، ومن أشهر قادة السلاجقة الذين جاهدوا الصليبيين، قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب الموصل، وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر، وقلج أرسلان في آسيا الصغرى.

٢- ويحتل شرف الدولة مودود بن التونتكين مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت عوامل عدة من أهمها، الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة وقدرته على تزعم حركة الجهاد وإيجاد نوع من التنسيق ربما لأول مرة، بين كل القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، وقد استطاع وضع الصليبيين في موضع الدفاع وتحقيقه عدداً من الانتصارات جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين، ثم جاء مقتله السريع إثر ذلك، في جامع دمشق على أيدي الشيعة الباطنية الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة وقد حزن عليه المسلمون حزناً عميقاً، ويعتبر في تاريخ الأمة من أبطال الحروب الصليبية وكانت فترة إمارته للموصل من عام ٥٠١هـ -٥٠٧هـ وكان عند مقتله صائماً وأراد من حوله تفطيره إلا أنه قال: لا لقيت الله إلا صائماً ومات من يومه رحمه الله.

٣- تعتبر حملات مودود نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرت الإسلام حقيقة واقعة، ووجدت فارسها المخلص الذي حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التي تولى فيها إمارة الموصل، ويمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكي مع عدم إغفال الفارق الزمني في صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما والتي أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩هـ حيث أن مودوداً وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها وتعتبر جهوده المقدمة الأولى لجهود زنكي ضدها على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

٤ـ من القادة السلاجقة المجاهدين نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، الذي استطاع أن يكبد الصليبيين خسائر فادحة في الأرواح في معركة ساحة الدم في عام ٥١٣هـ وأسر معهم الكثير، وقد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين في الشام والجزيرة إضافة إلى أنها جعلت حلب في منأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين إيلغازي على حصن قريب من الأثارب.

٥ـ تولى راية الجهاد بُلك بن بهرام بن أرتق بعد وفاة عمه نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين وكان خصماً عنيداً للصليبيين وكان يتطلع للقضاء لا في منطقة الجزيرة فقط بل وفي بلاد الشام. وقد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين إيلغازي في رجب سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م بحصار الرها، ودخل في معمعة الجهاد ضد الصليبيين ووقع في أسره بعض ملوك الصليبيين كجوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة سنة ٥١٦هـ، ولم يمهل الأجل بلك بن بهرام فبينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منبج وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله، لا يدري من رماه، وفقد المسلمون بمقتله رجلاً أثبتت أعماله أنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين وكان استشهاده ٥١٨هـ.

٦ـ ومن قادة الجهاد آق سنقر البرسقي أمير الموصل السلجوقي الذي استطاع أن يفك الحصار عن حلب من قبل الصليبيين في عام ٥١٨هـ، وقد تمّ قتل قسيم الدولة آق سنقر البرسقي صاحب الموصل في سنة ٥٢٠هـ بمدينة الموصل، قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع وكان يصلي مع العامة فوثب عليه بضعة عشر رجلاً وجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان تركياً خيراً يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله وكان من خيرة الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها ويصلي من الليل متهجداً.

٧ـ أثبت الباطنية عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين.

٨ـ ومن فضل الله على هذه الأمة أن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي ربيع الآخر من عام ٥٢١/ ١١٢٧م عهد السلطان محمود السلجوقي إمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين.

٩ـ وكان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي، الدور الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والإدارية.

١٠- كان للقاضي بهاء الدين الشهرزوري دور كبير في تنصيب عماد الدين زنكي في الموصل لكونه قائدًا عسكريًا قويًا ولذلك رشح عماد الدين لقيادة القوى الإسلامية التي كان لها الأثر في التصدي للغزو الصليبي، وكان لهذا الاختيار أثره في إرساء حجر الجهاد في المشرق الإسلامي حيث تمكن من خلاله غرس نواة الوحدة مع حلب عندما أخذها ورحب به أهلها عام ٥٢١هـ وكان موقع حلب الاستراتيجي بين بلاد الشام ومناطق أعالي الفرات هو الذي جعلها في قلب الأحداث آنذاك، وقد أدرك عماد الدين أهمية ذلك الموقع بالنسبة لبلاد الشام والموصل والجزيرة الفراتية، واعترافاً من عماد الدين بالجهد الذي قام به بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه ورداً لجميله عينه قاضي قضاة بلاده جميعها، وما يفتحه من البلاد، وكان يثق فيه وفي آرائه، لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان لا يصدر إلا عن رأيه.

١١- اتصف عماد الدين بصفات القادة العسكريين والسياسيين والتي من أهمها؛ الشجاعة، والهيبة، والدهاء، والمكر، والحيلة، والذكاء، واليقظة والحذر، والقدرة على اختيار الأكفاء من الرجال، وتقدير الرجال، وقلة التلون والتنقل، والغيرة على محارم المسلمين، والعدل.

١٢- اهتم عماد الدين زنكي بضبط إماراته وكانت النظم التي سار عليها تعتبر امتداداً طبيعياً للسلاجقة في غالب مؤسسات الدولة العسكرية، والإدارية، والمالية والقضائية.

١٣- عمل عماد الدين على توحيد الجبهة الإسلامية وذلك بضم المدن التي حوله والقريبة منه بسبب ضعفها وتفرقها وضيق مساحتها ثم توسع في مناطق الأكراد وضمها لدولته كالأماكن التي كان فيها الأكراد الحميدية والهكارية والمهرانية، والبشنوية، واستطاع عماد الدين أن يضع يده على معظم ممتلكاتها وقواعدها المهمة ويخضعها لسيطرته في أقل من عقد ونصف، بفضل الله ثم قدرته العسكرية وخططه السياسية البارعة التي أتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة.

١٤- استمر عماد الدين في توسيع نفوذ دولته ولم يقم في بداية حكمه بأي نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يثبت أقدامه في إماراته الجديدة، ويُعزّز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ويوحد ما أمكنه من الإمارات الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام إلى الحد الذي يمكنه من التصدي لهم، وبعد أن أنهى معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر وانتهت هدنته مع جوسلين أمير الرها، قرر البدء والهجوم على المواقع الصليبية، وبدأ في فتح الحصون وضمها لدولته.

١٥-ظهرت قدرات عماد الدين ودولته في الدفاع عن حلب أمام الحملة الصليبية البيزنطية، فقد قاومت حلب وقام أهاليها بهجمات سريعة على معسكرات الأعداء أدخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسهم فآثروا الإنسحاب.

١٦-وعندما توجهت جيوش الصليبيين والامبراطور البيزنطي إلى شيزر، كان عماد الدين يقود حركة المقاومة للدفاع عن المدينة واستخدم أساليب الحرب النفسية ضد الجيوش الغازية، وأرسل في طلب النجدة من كل المناطق للتصدي للغزاة، وشرع في رمي الأعداء بسهام الحيلة والدهاء وإيجاد فتنة بينهم، فقد اتبع عماد الدين خطة عسكرية فقد راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند المدينة يقول لهم: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم، وكادت الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الامبراطور بالنزول إليه وقتاله، ولكن يوحنا خشي مغبة ذلك وأجاب: أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدات المسلمين ما لا حد عليه. وفي نفس الوقت كان يراسل صليبيي الشام يحذرهم من امبراطور الروم ويعلمهم أنه إذا استولى على حصن واحد من الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، ويرسل من جهة أخرى إلى الامبراطور يخوفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه فاستنفر كل طرف من الطرف الآخر وسادت الشكوك بينهما.

١٧- تعتبر من أهم أعمال عماد الدين زنكي فتح الرها، في ٥٣٩هـ، وكان لهذا النصر نتائج مهمة على العالمين الإسلامي والنصراني، ومن أهم تلك النتائج:

* تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامي وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إحجافاً بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما مودود، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة وإباء وإنجاز.

* تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية غير الشرعية لن تستمر على الأرض لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل، وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق وكذلك بلاد فارس.

* أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق والرحم الأم في الغرب الأوروبي.

١٨-بعد فتح الرها ارتفع شأن عماد الدين زنكي إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين فقد احتل مكانة بارزة، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء، أمير العراقين والشام. وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية أحاديث تمحورت حول شخصيته، تصور لنا مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير.

١٩-مدح الشعراء عماد الدين زنكي في فتح الرها واللافت للنظر أن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتّموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ أدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها رغبتهم في عدم اطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعز والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين -عرباً وأكراد وأتراكاً - وهم يقودون الجيوش ويحملون راية الإسلام مجاهدين ويترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية ويجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة.

٢٠- استطاع عماد الدين زنكي أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة. استطاع بقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن يقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج من تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين. وتظهر أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين وإيلغازي وبلك الأرتقيين ٥١٢هـ - ٥١٨هـ، وآق سنقر البرسقي ٥١٨-

٥٢٠هـ، وقد مهد عماد الدين لابنه نور الدين في توحيده للجبهة الإسلامية وكسر هيبة الصليبيين بفتح الرها.

٢١- تولى حركة المقاومة ضد الصليبيين بعد وفاة عماد الدين ابنه نور الدين زنكي وقد تميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته - بعد توفيق الله - على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها؛ الجدية والذكاء المتوقد، الشعور بالمسؤولية، وقدرته على مواجهة المشاكل والأحداث، ونزعته للبناء والإعمار، وقوة الشخصية، ومحبة المسلمين له، واللياقة البدنية العالية، وتجرده وزهده الكبير، وشجاعته الفائقة، ومفهومه للتوحيد، وتضرعه ودعاؤه، ومحبته للجهاد والشهادة، وعبادته، وإنفاقه وكرمه.

٢٢- اتخذ نور الدين محمود زنكي من سيرة عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي وأهميته في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة.

٢٣- كانت أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود، الحرص على تطبيق الشريعة، ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله، من التمكين والأمن والاستقرار والنصر والفتح المبين والعز والشرف وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.

٢٤-اهتم نور الدين في بناء دولته بالعقيدة الصحيحة وكان أظهر ما في شخصيته هو إيمانه الإسلامي العميق وحرصه على صبغ دولته بمنهج أهل السنة، ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي، واتخذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية مهمة، فاهتم بالمدارس السنية ودعمها بالمال والأوقاف واهتم بعلماء أهل السنة وشجعهم على الهجرة لدولته وفتح أبوابها، وكان لخريجي المدارس النظامية مكانة خاصة، فقد كانت لهم قدرة فائقة على الإحياء السني وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة وكشف باطلهم بأسلوب علمي رصين.

٢٥- لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية

والشافعية، بل كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي الرافضي والتمكين لمذهب السنة، ولذلك كان يعتني بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم. ونجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها في جبهة واحدة ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي.

٢٦- دعم نور الدين التصوف السني وبنى لهم خوانق وربطا واستفاد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء وفي الجهاد وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم، واستطاع نور الدين أن يستفيد من التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية في بلاد الشام ومصر، واستفاد من هذه الطاقات الكامنة في الأمة ولم يعادها.

٢٧- اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف وكان من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف الجانب للحق والعدل والصواب إلى الطعن في صحاح السنة، ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وعلومه كانت استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبئ الناس للجهاد وتحيي فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله.

٢٨- من العوامل التي ساعدت نور الدين في نجاح برنامجه الإصلاحي، أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج، وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات، واستطاع نور الدين أن يوظف بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره، ويستعين بهم في دعم المذهب السني، وكانت شخصيته وصفاته التي تميز بها من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها.

٢٩- كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة والاستمرار في مقاومة الغزو الصليبي، ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر والعلم والثقافة والسياسة والقوة.

٣٠- كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني لأن أبرز ما

كان يستخدمه الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً؛ يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبوهم إلى صفوفهم، ويدخلوهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته ثم بجهوده الفكرية الرائعة.

٣١-كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة، ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، وقد سجل التاريخ أن نور الدين محمود ساد العدل في دولته وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم. ومن أبرز أعماله التجديدية إقامته للعدل، وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم تكن مطلقة ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادي الحق والعدل وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر.

٣٢-لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا ورفعها جميعها من بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم ومضوا يتاجرون وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام. يقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، وانقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، وتكسد أسواق العمران وتنتقض الأحوال ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم

وأعراضهم يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعاً.

٣٣- فهم نور الدين محمود أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر، فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع من ذلك بكثير. إنه بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع، ولذلك قدم العلماء على غيرهم في دولته وبذل لهم العطاء الجزيل، واتصل بالمشهورين من علماء الأمة وأتى بهم إلى بلاده، وجاهدوا معه ضد الصليبيين وقاموا بسفارات لدولته وتولوا مناصب رفيعة وأسهموا في تعليم وتربية الرعية.

٣٤- اهتم الملك العادل نور الدين محمود بالشورى فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة واستقرارها وأمنها، فقد كان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب السنية ورجال الإدارة والأمراء، يبحثون في أمور الإدارة والنوازل والميزانية، وكانت له مجالس شورى في القضايا العامة، وأخرى في القضايا المتخصصة، فقد مارس نور الدين زنكي الشورى على أسس صحيحة في دولته.

٣٥- إن من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد أن الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ومتفرغاً له طوال حياته دون غيره في المجالات، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذة في بناء قيادات إدارية تحسن تنفيذ الخطط المرسومة، فقد اعتمد نور الدين محمود في إدارة دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال الأكفاء، فكان يختارهم بعناية فائقة، وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن بعد ذلك يراقبهم ويشرف عليهم حتى يتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم.

٣٦- حرصت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها وممارساتها، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية، وإلى شخصية نور الدين. فقد كان نور الدين زنكي تقياً ورعاً، عدَّه بعض المؤرخين بأنه أفضل من جاء بعد عمر بن عبد العزيز من الحكّام، وكان يحافظ على صلاة الجماعة ويكثر من الصلاة من الليل عارفاً بمذهب أبي حنيفة ولكن دون تعصّب على أحد، فالمذاهب عنده سواء ولا تعدو كونها مدارس في الفقه، وكان ذا تأثير كبير على رجاله ومعاونيه وقادة الجيش وأصبح بعضهم يقترب من مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين، ومن أمثلة ذلك وزيره أبو

الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، ومن الطريف أن هذه القيادات كانت تتخير أسماءهم على نحو يوضح تعلقهم بالدين، فبينما البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمصام الدولة، أما قادة هذه الدولة وأعوانهم والعاملون معهم فيختارون عماد الدين، وسيف الدين، وأسد الدين ونجم الدين، وصلاح الدين، ونور الدين. وثمة ملاحظة أخرى أن تعلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين.

٣٧- تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن والعدل واحترام الحريات العامة، كحرية الرأي والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع، في الوقت الذي انتفت جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة، ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام ومنه إلى يومنا هذا فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وإنعام يسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف في بيت واحد.

٣٨- كانت خزائن دولة نور الدين تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدرة على الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي، وغيرها، فقد كانت مصادر دخل دولة نور الدين متعددة منها؛ نظام الإقطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية، والغنائم وفداء الأسرى والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، والأمانة الكبيرة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة، وأسهم استتباب الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية للدولة، ومساهمة الأثرياء، ودعم الخليفة العباسي، و... إلخ.

٣٩- سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لتغطية شتى الحاجات: ابتداءً من قضايا المسكن والملبس والمأكل وانتهاءً بقضايا الروح ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات والملاجيء

ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة، كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز لا أداة قسر واستنزاف.

٤٠- اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق، وقد كان المسجد -بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم- قاعدة مهمة في التربية والتعليم، ويروى العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت، فأناف على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعين له أوقافاً وأصلح أحوال المسجد الأموي والمساجد في دولته بالتعمير المادي والمعنوي.

٤١- اهتم نور الدين بمؤسسات المجتمع المدني، كالمدارس، والربط، والكتاتيب وأسهمت تلك المؤسسات في تحقيق أهداف الدولة الزنكية وساند تلك المؤسسات حركة الأوقاف الواسعة التي استخدمها نور الدين لضمان استمرارية وديمومة تلك المؤسسات.

٤٢- لم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة. وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها، فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم جميع المسلمين من عمال وفلاحين ومزارعين، من الكبار والصغار والرجال والنساء. وعملت على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما عمدت الخطة الحكيمة على تعرية المذاهب الهدامة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشعوبية، وأبانت عن خطرها وضررها على النفس والمجتمع والأمة وأنه لا خروج من المحنة والخلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة في صورتها الأولى التي كان عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيدات فلسفية ومجادلات كلامية لا

طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروجيها.

٤٣- بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الإسلام الصحيحة لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية ونافسن فيه كبار الحفاظ والمحدثين، وكنّ مثالاً رائعاً للأمانة والعدالة وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئات في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات والمحدثات والفقيهات والأديبات والنحويات إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى.

٤٤- شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك وتدريس الطب في كثير من المستشفيات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظليت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر.

٤٥- ازداد الإهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية حيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، وقد استخدم التاريخ في تقوية الجانب المعنوى لحركة المقاومة ضد الصليبيين، فقد وجد المتخصصون بهذا الفرع من العلوم في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو فى الكتابة في فضائل المدن وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، ويعد الحافظ علي بن الحسن المعروف بابن عساكر من أكبر مؤرخي العهد الزنكي وكذلك العماد الأصفهاني وابن الأثير وابن القلانسي.

٤٦- برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في مناصرته لحركة المقاومة وتوحيد الجبهة الإسلامية وطلب نور الدين من ابن عساكر أن يجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين على القتال، فسارع ابن عساكر إلى امتثال ما طلبه نور الدين وتم تعميم تلك الأحاديث على القادة والجنود، وقد

استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئة الأمة فكرياً ودينياً.

٤٧-من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين أسهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي، وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاً في عهد يحيى بن هبيرة، كما كان لعبد القادر الجيلاني جهود معتبرة في الدعوة الشعبية والإصلاح العام، فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين وخصوصاً في القطاع الشعبي العريض وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فقد استطاع التأثير في المجتمع بدعوته ومواعظه وتزكيته.

٤٨- استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث الغزالي وحول تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً يهدف إلى إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد توافر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات العملية ويقيم الطلبة المريدون.

٤٩- بيَّن الشيخ عبد القادر الجيلاني عقيدته بوضوح وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة، وكان يعرض العقيدة بأسلوب بليغ سهل العبارة.

٥٠- تنتسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي والمنظم القائم على جميع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقه واحدة إلا في عهد الشيخ عبدالقادر الجيلاني والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٥١- أكد الشيخ عبد القادر في وصاياه وتوجيهاته، على أهمية التمسك بالكتاب والسنة، والتركيز على الاهتمام بالجوانب العملية والابتعاد عن الأفكار والفلسفات السائدة في عصره، وتأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها.

٥٢- اعتمد الشيخ عبد القادر في حركته الإصلاحية التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة، واهتم بالإعداد الديني، والثقافي، والروحي، والاجتماعي، وركز على الوعظ وانتقد علماء السوء، والحكام الظلمة، وانتقد في وعظه ومجالسه الأخلاق الاجتماعية السلبية، ودعا إلى إنصاف الفقراء والعامة، وتصدى للتطرف الشيعي الرافضي وللتيارات الفكرية المنحرفة، وبذل جهداً في إصلاح التصوف وإعادته إلى مفهوم الزهد وتنقيته مما طرأ عليه، وقام بحركة واسعة للتنسيق بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ونجح إلى حد كبير. وعُقد أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني في موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الشيخ عبد القادر الجيلاني من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب في ذلك العصر، كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم. وفي نفس الوقت جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ أرسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام، ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره جمع كبير من الشيوخ يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار مهمة أسهمت في نهضة الأمة وتوسيع جبهة المقاومة ضد الصليبيين.

٥٣- تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية، وتدل الشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، وقد قامت المدرسة القادرية بدور مهم في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة، ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون باسم المقادسة، نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس، ويمكن القول إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمرين: الأول: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين. والثاني: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات

الإصلاح، ولابد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين، فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية، وهاجر بعض العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية إلى دولة نور الدين زنكي وشاركوا في الجهاد العسكري، وميادين السياسة، ومن أشهر هؤلاء زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الإنصاري الدمشقي الذي أصبح فيما بعد من رجال صلاح الدين وكبار مستشاريه.

٥٤-عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر ٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ، والمستنجد بالله ٥٥٥هـ - ٥٦٦هـ، والمستضيء بالله ٥٦٦-٥٧٥هـ وقد اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك جميع البقاع الإسلامية الأخرى، وقد ساعد على تمتع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين بن هبيرة، وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض. وقد أسهمت مؤسسة الخلافة في دعم نور الدين محمود وحركة المقاومة للغزو الصليبي دينياً، واقتصادياً، وسياسياً.. إلخ متوازيًا ذلك الدعم مع الضخ الكبير لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات جماهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها. وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض عديدة منها، روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوغى، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله أسهمت في تقوية المقاومة للصليبيين وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة، وتحقيق التوازن العسكري ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون، والعسكريون والعلماء الربانيون.

٥٥-كان نور الدين محمود منذ توليه الحكم في الثلاثين من عمره واضح الرؤية والهدف حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وعلى رأسها بيت المقدس وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطواتٍ متتابعة تقرب كل منها يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرّر إمارة الرها التي تشكل تدخلاً في

الأراضي الإسلامية، فتمكن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسسًا سياسة متكاملة تتضمن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً، وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية والنشاط الثقافي العلمي والتربوي الذي يخدم توحيد الصف والهدف.

٥٦- استطاعت دمشق بدعم من نور الدين وسيف الدين زنكي من صد هجوم الحملة الصليبية الثانية، وقد ترتب على فشل الحملة الصليبية الثانية مجموعة من النتائج منها: أججت الغرب الأوروبي تجاه الامبراطورية البيزنطية، وأثرت على طبيعة الوجود الصليبي، وأوضحت عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية عن تغيير واقع عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من هذه الساعة فصاعداً الإنجاز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة للقدوم للمنطقة.

٥٧- حرص نور الدين على ضم دمشق وكانت خطته للاستيلاء على دمشق سلمياً تقتضي العمل على ثلاثة محاور، فالمحور الأول؛ يتمثل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم وتعاملهم مع الأعداء.. والمحور الثاني: العمل على الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار والقضاة والعلماء وبعض قادة الجند وقادة التنظيمات الشعبية، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب. والمحور الثالث: أخذ نور الدين يراسل مجير الدين آبق ويستشيره في أمور المسلمين ويتقرب إليه بالهدايا حتى اطمأن إليه ووثق به، ثم أخذ يوقع بينه وبين قادته وأمرائه، ونجحت المحاور الثلاثة وتم في النهاية ضم دمشق لجبهة المقاومة الإسلامية، وشكل هذا العمل نقطة تحول مهمة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه ترتب على هذا التحول وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود.

٥٨- عمل نور الدين على ضم القوى الإسلامية وعلى إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية، فاستطاع ضم شيزر عام ٥٥٢هـ بعد الزلزال الذي أصابها، فجدد أسوارها ودخلت شيزر في دولة نور الدين، وضم بعلبك وانتزعها من الأسرة الجندلية

الدرزية، وضّم حران ومنبج وفتح قلعة جعبر والموصل وتصالح مع سلاجقة الروم وحقق إلى حد كبير هدفه الاستراتيجي الأول وهو وحدة الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة وأصبح القضاء على الفرنجة مسألة وقت فقط.

٥٩-دخل نور الدين في صراع مع مملكة بيت المقدس واستهدف تحقيق انتصارات في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري وبالمفاوضات أحياناً أخرى. وقد أدركت الدولة النورية أن تجييش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الاستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً ولتأمين حدود الدولة النورية، ولإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلاً إلى ما هو أبعد في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي وهو ما تحقق في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

٦٠-امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية في آن واحد وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي وحافظ على طاقاته وإنجازاته.

٦١- تلخصت سياسة نور الدين تجاه إمارة الرها في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعي أن ندرك أن دوره في هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إمارة أنطاكية مثلاً، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده.

٦٢- كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت ذروتها في حارم، ومع ذلك لم تسفر عن تغيير حاسم، وكأن الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية ما دامت الامبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقبَل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها.

٦٣-كانت سياسة نور الدين تجاه إمارة طرابلس تتمثل في الرغبة في السيطرة على

قلاعها وحصونها، ولم تحدث معارك كبرى في إمارة طرابلس كالتي حدثت في مواجهة أنطاكية، ومما تجدر الإشارة إليه، أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري معارك كبيرة مثل يغرى، وأنب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون مثل المنيطرة وانطرطوس، وغيرها، وكانت المعارك جميعها برية ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية خاصة إمارتي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا سلاحاً ممتداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونيه جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية والامبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه باءت بالفشل وأدى ذلك إلى عدم تملك الدولة النورية أية مواني.

٦٤- حرص نور الدين محمود على استمرار الصلات التجارية مع الدولة البيزنطية، فقد كانت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق وكانت الدولة النورية طرفاً مهمًا في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية.

٦٥- حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحييدها، وعزلها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام وفي الاتجاه الجنوبي صوب الدولة الفاطمية.

٦٦- تحالفت الدولة البيزنطية مع الصليبيين وبدأت حشودهم تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين محمود، فكتب إلى ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم ويبعثهم على الاستعداد التيقظ والتأهب للجهاد والاستعداد للنكاية بمَن يظفرون منهم، وبدأت رسل نور الدين تتردد على معسكر الامبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير مع استعداده في الوقت للحرب وتواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم، وكان على أهبة الاستعداد للجهاد.

٦٧- استهدف نور الدين العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده وحتى لا يجعل دولته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال. واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية واستطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفينًا بين التحالف البيزنطي والصليبي وهذا لم يأت بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية. فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين للروم

والسلاجقة ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين فإنه وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الامبراطور البيزنطي ضد السلاجقة وغيرها من الأمور، فقبل الامبراطور وانسحب الحلف الصليبي فأوقف الحملة وزال الخطر.

٦٨-من أهم الدروس والعبر والفوائد من سياسة نور الدين الخارجية، التفكير الاستراتيجي عند نور الدين، وأهمية صلاح أولي الأمر، وشن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج، واعتماد اللين والمرونة والخدعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة، واهتم نور الدين بالاستراتيجية العسكرية وتظهر ملامحها في النقاط التالية، التركيز على النوعية والفاعلية، وإعلان الجهاد والتعبئة العامة للأمة، والتدرج في مواجهة العدو، وإنهاك العدو واستنزاف قواته، وتطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية، كتحديد الهدف والعمل التعرضي والحشد، والمناورة، وحدة القيادة، وعنصر المفاجأة، والاستخبارات، والتقرب غير المباشر، والجاهزية القتالية.

٦٩-ركز نور الدين على الحرب النفسية وأحسن استخدامها فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة، أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأمراء والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحددة، هي: دين واحد وهو الإسلام السني، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجة من كل صوب، هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة. وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبث هذه المبادئ بين صفوف الأمة فيتألف من العلماء والعباد والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب تدور كلها حول مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقراءتها في المساجد والأسواق واللقاءات في مختلف المناسبات.

وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتزم قولاً وفعلاً بالمبادئ المذكورة، وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة.

٧٠- كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب ٥٤١هـ وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغيَّر الموقف العسكري

فأصبح راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفوق العسكري الإسلامي على الفرنجة واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين فقد حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثلت بشكل عام من ناحيتين: الأولى: إلحاق هزائم منكرة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة. الثانية: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعَّالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية المحتملة.

٧١- كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، وقد استخدم نور الدين الدبلوماسية والاختراق الأمني، والدعوة لمذهب أهل السنة، وتوجت جهوده بإرسال الحملات العسكرية مستفيداً من قانون الفرصة الذي أتيح له.

٧٢- تولى أسد الدين -ثم بعد وفاته صلاح الدين- منصب الوزارة عند الحاكم الفاطمي، واستطاع من خلال هذا المنصب أن يستميل قلوب الناس إليه، وبذل لهم من الأموال، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة واستطاع القضاء على مراكز القوة في الدولة.

٧٣- نفذ صلاح الدين تعليمات وتوجيهات نور الدين زنكي بمصر وكانت من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية، وقد استفاد صلاح الدين من القاضي الفاضل في إعداد خطة محكمة ومدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية، فعزل قضاة الشيعة، وألغى مجالس الدعوة، وأزال أصول المذهب الإسماعيلي وأبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر، وأمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة ٥٦٥هـ بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر عثمان وعلي، وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك، وولى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني، فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السُّنية وهو في الوقت نفسه يضيق الخناق على العاضد فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش فأخذ يحد من نفوذهم شيئاً

فشيئًا ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرق إقطاعاتهم عليهم، وانزوى العاضد في مخدعه فريسة للهم والمرض، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مواتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُّنة ومتصوفوها وسألهم الرأي والنصيحة، وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد وفي بداية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدرج ففي الجمعة الأولى من محرم ٥٦٧هـ حذف اسم العاضد من الخطبة وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله.

٧٤-كان نور الدين محمود يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً استراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فأتم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقائده الأمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة.

٧٥-استخدم صلاح الدين أساليب عديدة للقضاء على الوجود الشيعي الرافضي بمصر منها؛ إذلال الخليفة الفاطمي العاضد، وإزالة هيبة قصر الخلافة الفاطمي، قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الباطني به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، محو الرسوم الفاطمية وعملاتهم، التحفظ على أفراد البيت الفاطمي، إضعاف العاصمة الفاطمية، الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن ومصر.

٧٦- توفي نور الدين يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسة مئة ودفن بدمشق، وكان رحمة الله حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها. وقال الذهبي: قد أدركها على فراشه، وعلى ألسنة الناس نور الدين الشهيد، وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاد تلميذه الفذ صلاح الدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أسسه وأتمه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع

١- فن الصراع الإسلامي الصليبي - السياسة الخارجية للدولة النورية، د. محمد مؤنس أحمد عوض، عين للدراسات والبحوث الطبعة الأولى ١٩٩٨م مصر.

٢- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٣- البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٤- سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، أحلام حسن مصطفى النقيب، كلية الآداب جامعة بغداد رسالة الماجستير عام ١٩٨٨م.

٥- الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٦- الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية، محمد ضايع حسون الجبوري، كلية الآداب، جامعة بغداد عام ١٩٨٨م رسالة ماجستير.

٧- ذيل طبقة الحنابلة، لأبي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد بن رجب، صححه محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢م.

٨- نظام الوزارة في الدولة العباسية (العهدان البويهي والسلجوقي) د. محمد مسفر الزهراني، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٩- أخبار الدول المنقطعة للشيخ الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، أربد الأردن.

١٠- جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، د. محمد أحمد الجوير، مكتبة الرشد، الرياض الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١١- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري؛ دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٢- الإفصاح في معاني الصحاح، ليحيي بن هبيرة الوزير العباسي.

١٣- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٤- المنتظم لأبي الفرج عبد الرحمن علي بن محمد بن الجوزي دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

١٥- المصباح المضيء في خلافة المستضيء، للإمام العلاّمة أبي الفرج عبد الرحمن علي الجوزي البكري الصديقي البغدادي، تحقيق د. ناجية عبد الله إبراهيم، شركة المطبوعات، بيروت لبنان، طبعة أولى ٢٠٠٠م.

١٦- دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبد القادر أحمد أبو صيني، رسالة دكتوراه، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا.
١٧- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى ١٤٠٦/١٩٨٦م.
١٨- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٨م.
١٩- العلاقات بين الشرق والغرب، د. محمد مؤنس عوض، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الطبعة الأولى ١٩٩٩/ ٢٠٠٠م.
٢٠- سنا البرق الشامي، للفتح البنداري وهو اختصار للبرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة ١٩٧٩م.
٢١- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، حيدرآباد الدكن ١٩٥١م.
٢٢- زبدة حلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم ابن العديم، تحقيق سامي الدهان طبعة دمشق ١٩٥٤م.
٢٣- الرحلة لابن جبير، أبو الحسن محمد أحمد الكتاني الأندلسي، دار صادر، بيوت ١٩٦٤م.
٢٤- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، طبعة القاهرة ١٩٦٣م.
٢٥- دول الإسلام للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
٢٦- التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي، د. عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٧- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد سهيل طقّوش، دار النفائس، بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٩ - ١٩٩٩م.
٢٨- معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر ١٩٧٩م.
٢٩- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصّلاحية، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي تحقيق أحمد البيسومي؛ منشورات وزارة الثقافة بسوريا دمشق ١٩٩١م.
٣٠- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، د.محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣١- ذيل تاريخ دمشق، أبو يعلى حمزة ابن القلانسي، تحقيق أميدروز، طبعة بيروت ١٩٠٨م.
٣٢- تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان، ستيفن، نقله إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العريني، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٣٣- دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، د. آسيا سليمان نقلي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
٣٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة.

٣٥- رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود.. سيرة مؤمن صادق، د. حسين مؤنس، الدار السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧ السعودية.
٣٦- موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، جمال محمد سالم خليفة، الجماهيرية العظمى، مركز جهاد الليبيين للدراسات، طرابلس ٢٠٠٠م.
٣٧- الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط، نادية محمود مصطفى، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٣٨- الطريق إلى البيت المقدس، د. جمال عبدالهادي، د.وفاء محمد رفعت، دار التوزيع والنشر الإسلامية طبعة ثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٣٩- الكواكب الدرية في السيرة النورية، تقي الدين أحمد ابن قاضي شهبة، تحقيق: محمود زايد طبعة بيروت ١٩٧١م.
٤٠- الشرق الأوسط والحروب الصليبية، السيد الباز العريني، طبعة القاهرة ١٣١٧هـ.
٤١- الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحمد أبو زيد، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
٤٢- شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، د. محمد على الهرفي، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م مؤسسة الرسالة.
٤٣- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد النويري، تحقيق سعيد عاشور، طبعة القاهرة ١٩٨٠م.
٤٤- البستان الجامع، للعماد الأصفهاني، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية.
٤٥- من أجل فلسطين مواقف وعبر من التاريخ الإسلامي، حسين أدهم جرار، مؤسسة الزيتونة، عمّان الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٤٦- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبدالله السَّمهودي، دار المصطفى، طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ.
٤٧- التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مؤنس أحمد عوض، رسالة ماجستير، كلية الآداب عين شمس ١٩٨٤م.
٤٨- صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٩٧م.
٤٩- إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية لعام ١٩٨١م.
٥٠- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الحديث القاهرة.
٥١- الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لعبد الله بن يوسف الفاسي، تحقيق د. سليمان الرّفاعي، المدار الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى.
٥٢- الحروب الصليبية مواقف وتحديات، سهيلة الحسيني، الطبعة الأولى ١٢٤٣هـ/ ٢٠٠٣م دار

التوزيع والنشر الإسلامية؛ الطبعة الأولى.
٥٣- الحروب الصليبية، سهيل زكار.
٥٤- الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر طبعة القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
٥٥- الحروب الصليبية، د. قاسم عبده.
٥٦- حروب الخليج الثانية وأثرها على العالم الإسلامي، عبد القادر أحمد أبو صيني، رسالة ماجستير في الدراسات الدفاعية والاستراتيجية، إسلام أباد ١٩٩٢م.
٥٧- الدولة الفاطمية العبيدية، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار البيارق، عمّان الأردن ١٩٩٩م الطبعة الأولى.
٥٨- الفرق بين الفرق، تأليف عبد القاهر بن طاهر البغدادي تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - طبعة دار المعرفة بيروت.
٥٩- الملل والنحل، تأليف: محمد بن عبد الكريم الشهر ستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني - جمع: مصطفى البابي الحلبي بمصر (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).
٦٠- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٦١- تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للشيخ الطاهر الزاوي مفتي الديار الليبية.
٦٢- جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، د. إبراهيم التهامي.
٦٣- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود، طبع دار-مكتبة الحياة- بيروت.
٦٤- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تأليف ابن عذاري المراكشي: تحقيق ليفي بروفنسال.
٦٥- كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب.
٦٦- مدرسة الحديث بالقيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٦٧- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي - تحقيق بشير البكوش - طبع: دار الغرب الإسلامي (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
٦٨- أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده، المنتدى الإسلامي طبعة ١٤١١هـ.
٦٩- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تأليف عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ، تحقيق: إبراهيم سبوح - طبع مكتبة الخانجي بمصر - الطبعة الثانية.
٧٠- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: تأليف: محمد بن محمد مخلوف، طبع دار الكتاب العربي بيروت.
٧١- سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تأليف: محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

٧٢- دولة السلاجقة للصَّلاَّبي، مؤسسة اقرأ، القاهرة مصر، طبعة أولى عام ٢٠٠٦م.
٧٣- الخطط للمقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ «الخطط المقريزية»: بيروت دار صادر.
٧٤- نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، د. عبد الهادي محمد رضا محبوبة، الدار المصرية اللبنانية.
٧٥- طبقات الشافعية الكبرى، تأليف: تاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، طبع مطبعة عيسى البابي وشركاؤه.
٧٦- رجال الفكر والدعوة، لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.
٧٧- الغزالي بين مادحيه وناقديه، القرضاوي، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٧٨- الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، د. محمد الرحموني دار الطليعة - بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
٧٩- اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطمية والخلفا، تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، طبع: دار الفكر العربي (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م).
٨٠- الجهاد والتجديد في عهد نور الدين وصلاح الدين، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٨١- مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية.
٨٢- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، ابن شداد بهاء الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي القاهرة طبعة ١٩٩٤م.
٨٣- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تأليف جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال.
٨٤- تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٨٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.
٨٦- صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحياري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٨٧- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، د. محسن محمد حسين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٨٨- تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، د. محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية طبعة عام ١٩٩٨م.
٨٩- تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان.
٩٠- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د.ماجد عرسان، دار القلم، الإمارات العربية الطبعة الثالثة١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٩١- تاريخ اليمن الإسلامي، د. محمد عبده السروري، مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء الطبعة الثانية ٢٠٠٣م.
٩٢- جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول، د. فرست مرعي، صنعاء، ٢٠٠٣، الطبعة الثانية المنتدى الجامعي.
٩٣- نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، تأليف محمود فايز إبراهيم السرطاوي دار البشير، عمّان الأردن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ= ١٩٩٠م.
٩٤- دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، تأليف السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية طبعة سنة ١٩٩٩م.
٩٥- التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، عباس العزاوي، طبع ببغداد، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
٩٦- السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين أحمد المقريزي، تحقيق مصطفى زيادة.
٩٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت.
٩٨- عماد الدين زنكي، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٩٩- إمارة حلب، محمد ضامن.
١٠٠- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، سهيل زكّار.
١٠١- دخول الترك الغز إلى الشام، مصطفى شاكر.
١٠٢- بغية الطالب، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم.
١٠٣- الحركة الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م.
١٠٤- نور الدين والصليبيون، حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨م.
١٠٥- الحياة العلمية في العهد الزنكي، د. إبراهيم بن محمد المزيني، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
١٠٦- تاريخ دولة آل سلجوق لعماد الدين الأصفهاني.
١٠٧- العبر في خبر من غبر للذهبي أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق صلاح الدين المنجد.
١٠٨- الاعتبار لابن منقذ.
١٠٩- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأبي العباس أحمد القلقشندي، القاهرة.
١١٠- تاريخ المماليك البحرية، علي إبراهيم حسن.
١١١- دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين، رشيد عبد الله الجُميلي، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٧٠م.
١١٢- أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨١م.
١١٣- واقع التربية الإسلامية في عهد نور الدين في بلاد الشام، محمود عقلة الرفاعي، رسالة ماجستير جامعة اليرموك الأردن.

١١٤- تاريخ جزيرة ابن عمر منذ تأسيسها حتى الفتح العثماني، د. محمد يوسف غندور، دار الفكر اللبناني، بيروت لبنان.
١١٥- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، د. جودت الركابي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
١١٦- الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
١١٧- محاضرات عن الحروب الصليبية، صالح أحمد العلي.
١١٨- سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين.
١١٩- شعر الجهاد الصليبي، د. فؤاد حسين أبو الهيجاء، الطبعة الأولى ١٤٢٤ - ٢٠٠٤م.
١٢٠- الحروب الصليبية، العريني.
١٢١- نور الدين محمود الرجل والتجربة، د.عماد الدين خليل، دار القلم دمشق - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
١٢٢- الحركة السنوسية، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة - بيروت - لبنان.
١٢٣- فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، لبنان طبعة عام ٢٠٠٥م.
١٢٤- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان الطبعة الثانية ١٩٩٢م.
١٢٥- من أخلاق النصر في جيل الصحابة، الدكتور السيد محمد نوح، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
١٢٦- ديوان ابن منير الطرابلسي، جمعه وقدم له دكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية صيدا - بيروت.
١٢٧- مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة، د. أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا - بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٢٨- المستدرك على الصحيحين، للإمام أبي عبد الله النيسابوري بذيله التَّخليص للذَّهبي طبعة سنة ١٣٩٠هـ -١٩٧٠م، دار الفكر.
١٢٩- الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، اللواء الدكتور فيصل بن جعفر بن عبدالله بالي، مكتبة التوبة، الرياض طبعة أولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
١٣٠- تاريخ دمشق الكبير، للإمام الحافظ المؤرخ ثقة الدين أبو القاسم علي بن عساكر، دار إحياء التراث لبنان، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
١٣١- الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز، لأبي حفص عمر بن الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقي اليورنو، مؤسسة الرسالة،الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
١٣٢- الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ومعالم التجديد والإصلاح الراشدي على

منهاج النبوة، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار ابن كثير، طبعة أولى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
١٣٣- الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد الدمشقي، نشر وتحقيق جعفر الحسين - مطبعة الترقي ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.
١٣٤- الموطأ للإمام مالك بن أنس - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - طبع: دار إحياء الكتب العربية (القاهرة).
١٣٥- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - تأليف: الحافظ أبي نعيم الأصبهاني ت ٤٣٠هـ دار الفكر بيروت.
١٣٦- الجامع الصغير للسيوطي.
١٣٧- معوقات الجهاد في العصر الحاضر، د.عبد الله بن قريح العقلا، مكتبة الرشد، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م الرياض.
١٣٨- مختصر صحيح مسلم للمنذري.
١٣٩- دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس، دار جهينة، الأردن عمان الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
١٤٠- عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي، د. عدنان محمد الحارثي، مكتبة زهراء الشرق.
١٤١- المقدمة لابن خلدون.
١٤٢- الإسلام والوعي الحضاري، أكرم ضياء العمري، دار المنارة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٤٣- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.
١٤٤- الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، مرعي يوسف، دار الفرقان، دار الرسالة الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.
١٤٥- سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان – الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
١٤٦- مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، الدكتور عبد الله بن سعيد الغامدي ١٤٠٤هـ.
١٤٧- جيش مصر أيام صلاح الدين، نظير حسان سعداوي، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.
١٤٨- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة بيروت، لبنان.
١٤٩- القبة الخضراء ومحاولات سرقة الجسد الشريف، محمد علي قطب، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م الدار الثقافية القاهرة.

١٥٠-القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره في التخطيط في دولة صلاح الدين وفتوحاته، هادية دجاني شكيل.
١٥١-الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.
١٥٢-اقتصاديات الحرب في الإسلام، د. غازي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
١٥٣-عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، دار ابن كثير دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة.
١٥٤- سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، عبدالله جمعان السَّعدي، مكتبة المدارس، الدوحة قطر، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م.
١٥٥- الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان.
١٥٦- الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي، تحقيق الشوربجي.
١٥٧- مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق.
١٥٨- صناعة الحياة، محمد أحمد الراشد، دار البشير، مصر.
١٥٩- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي، نشر يوسف ابن إلياس سركيس، دمشق، دار الكتاب العربي.
١٦٠- نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل بن حسين الغزي المطبعة المارونية .
١٦١- أحياء حلب وأسواقها، خير الدين الأسدي، تحقيق وتقديم عبد الفتاح روّاس قلعة جي - دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨٤م.
١٦٢- تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، الطبعة الثانية، بيروت، دار الرائد العربي.
١٦٣- تاريخ التربية الإسلامية، أحمد شلبي، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
١٦٤- القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدمشقي ابن طولون، تحقيق محمد أحمد دهمان - دمشق، نشر مكتب الدراسات الإسلامية.
١٦٥- المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها، أبو عمر محمد بن أحمد المقدسي، د. محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
١٦٦- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد.
١٦٧- معيد النعم ومبيد النقم، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
١٦٨- تاريخنا المفترى عليه، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق.
١٦٩- من روائع حضارتنا، د. مصطفى السباعي.
١٧٠- لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد الأقصى، د. مجاهد بن مجد الدين بن صلاح الدين، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
١٧١- مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة، ابن الحاج أبو عبد الله بن محمد الفاسي المالكي، مطبعة الحلبي.

١٧٢- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي المالكي، تحقيق علي محمد البجاوي؛ القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه.
١٧٣- التربية والتعليم في الإسلام، محمد أسعد طلس بيروت، دار العلم للملايين.
١٧٤- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم لأبي إسحاق إبراهيم ابن جماعة، بيروت دار الكتب العلمية.
١٧٥- الجواهر المضّية في طبقات الحنفية، محيى الدين أبو محمد عبد القادر الحنفي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٧٨م.
١٧٦- أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي، تحقيق مصطفى السقا - الطبعة الرابعة - بيروت: دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
١٧٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - مطبعة البابي.
١٧٨- التاريخ والمؤرخون العرب، شاكر مصطفى، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م.
١٧٩- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم لكراتكوفسكي، القاهرة ١٩٦١م.
١٨٠- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، قدري طوقان، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار القلم ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.
١٨١- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد مصطفى طاش كبرى زادة، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١٨٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق: نزار رضا - بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٥هـ.
١٨٣- المختارات في الطب، أبو الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند ١٩٤٣م.
١٨٤- موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق، د. طلال بن سعود الدّعجاني.
١٨٥- صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان البستي.
١٨٦- ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الضليبيين، د. أحمد عبد الكريم حلواني، دار الفداء، دمشق سوريا.
١٨٧- سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي بن محر بن سنان بن دينار النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الفكر - بيروت ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م.
١٨٨- سنن سعيد بن منصور.
١٨٩- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان البستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.
١٩٠- التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري.

١٩١- الشيخ عبد القادر الجيلاني سعيد القحطاني، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
١٩٢- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، علي بن يوسف الشطنوفي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
١٩٣- فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للحرمين الشريفين.
١٩٤- الغنية لطالبي الحق، عبد القادر الجيلاني، دار الألباب دمشق.
١٩٥- مسائل الإمام أحمد لابن هاني، تحقيق الشاويش.
١٩٦- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ.
١٩٧- قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر للتادفي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٥ - ١٩٥٦م.
١٩٨- التعريفات للجرجاني، علي بن محمد الشريف، بيروت، مكتبة لبنان.
١٩٩- مدارج السالكين لابن القيم الجوزية.
٢٠٠- السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني.
٢٠١- نشأة القادرية، د. ماجد الكيلاني، رسالة مقدمة إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية بيروت لاتمام المطلوب للحصول على درجة أستاذ في الآداب.
٢٠٢- العراق بين احتلالين، عباس العزاوي، بغداد، ١٣٦٩ - ١٩٤٩م.
٢٠٣- روضات الجنان، للخوانساري محمد بن جعفر، تحقيق أسد الله إسماعيليان، طهران ١٣٩٢هـ.
٢٠٤- الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، الدكتور عبد الرّزاق الكيلاني.
٢٠٥- السنة النبوية في القرن السادس الهجري، د. محمود إبراهيم الديك، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
٢٠٦- جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف، د. محمد بن عزوز، دار الفكر، الطبعة الأولى جمادي الأولى ١٤٢٥هـ تموز (يوليو) ٢٠٠٤م.
٢٠٧- قضاة الشام المسمى «الثغر البسام فيمن وُلّيَ قضاء الشام»، تحقيق صلاح الدين المنجد، الطبعة الأولى، المجمع العلمي العربي دمشق (١٩٥٦م).
٢٠٨- تراجم النساء من تاريخ دمشق، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* * *

فهرس الكتاب

الفصل الثاني

عهد نور الدين زنكي وسياسته الخارجية

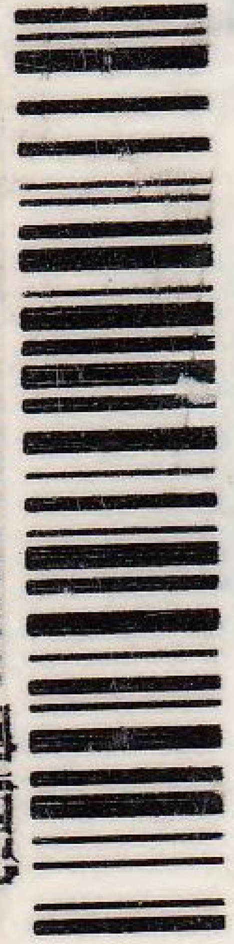
الفصل الثالث

سياسة نور الدين الخارجية

* * *

مؤلفات الدكتور علي محمد الصلابي

- السيرة النبوية
- أبي بكر الصديق رضي الله عنه
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي
- الدولة الأموية
- عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم
- الدولة الفاطمية
- عثمان بن عفان رضي الله عنه
- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة
- دولة المرابطين
- علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- حقيقة الخلاف بين الصحابة
- دولة الموحدين
- عبد الله بن الزبير
- فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه
- دولة السلاجقة
- عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
- الإمام الغزالي
- الدولة العثمانية
- محمد الفاتح
- الشيخ عبد القادر الجيلاني



www.iqraakotob.com
Email:info@iqraakotob.com



١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط ٥٣٢٦٦١٠ - ٠١٠/٥٢٢٤٢٠٧